

٢٤٣

المعروف في القرآن الكريم

تأليف

الحجة الشريفة السيد قاسم شبر

مجلد الأول

مؤسسة النشر الإسلامي

الطبعة بجامعة الميرزا حسين بن علي الميرزا

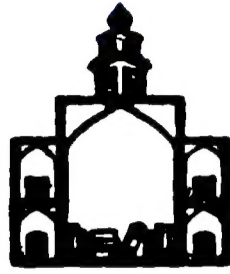
المؤمنون في القرآن

تأليف

الحجة الشَّهيد السَّيِّد قاسم شبر

لجنة الأفاق

مؤسسة النشر الإسلامي
الثَّابِتة بِجَمَاعَةِ الْمَدْرِيسِينَ بِمِيسَرَةِ



المؤمنون في القرآن (ج ١)

سماحة الحجة الشهيد السيد قاسم شبّر

المؤلف :

تفسير

الموضوع :

جزءان

عدد الاجزاء :

مؤسسة النشر الاسلامي

تحقيق ونشر :

الثانية

الطبعة :

٣٠٠٠ نسخة

المطبوع :

١٤١١ هـ.ق

التاريخ :

مؤسسة النشر الاسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على آلائه الوافرة وأنتم الصلاة وأزكاها على النعمة الظاهرة محمد المصطفى وعترته الطاهرة واللعنة على أعدائهم لعنة متواترة .

وبعد ، فقد حثت الشريعة الاسلامية معتنقيها والمنتهمجين سبيلها الى التفكر والتدبر في دستورها الأقدس - نعى القرآن الكريم - لتحقيق الغاية التي من أجلها انزل القرآن ، ألا وهي تربية الانسان وبناء شخصيته بناءً ربانياً نورانياً بعيداً عن الضلالة والفوضى ، وهذا مما لا يخفى على من له أدنى مسكة واطلاع في نصوص الشريعة - آيات وروايات - .

ومما يسهل على الانسان ويعينه على التدبر في قراءة القرآن الكريم كتب التفسير التي كتبها علماء الاسلام وكشفوا بها النقاب عن وجوه الآيات الحسان وأزالوا الأصداف عن درر محكمات الفرقان . ومن جملة هذه الأسفار ما كتبه سماحة الحجة الشهيد السعيد السيد قاسم شبّر - قدس الله روحه - تحت عنوان «المؤمنون في القرآن» بأسلوبٍ جزل وسليقةٍ رائعة يتييسر لكل طالب تناول فوائده فجزاه الله عن الاسلام وأهله أفضل الجزاء .

وقد اعتنت مؤسسةنا - وتخليداً لجهود السيد الشهيد وإحياء لآثاره - بطبع هذا الكتاب بعد تنقيحه واستخراج مصادره وجعله في متناول القراء الكرام ، راجين من الله أن يزيد في عوننا ، وياخذ بأيدينا لما فيه رضاه ، إنه نعم المولى ونعم المحيى .

مؤسسة النشر الاسلامي

التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة

نبذة من حياة الشهيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أسرته :

آل شبّر من أسر العراق العلوية العلمية ، يتصل نسبها بالامام زين العابدين عليه السلام ، ذكرها الباحثة جعفر آل محبوبة فقال : «آل شبّر أسرة عراقية قديمة وهي من أقدم الطوائف العلوية القديمة في العراق وأعرفها في العروبة وأقدمها في الهجرة ، كان مقرها الأصلي في الحملة الفيحاء ولم تزل بقيتهم بها حتى اليوم وبها عرفت ومنها تفرعت » (١) .

وذكرها النسابة الشهير الداودي في كتابه: «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، كما جاء ذكرها في : «بحر الأنساب ، ودوشي النجف ، وغيرها .

ولادته ونشأته :

ولد الشهيد السعيد السيد قاسم شبّر عام ١٣٠٨ هـ . ق في مدينة النجف الأشرف وكان الابن الثالث من أبناء السيد محمد شبّر (٢) . وفي التاسعة من عمره توفي والده ، وفي نفس تلك السنة سلك طريق أجداده الطاهرين وأصبح من طلبة العلوم الدينية .

(١) الاسر العلوية : للباحثة جعفر آل محبوبة .

(٢) خلف المرحوم السيد محمد شبّر أربعة من العلماء وهم : السيد علي والسيد ابراهيم والسيد المؤلف والسيد جعفر .

وفي جوار أمير المؤمنين عليه السلام وفي ظلال تلك الأجواء العرفانية ترعرع السيد الميرزا آية الله العظمى السيد أبو الحسن الأصفهاني وآية الله الميرزا النائيني - رضوان الله عليهما - وفي الأربعين من عمره انتقل إلى مدينة النعمانية بوكالة من السيد الأصفهاني عام ١٩٣٥م، ثم أصبح وكيلاً للسيد محسن الحكيم بعد وفاة الأصفهاني، وبمجرد أن وصل إليها شمر عن ساعديه وأخذ بلا كلل وملل يبلغ رسالات ربه لاتأخذه في هذا الطريق لومة لائم، متنقلاً من قرية إلى قرية حيث استطاع الغور في أعماق المجتمع المسلم انطلاقاً من مسؤوليته الشرعية، فكان حضوره قوياً فاعلاً حيثما حل، فكان لهذا الكدح المستمر أثراً بالغاً في تغيير المجتمع هناك نحو الإيمان والمفاهيم الإسلامية الأصيلة .

كان - رضي الله عنه - مثلاً للعالم العامل، يزور مرضى مدينته ويساعد المحتاجين ويجيب على أسئلة المؤمنين. وكان مدرسة بما للكامة من معنى بأخلاقه وتواضعه ومحبة للجميع، كان أباً رحيماً عطوفاً على صغيرهم وأخاً وصولاً لكبيرهم حتى لقبته مدينته بـ «أب النعمانية».

سيرته اليومية في مدينته :

كان شهيدنا الغالي يستيقظ قبل الفجر بأكثر من ساعة يصلي صلاة الليل وصلاة الليالي الواردة، وبعد صلاة الصبح يعقب بقراءة القرآن والدعاء والاستغفار والتسبيح إلى طلوع الشمس فيقوم ليفتح غرفة الاستقبال «الديوان» ثم يعود إلى مكتبته لينهل من علوم القرآن والسنة الشريفة وعلوم آل البيت الأطهار عليهم السلام ليفيض بها على جموع المؤمنين، وما بين فترة وأخرى يذهب إلى «الديوان» ليجيب على الأسئلة ويصالح بين المتخاصمين ويحل المنازعات. وهكذا يستمر في الحضور إلى صلاتي الظهر والعصر حيث يصليهما في المسجد الجامع، ويجلس بعد أدائهما أيضاً

لقضاء حوائج المؤمنين، ثم يعود بعد ذلك الى البيت لتناول الغداء وأخذ قسطاً من الاستراحة، وفي الثالثة عصراً يفتح باب الديوان ويجلس فيه مرحباً بضيوفه فيحدث معهم أحاديثه الاسلامية الشيقة وخصوصاً مع الشباب الرسالي الذين يلتقون به يومياً لينهلوا من نيره الصافي ويتسلحوا من وعيه الاسلامي الأصيل. وهكذا بعد أداء صلاتي المغرب والعشاء الى فترة متأخرة من الليل .

نشاطات اخرى :

١- يذهب سيدنا الشهيد كل ليلة جمعة الى كر بلاء لزيارة سيد الشهداء الحسين عليه السلام حيث كانت له علاقة شديدة ومحبة فريدة في قلبه ، بحيث وجد مع كفن الشهيد كيساً كتب عليه : هذه المناديل تنشر على صدري وكتفي في القبر لأنني جففت بها الدموع التي جرت على الامام الحسين عليه السلام .

٢- كان لسيدنا الشهيد - رضي الله عنه - إشراف على المواكب الحسينية بواسطة بعض الشباب المؤمن الملتزم، فكان - رضوان الله تعالى عليه - يكتب لهم الكلمات ليلقوها على مواكبهم .

٣- كان سيدنا الشهيد - قدس سره - يتابع الأخبار المحلية والعالمية باستمرار ويطالع جريدتين كل يوم بالاضافة الى بعض المجلات الاسبوعية الشهرية إيماناً منه بأن العالم الاسلامي ينبغي له أن يتابع أحداث العصر ويكون مجسداً لقول المعصوم عليه السلام : العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس .

مؤلفاته :

كان لسيدنا الشهيد - رضي الله عنه - عدة مؤلفات مخطوطة و لكنها صودرت أثناء الغزو الهمجى الذي قام به أتباع عفلق الصليبي على دار السيد وعلى مكتبته إذ أحرقوا الكتب النفيسة و سرقوا ما وجد فيها من مخطوطات له و لغيره من علماء الاسرة .

و لم يخرج من كتبه الى الطبع إلا كتابه هذا : « المؤمنون في القرآن » الذي كانت بداياته دروساً في الآيات الشريفة المبيّنة لصفات المؤمنين والتي كانت يلقيها على شباب مدينة النعمانية . ضمّتها في سبعة أجزاء طبع منها ثلاثة أجزاء وسرق العفالة المجرمون الأجزاء الأربعة الأخرى في هجومهم المذكور .

و بذل المؤلف الكثير من الجهد لتحصيل موافقة الحكومة العفلقية على طبع الكتاب ، فعندما قدّم الجزء الثالث للرقابة أمرت وزارة الاعلام العفلقية بسحب كتابه من الأسواق ، وبعد محاولات متواصلة وافقت الوزارة المذكورة على طبعه بشرط حذف الكثير من مواده التي تهاجم اليهود والنصارى والأحزاب الفاسدة والحكّام الظلمة . و قد أطلقت الوزارة العفلقية سراح الكتّابين بعد أن حذفت بعض الجمل من الجزء الثاني .

ومن جملة هذه المحاولات ما حصل مع وزير الاعلام العفلقى آنذاك وهو حامد علوان الجبوري حيث أرسل له السيد المؤلف برقية حول طبع كتابه : « المؤمنون في القرآن » فتجاهلها الوزير المذكور ، فأرسل برقية أخرى جاء فيها : « لقد أرسلت لك برقية حول كتابي : المؤمنون في القرآن الذي حجز دون مبرر بعد أن وافقت وزارتك على طبعه ، و لكنك تكبّرت عن الاجابة ، فإن كان تكبّرك بعشيرتك فعشيرتي أشرف وأفضل من عشيرتك أنا من أبناء رسول الله ، وإن كان تكبّرك بالوزارة فإنها والله ثوب عارية سوف يؤخذ منك يوماً ما ، وما أطلبه إما أن تطلقوا كتابي أو تدفعوا اليّ ما صرفته في طريق طبعه لأطبعه في دولة أخرى . فإن امتنعت عن هذا وذاك لأسهرن ليلي واصوم من نهاري حتى يحكم الله بيني وبينك .

منهجه في التفسير :

كان منهجه في التفسير هو ذكر آراء بعض المفسرين من الفريقين حول بعض

الآيات ثم يقوم بعد ذلك بتفسيرها بنفسه ، و كثيراً ما كان يردّ على آراء بعضهم ويفندها .

مواقفه من الحكام الظلمة وأعدائهم :

عرف سيدنا الشهيد أنه منذ أن حطّت رجله أرض النعمانية لم يسجل له التاريخ أنه خاف أو تراجع عن مقارعة الظالمين والكافرين والملحدين والمنحرفين من أيتام الاستعمار الغربي وأيتام الاستعمار الشيوعي والصليبيين أصحاب الأفكار القومية التي صنعتهم جامعات السوربون وبريطانيا وأمريكا ومن لف لفهم .

لقد تسلّح هذا الرجل العظيم أبان المدّ الشيوعي في سنة ١٩٥٩ و حمل السلاح بوجههم واضعاً إياه تحت رأسه ، وكان يجهر على المنبر بفضحهم وكفرهم وصنع الشبيبة المؤمنة الواعية التي حاولوا أن يجروها الى الانحراف والالحاد، وحاولوا أن يغزوا بيته وشككوا في خطواته ولكنّه كان متمسكاً بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، فذهبت حربهم ودعاياتهم وأساليبهم الشيطانية أدراج الرياح .

فكان - رحمه الله - يذهب الى القرى والأرياف لينبّه الناس من غشّ الملحدين وطرفهم .

١- أيام عبدالكريم قاسم :

كان - قدس سره - أيام عبدالكريم قاسم وطغيان الشيوعيين يعري الشيوعية أيما تعرية ، فعندما زاره الشيوعي «ماجد محمد أمين» المدعي العام لمحكمة الشعب كان مع ماجد أكثر من مائتين من رؤساء الدوائر ومن شيوعي المنطقة، وكان ماجد في تلك الأيام أحد الأقطاب الكبار في الدولة ، فكان السيد - رحمه الله - يوجه انتقاداً شديداً للهجة للحكومة القاسمية التي أطلقت العنان للشيوعيين الأفذاذ، ثم بدأ يعدد جرائم الشيوعيين وماجد محمد أمين أحد أقطابهم آنذاك ، حيث جاء هذا الأخير يطلب من السيد عدم التعرض للسلطة قائلاً حول هذا الموضوع: إن الزمان

تطور وإن المرأة يجب أن تساوي الرجل في الحقوق كلها ومنها المواريث ، فأجابه السيد بكلام المؤمن الناطق عن الله قائلاً : إن عمل عبد الكريم قاسم هو بداية التفرع ، فعند ما قال فرعون : «أنا ربكم الأعلى» أغرقه الله تعالى ، والآن يحاول عبد الكريم قاسم أن يقول أنا ربكم الأعلى بمخالفة القرآن الكريم .

وأضاف : أبلغ لي رئيسك - ويقصد عبد الكريم قاسم - لو كان الأمر كما تقولون لجاء في الذكر الحكيم : (للرجل مثل حظ الانثيين الى زمن عبد الكريم) فكان ماجد يعتذر مرغماً كالثعلب ، أما الشيوعيون الفيون جاؤوا معه فكانوا باهتين لما يتحدث به السيد وكيف يتحدث شخص ما جده ورئيسه ! !

وهكذا بجهود العلماء ومواقفهم الباسلة وفتاواهم وتنبيههم الشعب العراقي وقى الله شعبنا المد الأحمر الملحد .

٢ - أيام البعثيين :

أ - إن الاستعمار البغيض بعد أن أتى بالشيوعية الملحدة وعملت ما عملت من جرائم وفساد جاء بثوب جديد تحت غطاء الحرية والوطنية و عدم محاربة الدين والاستقلال ، ولكن كما نعلم أن الاستعمار هو عدونا من أي مكان انطلق وفي أي أرض نزل ، فجاءت طغمة عفلق الماسوني ربيب الصهيونية والاستعمار وعدو الاسلام جاءت الى الحكم بتخطيط السفارات و إشراف قوى الاستكبار العالمية والتبشير المسيحي ، جاءت لتخلق قابلية خاصة عند المسلمين في التقارب مع الغرب وتدجينهم على عدم رفضه والخضوع له ، جاءت هذه الزمرة الفاسدة لتعيد مأساة الشيوعيين في العراق بل تزيدها أضعافاً مضاعفة .

فبدأت زمرة عفلق بتدمير الحوزات العلمية بأفكار التقاطية وتفضيل القومية على الدين واتهام المؤمنين وزجتهم في المعتقلات الرهيبة وإعدامهم وتشريدتهم ، بدأت هذه الحرب تدريجياً وتدخلت السلطة في كل شيء وفي الشعائر الدينية والمواكب الحسينية ، لكن الشعب وقف بوجه هذا الطغيان والاعتداء وأعطى الشهداء والقرايين

على مذبح إعزاز الاسلام و شعائره و تنازم الوضع شيئاً فشيئاً حتى وضعت السلطة الجواسيس والعيون على كل مدرسة دينية وعلى كل مسجد وحسينية وعلى بيوت العلماء ، وأعلن صدام الكافر بأن حزبه ليس حزباً دينياً ، أي بعبارة اخرى أنهم أوضحوأ علمانيتهم و عدم اعترافهم بالدين إلا بما ينسجم مع أهوائهم وما يستعمل منه لغرض تحقيق غاياتهم .

ثم إنه بناءً على مخططاتهم العدوانية و كما قالها عفلق في أحد أدياته سنة ١٩٥٤ م : لا ينجح حزب البعث في العراق إلا بإجراء تغيير في نسبة الشيعة وهم الكثرة الكاثرة من المسلمين في العراق ، وبدأ هذا المخطط الرهيب ينفذ في السبعينات . وقد تصدى السيد - قدس سره - لهذه العماية لأنه أدرك خطرها وقال في ديوانه لمدير الأمن و محافظ الكوت : إني والله أتألم في هذا الزمان على طائفتين : على الفلسطينيين الذين يهجرهم اليهود وعلى المسلمين في العراق الذين يهجرهم النظام الحجاج واهية يراد منها تثبيت قدم الكافر . فرد عليه المحافظ : يا سماحة السيد : إن الفلسطينيين يخرجون من بلدهم و هؤلاء ايرانيون ليس لهم بلد وهذا ليس وطنهم . فقال السيد : قل لمسؤوليك : ومتى كان عفلق عراقياً بل حتى اسمه تربة العراق تستنكف منه .

ب- زاره محمد محجوب - الوزير البعثي المعدوم - مع مجموعة من مسؤولي الحزب و الأمن في بغداد و محافظة واسط و أهدوا اليه مجموعة من كتب البعث كان من ضمنها كتاب «في ذكرى الرسول العربي» لميشيل عفلق و كانت المناسبة ذكرى مولد النبي ﷺ فأمر السيد ، خادمه أمام أعينهم أن يضع هذه الكتب في موقد القهوة وأن يحرقها ، فخاف الخادم فقام السيد بنفسه وأحرقها أمام أعينهم واصفرت وجوههم وخرجوا مذعورين غير مصدقين .

و قال مسؤول الحزب الخبيث مكّي نصيف الجمجى و أنا هو خائف : نك البار ، فقال السيد : أي بار هذا الذي تتحدث عنه ؟ أهو بار الخمر الذي فتحتموه

في نادي النعمانية لتفسدوا أبناءها .

ج - خاطب السيد - رحمه الله - قائم مقام مدينته معلّقاً على حوادث الاعتقالات التي يقوم بها الحزب بقوله : هل أنت موظف عند حكومة أو عند عصاة ؟ فأعمال حكومتك لا تختلف عن أعمال العصابات ، الحكومات تحاكم مواطنيها علناً وحكومتكم كالعصابات تعتقلهم ليلاً وتحاكمهم سراً وتشبعهم تعذيباً وقهراً .

د - حاول البعثيون وتنفيذاً لمخططهم في إفساد الشباب أن يجعلوا من بيع وشرب الخمر ظاهرة عادية وطبيعية لا يستنكرها أحد ، ففتحوا في نادي النعمانية التابع للموظفين باراً لبيع الخمر بعد أن كان بيع الخمر يتم بطريقة سرية وكان بمقدور كل المدمنين الحصول عليه من مصادره في الكوت وغيرها من المدن التي يباع فيها الخمر علناً ، و لكن لأجل تحدي مشاعر المسلمين فتحوا البار ، فلمّا علم المرحوم بذلك أخرج مظاهرة حاشدة بقيادته ، ممّا اضطرت الحكومة الباغية الى غلق جميع البارات في البلدة وتلقين البعثيين درساً بليغاً .

هـ - نصبت السلطة البعثية قائم مقاماً جديداً لمدينة النعمانية ، وكانت عائلة هذا القائم مقام متبرجة متهتكة ولم تألف النعمانية التبرج في يوم من الأيام لطبيعتها الاسلامية المحافظة ، وكانت بنات القائم مقام يذهبن الى المدرسة في كل يوم مختبرات المدينة من أقصاها الآن بيت القائم مقام في الطرف الشرقي والمدرسة في طرفها الغربي ، وأثار هذا الموضوع استياء الناس وغضبهم ، وكان السيد الشهيد - رضوان الله تعالى عليه - يراقب الوضع ويفكر بوضع علاج حاسم له منتظراً الوقت المناسب ، وحانت الفرصة وجاء الوقت المناسب .

فلمّا زار القائم مقام السيد - رحمه الله - للتعرف عليه استقبله السيد بفتور شديد ، ولمّا حان وقت ارتقائه المنبر بدأ حديثه عن الحجاب وأهميته لحفظ المجتمع ثم أشار بيده الى القائم مقام - وكان هذا جالساً الى جنب المنبر بفاصلة قليلة جداً - وقال : إنني أعجب من هذا المسؤول الذي من المفروض أن يعلم الناس

الأخلاق والشرف أراه وقد جاء بيناته سافرات متبرجات ليفسدن الشباب . وما كان من القائم مقام إلا أن طلب من مسؤوليه أن ينقلوه من مدينة النعمانية وفعلاً تم نقله بعد أيام قليلة .

وعندما أصدر كتابه «المؤمنون في القرآن» كان يؤكد على هذه الآية الشريفة «ومن يتولهم منكم فإنه منهم . . .» ويقول مبيناً معناها : كيف أن تولية النصارى واليهود من قبل المسلم تخرجه من إسلامه وتجعله تابعاً الى هؤلاء الذين وبخهم الله ؟

وكان يؤكد دائماً على المنبر قائلاً : «آه، أيها المسلمون، إن المسيحيين هم خدم اليهود وأنتم أصبحتم خدم الى المسيحيين ، واذلاء ، ما نزل بكم».

وكان دائماً يكرر في خطابات الجمعة دعوته في التخلص من الحكم العقلي والوقوف بوجهه الذي يريد أن يسلخ هوية الشعب الاسلامية ، وكان ذلك يجري بحضور العيون والجواسيس وكاميراتهم ومسجلاتهم بلا مبالاة . وكان - رضوان الله عليه - يقول عندما يخبرونه بذلك : نحن لانخاف منهم لأننا مع الله .

ز- كثيراً ما كان يعظ الناس ويرشدهم بعد ذكر قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لاتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . .» ويقول : إن الحزب الذي يتزعمه نصراني من أم يهودية ليس حزباً إسلامياً ولا عراقياً ، ومن يقوله منكم فهو يهودي أو نصراني ، فحزب البعث يا أولادي يتناقض كلياً مع الاسلام ، فالمسلم يقتدي بمحمد ﷺ والبعثي يقتدي بعفلق والعيسى والياس فرح ومنيف الرزاز.

وكان يقول عندما يتلو قوله تعالى «يوم ندعو كل اناس بإمامهم» : سيدعي يوم القيامة بالبعثيين والشيوعيين فيقال : يا جماعة عفلق احضروا للحساب ويا جماعة لينين وستالين احضروا للحساب ويا جماعة محمد ﷺ احضروا للحساب ، فكونوا أيها الناس من جماعة محمد ولا تكونوا من جماعة الكفرة الفجرة .

علاقة السيد الشهيد بالشباب المؤمن :

كان للسيد - رضي الله عنه - علاقة أبوية وطيدة مع الشباب المؤمن ، فكان يرعاهم ويحرص عليهم لأنهم في نظره مادة الاسلام الحقيقية ، الأمر الذي جعله يرد بعنف على من أشار إليه في قصة اعتقاله بأن لا يتأثر وينساق وراء قناعات الشباب الجالسين حوله .

وكان السيد لا يتحرك بأمر مهم إلا وللشباب فيه نصيب إيماناً منه بأنه لا بد وأن يربهم على المشاركة وتحمل المسؤولية ، فعندما ذهب لبائع الشهيد الصدر - قدس سره - كان الشباب في طليعة موكبه المقدس ، وعندما يفكر بإقامة حفل أو إدارة موكب حسيني يوحى الى بعض منهم بإلقاء الكلمات والتصدي لإدارة امور الموكب وتوجيه الناس . ولهذا كانت وسائل أمن صدام تخشى كثيراً أن ذلك لأنه كان - رضوان الله عليه - يدفع الشباب ويشار بهم في جميع الأعمال وكأنه واحد منهم وهو قد قارب التسعين .

أرسلوا إليه أن يتخلى عن الشباب بحجة أنهم قد يسببون له مشاكل هو في غنى عنها ، فقال : إنني لن اتخلى عن هؤلاء ، إنهم مادة الاسلام وبهم نخدم قضيتنا وندافع عن ديننا وهم طاقة عظيمة لا توجد لدى الشيوخ .

وإذا تمعنا كثيراً في نظر السيد العميق الى الشباب وجدناه مدرسة تريد أن تستمر في البناء وتعتمد على المقومات الحقيقية فيه ، فها هو رده لمن أشار إليه بأن يطرد ما أسموهم بـ «الزعايط» وإلا فسوف يقاطعون مجلسه ، فقال بالحرف الواحد : إن هؤلاء الشباب قدموا للإسلام خدمة لم تقدموها أنتم منذ أربعين سنة وما أنا بطاردهم ، وإذا لا يعجبكم ذلك فأنا في غنى عنكم فلا تأتوا .

هذا إضافة الى أنه - رحمه الله - أشرف على تربية طلاب المدارس بواسطة المعلمين والمدرسين الذي حضنهم ثقافياً .

علاقة الشهيد شبر بالشهيد الصدر :

علاقة سيدنا الشهيد بالامام الشهيد الصدر علاقة قديمة ومتينة تمتد الى زمان آية الله العظمى السيد محسن الحكيم ، وتطورت العلاقات أكثر فأكثر بمرور السنين فقام سيدنا بزيارة الشهيد الصدر عدة مرات في بيته ، وقام الشهيد الصدر بزيارة السيد قاسم شبر أثناء وجوده في مدينة النجف عدة مرات ، وكان أغلب أحاديثهما حول جرائم النظام البعثي باعتقال العلماء والمؤمنين وحملات التسفير والتعريض للمواكب الحسينية وغيرها من المواضع .

ويامكانك أن تلاحظ العلاقة الحميمة بين الشهيد بن السعيد بن من خلال الكلمات المتبادلة بينهما أثناء مواكب البيعة للشهيد الصدر ، وكان مواكب أبناء النعمانية في طليعة تلك المواكب ، وكان السيد قاسم شبر يتصدر المواكب الذي قطع شوارع النجف مردداً :

يا إمام الدين يا قائدنا	يا فقيه العصر يا سيدنا
نحن جئنا لنجدد عهدنا	سيدي نفديك روحاً ودما

ودخل مواكب المؤمنين دار السيد الشهيد الصدر مبايعاً وهو يهتف :

سيدي هذي جموع المؤمنين، سيدي قد عاهدتك وعلى طول السنين ، سيدي جئناك زحفاً حامدين صابرين، أنت نبراس الوجود في الحياة وسنبقى مخلصين .
وغیرها من الهتافات .

وتقدم ابن التسعين - عمار العصر - وهو الشيخ الكبير والفقيه العالم بكل تواضع وإخلاص ، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون ، تقدم يبابع الشهيد الصدر بقوله بالحرف الواحد : لقد جاء وفدنا ليجدد العهد بكم ويرجوكم البقاء هاهنا وهم مطيعون لكم ولجميع أو امركم بأنتمرون بها وينتهون عما نهيتهم عنه ،

وأنتم القائد الأكبر وإن شاء الله يمثلون جميعاً ما تأمرون به ، وهم يرجونكم البقاء في العراق غير هذا لا يرجون ، وهذه الزيارة جاءت من أجل إبلاغكم بهذا الأمر .

وبعد انتهاء كلمة السيد أجاب الامام الشهيد بقوله : إنه ليسعدني أن أعتبر عن شعوري تجاه عواطفكم وتجاه عواطف الاخوان والأحبة والمؤمنين . وهذا ليس غريباً عنكم هذه العواطف وهذه المشاعر ، فأنت من قادة الاسلام وفي علماء الاسلام ومن المنارات التي نعتز بعلمهم وبمؤلفاتهم وبفضلهم وبجهادهم ، ونسأل الله أن يحفظك ياسيدنا سنداً وذخراً لي والاسلام وللنجف وللطائفة بجاء محمد وآله الطيبين الطاهرين .

ثم يلتفت الامام الشهيد الى الشباب مخاطباً :

أما الأبناء والأعزاء فأنا اعتبر لهم كما يعتبر الأب بالنسبة الى أبنائه ، اعتبر لهم عن شكري واعتزازي وأقول لهم إني إن شاء الله لا افارقهم وأكون معهم في مساوىء الدهر ومحاسنه ، وأسأل الله أن يرعاهم ويجمعنا معهم على التقوى والطاعة والرضوان وخدمة الدين الحنيف إن شاء الله تعالى .

ويلتفت اليهم الشهيد السيد قاسم شبر قائلاً :

وأنا أرجو منهم أن يكونوا مؤمنين كما وصفهم الله ، حبب إليهم الايمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، اذا صاروا بهذه الصفة سوف ننتفع منهم انتفاعاً كثيراً إن شاء الله والاسلام ينتفع بهم .

فخاطبه الشهيد الصدر بقوله : بهمة مساعيكم وتوجيهاتكم .

علاقة الشهيد بالثورة الاسلامية :

عندما قامت الثورة الاسلامية المباركة بقيادة وارث الأئمة الامام الخميني -قدس الله نفسه الزكية- كاد السيد أن يطير فرحاً ، ووظف نفسه في سبيلها وأخذ يلقي المحاضرات في المدن والقرى والأرياف وفي الصحن الحسيني الشريف

للتعريف بالثورة الاسلامية وقائدها العظيم ووجوب مساندتها من قبل المسلمين والبيعة لقائدها .

وأرسل سماحته برقية الى الامام الخميني -رضوان الله عليه- بايعه فيها وهتأء بالثورة قائلاً : إئننى جندى عندكم . والكل يعلم كيف أنه بعد أن حمى الوطن بين الشعب العراقي المسلم المؤيد للثورة الاسلامية في ايران وبين الحكومة البعثية الكافرة ، كيف أن السيد استمر "بمحاضراته التي تشرح مبادئ واسس الثورة الاسلامية المباركة .

و أرسل السيد برقية اخرى باسمه وباسم مدينته بمناسبة التصويت لصالح الجمهورية الاسلامية في ايران ولكن عصابة البعث رفضت ارسالها ، فطلب من أحد معارفه في دولة الكويت أن يرسلها منها فاعتذرت الامارة بحجة عدم وجود صاحب البرقية في أراضيها^(١) .

ومما جاء في برقية مسجلة على شريط تسجيل بصوت الشهيد للامام الخميني -قدس الله روحه الطاهرة- قال :

كان الابتداء بكم والاكمال بظهور المنتظر إن شاء الله ، وإني وأهل منطقتي وسائر المسلمين نهنئكم بطرد الشيطان الرجيم والتغلب على مردته ، ونهنئكم ثانياً بانتخاب الامة الجمهورية الاسلامية .

و في إحدى المقابلات التي جرت مع الشهيد من قبل المؤمنين أجاب السيد على السؤال الذي وجه اليه وهو :

ما هو شعورك بانتصار الثورة الاسلامية وقرار الشاه ؟

قال - رحمه الله - : يجب عليّ وعلى كل مسلم أن نقول كما قال الله تعالى : «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» وهذا من فضل الله علينا حيث

(١) كما حصل بالضبط لبرقية الشهيد السيد قاسم شبر التي أراد إرسالها الى السادات المقيور بعد زيارته لفلسطين المحتلة .

أهلك الله هذا الطاغية وأراح المسلمين منه ، فإنه قد أفسد عليهم دينهم و عزهم ، وغمرهم بالفسق والفجور من رجال ونساء ، وسلط عليهم الأشرار ، فأهلكه الله وأهلك أهله وأتباعه .

وبيّن -رضوان الله عليه- موقفه من الثورة الاسلامية صريحاً في خطبة له قبل يوم واحد من اعتقاله قائلاً فيها :أيها المسلمون اعلموا أن كل حكومة لا تؤيد الثورة الاسلامية في ايران هي ترتبط بشكل أو بآخر مع إسرائيل ،وعليكم الحيطة والحذر والجهاد من أجل دولة الأنبياء .

ايمان السيد الشهيد بولاية الفقيه :

١- أجاب السيد على سؤال وجهه حول مهمة عالم الدين بالقول :
مهمة عالم الدين هي تطبيق أحكام الدين في جميع أبوابه من العبادات والمعاملات والقضاء والحدود والقصاص واستعمال العدل في جميع هذه الامور ،فاذا كان كذلك يجب على المسلمين مساعدته والأخذ بيده وتنفيذ أوامره حتى يتم أمر الدين في جميع نواحيه .

٢- في زمن البعث الأسود اشترطوا على من يريد إقامة حفلاً أن يستحصل إجازة من إدارة المنطقة بعد أن يوقع لهم على تعهد خطي بأن الخطابات التي سوف تلقى في هذا الاحتفال لن تمس سياسة الدولة من قريب أو بعيد .

وكان السيد الشهيد-رضوان الله عليه- بصدد إقامة حفلاً بمناسبة من المناسبات الاسلامية ، فجاء اليه أحد أصحابه وكأنه قدم للسيد خدمة قائلاً : لقد حصلت على إجازة لاقامة الاحتفال من القائم مقام ، فما كان من السيد إلا وأن نهر به وقال له : ومن قال لك أن تحصل عليها ، ومن هو القائم مقام الذي يجيز أو لا يجيز إقامة احتفالاً لنا ؟ أنا الحاكم الشرعي ، أنا الذي اوافق أو لا اوافق .

موقفه من القضية الفلسطينية :

كان -رحمه الله- يقيم الاحتفالات والمهرجانات من أجل جمع التبرعات

للقضية الفلسطينية ، وكان يدعو للمجاهد وكان يقول : أنا أتعجب اذا كنا مسلمين كيف ينتصر علينا اليهود وقد غلّ الله أيديهم على لسانه تعالى في كتابه الكريم. وكان يقول : أنا أتعجب كثيراً من الشعارات الفلسطينية واعتقد أنها غير مجدة في الجهاد ، إن فلسطين لا تحرر إلا بالاسلام ، أما كيف تنتصر على إسرائيل وفيقيادة مثل اليهود؟ أما تعلمون جورج حبش، هل ينتصر شعبنا المسلم في فلسطين على أعدائه بأمثال هذه القيادات . اناذي الشعب الفلسطيني بالاعتماد على الله والنفس وترويح الاسلام وسينتصرون بحول الله تعالى .

قصة اعتقاله - رضوان الله عليه - :

في يوم الجمعة ١٥ / ٦ / ١٩٧٩ م - أي بعد أربعة أشهر من انتصار الثورة الاسلامية في ايران وبعد عدة أيام من موكب البيعة للامام الشهيد الصدر - قدس سره - (أحداث رجب) وبعد يوم واحد من آخر خطبة لسيدنا المؤلف وأثناء صلاتي المغرب والعشاء - جاء جمع من البعثيين الخوثة المارقين مدججين بالسلاح وطوقوا الجامع من كل جانب وداسوا الأفرشة بأحذيتهم وبحضور السيد وكاد يحدث الصدام لولا بعض الرجال .

ثم تناول أحدهم «الميكرفون» ، وأخذ يقرأ افتتاحية جريدة الثورة التي تهاجم الثورة الاسلامية وقائدها ، وفي نهاية كلمتهم لم يتحمل الشباب ما قيل من كلمات ضدّ الله وضدّ دينه وفي بيت من بيوت الله، فبدأ الشباب يهتفون بصيحات «الله أكبر» بوجوه هؤلاء الجبناء مما دعاهم أن يهربوا أمام شباب الاسلام كالجرذان الخائفة .

وما أن خرج السيد من المسجد فدالمظاهرة الكبرى التي تشكّلت من جماهير الامة الاسلامية في مدينة النعمانية وهي مظاهرة بحق أفزعت النظام البعثي هناك وفرّ البعثيون في الشوارع والأزقة ، واستمرت التظاهرة بالاستنكار للحكم العفلقى

ودسائسه وخبثه وكفره الى أن وصل السيد الى بيته فتفرقت التظاهرة، فطلب السيد منهم الحيلة والحذر .

وفي نفس تلك الليلة وفي الساعة التاسعة مساءً دخل على السيد - قدس سره - ثلاثة أشخاص ملثمون لكي لا يعرفهم أبناء الشعب فينتقم منهم والسيد حينذاك كان جالساً في غرفة الاستقبال مع ضيوفه، فجلس أحدهم بقرب السيد وقال له : إنك تثير الطائفية في البلد، أجاب السيد : أنا لاثير الطائفية ، فقال البعني : إنك تتكلم على النصاري، فأجاب السيد: إنما أنا افسر القرآن ، فقال البعني : بلى إنك تتكلم على النصاري وينبغي أن تكف عن ذلك حتى اذا كان تفسيراً للقرآن ، فنهره السيد وأمره بالخروج وقال له : يا عديم الأدب . فخرج هؤلاء الثلاثة وانتشر الخبر بسرعة في المدينة ، فجاء الى دار السيد عدد من أصحابه .

وفي الساعة الحادية عشرة أعلن البعثيون حالة إنذار قصوى في المدينة وجاءت سرايا من الأمن والجيش اللاشعبي من مدينتي الكوت والحسينية وغيرهما ونصبوا مفارز تفتيش و سدت جميع الطرق والأزقة المؤدية الى بيت السيد فتصدى لهم الشباب المؤمنون وحصلت معركة غير متكافئة، المجرمون بالرشاشات والبنادق، والمؤمنون بالسكاكين وقطع الحديد والخشب ، وأما السيد فكانت بيده مطرقة يدافع بها على الرغم من ضعفه البدني وكبر سنه ، واستطاع السيد وأنصاه أن يطردوا البعثيين خارج الدار ، وغلقوا الأبواب وتحصنوا داخل الدار.

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل عاد المجرمون الكرة ولكن بطريقة ماكرة حيث استعانوا بأحد وجهاء البلدة ، ويحتمل أنهم خدعوه وطلبوا منه أن يذهب الى السيد ويقول له : إنه لاعداء لهم معه وإنما مجرد حديث وجلسة مع محافظ الكوت ، وأنه إن امتنع عن ذلك فإن الحكومة ستنسف مدينة النعمانية وستهدم داره على من فيها .

دخل هذا الشخص الوجيه في البيت كما يقول أحد أصحابه وطلب من السيد ما قالوا له ، وأن أحد الأشخاص المقربين من السيد قال له : سيدنا الكريم إن هؤلاء لا عهد لهم وإنيهم غدره فجرة وهذه مكيدة أمن. ولكن هذا الشخص أخذ يلح على السيد وأن لا يأخذ بكلام الشباب والمراهقين والأطفال .

ثم نهياً السيد فكتب بعض الكلمات والوصايا سريعاً فقد كان متناً كدامن عدم الرجوع ولبس عباءته وأمسك بعصاه وفتح الباب وبمجرد أن خرجت رجل السيد من عتبة الباب دخل جلاوزة الأمن لا يدعون شيئاً أمامهم إلا كسروه وأطلقوا الرصاص عشوائياً وبعثروا مكتبته الكبيرة ثم أحرقت بعد ذلك ، وحدثت مجابهة حيث ضربوا المؤمنين بالأسلاك الحديدية والحجارة وضربوا حفيدته الصغيرة حيث لم يكن في الدار من عائلته غيرهما ، وفتشوا جميع زوايا الدار .

بعد ذلك ذهب الجلاوزة وأخذوا معهم السيد وعشرين شخصاً من أصحابه وقد أحرقت ملابسهم بالدماء أثناء المواجهة مع أعداء الله . واركبوا في سيارة «بيك أب» ووضعت العجلات الاحتياطية فوقهم و البعثيون يصفقون ويرقصون ويطلقون إطلاقاً النصر والطيش في الهواء . وقد استيقظت العوائل الكثيرة وأشرفت على الحادثة ومجرياتها من على السطوح .

وهناك في السراي لم يكن المحافظ كما قالوا وانكشفت خديعته، فأركبوا السيد وأنصارة الى الكوت حيث اجري تحقيق سريع .

في مديرية الامن العامة :

في اليوم الثاني من وصول السيد وأنصاره الى مدينة الكوت تم نقلهم في سيارات مقفلة الى مديرية الأمن العامة في بغداد وهناك استقبل بما يعرفه الأحرار من همجية ووحشية أزلام صدام - وريث يزيد والحجاج بن يوسف الثقفي - حيث اصطف رط من الأمن على الجانبين يحملون أسلاك «الكيل» وتقدم أحد مدراء

الأمن وكان يحمل ملفاً يتكون من ٥٠٠ صفحة وأخذ يتجراً على السيد ويصق عليه ويقول هذه مصائبك ومشاكلك ضد الثورة يا سيد قاسم ، هذه الاضبارة ياسيد قاسم تحتوي على تقارير عشرة سنوات .

ثم بدأوا يضربونهم من الجانبين الى أن أدخلوهم في كراج مقفل للسيارات أرضه مطلية بالنفط الأسود ، وفي البداية أسمعهم شريطاً للسيد في أحد احتفالات الكاظمية يتحدث فيها السيد عن السلطة الجائرة ويقول : «إن من مكاسب الحزب في النعمانية هو فتح بار للمشروبات لافساد الشبيبة » ثم التفت المدير الى السيد قائلاً : أيها الرجعي سننهي حياتك . فأجاب السيد : إنما تنقضي هذه الحياة الدنيا.

كيف كسرت يد السيد ؟

أثناء تعذيب السيد والتحقيق معه حاوره المجرم فاضل البراك مدير الأمن العام فقال : ماذا تطلبون وتريدون من سيادة الرئيس ومن حزب البعث؟ ألا تنظر الى المساجد التي بنيت في عصر الثورة؟ أجاب السيد : والتاريخ يحدث عن كثرة المساجد التي بناها معاوية بن أبي سفيان وهو من أكبر المنحرفين والزنادقة . فأشار المجرم الى جلاوزته فمسكوا السيد بالشكل الذي يحقق غايتهم الخبيثة . بسطوا يده الشريفة فضربها المجرم فاضل البراك ضربة شديدة فكسرها .

شاهد في المعتقل :

دخل السيد قاسم شبر المعتقل في بغداد، وبعد التعذيب الوحشي الذي تلقاه من جلاّدي حزب صدام وعفلق الكافرين نقل-رضوان الله عليه- الى قاعة اخرى غير الكراج السابق وهذه القاعة هي محلّ للسينما اخلي للمعتقلين لأن جميعاً ما كن الأمن العامة غصت بالآلاف من أبناء العراق المؤمنين .

كان السيد قاسم سيد هذه القاعة وشيخها وهناك جلس جلسة الرجل المتأمل الذاكر لله ، كان الجلاّد الواقف على باب تلك القاعة المنحوسة يصيح بالمعتقلين

بين الآونة والآخرى : لا تقتربوا منه فإن هذا الرجل مسلول ، ابتعدوا عنه ،
إياكم أن تشربوا الماء بعده أو تأكلوا معه .

هكذا كان سيدنا - قدس الله روحه - يحارب في المعتقل ، ولكن إن دل
هذا على شيء فإنما يدل على أنهم يخافون من قابلية السيد في التأثير على من يدنو
منه ويتكلم معه .

وقد بقي السيد في هذه القاعة حتى نقل إلى مستشفى الرشيد العسكري
- ردهة العيون - وهي ردهة خاصة للمؤمنين المعتقلين كتب عليها ردهة العيون
للتمويه . حيث دخل في يوم من الأيام أحد المصورين الشعاعيين إلى هذه الردهة
وحسب الظن لا يدري بأمر هذه الردهة فقال : مالي لا أرى أحداً من الراقدين
مصاباً بعينه ؟ الكل ما بين مكسور اليد أو الأضلاع أو الفقرات أو ... أو ... إلخ .
ف قيل له : هذه ليست ردهة عيون وإنما هي سجن من سجون الأمن العامة ، فاندعش
المصور وفهم الأمر وسد فمه .

هناك كان السيد بعمته الشريفة على سرير من أسرة الردهة وقد أحاط
رجال الأمن بسريره لكي لا يصله أحد ولكي لا يتكلم بكلمة يسمعها أحد ، هكذا
كانت السلطة تخشى من كلمات هذا العملاق العظيم . وشوهد السيد وقد جف
الدم المقدس على عاتقه الأيمن ووجهه الشريف وملابسه ، حيث أبى إلا أن
يذهب مخضباً بدم البسالة والشجاعة والثبات على المبدأ وكلمة الحق ، وأبى إلا
أن يواسي جده الحسين عليه السلام بهذه الثياب المعفرة بالدم الطاهر دم الصمود تحت
السياط ومن ثم دم الشهادة المقدس .

وكان السيد وهو في تلك الحالة يشرح لهؤلاء الجلاوزة المحيطين بسريره
مفهوم الاسلام وواجبات المسلم وخطط الكفار لتدمير الاسلام وأنه متأسف عليهم
كشباب أن ينساقوا تحت أسر الكافر وتحت أمر هذا الحزب الصليبي الحاقدم حاربة
الاسلام وتعذيب المؤمنين . وكان يقول لأحدهم : ماذا تقول غداً لرسول الله صلى الله عليه وآله

وأنت بيدك تكسر أيدي المؤمنين ؟ كان الكلام السيد هذا أثر في بعضهم حيث جعلهم يبكون على ما اقترفته أيديهم بحق المؤمنين .

في محكمة الثورة البعثية :

نقل شهيدنا الى المحكمة الصورية وهو بتلك الحالة من كسر يده وضعف بدنه وبصره فكان لا يقوى على الوقوف فطلب كرسيًا للجلوس عليه ، لكنهم لم يعطوه فبقى واقفاً وهو يعاني من شدة الآلام التي أحدثتها التعذيب الوحشي . وهناك جرت المحاكمة بواسطة المجرم مسلم الجبوري . فكانت المحكمة حقاً كمثال خالد للمؤمن المجاهد المنتصر وللمجرم الجبان المنهزم .

سأل الحاكم (مسلم الجبوري) : ما اسمك ؟

أجاب السيد : اسمي سيد قاسم شبر .

قال الحاكم : إنك إيراني وغريب على الوطن .

أجاب السيد : وهل للمسلم وطن خاص ، ولكن اعلم يا هذا - تكبراً عليه -

إنني ابن رسول الله ﷺ والغريب على الوطن هو عفلق بن شمیل ومن تبعه .

الحاكم الجلاد : إنك مجرم .

أجاب السيد : المجرم من هتك العباد والبلاد وسلمها للانكليز والصليبيين .

الحاكم الجلاد : أما نخجل وقد أشرف عمرك على التسعين تحارب حكومة

البعث التقدمية .

السيد : هذا هو حسن العاقبة إن احارب أمثالكم كفار ، فاستشاط الحاكم

غضباً وضرب منضدة حكمه بيده وكسر قلمه وقال : حكمتك المحكمة اعداماً

رمياً بالرصاص .

فابتسم السيد ساخراً بالحاكم الجلاد قائلاً : ما أجملها من ليلة ، كنت

أنتظرها طول عمري أن اقتل في سبيل الله على يد أشرف خلق الله ، وأخذ يكرر

قوله : يا لها من فرحة ، إنها والله الشهادة ، إنها والله الامنية أن أكون مثل جدي الحسين عليه السلام . وبلغت شهيداً الى الحاكم قائلاً : إنكم من الذين يحاربون الله ورسوله ويقتلون أولياء الله ويعيثون في الأرض الفساد وإن الله لكم بالمرصاد .

لقد اعدم آية الله السيد قاسم شبر في ليلة الخامس عشر من شعبان من عام ١٣٩٩ هـ المصادف ١٩٧٩/٧/٢ م رمية بالرصاص ولم يسلموا جثته الشريفة لذويه بل اكتفوا بمنحهم شهادة الوفاة بعد أن أنقصوا من عمره خمس سنوات حيث سجلوا فيها أن عمره (٨٤) سنة ، ولم يعلم في أي مكان دفن ، فهنيئاً لهذا الرجل الالهى العظيم الذي قارع الطاغوت كل حياته حتى لحظاته الأخيرة وحشره الله مع جده الحسين وجعله شفيعاً لنا وألهم الجيل الاسلامي الناهض و علماء الاسلام روحه وشجاعته للدفاع عن الاسلام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والعاقبة للمتقين وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

هذا نبيض من فيض عن حياة آية الله السيد قاسم شبر ، رزقنا الله شفاعته جده يوم الحساب .

وفي ختام هذه السطور الذهبية من حياة هذا الرجل الرباني العظيم نظم أحد المعتقلين وهو ممن شاهدوا السيد في المعتقل مرثية شعرية هذا مقطع منها :

مجرم باغ على كل نجيب	قتل البعث فما أجراه
رجل التسعين من أجل الصليب	قاتل الله الذين قتلوا
نقموا منه ومن كل حبيب	شبراً أعني فيا قوم اثاروا
خضبوها فسلام للخضيب	ضربوا منكبه واسياده
يقتلوا الايمان بالسوط الرهيب	عذبوه حسبهم في نهجهم
فتناهم وكذا شأن المهيب	خسأوا واجههم منفرداً
كل بعني وقومي ريب	حارب الأندال أزال النظام

و مفاهيم للينين الغريب	حارب الأوغاد من منبره
فدعاهم ليس فيهم من مجيب	حجراً ألقمهم في كل ناد
كحديث السر في أمر معيب	ودعا الناس لهم فيهم حديث
فيه من لعن وخسران النصيب	فاسأل التاريخ عما أصبحوا
فرعه ينمي الى سبط الحبيب	قاسم من شبر سيدنا
فاز بالرضوان والقرب القريب	حل في الفردوس في عليائها

اسرة الشهيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبعد، فإنّ من منن الله عزّ وجلّ أن أقام علماء أجلاء لحراسة المجتمع الاسلامي من عللهم الفاتكة ليحيى من حيّ عن بيّنة ويهلك من هلك عن بيّنة .
ومن هؤلاء الأفاضل الأجلّاء : حضرة العالم الفاضل النبيل فضيلة العلامة الحجة السيد قاسم شبر ، فإنه - صانه الله و حماه - لم يأل جهداً في موسوعته التي أسماها «المؤمنون في القرآن» فيما يعمّ المجتمع الاسلامي أفراداً أو جماعات وعلى الخصوص الناشئة العصرية ، وقد أجلت نظري فيها فوجدتها ينتقل القارىء فيها من روضة غناء ذات أزهار فيحاء الى مثلها في ربيع دائم يجد فيها روحاً وريحاناً وما يوصله الى دار النعيم، جزى الله سبحانه مؤلفها خيراً ولا أراه شرّاً ولا ضيراً، فإنه قام بواجب عظيم حقّ القيام في زمن طغت وبغت فيه الموبقات حتّى استغفوت كثيراً من الصالحين والصالحات، وأنا أسأل الله تعالى أن يأخذ بعضه لخدمة العلم والفضيلة ما كرّ الجديدان وتعاقب الملوان .

محمد الجواد الطباطبائي التبريزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين .
وبعد ، فإن جماعة من شباب النعمانية رغبوا أن ادرّسهم بعض الآيات القرآنية
التي ينتفعون بها ، لتعلقها بأحكام شرعية أو لاشتمالها على وعظة أو نصيحة ، وقد
أجبتهم الى ذلك واخترت من المواضيع : الآيات التي تذكر صفات المؤمن حتى يتصفوا
بها ^(١) هذا القسم الأول . ثم بعد ذلك نذكر الآيات التي تصف الكافرين والمنافقين
إن شاء الله تعالى ، وبالله نستعين وعليه نتوكل ونسأله التوفيق والارشاد .

وأنا الأحقر

قاسم ابن المرحوم السيد محمد شبر

تزيل النعمانية

(١) سميته بـ «المؤمنون في القرآن» .

بسم الله الرحمن الرحيم

روي عن الامام الحسن العسكري عن آبائه الطاهرين عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: حملة القرآن المخصوصون برحمة الله، الملبسون نور الله، المعلمون كلام الله، المقربون من الله، من والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد عادى الله، ويرفع الله عن مستمع القرآن بلوى الدنيا، وعن قارئه بلوى الآخرة. والذي نفس محمد بيده لسمع آية من كتاب الله عز وجل، وهو معتقد أن المورده عن الله تعالى حمد، الصادق في كل أقواله، الحكيم في كل أفعاله، المودع ما أودعه الله من علومه أمير المؤمنين علياً عليه السلام المعتقد للاقتياد له فيما يأمر ويرسم، أعظم أجراً من صرة ذهب يتصدق به من لا يعتقد هذه الامور بل صدقته وبال عليه. ولقارئ آية من كتاب الله - معتقداً لهذه الامور - أفضل مما دون العرش إلى أسفل التخوم يكون لمن لا يعتقد هذا الاعتقاد فيتصدق به، بل ذلك كله وبال على هذا المتصدق به.

ثم قال: أتدرون متى يتوفر على هذا المستمع وهذا القارئ هذه المثلوبات العظيمة؟ إذا لم يغفل في القرآن، ولم يجف عنه، ولم يستأكل به، ولم يراء به^(١). وقال صلى الله عليه وآله: القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبة الله عز وجل ما استطعتم، فإنه النور المبين والشفاء النافع، تعلموه، فإن الله تعالى يشرفكم بتعلمه^(٢).

(١) تفسير الامام الحسن العسكري (ع): ص ١٣، بحار الانوار: ج ٩٢ ص ١٨٢ ب ١٩ ح ١٨.

(٢) تفسير الامام الحسن العسكري (ع): ص ٦٠.

وقال ﷺ: اتلوه فإن الله بأجر كم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة. أما إنني لأقول «ألم، حرف، ولكن الألف عشر واللام عشر والميم عشر»^(١).

وقال ﷺ: يرفع الله بهذا القرآن والعلم بتأويله و بمواالاتنا أهل البيت والتبري من أعدائنا أقواماً فيجعلهم في الخير قادة، تقتص آثارهم، ونرمق أعمالهم، ويفتدي بفعالهم، وترشب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلواتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها^(٢).

ثم قال الامام الحسن العسكري عليه السلام بعد ذكره هذه الرواية: أما قوله الذي ندبك اليه وأمرك به عند قراءة القرآن: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

مقدمة في معنى الاستعاذة:

لو أن شخصاً له عدو لدود خبيث يريد أن يوقعه في المهالك ويتربق الفرصة في ذلك، فإذا ظفر به واستولى عليه ذلك العدو لا يمكنه التخلص منه، فأراد أن يلجأ هذا الرجل الى من يجيره هذا العدو، فقال لملك قوي: إني أريد أن تحميني وتمنعني من هذا العدو، فقال له الملك: إني أحملك وأحفظك منه، ولكن أياك أن تقترب إليه فيخدعك ويأمرك بارتكاب بعض الأشياء التي أمتنع عنها، فإنك إذا فعلتها سوف أغضب عليك، وغضبي عليك يكون سبباً لهلاكك ودمارك، فلا تطعه في شيء يأمرك به كان لك فيه شيء من لذة أو انس أو مسرة، ثم بعدما عاهد الرجل ذلك الملك على ذلك، جاءه ذلك العدو فخدعه وغره وأغواه، ففعل ما نهاه عنه ذلك الملك مراراً عديدة، فهل يستحق الرأفة والرحمة من ذلك الملك بعد أن أعطاه العهود المؤكدة أن لا يقرب من العدو ولا يطيعه؟

إذا عرفت ذلك فاعلم أن العبد إذا قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فمعناه: إني أحترز وأمتنع بالله الخالق القدير العزيز من أن يغويني الشيطان،

(١) تفسير الامام الحسن العسكري (ع): ص ١٤، بحار الانوار ج ٩٢ ص ١٨٢ ب ١٩ ح ١٨.

(٢) تفسير الامام الحسن العسكري (ع): ص ١٦، بحار الانوار ج ٩٢ ص ١٨٢ ب ١٩ ح ١٨.

وأطلب من الله أن يجيرني منه وأن يبعده عني ، ولا يجعل له عليّ سلطة ، بأن يجعلني من المؤمنين الذين وصفهم بقوله: فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ،^(١).

وبعد هذا الطلب من الله عزّ وجلّ ، إذا طاع الشيطان وارتكب بعض المحرمات أو ترك بعض الواجبات ، يكون حاله كحال ذلك الرجل لا يستحق من الملك إلا الطرد على أقلّ التقادير ، ولكن الله سبقت رحمته غضبه ، فإذا تاب العبد وناب وترك إطاعة الشيطان فالله هو التواب الرحيم ، فإذا قال العبد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فليقل عن تدبّر وتأمّل ونية صادقة، حتى يعرف معناها فيخاطب بها الله.

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

الحمد لله رب العالمين (٢) الرحمن الرحيم (٣) مالك يوم الدين (٤) اياك نعبد و اياك نستعين (٥) اهدنا الصراط المستقيم (٦) صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (٧)

اتفقت الامامية على أن البسملة آية من سورة الحمد ومن كل سورة، وأن من تركها في الصلاة بطلت صلاته^(١).

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : ما لهم - قاتلهم الله - عمدوا الى أعظم آية في كتاب الله ، فزعموا أنها بدعة إذ أظهروها ، وهي : «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢) .

فعند الشيعة أن البسملة يجب الجهر بها في الصلاة ، ويستحب الجهر بها في الصلاة الاخفائية .

وروي عن الرضا عليه السلام أنه قال : إن «بسم الله الرحمن الرحيم» أقرب الى اسم الله الأعظم من سواد العين الى بياضها^(٣) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : اذا قال المعلم للصبي قل : «بسم الله الرحمن

(١) مجمع البيان : ج ١ ص ١٨ .

(٢) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢١ ح ١٦ .

(٣) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢١ ح ١٣ .

الرحيم، وقالها الصبي كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبويه وبراءة للمعلم^(١).
وعن ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيّه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ
« بسم الله الرحمن الرحيم » فإنّها تسعة عشر حرفاً ، ليجعل الله كل حرف منها
جنة من واحد منهم^(٢) .

ما ذكره المراغي في تفسيره

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد : يرى بعض الصحابة : كأبي هريرة وعلي وابن عباس وابن عمر ،
وبعض التابعين : كسعيد بن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك ، وبعض فقهاء مكة
وقرائها ومنهم : ابن كثير ، وبعض قراء الكوفة وفقهائها منهم : عاصم والكسائي
والشافعي وأحمد : أن البسملة آية من سور القرآن الكريم ، ومن أدلتهم
على ذلك :

١- إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة عدا
سورة براءة مع الأمر بتجريد القرآن من كل ما ليس منه ، ومن ثم لم يكتبوا
(آمين) في آخر الفاتحة.

٢- ما ورد في ذلك من الأحاديث ، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أنس (رض)
أنه قال : قال رسول الله (ص) : انزلت عليّ آتفاً سورة فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم » .
وروى أبو داود عن ابن عباس ، أن رسول الله (ص) كان لا يعرف انقضاء
السورة حتى ينزل عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وروى الدارقطني عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « إذا قرأت
الحمد لله فاقراء « بسم الله الرحمن الرحيم » فإنها أم القرآن والسبع المثاني

و«بسم الله الرحمن الرحيم» إحدى آياتها .

٣- أجمع المسلمون على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى والبسمة بينهما فوجب جعلها منه ^(١) انتهى.

هذا ما يتعلق بالبسمة وأما إلى مجموع الفاتحة: فإنها مكّية وقيل نزلت مرة ثانية بالمدينة ^(٢) .

أسمائها: الحمد، الفاتحة أو فاتحة الكتاب، أم الكتاب، السبع المثاني، الكافية، الشفاء ^(٣) وغير ذلك .

فضلها: من قرأها يعطى أجر من قرأ ثلثي القرآن ^(٤)، وما قرئت الحمد على وجع سبعين مرة إلا سكن ^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام: من لم يبرئه الحمد لم يبرئه شيء ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام: لو قرئت الحمد على ميت سبعين مرة، ثم ردت فيه الروح ما كان عجباً ^(٧) .

قال سبحانه وتعالى: «ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء» ^(٨)، مما أرشدنا إليه أننا إذا أردنا عمل شيء أن نبدأ باسمه، ليكون العمل مباركاً ويتم على أحسن الصور وأكملها .

والباء للاستعانة أي: استعينوا على إكمال أعمالكم بالبداء باسمه تعالى.

(١) تفسير المراغي: ج ١ ص ٢٦ .

(٢-٤) مجمع البيان: ج ١ ص ١٧ .

(٥) وسائل الشريعة: ج ٤ ص ٨٧٤ ب ٣٧ ح ٦ .

(٦) بحار الانوار: ج ٩٢ ص ٢٦١ ب ٢٩ ح ٥٧، الوسائل: ج ٤ ص ٨٧٤ ب ٣٧ ح ٢ .

(٧) بحار الانوار: ج ٩٢ ص ٢٥٧ ب ٢٩ ح ٥٠ .

(٨) النحل: ٨٩ .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر^(١).

ثم إن كلام الله كأنه على لسان عبده، فيكون كلام العبد بعد البسملة هو الحمد لله تعالى على الخلق والرزق، وتدير الأمور، وحفظهم من المهالك، ومن شر الجن والشياطين.

«رب العالمين» يعني: أنه خالق لجميع الأصناف والأنواع من الحيوان والنبات والجماد وغيرها.

ونقل عن الراغب الأصفهاني أنه قال عند قوله تعالى «الحمد لله رب العالمين»: إن الذي يحمد ويمدح ويعظم في الدنيا إنما يكون كذلك بأحد وجوه أربعة:
١- إما أن يكون كاملاً في ذاته وصفاته، منزهاً عن جميع النقائص والمعايب، وإن لم يكن منه إحسان إليك.

٢- وإما لكونه محسناً إليك منعماً عليك.

٣- وإما لأنك ترجو فضل إحسانه إليك في المستقبل من الزمان.

٤- وإما لأجل أن تكون خائفاً من قهره وقدرته وكمال سطوته.

فهذه الجهات الموجبة للتعظيم، فكأنه تعالى يقول: إن كنتم تعظمون للكمال الذاتي فاحمدوني فإنني أنا الله، وإن كنتم تعظمون للاحسان والتربية والانعام فإنني أنا رب العالمين، وإن كنتم تعظمون للطمع في المستقبل فأنا الرحمن الرحيم، وإن كنتم تعظمون للخوف فأنا مالك يوم الدين^(٢).

ثم بعد ما يعترف العبد بهذه الصفات ويثبتها لله تعالى ويحمده على هذه النعم، يلتفت من الغائب إلى المخاطب فيخاطبه بقوله: «إياك نعبد وإياك نستعين»، ويطلب منه الهداية والارشاد إلى الصراط المستقيم.

(١) الكشف للزمخشري: ج ١ ص ٣٠.

(٢) تفسير الرازي: ج ١ ص ٤٣٠ ولم ينسبها إلى الراغب.

العبادة هي أعلى مراتب الخضوع والتذلل ، ولذا لا يستحقها إلا المولى لأعظم النعم من الوجود والحياة وتوابعها ، وتقديم المفعول به لأجل حصر العبادة به ، وحيث إنها لا تكون عبادة إلا إذا كانت خالصة من كل شائبة دنيوية ، يطلب العبد من الله إعانته على مثلها حتى تكون مقبولة لدى المعبود ، يستحق عليها الجزاء من المعبود ، وتكرار الضمير لبيان أن الاستعانة لا تكون إلا منه ، فلا يمكن الاستعانة بغيره ، وتقديم العبادة لكونها هي الوسيلة لطلب الحاجة من المعبود ، ولتناسبة تقديم مطلوبه على مطلوبهم ، وإنما جاء بصيغة الجمع - مع أن الأنسب في مقام التذلل الافراد - إشاراً بحقارة عبادة الفرد ، فجمعها مع غيرها يجعلها كبيع الصفقة ، إما أن يقبل الجميع أو يرد الجميع ، والله تعالى أكرم من أن يرد الجميع ، إذ لا بد من وجود عبادة مقبولة فيها كعبادة إمام الزمان عليه السلام ، فالأنسب بالمتعبد أن يجعل عبادته في أول وقتها الذي يصلي فيه الامام لكي تصعد معها وتقبل بقبولها .

وذكروا في وجه الالتفات أيضاً : أن المدح والثناء إنما هو إظهار مزايا المحمود للغير ، ولذا جيء به بصيغة الغائب . وأما العبادة فينبغي إخفاؤها عن الغير لتكون خالصة لوجه المعبود فجيء بها بصيغة الخطاب ، هذا ما أشار إليه الامام أمير المؤمنين عليه السلام : اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : لقد تجلّى الله لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون ^(٢) .
«اهدنا الصراط المستقيم» بعد أن اعترف العبد بالعبودية الخاصة وطلب منه الاعانة عليها وعلى سائر الأشياء طلب منه الهداية وهي الدلالة والارشاد الى الطريق الذي يوصله الى الله ويجعله مقرباً لديه ، فإن الطريق المستقيم هو طريق الحق ، وهو ملة الاسلام التي جاء بها النبي صلوات الله عليه وآله من عند الله ، من غير تبديل ولا تغيير .

(١) بحار الانوار : ج ٧٧ ص ٧٤ ب ٤ ح ٣ وقد نسبه الى رسول الله (ص) .

(٢) جامع السعادات : ج ٣ ص ٣٧٧ .

ما ذكره البرغاني في تفسيره

قال البهائي : هداية الله على أربعة أنحاء :

أولها : الهداية الى جلب المنافع ودفع المضار بإفاضة المشاعر الظاهرة والمدارك،
واليه يشير قوله تعالى : «أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»^(١).

وثانيها : نصب الدلائل العقلية الفارقة بين الحق والباطل ، والصالح والفساد،
واليه يشير قوله تعالى : «وهديناه النجدين»^(٢).

وثالثها : الهداية بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، واليه يوصى قوله تعالى
«أما تمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى»^(٣).

ورابعها : الهداية الى طريق حضائر القدس والسلوك الى مقامات الانس ،
بانطماس آثار التعلقات البدنية واندراس أكدار الجلايب الجسمية ، والاستغراق
في ملاحظة أسرار الكمال ومطالعة أنوار الجمال ، وهذا النوع يختص به الأولياء
ومن يحذو حذوهم .

فاذا تلا هذه الآية أصحاب المرتبة الثالثة أي أرادوا بالهداية المرتبة الرابعة،
وإذا تلاها أصحاب المرتبة الرابعة أرادوا الثبات على ما هم عليه من الهدى^(٤) انتهى.
والصراط صراطان : أحدهما في الدنيا والآخرة في الآخرة.

أما الصراط في الدنيا : فهو الامام المفترض الطاعة ، من عرفه في الدنيا واقتدى
به مر " على الصراط الثاني : وهو جسر جهنم في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا
زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم .

يقول الامام عليه السلام في تفسير «اهدنا الصراط المستقيم» أي : أدم لنا توفيقك
الذي به أطعناك فيما مضى من أيامنا ، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا^(٥).

(٣) فصلت : ١٧ .

(٢) البلد : ١٠ .

(١) طه : ٥٠ .

(٤) تفسير مفتاح الجنان في حل رموز القرآن : ج ١ ص ٢٩ .

(٥) البرهان في تفسير القرآن : ج ١ ص ٥٠ ح ٢٣ .

وروي عن الصادق عليه السلام في تفسيرها قال : ارشدنا للزوم الطريق المؤدي الى محبتك و المبلغ دينك ، و المانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب ، أو نأخذ بآرائنا فنهلك ^(١) .

«صراط الذين أنعمت عليهم م» أي : اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ، يقول الامام : وهم الذين ذكرهم الله بقوله «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً» ^(٢) .

ثم قال عليه السلام : ليس المراد بالمنعم عليهم هؤلاء المنعم عليهم بالمال و صحة البدن ، وإن كان كل هذا نعمة من الله ظاهرة ، ألا ترون أن هؤلاء المنعم عليهم بالمال قد يكونون كفاراً و فاسقاً ، فما ندبتهم أن تطلبوا من الله بأن ترشدوا الى صراطهم ، وإنما أمرتم بالدعاء لأن ترشدوا الى صراط الذين أنعم عليهم بالايمان بالله و تصديق رسوله و بالولاية لمحمد صلى الله عليه و آله الطيبين ^(٣) .

قال بعض العلماء : إن نعم الله وإن كانت لا تحصى ولا تعد ، ولكن أنواعها

ثمانية :

إمادنيوي موهبي روحاني كإفاضة العقل ، وإمادنيوي وهبي جسماني كخلق الأعضاء ، وإمادنيوي كسبي روحاني كتحلية النفس بالأخلاق الزكية ، وإمادنيوي كسبي جسماني كتزيين البدن بالهيئات المطبوعة ، وإمادنيوي موهبي روحاني كغفران ذنب من لم يتب ، وإمادنيوي موهبي جسماني كأنهار العسل ، وإمادنيوي كسبي روحاني كغفران ذنب التائب ، وإمادنيوي كسبي جسماني كاللذات

(١) البرهان في تفسير القرآن : ج ١ ص ٥١ ح ٢٤ .

(٢) النساء : ٦٩ .

(٣) البرهان في تفسير القرآن : ج ١ ص ٥١ ح ٢٨ .

الجسمانية المستجلبة بالطاعات^(١)، والمراد هنا الأربعة الأخيرة وما يكون وصلة إليها من الأربعة الأول لاشتراك المؤمن والكافر فيما عدا ذلك .

«غير المغضوب عليهم ولا الضالين» وروى عن الصادق عليه السلام قال : قال

الحواريون لعيسى بن مريم : يا معلم الخير أعلمنا أي الأشياء أشد ؟ فقال : أشد الأشياء غضب الله عز وجل ، قالوا : فيم يتقى غضب الله ؟ قال : أن لا تغضبوا ، قالوا : وما بدء الغضب ؟ قال : الكبر والتجبر ومحقرة الناس^(٢) .

وقد ذكر المفسرون أن المغضوب عليهم هم اليهود لقوله تعالى فيهم ومن لعنه الله وغضب عليه^(٣) ، وأن الضالين هم النصارى لقوله تعالى فيهم : قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً^(٤) فيكون المقصود من المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال ، وقال بعض المفسرين : إن المقصود مطلق من اتصف بذلك من الكفار وغيرهم^(٥) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية : إن الله أمر عباده أن يستعيذوا به من طريق المغضوب عليهم ، وهم اليهود الذين قال الله فيهم : قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه... ، وأن يستعيذوا من طريق الضالين وهم الذين قال الله فيهم : قل يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، وهم النصارى ، ثم قال عليه السلام : كل من كفر بالله فهو مغضوب عليه وضال عن سبيل الله^(٦) .

روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : إنما أخاف على امتي ثلاثاً : شحاً مطاعاً ،

(١) المواعظ العددية : ص ٣٠٠ .

(٢) مشكاة الانوار : ص ٢١٩ .

(٣) المائدة : ٦٠ .

(٤) المائدة : ٧٧ .

(٥) مجمع البيان : ج ١ ص ٣٠ .

(٦) البرهان : ج ١ ص ٥٢ ح ٤٠ .

وهو متبعا، وإماما ضالا، والمقصود من الامم الضال : هو كل رجل ضال عن طريق الحق، ويدعو الناس الى سلوك طريقه وهم يتبعونه ويسلكون طريقه، فيكون على الامام وزره ووزر من اتبعه ^(١).

كما روي عن الصادق عليه السلام قال : كان رجل في الزمن الأول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها، وطلبها من حرام فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال له : يا هذا إنك طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها، وطلبتها من حرام فلم تقدر عليها، أفلا أدلك على شيء تكثر به دنياك ويكثر به تبعك؟ قال : بلى، قال : تبدع ديناً وتدعو اليه الناس، ففعل فاستجاب له الناس وأطاعوه وأصاب من الدنيا ثم إنه فكر في نفسه ! وقال : إني ابتدعت ديناً ودعوت الناس اليه فما أرى لي توبة إلا آتي من دعوته اليه فأرده عنه، فجعل يأتي أصحابه الذين أجابوه يقول : إن الذي دعوتكم إليه باطل وإنما ابتدعته من نفسي، فجعلوا يقولون : كذبت في قولك هذا وهو الحق، ولكنك شككت في دينك فرجعت عنه، فلما رأى ذلك عمد الى سلسلة فوندأها وتبدأ ثم جعلها في عنقه، وقال : لأحلها حتى يتوب الله عز وجل علي، فأوحى الله الى نبي من أنبيائه، قل لفلان : وعزتي لو دعوتني حتى تنقطع أو صالك ما استجبت حتى ترد من مات على مادعوته اليه فيرجع عنه ^(٢). وروي عن سماعة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : قول الله تبارك وتعالى «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً» ومن أحيأها فكأنما أحيى الناس جميعاً ^(٣)، فقال عليه السلام : من أخرجها من ضلال الى هدى فقد أحيأها، ومن أخرجها من هدى الى ضلال فقد قتلها ^(٤).

ويؤيد الخبر المروي عن الصادق عليه السلام ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : أبي

(١) سفينة البحار : ج ٢ ص ٧٤ مادة «ضال».

(٢) بحار الانوار : ج ٢ ص ٢٩٧ ب ٣٤ ح ١٦٠.

(٣) المائدة : ٣٢.

(٤) البرهان : ج ١ ص ٤٦٣ ح ٣.

الله لصاحب البدعة بالتوبة، وأبى الله لصاحب الخلق السيئ بالتوبة، فقيل: يارسول الله وكيف ذلك؟ قال: أما صاحب البدعة فقد اشرب قلبه حبها، وأما صاحب الخلق السيئ فإذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم من الذي تاب منه^(١).

وعن الحلبي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما أدنى ما يكون به العبد كافراً؟ قال: أن يبتدع شيئاً فيتوَلَّى عليه ويبرأ ممن خالفه^(٢).

وإنما تعرضنا للبدعة لأن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فيكون صاحب البدعة من الضالين المضلين، الذين نستعيز بالله منهم في كل يوم وليلة عشر مرات في صلواتنا المفروضة بأمر من الله، ومن ترك الاستعاذة منهم بترك الصلاة صار منهم ودخل في زمرة بهم، فيلزم الاستعاذة منه أيضاً.

فيا أخي المسلم، احذر هذا الزمان وأهله، فإن البدع قد كثرت فيه وتنوعت، إذ أن هذه الأحزاب التي تدعو إليها جماعات المسلمين، وكل فرقة تعتنق حزباً منها، كلها بدع تدعو إلى الضلالة. وإن البدعة هي إحداث أمر في الشريعة لم يرد فيه نص، فالدخول فيها والانتساب إليها دخول في الضلالة.

تنبيه

ومن شجون الحديث ما رواه الفريقان العامة والخاصة عن النبي ﷺ حيث قال: إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن تضلوا ما إن تمسكتن بهما، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض^(٣).

أخي المسلم، تأمل في هذا الحديث، فإنه بلسان عربي مبين ليس فيه إجمال ولا تعقيد، فإنه صريح واضح بأن من لم يتمسك بالثقلين فهو ضال.

أخي، اقرأ سورة الفاتحة وتدبر في قوله تعالى الذي تقوله أنت. واهدنا

(١) بحار الانوار: ج ٧٢ ص ٢١٦ ب ١٠٩ ح ٨.

(٢) سفينة البحار: ج ١ ص ٦٣ مادة «بدع».

(٣) راجع بحار الانوار: ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧.

الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ثم بعد ما تقرأها تأمل في حديث الثقلين، ثم انظر هل تنطبق الآية والحديث على نفسك؟ أو أن كلامك بوادٍ وعملك بوادٍ آخر؟ فلا يغررك الشيطان ولا يخدعك عن نفسك، فإنها أعز الأتفس عليك.

تتمة

روي عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «قسّمت الحمد بيني وبين عبدي نصفين، فنصف منها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: «بسم الله الرحمن الرحيم» قال الله عز وجل: «بدأ عبدي باسمي حق» علي أن أتم له أموره وأبارك له في أمواله. فإذا قال: «الحمد لله رب العالمين» قال الله عز وجل: «حمدني عبدي وعلم أن النعم التي له من عندي، وأن البلايا التي اندفعت عنه فبطولي، أشهدكم بأملائكتي أنني أضيف له نعم الدنيا إلى نعم الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا. وإذا قال: «الرحمن الرحيم» قال الله عز وجل: «شهد لي عبدي بأني الرحمن الرحيم، أشهدكم لا وفرن من رحمتي حفظه، ولا جزان من عطائي نصيبه. وإذا قال: «مالك يوم الدين» قال الله تعالى: «أشهدكم كما اعترف بأني المملك يوم الدين لاسهلن» يوم الحساب عليه حسابيه، ولا ثقلن حسناته، ولا تجاوزن عن سيئاته. فإذا قال العبد: «إيتاك نعبد، قال الله: «صدق عبدي إيتاي يعبد، أشهدكم لاثنين على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي. فإذا قال العبد: «وإيتاك نستعين» قال الله عز وجل: «بي استعان عبدي وإلي التجأ، أشهدكم لا عيننته في شدائده ولا خذن بيده يوم نوائبه. فإذا قال: «اهدنا الصراط المستقيم... الخ» قال الله عز وجل: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، قد استجبت لعبدي، وأعطيته ما أمل، وأمنتهم مما مكنه وجل^(١) انتهى.

أيها المسلم، إذا قرأت الحمد بنية صادقة خالصة، فإن الله قد تعهد لك

أن يرشدك الى الصراط المستقيم ، وقد فعل ذلك جلّت عظمته ، حيث دلّنا على الطريق ، وأمرنا أن نسير فيه بخطّ مستقيم ، ولكن بعض العباد يميل مرة الى الغرب ومرة الى الشرق ، وتارة يقطع نصف الطريق أو ثلثي الطريق ثم يرجع القهقري ، ومرة أخرى يقطع هذه المسافة ويقف في مكانه متحيراً ، وكلّما يؤمر بالسير يمتنع ويصرّ على العصيان ، مع أن الوصول الى الغاية لا يتم إلا بقطع الطريق الى نهايته . أيها المسلم ، سواء كنت جليلاً أو حقيراً ، أو غنياً أو فقيراً ، أو تاجراً أو غير ذلك من سائر الأصناف ، حيث إن أغلب الناس قد خالف القرآن والسنة ، فلو أنك تعمل بسورة الفاتحة وحدها لهدتك الى ما ينتظم به دينك ودنياك . نحن الآن في سنة ١٣٨٨ هجرية وأن البلاد الاسلامية كلّها في اضطراب وتشويش ، ونرى كل فرقة منها قد اعتنق مبدأً مخالفاً للمدين ، فبين متظاهر به وبين مختفٍ مستتر به ، والله يخاطب نبيّه بقوله : «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يعملون» (١) .

أيها المسلم ارجع الى دينك وكتابك واعمل بما أمرك به نبيك ، وسر على الطريق الذي أمرك به الله «إنما المؤمنون إخوة» (٢) وتنبّهوا لمادسته العدو الأجنبى الذي يريد استعماركم ، فإنكم لا تحصلوا على شيء ما لم تتفقوا وتكونوا إخوة . أيها المسلم المصلّي ، سر على الطريق المستقيم الذي تطلبه من الله في كل يوم عشر مرات ، ولا تخرج عنه مغرباً أو مشرقاً .

هذا آخر الكلام في سورة الفاتحة ، وقد ذكرنا في أول الأمر أن المقصود هو التعرّض للآيات التي نصف المؤمن وتذكر شروطه ، وإنما ذكرنا الفاتحة لأنها أم الكتاب ، وهي التي توجد حقيقة المؤمن ، فمن اتصف بما فيها من وصف فهو من سادات المؤمنين ، وهو الذي يأسر المؤمنين الاقتداء به ، ونسأله تعالى أن يجعلنا منهم .

(١) الانعام : ١٥٩ .

(٢) الحجرات : ١٠ .

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢) الذي يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (٥).

لقد اختلف العلماء في الحروف المقطعة التي تكون في أوائل السور ، وذكروا وجوهاً كثيرة ، ونحن نذكر قولاً واحداً ، هو أن المراد منها أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته ولم تقدرُوا على الاتيان بمثله هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في كلامكم وخطبكم ، فحيث لم تقدرُوا عليه فاعلموا أنه من فعل الله تعالى ، وتكرارها في مواضع عديدة تأكيداً للحجة ، والأولى أن نقول : إن هذا من قسم المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ، كما روي ذلك في أخبارنا الواردة عن الأئمة عليهم السلام (١).

قوله : «ذلك الكتاب» إشارة إلى «الم» ، فيكون «الم» مبتدأ و«ذلك» مبتدأ ثانٍ و«الكتاب» خبر للمبتدأ الثاني ، والجملة خبر للمبتدأ الأول .

«لا ريب فيه» قال الامام : يعني أن القرآن الذي افتتح به «الم» هو ذلك الكتاب الذي أخبر به موسى ومن بعده من الأنبياء ، وهم أخبروا بني إسرائيل ،

(١) مجمع البيان: ج ١ ص ٣٣، وقد اختار السيد الشهيد (ره) القول العاشر .

إني سائرله عليك يا محمد ، لاشك فيه ، لظهوره عندهم ^(١) فهو خير بمعنى الأمر أي : لا تترابوا فيه .

«هدى للمتقين» الهدى: هو الارشاد والدلالة والبيان بما ينفعه ويوصله الى الحق حتى يصل اليه ، والردع عما يضره وهو عام لكل أحد ، وإنما خص المتقين لأنهم هم المنتفعون به قبل غيرهم . والتقوى : عبارة عن التحرز و التحفظ عما يضره ، فإنها مأخوذة من الوقاية وهي في اللغة : فرط الصيانة ، و في العرف الشرعي : صيانة النفس عما يضرها في الآخرة ، وقصرها على ما ينفعها فيها ، والتقوى صفة جامعة لكل أبواب الخير ، وهي أحسن صفة يتصف بها العبد لتقربه الى الله ، فقال تعالى : «ولقد وصينا الذين اونوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» ^(٢) فقد اقتصر سبحانه على هذه الكلمة ، ولاشك أنه تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد ، ورحمته ورأفته أجل من كل رحمة ورأفة ، فلو كان في عالم النصح والارشاد كلمة أو خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للمخير من هذه الخصلة كانت أولى بالذكر وأحرى بأن يوصي بها عباده ، وقد كرر الله ذكرها في القرآن وعلق عليها فوائد كثيرة عظيمة .

قال بعض العارفين : إن خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت كلمة واحدة وهي التقوى ، انظر الى ما في القرآن الكريم من ذكرها فكم علق عليها من خير ووعد لها من ثواب ، وأضاف اليها من سعادة دنيوية وكرامة اخروية ، ولنذكر لك من خصالها وآثارها الواردة فيه اثنا عشر خصلة :

- ١- المدحة والثناء : قوله «وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور» ^(٣).
- ٢- الحفظ والحراسة: قوله «وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً» ^(٤).
- ٣- التأييد والنصر : قوله «إن الله مع الذين اتقوا» ^(٥).

(١) تفسير الامام العسكري : ص ٦٢ .

(٢) النساء : ١٣١ .

(٣) آل عمران : ١٨٦ .

(٤) آل عمران : ١٢٠ .

(٥) النحل : ١٢٨ .

٤- النجاة من الشدائد والرزق الحلال: قوله «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً» ويرزقه من حيث لا يحتسب،^(١).

وحيث إن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام قد ذكروا في بيان هذه الآية كثيراً من الأمور، رأيت الأنسب ذكر بعض ما ورد عنهم، ثم تأتي على بقية ما ذكره هذا العارف، قال في التفسير: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً» من كل كرب في الدنيا والآخرة^(٢).

وعن النبي ﷺ قال: يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة^(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يجعل له مخرجاً» من الفتن ونوراً من الظلم^(٤)، «ويرزقه من حيث لا يحتسب» أي من وجه لم يخطر بباله. وقال رسول الله ﷺ في وصيته لأبي ذر: لو أن الناس أخذوا بهذه الآية لكفتمهم «ومن يتق الله»^(٥).

وقال الصادق عليه السلام في جواب رسالة النجاشي: ثم إني أوصيك بتقوى الله، وإيثار طاعته، والاعتصام بحبله- إلى أن قال: - «واعلم أن الخلائق لم يוכלوا بشيء أعظم من التقوى، فإنه وصيتنا أهل البيت»^(٦).

وقال الحسين بن علي عليه السلام في بعض مواعظه: أوصيكم بتقوى الله فإن الله قد ضمن لمن اتقاه أن يحو له عما يكره إلى ما يحب، ويرزقه من حيث لا يحتسب فأيتاك أن تكون ممن يخاف على العباد من ذنوبهم، ويأمن العقوبة من ذنبه فإن الله تبارك وتعالى لا يخدع عن جنته، ولا ينال ما عنده إلا بطاعته^(٧).

(١) انطلاق: ٢ و ٣.

(٢) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٠٦.

(٣) تفسير نور الثقلين: ج ٥ ص ٣٥٦ ح ٤٤.

(٤) نهج البلاغة: ضبط صبحي الصالح، الخطبة ١٨٣ ص ٢٦٦.

(٥) تفسير نور الثقلين: ج ٥ ص ٣٥١ ح ٥٤.

(٦) بحار الانوار: ج ٧٨ ص ٢٧٧ ب ٢٣ ح ١١٢.

(٧) بحار الانوار: ج ٧٨ ص ١٢١ ب ٢٣ ح ٣.

فلنرجع الى كلام من عدد فوائد التقوى ، قال:

٥- صلاح العمل: قوله «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا* يصلح لكم أعمالكم»^(١).

٦- غفران الذنوب: قوله بعد قوله «يصلح لكم أعمالكم» : «و يغفر لكم ذنوبكم»^(٢).

٧- توجب محبة الله: قوله «إن الله يحب المتقين»^(٣).

٨- قبول الأعمال: قوله «إنما يتقبل الله من المتقين»^(٤).

٩- الاكرام والاعزاز: قوله «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»^(٥).

١٠- البشارة عند الموت: قوله «الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهم البشري في الحياة الدنيا و في الآخرة»^(٦)، وقد فسرت البشارة في الحياة الدنيا بكونها عند الموت^(٧).

١١- النجاة من النار: قوله «ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا»^(٨).

١٢- الخلود في الجنة: قوله «اعدت للمتقين»^(٩).

فقد ظهر لك أن سعادة الدارين منطوية فيها ومندرجة تحتها ، وهي كنز

عظيم ، وغنم جسيم ، وخير كثير ، وفوز كبير^(١٠) انتهى .

(١) الاحزاب : ٧١ و ٧٠ .

(٢) الاحزاب : ٧١ .

(٣) التوبة : ٧٥ .

(٤) المائدة : ٢٧ .

(٥) الحجرات : ١٣ .

(٦) يونس : ٦٣ و ٦٤ .

(٧) الصافي : ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٨) مريم : ٧٢ .

(٩) آل عمران : ١٣٣ .

(١٠) سفينة البحار : ج ٢ ص ٦٧٩ مادة «رفي» .

ومما يتعلّق بالتقوى قول النبي ﷺ لبني هاشم : لا تقولوا أن "تحمداً منّا فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون" (١) .

ومن جملة كلام أمير المؤمنين عليه السلام لأبي ذر : ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً ، ولا يؤنسك إلا الحق ، ولا يوحشك إلا الباطل (٢) .

وسئل الصادق عليه السلام عن تفسير التقوى فقال : أن لا يفقدك الله حيث أمرك ، ولا يراك حيث نهاك (٣) .

وقال رجل لبعض الناسكين : صف لنا التقوى ؟ فقال : إذا دخلت أرضاً فيها شوك كيف كنت تعمل ؟ قال : أتوقّي وأتحرز ، قال : فافعل في الدنيا كذلك ، فهي التقوى (٤) .

وذكروا أن "للتقوى مراتب ثلاث :

الاولى : وقاية النفس عن العذاب ، وهذا يحصل بالتوقّي عن الشرك .

الثانية : التجنب عن كل ما فيه إثم ، من ترك الواجب وفعل الحرام وهو

اجتناب المعاصي .

الثالثة : التوقّي عن كل ما يشغل القلب عن الحق (٥) ويدخل في هذه المرتبة

اجتناب المكروهات ، بل اجتناب المباحات المشغلة للقلب .

فتمحصل مما ذكرنا أن المتقي هو الذي اتقى أنواع الكفر فتركها ، واتقى

أنواع الذنوب الموبقات فرفضها واجتنبها ، واتقى كل ما يلهيه عن ذكر الله فتباعد عنها .

(١) سفينة البحار : ج ٢ ص ٦٧٨ مادة «وقى» .

(٢) نهج البلاغة : ضبط صبحي الصالح ، الخطبة ١٣٠ ص ١٨٨ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٠ ص ٢٨٥ ب ٥٦ ح ٨ .

(٤) (٥) سفينة البحار : ج ٢ ص ٦٧٨ مادة «وقى» .

«الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» هذه صفات المتقين التي وصفهم الله بها، فإن التقوى لما كانت من صفات النفس الباطنة ولم يكن لها وجود خارجي دلنا الله على آثارها الخارجية التي تعرف بها، فذكر لها خمس صفات :

الاولى: الايمان بالغيب ، وهو الشيء الغائب الذي لا يدرك بأحد الحواس ، وذلك مثل: التصديق بالبعث ، والنشور ، والصراط ، والجنة ، والنار ، وقيام المهدي عجل الله فرجه.

الثانية : إقامة الصلاة ، والمقصود أن يأتون بها تامة الأركان والشرائط ، وأن يصونها عما يفسدها أو ينقصها.

الثالثة : الانفاق مما رزقهم الله من الأموال والأبدان والقوى والجاه والعلم فإن الرزق هو كل ما يحتاج إليه الانسان ، فيشمل هذه الامور كلها. وقد أسند الله الرزق إليه ، تنبيهاً على أن الحرام منه ليس من عنده وينهى عن أخذه ، وأن المنفق منه لا يستحق المدح . والاشارة بـ «من» التبعية الى المنع عن التبذير وصرف جميع المال ، فيبقى صاحبه كلاً على الناس ، والانفاق من المال يشمل الحقوق الواجبة وغيرها.

«والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون» هذه الصفة الرابعة من صفات المتقين . إنهم يصدقون بما انزل إليك من القرآن، ويعترفون أنه من عند الله عز وجل ، وأن شريعته من عند الله ، ويؤمنون بأن ما انزل من قبلك من الكتب كالتوراة والانجيل والزبور وغيرها إنما من الله عز وجل .

الخامسة : من صفات المؤمنين : إنهم يوقنون بالآخرة ، وهي الدار التي تكون بعد الدار الدنيا ، فهم موقنون بها لا يشكّون فيها ولا يتعربهم الريب والزيف .

فهذه الصفات الخمس هي علامات المتقين وهي :

١- الإيمان بالغيب .

٢- إقامة الصلاة .

٣- الانفاق من الرزق.

٤- التصديق بإنزال الكتب .

٥- اليقين بالدار الآخرة .

«اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون» وبعد ما أعلمنا الله بصفاتهم أعلم الملائكة وبشر المتقين أنهم على صواب و على علم من أوامر ربهم ، بخلاف غيرهم ممن يجهل أوامره أو يشك فيها ، ثم بشرهم بإعلام غيرهم أن هؤلاء القوم هم المفلحون ، و الفلاح هو النجاح و الفوز بما يؤمله الانسان من الجوائز والنواب الذي لا تخطر على بال أحد ، فقد حث سبحانه سائر العباد على الالتحاق بهؤلاء القوم والاتصاف بصفاتهم حتى يعدوا من المتقين ويكونوا من المفلحين.

يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم
لعلكم تتقون (٢١) .

لما ذكر الله الآية التي وصف بها المتقين ، عقبها بذكر غيرهم من الفرق و اختلافهم في العبادة ، ثم التفت بهذه الآية اليهم و ناداهم و خاطبهم جميعاً لتعلم كل فرقة بل كل فرد أنه معني ومقصود بالخطاب، وأمرهم بإرشاداً وهداية لهم ودلالة على ما ينفعهم فقال: «اعبدوا ربكم» فإن الرب الخالق والذي بيده جميع الامور من الرزق والموت والحياة هو الأولي بالعبادة والمستحق لها دون غيره الذي هو مخلوق له . والمقصود من العبادة : أن يخضعوا له غاية الخضوع ويطيعوه في كل ما يأمرهم به ولا يشر كوا به أحداً .

ثم قال : «لعلكم تتقون» فإذا عبد الانسان خالفه لا يكون من المتقين حتماً ، بل يمكن أن لا يكون من المتقين لسوء اختياره ، فإذا اتصف العابد بالصفات المتقدمة كان من المتقين ، فالمطلوب من الناس - في الآية - هي عبادة الله الخالصة لوجهه الكريم ، فإذا عبدوه كذلك راجين وصولهم الى درجة التقوى وفقهم الله لها .

انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً أولاً تسئل عن أصحاب الجحيم (١١٩) .

إن في هذه الآية تسلية من الله لنبيه ﷺ على مخالفة من خالفه ، و عدم قبولهم لما جاء به من عند الله إذ يقول له : « انا ارسلناك » بالحق و هو القرآن ودين الاسلام المتكفل لمصالح الدنيا والآخرة .

«بشيراً ونذيراً» لتبشّر المؤمنين الذين اتبعوك وصدقوك بالنعيم الدائم و تنذر الذين كذبوك و خالفوك بأن مصيرهم الى الجحيم . و أنت غير مسؤول عنهم بعد ما أدّيت ما عليك من إبلاغ الرسالة ، فليس عليك إجبارهم على قبول ما جئتهم به من الله ولا تؤاخذ بذنوبهم .

وهذه الآية وإن لم يكن فيها بعض ما على المؤمن من التكليف لكنهما مقدمة للآية التي بعدها وهي قوله تعالى :

ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير (١٢٠) .

كان اليهود والنصارى يطلبون من النبي ﷺ الهدنة ، ويظهرون له أنه إن هادنهم وأمهلهم اتبعوه ، وكان هو ﷺ يجتهد في طلب ما يرضيهم ليدخلوا في

الاسلام ، فأخبره الله أنهم لا يسلمون أبداً ، وأمره بترك ما يرضيهم والرجوع الى جهادهم ، وأعلمه أنهم لا يرضون إلا بمتابعتهم في دينهم ، وهذا لا يمكن أن يصدر من الرسول وإنما هو إعلام لأمته . وأمر الله أن يقول لهم : «ان هدى الله هو الهدى» أي : قل لهم : إن دين الاسلام المنزل في القرآن هو الهدى الحق وعليه الطريق المستقيم ، وهو الذي يرضى به الله ، وهو الموصل الى الجنة حيث إنه بدلالة من الله ، وهذا إعلام بعدم إسلام اليهود ، فليس معه أمل أو احتمال في إسلامهم ، وعدم رضاهم عن المسلم إلا باتباعهم .

ثم بين سبحانه حكم من يتبعهم بقوله : «ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مآلك من الله من ولي ولا نصير» اسمعوا أيها المسلمون ، وتأملوا جيداً في هذه الآية الشريفة ، فإن من أراد منكم أن يرضى اليهود والنصارى باتباعهم فيما يهودونه بعد ما جاءكم من القرآن والسنة النبوية فليس لهم ولي يحفظهم من عقاب الله ، وليس لهم نصير يعينهم أو يدفع عنهم العقاب الذي يستحقونه ، جزاء لارضاء أعداء الله .

فيا أيها المؤمنون ، يا أيها المسلمون ، يا ولي الأمر ، التزموا بكتاب الله و شريعته واحكموا بما أنزل الله ، فقد قال تعالى في محكم كتابه :
«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (١) .
«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» (٢) .
«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» (٣) .
«ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم» (٤) فيعمتكم بعقاب من عنده
ويجرى عليكم سننه فيمحقكم محقاً .

ثم تأملوا جيداً في الآية فإنه تعالى قال : «ولئن اتبعت أهواءهم» أي : أن

(١) المائدة : ٤٤ .

(٢) المائدة : ٤٥ .

(٣) المائدة : ٤٧ .

(٤) الحشر : ١٩ .

الذي يدعونكم اليه اليهود والنصارى هو ناشئ عن أهوائهم غير مستند الى شريعة سماوية، وأن الذي أنتم عليه معلوم لديكم إنه نازل من الله فلا تتركوا ما تعلمون أنه حق، وتأخذوا بالذي هو ناشئ عن الهوى - أي هوى أعدائكم - ، وأي إنسان يفعل هذا الفعل - أي يترك الحق المعلوم ويأخذ بهوى عدوه - فهو في غاية من السفاهة والسقوط ، فكل رجل فقير مسلم أو زعيم مسلم ، إذا ترك حكم القرآن وأخذ بأحكام النصارى ، فقد ارتكب اموراً خطيرة كل واحد منها موجب لكفره:

١ - نبذه لأحكام القرآن .

٢ - أخذه واتباعه هوى أعداء الاسلام .

٣ - خيانة المسلمين من أهل شعبه .

٤ - ترجيح منفعة الكافر العدو على منفعة نفسه ومنفعة سائر المسلمين ، وهو يظن أن هؤلاء الأعداء ينفعونه ، ويغفل عن أن الامور كلها بيد الله وأنه يتمكن على إهلاكه في أقل من طرفة عين ، كما جرى ذلك في التاريخ بالنسبة للطغاة والمارقين.

قال رسول الله ﷺ : صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسادا فسد الناس : العلماء والامراء^(١) . فالواجب على العلماء القول والواجب على الامراء التنفيذ.

كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون (١٥١) .

قد ذكر الله في الآيات السابقة كيفية تحويل القبلة الى الكعبة ، وعرف المسلمين أنه قد أنعم عليهم بأن جعل لهم البيت الذي بناه إبراهيم ، ودعا له بما دعا من الخيرات والبركات قبله ، فهذه منة من الله عليهم .

ثم ذكر لهم منة اخرى : وهي الامتنان عليهم بأن أرسل لهم رسولا يتلو

عليهم آياته ... الخ، فهذا الخطاب من الله الى العرب يعرفهم أنه أرسل لهم رسولاً منهم ، وهو محمد بن عبد الله ﷺ فهذا شرف عظيم شرف الله به العرب ، فيكون أدعى لهم الى الايمان به واتباعه، مضافاً الى المنافع الجليلة التي جاء بها، وقد ذكرها بقوله : «يتلو عليكم آياتنا» وهي آيات القرآن المشتملة على الآداب والأحكام ونظام الدنيا والآخرة ، و«يزكمكم» أي: يعرفكم لما تكونوا به أذكىاء ، حيث يأمركم بطاعة الله واتباع مرضاته، «ويعلمكم الكتاب والحكمة» أي : القرآن والوحي من السنة، «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» أي: يعلمكم أشياء لا يمكن العلم بها إلا من طريق الوحي .

تنبيه

إن الله قد شرف العرب وفضلهم بهذه الآيات بأنواع من الفضل والكرامة، ولو أن الخطاب في هذه الآية كان لامة أخرى غير العرب لكتبوها بالذهب، ولعلقوها في المحافل والنوادي والطرق العامة افتخاراً بها أمام العالم، ومع كل الأسف أن العرب ما عرفوا هذا الشرف وما قدروه وما شكروا الله على هذه النعمة، وما عملوا بمضامين الآيات ، فكان المخاطب غيرهم والمقصود سواهم .

أيها العربي المسلم ، التفت الى النعم وعددها .

١ - إن الله أنعم علينا بتحويل القبلة الى الكعبة ، حيث إن اليهود كانوا يعيرون النبي والمسلمين بأنهم اتبعوا قبلتهم فحول الله القبلة .

٢ - إن الله أرسل لكم رسولاً منكم عربياً يكلمكم بلغتكم فتفهمون منه بلا واسطة .

٣ - إن هذا الرسول يتلو عليكم آيات الله، وهي آيات القرآن المشتملة على أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، حيث أعجزت جميع البشر أن يأتوا بآية مثلها.

٤ - يعلمكم الكتاب ، والتعليم شيء آخر غير التلاوة، فإن التعليم عبارة عن تفسير كلماته ، وكشف غوامضه ، وغير ذلك مما يخفى على الناس .

٥ - ويزكيكم، أي: ينمي في علومكم ومعارفكم، ويطهركم من الاعتقادات الفاسدة كالشرك والكفر، ومن الأخلاق الرذيلة كالشح والكبر، ومن الأفعال القبيحة الشنيعة كالقتل والزنا وشرب الخمر والمقامرة.

٦ - يعلمكم الحكمة، وهي ما أوحى إليه من السنة.

٧ - يعلمكم ما لم تعلموا، وهو كل شيء لا يعلم إلا بالوحي.

٨ - وهو أعلاها وأشرفها وأفضلها وهو: توجيه الخطاب إليكم، ولو عقلتم علو هذا الشرف والفضل لتهاقتم عليه تهافت الفرأش على النور اللامع، فإنه تعالى أراد سوقكم إلى أقصى مراتب الكمال وأفضل صفات الانسانية، وأنعم عليكم بنعمة ليس لها ثمن، ولو طبقتكم ما أمركم به النبي ﷺ لارتفعتكم إلى أعلى مراتب العز والشرف في الدنيا والآخرة، ولسدتم به العالم بأجمعه، ولكنكم رغبتم عن هذه الرتب العالية، ولم تتق لها نفوسكم.

فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢).

ثم إنه سبحانه بهد ما لفت نظركم إلى هذه النعم الجسيمة والفضائل العظيمة التي فضلكم بها أمركم بشيء واحد، ووعدكم أنكم إذا فعلتم هذا الشيء وداومتم سوف يبقى هذه النعم عليكم، ولا ينقص منها شيئاً، فقال عز وجل: «فاذكروني اذكركم» تكليف يسير ما أخفّه وما أسهلّه، وجزاء عظيم جزيل ما أنفعه وما أفخمه. أيها المسلم، إن الله عز وجل يخاطبك بلا واسطة، ويقول لك اذكروني أذكرك، فإذا ذكر الله الذي بيده الأمور كلها قضى لك أمورك الدنيوية والآخرية. والمقصود من الذكر في الآية الشريفة ليس الذكر باللسان، بل هو الذكر الذي يقابله النسيان والغفلة.

قال رسول الله ﷺ في وصيته لعلي عليه السلام: يا علي ثلاث لا تطيقها هذه الأمة:

المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كل حال، وليس هو سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم

عليه خاف الله عز وجل عنده وتر كه (١).

وقال ﷺ يوماً لأصحابه : ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من الدينار والدرهم ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلونيهم ويقتلوكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ذكر الله عز وجل كثيراً (٢) فيكون المقصود من الذكر هو التذكر بالقلب .

وقد روي عن الباقر عليه السلام : ثلاث من أشد ما عمل العباد : إنصاف المؤمن من نفسه ، ومواساة المرء أخاه ، وذكر الله على كل حال ، وهو أن يذكر الله عز وجل عند المعصية بهم بها ، فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية ، وهو قول الله عز وجل : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » (٣).

وروي عن الصادق عليه السلام قال : « إن الله تبارك وتعالى يقول : من شغل بذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي ما سألتني » (٤).

وروي عن الصادق عليه السلام قال : قال الله تعالى : « ابن آدم اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي ، ابن آدم اذكرني في خلاء اذكرك في خلاء ، اذكرني في ملأ اذكرك في ملأ خير من ملائك ».

وقال عليه السلام : ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس إلا ذكره الله في ملائكة (٥).

أيها المسلمون ، فكروا جيداً وتأملوا في قول الله عز وجل : « فاذكروني اذكركم » حتى تعرف ما ذكرك له وما ذكره لك ، أما ذكرك له بأن يكون قلبك ذا كراً له في كل الأحوال والأزمان ، فاذا ذكرت لك أوامره فإن قلبك ينشرح

(١) الخصال : ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ١٥٧ ب ١ ح ٢٩ .

(٣) الخصال : ج ١ ص ١٣١ ، والاية ٢٠١ من سورة الاعراف .

(٤) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ١٥٧ ب ١ ح ٣٠ ، المحاسن : ج ١ ص ٩٣ ح ٤٣ .

(٥) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ١٥٨ ب ١ ح ٣١ ، المحاسن : ج ١ ص ٣٩ ح ٤٤ .

لها ويأنس بها ويقبلها حق قبولها.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته و صيامه وتلاوته ، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته و صيامه وتلاوته للقرآن ^(١) .

فعلى هذا من يكون ذا كراً لله في كل وقت فهو مطيع له في جميع الأوامر والنواهي، وأن المعصية - كما يفيد الحديث النبوي - لا تصدر من العبد إلا بالغفلة عن ذكر الله، فإن العبد إذا أراد ارتكاب المعصية ثم التفت إلى أثرها السيئ الموجب للبعد عن الله ارتدع منها وتر كعاد إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ^(٢) . أما ذاك الذي يهمل بالمعصية فيذكر بالله أو هو يذكركم فلا يرتدع عن معصيته فهو طاغ جهول لا يعرف مقام ربه وعلو كبريائه وإحاطته بمخلوقاته، فالقلب إذاً يكون صاحبه مطيعاً لله في كل الأحوال ما دام القلب ذا كراً، وهذا هو الذي أمرنا به الله بقوله : «اذكروني» فإن الأمر مطلق من جميع الوجوه ، وهذا القلب هو أعلى القلوب مقاماً ورتبة .

قال الامام الصادق عليه السلام : إعراب القلوب على أربعة أنواع : رفع وفتح وخفض ووقف ، ورفع القلب في ذكر الله ، وفتح القلب في الرضا عن الله ، وخفض القلب في الاشتغال بغير الله ، ووقف القلب في الغفلة عن الله ^(٣) .

وأما ذكره لك فقد قيل في تفسيره :

١ - عن سعيد بن جبیر : اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي ^(٤) .

٢ - عن ابن عباس : اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي والذين جاهدوا

(١) معاني الاخبار : ص ٣٩٩ ج ٥٦ ، بحار الانوار : ج ٩٣ ص ١٥٦ ب ١ ح ٢٢ .

(٢) الاعراف : ٢٠١ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٠ ص ٥٥ ب ٤٤ ح ٢٥ .

(٤) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٣٤ .

فينا لنهديهم سبلنا،^(١) .

٣ - عن بعضهم : اذكروني على ظهر الأرض اذكركم في بطنها^(٢) .

٤ - واذكروني في الدنيا اذكركم في العقبى^(٣) .

٥ - اذكروني في النعمة و الرخاء اذكركم في الشدة والبلاء^(٤) ، وفي الخبر: تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة^(٥) .

٦ - اذكروني بالدعاء اذكركم بالاجابة كما في قوله : «ادعوني أستجب لكم»^(٦) .

٧ - روي عن الباقر عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله : «إن الملك ينزل الصحيفة من أول النهار وأول الليل يكتب فيها عمل ابن آدم ، فأملوا في أولها خيراً وفي آخرها خيراً، فإن الله يغفر لكم ما بين ذلك إن شاء الله، فإن الله يقول : «اذكروني اذكركم»^(٧) .

هذا ما قيل في تفسيرها، وهناك أقوال غير ما ذكر ، ولكن اذا رجعنا الى كلام الله نراه يقول : «فاذكروني اذكركم» بلا قيد أو شرط أو زمان أو مكان أو حال ، فقد وعدنا أن يذكركم اذا ذكرناه ، فإذا كان العبد على ذكر من ربه في كل وقت ذكره الله كذلك إن الله لا يخلف الميعاد. ثم إن ذكر الله لعبده يكون مطابقاً لذكر العبد لربه ، فإن ذكر العبد ربه ذكر خضوع وخشوع ونذل ، ذكره الله ذكر رحمة ورأفة. أمّا اذا ذكر ربه وهو مصرّ على معصيته ولم يردعه ذكر الله عن عصيانه فسوف يكون ذكر الله له ذكر مقت ولعن وطرده .

ارشاد

قد يكون العبد ذا كراً لربه وهو خاشع خاضع ذليل متضرع غير متلبس

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٣٤ والاية ٦٩ من سورة العنكبوت .

(٢-٥) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٦) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٣٤ والاية ٦٠ من سورة غافر .

(٧) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٣٤ .

بمعصية في تلك الساعة ، ولكن مع ذلك لم يكن أهلاً لأن يذكره الله ذلك الذكر الذي يدخله تحت عناية الله والذي يوجب له نعيم الأبد الذي لا انقطاع له .

وبدل على هذا ما ذكره في عدة الداعي عن النبي ﷺ قال: أوحى الله تعالى إليّ، أن يا أخا المرسلين ويا أخا المنذرين، أنذر قومك لا يدخلوا بيتاً من بيوتني ولأحد من عبادي عند أحدهم مظلمة ، فإني ألعنه ما دام قائماً يصلي بين يدي حتى يرد تلك المظلمة... الخ^(١).

فانكشف لنا من هذا الحديث : أن الله إنما تعهد أن يذكر عبده الذاكر له بقوله : « فاذكروني أذكركم » ، أن المقصود أو المتيقن هو العبد الذاكر لله في جميع حالاته بحيث لا يتعمد معصيته ، أما الذي ينهب مال الناس ويظلمهم ثم يأكل ويشرب ويلبس من هذا المال ، فيأتي إلى بيت الله فيقف وقوف الأتقياء ويصلي بخضوع وخشوع ، فهذا لا يذكره الله إلا باللعن ، فلا يخدع الإنسان نفسه « إنما يتقبل الله من المتقين »^(٢) ولكن لا يمنعه الله رزقه في الدنيا ، فإن هذا الرزق منقطع لا دوام له ، ويعطيه الله للمؤمن والكافر .

وقد روي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً »^(٣) قال: أما والله إن كانت أعمالهم أشدّ بياضاً من القباطي ولكن كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه^(٤).

قوله « واشكروا لي ولا تكفرون » لا ريب أن شكر المنعم مما يحكم العقل بوجوبه ، لا سيما إذا كانت النعمة من القوي المتمكن من سلبها ممن أنعم بها عليه ، وقد سمى الله غير الشاكرين بالكافرين في آيات عديدة من القرآن ، فيكون الشكر واجباً شرعاً وعقلاً ، وحيث إن الشكر موقوف على معرفة النعمة

(١) عدة الداعي : ص ١٢٩ .

(٢) المائدة : ٢٧ .

(٣) الفرقان : ٢٣ .

(٤) تفسير البرهان : ج ٣ ص ١٥٨ .

ومعرفة المنعم فقد عدد الله النعم التي تفضل بها علينا في الآية (١٥١) ثم أمرنا بمعرفته بقوله «اذكروني»، ثم عرفنا بأن شكره واجب علينا، فقد نبهنا وعرفنا مقدمات الشكر، وهذه أيضاً نعمة عظيمة يجب الشكر لها.

و أما حقيقة الشكر فهي أن يعترف العبد بأن النعم من عنده، وأن من جرت على يده بعض المقدمات من البشر فهي أيضاً من الله، فإن هذه المعرفة هي أول مراحل الشكر.

وبعد أن يحصل العبد هذه المرحلة يظهرها إلى الخارج بواسطة أسانه، فيشكر الله ويحمده فهذه المرحلة الثانية، والمرحلة الأولى والثانية هما نعمتان من الله على عبده. المرحلة الثالثة : أن يصرف النعمة التي حصل عليها في الوجه الذي أمره الله به، ولا يصرفها فيما لا يرضي الله، والهداية والتوفيق في هذه من الله أيضاً، فتبين من هذا أن حقيقة الشكر لا تحصل إلا باستعمال النعم في المحل الذي أمرنا الله به، وهذا يشمل النعم العامة من الخلق والخلق والعقل والصحة وسلامة الأعضاء وغيرها مما لا تحصى ولا تعد، فكل شيء من هذه النعم إذا استعملها العبد في غير ما أمر به فهو كفران للنعمة.

المرحلة الرابعة : امتثال أوامر الله كلها وترك نواهيه، سواء كانت الأوامر واجبة أو مندوبة، وسواء كانت النواهي محرمة أو مكروهة، وهذه المرحلة الرابعة توضيحاً للمثالثة، إذ معنى صرف النعم فيما أمر الله به هو امتثال للأوامر والنواهي. ولكن قد يتوهم البعض أن النعم هي ما يتنعم بها في الدنيا، ويغفل عن نعم الآخرة التي هي النعم الحقيقية.

قال الامام الصادق عليه السلام : في كل نفس من أنفاسك شكر لازم لك بل ألف أو أكثر، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله تعالى من غير علة يتعلق القلب بهادون الله عز وجل، والرضا بما أعطى، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته، فكن لله عبداً شاكراً على كل حال، تجد الله رباً كريماً على كل حال، ولو كان عند الله تعالى عبادة تعبد بها عباده المخلصين أفضل من الشكر على

كل حال لأطلق لفظة منهم من جميع الخلق بها ، فلمّا لم يكن أفضل منها خصّتها من بين العبادات ، و خصّ " أربابها فقال : « وقليل من عبادي الشكور » ،^(١) و تمام الشكر الاعتراف بلسان العز خاضعاً لله عزّ وجلّ بالعجز عن بلوغ أدنى شكره ، لأنّ التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها وهي أعظم قدراً وأعزّ وجوداً من النعمة التي من أجلها وفقت له ، فيلزمك على كل شكر شكراً أعظم منه الى ما لانهاية له ، مستغرقاً في نعمه قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره ، و أننى يلحق العبد شكر نعمة الله ومتى يلحق صنيعه بصنيعه والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلا بالله عزّ وجلّ ، و الله غنيّ عن طاعة العبد ، قويّ على مزيد النعم على الأبد ، فكن لله عبداً شاكراً ترى العجب^(٢) .

إيقاظ

لما تبين أن حقيقة الشكر هي امتثال أوامر الله ونواهيه وصرف نعمه فيما يحبّه ، والكفران عبارة عن صرف نعمه فيما يكرهه ، أو ترك الأوامر وارتكاب النواهي ، يلزم العبد الشاكر معرفة المحبوب عند الله وتمييزه عمّا سواه ، وتشخيص الأفعال التي أمر الله بها ، وكذا معرفة الأمور التي نهى عنها ، وحيث إنّ المحبوب عنده و المبعوض لديه لا يمكن معرفته إلا من قبله ، إمّا مذكور في القرآن أو بأخبار النبي ﷺ عن الله ، ولا مجال لمعرفة ذلك بغير الطريق المخبر عن الله عزّ وجلّ ، فينحصر الطريق الموصل إليه بالنبي ﷺ وبمن عنده علم النبي ﷺ ، ولا يمكن معرفته بالقياس أو الاستحسان ، ولا يجوز الأخذ ممن يدعي العلم مالم يسند ذلك الى القرآن أو النبي بطريق قطعي ، فلا فائدة بما يسلكه بعض الناس من الطرق المخطئة ، فإنّ اتعابه تذهب سدى ولا يحصل على فائدة دنيوية ولا اخروية .
روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : عبد الله حبر من أحبار بني إسرائيل

(١) سبأ : ١٣ .

(٢) مصباح الشريعة : ص ٢٤ .

حتى صار مثل المخلال^(١) ، فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له : وعزتي وجلالي وجبروتي ، لو أنك عبدتني حتى تذوب كما تذوب الآلية في القدر ، ما قبلت منك حتى تأتيني من الباب الذي أمرتك به^(٢) .

محصل البحث

لقد تحصل مما ذكرنا من تفسير الآيتين الشريقتين ما يأتي :

- ١- أن الله خاطب العرب بما فضلهم به، فعليهم أن يفخروا بهذا الخطاب على سائر الأمم .
 - ٢- أنه أرسل لهم رسولاً منهم، فعليهم تصديق هذا الرسول ومتابعة إرشاده.
 - ٣- يلزمهم الاستماع لأي القرآن إذا تلى عليهم.
 - ٤- عليهم أن يزكوا أنفسهم بما زكاهم به النبي من نبذ الأخلاق الفاسدة الاعتقادية والعملية.
 - ٥- يلزمهم تعلم أحكام الكتاب والحكمة، وهي السنة النبوية التي لم يكونوا يعلموها من قبل .
 - ٦- عليهم أن يكونوا دائماً في ذكر الله ، ليدكرهم وينقذهم مما وقعوا فيه من الرجوع إلى الجاهلية .
 - ٧- يلزمهم شكر المنعم على جميع نعمه، وإلا فهم عند الله من الكافرين .
- فإذا لم يمكنهم الانصاف بهذه الصفات فقد ذكر الله لهم ما يعينهم ويساعدهم على رياضة أنفسهم وكبح جماحها ، فقال عز وجل :

يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع

الصابرين (١٥٣) .

(١) المخلال : ما يثقب به ، عرد يجرول في لسان الفصيل لثلا يرضع . (المنجد).

(٢) ثواب الاعمال : ص ٢٤٢ ح ١ .

قد وجه الله تبارك وتعالى النداء في هذه الآية الى المؤمنين الذي صدقوا النبي ﷺ فيما جاء به من الأوامر المذكورة في الآيات المتقدمة وفيما يأتي من الامور بعد هذه الآية ، وحيث إن الأوامر هي من الامور العظام ، عرف الله المؤمنين وأرشدهم الى أن هذه الامور اذا كانت شديدة عليهم ، وأن نفوسهم لا تطيقها ، فليستعينوا على ثقلها بأمرين :

(١) الصبر . (٢) الصلاة .

أما الصبر فهو حبس النفس وتوطئتها على ما تنفر منه من الطاعات و عما ترغب إليه وتأنس به من المعاصي ، وقد وعدهم أنهم اذا وطئوا أنفسهم على ذلك أنه سيكون معهم ، أي يؤيدهم و ينصرهم ويخفف عليهم ما يرونه ثقيلاً من الطاعات ، ويبغض لهم ما يرونه مؤسماً من المعاصي ، فإذا صبروا ووطئوا أنفسهم سهلت حينئذ عليهم الامور التي كلفوا بها في الآيات المتقدمة والآيات التي تأتي بعد هذه الآية من جهاد الكفار والتغاب عليهم .

وأما الصلاة فحيث إنها عبارة عن ذكر الله تعالى ، وقد وعدهم الله تعالى في الآية المتقدمة أنه يذكرهم إذا ذكروه ، ففي هذه الآية يقول لهم اذا أكثرتم من ذكرى فلا تستصعبوا شيئاً لأنني أذكركم في جميع حالاتكم ، فاذا ذكرتمكم خف عليكم كل شيء من العبادات والطاعات وجهاد الأعداء وإن كانوا أضعافكم ، فإن النصر النهائي لكم .

إيقاظ

أيتها الامم المسلمة ، أما فيكم أمة تتمسك بالاسلام متمسكاً حقيقياً تتدبر هذه الآية وتعمل بها ليكون الله معها فتخلص المسلمين أجمع من مخالب المستعمرين وتنقذهم من تلاعب المفسدين ، فيكون النصر النهائي لها وحدها ، تنبها قليلاً وتدبروا حال اليهود وما كانوا عليه من الذل والهوان ، ليس لهم مأوى وملجأ ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ثم نظروا أطراف الدنيا فرأوا أن العرب

لقمة سائغة ، فأغاروا على أرضهم واستلبوها ، وفي كل يوم نسمع من إذاعاتهم السخرية والاستهزاء بالعرب ، والله تعالى يخاطبكم ويقول لكم: سيروا على الطريق الذي رسمته لكم وأنا معكم ، فما بالكم ؟ وما هذا التخاذل ؟ أما ترون أن الله قادر على اكتساح اليهود من أرضكم ؟ أما تؤمنون بوعد الله ؟ أما تعتقدون بصدق القرآن ؟ بلى إنكم تتصفون بالصبر دون الصلاة في قتل بعضكم بعضاً ، ففي كل يوم لكم مجزرة يقتل فيها طائفة منكم ، توهنون بذلك عضدكم ، وتقللون عددكم ؟ وتضعفون قوتكم ، ولكن صبركم هذا ليس الصبر الذي أمر الله ، وإنما هو أمر من الشيطان . آية واحدة من عشرات الآلاف ، أما تعلمون بها فيضمن لكم خير الدنيا والآخرة ؟

قوله تعالى: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون (١٥٤).

لمّا أمرنا الله بالاستعانة بالصبر والصلاة على أداء واجباتنا ومنها الجهاد في سبيل الله ، وحيث إنّه هو أشدّ الواجبات وأعظمها على البشر ، نبهنا أن المقتول في الجهاد سوف تستمر حياته في عالم البرزخ ، فهو منعّم هناك فلا تسمّوه ميتاً وإن كانت هذه الحياة لا تشعرون بها أنتم .

وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن أرواح المؤمنين فقال : هي في الجنة على صور أبدانهم لورأيت له لقلت فلان ^(١) .

ومثله كثير من الأخبار وإنما خصّ الشهداء في الآية لمزيد قربهم الى الله وترغيباً للمؤمنين في الجهاد ، فإنّ الحياة هناك خير من الحياة في الدنيا ، فإنّ حياة الدنيا مشوبة بالابتلاء بما ذكره الله في الآية اللاحقة .

وفي أمالي الشيخ عن يونس بن ظبيان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال: ما يقول الناس في أرواح المؤمنين بعد موتهم؟ قلت: يقولون في حواصل طيور خضر. فقال: سبحان الله! المؤمن أكرم على الله من ذلك إذا كان ذلك أتمه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومعهم ملائكة الله عز وجل المقربون، فإن أنطق الله لسانه بالشهادة له بالتوحيد وللنبي صلى الله عليه وآله بالنبوة والولاية لأهل البيت عليهم السلام شهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والملائكة المقربون معهم، وإن اعتقل لسانه فإن نبيه عليه السلام يعلم ما في قلبه من ذلك، فيشهد به و شهد على شهادة النبي صلى الله عليه وآله وعلي فاطمة والحسن والحسين على جماعتهم من الله أفضل الصلاة والسلام ومن حضر معهم من الملائكة، فإذا قبض الله روحه إليه صير تلك الروح إلى الجنة في صورة كصورته في الدنيا فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدنيا ^(١).

وحكي عن المحاسن عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله قال: ذكر الأرواح أرواح المؤمنين فقال: يلتقون؟ قال: نعم يتساءلون ويتعارفون حتى إذا رأيتهم قلت فلان ^(٢).

فتنبهوا يا أهل هذا العصر، واعلموا أنكم إذا تبعتم هوى الكفار سوف يكون لكم بعد الموت كما يكون لهم من العذاب، وإذا متم في جهادكم لدفعهم عن بلادكم فإنكم تكونون أحياء منعمين، والسلام على من اتبع الهدى.

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والافس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) الذين إذا أصابتهم مصيبة

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ج ٢ ص ٣٣، بحار الأنوار: ج ٦ ص ٢٢٩ ب ٨ ح ٣٢.

(٢) المحاسن: ج ١ ص ١٧٨ ب ٤٠ ح ١٦٤.

قالوا انا لله وانا اليه راجعون (١٥٦) اولئك عليهم صلوات من ربهم
ورحمة واولئك هم المهتدون (١٥٧).

لما أخبر الله عباده بأنه تفضل عليهم بإرسال رسول منهم ، وأمرهم بتصديقه
واستماع ما يتلوه عليهم ، وأن يزكّوا أنفسهم بتقبل ما يأمرهم به من صفات الكمال ،
ثم بين لهم بأنكم اذا وجدتم أنفسكم غير خاضعة لهذه الامور فاستعينوا على
إخضاعها بالصبر والصلاة ، وأخبرهم أن الصابر على حرّ الجلال والمقتول في سبيل
الله سيبقى حياً منعماً في البرزخ ، ولا ريب أن هذه التكاليف من الله هي ابتلاء
واختبار ، حتى يتميز المطيع من العاصي ، وكذا الامور التي كلف بها عباده من
واجبات ومحرمات كلها اختبار لهم ، إلا أن العباد لما كانوا مختلفين في الطاعة
والمعصية: فبعضهم يتقبل التكاليف من أول الأمر بلا حاجة الى الاستعانة بالصبر
والصلاة ، ولكن شعاره الصبر و قرّة عينيه الصلاة .

وقسم منهم لا يمكنه إخضاع نفسه وتذليلها إلا بالاستعانة بالصبر والصلاة .
وقسم ثالث وهو الأغلب لم تؤثر فيه هذه الامور كلها ، لاموعظة الله وإرشاده ،
ولامعجزة النبي ﷺ بل بقي مصراً على العصيان والشفاء ، مع إقامة الحجة عليه
كاملة ، فهذا القسم مستحق للعذاب ، ولكن رأفة الله ورحمته بعباده ليس لها حد ،
ولذا أعلمنا أنه سيبتلينا ويختبرنا بصورة اخرى من الاختبار ، فإن ذاك اختبار
كان بتوجيه الأمر والنهي فقط ، وهذا النوع ممزوج بشيء من الآلام والأسقام
والنقص في الأنفس والثمرات ليكون تذكرة لعقاب الآخرة .

و هذا الابتلاء موجود في زماننا هذا سنة ١٣٨٨ هـ ، فإنك ترى أغلب
الناس مبتلى بأحد هذه الامور أو بأكثر من واحد ، ولكن العجب العجيب أن
الناس لا يشعرون ولا يلتفتون بأن هذا هو ابتلاء من الله ، فإنهم ينسبون ذلك الى

٦٧ — في الصابرين الذين أمر الله النبي بشارتهم أعدائهم أو سوء تصرفهم أو الصدف كما يعثرون ، وتراهم لا يقلعون عما هم عليه من الجرائم والمعاصي ، فاذا سنحت لهم الفرصة اشتغلوا بالموبقات كما كانوا ، ولهذا نرى أن الابتلاء مستمر ليس له أمد وانقطاع ولعله يكون كاستمرار حياة الشهيد التي ذكرت في الآية السابقة .

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام كما في النهج قال : إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات ، وحبس البركات ، وإغلاق خزائن الخيرات ، ليتوب تائب ، ويقطع مقلع ، ويتذكر متذكر ، ويزدجر مزدجر ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام قال : إن هذه علامات قدام القائم - عجل الله فرجه - تكون من الله للمؤمنين من الخوف : من ملوك بني أمية في آخر سلطانهم ، والجوع : بغلاء أسعارهم ، ونقص من الأموال : فساد التجارات وقلة الفضل ، ونقص من الأنفس : الموت الذريع ، ونقص من الثمرات : لقلة ربيع ما يزرع . «وبشر الصابرين» بقية كلام الصادق عليه السلام : بشر الصابرين عند ذلك بتعجيل خروج القائم عليه السلام . ثم قال : هذا تأويله «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» ^(٢) .

ثم إن الصابرين الذين أمر الله النبي بشارتهم لا يخلو أمرهم إما أن يكونوا قد اتصفوا بملكة الصبر قبل ابتلاء الله الناس بهذه الأمور أو بعد الابتلاء ، فإن كان اتصافهم بالصبر قبل الابتلاء فإنهم لا يبتلون بهذه الأمور ، لأن الله معهم كما في الآية السابقة ، ومن كان الله معه لا يبتلى بما ذكر لانتهاه اختباره ونجاحه بالايمان الحقيقي والتأييد والنصر من الله ، ويؤيد هذا ما ذكر في سبب صبرهم وهو اعتقادهم الراسخ وإظهار هذا الاعتقاد بالقول والاعتراف بأنهم ملك لله تعالى .

«الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون» المالك يفعل ما يشاء في ملكه ، ثم عقبه بقوله «اولئك عليهم صلوات من ربهم .. الخ»

(١) نهج البلاغة : ضبط صبحي الصالح ، الخطبة ١٤٣ ص ١٩٩ .

(٢) تفسير البرهان : ج ١ ص ١٦٧ ، والاية ٧ من سورة آل عمران .

أي: أن هذا الصنف من الناس تكون عليهم صلوات ، أي تزكية وغفران ولطف من ربهم ورحمة ، أي: إحسان من الله ، فتكون بشارتهم برفع هذا البلاء عنهم ، لأنهم قد رجعوا الى الله وسلموا الأمر إليه «واولئك هم المهتدون» الى طريق الحق حيث عرفوه بدلالة الله إياهم.

ما ذكره المراجع في تفسيره

«كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا» أي: ولأنتم نعمتي عليكم باستيلائكم على البيت الذي جعلته قبلة لكم ، و تطهيركم له من عبادة الأصنام، كما أتممتها عليكم بإرسال رسول منكم وهو محمد (ص) ، فالقبلة في بلادكم ، والرسول من أمتكم ، وهو يتلو عليكم آياتنا التي ترشدكم الى الحق وتهديكم الى سبيل الرشاد .

وهي تشمل آيات الكتاب الكريم وغيرها من الدلائل والبراهين التي تدل على وحدانية الله ، وعظيم قدرته، وبديع تصرفه في السموات والأرض. ووجه المنّة في ذلك أنه يهديهم الى الحق مصحوباً بالدليل والبرهان ، دون التقليد والتسليم بلا تبصّر وفهم، وبذا يكون العقل مستقلاً والدين له مرشداً وعادياً .

«وينزّلكم» أي: يطهر نفوسكم من أدران الرذائل التي كانت فاشية في العرب من وأد البنات ، وقتل الأولاد تخلصاً من النفقة ، وسفك الدماء لأوهن الأسباب ، ويغرس فيها فاضل الأخلاق وحميد الآداب .

وبهذه الزكاة التي زكّوا بها أنفسهم، فتحوا الممالك الكبرى وكانوا أئمة الامم التي كانت تحتقر هذا الجنس ، وعرفوا لهم فضلهم بعدلهم وسياستهم للامم سياسة حكيمة، أنستهم سياسة الامم التي قبلهم ، وجعلت لذلك الدين أثراً في نفوسهم، فدانوا لحكمه خاضعين واهتدوا بهديه راشدين .

«ويعلمكم الكتاب، أي: ويعلمكم القرآن الكريم، ويبين لكم ما انطوى عليه من الحكم الالهية، والأسرار الربانية التي لأجلها وصف بأنه هدى ونور. فالنبي ﷺ كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه، حتى يبقى مصوناً من التحريف والتصحيف، ويرشدكم الى ما فيه من أسرار وحكم ليهتدوا بهديه ويستضيؤوا بنوره.

«والحكمة، وهي العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها الباعث على العمل بها. ذاك أن سنة الرسول العملية وسيرته في بيته ومع أصحابه - في السلم والحرب والسفر والاقامة، في الفلة والكثرة - جاءت مفصلة لمجمل القرآن، مبيته لمبهمه كاشفة لما في أحكامه من الأسرار والمنافع.

ولولا هذا الارشاد العملي لما كان البيان القولي كافياً في انتقال الأمة العربية من طور الشتات والفرقة والعداء والجهل، الى الائتلاف والاتحاد والتآخي والعلم وسياسة الامم.

فالنبي ﷺ وقف أصحابه على فقه الدين، و نفذ بهم الى سره، فكانوا حكماء، علماء، عدولاً، أذكاء، حتى أن أحدهم كان يحكم المملكة العظيمة، ويقيم فيها العدل، ويحسن السياسة، وهو لم يحفظ من القرآن إلا بعضه، لكنه فقهه وعرف أسرار أحكامه.

«ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، أي: ويعلمكم مع الكتاب والحكمة ما ليس مصدر علمه النظر والفكر، بل طريق معرفته الوحي كأخبار عالم الغيب، وسير الأنبياء وأحوال الامم التي كانت مجهولة عندكم، وأكثرها كان مجهولاً عند أهل الكتاب أيضاً، وقد بلغوا في هذا النوع من العلم مبلغاً فاقوا به سائر الامم. «فأذكروني أذكركم، أي: اذكروني بالطاعة بالسنتكم بالحمد والتسبيح وقراءة كتابي الذي أنزلته على عبدي، و بقلوبكم بالفكر والأدلة التي نصبتها في

الكون لتكون علامة على عظمتي وبرهانا على قدرتي ووحدايتي ، وبجورحكم بالقيام بما أمرتكم به واجتنابكم ما نهيتكم عنه ، اجازيكم بالثواب والاحسان ، وإفاضة الخير ، وفتح أبواب السعادة ، ودوام النصر والسلطان .

و في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل :
أنا عند ظن عبدي وأنا معه اذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، و اذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً^(١) الحديث .
وهذه أفضل تربية من الله لعباده ، اذا ذكره ذكرهم بإدامة النعم والفضل ،
و اذا نسوه نسيهم وعاقبهم بمقتضى العدل .

وبعد أن أعلمهم ما يحفظ النعم ، أرشدهم الى ما يوجب المزيد منها بمقتضى الجود والكرم فقال : « واشكروا لي ولا تكفرون ، أي : واشكروا لي هذه النعم بالعمل بها وتوجيهها الى ما وجدت لأجله ، والثناء علي بالقلب واللسان ، والاعتراف بإحساني إليكم ولا تكفروا هذه المنن التي أوليتكموها بصرفها في غير ما يبيحه الشرع والسنن الالهية .

و هذا تحذير من الله لهذه الامة حتى لا تقع فيما وقعت به الامم السابقة إذ كفرت بأنعم الله ، فلم تستعمل العقل والحواس فيما خلقت لأجله ، فسلبها ما كان قد وهبها تأديباً لها ولغيرها .

وقد امتثل المسلمون هذه الأوامر حيناً من الدهر ، ثم تركوها بالتدريج فحل بهم ما ترى من النكال والوبال كما قال تعالى : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم و لئن كفرتم إن عذابي لشديد »^(٢) .

ويا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء و لكن لا تشعرون * ولنبلوئكم بشيء من

الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات و بشر الصابرين * الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون * اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون .

تفسير المفردات:

الصبر: توطين النفس على احتمال المكاره. والابتلاء: الاختبار و الامتحان.
و المراد بالأموال: الانعام التي كانت معظم ما يتموله العرب . والمصيبة: كل ما يؤذي الانسان في نفس أو مال أو أهل ، قل أو كثر. و الصلاة من الله : التعظيم و إعلاء المنزلة عنده و عند الناس . والرحمة : اللطف بما يكون لهم من حسن العزاء ، والرضا بالقضاء .

المعنى الجملى:

بعد أن ذكر سبحانه افتتان الناس بتحويل القبلة ، وأقام الحجة على الشاغبين وبين فوائد التحويل للمؤمنين ومن أهمتها البشارة ، و كون ذلك طريقاً للهداية لما في الفتن من تمييز الخبيث من الطيب ، والمسلم من المنافق ، ثم قفى على ذلك بالأمر بذكره و شكره على هذه النعم ، ليستبين للناس أن تحويل القبلة الذي صورته السفهاء بصورة النعمة هو نعمة كبرى ومنة عظمى.

بين في هذه الآيات أن هذه النعم التي يجب ذكرها وشكرها تقرر بضروب من البلاء وألوان من المصائب . من أعظمها ما يلاقيه أهل الحق من مقارعة أشياخ الباطل كما حدث ذلك حين كان المؤمنون في قلّة من العدد والعدد تناوئهم الامم جمعاء ، وقد تألب عليهم المشركون حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، كما لاقوا من أهل الكتاب عنثاً وكيداً . لهذا كله أمر عباده أن يستعينوا على مقاومة ذلك كله بالصبر والصلاة ، إذ في الصبر تربية ملكة الثبات وتعود تحمل المشاق

فيهون على النفس احتمال ما تلاقيه من المكروه في سبيل تأييد الحق ونصر الفضيلة . يظهر أثر ذلك في ثبات الانسان على إثبات حق أو إزالة باطل ، أو الدعوة الى عقيدة أو تأييد فضيلة ، ومصارعة الشدائد لأجل ذلك ، وعلى هذا جرى النبي ﷺ و صحبه - عليهم الرحمة والرضوان - حتى فازوا بعاقبة الصبر ، ونصرهم الله نصراً مؤزراً على قلتهم وضعفهم عن جميع الامم التي حو اليهم .

وفي الصلاة التوجه الى الله ومناجاته وحضور القلب معه سبحانه ، واستشعار المصلي للهيبه والجلال و هو واقف بين يدي ربه ، كما جاء في الحديث : اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك^(١) .

وهو بهذا الشعور المالك للبه المالىء لقلبه ، يستسهل في سبيله كل صعب ويستخف بكل كرب ، ويحتمل كل بلاء و يقاوم كل عناء ، فلا تتوق نفسه لما لا يرضى ربه الذي يلجأ اليه في الملمات ، و يركن اليه اذا أفرغته النائبات .

و ليست الصلاة التي عنها الكتاب الكريم هي مجرد القيام و الركوع والسجود والتلاوة باللسان خاصة ، والتي نشاهد من معتاديهما الاصرار على الفواحش والمنكرات و اجتراح السيئات ، إذ لا أثر لها مما وصفه الله بقوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »^(٢) و قوله « إن الانسان خلق هلو عاً* اذا مسه الشر جزوعاً* واذا مسه الخير منوعاً* إلا المصلين »^(٣) ومن ثم نرى الذين يصلون هذه الصلاة أضعف الناس قلوباً وأشدهم اضطراباً اذا عرض لهم شيء على غير ما يرون ، وما كان للمصلي أن يكون ضعيف القلب عادم الثقة بالله ، والله يبرئه من ذلك ويقول « إلا المصلين » .

الايضاح :

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة » أي : استعينوا على إقامة

(١) بحار الانوار : ج ٧٧ ص ٧٤ ب ٤ ح ٣ . (٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) المعارج : ١٩ - ٢٢ .

ما ذكره المراهي حول آية ١٥٣ و ١٥٤ / البقرة ————— ٧٣

دينكم والدفاع عنه ، وعلى سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة ، بالصبر وتوطين النفس على احتمال المكروه ، و بالصلاة التي تكبر بها الثقة بالله عز اسمه ، وتصغر بمناجاته فيها كل المشاق .

وإنما خصّ الصبر والصلاة بالذكر لأنّ الصبر أشدّ الأعمال الباطنة على البدن ، والصلاة أشدّ الأعمال الظاهرة عليه ، إذ فيها خضوع واستسلام لله ، وتوجه بالقلب إليه ، واستشعار لعظمة الخالق ، و قد روي أنه (ص) كان اذا حزبه أمر واشتدّ عليه، فزع الى الصلاة وتلا هذه الآية .

«إنّ الله مع الصابرين، أي : إنّ الله ناصرهم ومجيب دعوتهم ، و من كان الله ناصرهم فلا غالب له ، أمّا الجازع فقلبه لا يـ عن ذكر الله ، والقلب الالهي ممتلىء بهموم الدنيا وأكدارها وإن حاز الدنيا بحذاويرها.

وقد جرت سنّة الله، أنّ الأعمال العظيمة لا تنجح إلا بالثبات والدأب عليها، ومدار ذلك كلّ الصبر ، فمن صبر فهو على سنّة الله والله معه ، فيسهّل له العسير من أمره، ويجعل له فرجاً من ضيقه ، ومن لم يصبر فليس الله معه لأنه تنكّب عن سنّته ، فلن يبلغ قصده وغايته .

«ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ، أي : ولا تتحدّثوا في شأنهم فتقولوا إنّهم أموات بل هم أحياء في عالم غير عالمكم ، ولكن لا تشعرون بحياتهم إذ ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر ، بل هي حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس، وبها يرزقون وينعمون ولا نعرف حقيقة هذه الحياة ولا الرزق الذي يكون فيها ولا نبحت عن ذلك ، لأنه من عالم الغيب فنفوض أمره الى الله ، وقيل : إنّها حياة روحانية محضة لا ندرك سرها .

وقد أبان سبحانه في هذه الآية جزاء ما يلاقيه المؤمن في تأييد الدعوة الى

دينه مما يصل به أحياناً الى القتل في التغلب على من يصدّ الناس عن الدعوة ، ويقاوم في الدفاع عن الباطل ، فذكر ما أعدّ له من النعيم المقيم والرزق المتواصل والحياة التي لا يعرف كنهها إلا علام الغيوب جزاء ما فعل ، لتأييد حجة الله البالغة والجهر بالحق والصدق بأمر ربّه ، فكان له ما كان مما لم تره عين ولا سمعت به اذن ولا خطر على قلب بشر .

«ولنبلو نكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات» أي: والله لنمتحننكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء ، وبعض المصائب المعتادة في المعاش كالجوع ونقص الثمار ، إذ كان أحدهم يؤمن فيفصل من أهله وعشيرته ، ويخرج صفر اليدين ، حتى لقد بلغ من جوعهم أن كانوا يتبلغون بثمرات يسيرات ولا سيما في غزوتي الأحزاب وتبوك ، ونقص الأنفس بالقتل والموت من اجتواء المدينة ، فقد كانت حين الهجرة بلد وباء وحمى ثم حسن مناخها .

وفي الآية إيماء الى أن الانتساب الى الايمان لا يقتضي سعة الرزق ، وبسط النفوذ وانتفاء المخاوف ، بل كل ذلك يجري بحسب السنن التي سنتها الله لخلقها ، فتقع المصائب متى وجدت أسبابها ، وكامل الايمان يتأدب بمقاومة الشدائد ويتهدب بوقوع الكوارث . «وبشّر الصابرين* الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» أي : وبشّر الصابرين الذين يقولون هذه المقالة المعبرة عن الايمان بالقضاء والقدر ، بالظفر بحسن العاقبة في امورهم كلّها بحسب ما وضع من السنن في الكون ، والصبر ينافي ما يحدث من الحزن حين حلول المصيبة ، فإنّ ذلك من الرقة والرحمة الطبيعيين في الانسان .

وقد جاء في الصحيحين أن النبي (ص) بكى عندما حضر ولده إبراهيم الموت

ف قيل له : أليس قد نهيتنا عن ذلك؟ قال : إنها الرحمة، ثم قال : إن العين لتدمع، وإن القلب ليجزع، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .
والجزع المذموم هو الذي يدعو صاحبه الى فعل ما يمججه العقل وينهى عنه الشرع ، مما نرى مثله عند الجماهير اذا حلت بهم المصائب ونزلت بهم الكوارث .
روى مسلم عن ام سلمة - رضي الله عنها - أنها قالت : سمعت رسول الله (ص) يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها ، إلا آجره الله في مصيبته ، وأخلف له خيراً منها .
وأخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال : من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عاقبته ، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه .
و في قوله «إنا لله» إقرار بالعبودية والملك . وفي قوله «إنا إليه راجعون» إقرار بالفناء والبعث من القبور ، واليقين بأن مرجع الأمر كله لله تعالى .

«اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة» أي: اولئك الصابرون لهم من ربهم مغفرة ومدح على ما فعلوا ، ورحمة يجدون أثرها في برد القلوب عند نزول المصيبة وهذه الرحمة يحسد عليها الكافرون المؤمنون ، فإن الكافر الذي حرم من هذه الرحمة اذا نزلت به المصيبة تضيق به الأرض بما رحبت ، حتى قد يقضي على نفسه بيده اذا لم يجد وسيلة للخلاص مما حل به .

«واولئك هم المهتدون» الى الحق والصواب ومن ثم استسلموا للقضاء ، فلم يستحوذ الجزع على نفوسهم ففازوا بخير الدنيا والراحة فيها ، وسعادة الآخرة بتزكية النفس وتحليها بمكارم الأخلاق وصالح الأعمال ^(١) انتهى كلام المراغي .

ما ذكره سيد قطب في تفسيره

« كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم

الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فازكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» والذي يلفت النظر هنا أن الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التي سبقت في السورة وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل ، دعوته أن يبعث الله في بنيه من جيرة البيت رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم ، ليدكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم ووجودهم هم أنفسهم مسلمين هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم ، وفي هذا ما فيه من إحياء عميق بأن أمرهم ليس مستحدثاً إنما هو قديم ، وأن قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم ، وأن نعمة الله عليهم سابغة فهي نعمة الله التي وعدّها خليله وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد .

إن نعمة الله توجيهمكم الى قبلتكم وتميزكم بشخصيتكم هي إحدى الآلاء المطردة فيكم ، سبقتها نعمة إرسال رسول منكم .

« كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ، فهو التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم ، وأن يختار الرسول الأخير منكم ، وقد كانت اليهود تستفتح به عليكم .

« يتلو عليكم آياتنا » فما يتلو عليكم هو الحق ، والإحياء الآخر هو الأشعار بعظمة التفضل في أن يخاطب الله العبيد بكلامه ، يتلوه عليهم رسوله وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه حين تتعمق حقيقته ، فمن هم هؤلاء الناس ؟ من هم وما هم حتى يخاطبهم الله سبحانه بكلماته ، ويتحدث إليهم بقوله ويمنحهم هذه الرعاية الجليلة ؟ من هم وما هم لولا أن الله يتفضل . ولولا أن فضل الله يفيض ، ولولا أن سبحانه منذ المبدأ منحهم فضل النفحة من روحه ، ليكون فيهم ما يستأهل هذا الانعام وما يستقبل هذا الافضال ؟

« ويزكيكم » ولولا الله ما زكى منهم من أحد ، ولا تطهر ولا ارتفع ، ولكنه

أرسل رسوله (ص) يطهرهم ، يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية ورجس التصورات التي تثقل الروح الانساني وتظمره ، ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات، فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة ، والذين لا يطهر الاسلام أرواحهم في جنبات الأرض كلها قديماً وحديثاً يرتكسون في مستنقع آسن وبيء من الشهوات والنزوات تزرى بإنسانية الانسان ، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة ، وهي أنظف كثيراً مما يحبط إليه الناس بدون الايمان، ويطهر جمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب ، وهي كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر ويلطخ المجتمع والحياة ويطهر حياتهم من الظلم والبغي ، وينشر العدل النظيف الصريح الذي لم تستمتع به البشرية ، كما استمتعت في ظل الاسلام وحكم الاسلام ومنهج الاسلام ، ويطهرهم من سائر اللوثات التي تلطخ وجه الجاهلية في كل مكان من حولهم ، وفي كل مجتمع لا يزكيه الاسلام بروحه ومنهجه النظيف الطهور.

«ويعلمكم الكتاب والحكمة» ، وفيها شمول ما سبق من تلاوة الآيات وهي الكتاب، وبيان للمادة الأصلية فيه وهي الحكمة ، والحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب وهي ملكة يأتي معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة، وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات، وكذلك تحققت هذه الثمرة ناضجة لمن ربّاهم رسول الله وزكّاهم بآيات الله .

«ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» ، وكان ذلك حقاً في واقع الجماعة المسلمة فقد التقطها الاسلام من البيئة العربية لا تعلم إلا أشياء قليلة متناثرة تصلح لحياة القبيلة في الصحراء ، أو في تلك المدن الصغيرة المنعزلة في باطن الصحراء ، فجعل منها أمة تقود البشرية بقيادة حكيمة راشدة خبيرة بصيرة عالمة، وكان هذا القرآن مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن هو مادة التوجيه والتعليم، وكان مسجد رسول الله الذي يتلى فيه القرآن والتوجيهات المستمدة من القرآن ، هو

الجامعة الكبرى الذي تخرج فيها ذلك الجيل الذي قاد البشرية تلك القيادة الحكيمة الراشدة ، القيادة التي لم تعرف لها البشرية نظيراً من قبل ولا من بعد في تاريخ البشرية الطويل ، و ما يزال هذا المنهج الذي خرج ذلك الجيل و تلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال و قيادات على مدار الزمان لو رجعت الأمة المسلمة الى هذا المعين، ولو آمنت حقاً بهذا القرآن ولو جعلته منهجاً للحياة لا كلمات تتغنى باللسان لتطريب الآذان ، و في آخر هذا الدرس يتفضل الله على المسلمين تفضلاً آخر وهو يدعوهم الى شكره ، ويحذّرهم من كفره، يتفضل عليهم فيضمن لهم أن يذكّرهم اذا هم ذكروه .

«فأذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» يا للتفضل الجليل الودود، الله جلّ جلاله يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئاً لذكركم له في عالمهم الصغير، إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة ، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة ، والله حين يذكركم يذكركم في هذا الكون الكبير وهو الله العلي الكبير ، أي تفضل وأي كرم وأي فيض في السماحة والجود .

«فأذكروني أذكركم» إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله الذي لا خازن لخزائنه ولا حاسب لعطاياه ، الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو سبحانه فيفاض العطاء، وفي الصحيح بقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه. وفي الصحيح أيضاً قال رسول الله (ص): قال الله عز وجل: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة (أو قال: في ملأ خير منه) وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشى أتيتك هرولة . إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب . وذكر الله ليس لفظ باللسان إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه

والشعور بالله ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثراً ينتهي الى الطاعة في حده الأدنى والى رؤية الله وحده ، ولا شيء غيره لمن يهبه الله الوصول و يذيقه حلاوة اللقاء .
 « واشكروا لى ولا تكفرون » ، والشكر لله درجات تبدأ بالاعتراف بفضلته والحياء من معصيته ، وتنتهى بالتجرد لشكره والقصد الى هذا الشكر في كل حركة بدن ، وفي كل لفظة لسان ، وفي كل خفقة قلب ، وفي كل خطرة جنان .

والنهي عن الكفر هنا المانع الى الغاية التي ينتهى إليها التقصير في الذكر والشكر ، وتحذير من النقطة البعيدة التي ينتهى إليها هذا الخط التعميس والعيان بالله .
 ومناسبة هذه التوجيهات والتحذيرات في موضوع القبلة واضحة ، وهي النقطة التي تنتهى عندها القلوب لعبادة الله والتميز بالانتساب إليه والاختصاص بهذا الانتساب .

وهي كذلك واضحة في مجال التحذير من كيد اليهود ودسّتها ، وقد سبق أن الغاية الأخيرة لكل الجهود هي : ردّ المؤمنين كفاراً وسلبهم هذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم ، نعمة الايمان أكبر الآلاء التي ينعم الله بها على فرد أو جماعة من الناس ، وهي بالقياس الى العرب خاصة ، النعمة التي أنشأت لهم وجوداً وجعلت لهم دوراً في التاريخ ، وقرئت اسمهم برسالة يؤدونها للبشر وكانوا بدونها ضائعين ولولاها ظلّوا ضائعين ، وهم بدونها أبداً ضائعون فمالهم من فكرة يؤدّون بها دوراً في الأرض غير الفكرة التي انبثقت منها ، وما تنقاد البشرية لقوم لا يحملون فكرة تقود الحياة و تنمّيها ، وفكرة الاسلام برنامج حياة كامل لا كلمة تقال باللسان بلارصيد من العمل الايجابي المصدق لهذه الكلمة الطيبة الكبيرة .

وتذكّر هذه الحقيقة واجب على الأمة المسلمة ليذكرها الله فلا ينساها ومن نسيه الله فهو مغفور ضائع لا ذكر له في الأرض ، ولا ذكر له في الملأ الأعلى ، ومن ذكر الله ذكره ، ورفع من وجوده ، وذكر في هذا الكون العريض .

و لقد ذكر المسلمون الله فذكرهم و رفع ذكرهم و مكّنهم من القيادة الراشدة ، ثم نسوه فنسيهم فإذا هم هممل ضايع و ذيل تافه ذليل و الوسيلة قائمة والله يدعّوهم في قرآنه الكريم «فأذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» .

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» .

بعد تقرير القبلة و افراد الأمة المسلمة بشخصيتها المميزة التي تتفوق مع حقيقة صورتها المميزة كذلك ، كان أول توجيه لهذه الأمة ذات الشخصية الخاصة و الكيان الخاص . هذه الأمة الوسط الشهيدة على الناس كان أول توجيه لهذه الأمة : هو الاستعانة بالصبر و الصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم ، و الاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء ، و نقص الأموال والأنفس والثمرات والخوف والجوع ومكابدة أهوال الجهاد لإقرار منهج الله في الأنفس ، وإقراره في الأرض بين الناس و ربط قلوب هذه الأمة بالله وتجردها له ورد الأمور كلها إليه ، كل أولئك في مقابل رضا الله و رحمته و هدايته : وهي وحدها جزاء ضخم للقلب المؤمن الذي يدرك قيمة هذا الجزاء .

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة إن الله مع الصابرين» يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً ، ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع ، و الذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات و العقبات ، و الذي يتطلب أن تبقى

النفس مشدودة الأعصاب مجتدة القوى يقظة للمداخل والمخارج ، ولا بد من الصبر في هذا كله ، لا بد من الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعاصي ، والصبر على جهاد المشاقي لله ، والصبر على الكيد بشتى صنوفه ، والصبر على بطلان النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتعاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، والصبر على طول الطريق الشائك ، والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلوب ، وثقله العناد ، ومظاهرة الاعراض .

وحين يطول الأمد ويشق الجهد قد يضعف الصبر أو ينفذ إذا لم يكن هناك زاد ومدد ، ومن ثم يقرن الصلاة الى الصبر ، فهي المعين الذي لا ينضب ، والزاد الذي لا ينفد ، المعين الذي يجدد الطاقة ، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع ، ثم يضيف الى الصبر الرضا والبشاشة والطمأنينة والثقة واليقين . إنه لا بد للانسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة ، حينما تواجه قوى الشر الباطنة والظاهرة حينما يتقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع ، حينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد ، وهي عنيفة حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً ، وقد أوشك المغيب ولم ينل شيئاً ، وشمس العمر تميل للغروب حينما يجد الشر نافشاً ^(١) ، والخير ضاوباً ^(٢) ، والاشعاع في الافق ولا معلم في الطريق .

هنا تبدو قيمة الصلاة ، إنها الصلة المباشرة بين الانسان الفاني والقوة الباقية إنها الموعد المختار للقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يفيض ^(٣) ، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض . إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير

(١) أي خصباً ومقبلاً عليه .

(٢) ضعيفاً وهزئلاً .

(٣) ينقص أو ينضب .

الى مجال الواقع الكون الكبير ، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة ، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود ، و من هنا كان رسول الله (ص) اذا كان في الشدة قال : أرحنا بها يا بلال . و يكتر من الصلاة إذا حزّ به أمر ليكثر من اللقاء بالله .

إنّ هذا المنهج الاسلامي منهج عبادة، والعبادة فيه ذات أسرار، ومن أسرارها أنها زاد الطريق ، وأنها مدد روح ، وأنها جلاء القلب ، وأنه حيث ما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر ، إنّ الله سبحانه حينما انتدب محمداً للدور الكبير الشاق الثقيل قال له :

«يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً * إنا سنقلّي عليك قولاً ثقيلاً»^(١) فكان الاعداد للقول الثقيل والتكليف الشاق والدور العظيم : هو قيام الليل وترتيل القرآن ، إنها العبادة التي تفتح القلب ، و توثق الصلة، وتيسر الأمر ، و تشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان .

و من ثم يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام الى الصبر والى الصلاة ، ثم يجيء التعقيب بعد هذا التوجيه .

«إنّ الله مع الصابرين» معهم يؤيّدهم و ينبتهم و يقوّيهم و يؤنسهم ، و لا يدعهم يقطعون الطريق و حدهم و لا يتركهم لطافتهم المحدودة و قوتهم الضعيفة ، إنما يمدّهم حين ينفذ زادهم ، ويجدد عزيمتهم حين يطول بهم الطريق وهو يناديهم في أول الآية ذلك النداء الحبيب «يا أيها الذين آمنوا» و يختم النداء بذلك التشجيع العجيب «إنّ الله مع الصابرين» .

والأحاديث في الصبر كثيرة نذكر بعضها لمناسبتها للسياق القرآني هنا في

إعداد الجماعة المسلمة لحمل عبثها والقيام بدورها .

عن خباب بن الأرت قال : شكونا الى رسول الله (ص) و هو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه و عظمه ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليأتى الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

و عن ابن مسعود قال : كأني أنظر الى رسول الله يحكي نبياً من الأنبياء ﷺ ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه و يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

وعن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي (ص) قال : قال رسول الله: المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم .

والآن والجماعة المسلمة في المدينة مقبلة على جهاد شاق لاقرار منهج الله في الأرض ، ولأداء دورها المقسوم لها في قدر الله ، ولتسلم الراية والسير بها في الطريق الشاق الطويل . الآن يأخذ القرآن في تعبثها تعبئة روحية و في تقويم تصوّرها لما يجري في أثناء هذا الجهاد من جذب ودفع ومن تضحيات وآلام ، وفي إعطائها الموازين الصحيحة التي تقدر بها القيم في هذه المعركة الطويلة تقديراً صحيحاً .

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ، إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق ، شهداء في سبيل الله ، قتلى أعزاء أحبباء ، قتلى كراماً أذكىاء ، فالذين يخرجون في سبيل الله والذين

يضحون بأرواحهم في معركة الحق ، هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس، هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً إنهم أحياء، فلا يجوز أن يقال عنهم أموات ، لا يجوز أن يعتبروا أمواتاً في الحس والشعور ، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان، إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه فهم لابد أحياء. إنهم قتلوا في ظاهر الأمر وحسب ما ترى العين ، ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة، إن سمة الحياة الأولى هي الفعالية والنمو والامتداد، وسمة الموت الأولى هي السلبية والجمود والانقطاع، وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصره الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة الفكرة التي من أجلها قتلوا، ترتوي بدمائهم وتمتد ، وتؤثر الباقين من ورائهم باستشهادهم يقوى ويمتد ، فهم ما يزالون عنصراً فعالاً دافعاً مؤثراً في تكييف الحياة وتوجيهها ، وهذه هي صفة الحياة الأولى فهم أحياء أولاً بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس .

ثم هم أحياء عند ربهم، إمّا بهذا الاعتبار وإمّا باعتبار آخر لا ندري نحن كنهه وحسبنا أخبار الله تعالى به «أحياء ولكن لا تشعرون» لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود ولكنهم أحياء .

أحياء ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها ، فالغسل تطهير للجسد الميت، وهم أطهار بما فيهم من حياة وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء .

أحياء فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء ، أحياء يشار كون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء، أحياء فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ولا يتعاطمها الأمر ولا يهولنها عظم الفداء.

ثم هم بعد كونهم أحياء مكرمون عند الله مأجورون أكرم الاجرة وأوفاء .

في صحيح مسلم : إنَّ أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلمّا رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا: قالوا : نريد أن تردنا الى دار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة اخرى لما يرون من ثواب الشهادة ، فيقول الرب " جلّ جلاله : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وعن أنس قال: قال رسول الله (ص): ما أحديد دخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة، ولكن من هم هؤلاء الشهداء الاحياء؟ إنهم أولئك الذين يقتلون في سبيل الله ، في سبيل الله وحده دون شركة في إشارة ولا هدف ولا غاية إلا الله، في سبيل هذا الحق الذي أنزله في سبيل هذا المنهج الذي شرعه، في سبيل هذا الدين الذي اختاره، في هذا السبيل وحده ، لا في أي سبيل آخر، ولا تحت أي شعار آخر ، ولا شركة مع هدف أو شعار ، وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر غير الله .

وعن أبي موسى قال : سئل رسول الله (ص) عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

وعن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا، فقال: لا أجر له، فأعاد عليه ثلاثاً كل ذلك يقول: لا أجر له. وعنه قال: قال رسول الله (ص): تضمن الله تعالى لمن خرج في سبيل الله، لا يخرج به إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو عليّ ضامن أن ادخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة ، والذي

نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده لو أن أشق على المسلمين ما فعدت خلاف سريّة تغزو في سبيل الله عز وجل أبداً، ولكن لأجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة فيتبعوني ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لو ددت أن أغزو في سبيل الله فاقتل، ثم أغزو فاقتل، ثم أغزو فاقتل.

فهؤلاء هم الشهداء، هؤلاء الذين يخرجون في سبيل الله لا يخرجهم إلا الجهاد في سبيله وإيمان به وتصديق برسله.

ولقد كره رسول الله (ص) لفتى فارسي يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بجنسيته في مجال الجهاد.

عن عبدالرحمن بن أبي عقبة، عن أبيه - وكان مولى من أهل فارس - قال: شهدت مع النبي (ص) أحداً، فضربت رجلاً من المشركين فقلت: خذها وأنا الغلام الفارسي، فالتفت الي النبي (ص) فقال: هلاً قلت: وأنا الغلام الأنصاري، إن ابن اخت القوم منهم وإن مولى القوم منهم.

فلقد كره (ص) أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين، وهذا هو الجهاد، وفيه وحده تكون الشهادة وتكون الحياة للشهداء.

ثم يمضي السياق في التعبئة لمواجهة الأحداث، وفي تقويم التصور لحقيقة الأحداث.

«ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون».

ولابد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات. ولابد من هذا

البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة كي تعزّ على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف ، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها ، لا يعزّ عليهم للتخلي عنها عند الصدمة الأولى ، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعزّ به العقيدة في نفوس أهلها ، قبل أن تعزّ في نفوس الآخرين ، وكلما تألموا في سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها كانت أعزّ عليهم و كانوا أظنّ بها ، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها ، وصبرهم على بلائها ، إنهم عندئذٍ سيقولون في أنفسهم : لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يتلون به و أكبر ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه ، وعندئذٍ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها مقدرين لها مندفعين إليها ، وعندئذٍ يجيء نصر الله والفتح ، ويدخل ناس في دين الله أفواجا ، ولا بدّ من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى ، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومدخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد والقيم والموازين والتصورات . ما كانت لتصحّ وتدقّ وتستقيم إلا في جوّ المحنة التي تزيل الغش عن العيون والران عن القلوب .

وأهم من هذا كله أو القاعدة لهذا كله الاتجاء الى الله وحده حين تهتزّ الأسناد كلها وتتوارى الأوهام وهي شتى ، ويخلو القلب الى الله وحده لا يجد سندا إلا سنده . وفي هذه اللحظة فقط تتجلى الغشاوات ، وتفتح البصيرة ، وينجلي الافق على مدّ البصر لا شيء إلا الله ، لا قوة إلا قوته ، لا حول إلا حوله ، لا إرادة إلا إرادته ، لا ملجأ إلا اليه ، وعندئذٍ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح .

والنصّ القرآني هنا يصل بالنفس الى هذه النقطة على الافق .

«وبشر الصابرين* الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» .

إنا لله كلّمنا ، كل ما فينا ، كل كيانتنا وذاتيتنا لله ، وإليه المرجع والمآب في كلّ

أمر ، وفي كل مصير ، التسليم ، التسليم المطلق ، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهاً لوجه بالحقيقة الوحيدة وبالتصور الصحيح.

هؤلاء هم الصابرون الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل، وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل.

«اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون، صلوات من ربهم يرفعهم بها الى المشاركة في نصيب نبيهم الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه ، وهو مقام كريم ورحمة وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون ، وكل أمر من هذا هائل عظيم .

وبعد فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة ، في تلك التعبئة للصف الاسلامي ، التعبئة في مواجهة المشقة والجهد والاستشهاد ، والقتل والجوع والخوف و نقص الأموال و الأنفس و الثمرات ، التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف، إن الله يضع هذا كله في كفة ، و يضع في الكفة الاخرى أمراً واحداً «صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون» إنه لا يعدهم هنا نصراً ، ولا يعدهم هنا تمكيناً ، ولا يعدهم هنا مغانم ، ولا يعدهم هنا شيئاً إلا صلوات الله ورحمته وشهادته، لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها ، وأكبر من حياتها فكان من ثم يجردها من كل غاية ، ومن كل هدف ، و من كل رغبة من الرغبات البشرية ، حتى الرغبة في انتصار العقيدة ، كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق لهم ولطاعته وادعوته ، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون الى شيء ، إلا رضا الله و صلواته و رحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون ، هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية ، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها، فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم إنما هو دعوة الله التي يحملونها .

إن لهم في صلوات الله و رحمته و شهادته جزاء على التضحية بالأموال

والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة، وجزاء على القتل والشهادة، إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجح من النصر وأرجح من التمكين، وأرجح من شفاء غيض الصدور. هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الأعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين^(١) انتهى ما في ظلال القرآن.

ما ذكره ابن كثير في تفسيره

«كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون* فاذا كروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» يذكر الله عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ اليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنة، ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفّهون بالقول، فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء وسجاياء العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً وأصدقهم لهجة، وقال تعالى، «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم»^(٢) الآية، وذم من لم يعرف هذه النعمة فقال تعالى: «ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرًا وأحلّوا قومهم دارالبور»^(٣). قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمد (ص) ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، وقال: «فاذا كروني أذكركم

(١) في ظلال القرآن: ج ١ ص ١٣٨ - ١٤٦.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

(٣) إبراهيم: ٢٨.

واشكروا لي ولا تكفرون، .

قال مجاهد في قوله «كما أرسلناه فيكم رسولا منكم»، يقول : كما فعلت
فأذكروني .

قال عبدالله بن وهب عن هاشم بن سعيد عن زيد بن أسلم: إن موسى عليه السلام
قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد
شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني .

وقال الحسن البصري وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس: إن الله يذكر
من ذكره ، ويزيد من شكره ، ويعذب من كفره .

وقال بعض السلف في قوله تعالى : «اتقوا الله حق تقاته» ^(١) قال : هو أن يطاع
فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

و قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، أخبرنا يزيد بن
هارون ، أخبرنا عمارة السيدلاني ، أخبرنا مكحول الأزدي قال : قلت لابن عمر:
أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله تعالى وقد قال الله
تعالى : «فأذكروني أذكركم»؟ قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلمنته حتى يسكت.
وقال الحسن البصري في قوله : «فأذكروني أذكركم»، قال : أذكروني فيما
افترضت عليكم أذكركم فيما أوجب لكم على نفسي .

و عن سعيد بن جبیر: أذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي . وفي رواية:
برحمتي .

وعن ابن عباس في قوله : «أذكروني أذكركم»، قال: ذكر الله إيتاكم أكبر
من ذكركم إيتاء .

وفي الحديث الصحيح: يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي
ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه .

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله (ص) : قال الله عز وجل : يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتني في نفسي ، وإن ذكرتني في ملاذك ذكرتني في ملا من الملائكة - أوقال - : في ملا خير منه ، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أنيتني تمشي أنيتك هرولة . صحيح الاسناد أخرجه البخاري من حديث قتادة، وعندة قال قتادة : الله أقرب بالرحمة .

وقوله : «واشكروا لي ولا تكفرون» أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال : « وإذ تاذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» (١) .

و قال الامام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا شعبه ، عن الفضيل بن فضالة - رجل من قيس - حدثنا أبو رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول الله (ص) قال : من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه . وقال روح مرة : على عبده .

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين* ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» .

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر والارشاد والاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن العبد إما يكون في نعمة فيشكر عليها أو في نقمة فيصبر عليها ، كما جاء في الحديث «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له» ، ويثبت تعالى أن أجود ما يستعان به على المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله تعالى : «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» (٢) .

وفي الحديث: أن رسول الله (ص) كان إذا حزّ به أمر صلى .

و الصبر على أنواع : فصبر على ترك المحارم و المآثم ، و صبر على فعل الطاعات و القربات ، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود .

و أمّا الصبر الثالث : و هو الصبر على المصائب و النوائب فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعائب كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الصبر في باين : الصبر لله بما أحبّ و إن ثقل على الأنفس والأبدان ، و الصبر لله عما كره فهو من الصابرين الذي يسلم عليهم إن شاء الله .

وقال علي بن الحسين زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد : أين الصابرون ليدخلون الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون : الى أين يا بني آدم ؟ فيقولون : الى الجنة ، فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ، قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، و صبرنا عن معصية الله ، حتى توفانا الله ، قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

قلت : ويشهد لهذا قوله تعالى : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»^(١) .

وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه ، واحتسابه عند

الله رجاء ثوابه . وقد يجزع الرجل وهو متجلّد لا يرى منه إلا الصبر .

وقوله تعالى : «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء» يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء في صحيح مسلم : أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ...

وقال الامام أحمد : حدثنا يزيد وعباد بن عباد قالا : حدثنا هشام بن أبي

هشام حدثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن علي عن النبي (ص) قال : ما من مسلم و لامسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها و إن طال عهدا فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاها مثل أجرها يوم أصيب .

ورواه ابن ماجه في السنن عن أبي بكر بن أبي شيبة عن و كيع عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. وقد رواه إسماعيل بن علي و يزيد ابن هارون عن هشام بن زياد عن أبيه (كذا) عن فاطمة عن أبيها.

و قال الامام أحمد : أخبرنا يحيى بن إسحاق السيلحي ، أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال : دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعني الخولاني - فأخرجني و قال لي : ألا ابشرك ؟ قلت : بلى ، قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله (ص) : قال الله : يا ملك الموت ، قبضت ولد عبدي ؟ قبضت قرّة عينيه و ثمرة فؤاده ؟ قال : نعم ، قال : فما قال ؟ قال : حمدك و استرجع ، قال : ابن له بيتاً في الجنة و سمّوه بيت الحمد . ثم رواه عن علي بن إسحاق عن عبد الله بن المبارك فذكره ، و هكذا رواه الترمذي عن سويد بن ناصر بن المبارك به و قال : حسن غريب ، و اسم أبي سنان عيسى بن سنان ^(١) انتهى كلام ابن كثير .

ما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسيره

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * و لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات و بشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة و أولئك هم المهتدون ، ^(٢) .

بيان :

خمس آيات متحدة السياق متسقة الجمل ملتزمة المعاني ، يسوق أولها الى

آخرها ويرجع آخرها الى أولها ، وهذا يكشف عن كونها نازلة دفعة غير متفرقة وسياقها ينادي بأنها نزلت قبيل الأمر بالقتال وتشريع حكم الجهاد ، ففيه ذكر من بلاء سيقبل على المؤمنين و مصيبة ستصيبهم ، ولا كل بلاء ومصيبة بل البلاء العمومي الذي ليس بعادي الوقوع مستمر الحدوث ، فإن نوع الانسان كسائر الأنواع الموجودة في هذه النشأة الطبيعية لا يخلو في أفراد من حوادث جزئية يختل بها نظام الفرد في حياته الشخصية ، من موت ومرض وخوف وجوع وغم وحرمان سنة الله التي جرت في عباده وخلقه ، فالدار دارالتزاحم ، والنشأة نشأة التبدل والتحول « ولن تجد لسنة الله تحويلاً » ^(١) « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » ^(٢) .

والبلاء الفردي وإن كان شاقاً على الشخص المبتلى بذلك مكروهاً ، لكن ليس مهولاً مهيباً تلك المهابة التي تتراءى بها البلايا و المحن العامة ، فإن الفرد يستمد في قوة تعقله وعزمه وثبات نفسه من قوة سائر الأفراد .

وأما البلايا العامة الشاملة فإنها تسلب الشعور العمومي وحملة الرأي والحزم والتدبير من الهيئة المجتمعة ، و يختل به نظام الحياة منهم ، فيتضاعف الخوف وتتراكم الوحشة ويضطرب عندها العقل والشعور وتبطل العزيمة والثبات . فالبلاء العام والمحنة الشاملة أشق وأمر ، وهو الذي تلوح به الآيات ، ولا كل بلاء عام كالوباء و الفحط ، بل بلاء عام قربتهم منها أنفسهم ، فإنهم أخذوا دين التوحيد وأجابوا دعوة الحق وتخالفهم فيه الدنيا وخاصة قومهم ، وما لهؤلاء هم إلا إطفاء نور الله واستئصال كلمة العدل وإبطال دعوة الحق . ولا وسيلة تحسم مادة النزاع وتقطع الخلاف غير القتال ، فسائر الوسائل كإقامة الحججة و بث الفتنة وإلقاء الوسوسة والريبة وغيرها صارت بعد عقيمة غير منتجة ، فالحجة من النبي ﷺ والوسوسة والفتنة والدسياسة ما كانت تؤثر أثراً تطمئن إليه أعداء الدين ، فلم يكن عندهم

(١) فاطر : ٤٣ .

(٢) الاحزاب : ٦٢ ، الفتح : ٢٣ .

وسيلة إلا القتال والاستعانة به على سدّ سبيل الحق ، وإطفاء نور الدين اللامع المشرق ، هذا من جانب الكفر .

والأمر من جانب الدين أوضح ، فلم يكن الى نشر كلمة التوحيد وبثّ دين الحق وحكم العدل و قطع دابر الباطل وسيلة إلا القتال ، فإنّ التجارب الممتدة من لدن كان الانسان نازلاً في هذه الدار ، يعطي أنّ الحق إنما يؤثر إذا اميط الباطل ، ولن يماط إلا بضرب من أعمال القدرة والقوة .

وبالجملة : ففي الآيات تلويح الى إقبال هذه المحنة بذكر القتل في سبيل الله ، وتوصيفه بوصف لا يبقى فيه معه جهة مكروهة ولا صفة سوء ، وهو أنه ليس بموت بل حياة ، وأيّ حياة! فالآيات تستنهض المؤمنين على القتال وتخبرهم أنّ أمامهم بلاء ومحنة لن يناوؤا مدارج المعالي وصلاة ربهم ورحمته والاهتداء بهدايته إلا بالصبر عليها وتحمل مشاقها ، و يعلمهم ما يستعينون به عليها وهو الصبر والصلاة .

أمّا الصبر فهو وحده الوقاية من الجزع واختلال أمر التدبير ، وأمّا الصلاة فهي توجه إلى الرب وانقطاع الى من بيده الأمر ، وأنّ القوة لله جميعاً .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين ، الآية ، قد تقدم جملة من كلام في الصبر والصلاة في تفسير قوله : واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، ^(١) .

والصبر من أعظم الملكات والأحوال التي يمدحها القرآن و يكرر الأمر به حتى بلغ قريباً من سبعين موضعاً من القرآن حتى قيل فيه : « إنّ ذلك من عزم الأمور » ، ^(٢) وقيل : « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ، ^(٣) وقيل : « إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، ^(٤) .

(٢) لقمان : ١٧ .

(٤) الزمر : ١٠ .

(١) البقرة : ٤٥ .

(٣) فصلت : ٣٥ .

والصلاة من أعظم العبادات التي يحث عليها في القرآن ، حتى قيل فيها : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»^(١) وما أوصى الله في كتابه بوصايا إلا كانت الصلاة رأسها وأولها . ثم وصف سبحانه الصبر بأن الله مع الصابرين المتصفين بالصبر ، وإنما لم يصف الصلاة كما في قوله تعالى : «و استعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة» الآية ، لأن المقام في هذه الآيات مقام ملاقات الأهل ومقارعة الأبطال ، فالاهتمام بأمر الصبر أنسب بخلاف الآية السابقة ، فلذلك قيل : «إن الله مع الصابرين» وهذه المعية غير المعية التي يدل عليه قوله تعالى : «و هو معكم أين ما كنتم»^(٢) فإنها معية الاحاطة والقيومة بخلاف المعية مع الصابرين فإنها معية إعانة ، فالصبر مفتاح الفرج .

قوله تعالى : «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» ربما يقال : إن الخطاب مع المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر وأذعنوا بالحياة الآخرة ، ولا يتصور منهم القول ببطالان الإنسان بالموت بعد ما أجابوا دعوة الحق و سمعوا شيئاً كثيراً من الآيات الناطقة بالمعاد ، مضافاً الى أن الآية إنما تثبت الحياة بعد الموت في جماعة مخصوصين وهم الشهداء المقتولون في سبيل الله ، في مقابل غيرهم من المؤمنين وجميع الكفار ، مع أن حكم الحياة بعد الموت عام شامل للجميع ، فالمراد بالحياة بقاء الاسم والذكر الجميل على مر الدهور ، وبذلك فسر جمع من المفسرين .

ويرده أولاً : أن كون هذه حياة إنما هو في الوهم فقط دون الخارج ، فهي حياة تخيلية ليس لها في الحقيقة إلا الاسم ، ومثل هذا الموضوع الوهمي لا يليق بكلامه وهو تعالى يدعو الى الحق ويقول : «فماذا بعد الحق إلا الضلال»^(٣) وأما الذي سأله إبراهيم في قوله : «واجعل لي لسان صدق في الآخرين»^(٤) فإنما يريد

(٢) الحديد : ٤ .

(١) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) يونس : ٣٢ .

(٤) الشعراء : ٨٤ .

به بقاء دعوته الحقّة ولسانه الصادق بعده لأحسن ثنائه وجميل ذكره بعد فحسب .
نعم هذا القول الباطل و الوهم الكاذب إنما يليق بحال الماديين و أصحاب الطبيعة ، فإنهم اعتقدوا مادية النفوس و بطلانها بالموت و نفوا الحياة الآخرة ، ثم أحسّوا باحتياج الانسان بالفطرة الى القول ببقاء النفوس و تأثرها بالسعادة و الشقاء بعد موتها في معالي امور لا تخلو في الارتقاء إليها من التفدية و التضحية ، لا سيما في عظام العزائم التي يموت و يقتل فيها أقوام ليحيى و يعيش آخرون ، ولو كان كل من مات فقد فات لم يكن داعٍ للانسان - وخاصة اذا اعتقد بالموت و الفوت - أن يبطل ذاته ليبقى ذات آخرين ، ولا باعث له أن يحرم على نفسه لذة الاستمتاع من جميع ما يقدر عليه بالجور ليتمتع آخرون بالعدل ، فالعاقل لا يعطي شيئاً إلا و يأخذ بدله ، و أمّا الاعطاء من غير بدل و الترك من غير أخذ - كالموت في سبيل حياة الغير ، و الحرمان في طريق تمتع الغير - فالفطرة الانسانية تأباه ، فلمّا استشعروا بذلك دعاهم جبر هذا النقص الى وضع هذه الأوهام الكاذبة التي ليس لها موطن إلا عرصة الخيال و حظيرة الوهم ، قالوا : إن الانسان الحرّ من رقّ الأوهام و الخرافات يجب عليه أن يفدي بنفسه و طنه أو كل ما فيه شرفه ، لينال الحياة الدائمة بحسن الذكر و جميل الثناء ، و يجب عليه أن يحرم على نفسه بعض تمتعاته في الاجتماع ليناله الآخرون ليستقيم أمر الاجتماع و الحضارة و يتم العدل الاجتماعي فينال بذلك حياة الشرف و العلاء .

وليت شعري اذا لم يكن إنسان و بطل هذا التركيب المادي و بطل بذلك جميع خواصه و من جملة الحياة و الشعور فمن هو الذي ينال هذه الحياة و هذا الشرف ؟ و من الذي يدركه و يلتذّ به ؟ فهل هذا إلا خرافة ؟

وثانياً : أن ذيل الآية و هو قوله تعالى : «ولكن لا تشعرون» لا يناسب هذا المعنى بل كان المناسب له أن يقال : بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل و ثناء الناس

عليهم بعدهم ، لأنه المناسب لمقام التسلية وتطبيب النفس .

وثالثاً : أن نظرية هذه الآية وهي تفسيرها وصف حياتهم بعد القتل بما ينافي هذا المعنى ، قال تعالى : «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» ^(١) الى آخر الآيات ، و معلوم أن هذه الحياة حياة خارجية حقيقية ليست بتقديرية.

ورابعاً : أن الجهل بهذه الحياة التي بعد الموت ليس بكل البعيد من بعض المسلمين في أواسط عهد رسول الله ﷺ ، فإن الذي هو نص غير قابل للتأويل ، إنما هو البعث للقيامة ، وأما ما بين الموت الى الحشر وهي الحياة البرزخية فهي وإن كانت من جملة ما بينه القرآن من المعارف الحققة ، لكنها ليست من ضروريات القرآن ، والمسلمون غير مجمعين عليه بل ينكره بعضهم حتى اليوم ممن يعتقد كون النفس غير مجردة عن المادة ، وأن الانسان يبطل وجوده بالموت وانحلال التركيب ثم يبعثه الله الى القضاء يوم القيامة ، فيمكن أن يكون المراد بيان حياة الشهداء في البرزخ لمكان جهل بعض المؤمنين بذلك ، وإن علم به آخرون .

وبالجملة : المراد بالحياة في الآية الحياة الحقيقية دون التقديرية ، وقد عد الله سبحانه حياة الكافر بعد موته هلاكاً وبواراً في مواضع من كلامه كقوله تعالى «وأحلوا قومهم دارالبوار» ^(٢) الى غير ذلك من الآيات ، فالحياة حياة السعادة والأحياء بهذه الحياة المؤمنون خاصة كما قال : «وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» ^(٣) ، وإنما لم يعلموا لأن حواسهم مقصورة على إدراك خواص الحياة في المادة الدنيوية.

وأما ما دراءها فإذا لم يدركوه لم يفرقوا بينه وبين الفناء فتوهموه فناء ، وما

(١) آل عمران : ١٦٩ .

(٢) ابراهيم : ٢٨ .

(٣) العنكبوت : ٦٤ .

توهمه الوهم مشترك بين المؤمن والكافر في الدنيا ، فلذلك قال في هذه الآية : «بل أحياء ولكن لا تشعرون» أي بحواسكم كما قال في الآية الاخرى : «لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» أي باليقين كما قال تعالى : «كلّالو تعلمون علم اليقين* لترون الجحيم»^(١).

فمعنى الآية - والله أعلم - «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات» ولا تعتقدوا فيهم الفناء والبطلان كما يفيد لفظ الموت عندكم ومقابلته مع الحياة ، وكما يعين على هذا القول حواسكم فليسوا بأموات بمعنى البطلان بل أحياء ولكن حواسكم لا تنال ذلك ولا تشعر به .

وإلقاء هذا القول على المؤمنين - مع أنهم جميعاً أو أكثرهم عالمون ببقاء حياة الانسان بعد الموت و عدم بطلان ذاته - إنما هو ليقاظهم وتنبيههم بما هو معلوم عندهم يرتفع بالالتفات إليه الحرج عن صدورهم والاضطراب والقلق عن قلوبهم اذا أصابتهم مصيبة القتل ، فإنه لا يبقى مع ذلك من آثار القتل عند أولياء القتيل إلا مفارقة في أيام قلائل في الدنيا ، وهو هين في قبال مرضاة الله سبحانه ، وما ناله القتيل من الحياة الطيبة والنعمة المقيمة ورضوان من الله أكبر.

وهذا نظير خطاب النبي ﷺ بمثل قوله تعالى : «الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين»^(٢) الآية ، مع أنه ﷺ أول الموقنين بآيات ربه ، ولكنه كلام كني به عن وضوح المطلب وظهوره بحيث لا يقبل أي خطور نفساني لخلافه.

نشأة البرزخ:

فالآية تدل دلالة واضحة على حياة الانسان البرزخية كآلية النظرية لها وهي قوله : «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون»^(٣)

(١) التكاثر : ٦٥ .

(٢) البقرة : ١٤٧ .

(٣) آل عمران : ١٦٩ .

والآيات في ذلك كثيرة.

ومن أعجب الأمر ما ذكره بعض الناس في الآية أنها نزلت في شهداء بدر ، فهي مخصوصة بهم فقط لاتعدادهم الى غيرهم . هذا وقد أحسن بعض المحققين من المفسرين في تفسير قوله : «واستعينوا بالصبر والصلاة ، ، الآية ، إذ سئل الله تعالى الصبر على تحمل مثل هذه الأقاويل.

وليت شعري ماذا يقصده هؤلاء بقولهم هذا؟ وعلى أي صفة يتصورون حياة شهداء بدر بعد قتلهم مع قولهم بانهدام الانسان بعد الموت والقتل ، وانحلال تركيبه وبطلانه ؟ أهو على سبيل الإعجاز باختصاصهم من الله بكرامة لم يكرم بها النبي الأكرم ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء المقربين إذ خصهم الله ببقاء وجودهم بعد الانعدام؟ فليس ذلك بإعجاز بل بإيجاد محال ضروري الاستحالة، ولا إعجاز في محال ، ولو جاز عند العقل إبطال هذا الحكم على بدايتها لم يستقم حكم ضروري فما دونه ، أم هو على نحو الاستثناء في حكم الحس بأن يكون الحس مخطئاً في أمر هؤلاء الشهداء، فهم أحياء يرزقون بالأكل والشرب وسائر التمتعـاتـ وهم غائبون عن الحسـ وما ناله الحسـ من أمرهم بالقتل وقطع الأعضاء وسقوط الحسـ وانحلال التركيب فقد أخطأ في ذلك من رأس ، فلو جاز على الحس أمثال هذه الأغلاط فيصيب في شيء ويغلط في آخر من غير مخصص بطل الوثوق به على الإطلاق، ولو كان المخصص هو الإرادة الإلهية احتاج تعلقها الى مخصص آخر ، والأشكال وهو عدم الوثوق بالادراك على حاله ، فكان من الجائز أن نجد ما ليس بواقع واقعاً والواقع ليس بواقع ، وكيف يرضى عاقل أن يتفوه بمثل ذلك ؟ وهل هو إلا سفسطة ؟

وقد سلك هؤلاء في قولهم هذا مسلك العامة من المحدثين، حيث يرون أن الأمور الغائبة عن حواسنا مما يدل عليه الظواهر الدينية من الكتاب والسنة ، كالملائكة وأرواح المؤمنين وسائر ما هو من هذا القبيل موجودات مادية طبيعية، وأجسام لطيفة تقبل الحلول والنفوذ في الأجسام الكثيفة على صورة الانسان ونحوه،

يفعل جميع الأفعال الانسانية مثلاً ، ولها أمثال القوى التي لنا ، غير أنها ليست محكومة بأحكام الطبيعة من التغير والتبدل والتركيب وانحلاله ، والحياة والموت الطبيعيتين ، فإذا شاء الله تعالى ظهورها ظهرت لحواستنا ، وإذا لم يشأ أو شاء أن لا تظهر لم تظهر ، مشيئة خالصة من غير مخصص في فاحية الحواس ، أو تلك الأشياء . وهذا القول منهم مبني على إنكار العلوية والمعلولية بين الأشياء ، ولو صححت هذه الامنية الكاذبة بطلت جميع الحقائق العقلية ، والأحكام العلمية ، فضلاً عن المعارف الدينية ، ولم تصل النوبة الى أجسامهم اللطيفة المكرومة التي لا تصل اليها بدالتأثير والتأثير المادي الطبيعي ، وهو ظاهر .

فقد تبين بما مر " أن " الآية دالة على الحياة البرزخية ، وهي المسماة بعالم القبر ، عالم متوسط بين الموت والقيامة ، ينعم فيه الميت أو يعذب حتى تقوم القيامة .

ومن الآيات الدالة عليه - وهي نظيرة لهذه الآية الشريفة - قوله تعالى : **دولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** * **فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** * **يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ، ^(١) قد مر " تقريب دلالة الآية على المطلوب . ولو تدبر القائل باختصاص هذه الآيات بشهداء بدر في متن الآيات لوجد أن " سياقها يفيد اشتراك سائر المؤمنين معهم في الحياة والتنعم بعد الموت .

ومن الآيات قوله تعالى : **وحتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون** * **لعلني أعمل صالحاً فيما تركت** **كلاً إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون** ، ^(٢) والآية ظاهرة الدلالة على أن " هناك حياة متوسطة بين حياتهم

(١) آل عمران ١٦٩ - ١٧١

(٢) المؤمنون : ١٠٠ و ٩٩

الدنيوية وحياتهم بعد البعث، وسيجيء تمام الكلام في الآية إن شاء الله تعالى.

ومن الآيات قوله تعالى : «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا نزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً* يوم يرون الملائكة ،^(١) ومن المعلوم أن المراد به أول ما يرونهم وهو يوم الموت كما تدل عليه آيات آخر : «لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً*» وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً* أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً* ويوم تشقق السماء بالغمام، - وهو يوم القيامة - «ونزل الملائكة تنزيلاً* الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً،^(٢) ودلالاتها ظاهرة وسيأتى تفصيل القول فيها في محله إن شاء الله تعالى.

ومن الآيات قوله تعالى : «قالوا ربنا امتننا ائمتين واحييتنا ائمتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل،^(٣) فهنا إلى يوم البعث - وهو يوم قولهم هذا - إمامتان وإحياءتان ، ولن يستقيم المعنى إلا بإثبات البرزخ ، فيكون إماتة وإحياء في البرزخ ، وإحياء في يوم القيامة ، ولو كان أحد الأحياءين في الدنيا والآخر في الآخرة لم تكن هناك إلا إماتة واحدة من غير الثانية ، وقد مرّ كلام يتعلق بالمقام في قوله تعالى : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم،^(٤) .

ومن الآيات قوله تعالى : «وحاق بآل فرعون سوء العذاب* النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب،^(٥) إذ من المعلوم أن يوم القيامة لا بكرة فيه ولا عشي فهو يوم غير اليوم .

والآيات التي تستفاد منها هذه الحقيقة القرآنية ، أو تؤمى إليها كثيرة كقوله

(١) الفرقان : ٢١ و ٢٢.

(٢) الفرقان : ٢٢ - ٢٦

(٣) المؤمن : ١١.

(٤) البقرة : ٢٨.

(٥) المؤمن : ٤٥ و ٤٦.

تعالى : «تالله لقد أرسلنا الى امم من قبلك فزيتن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم» (١) (٢).

يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالاً طيباً ولا تتبعوا
خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (١٦٨) .

لا ريب أن المآكل الموجودة في الأرض منها حلال ومنها حرام ، وحيث إن الشيطان يدعو الى العصيان فهو يدعو الى ترك الحلال وأكل الحرام ، وإن الله أمرنا في هذه الآية بالأكل من الحلال المبين تفصيله في الكتاب والسنة ، وكذا نهانا عن أكل الحرام ، ونهنا بأن الشيطان يدعونا الى خلاف ذلك ، ونهانا عن اتباعه لأنه عدو لنا متظاهر ومجاهر بالعداوة لنا ، وأن العاقل لا بد وأن يتباعد عن عدوه المعلن بالعداء له ، وإلا فهو جاهل سفيه ليس له من العقل شيء أبداً ، لأنه اذا اتبع عدوه أوقعه في المهالك و ذو العقل لا يقدم على إلقاء نفسه في المهالك .
روي عن النبي ﷺ قال : من أكل لقمة حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ولم يستجب له دعوة أربعين صباحاً ، وكل لحم ينبتة الحرام فالنار أولى به ، وأن اللقمة الواحدة تنبت اللحم (٣) .

وروي أصحاب التفاسير عن النبي ﷺ أنه قال: المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء (٤) .

قد كثرت كلمات الفريقين في معنى هذا الخبر ومحصله أن المؤمن لا يأكل إلا من الحلال ويجتنب الحرام وشبهه، والكافر لا يبالي بما أكل ، وكيف

(١) النحل : ٦٣ .

(٢) الميزان : ج ١ ص ٣٤٢-٣٥٠ .

(٣) (٤) مفهنة البحار : ج ١ ص ٢٤ مادة «اكل» .

أكل ، و من أين أكل، فعلى هذا ما كل الكافر أكثر من ما كل المؤمن وخصت السبعة بالذكر كما يذكرون في مثل هذا الموضع، قال الله تعالى: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١).

و عن تاريخ البلاذري: أنه أنفذ النبي ﷺ ابن عباس إلى معاوية ليكتب له، فقال: إنه يأكل، ثم بعث إليه و لم يفرغ من أكله، فقال النبي ﷺ: لا أشبع الله بطنه^(٢).

وروي عن النبي ﷺ قال: من أكل الحلال أربعين يوماً نوّاه الله قلبه^(٣). وقال: إن لله ملكاً ينادي علي بيت المقدس كل ليلة: من أكل حراماً مالم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً^(٤). والصرف النافلة، والعدل الفريضة.

وعنه ﷺ: العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل^(٥). وأما الطيب فقيل: إنه الحلال، وكرر لاختلاف اللفظ. ويدل عليه ما روي في أمالي الصدوق في تفسير قوله تعالى: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ» عن النبي ﷺ: من بات كالألّا من طلب الحلال بات مغفوراً له^(٦). وقيل: هو ما استلذّ من الطعام، وقيل: هو الخالي عن الشبهة.

انما يأمركم بالسوء و الفحشاء و أن تقولوا على الله ما لا تعملون (١٦٩).

بعد ما أمرنا الله في الآية السابقة أن يكون ما كلنا من الحلال الطيب لنتمو أبداننا عليه فلا يكون فيها نصيب للنار، ونهانا عن اتباع خطوات الشيطان حيث

(١) سفينة البحار: ج ١ ص ٢٤ مادة «أكل» والاية ٨٠ من سورة التوبة.

(٢) لا يوجد لدينا تاريخ البلاذري ووجدناه في البداية والنهاية: ج ٨ ص ١١٩.

(٣) بحار الانوار: ج ١٠٣ ص ١٦ ب ١ ح ٧١.

(٤) بحار الانوار: ج ١٠٣ ص ١٦ ب ١ ح ٧٢.

(٥) أمالي الصدوق: ص ٢٣٨ ح ٩ والاية ١٠٠ من سورة المائدة.

إنّ خطواته خلاف الحق ، فهي تباعد المتبع لها عن طريق الهدى أوجه الله لنا ، ففي هذه الآية بيّن أنّ أوامر الشيطان منحصرة بالسوء والفحشاء ، وأنه لا يوسوس ولا ينفث في قلب الإنسان شيئاً إلاّ السوء والفحشاء ، و السوء هو كل أمر تكون عاقبته سيئة بحكم العقل والشرع ، فالإنسان إذا اتبع الشيطان في أول خطوة فقد بُعد عن الحق و عن طريق الهدى ، فيأمره الشيطان بالسوء ثم يأمره بالفحشاء ، فإذا أطاعه فقد زاد بعده عن الحق ، فإذا اتبع الشيطان في الخطوة الثالثة يأمره حينئذٍ أن يظهر العداء الى الله بأن يقول على الله ما لا يعلم من اتخاذ الأنداد ونسبة الأولاد و تحليل الحرام وتحريم الحلال والافتراء على الله و القضاء والفتوى بغير علم ، فالذي أمر الله به المؤمنين في هاتين الآيتين :

١ - أن يكون ما كلهم من الحلال الطيب .

٢ - ترك ما يأمرهم به الشيطان من الأكل من سائر المحرمات التي حرّمها الله عليهم .

٣ - عدم اتباع الشيطان في غير المأكول من سائر المحرمات ، فإنّ الدخول فيها يجرحهم الى أكل المحرمات .

٤ - الاعتقاد بأنّ كل ما يأمر به الشيطان و يدعو إليه هو سوء و فحشاء ويجرحهم الى القول على الله بما لا يعلمون .

٥ - الاعتقاد بأنّ الشيطان بالنسبة الى الانسان عدوّ مبين .

وبعد ما أمر الله عموم الناس بهذه الأوامر - وحيث إنّ الناس منهم المطيع و منهم العاصي - وصف الله العصاة بالكفر وعدم العقل و عدم الاهتداء ، ثم وجه نداءً خاصاً الى المؤمنين الذين أظهروا الايمان بالسنتهم ، و أمرهم بما يكون اختباراً لهم ومميزاً للصادق من الكاذب ، فقال تعالى :

يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا

لله ان كنتم اياه تعبدون (١٧٢) .

لقد أمر الله المؤمنين بالأكل ، أي أباح لهم الأكل من الطيبات وهي الحلال الذي جعله الله رزقاً لهم ، فلا رخصة في أكلهم من الحرام ، إذ أن الله لم يجعله لهم رزقاً وأمرهم أن يشكروه على رزقه ، ونبتهم بأنكم إذا عرفتم أن الله هو الخالق لكم فعبدتموه فإنه أيضاً هو رازقكم فيلزمكم أن تشكروه على هذه النعم التي خلقها وجعلها رزقاً لكم ، وإن لم يتحقق منكم الشكر كانت عبادتكم ناقصة غير كاملة.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله: إني والانس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري! أرزق ويشكر غيري^(١).

انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم (١٧٣).

قد ذكر الله في هذه الآية بعض المحرمات وليس المقصود من الحصر أنه لا يحرم غيرها ، وإنما المقصود الرد على المشركين الذي حرموا على أنفسهم بعض الأشياء ، فرد الله عليهم بأن الحرام هو ما يحرمه الله ، وهو في هذا الموضع:

١- الميتة : فإنها محرمة أكلها وسائر الانتفاعات بها ، والميتة هي غير المذكاة تذكية شرعية.

٢- الدم : بجميع أنواعه إلا ما خرج بدليل شرعي وهو المتخلف في اللحم.

٣- لحم الخنزير : وإنما خص اللحم بالذكر لأن المقام في ذكر المأكول ، ولا يؤكل من الخنزير إلا اللحم ، وإلا فسائر الانتفاعات فيه محرمة.

٤- ما اهل به لغير الله : والمقصود منه ما يذبحه المشركون لآلهتهم كالأصنام

(١) لم نعثر عليه في مظانه.

وغيرها ، فقد حرم الله الذبائح التي تذبح لغير الله ، أو أن المقصود من ذلك ما يذبح ولم يذكر عليه اسم الله ، فكان المباح أكله يشترط فيه أمران :
الأول : أن لا يكون لغير الله .

والثاني : أن يذكر عليه اسم الله ، والاهلال هو رفع الصوت عند الذبح للمصنم .
وبعد ما ذكر حرمة هذه الأمور على الناس يتن لنا أن رحمته لا تفارقنا
طرفه عين ، وأن هذه الحرمة لغير المضطر ، أما المضطر إلى أكلها فإن الله لا يعاقبه عليه
بشرط أن لا يكون باغ ولا عاد ، ومعنى الباغي والعادي فقد قيل فيهما أقوال :

١- الباغي : هو الذي يبغى اللذة في الأكل ، والعاد : هو الذي يتعدى حد
الضرورة من سد الرمق^(١) .

٢- الباغي : الذي يخرج على الامام ، والعادي : الذي يقطع الطريق ، وهو
مروي عن الصادق عليه السلام^(٢) .

٣- ما في رواية أخرى عنه عليه السلام أن الباغي الظالم ، والعادي الغاصب^(٣) .
وعن الصادق عليه السلام أيضاً : الباغي باغي الصيد ، والعادي السارق^(٤) .

وانما عددنا هذه الآية من صفات المؤمنين لما ورد عن الصادق عليه السلام قال : من
اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل شيئاً من ذلك حتى يموت فهو
كافر^(٥) .

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن
البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين

(١) لسان العرب : ج ١٤ ص ٧٨ .

(٢) تفسير البرهان : ج ١ ص ١٧٤ ح ٢ .

(٣) تفسير البرهان : ج ١ ص ١٧٤ ح ٣ .

(٤) تفسير البرهان : ج ١ ص ١٧٤ ح ١ .

(٥) الوسائل : ج ١٦ ص ٤٧٩ ب ٥٦ ح ٣ .

وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالتَّيَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ
وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧).

يلزمنا هنا ذكر مقدمات ليتضح للمسلم الطالب للحقيقة معنى الآية فيتصف
بالصفات الموصلة اليها:

الاولى : أن البر - بالكسر - قد ذكر له عدة معاني منها: العطف والاحسان
ومنها : الصدق ، ومنها : الفعل المرضي ، ومنها : الايمان والتقوى ، والذي يناسب
المقام هو المعنى الثالث أي الفعل المرضي ، أو الرابع أي الايمان والتقوى .

الثانية : أن الله لما حوّل القبلة الى الكعبة كثر الخصام وطالت المشاجرات
وازداد الخوض في أمر القبلة من أهل الكتاب وغيرهم ، وادعت كل طائفة أن البر
وهو الايمان والتقوى منحصر في التوجه الى قبلتها ، فقبلة النصارى المشرق ،
وقبلة اليهود المغرب ، وقبلة الاسلام الكعبة ، فأنزل الله هذه الآية لقطع الخصام
وحسم الجدل ، ورد على أهل الكتاب زعمهم أن البر في التوجه الى قبلتهم.

الثالثة : أن المقصود من الآية ليس إخراج التوجه الى القبلة و الصلاة من
البر مطلقاً ، وإنما المقصود عدم انحصار البر في التوجه ، وبهذه يبطل قول أهل
الكتاب : إن غير التوجه الى قبلتهم ليس من الدين في شيء ولا إيمان له ، وأشاعوا
في الناس بأن التوجه للصلاة له تتحقق إطاعة الله والايمان والتقوى .

وقد نبهنا الله الى أن الصلاة إنما هي واحدة من الامور التي يطاع الله بها
وليست هي الكل بالكل ، وأنها وجبت لكونها تدعو الى الصلاح والتصرف عن الفساد
وذلك يختلف بحسب الأزمان والأحوال.

فبعد ما عرفنا هذه المقدمات ينبغي أن يعرف المسلمون ما الذي يريد الله منهم في هذا العصر وهو القرن الرابع عشر عند المسلمين؟ أما الذين دكوا وجوههم وقلوبهم قبل المشرق والمغرب فيطلقون عليه قرن العشرين. إن الله تعالى يقول لكم: ليس الاسلام والايمان هو توجهكم نحو القبلة وإقامة الصلاة فحسب مع كونكم وليتم وجوهكم وقلوبكم قبل المشرق والمغرب، فإن هذا الذي أنتم عليه ليس بإسلام ولا إيمان حتى تتصفوا بالصفات التالية. وكنى بأحد المؤمنين المتقين يقول: يا ليت المسلمين يقيمون الصلاة ويولون وجوههم نحو القبلة، ولو أقاموا الصلاة لنهتهم عن الفحشاء والمنكر، ولكن أكثر المسلمين قد تركوا الصلاة ونبذوها ولم يعرفوا منها شيئاً مع أنها عمود الدين، فإذا جهلوا فكيف يعرفون غيرها من القوانين! وعلى أي حال فإن الله قد اعتبر في البر والإيمان أموراً إن اتصف بها الشخص عد من الأبرار عند الله وهي التي ذكرها في الآية، وإليك تفصيلها:

١- قوله تعالى: «من آمن...» الايمان بالله، وهذا يشمل جميع ما لا يتم معرفة الله إلا به، كمعرفة حدوث العالم، وإثبات المحدث، وصفاته الواجبة والجائزة وما يستحيل عليه سبحانه، ومعرفة عدله وحكمته، وإلا يهدم إيمانه باتباع الهوى والشيطان في مخالفة أوامر الله ونواهيه، وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام في تعريف الايمان: أنه عقد في القلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان^(١). وعن جابر الجعفي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الايمان، فقال: الايمان أن يطاع الله فلا يعصى^(٢).

وقال الامام الصادق عليه السلام من جملة كلام طويل خاطب به معاوية بن وهب: إن أفضل الفرائض وأوجبها على الانسان معرفة الرب والاقرار له بالعبودية، وحدث المعرفة أن يعرف أنه لا إله غيره ولا شبيه له ولا نظير، وأن يعرف أنه قديم مثبت

(١) بحار الانوار: ج ٦٨ ص ٢٥٦ ب ٢٤ ح ١٥٠.

(٢) بحار الانوار: ج ٦٨ ص ٢٩٢ ب ٢٤ ح ٥٣.

موجود غيره فقيد ، موصوف من غير شبهه ولا مبطل ، ليس كمثلته شيء ، وهو السميع البصير^(١) .

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال : أيها الناس إن الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه ، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه^(٢) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله من جملة خطبة خطبها وهي آخر خطبة كانت قبل وفاته بأيام ، قال : أيها الناس إنه من لقي الله عز وجل يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً لم يخلط معها غيرها دخل الجنة ، فقام علي بن أبي طالب عليه السلام فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي كيف يقولها مخلصاً لم يخلط معها غيرها ؟ فسر لنا هذا حتى نعرفه ، فقال : نعم حرصاً على الدنيا وجمعها لها من غير حلها ورضاً بها ، وأقوام يقولون أقاويل الأخيار ويعلمون عمل الجبابرة ، فمن لقي الله عز وجل وليس فيه شيء من هذه الخصال وهو يقول لا إله إلا الله فله الجنة ، فإن أخذ الدنيا وترك الآخرة فله النار^(٣) .

٢- قوله تعالى : «والיום الآخر» هذا هو الأمر الثاني مما يعتبر في صدق البر والايمان الحقيقي وهو الايمان والتصديق بيوم القيامة ، ويدخل فيه التصديق بالبعث والحساب والثواب والعقاب والصراط والجنة والنار ، وحقيقة الايمان به أن يظهر أثره على أفعاله وأقواله وأخلاقه .

٣ - قوله تعالى : «والملائكة» هذا الأمر الثالث مما يعتبر في صدق البر والايمان هو التصديق بوجود الملائكة وأنهم عباد الله المكرمين «لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»^(٤) .

قال الله تعالى : «جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد

(٢٠١) سفينة البحار : ج ٢ ص ١٨٠ مادة «عرف» .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٣٦٠ قطعة من ح ٣٠ . (٤) الانبياء : ٢٧ .

روي عن هشام بن الحكم قال : سأل الزنديق فيما سأل أبا عبد الله عليه السلام فقال : ما علة الملائكة الموكلين بعبادته يكتبون عليهم ولهم ، والله عالم السر وما هو أخفى ؟ فقال عليه السلام : استعبدتهم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه ليكون العباد لملازماتهم إيتاهم أشد على طاعة الله مواظبة وعن معصيته أشد انقباضاً ، وكم من عبد بهم بمعصيته فذكر مكانها فارعوى وكف فيقول ، ربي يراني وحفظتي علي بذلك تشهد ، وأن الله برأفته ولطفه أيضاً وكلهم بعبادته يذبون عنهم مردة الشياطين وهوام الأرض وآفات كثيرة من حيث لا يرون يأذن الله الي أن يجيء أمر الله عز وجل^(٢).

٤ - قوله تعالى : « والكتاب » هذا الأمر الرابع مما يعتبر في البر والايمان وهو التصديق بالكتاب - وهو القرآن - ويلزمه الايمان بما ذكر فيه من الكتب الالهية وتحليل حلاله وتحريم حرامه وإقامة أحكامه .

حكى عن تفسير العياشي عن الامام الصادق عن آبائه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أيها الناس إنكم في زمان هدنة ، وأنتم على ظهر السفر والسير بكم سريع ، فقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبلان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود ، فأعدوا الجهاز لبعد المفاز ، فقام المقداد فقال : يا رسول الله ما دار الهدنة ؟ قال : دار بلى وانقطاع ، فإذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وما حل مصدق ، من جعله أمامه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار ، وهو الدليل يدل على خير سبيل ، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل ، وهو الفصل ليس بالهزل ، وله ظهر وبطن ، فظاهره حكمة و باطنه علم ، ظاهره أنيق و باطنه عميق ، له تخوم وعلى تخومه تخوم ، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائب ، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ، ودليل

(١) فاطر : ٢ .

(٢) بحار الانوار : ج ٥٩ ص ١٧٩ ب ٢٣ ح ١٥ .

على المعروف لمن عرفه ^(١) .

وعن كنز الكراجكي جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ^(٢) . «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون» ^(٣) .

و عن عبدالرحمن السلمي قال : حدثنا من كان يقرينا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات ، فلا يأخذون في العشر الآخر حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل ^(٤) .

وروي أن رجلاً تعلم من النبي ﷺ القرآن ، فلما انتهى إلى قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * » ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ^(٥) قال : تكفيني هذه ، وانصرف ، فقال رسول الله ﷺ : انصرف الرجل وهو فقيه ^(٦) .

فقد تبين مما ذكرنا أن المقصود من الايمان بالكتاب هو العمل بأحكامه وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، ولا يكفي في ذلك الاعتراف بأنه منزل من الله على رسوله مع مخالفة أحكامه كما يتجلى لك ذلك من قول الرسول الأعظم ﷺ : ما آمن بالقرآن من استحل محارمه .

وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم ، يقرأ «ألا لعنة الله على الظالمين» ^(٧) وهو ظالم نفسه ، ألا لعنة الله على الكاذبين» ^(٨) وهو

(١) تفسير العياشي : ج ٢١ ص ٢١ .

(٢) بحار الانوار : ج ٩٢ ص ١٨٥ ب ١٩ ح ٢٣ نقلاً عن كنز الكراجكي .

(٣) البقرة : ٨٥ .

(٤) بحار الانوار : ج ٩٢ ص ١٠٦ ب ٩ ح ١ .

(٥) الزلزلة : ٨٧ .

(٦) بحار الانوار : ج ٩٢ ص ١٠٧ ب ٩ ح ٢ .

(٧) هود : ١٨ .

(٨) آل عمران : ٦١ .

وكذا لا يكفي في تحقق الايمان به تلاوته في الليل والنهار مع مخالفة التالي أو الأمر له بالتلاوة لأحكامه ومضامينه ، كما يدل على ذلك قول الرسول ﷺ :
كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه^(٢) فإن اللعنة إنما تكون بسبب المخالفة وعدم العمل ، وإلا إذا كان القارئ عاملاً بأحكامه فلا موجب للعنة ، فهؤلاء الذين يقرأون القرآن في أي مكان وفي أية مناسبة ينبغي لهم العمل على طبق القرآن وإلا فالقرآن يلعنهم ، وسوف تأتي الآيات التي تحت على العمل بالقرآن مفصلة مرتبة ، وأن المخالف له فاسق أو كافر .

٥ - قوله : «والنبيين» هذا هو الشرط الخامس من الشروط المعتمدة في الايمان ، وهو التصديق بالأنبياء كلهم وأنهم معصومون مطهرون صادقون فيما أدوه الى الخلق ، وأن سيدهم وخاتمهم هو محمد بن عبد الله ﷺ ، وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع ، وأن التمسك بها والعمل عليها لازم لجميع المكلفين الى يوم القيامة .

٦ - قوله تعالى : «وآتى المال على حبه» هذا هو الشرط السادس من شروط الايمان وهو إيتاء المال على حبه ، والضمير في كلمة «حبه» إما أن يرجع الى المال فيكون المعنى أن إعطاء المال المحقق للايمان اذا كان في وقت حبه للمال وهو وقت الصحة والأمل بالحياة والحاجة الى المال لا وقت انقطاع الأمل ودنو الأجل الذي لا ينتفع بالمال فيه فحينئذ يقول اعطوا فلان كذا وافلان كذا ، وإما أن يكون الضمير في «حبه» راجعاً الى الإيتاء ، أي يعطي المال بطيب نفس وسخاء سروراً بهذا العطاء . وإما أن يكون الضمير راجعاً الى الله تعالى ، أي يعطي المال على حب الله وخالصاً لوجهه ، وهذا الوجه هو أحسن الوجوه لأن إعطاء المال مع

(١) المحجة البيضاء : ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢) بحار الانوار : ج ٩٢ ص ١٨٥ ب ١٩ ح ٢٤ .

حب المال أو حب العطاء إذا لم يكن خالصاً لوجه الله ولم يقصد به التقرب الى الله لم يستحق المعطي الثواب ، وإنما يترتب الثواب اذا قصد به التقرب الى الله .

ثم ذكر الله من يدفع له هذا المال فقال تعالى : «ذوي القربى» فيما أن يكون قرابة المعطي كما روي عن النبي ﷺ لما سئل عن أفضل الصدقة فقال ﷺ : جهد المقل على ذي الرحم الكاشح^(١) وإما أن يكون المراد قرابة النبي ﷺ كما في قوله تعالى : «قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»^(٢) وهذا هو المروي عن الباقر والصادق عليه السلام^(٣) هذا هو الصنف الأول ممن يدفع له المال .

الصنف الثاني : قوله تعالى : «واليتامى» أي وإعطاء المال الى اليتيم وهو الصغير الذي فقد أباه حتي لا يبقى في حاجة الى النفقة .

الصنف الثالث: قوله تعالى : «والمساكين» وهم أهل الحاجة الذين ليس لهم

نفقة تقوّمهم .

الصنف الرابع : قوله تعالى : «وابن السبيل» وهو من القطع به الطريق

ونفذت نفقته .

الصنف الخامس : قوله تعالى : «والسائلين» وهم الذين ألجأهم الفقر الى

السؤال .

الصنف السادس : قوله تعالى : «وفي الرقاب» وقيل فيه أمران: (الأول) أن

يشترى الانسان المماليك من العبيد والاماء ويعتقهم . (الثاني) أن يساعد المكاتبين

بالأموال اذا عجزوا عن سد ما كاتبوا عليه ، ولا مانع من الجمع بين الأمرين بأن

يكون المراد من الآية كلا الأمرين .

ثم إن المال الذي أمر الله بدفعه الى هؤلاء الأصناف هل المراد منه الزكاة

(١) مجمع البيان : ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) الشورى : ٢٣ .

(٣) مجمع البيان : ج ١ ص ٢٦٣ .

المفروضة أو غيرها ؛ لأنها قد ذكرت بعد ذلك ، ويؤيد كونه غير الزكاة بناءً على القول بأن " القريبى هم قريبي النبي لأنهم لا يحل لهم الأخذ من الزكاة .

وإذا قلنا إن " المال هو الزكاة المفروضة يكون المقصود هنا ذكر أصناف المستحقين ويكون ذكرها بعد ذلك للتأكيد والحث .

٧- قوله تعالى : « وأقام الصلاة » : هذا هو الشرط السابع من شروط الإيمان وهو إقامة الصلاة بحدودها وشروطها وأركانها بأن يؤديها في ميقاتها ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : ليس مني من استخف بالصلاة لا يرد علي " الحوض لا والله " (١) . وقال ﷺ : من ترك صلاة فريضة متعمداً فإن " ذمة الله منه بريئة " (٢) .

٨- قوله تعالى : « وآتى الزكاة » أي أعطى زكاة ماله ، والتفصيل مذكور في كتب الفقه ، فقد تكاثرت الأخبار في ذم تارك الزكاة وعقابه .

روي عن الصادق عليه السلام قال : من منع قيراطاً من الزكاة فليس هو بمؤمن ولا مسلم ولا كرامة (٣) وإن " مانع الزكاة أحد من كفر من هذه الأمة " (٤) ، وهو البخل حق البخل (٥) .

وقال الصادق عليه السلام : من منع الزكاة في حياته طلب الكرة بعد موته (٦) . وقال عليه السلام : من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً (٧) . وعن محمد بن مسلم قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « سيطوفون ما بخلوا به يوم القيامة » (٨) فقال : يا محمد ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة نعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من

(١) بحار الانوار: ج ٨٣ ص ٩ ب ٦ ح ٣ .

(٢) الوسائل : ج ٣ ص ٢٩ ب ١١ ح ٥ مع اختلاف يسير .

(٣) الوسائل : ج ٦ ص ١٩ ب ٤ ح ٧ .

(٤) الوسائل : ج ٦ ص ٢١ ب ٥ ح ٤ .

(٥) الوسائل : ج ٦ ص ١٤ ب ٣ ح ١٦ .

(٦) الوسائل : ج ٦ ص ١٨ ب ٤ ح ٥ .

(٨) آل عمران : ١٨٠ .

لحمه حتى يفرغ من الحساب ، ثم قال: هو قول الله : «سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة» يعني ما بخلوا به من الزكاة^(١).

٩- قوله تعالى : «والموفون بعهدهم اذا عاهدوا» هذا هو الشرط التاسع من شروط الايمان ، أي: يشترط في المؤمن أن يكون موفياً بعهد الذي يعاهد عليه سواء كان العهد بينه وبين الله وهو شامل لفعل الواجبات وترك المحرمات والوفاء بالنذر واليمين ، أو كان بينه وبين الناس وهو كل شيء عاهد عليه أحد من الناس ، ففي كل ذلك يلزم الوفاء ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : لا دين لمن لا عهد له^(٢). وعن أبي مالك قال : قلت لعلي بن الحسين عليه السلام : أخبرني بجميع شرائع الدين ، قال عليه السلام : قول الحق ، والحكم بالعدل ، والوفاء بالعهد^(٣).

١٠- قوله تعالى : «والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس» هذا هو الشرط العاشر من شروط الايمان ، أي: يشترط في المؤمن الحقيقي أن يكون صابراً في البأساء: وهو الفقر، والضراء: وهو العلل والأوجاع والأسقام والأمراض والخوف والجوع والعطش . وحين البأس : وهو وقت القتال وجهاد العدو ، فقد روي عن علي عليه السلام أنه قال : كنا اذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد منا أقرب الى العدو منه^(٤).

فإن هذا الشرط وإن كان وارداً مورد الممدح والثناء وهو السبب في نصبه ، ولكنه وصف وشرط للايمان إذ من لم يكن متصفاً بالصبر في هذه المواطن كان ناقص الايمان.

روي عن الامام السجاد عليه السلام قال : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد،

(١) الوسائل: ج ٦ : ص ١١ ب ٣ ح ٣ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٢ ص ١٩٨ ب ١٠٥ ح ٢٦ .

(٣) الخصال : ج ١ ص ١١٣ ح ٩٠ .

(٤) مجمع البيان : ج ١ ص ٢٦٤ .

ولا إيمان لمن لا صبر له ^(١) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو ^(٢) .

وقال بعضهم :

إني رأيت وللأيام تجربة لصبر عاقبة محمودة الأثر

وقل من جد في أمر يطالبه فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر ^(٣)

قوله تعالى : «اولئك الذين صدقوا» الاشارة في قوله «أولئك» الى الذين اتصفوا بالصفات المذكورة بأنهم صدقوا مع الله فيما التزموا به من القول والعمل حيث لم يعصوا الله في شيء من أوامره ونواهيه ، وفيه تعريض وإشارة الى أن من يأتي بهذه الامور ويتصف بهذه الصفات ظاهراً لاراءة الناس و هو غير صادق باطناً فهذا ليس من الايمان في شيء .

«اولئك هم المتقون» أي: إن الذين اتصفوا بالصفات المذكورة هم الذين اتقوا عذاب الله بتركهم الكفر وسائر الجرائم والمحرمات ، ويمكن أن تكون إشارة وتعريضاً لمن يتصف بهذه الصفات ومع ذلك يرتكب المحرمات فإن هذا ليس من البر ولا من الايمان بشيء ، وإنما المؤمن الحقيقي الكامل من اتصف بالصفات المتقدمة وهو يتقي من جميع المحرمات ولا يتقرب الى شيء منها ، فيكون هذان الوصفان وهما الصدق والتقوى شرطان أساسيان لمن اتصف بالصفات المتقدمة وإلا فلا فائدة فيها .

محصل البحث :

تحصل لنا من هذه الآية الشريفة أن البر وما يرضي الله من أفعالنا والايمان الصحيح الحقيقي هو هذه المجموعة من الصفات الاعتقادية والعملية وهي كما يلي:

١- الايمان بالله عز وجل .

(١) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٨١ ب ٦٢ ح ١٧ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٩٦ ب ٦٢ ح ٦١ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٧١ ب ٦٢ ح ٣ .

٢- الإيمان باليوم الآخر وهما المبدأ والمعاد .

٣- الإيمان بالملائكة .

٤- الإيمان بالكتاب .

٥- الإيمان بالنبين .

٦- إيتاء المال خالصاً لوجه الله : (أ) لذوي القربى (ب) لليتامى (ج) للمساكين

(د) لابن السبيل (هـ) للسائلين (و) في الرقاب .

٧- من محتويات الآية إقامة الصلاة .

٨- إيتاء الزكاة .

٩- الوفاء بالعهد .

١٠- الصبر : (أ) في البأساء (ب) في الضراء (ج) حين البأس أي في القتال .

١١- الصدق في جميع هذه الامور اعتقاداً وعملاً، بأن تكون هذه الامور عن

نية خالصة لله تعالى .

١٢- أن تكون عند المستجمع لهذه الامور ملكة التقوى أي لا يرتكب شيئاً

من المحرمات خوفاً من عقاب الله .

تنبيه

ينبغي للانسان العاقل أن يتنبه و يلتفت بأن الله تعالى إنما أمرنا بهذه الخصال الحميدة لأنه يحب لعبادة المؤمنين أن يتصفوا بجميع خصال الكمال ، وأن يتنزهوا من جميع الرذائل الموجبة لسقوط الانسـان فأمرهم بكل ما يحكم به العقل من الاعتراف بالمبدأ ، وأنه واحد بلا شريك ، وأنه نزيه عن العبث ، ويلزم ذلك الاعتراف بالمعاد ، وأمرهم ببذل المال ليتصفوا بالكرم والسخاء ، وأمرهم بالصبر عند القتال ليتصفوا بالشجاعة ، فإذا اتصفوا بهذه الخصال كانوا من المقربين لديه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (١٧٨).

لما بين الله في الآية السابقة بأن "حقيقة البر" والعمل الذي يرضاه الله هو العمل بأوامره ونواهيه، بين لنا في هذه الآية أهم الأمور التي يحتاجها الناس وهو الحكم في الدماء والنفوس، وذكر لنا قانوناً إن عملنا نحن به يقل "قتل النفوس وإراقة الدماء، فلا يقدم أحد مع تنفيذ هذا القانون على قتل أحد إلا أن يكون مجنوناً، وحيث إن المسلمين لا تكافأ ولا تتساوى دماؤهم من حيث الحرية وعدمها، والذكورة و الانوثة قال تعالى : « الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى » وكذا لا تكافؤ بين الاسلام والكفر ، وقد ذكر ذلك في سورة النساء : « و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً »^(١) وهذه الفروع أي قتل الحر بالعبد والرجل بالمرأة وأمثالها إنما هي من مسائل الفقه فليرجع بها إليه ، وإنما المهم الذي هو من موضوع بحثنا قوله تعالى :

و لكم في القصاص حياة يا اولى الالباب (١٧٩) .

مما لا ريب فيه أن قتل النفس المسلمة بلا ذنب يوجب لها القتل هو من أكبر الجرائم في الشريعة الاسلامية بل فيما تقدمها من الشرائع كلها، وقد ذكر الله في القرآن في قصة ولدي آدم عظم جرم القتل فقال : «من قتل نفساً بغير نفس أفساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»^(٢) ولأجل خطر هذه الجريمة قد سن الله

حكماً للناس يمنعهم عن ارتكاب جريمة القتل حيث جعل عقاب القاتل القتل فقال
 «كتب عليكم القصاص في القتلى»، فالشخص الذي آمن بالله وبرسوله وبكتابه اذا
 عرف أنه متى قتل مسلماً بلاجناية يجب عليه أن يسلم نفسه الى أولياء القتيل
 ليقتصوا منه فيتخلص من عذاب الآخرة ، كانت معرفته بهذا العقاب الصارم رادعة
 له من الاقدام على قتل أحد من الناس، وإن هو لم يسلم نفسه لذوي القتيل يلزم على
 ذوي الأمر وذوي السلطة أن تقبض عليه وتسلمه الى أولياء القتيل فيقتصون منه .
 ثم أخبرنا الله عز وجل بأن هذا النوع من القصاص سوف يضمن لكم الحياة
 ويقلل وقوع القتل بينكم ، إذ أن المرء لا يقدم على قتل أحد بعد علمه بالقصاص
 ولكن مع كل الأسف أن الحكومات الاسلامية بعد اطلاعهم على نظام الحكومات
 الأجنبية الكافرة، وأنهم لا يقتلون القاتل بل يحكمونه بالسجن إلا إذا كان المقتول
 رجلاً عظيماً ، و كانت السلطة تحاذر من أوليائه ، أخذ المسلمون هذا الحكم من
 قانون الكافرين ورجحوه على حكم القصاص، زعماء منهم أن القصاص وقتل القاتل
 يقلل من نفوس البشر ، وهذا خلاف المصلحة المطلوبة من حفظ النفوس ، كذلك
 تقليداً للأجانب وغفلة عن الآية الشريفة ، وإهمالاً لكتاب الله ، ورفضاً لأحكام الله ،
 وإساءة لأنفسهم وللمجتمع الانساني ، حتى حدث من القتل و إتلاف النفوس ما
 لا يحصى عدده إلا الله .

وقد تقدم في الآية السابقة على هذه الآية من جملة شروط الايمان والبر
 هو الايمان بالكتاب ، وأن من خالف حكماً من أحكام الكتاب فهو غير مؤمن
 به ، فلو أنهم عملوا بموجب هذه الآية وجعلوا القانون المتبع هو قتل من يقتل
 نفساً بلاذنب لما كانت هذه الكثرة من قتل النفوس البريئة فكل حكومة إسلامية
 رفضت العمل بالحكم السماوي فقد سببت كثرة القتل وذلك لعدم خوف المجرمين
 من السجن و أملهم الأكيد بالخروج منه قبل إكمال المدة ، فيكون الوزر في
 إزهاق هذه النفوس كلها على صاحب السلطة الذي سن هذا القانون كما قال

رسول الله ﷺ : من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ^(١) .

فقد تحصل من الآية :

١ - أن القاتل عليه أن يخضع وينقاد ويوطن نفسه على القتل لئلا تبطل حدود الله .

٢ - أن هذا القصاص سبب لحفظ نفوس كثيرة من القتل ، كما كان يفعله أهل الجاهلية من قتل غير القاتل ، وكذا أولياء القتيل الثاني يقتلون غير قاتله فتكثر القتلى بين الفريقين ، ويكون أيضاً سبباً لحفظ كل أحد يهمل بقتل إذا علم أنه يقتص منه فيكف عن القتل فيسلم غيره وتسلم نفسه ، وهذا يحتاج إلى فكر وتدبر ومعرفة بالعواقب ، وكل ذلك موقوف على العقل الكامل . كما وجهه الله تعالى الخطاب لأهل العقول حيث قال : «ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب» فكل من ترك القصاص في القتل وأخذ بغيره فهو ليس بذي لب ولا عقل ، أو معاند لكتاب الله .

قوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » هذه الآية متقدمة في القرآن على الآية التي ذكرناها قبلها ، ولكن السبب في تقديم تلك في التفسير هو أن نعلم أن جرم القتل عظيم جداً وأنه مبغوض عند الله غاية البغض ، ولذا جعل عقابه المقابلة بالمثل لئلا يقدم عليه أحد ، ولكنه تعالى لم يحتم على ولي المقتول هذا العمل بل جعل الخيار له إذا تاب القاتل وندم على فعله وسلم نفسه لولي القتيل ورجع إلى الإخاء مع المسلمين ، حينئذ إذا شاء ولي القتيل أن يعفو عن القاتل ويقبل بالدية فالله يأمره أن يتبع ذلك بالمعروف وهو الصبر على تسليم المال حتى يهيؤ القاتل ، وأمر القاتل أيضاً أن يؤديه بإحسان أي بلا مظل ، فإذا رضى ولي القتيل بالدية أو عفا أو صالح فليس له أن يعدل عن هذا

(١) مسند أحمد بن حنبل : ج ٤ ص ٣٥٧ وفيه «من سن في الإسلام» سنن البيهقي : ج ٤ ص ١٧٦ .

القرار ويعود الى ارتكاب القتل ، فاذا عاد فقتل فله عذاب أليم ، كل ذلك لمبغوضية القتل عند الله فلا يريد وقوعه على وجه الأرض من أحد من الناس .

قوله تعالى : كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت أن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين (١٨٠) .

إن الله سبحانه يحثنا في هذه الآية على أن الإنسان إذا تبين له دنو أجله من مرض أو كبر أو أمانة أخرى و كان ذاملاً أن يوصي بشيء من المال لأقاربه و أرحامه بأن يدفع لهم بعد موته ، و قد قيّد الله هذه الوصية أن تكون وصيته بالمعروف ، والمقصود منه :

- ١ - أن لا يكون فيها جور و حيف على الورثة .
- ٢ - أن لا يكون الموصى به شيئاً حقيراً كالوصية لأحد بدرهم .
- ٣ - أن لا تكون الوصية لشخص غني وترك الفقير المحتاج ، فإن هذا غير معروف بل هو منكر .

ثم قال الله في آخر الآية «حقاً على المتقين» أي: من أراد أن يكون من المتقين فعليه أن يتصف بصفاتهم ، ومن جعلها العمل بهذا الأمر وهو الوصية للأقربين ببعض المال بعد وفاته ، فإن هذا أحق على المتقين .

قوله تعالى : فمن بدله بعد ما سمعه فانما أثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم (١٨١) .

هذا وعيد من الله لكل من يبدل أو يغير هذه الوصية التي يوصي بها الميت لأقربائه سواء كان المبدل قريباً أو بعيداً وارثاً أو غير وارث ، فيكون إثم التبديل

عليه، سواء كان التبديل بإخفاء الوصية أو بعدم الشهادة أو بالشهادة على نوع آخر من الوصية، فإن الله قد سمع قول الموصي وعلم بتبديل المبدل فليتردد المبدل عما قصده، ولما كان من جملة أنواع التبديل نهى الموصي عن الوصية وإقناعه في العدول عنها، ذكر الله بأن هذا النوع ليس من التبديل المحرم مطلقاً بل يكون في بعض أقسامه ما هو مباح وما جور عليه صاحبه وقد بين ذلك بقوله تعالى:

فمن خاف من موص جنفاً أو اثماً فأصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم (١٨٢).

أي: اذا كان الموصي قد وقع في الباطل خطأ وهو الجنف أو وقع فيه عمداً وهو الاثم بأن أوصى بأكثر من الثلث والورثة لا يرضون بذلك، وحينئذ يقع النزاع والجدال بين الطرفين فيتدخل في الأمر من يريد إصلاحهم ويكلم الموصي ويقنعه ليعدل عن هذه الوصية، فهذا التبديل ليس فيه إثم بل رخص الله فيه لكونه إصلاحاً.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (١٨٣) أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون (١٨٤) شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم

اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما
هداكم ولعلكم تشكرون (١٨٥).

نزلات هذه الآيات الشريفة لبيان فريضة الصوم باتفاق جميع فرق المسلمين ،
فمن أنكر وجوبه عد من الكافرين ، ومن اعترف بالوجوب ولم يعمل به خرج
من جماعة المؤمنين ودخل في زمرة الفاسقين ، فقد فرضه الله تعالى على أمة خاتم
الرسول كما فرضه على من تقدمه من الأنبياء وعلى أممهم ، وقد أعلمنا الله بأننا
إذا أدبنا هذه الفريضة بصدق نية وإخلاص فسوف يكون عملنا سبباً للانتفاء عن
جميع المحرمات ، وحينئذ نؤهل أنفسنا للاتصاف بالتقوى وجعلها من زمرة
المتقين الذين يحبهم الله وتكون لهم المنزلة الرفيعة لديه ، وحيث إن الله عز وجل
قد ذكر في القرآن فوائد عديدة للتقوى دنيوية وأخرية فهي التي تنتظم بها أمور
الدنيا والآخرة ، وقد ذكرنا بعض فوائدها في أول آية من سورة البقرة .

فاعلم أن الله فرض علينا الصوم وجعله من أقوى الأسباب للحصول على ملكة
التقوى ، فقد ساقنا برحمته إلى التقوى سوقاً عنيفاً بإيجابه فريضة الصوم علينا التي تكون
حاجزاً بين النفس وشهواتها من مأكل ومشرب ومنكح ، فإذا منعت عما تشتهي يكون
فيها شيء من الصفاء والنظافة وتزول عنها الكدورة ، فإذا كان الشخص راغباً بالوصول
إلى التقوى الموحية للقرب إلى الله الحائرة على حب الله له كان الصوم سبباً كافياً
له في ذلك ، إذ أنه يصوم هذه الأيام برغبة وشوق راجياً من وراء ذلك الوصول إلى
أعلى مراقبة من التقوى ، ويجعل صومه من القسم الذي أشار إليه النبي ﷺ من
غض البصر عن كل ما يحرم النظر إليه أو يكره ، وحفظ اللسان عن جميع آفاته ،
وكف السمع عن كل ما يحرم النظر إليه أو يكره ، وكف سائر الجوارح عن
المحارم والمكروه ، وأن لا يشغل القلب عن ذكر الله تعالى ، وأن لا يتدارك ما فاتته من
الأكل نهائياً وقت الإفطار أو يزيد عليه ، فإن كثرة الأكل والتنوع فيه مما

يهيج الشهوة ويقوي رغبته و يضعف قوتها و يبعث من الشهوات ما كانت راكدة لو تركت على عادتها، فينعكس المطلوب ولا ينتفع بصومه .

فإذا كان صومه من القسم الذي وصفه النبي محمد ﷺ ^(١) أوصله الى الغاية المتوخاة وهو الذي يرجو لنفسه أن يكون من المتقين كما أهله الله : بقوله: «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» .

وفي هذه الآيات أنواع من الألفاظ الالهية والتسلية للمعباد :

اللفظ الأول : النداء الموجه إليهم من الله كما قال الامام الصادق عليه السلام: لذة النداء أزال تعب العبادة والعناء ^(٢) ، حيث إن في هذا النداء تشريفاً لهم وتفضيلاً على غيرهم مع أن الحكم يعم كل من أقر بالدعوة ظاهر أحتى الضلال والمنافقين. اللفظ الثاني : قوله تعالى «كتب» بصيغة المجهول فإن التكليف وإن كان منه والكتابة بأمره ولكن ام يجعله بصيغة المعلوم حيث إن الكتابة اذا كانت بواسطة غيره كانت قابلة للتبديل والتغيير كما اذا كانت بواسطة القلم مثل دن والقلم وما يسطرون، ^(٣) فإنها قابلة للتبديل كما في قوله : «يمحو الله ما يشاء ويثبت» ^(٤) . وكذلك اذا كانت بواسطة السفارة التي تنزل بالكتب والصحف كقوله تعالى: «في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة» ^(٥) فإنها قد تبدل كما في قوله : «وإذا بدلنا آية مكان آية» ^(٦) .

وكذا الحال اذا كانت بواسطة الحفظ كقوله : «وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين» ^(٧) فإنها قابلة للتبديل كقوله: «فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» ^(٨) .

(١) رجع خطبة الرسول (ص) في بحار الانوار : ج ٩٦ ص ٣٥٦ ب ٤٦ ح ٢٥ .

(٢) منهاج البراعة : ج ٧ ص ٤٢٤ مع اختلاف يسير .

(٣) القلم : ١ .

(٤) الرعد : ٣٩ .

(٥) عبس : ١٣ - ١٦ .

(٦) النحل : ١٠١ .

(٧) الانفطار : ١١٠ .

(٨) الفرقان : ٧ .

أما أن يكون هو الكاتب بلا واسطة كقوله: «كتب ربكم على نفسه الرحمة»^(١) فإنها غير قابلة للتبديل كقوله تعالى: «لا مبدل لكلماته»^(٢) وقوله تعالى: «ما يبدل القول لدي»^(٣).

هكذا عامل الله عباده باللطف فإنه في أغلب الموارد إذا وجه إليهم تكليفاً و كان فيه مشقة يأتي بصيغة المجهول ، و إذا أنذرهم بشيء من العذاب يأتي أيضاً بصيغة المجهول . أما إذا بشرهم بالرحمة و النعيم أتى بصيغة المعلوم ونسبه الى نفسه ، مثلاً بالنسبة الى شراب أهل النعيم يقول تعالى: «و سقاهم ربهم شراباً طهوراً»^(٤) و بالنسبة لأهل العذاب يقول تعالى: «و سقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم»^(٥) و كذا قوله: «فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم»^(٦) و «لهم مقامع من حديد»^(٧) و تارة ينسب الفعل الذي يعذبهم به الى أنفسهم كقوله تعالى: «ثم إنكم أيها الضالكون المكذبون * لا تكون من شجر من زقوم * فمالئون منه البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم»^(٨).

اللطف الثالث: قوله: «كما كتب على الذين من قبلكم»:

هذه تسلية من الله للمؤمنين الذين كتب عليهم الصيام حيث إن فيه شيئاً من الجوع و العطش و المشقة ، فقد أخبرهم الله بأن هذا التكليف ليس مختصاً بكم وإنما كان على من قبلكم من الأنبياء و أممهم من آدم حتى الخاتم ، فإذا علموا أنه تكليف عام هان عليهم و سهل و امتثلوه بانسراح صدر و سرور و طيب نفس .

(١) الانعام : ٥٤ .

(٢) الكهف : ٢٧ .

(٣) ق : ٢٩ .

(٤) الانسان : ٢١ .

(٥) محمد : ١٥ .

(٦) الحج : ١٩ .

(٧) الحج : ٢١ .

(٨) الواقعة : ٥١ - ٥٥ .

ثم التشبيه إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي أَصْلِ الصَّوْمِ فَقَطْ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْعَدَدِ وَالْوَقْتِ،
كما روي أَنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ كَتَبَ عَلَى النَّصَارَى فِصَادِفَ وَقْوَعِهِ فِي حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ شَدِيدٍ
فَحَوَّلُوهُ إِلَى الرَّبِيعِ وَزَادُوا عَلَيْهِ عَشْرِينَ يَوْمًا كَفَّارَةً لِتَحْوِيلِهِ ^(١).

اللفظ الرابع : قوله تعالى : «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أشار بهذه الكلمة الى أَنَّ الصَّوْمَ
الَّذِي أَمَرَ كَمَا اللَّهُ بِهِ إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ لِنَفْسِ الصَّائِمِ، إِذْ يَكُونُ بِتَرْكِهِ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ
وَالْجَمَاعُ مُتَشَبِهًا بِالْمَلَائِكَةِ فِي عَدَمِ فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ وَمُمَيِّزًا نَفْسَهُ عَنْ سَائِرِ
الْحَيَوَانَاتِ فِي اسْتِرْسَالِهَا بِاسْتِيفَاءِ لَذَائِذِ الْجَسَمِ، فَإِذَا مَيَّزَ نَفْسَهُ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَتَشَبَّهَ
بِالْمَلَائِكَةِ فَقَدْ أَهْلَهَا لِلارْتِقَاءِ إِلَى مِرْقَاةِ الْكَمَالِ وَالرُّوحَانِيَّةِ، وَإِذَا قَدَّرَ عَلَى مَنَعِ
نَفْسِهِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُبَاحَةِ فِي نَهَارِ شَهْرِ رَمَضَانَ كَانَ أَقْدَرَ عَلَى مَنَعِهَا عَنِ الْأَشْيَاءِ
الْمَحْرُمَةِ فِي غَيْرِهِ، فَيَكُونُ الصَّوْمُ سَبَبًا قَوِيًّا لِاتِّقَاءِ الْمَحْرَمَاتِ، فَتَكُونُ الْغَايَةُ الْقَصْوَى
مِنَ الصَّوْمِ هِيَ الْحَصُولُ عَلَى التَّقْوَى، وَبِالْحَصُولِ عَلَيْهَا تَصَحُّ جَمِيعُ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّوْمِ
وغيره، وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : الصَّوْمُ جَنَّةٌ مِنَ النَّارِ ^(٢). وَإِنَّمَا يَكُونُ
جَنَّةٌ مِنَ النَّارِ لِأَنَّ الصَّائِمَ يَتْرَكَ الْمَحْرَمَاتِ فَيَصِلُ بِتَرْكِهِ إِلَى التَّقْوَى، فَإِذَا صَارَ
مِنَ الْمُتَّقِينَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ.

اللفظ الخامس : قوله تعالى : «أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ» إِذَا سَمِعَ الْمُكَلَّفَ الْجُمْلَةَ
الْأُولَى مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ : «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ» قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذَهْنِهِ
وَجُوبُ الصِّيَامِ مَدَّةَ الْعُمُرِ وَحَتَّى الْمَمَاتِ فَيَنْقَلِبُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَيَنْفِرُ مِنْ هَذَا التَّكْلِيفِ
الشَّاقِّ. وَقَدْ يَنْفِثُ فِي رَوْعِهِ الشَّيْطَانُ إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى امْتِثَالِ هَذَا التَّكْلِيفِ، فَيَجْزِمُ
بِالْعَصْيَانِ مِنْ أَزْلِ الْأَمْرِ، وَلِذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ هَذَا الصَّوْمَ
إِنَّمَا هُوَ أَيَّامٌ مَعْدُودَةٌ أَيْ مُحْصُورَةٌ قَلِيلَةٌ، فَتُبَيِّنُ لِلْمُكَلَّفِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ أَنَّ التَّكْلِيفَ
خَفِيفٌ يَسِيرٌ لَا مَشَقَّةَ وَلَا ثِقَلَ فِيهِ.

اللفظ السادس : قوله تعالى : «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٧١ .

(٢) عوالي اللئالي : ج ٣ ص ١٣٢ ح ٣ .

أيام آخر، حيث إن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وإن كان الصيام يعسر أو يتعذر على المريض ويشق ويصعب على المسافر أمرهم بالافطار في حالة المرض والسفر مع حفظ مدة الأيام التي يفطرون بها ليقضوها بعد ذلك، وهذا تخفيف من الله ولطف بعباده ليسهل عليهم أداء هذا الواجب العظيم الموصل إلى التقوى.

اللطف السابع: قوله تعالى: «و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» لما كان بعض المكلفين يؤثر بهم الصوم أثراً شاقاً كالشيخ الهرم والشيخة وكالحامل المقرب والمرضع بحيث يبذلون غاية طاقتهم في الصوم لطف الله بهم وخيرهم بين الصوم وبين الفدية وهي إطعام مسكين في كل يوم.

ثم قال تعالى: «فمن تطوع خيراً فهو خير له» أي: من زاد على الفدية تطوعاً منه لافرضاً عليه فهذا التطوع خير له.

ثم قال: «وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون» لما خير الله بعض الناس بين الصوم والفدية أعلمهم أن تحمل المشقة الشديدة في الصوم هو خير لهم من الفدية حتى لو ضم معها التطوع بالخير، فإنكم لو كنتم من أهل العلم وتوصلتم بسببه إلى ما في الصيام من فضائل ومنافع لا اخترتم الصيام على الفدية وإن حملتم المشاق. فقد تبين من هذه الجملة أن الصوم - وإن كان فيه مشقة وجوع وعطش وموجب للضعف المتناهي - هو خير من الفدية لمن تكفى الفدية في حقه ما لم يصل إلى حد المرض فإنه لا يجوز له الصوم، لأن الله أمرنا بصريح القول بأن المريض والمسافر يلزمه أن يفطر وأن يحفظ الأيام التي مرض أو سافر فيها ويصوم بمقدار ذلك العدد بعد شهر رمضان، وقد ثبت وجوب الافطار من قوله تعالى: «فعدة من أيام آخر» حيث حتم علينا وألزمنا بصيام أيام عدتها مطابقة لعدة أيام المرض أو السفر، وهذا الالتزام إنما هو للزوم الافطار، فلامعنى للقول بأن الافطار رخصة لا عزيمة بتقدير كلمة «فأفطر» فيكون التقدير «فمن كان مريضاً أو على سفر،

فأفطر «فعدة من أيام آخر» ، فما الداعي إلى تقدير هذه الكلمة مع وضوح الأمر وصراحة العبارة وعدم الاضطرار الى تقدير .

وقد اختار جماعة من أصحاب النبي ﷺ وجوب الافطار في السفر وهو المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام واختاره عمر بن الخطاب وابنه عبدالله وابن العباس وعبدالرحمن بن عوف ، وأبو هريرة وعروة بن الزبير ^(١) .

ويروى أن عمر بن الخطاب أمر رجلاً صام في السفر أن يعيد صومه ^(٢) .
وروي عن يوسف بن الحكم قال : سألت ابن عمر عن الصوم في السفر فقال :
أرأيت لو تصدقت على رجل صدقة فردها عليك ألا تغضب ؟ فإنها صدقة من الله تصدق بها عليكم ^(٣) .

وروى عبدالرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : الصائم في السفر كالمفطر في الحضر ^(٤) .

وروي عن ابن عباس أنه قال : الافطار في السفر عزيمة ^(٥) .
وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : الصائم في شهر رمضان في السفر كالمفطر فيه في الحضر ^(٦) .

وعنه عليه السلام قال : لو أن رجلاً مات صائماً في سفر لما صليت عليه ^(٧) .
ويناسب هنا بعض ما ورد من الأخبار في ثواب الصوم ليتضح للقارى معنى الآية الشريفة : «وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون» .
منها : قول النبي ﷺ : الصوم جنّة من النار ^(٨) .
وعنه عليه السلام قال : قال الله : الصوم لي وأنا اجزي به ^(٩) .

(١-٣) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٧٣ .

(٤-٧) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٨-٩) المحجة البيضاء : ج ٢ ص ١٢٣ .

وعنه عليه السلام قال: إن في الجنة باباً يقال لها الريان لا يدخل منها إلا الصائمون فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب ^(١).

وفي الحديث القدسي: يا موسى لخلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ^(٢).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى، قال: الصوم يسوّد وجهه، والصدقة تكسر ظهره، والحب في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطعان دابره، والاستغفار يقطع وتينه، ولكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام ^(٣).

وروي عن الصادق عليه السلام قال: من صام لله عز وجل يوماً في الحر فأصاب ظمأ وكّل الله ألف ملك يمسحون وجهه ويبشرونه، حتى إذا أفطر قال الله عز وجل: ما أطيب ريحك وروحك، يا ملائكتي اشهدوا إنني قد غفرت له ^(٤).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: نوم الصائم عبادة ونفسه تسبيح ^(٥). وغيرها كثير.

وروي عن الإمام الثاني الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أعلمهم عن مسائل، فكان فيما سأله أن قال له: لأي شيء فرض الله الصوم على امتك بالنهار ثلاثين يوماً وفرض على الامم أكثر من ذلك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً، وفرض الله على ذريته الجوع والعطش، والذي يأكلونه بالليل تفضل من الله عز وجل عليهم وكذلك كان على آدم وفرض الله ذلك على امتي، ثم تلا هذه

(١) صحيح البخاري: ج ٣ ص ٣٢.

(٢) الوسائل: ج ٧ ص ٢٩٠ ب ٥٩١.

(٣) المحجة البيضاء: ج ٢ ص ١٢٣.

(٤) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ٢٤٨ ب ٢٠ ح ٦.

الآية «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون *أياماً معدودات» قال اليهودي : صدقت يا محمد ، فما جزاء من صامها ؟ فقال النبي ﷺ : ما من مؤمن يصوم شهر رمضان احتساباً إلا أوجب الله عز وجل له سبع خصال :
أولها : يذوب الحرام في جسده .

والثانية : لا يبعد من رحمة الله تعالى .

والثالثة : يكون قد كفر خطيئة أبيه آدم .

والرابعة : يهون الله عليه سكرات الموت .

والخامسة : أمان من الجوع والعطش يوم القيامة .

والسادسة : يعطيه الله براءة من النار .

والسابعة : يطعمه الله من طيبات الجنة .

قال اليهودي : صدقت يا محمد ^(١) .

اللفظ الثامن : قوله تعالى في آخر الآيات : «يريد الله بكم اليسر ولا يريد

بكم العسر» خاطب الله عباده المؤمنين في هذه الجملة وأعلمهم بأن كل تكليف يعسر عليكم الاتيان به فإنه يعذركم فيه ، إنه يريد بكم اليسر ولا يكلفكم بالعسر من الأفعال .

وبعد هذا فانظر وتأمل أيها المؤمن العاقل وفكر جيداً ، فإن الله كلفك بتكليف واحد تعود مصلحته عليك ويرجع نفعه إليك ، فقدم لك من ألطافه وعناياته ثمانية أمور جعلها كالاغترار منك حيث إن التكليف فيه أدنى مشقة ، وأنت في كل يوم تعصيه عشرات المرات أو أكثر فلا تقدم له عذراً واحداً .

هذا ما يتعلق بوجوب الصوم حيث إنه من صفات المؤمنين ويدخل في موضوع بحثنا ، وأما بقية الآيات المتعلقة بالصوم فإنها تذكر في كتب الفقه . نعم ينبغي

ذكر آية واحدة مذكورة في ضمن آيات الصوم فإنها تتعلق بفرضنا وهي قوله تعالى :

واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون (١٨٦).

لقد كثرت كلمات المفسرين حول هذه الآية من جهات عديدة ، فمرة يبحثون عن المسؤول عنه هل هو ذاته تعالى أو أفعاله أو صفاته ؟ وقد ذكر كل واحد ما يوافق رأيه وعقيدته ، أو أن المسؤول عنه هو كيفية الطلب منه كما روي أنها نزلت حين سألوا النبي ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه؟^(١). وتارة يبحثون عن معنى القريب وأن القرب في المكان محال في حقه تعالى. ومجمل القول: إن قوله تعالى: «فاني قريب» يصلح أن يكون جواباً على كل تقدير سواء كان المسؤول عنه ذاته أو أفعاله أو صفاته أو كيفية السؤال منه، ومعنى القرب إحاطته بالأشياء علماً وقدرة .

وتارة أخرى يقع الكلام في عدم الاجابة من الله حيث لم يحصل المطلوب وهنا كل منهم يفسر الآية بما يتخلص به عن خلف الوعد حيث إنه قال : «اجيب دعوة الداع اذا دعان» .

ونرى كثيراً من الدعوات لا تجاب ، وقد تكلموا في جهات أخرى غير هذه الجهات ، وينبغي أن نعرف أولاً مقدار العبودية التي يعرفها العبد الداعي ويشبتها لخالفه، هل أن هذا الداعي يستحق الاجابة؟ وهل يشمل قوله : «اجيب دعوة الداع»؟ أو أنه بعيد عن العبودية وعن الدعاء المطلوبين لله عز وجل؟ ومن المعلوم أن إطلاق لفظ العبد على معناه الحقيقي إنما يتحقق بالابجاد، وهذا لا يكون إلا لله

تعالى، قال جلّت عظمتة: «إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبداً»^(١). قال الامام علي بن الحسين عليه السلام في بعض دعواته: يا من حاز كل شيء ملكوتاً وقهر كل شيء جبروتاً... الخ^(٢) وهذا المعنى من العبودية متحقق بالقهر على جميع العباد ولكن الناس يختلفون فيما يتصفون به من العبودية و ما يفهمونه من معناها، فهم في ذلك على طبقات كثيرة.

وقد ذكر الفرق بينهم في الكتاب والأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فمنهم من يكون في أكمل المراتب وهم الذين يشس منهم إبليس ولم يطمع في إغوائهم، كما حكى الله ذلك في قوله: «وعزت لك لأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المخلصين»^(٣)، ومنهم من وصفهم الله بقوله: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً»^(٤).

والذي يظهر من الآيات أن الله في مقام تفضيل العبد وتكريمه يوجه الخطاب إليه بلا واسطة ويضيفه الى نفسه مثل قوله: «واذ كر عبدنا أيوب إذ نادى ربه»^(٥). وقوله: «واذ كر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار»^(٦).

وروي عن الامام الباقر عليه السلام قال: «إن لله عباداً ميامين مياسير يعيشون ويعيش الناس في أكنافهم وهم في عباده مثل القطر»^(٧) و يظهر هذا المعنى جلياً في قوله تعالى: «يا أيّها النفس المطمئنة* ارجعي الى ربك راضية مرضية* فادخلي في عبادي* و ادخلي جنتي»^(٨) فإنه قدّم دخولها في عباده على دخولها الجنة، ثم إن صاحب هذه الرتبة - أي الكامل في العبودية - يلزمه أن يكون كاملاً في العلم

(٢) لم نشر عليه في مظانه .

(١) مريم : ٩٤ .

(٣) الحجر : ٤٠ و ٣٩ .

(٤) الفرقان : ٦٣ .

(٥) ص : ١٧ .

(٦) ص : ٤٥ .

(٧) تحف العقول : ص ٢٢٠ .

(٨) الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

وإلا فكثر العباد بلا علم وفقه ليس فيها فائدة .

وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله : المتعبد على غير فقه كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح ، و ر كعتان من عالم خير من سبعين ر كعة من جاهل ، لأن العالم تأتيه الفتنة فيخرج منها بعلمه وتأتي الجاهل فتتسفه نفساً ، و قليل العمل مع كثير العلم خير من كثير العمل مع قليل العلم والشك والشبهة ^(١) .

فالذي يتعبد على غير علم يكون كالعابد الذي تمنى الحمار لربه ، ويلزم كمال العبودية الكمال في العقل أيضاً ، وإلا إذا لم يكن كامل العقل ولا يعرف ما يطلب ومتى يطلب يكون حاله كحال الرجل الذي وعده الله بواسطة موسى بن عمران عليه السلام أن يقضي له ثلاث حوائج فضيعها في مطالب تافهة ولم يحصل منها على فائدة . فإذا كان الشخص بهذه الصفة من العبودية والعلم والعقل فهو الذي ينطبق عليه قول الامام الصادق عليه السلام : إذا دعوت فظن أن حاجتك بالباب ^(٢) . وهو المصدق الحقيقي لقوله تعالى : « فليستجيئوا لي وليؤمنوا بي » .

فإن مثل هؤلاء القوم لا يدعون بشيء إلا وهم مستجمعون لجميع الشروط المعتمدة في الدعاء من طيب المأكل والمشرب والملبس وتقديم التوبة بعد الاعتراف بالذنوب ، وتقديم الثناء على الله والصلاة على النبي وآله وغيرها من الشروط الواردة في الأخبار عن أهل بيت العصمة عليهم السلام ، وهم الموفون بعهده الله الذي جعله الله شرطاً للوفاء لهم بقوله : « أو فوا بعهدي أو ف بعهديكم » ^(٣) ، فهذه الطبقة من الناس تكون إجابة الله لهم مقرونة بدعائهم كما هو مذكور في الأخبار والآثار والسير وتراجع الرجال .

ثم بعد هذه الطبقة يكون الناس على موجب منزلتهم من العبودية ، فمنهم من هو فاقد لبعض الشروط ، ومنهم الفاقد لمعظم الشروط ، ومنهم الفاقد للجميع ،

(١) بحار الانوار : ج ١ ص ٢٠٨ ب ٥ ح ١٠ .

(٢) اصول الكافي : ج ٢ ص ٤٧٣ ح ١ .

(٣) البقرة : ٤٠ .

ومنهم من لا يعرف من العبودية شيئاً أبداً .

يقول الامام الباقر عليه السلام في كلام تقدم بعضه : «لله عباد ملاعين منا كيد لا يعيشون ولا يعيش الناس في أكنافهم ، وهم في عباده بمنزلة الجراد لا يقعون على شيء إلا أتوا عليه ^(١) .

وبعد هذا يتضح أن العبودية القهرية المسببة عن الایجاد والخلق هي عامة لجميع المخلوقات ، فإنهم عباد مقهرون سواء رضوا بها أم لم يرضوا . وأما العبودية الاختيارية التي تكون باعتراف العبد وتحقق بتعبده فهي أصناف كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وهي بجميع أصنافها وأقسامها ناقصة غير كاملة .

فإذا دققنا النظر في قوله تعالى : «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان» نراه منطبقاً على أهل المرتبة العليا التي ذكرت فهم أحد مصاديقها .

أما غيرهم ممن عبوديتهم ناقصة إذا امتثلوا أمر الله وأطاعوا قوله : «فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي» يلتحقوا باستجابتهم وإيمانهم بأهل تلك المرتبة ويكونوا عباداً مخلصين بلا قيد أو شرط فيشملهم قوله تعالى : «أجيب دعوة الداع» . ولعل أكثر الداعين من قبيل من ذكره الله في قوله : «وإذا مس الإنسان الضر» دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ^(٢) ، أو من قبيل من ذكره في قوله تعالى : «دعوا لله مخلصين له الدين لئن أنجيتننا من هذه لنكونن من الشاكرين» * فلما أنجاهم إذا هم يبنون في الأرض بغير الحق ^(٣) .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة

(١) تحف العقول : ص ٢٢٠ .

(٢) يونس : ١٢ .

(٣) يونس : ٢٣ و ٢٢ .

ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (٢٠٨).

لقد اختلف المفسرون تارة في معنى السلم الذي أمر الله المؤمنين بالدخول فيه ، واخرى في قوله «كافة» هل أنها حال من الضمير العائد للمؤمنين أو أنها حال من السلم^(١) ، ولا ريب في ظهور كون الخطاب للمؤمنين الحائزين لشروط الايمان من فعل الواجبات وترك المحرمات ، وأن هذا الشرط هو شرط لتلك الشروط المعتمدة في المؤمن ، وأن المؤمن مهما فعل من العبادة والطاعة وبذل المال والزهد في الدنيا فإنه إن خالف هذا الأمر ولم يدخل في السلم فإنه زال عن طريق الايمان متبع للشيطان مستحق للعقاب من الله ، كما يظهر ذلك من الآية التي بعدها .

فينبغي أن نعرف معنى السلم حتى ندخل فيه ، ويعرف المتخلف نفسه أنه متبع لخطوات الشيطان فنقول : إن السلم في اللغة هو ضد الحرب ، وحيث إنه لم يكن بين المؤمنين حرب حين نزول الآية ، يكون المقصود منه المداومة على ما هم فيه ، والملازمة والانقياد والطاعة في كل وقت وفي كل أمر ، وعدم إحداث ما يوجب الحرب ، فالمطلوب من المؤمنين بعد استجماعهم لجميع شروط الايمان هو الطاعة والانقياد في كل أمر وفي كل حين ، وهذا موقوف على امور :

الأول : وجود شخص معين من قبل الله أو الرسول حتى تكون الطاعة له والانقياد إليه هو المحقق للدخول في السلم ، ولا ريب في كونه هو النبي ﷺ أيام وجوده في الدنيا ، فمن أطاع النبي في كل أوامره فقد دخل في السلم حال وجوده وبعد ارتحاله ، فإنه ﷺ قد بين لهم ودلهم على من يلزمهم طاعته والانقياد إليه بعده لقوله ﷺ : ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به ، وما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة

إلا وقد نهيتكم عنه ^(١) .

وهذا صريح جلي لأنه ﷺ قد دلنا على من تلزمنا إطااعته والانقياد إليه من بعده ، وإلا فإن رسول الله ﷺ تركنا متبعين لخطوات الشيطان ، وحاشى نبي الله أن يترك أمته على هذه الحالة ، حاشى نبي الرحمة أن ياهم علينا الأمر الذي أراد الله منا وأمرنا به ، فتكون أمته كلها متبعة لخطوات الشيطان إلا بعض من كان في زمان حياته ، حاشى خاتم النبيين وسيدهم أن يترك أهم الأمور الذي به يتحقق الإيمان فلم يوضحه لأمته فتكون الأمة كلها كافرة بمقتضى هذه الآية ، وهل يجراً أحد أن يقول : إن النبي ﷺ ترك أمته سدى في أمر يرجعون بتركه وإهماله كفاراً؟! ولا يقول هذا إلا من يظهر الاسلام ويبطن الكفر ويريد أن يرجع المسلمون كلهم الى الكفر .

الأمر الثاني : يلزم أن يكون هذا الشخص الذي أمرنا الله بطااعته والانقياد إليه عالماً بكل حكم من الأحكام التي يرضي بها الله ، وهي الأحكام الواقعية سواء كانت دنيوية أو اخروية ، وأن لا يكون في الناس من هو أعلم منه ولو في مسألة واحدة ، وهذا يعلم من جعل الله آدم خليفة في الأرض حيث علمه الأسماء كلها فلا يحتاج في شيء من الأمور الى الرجوع لغيره ، وهذا الأمر ثابت بالنسبة إلى النبي ﷺ لانزاع فيه لأحد .

وكذا يلزم فيمن يقوم مقامه من بعده ، لأنه لو لم يكن كذلك لاحتاج الى غيره ولا يحصل الغرض منه بدون ذلك حتى يكون جميع المؤمنين ملزمين بحسب هذه الآية بالطاعة له والانقياد إليه كما كانوا ملزمين بالطاعة للنبي ﷺ ، وأن الذي يترك الانقياد له وينقاد لغيره فهو ممن اتبع خطوات الشيطان ، وإن لم يتحقق وجود مثل هذا الشخص فلا يمكن امتثال الأمر الموجه إلينا وهو الدخول في السلم، وإلا فمن الذي يقودنا ويكون حكماً في تمييز الحق من الباطل لقطع الخصومات؟

الأمر الثالث : أن* الذي يقوم مقام النبي ﷺ من بعده ويلزم المسلمون بالانقياد إليه والطاعة له يلزم أن يكون معصوماً كالعصمة التي نعتبرها في النبي ، وكل شيء يدل على اعتبار العصمة في النبي يجري في من يقوم مقامه ، والمراد من العصمة استحالة صدور الخطأ والنسيان والسهو والكذب أو أي* ذنب عليه في كل مقام ومقال. والغاية من لزوم العصمة هي حصول اليمين بأن* ما يأتي به هو من عند الله ورسوله ، وإلا فيتطرق الشك في كل ما يخبر به ، وهذا خلاف الغاية المقصودة من بعثة النبي ونصب الامام .

وأما قوله تعالى : «كافة» فقد اختار أكثر المفسرين أنها حال من السلم لا لا من الضمير في «ادخلوا» . فيكون المعنى أمر من الله تعالى لكل من آمن بالله ورسوله بالدخول في السلم ، أي في جميع شرائع الاسلام وأحكامه التي بينها لهم النبي ﷺ ليعملوا بها في حياته وبعد وفاته ، أي أبلغوا في الاسلام الى حيث تنتهي شرائعه فتكفوا عن التعداد ، ولا تقولوا إن* النبي ﷺ ترك بعض أركان الدين ولم ينبئه عليه أمته ، فإن* هذا الأمر لا يليق أن ينسب للنبي مع أن* الله يقول : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» (١). فاذا اتفقت أمة محمد ﷺ بأن* الله أكمل لهم الدين ، وأن* النبي ﷺ بين الدين الكامل لهم بجميع اصوله وفروعه ثم يأمرنا الله بالدخول في السلم أي بالطاعة والانقياد للمقائد العام ، ونسلم كلنا أن* القائد هو النبي أيام حياته ، فمن يكون قائداً بعد وفاته حتى ندخل في طاعته وننقاد إليه؟ ولا يمكن القول بأن* النبي ﷺ أهمل هذا الأمر المسبب لاختلاف أمته، هذا الاختلاف الواسع بحيث صارت الأمة فرقا وأحزاباً وأن* أغلب هذه الفرق قد ضلت عن الطريق وانقلبت على الأعقاب كما هو صريح الآية .

و لكن بعد التحقيق و التدقيق و الفحص عن أقوال النبي ﷺ نرى أنه قد أرشدنا ودلّنا على القائد بقوله المتكرر منه في مقامات عديدة: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي : كتاب الله و عترتي أهل بيتي ^(١) و قد كرر هذا الحديث بعبارات مختلفة ولكن المعنى واحد حتى سمعه منه جميع أصحابه. و إنما أشرك العترة مع الكتاب في حال كون الكتاب هو المشتمل على جميع الأحكام ، وذلك لأنّ الناس لا يمكنهم تحصيل جميع أحكامهم من الكتاب فلا بدّ لهم من مفسر ومؤول للكتاب عارف بجميع أحكامه ، وقد دلت الأحاديث الصحيحة أنّ النبي قد علّم عليّاً جميع أحكام الآيات ، وهو سيد العترة فأشركه مع الكتاب ليكون مفسراً له ، و يكفي دليلاً على معرفة علي بالأحكام قوله ﷺ : أنا مدينة العلم وعلي بابها ^(٢) .

وللناكيد نذكر لكم الخبر الآخر المسلّم لدى جميع الأصحاب قول علي عليه السلام : علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب ^(٣) . وبعد ملاحظة ما ذكرنا و التأمل فيه يقرأ المؤمن الآية الشريفة و يتضح له معناها : «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» .

ثم إنّ الذين كتبوا في تفسير القرآن على كثرتهم إمّا من جماعة الامامية الذين يعتقدون بأنّ النبي نصّ على الخلفاء الذين يكونون بعده بأسمائهم الصريحة - وإمّا من إخوانهم أهل السنة .

أمّا الفرقة الامامية فيقولون بأنّ الذي يجب الدخول في طاعته والانقياد له هو الخليفة الذي عينه النبي ﷺ وهو علي بن أبي طالب عليه السلام .

وأمّا المفسرون من أهل السنة فلم يذكروا هذا الركن في تفسير الآية وإن

(١) بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٣٣ ب ٧ ح ٧٠ .

(٢) كنز العمال : ج ١١ ص ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٠ .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج ٤ ص ٤٤٤ ح ١٣ .

كان ذكرهم لخبر الثقلين يلزمهم بالاتفاق مع الامامية ، ولكن في تفسير الآية لم يذكروا شيئاً .

ما ذكره سيد قطب في تفسيره

و من جملة المفسرين في عصرنا الحاضر سيد قطب، فإنه لم يذكر شيئاً في ظلال القرآن، فإنه تكلم في هذه الآية وما يتعلق بها من الآيات التي قبلها وبعدها نحواً من سبع وعشرين صحيفة ذكر فيها الواجبات والمندوبات ، وذكر محاسن الشريعة الاسلامية ورغب الناس بالتمسك بها ^(١) .

ثم ذكر صفات المؤمن الخالص الايمان ، وذكر صفات المنافق المخادع ، ثم قال بعد ذكر الآيات ما هذا نصه : و هي دعوة توجه في كل حين للذين آمنوا ليخلصوا ويتجردوا وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد الله بهم وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم في غير تلجلج ولا تردد ولا تلفت ^(٢) انتهى ، ولم يذكر من الذي يقودهم بعد النبي ﷺ .

ما ذكره المراغي في تفسيره

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم * هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر والى الله ترجع الامور» ^(٣) .

تفسير المفردات :

أصل السلم : التسليم والانقياد فيطلق على الصلح والسلام وعلى دين الاسلام .

(١) في ظلال القرآن : ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) في ظلال القرآن : ج ١ ص ٢١١ .

(٣) البقرة : ٢٠٨ - ٢١٠ .

والخطوات : واحدها خطوة بالضم ما بين قدمي من يخطو .
والزلل : في الأصل عثرة القدم ثم استعمل في الانحراف عن الحق .
والبيّنات : الحجج والأدلة التي يرشد الى أن ما دعيتم إليه هو الحق عقلية
كانت أو نقلية .

والعزيز : الغالب الذي لا يعجزه الانتقام .
والحكيم : الذي يعاقب المسيء ويكافئ المحسن .
ينظرون : أي ينتظرون .

يأتيهم الله : أي يأتيهم عذابه .
والظلل : واحدها ظلّة - بالضم - وهي ما أظلك .
والغمام : السحاب الأبيض الرقيق .
وقضى الأمر : أي أتم أمر إهلاكهم وفرغ منه .

المعنى الجملى :

بعد أن بيّن سبحانه فيما سلف من الآيات أن الناس في الصلاح و الفساد
فريقان : فريق يسعى في الأرض بالفساد و يهلك الحرث و النسل ، و فريق يبغى
بعمله رضوان الله و طاعته أرشدنا الى أن شأن المؤمنين الاتفاق و الاتحاد لا التفريق
والانقسام .

الايضاح :

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، كافة : أي في أحكامه كلها التي
أساسها الاستسلام والخضوع لله و الاخلاص له ، ومن اصوله الوفاق و المسألة بين
الناس و ترك الحروب بين المهتدين بهديه و الأمر بالدخول فيه أمر بالثبات
والدوام كقوله تعالى : يا أيها النبي اتق الله ، ^(١) .

المعنى : يا أيها الذين آمنوا بالألسنة والقلوب دوموا على الاسلام فيما تستأنفون من أيامكم ولا تخرجوا عن شيء من شرائعه ، بل خذوا الاسلام بجملته وتفهموا المراد منه بأن تنظروا في كل مسألة الى النصوص القولية والسنة المتبعة فيها وتعملوا بذلك لأن يأخذ كل واحد بكلمة وسنة يجعلها حجة على الآخر وإن أدى الى ترك ما يخالفها من النصوص والسنن ، وبهذا يرتفع الشقاق والتنازع ويعتصم المسلمون بحبل الوحدة الاسلامية التي أمرنا الله باتباعها في قوله : «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» ^(١) ونهانا عن ضدها في قوله : «ولا تنازعوا فتفشلوا» ^(٢) وقوله (ص) : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض ^(٣) .

و لكن المسلمين قد خالفوا هذا ففرقوا و تنازعوا وشاق بعضهم بعضاً ، واتخذوا مذاهب متفرقة كل فريق يتعصب لمذهب و يعادي سائر إخوانه المسلمين زعماً منه أنه ينصر الدين وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين ، فهذا سنّي يقاتل شيعياً، وهذا شافعي يغري التتار بالحنفية، وهؤلاء مقلدة الخلف يحادون من اتبع طريق السلف .

«ولا تتبعوا خطوات الشيطان» أي : لا تتبعوا سبله في التفرق في الدين أوفي الخلاف والتنازع، إذ هي سبله التي يزينها للناس ويسول لهم فيها المنافع والمصالح فقد كانت اليهود امة واحدة مجتمعة على كتاب واحد فوسوس لهم الشيطان ففرقوا وجعلوا لهم مذاهب وشيعاً وأضافوا الى الكتاب ما أضافوا وحرفوا من حكمه ما حرفوا، فسلب الله عليهم أعداءهم فمزقهم كل ممزق ، وهكذا فعل غيرهم من أهل الأديان كأنهم رأوا دينهم ناقصاً فكمّلوه و قليلاً فكثروه ، فنقل عليهم بذلك فوضعوه فذهب الله بوحدتهم و لم تفن عنهم كثرتهم إذ سلط عليهم

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الانفال : ٤٦ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ٨٧ و ١٠٤ .

الأعداء وأنزل بهم البلاء .

ثم ذكر السبب في النهي عن اتباع خطوات الشيطان فقال : «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، أَي : أَنَّهُ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ لَكُمْ ، فَإِنَّ جَمِيعَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ظَاهِرُ الْبَطْلَانِ بَيِّنُ الضَّرَرِ لِمَنْ تَأَمَّلَ فِيهِ وَتَفَكَّرَ ، وَمَنْ لَمْ يَدْرِكْ ذَلِكَ فِي مَبْدَأِ الْخَطَوَاتِ أَدْرَكَهُ فِي الْغَايَاتِ حِينَ يَذُوقُ مَرَارَةَ الْعَاقِبَةِ ، فَلَا عَذْرَ لِمَنْ بَقِيَ عَلَى ضَلَالَتِهِ بَعْدَ تَذْكِيرِ اللَّهِ وَهُدَايَةِ عِبَادِهِ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ وَتَحْذِيرِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الشَّرِّ .

ثم توعدهم إذا هم حادوا عن النهج السوي والطريق المستقيم فقال : «فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فاعلموا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، أَي : فَإِنْ حَدَثَ مِنْكُمْ عَنَّا صِرَاطُ اللَّهِ وَهُوَ السُّلْمُ وَسِرْتُمْ فِي طَرِيقِ الشَّيْطَانِ وَهُوَ الْخِلَافُ وَالْإِفْتِرَاقُ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ لَكُمْ عَدَاوَتَهُ وَنَهَاكُمْ عَنْ اتِّبَاعِ طَرَفِهِ وَخَطَوَاتِهِ ، فاعلموا أَنَّ اللَّهَ يَأْخُذُكُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، فَهُوَ عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُ عَلَى أَمْرِهِ ، حَكِيمٌ لَا يَهْمِلُ شَأْنَ خَلْقِهِ ، وَلِحُكْمَتِهِ قَدْ وَضَعَ تِلْكَ السَّنَنَ فِي الْخَلِيقَةِ فَجَعَلَ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِقَابَهُ ، وَجَعَلَ الْعِقَابَ عَلَى ذُنُوبِ الْأُمَمِ ضَرْبَةً لَا زَبَّ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يُوْخَرْهَا حَتَّى تَحُلَّ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى .

ولا تقوم للأمم قائمة إلا إذا أقامت العدل بين أفرادها وكانت صالحة لعمارة الأرض كما قال تعالى : «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، ^(١) وَهَكَذَا الْأَفْرَادُ إِذَا لَمْ يَنْهَجُوا النَّهْجَ السَّوِيَّ وَتَحَلَّوْا بِفَاضِلِ الْأَخْلَاقِ فَلَنْ يَوْفَقُوا فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي آخِرَاهُمْ .

ثم زاد في التهديد والوعيد فقال : «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ، ^(٢)

أَي : هَاهِي ذِي قَدْ قَامَتِ الْحُجُجُ وَدَلَّتِ الْبَرَاهِينُ عَلَى صِدْقِ عَهْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَلْ

(١) الانبياء : ١٠٥ .

(٢) البقرة : ٢١٠ .

ينتظر المكذبون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم به من الساعة والعذاب في ظلل من الغمام عند خراب العالم وقيام الساعة ، وتأتي الملائكة وتنفذ ما قضاه الله يومئذٍ ، والحكمة في نزول العذاب في الغمام إنزاله فجأة من غير تمهيد ينذره ولا توطئة توطن النفوس على احتماله ، إلا أن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان أفظع وأشدّ هولاً ، والخوف إذا جاء من موضع الأمن كان خطبه أعظم .

ونحو الآية قوله : «يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً»^(١) . وفي الآية عبرة للمؤمن ترغبه في المبادرة الى التوبة لئلا يفاجئه وعد الله وهو غافل ، فإذا لم يفاجئه قيام الساعة العامة وهلاك هذا العالم كله فاجأ قيامته بموته بغتة ، فإن لم يمت بغتة جاءه المرض بغتة فلا يقدر على العمل و تدارك الزلل .

«وقضى الأمر» أي: كيف ينتظرون غير ذلك وهو أمر قضاه الله وأبرمه فلامفر منه ، وحينئذٍ يثاب الطائع ويعاقب العاصي .

ثم بالغ في التهديد والزجر قال : «والى الله ترجع الامور» فيضع كل شيء في موضعه الذي قضاه ، فهو الأول ، ومنه بدأت الخلائق وهو الآخر وإليه ترجع الامور وتصير ، فعلى من زل عن الصراط السوي واتبع خطوات الشيطان أن يبادر بالتوبة ويرجع الى الحق قبل أن يحيق به زلله ويجازى على عمله^(٢) انتهى.

ما ذكره ابن كثير في تفسيره

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» * فإن زلتم من بعدما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم.

(١) الفرقان : ٢٥ .

(٢) تفسير المراغى : ج ٢ ص ١١٣ - ١١٦ .

يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الاسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك .

قال العوفي : عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله « ادخلوا في السلم » يعني الاسلام .

وقال الضحاك : عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس « ادخلوا في السلم » يعني الطاعة .

وقال قتادة أيضاً : الموادة .

وقوله « كافة » قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك : جميعاً . وقال مجاهد : أي : اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

وزعم عكرمة أنها نزلت في نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم كعبدالله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله (ص) في أن يسبوا وأن يقوموا بالتوراة ليلاً فأمرهم الله بإقامة شعائر الاسلام والاشتغال بها عما عداها .

وفي ذكر عبدالله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفع وبطلانه والتعويض عنه بإعلاء الاسلام .

ومن المفسرين من يحمل قوله « كافة » حالاً من الداخلين، أي : ادخلوا في الاسلام كلكم، والصحيح الأول، وهو أنهم امرؤا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الايمان وشرائع الاسلام وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها .

كما قال ابن أبي حاتم : أخبرنا علي بن الحسين ، أخبرنا أحمد بن الصباح ، أخبرني الهيثم بن يمان ، حدثنا إسماعيل بن زكريا ، حدثني محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » كذا

فأما بالنصب يعني مؤمني أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي انزلت فيهم فقال الله : «ادخلوا في السلم كافة» يقول : ادخلوا في شرائع دين محمد (ص) ولا تدعوا منها شيئاً وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها .

وقوله : «ولا تتبعوا خطوات الشيطان» أي : اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان : فـ «إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»^(١) و«إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير»^(٢) ولهذا قال «إنه لكم عدو مبين» . وقال مطرف : أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان .

وقوله : «فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات» أي : عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج «فاعلموا أن الله عزيز» أي : في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب «حكيم» في أحكامه ونقضه وإبرامه ، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس : عزيز في نعمته حكيم في أمره .

وقال محمد بن إسحاق : العزيز في نصره ممن كفر به إذا شاء ، الحكيم في عذره وحبته إلى عباده^(٣) انتهى .

ما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسيره

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» * فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم * هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور .

(١) البقرة : ١٦٩ .

(٢) فاطر : ٦ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ١ ص ٤٣٩ .

بيان :

هذه الآيات و هي قوله : «يا أيها الذين آمنوا» الى قوله : «ألا إن نصر الله قريب» الآية، سبع آيات كاملة تبين طريق التحفظ على الوحدة الدينية في الجامعة الانسانية ، وهو الدخول في السلم والقصر على ما ذكره الله من القول وما أراه من طريق العمل ، وأنه لم تنقسم وحدة الدين ولا ارتحلت سعادة الدارين ولا حلت الهلكة دار قوم إلا بالخروج عن السلم و التصرف في آيات الله تعالى بتغييرها ووضعها في غير موضعها ، شوه ذلك في بني إسرائيل وغيرهم من الامم الغابرة ، وسيجري نظيرها في هذه الامة لكن الله يعدهم بالنصر «ألا إن نصر الله قريب» .

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» السلم و الاسلام والتسليم واحدة ، و«كافة» كلمة تأكيد بمعنى جميعاً ، ولما كان الخطاب للمؤمنين وقد امروا بالدخول في السلم كافة فهو أمر متعلق بالمجموع و بكل واحد من أجزائه، فيجب ذلك على كل مؤمن ، ويجب على الجميع أيضاً أن لا يختلفوا في ذلك ويسلموا الأمر لله ولرسوله ﷺ ، وأيضاً الخطاب للمؤمنين خاصة ، فالسلم المدعو إليه هو التسليم لله سبحانه بعد الايمان به ، فيجب على المؤمنين أن يسلموا الأمر إليه ولا يذعنوا لأنفسهم صلاحاً باستبداد من الرأي ، ولا يضعوا لأنفسهم من عند أنفسهم طريقاً يسلكونه من دون أن يبيته الله ورسوله ، فما هلك قوم إلا باتباع الهوى والقول بغير العلم، ولم يسلب حق الحياة وسعادة الجدة عن قوم إلا عن اختلاف. ومن هنا ظهر أن المراد من اتباع خطوات الشيطان ليس اتباعه في جميع ما يدعو إليه من الباطل بل اتباعه فيما يدعو إليه من أمر الدين ، بأن يزيّن شيئاً من طرق الباطل بزيينة الحق و يسمى ما ليس من الدين باسم الدين فيأخذ به الانسان من غير علم ، وعلامة ذلك عدم ذكر الله ورسوله إياه في ضمن التعاليم الدينية ^(١) انتهى محل الحاجة منه .

ما ذكره الزمخشري في الكشف

«السلم» بكسر السين وفتحها، وقرأ الأعمش بفتح السين واللام : وهو الاستسلام والطاعة أي: استسلموا لله وأطيعوه «كافة» لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته. وقيل: هو الاسلام. والخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم ، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم، ويجوز أن يكون «كافة» حالاً من السلم لأنها تؤت كما تؤت الحرب ، قال [العباس بن خرداس] :

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع
على أن المؤمنين امرؤا بأن يدخلوا في الطاعات كلها ، وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة ، أو في شعب الاسلام وشرائعه كلها ، وأن لا يدخلوا بشيء منها .
وعن عبدالله بن سلام أنه استأذن رسول الله (ص) أن يقيم على السبت وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل .

و «كافة» من الكف كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم .
«فإن زللت» عن الدخول في السلم «من بعدما جاءكم البيّنات» أي : الحجج والشواهد على أن ما دعيتم الى الدخول فيه هو الحق «فاعلموا أن الله عزيز» غالب لا يعجزه الانتقام منكم «حكيم» لا ينتقم إلا بحق ^(١) انتهى موضع الحاجة .

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)» .

خاطب الله المؤمنين في هذه الآية الشريفة وأمرهم أن ينفقوا مما رزقهم فإنه

هو الذي أعطاهم هذا المال و هاهو يدعوهم أن ينفقوا منه ويشير الى أن الممثل لهذا الأمر والمنفق من مال الله سوف يعقد صفقة تجارية بينه وبين الله تعالى ، وسوف تكون بينه وبين الله خلّة ، بمعنى أن يكون خليلاً لله ، وسوف يكون ممن يأذن الله لرسوله أن يشفع له يوم القيامة بين يدي الله ، وأن الذي لا ينفق مما رزقه الله في الدنيا ويبخل بالمال عن العطاء سوف يأتيه يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة ، فإذا لم يكن في ذلك اليوم بيع فلا يمكنكم تدارك ما فاتكم بابتياح ما تنفقونه أو تفقدون به من العذاب ، وإذا لم يكن فيه خلّة وهي الحب الخالص فلا يكون لكم أخلاء حتى يسامحواكم في ذلك اليوم ، وإذا لم يشفع هناك أحد إلا بإذن من الرحمن فلا يمكنكم أن تتكلموا على أحد يشفع لكم في حط ما في ذممكم . والظاهر أن المقصود من الانفاق هو إعطاء الزكاة الواجبة ، وأن التارك لها والممتنع من إعطائها يكون ظالماً لنفسه حيث ترك واجباً ، ويكون ظالماً للفقراء حيث منعهم حقهم . ولذا يقول الله للمؤمنين : إن الكافر هو الظالم وأنتم بما أنكم مؤمنون لا ينبغي أن تكونوا ظالمين ، فإذا اتصفتم بالظلم كنتم من زمرة الكافرين . فتحصل لنا من الآية الشريفة : أن جملة الصفات المعتبرة في المؤمنين هي صفة السخاء بأن ينفق ما أمره الله بإنفاقه ، لأن عقيدة المؤمن بأن الرزاق هو الله وقد وعده بالزيادة اذا أنفق ، وأما الممسك فإنه غير مصدق بوعده الله فيرجع الى عقيدة الكافر ، نسأله تعالى أن يشبّتنا على الايمان .

قوله تعالى : لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم (٢٥٧) .

حيث إن موضوع الكتاب هو صفات المؤمنين المأخوذة من القرآن فإن هذه

الآية الشريفة قد قارنت بين الرشد والغى ، وهما ضدان لا يجتمعان ، ومن عرف أحدهما عرف الآخر إذا كان رشيداً أو طالباً للرشد .

أما الذي يقول أو يعمل أو يكتب على ما تشتهيه نفسه أو على غير بصيرة وتدبر إما لتقصير أو قصور أو تعصب أعمى فهو - ومنغمس في الغي الى ام رأسه فلا يمكن أن يعرف شيئاً من الرشد ، وقد فسر الغي بأنه سلوك الطريق المسبب للعطب والهلاك . فيكون الرشد في سلوك الطريق الموصل للغاية المحبوبة المحمودة .

«الرشد» هو إصابة حقيقة الأمر وإصابة الطريق المؤدي إليه ، والحجة التي توصل صاحبها الى ما يرضاه الله ويكون عذراً له يوم يوقف للحساب بين يدي الله وإنما يكون رشداً اذا كانت مقدماته كلها من الطريق التي نصبها الله لعباده ، أما إذا كانت المقدمات من امور غير مرضية لله فإنها تكون موصلة الى الغي حتماً ، فالمقصود من الرشد والغى في الآية هو الايمان والضلال . والايمان هو الموصل الى رضا الله وبدلالته ، فأما ما يختاره العبد من ذات نفسه فلا يكون مرضياً لله وإن صام وصلى ليلاً ونهاراً وسمّاه أصحابه مؤمناً ، فكل شيء يقع في طريق الوصول الى الرشد وهو الايمان يلزم أن يكون بدلالة من الله سواء كان هو نفس العقيدة أو العبادة أو كيفيتهما أو أجزأهما .

ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره

أما قوله : وقد تبيين الرشد من الغي ، ففيه مسألتان :

المسألة الاولى : يقال بأن الشيء استبان وتبين اذا ظهر ووضح ، ومنه المثل (قد تبين الصبح لذي عينين) . وعندى أن الايضاح والتعريف إنما سمي بياناً لأنه يوقع الفصل والبيئونة بين المقصود وغيره . والرشد في اللغة معناه إصابة الخير ، وفيه لغتان: رشد ورشد ، والرشد مصدر أيضاً كالرشد ، والغى نقيض الرشد يقال: غوى يغوي غياً وغواية إذا سلك غير طريق الرشد .

المسألة الثانية: «تبيّن الرشد من الغي» أي: تمييز الحق من الباطل والإيمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الحجج والآيات الدالة .
قال القاضي : ومعنى «قد تبيّن الرشد» أي : أنه قد انضح و انجلي بالأدلة لأن كل مكلف تنبّه لأنّ المعلوم خلاف ذلك .
وأقول : قد ذكرنا أن معنى «تبيّن» انفصل وامتاز، فكان المراد أنه حصلت البينونة بين الرشد والغي بسبب قوة الدلائل وتأكيد البراهين^(١) انتهى كلام الرازي.

ما ذكره المراغي في تفسيره

«قد تبيّن الرشد من الغي» أي قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والفلاح ، وأن ما خالفه من الملل الاخرى غي وضلال .
ثم فصل ذلك فقال : «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» أي: فمن يكفر بما تكون عبادته والإيمان به سبباً في الطغيان والخروج عن الحق من عبادة مخلوق ، إنساناً كان أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً ، أو تقليد رئيس أو طاعة هوى ، ويؤمن بالله فلا يعبد إلا إياه ولا يرجو شيئاً من أحد سواه ، ويعترف بأن له رسلاً أرسلهم للناس مبشرين و منذرين بأوامره ونواهيها التي فيها مصلحة للناس كافة، فقد تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكاً بأوثق عرى النجاة وأمتن وسائل الحق ، وإنما يكون ذلك بالاستقامة على الطريق القويم الذي لا يضل سالكه، فمثلته مثل الممسك بعروة الجبل المحكم المأمون الانقطاع لدى حمل جسم كبير ثقيل .

ثم أتى بما يفيد الترغيب والترهيب فقال : «والله سميع عليم» أي: والله سميع لأقوال من يدعي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، عليم بما يكنه قلبه مما يصدق هذا أو يكذبه ، فمن اعتقد أن جميع الأشياء مسيطرة بقدرة الله لا تأثير فيها لأحد سواه فهو المؤمن حقاً وله الجزاء الأوفى ، ومن انطوى قلبه على شيء من نزعات الوثنية ونسب ما جهل سره من عجائب الخلق الى قوة غير طبيعية يتقرب بها

الى الله زلفى فقد حق عليه العذاب، وكان جزاءه جزاء الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ^(١) انتهى كلام المراغى.

ما قاله السيوطى فى الدر المنثور

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الطاغوت الشيطان في صورة الانسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم ^(٢).

ما ذكره سيد قطب فى تفسيره

ولا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

إن قضية العقيدة كما جاء بها هذا الدين قضية اقتناع بعد البيان والادراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الادراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكر والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المتمقل كما يخاطب الفطرة المستكنة، يخاطب الكيان البشري كله والادراك البشري بكل جوانبه في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجأ مشاهدتها إلى الاذعان، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والادراك .

واذا كان هذا الدين لا يواجهه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والا كراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد

(١) تفسير المراغى : ج ٣ ص ١٧ .

(٢) الدر المنثور : ج ١ ص ٣٣٠ .

أو مزاولة الضغط القاهر والإكراه بلا بيان ولا اقتناع ولا اقتناع .

وكانت المسيحية آخر الديانات قبل الإسلام قد فرضت فرضاً بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الامبراطور قسطنطين في المسيحية بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضدّ المسيحيين القلائل من رعايا الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعاً وحبّاً. ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية بل أنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذاهب الدولة وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح .

فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن في أول ما يعلن هذا المبدأ العظيم الكبير «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»^(١) إلى آخر ما ذكره من الكلام على قوله «لا إكراه في الدين» .

ثم يقول في قوله تعالى «قد تبين الرشد من الغي» : فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه ، والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به ، والأمر كذلك فعلاً ، فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان وما تمنحه للدراك البشري من تصور ناصع واضح وما تمنحه للقلب البشري من طمأنينة وسلام وما تثيره النفس البشرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة وما تحقّقه في المجتمع الإنساني من نظام سليم قويّ دافع إلى تنمية الحياة وترقية الحياة ، ما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذي لا يرفضه إلا سفيه ، يترك الرشد إلى الغي ويدع الهدى إلى الضلال ويؤثر التخبط والقلق والهبوط والضالة على الطمأنينة والسلام والرفق والاستعلاء ، ثم يزيد حقيقة الإيمان إيضاحاً وتحديداً وبياناً .

«فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، إن الكفر ينبغي أن يوجه الى ما يستحق الكفر وهو الطاغوت ، وإن الإيمان يجب أن يتجه الى من يجدر الإيمان به وهو الله .

والطاغوت صيغة من الطفيان تفيد كل ما يطغى على الوعي ويجور على الحق و يتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد ، ولا يكون له ضابطاً من العقيدة في الله ومن الشريعة التي سنّها الله ومن كل منهج غير مستمد من الله ، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله ، فمن يكفر بهذا كله في كل صورة من صورته ، ويؤمن بالله وحده و يستمد من الله وحده فقد نجا ، وتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

و هنا تجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ولحقيقة معنوية . وهي أن الإيمان بالله عروة وثيقة لا تنفصم أبداً ، وأنها متينة لا تنقطع ولا يضل الممسك بها طريق النجاة ، وأنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة .

والإيمان في حقيقته اهتداء الى الحقيقة الاولى التي تقوم بهاسائر الحقائق في هذا الوجود حقيقة الله ، و اهتداء الى حقيقة الناموس الذي سنّه الله لهذا الوجود وقام به هذا الوجود . والذي يمسك بعروته يمضي على هدى الى ربه فلا يظلم ولا يتخلف ولا تتفرق به السبل ولا يذهب به الشرود والضلال .

«والله سميع عليم» : يسمع منطق الألسنة ويعلم مكنون القلوب ، فالؤمن الموصول به لا يبغض ولا يظلم ولا يخيب ، ثم يمضي السياق يصور في مشهد حسي حي متحرك طريق الهدى وطريق الضلال ، وكيف يكون الهدى وكيف يكون الضلال ، يصور كيف يأخذ الله وليّ الذين آمنوا بأيديهم فيخرجهم من الظلمات الى النور ، بينما الطواغيت أولياء الذين كفروا تأخذ بأيديهم فتخرجهم من النور الى الظلمات .

إنه مشهد عجيب حيّ موج، والخيال يتبع هؤلاء وهؤلاء جيئةً من هنا وذهاباً من هناك بدلاً من التعبير الذهني المجرد الذي لا يحرك خيالاً ولا يلمس حساً ولا يستجيش وجداناً ولا يخاطب إلا الذهن بالمعاني والألفاظ .

فإذا أردنا أن ندرك فضل طريقة التصوير القرآنية فلنحاول أن نضع في مكان هذا المشهد الحي تعبيراً ذهنياً أياً كان لنقل مثلاً : الله وليّ الذين آمنوا يهديهم إلى الإيمان والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يقودونهم إلى الكفران، إن التعبير يموت بين أيدينا ويفقد ما فيه من حرارة وحركة وإيقاع.

والى جانب التعبير المصور الحيّ الموحى نلتقي بدقة التعبير عن الحقيقة «الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» .

إنّ الإيمان نور ، نور واحد في طبيعته وحقيقته ، وإنّ الكفر ظلمات ، ظلمات متعددة متنوعة ولكنها كلها ظلمات ، وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور ، والتعبير عن الكفر بالظلمة .

إنّ الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشتع من حولها نوراً ووضاءة ووضوحاً ، نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات ، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غشّ بيّنة بغير لبس ، مستقرة في مواضعها بغير أرجحة ، فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع في هواة وطمأنينة وثقة وقرار لأرجحة فيه ، نور يكشف الطريق إلى الناموس الكوني من حوله ومن خلاله ، فيطابق المؤمن بين حر كته وحر كة الناموس الكوني من حوله ومن خلاله ، ويمضي في طريقه إلى الله هيناً ليناً لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات ولا يخبط هنا وهناك ، فالطريق في فطرته مكشوف معروف . وهو نور واحد يهدي إلى طريق واحد ، فأما ضلال الكفر فظلمات شتى متنوعة ، ظلمة الهوى والشهوة وظلمة الشرود والتهيه ، وظلمة الكبر والطفیان ،

وظلمة الضعف والذلة ، وظلمة الرياء والنفاق ، وظلمة الطمع والسعر ، وظلمة الشك والقلق ، وظلمات شتى لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشroud عن طريق الله ، والتلقي من غير الله والاحتكام لغير منهج الله وما يترك الانسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد نور الحق الواحد الذي لا يتلبس حتى يدخل في الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف وكلها ظلمات ، والعاقبة هي اللاتقة بأصحاب الظلمات. «اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»؛ وإذا لم يهتدوا بالنور فليخلدوا إذن في النار ، إن الحق واحد لا يتعدد ، والضلال ألوان وأنماط «فماذا بعد الحق إلا الضلال»^(١) انتهى كلام صاحب «في ضلال القرآن» .

و إن هذا المؤمن الذي وصفه بقوله : إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن ... الخ من صفات الكمال و هو من أعلى طبقات المؤمنين و من خاصتهم لا من عامتهم ، فإن عامة من يدعي الإيمان لا يتصف و لا ببعض هذه الأوصاف ، وأن من يتصف بهذه الأوصاف مضافاً إليها غيرها إنما هم أدلة الناس ومرشدهم وقادتهم الى الله وهم الذين قال النبي ﷺ مخبراً عنهم : المؤمن ينظر بنور الله^(٢) وهم تراجمة القرآن العالمون بتأويله الذين قرئهم الله بنفسه في قوله «و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم»^(٣).

فينبغي لطالب الرشد والإيمان أن يفحص عنهم ليعرفهم بأسمائهم ويقتدي بهم، فإن الله ما ذكرهم في كتابه إلا لوجودهم في هذا العالم، وما أوجدهم في عالم الدنيا إلا لينفعوا الناس بما أعطاهم من العلوم ، وليرجع الناس إليهم فيما يحتاجون إليه من العلم .

وإن أول هؤلاء الرجال هو الرسول الأعظم، ومن بعده هم من قرئهم الرسول

(١) في ضلال القرآن : ج ١ ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .

(٢) كنز العمال : ج ١ ص ١٦٥ ح ٨٢٣ .

(٣) آل عمران : ٧ .

بالقرآن وجعلهم عدلاً له ، وأمر الأمة بالتمسك بهم كما في الحديث الذي يرويه جميع الأصحاب وهو قوله : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض^(١) هذا هو الرشد الذي بينه لنا الله في كتابه وأوضحه لنا الرسول الأكرم .

ثم إن جميع المفسرين إذا وصلوا الى هذه الآية وهي قوله : « لا إكراه في الدين » يتعرض الى فريضة الجهاد ، حيث إن الله أمر النبي ﷺ والمؤمنين بجهاد الكافرين ، فهل أن آية الجهاد ناسخة لهذه الآية ؟ أو أنها لا تنافي هذه الآية ويمكن العمل بها معاً ؟ وقد اختار كل واحد من المفسرين أحد هذين القولين . أما سيد قطب فقد اختار في تفسيره « في ظلال القرآن » ، عدم المنافاة بين الآيتين ، فإنه بعد ما أبطل قول بعض المغرضين الذين يريدون تشويه الاسلام وإيقاع الفتنة بين المسلمين قال :

لقد انتضى الاسلام السيف وناضل وجاهد في تاريخه الطويل لاليكراه أحد على الاسلام ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد .

جاهد الاسلام أولاً ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم ، وقرر ذلك المبدأ العظيم الذي سلف تقريره في هذه السورة من قوله تعالى : « والفتنة أشد من القتل »^(٢) فاعتبر الاعتداء على العقيدة والايذاء بسببها ، وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها ، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم ، وإذا كان المؤمن مأذوناً في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه ، وقد كان المسلمون يسأمون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون ، ولم يكن لهم بد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعز ما يملكون ، يسأمون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون فيها في مواطن شتى ، وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشي والتقتيل الجماعي لفتنة المسلمين عن دينهم وفتنة أصحاب

(١) راجع بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .

(٢) البقرة : ١٩١ .

المذاهب المسيحية الاخرى ليرتدوا الى الكثلكة ...
الى أن يقول :

وجاهد الاسلام ثانياً لتقرير حرية الدعوة بعد تقرير حرية العقيدة ، فقد جاء الاسلام بأكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطوير الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه الى البشرية كلها ويبلغه الى أسماعها والى قلوبها، فمن شاء بعد البيان و البلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولا إكراه في الدين .

ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كما جاء من عند الله للناس كافة ، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا ، وأن يقتنعوا وأن ينضموا الى موكب الهدى اذا أرادوا .

و من هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع الى الهدى وتفتن المهتدين أيضاً، فجاهد الاسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة الى الحق في كل مكان ، وحرية الدعاة ، وما يزال هذا الهدف قائماً وما يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين^(١).

أقول : إن هذه النظم الطاغية التي ذكرها تصدر في أغلب الأوقات من المسلمين أنفسهم أو ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين، فينبغي للمؤمنين مكافحة هذه الفرق وإن لم يمكنهم ذلك فعليهم أن يظهروا الحق بالسنتهم وأقلامهم ، فإن هذه الفرق قد حدثت بعد رحلة النبي ﷺ مباشرة .

ثم قال سيد قطب :

جاهد الاسلام ثالثاً ليقم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الانسان تجاه أخيه الانسان حينما يقرر أن هناك عبودية

واحدة لله الكبير المتعال ، ويلغى من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها ، فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس وتسندهم عن طريق التشريع ، إنما هناك رب واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم على السواء وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء^(١) .

أقول: إلى هنا كان سيد قطب موقفاً في كلامه مسدداً فيما كتبه، سائراً في طريق الرشد الذي ذكره الله في قوله: «قد تبين الرشد من الغي» وأنا أرجو من القارئ أن يحفظ هذا المقال الدال على أن كل أمر من أمور الشريعة يلزم أن يكون مقدماته وأدلتها مستمدة من الله لا من شيء آخر .

ولكنه قد مال عن هذا الطريق وسلك طريقاً آخر، فقال بعد كلامه المذكور: فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منقاداً لشريعة الله ، موثقاً عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ . . . الخ^(٢) .

ولا يخفى على القارئ أن هذا الكلام و هذا الرأي الذي فرضه على الأمة بأجمعها من غير دليل و لاجحة بل أرسله إرسال الأمر المسلم عند الكل .

أقول: إن هذا الرأي منافي لما ذكره أولاً من أن جميع الأحكام ينبغي أن تكون مستمدة من الله، فإننا لانعلم من هو الرجل الموثق على التنفيذ ؟ وهل يكون عالماً بجميع أحكام القرآن وعلومه الكثيرة؟ هل نوثقه عنه النبي ﷺ بكلمة تدل على كثرة علمه بأن قال فلان باب مدينة علمي، أو قال فلان أقضاكم، فإذا لم تصدر في حقه كلمة من الرسول كيف توكله الجماعة ؟

ثم نسأل : من هم الجماعة الذين يوكلون الرجل المجهول فلا نعرف

الجماعة المؤكّلين ولا الرجل المؤكّل؟ وكيف فوض أمر الشريعة وأمر المسلمين وتفسير القرآن الى الجماعة؟

إنّ هذا الكلام لا يطابق ذلك الذي رجوت من القارىء أن يتذكّره ولا يغفل

منه .

أمّا الذي يكون منفذاً لأحكام الشريعة ويكون مفسراً لكتاب الله فلا يكون اختياره راجعاً الى العباد ولا يعينه أحد من البشر ، لأنّ القرآن فيه الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمجمل والمفصل، وغير ذلك مما لا يعلمه أحد إلا بتعليم من الله والرسول، وهذا الشخص لا يعرفه إلا الله ورسوله ولا يعينه أحد غير النبي بأمر من الله .

أمّا الجماعة - سواء قلّت أو كثرت أو كانت جميع المسلمين - فلا يمكنها أن تعين أحداً لينفذ الأحكام، لأنّ التنفيذ إنما يكون مع العلم بالأحكام ، والعلم إنما يكون من قبل الله بواسطة الرسول ، والجماعة لا تعرف الشخص الذي ألهمه الله العلم .

فلا يمكننا أن نقول فلان أو فلان هو المنفذ أو الخليفة لأنّ النبي يقول : من اختار لأمر امتي شخصاً وفيهم خير منه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . قال الحوماني في كتابه «دين وتمدين» بعد نقل الحديث : هذا الحديث ثابت عند السنة والشيعه من المسلمين، ويزيد عليه الشيعة: أنّ خليفة الله في الأرض يجب أن يكون عدلاً إن لم يكن معصوماً عملاً بقوله تعالى : ولا ينال عهدى الظالمين ،^(١) انتهى .

ثم إنّ الجماعة إن كانت هي عموم المسلمين فهو شيء لا يمكن ولا يتهيأ. ولو فرض إمكان ذلك واجتمع رأي المسلمين على اختيار رجل واحد فهل يجوز للمؤمن

(١) دين وتمدين : ج ٢ ص ٦ ، والاية ١٢٠ من سورة البقرة .

أن يأخذ أحكام دينه من هذا الرجل الذي اختاروه ما لم يكن حكمه مستنداً إلى القرآن والسنة؟ ولو أخذ بقوله فهل يكون معذوراً عند الله؟

وقد تقدم من أن الأحكام الدينية يلزم أن تكون مستمدة من الله في جميع مقدماتها وشروطها، فإن هذا الذي ذكره يستلزم العمل بقول هذا الموكّل عن الجماعة مطلقاً بلا شرط، ولو أراد من الجماعة التي توكّل أحداً على التنفيذ بعض المسلمين لا كلّهم يكون الأمر أعظم من سابقه، إذ لا دليل على جواز العمل بقول هذا الرجل ما لم تكن أقواله مستمدة من الكتاب والسنة، وأن المصير إلى هذا القول لا يطابق الرشد الذي فسرّه لنا قبلاً، ولو أن الرجل الموكّل عن الجماعة التي عنها أخبرنا بأن حكمه مأخوذ من القرآن والسنة، فهل يكفي ذلك في إسقاط التكليف؟ أو أنه يلزم علينا أن نطلب منه الآية والرواية التي استند عليها في هذا الحكم؟ فهذه مسائل عديدة تكون في طريق المكلف يلزمه الجزم فيها، وأن عمله مطابق لأمر الله تعالى فيها.

ولقد تقدم قول سيد قطب: فأما ظلمات الكفر فظلمات شتى متنوعة، ظلمة الهوى والشهوة وظلمة الشرود والتهيه، وظلمة الكبر والطغيان، وظلمة الضعف والذلة، وظلمة الرياء والنفاق، وظلمة الطمع والسعر، وظلمة الشك والقلق، وظلمات شتى لا يأخذها الحصر.

ومع هذه الأنواع الكثيرة من الظلمات كيف يطمئن المؤمن لقول رجل عادي وگلته جماعة غير معروفة فيجعل مدار دينه ومدار أعماله على أقوال هذا الرجل الموكّل من قبل الجماعة، لعمر كإن هذا لا يتفق مع الرشد الذي فسرّه لنا. والذي يدلّ عليه العقل ويقبله ويرشد إليه القرآن والسنة أن الذي يكون دليلاً على أحكام الدين ومبلغاً عن الله وعن الرسول يلزمه أن يسند كل حكم في كل قضية إلى القرآن أو السنة، والذي يدلّنا على هذا المبلغ إما القرآن أو النبي ﷺ، وحيث إن القرآن لم يسم لنا أحداً باسمه وإنما يذكره بأوصافه فلا

بد أن نرجع في تشخيصه الى قول النبي ﷺ فإنه تعالى يقول : «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» ^(١) وأن سائر الناس لا يعرف الراسخين وإنما يعرفهم النبي ﷺ فليزمننا الرجوع الى أقواله في تعيين العالم .

وقد تواتر عنه ﷺ أنه قال : أنا مدينة العلم وعلي بابها ^(٢) وهذا يكفي في كون علي عليه السلام عنده جميع العلوم التي كانت عند النبي ﷺ وقد قال هو - أي الامام علي - وهو الصادق المصدق بشهادة جميع أصحاب النبي ﷺ : علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب ^(٣) .

فالمؤمن اذا أخذ أحكام دينه من هذا الرجل ومن أمثاله يجزم ويقطع بأن ما يقول مطابق لأحكام الله الواقعية ، وأن العمل بقوله مجزئ ويكفي أن يكون عذراً يقدمه لله إذا سئل يوم القيامة عن أخذ أحكامه ، حيث إن النبي ﷺ بين لأمته أن هذا الرجل هو باب مدينة علمه .

فهل ترى أيها المؤمن أن الأخذ عن الرجل هو الرشد أو الأخذ عن ذاك الذي توكله الجماعة الذي لم يصدر من النبي ﷺ كلمة في حقه تدل على وفور علمه ؟ ثم توجه سؤال آخر الى سيد قطب وذلك بعد نقل ما يلي :

في مجمع الزوائد عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله (ص) : إني تارك فيكم خليفتين : كتاب الله عز وجل حبل ممدود ما بين السماء والأرض ، أو ما بين السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ^(٤) . وفيه أيضاً عن زيد بن أرقم قال : نزل رسول الله (ص) الجحفة ثم أقبل على الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني لا أجد لنبي إلا نصف عمر الذي قبله .

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) كنز العمال : ج ١١ ص ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٠ .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج ٤ ص ٤٤٤ ح ١٣ .

(٤) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١٦٢ .

وإني ادعى فاجيب فما أنتم قائلون؟ قالوا: نصحت، قال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله و أن محمداً عبده ورسوله ، و أن الجنة حق ، و أن النار حق ؟ قالوا : نشهد ، قال : فرفع يده فوضعها على صدره قال : أنا أشهد معكم . ثم قال : ألا تسمعون ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني فرط على الحوض و أنتم واردن على الحوض ، و أن عرضه ما بين صنعاء وبصري ، فيه أقداح عدد النجوم من فضة ، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين؟ فنادى منادٍ : ما الثقلان يا رسول الله؟ قال : كتاب الله طرف بيد الله عز وجل و طرف بأيديكم فتمسكوا به لا تفلتوا ، و الآخر عشريني ، و أن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فسألت ذلك لهما ربي فلا تقدموهما فتهلکوا ، و لا تقصروا عنهما فتهلکوا ، و لا تعلموهما فهم أعلم منكم . ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : من كنت أولى به من نفسه فعلي وليه ، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه . و قال علي عليه السلام : ألا إن العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم النبيين عندي و عند عترة خاتم النبيين ، فأين يتاه بكم و أين تذهبون؟^(١) .

و قال أمير المؤمنين في خطبة له أيضاً : و لقد علم المستحفظون من أصحاب محمد أن النبي قال : إني و أهل بيتي مطهرون فلا تسبقوهم فتضلوا ، و لا تخلفوا عنهم فتزلوا ، و لا تخالفوهم فتجهلوا ، و لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم ، هم أعلم الناس كباراً و أحلم الناس صفاراً ، فاتبعوا الحق و أهلله حيث كان^(٢) .

وهنا نسأل سيد قطب و نقول : إن هذا الحديث النبوي المتسالم على صحته ، المستمد من الله تعالى و هو يدلنا على طريق الرشد البين ، و يرشدنا على من ينفذ أحكام الشريعة ، و يعلمنا أن هذا المنفذ لا يفترق عن القرآن حتى يردا جميعاً عليه الحوض ، ثم إن هذا الذي دلنا عليه النبي أخبرنا أن عنده جميع العلوم التي

(١) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١٦٣ .

(٢) بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٣٠ ب ٧ ح ٦٢ .

كانت عند الأنبياء من آدم الى محمد ، هل يصح أن نتركه ونأخذ بقول من وكلته الجماعة، مهما كان الرجل و مهما كانت الجماعة ؟

ما قاله المراغي في تفسيره

«الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، أي: أن المؤمن لا وليّ له ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى ، فهو يهديه الى استعمال ضروب الهدايات التي وهبها له (الحواس ، والعقل ، والدين) على الوجه الصحيح ، وإذا عرضت له شبهة لاح له شعاع من نور الحق يطرد هذه الظلمة حتى يخلص منها كما قال تعالى : «إنّ الذين اتقوا اذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون ، ^(١) فنظر الحواس في الأكوان وإدراك ما فيها من بديع الاتقان ينير هذه الحواس ، ونظر العقل في المعقولات يزيد نوراً على نور ، والنظر فيما جاء به الدين من الآيات يتمم له ما يصل به الى أوج سعادته ومنتهى فوزه و فلاحه . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ، أي: والكافرون لاسلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة التي تسوقهم الى الطغيان . فإن كانت من الأحياء الناطقة ورأت أن عابديها قد لاح لهم شعاع من نور الحق نبههم الى فساد ما هم فيه بادرت الى إطفائه وصرفه عنهم بإلقاء حجب الشبهات ، وإن كانت من غير الأحياء فسدنة هياكلها وزعماء حزبها لا يقصرون في تنميق هذه الشبهات ببيان ، إن الواجب الاعتقاد بتلك السلطة و بما ينبغي لأربابها من التعظيم و هو لا شك عبادة وإن سمّوه توسلاً واستشفاعاً وغير ذلك من الأسماء . «اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، فإن ما يكون في الآخرة ما هو إلا جزاء لما كان عليه الانسان في الدنيا و لا يليق بأهل الظلمات الذين لم يبق لنور الحق مكان في أنفسهم إلا تلك الدار التي وقودها النار والحجارة ^(٢) انتهى كلام المراغي .

(١) الاعراف : ٢٠١ .

(٢) تفسير المراغي : ج ٣ ص ١٩ .

فقد اتضح للقارىء أن المؤمن لا يكون اعتقاده وعمله في عبادته ومعاملته إلا ما يوافق أمر الله المأخوذ من كتابه ومن نبيه أو ممن جعله النبي نائباً عنه وخليفة له ومبيناً لأحكام القرآن بعده ، وإلا فمن كان عمله غير مأخوذ عن الله فإنه يسمى كافراً ، ويسمى المأخوذ منه طاغوتاً كما عبّرت الآية وعبّر المفسرون لها (الرازي والمراغبي وسيد قطب) . فلا مجال للإنكار على من يعبر عن التابع والمتبوع بالكافر و الطاغوت اذا كانت التابعة بغير أمر من الله ، فإن الله عبّر عنهما بما ذكر والمفسر يتبع الله في ذلك ، فافهم واغتنم .

ما ذكره الطبري في تفسيره

بعد ما ذكر الأقوال في معنى الطاغوت قال : والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له ، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء^(١) .

ثم ذكر اشتقاق الطاغوت وقال :

فتأويل الكلام إذن فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر به ويؤمن بالله ، يقول و يصدق بالله أنه إلهه وربه و معبوده فقد استمسك بالعروة الوثقى ، يقول فقد تمسك بأوثق ما يتمسك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه .

كما حدثني أحمد بن سعيد بن يعقوب الكندي : قال : حدثنا بقية بن الوليد قال : حدثنا ابن أبي مريم عن حميد بن عقبة عن أبي الدرداء أنه عاد مريضاً من جيرته فوجده في السوق وهو يغرغر لا يفقهون ما يريد ، فسألهم : يريد أن ينطق؟ قالوا : نعم يريد أن يقول آمنت بالله و كفرت بالطاغوت .

قال أبو الدرداء : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : لم يزل يرددها حتى انكسر لسانه ، فنحن نعلم أنه إنما يريد أن ينطق بها ، فقال أبو الدرداء : أفلح صاحبكم إن الله يقول : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » .

ثم قال الطبري: القول في تأويل قوله: « فقد استمسك بالعروة الوثقى » والعروة في هذا المكان مثل الايمان الذي اعتصم به المؤمن ، فشبهه في تعلقه به وتمسكه به بالتمسك بعروة الشيء الذي له عروة يتمسك بها إذ كان كل ذي عروة فإنما يتعلق من أراحه بعروته . و جعل تعالى ذكره الايمان الذي تمسك به الكافر بالطاغوت المؤمن بالله من أوثق عرى الأشياء بقوله « الوثقى » . والوثقى فعلى من الوثاقة . يقال في الذكر : هو الأوثق ، وفي الانثى : هي الوثقى ، كما يقال : فلان الأفضل وفلانة الفضلى ^(١) .

ثم ذكر أحاديث تدل على ما قاله ^(٢) ثم قال :

القول في تأويل قوله « لا انفصام لها » يعني تعالى ذكره بقوله « لا انفصام لها » لا انكسار لها ، والهاء والالف في قوله « لها » عائد على العروة . ومعنى الكلام: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه وإسلامه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة ، كالتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها ، وأصل الفصم الكسر ^(٣) .

ثم ذكر الأحاديث المؤيدة لقوله ^(٤) ثم قال :

القول في تأويل قوله : « والله سميع عليم » يعني تعالى ذكره « والله سميع » إيمان المؤمن بالله وحده الكافر بالطاغوت عند إقراره بوحدانية الله وتبرئه من الأنداد والأوثان التي تعبد من دون الله ، « عليم » بما عزم عليه من توحيد الله وإخلاص

ربوبيته قلبه وما انطوى عليه من البراءة من الآلهة والأصنام والطواغيت ضميره وبغير ذلك مما أخفته نفس كل أحد من خلقه لا ينكتم عنه سر ولا يخفى عليه أمر، حتى يجازي كلاً يوم القيامة بما نطق به لسانه وأضرته نفسه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

القول في تأويل قوله تعالى: «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» يعنى تعالى ذكره بقوله «الله ولي الذين آمنوا» نصيرهم وظهيرهم يتولاهم بعونه وتوفيقه.

«يخرجهم من الظلمات» يعنى بذلك يخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان، وإنما عنى بالظلمات في هذا الموضع: الكفر، وإنما جعل الظلمات للكفر مثلاً لأن الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها، وكذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الايمان والعلم بصحته وصحة أسبابه.

فأخبر تعالى ذكره عباده أنه «ولي المؤمنين ومبصرهم حقيقة الايمان وسبله وشرائعه وحججه وهاديهم، فموفقهم لأدلتهم المزيلة عنهم الشكوك بكشفه عنهم دواعي الكفر وظلم سواتر أبصار القلوب.

ثم أخبر تعالى ذكره عن أهل الكفر به فقال: «والذين كفروا» يعنى الجاحدين وحدانيته «أولياؤهم» يعنى نصرأؤهم وظهرأؤهم الذين يتولونهم «الطاغوت» يعنى الأنداد والأوثان الذين يعبدونهم من دون الله «يخرجونهم من النور الى الظلمات» يعنى بالنور الايمان على نحو ما بينا، ويعنى بالظلمات ظلمات الكفر وشكوكه الحائلة دون أبصار القلوب ورؤية ضياء الايمان وحقائق أدلته وسبله^(١) انتهى كلام الطبري.

وقد عرفنا من كلام هؤلاء المفسرين أن "الايمان إنما تؤخذ أحكامه كلية وجبرية من الله ومن الرسول، وقد مر عليك الحديث الذي في الدر المنثور من تفسير الطاغوت بالشیطان على صورة إنسان، وأنه صاحب أمر جماعة من الناس يأخذون أحكامهم منه ^(١) فهل تظن أن هذا الشيطان بصورة الانسان يحكم بشيء يعبه الله والرسول .

قوله تعالى : مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (٢٦١).

إن هذه الآية وما يتبعها من الآيات وكثير من آيات القرآن تحت "المؤمنين أن ينفقوا من أموالهم ويساعدوا الفقراء ولا يتركوهم بما هم فيه من الحاجة والاضطرار، فإنهم إذا تركوا على ما فيه من الفقر يضر ذلك بالمجتمع ويخل بالنظام الدينيوي ويوجب العقاب الاخروي للفقير والغني معاً . وسوف يتضح ذلك في ضمن ما يأتي من الآيات .

وقد بين الله في هذه الآيات نواحٍ عديدة للانفاق، وهذه النواحي والجهات المذكورة في الآيات إنما هي شروط للانفاق المقبول عند الله المرضي لديه ، وهو الذي يحصل المنفق على الفائدة المرتسبة على الانفاق و الجزاء الذي وعد الله به المنفقين .

أما إذا لم يكن الانفاق مشتملاً على الشروط المذكورة في الآيات فلا يستحق الجزاء المذكور ، فذكر في هذه الآية الشريفة الشرط الأساسي الذي تترتب عليه جميع الآثار وتفقد بفقدانه ، وهو كون الانفاق في سبيل الله أي في الوجه

الذي يكون فيه رضا الله ويقصد منه أمر ديني ، وأن يكون خالصاً لوجه الله لا يشوبه أمر آخر ، وذكر الجزاء الجزيل والثواب العظيم الكثير الذي يكون لهذا الانفاق وهو كون الواحد بسبعمائة ضعفاً ، وإذا شاء الله يضاعفه أكثر من ذلك لمن يشاء من العباد .

«والله واسع عليم» فقد مثل الله عز وجل هذا المال الذي ينفق في سبيله بالحبّة التي يبذرها الانسان ، وهذه الحبّة ينشعب ساقها الى سبعة شعب ويكون في كل شعب منها سنبله وفي كل سنبله مائة حبّة ، كل ذلك بإرادة الله وأمره ، والمؤمن اذا اطلع على عهد الله وعرفه لا يتوقف عن الانفاق في سبيل الله .
ثم يتبع هذه الآية قوله تعالى :

الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا
مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم
يحزنون (٢٦٢) .

هذا هو الشرط الثاني للانفاق المرضي عند الله أو أنه شرط لاستحقاق الجزاء وترتبه على الانفاق ، وحاصل هذا الشرط هو أن المنفق إنما يكون إنفاقه مرضياً لله اذا لم يتبعه بالمن والأذى ، والمن هو الاعتداد بما أنفقه من المال وإظهار التفضل على الفقير ، والأذى هو التكلم على الفقير بما يؤذيه من الكلام ، فإذا أظهر المن أو الأذى فقد انتفى الشرط ولم يكن إنفاقه من الانفاق المقبول عند الله المستحق عليه الجزاء .

أما اذا كان الانفاق واجداً للشرط فإن الله قد وعدهم بحفظ الجزاء عنده وهو خير الحافظين الموفين بوعدهم ، والجزاء إما أن يكون هو الذي ذكره في الآية السابقة أي الواحد بسبعمائة والمضاعفة لمن يريد ، أو جزاء آخر غير ذلك في

الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً وزيادة على توفيتهم أجرهم أنهم آمنون لا خوف عليهم في كل موطن يكون مظنة للخوف ، وأنهم لا يحزنون في كل وقت ومحل يحزن فيه غيرهم .

وتأكيذاً لهذه الآية جاءت بعدها الآية وهي قوله تعالى :

قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني
حليم (٢٦٣) .

لا يخفى أن الإنسان إذا جاءه أحد بحاجة وطلب منه قضاء حاجته سواء كانت الحاجة مالية أو غير مالية فلا يخلو المسؤول من أحد صور ثلاث : إما أن يقضي حاجة السائل ولم يتبع ذلك مناً ولا أذى ، فهذه أحسن الصور وقد أمرنا الله بها في الآية السابقة ، وإما أن يقضي الحاجة ويتبعها بمن "أو أذى ، وإما أن لا يقضيها . وقد أرشدنا الله سبحانه بأن "عدم قضاء الحاجة ورد السائل رداً جميلاً بكلام حسن من غير غضب أو كلمة بذية هو خير من قضائها ثم إتباعها بمن "أو أذى ، فإنك إذا مننت عليه أو آذيت لا تكون الحاجة هنيئة ولا سائغة ، ويبقى السائل متألماً من الصدمة التي أصابته من منك عليه أو أذاك له ، وكلما واجهك أو يذكرك تذكر هذه الصدمة فيكون ماقتاً لك كارهاً لقاءك وإطراء اسمك على مسامعه ، فإذا صرفته بكلام جميل فإن "الله قد أخبر عن نفسه بأنه «غني حليم» يحلم عليك إذا كنت متمكناً من قضاء حاجة أخيك فلم تقضها ، ولعله يغني ذلك العبد عن الحاجة إليك وإلى أمثالك .

وقد بقيت صورة رابعة غير هذه الصور الثلاث وهي أن يمنح المسؤول السائل ولكن بقول منكر غير معروف ولا مألوف وبأذى من غير صدقة ، وهذه الصورة يبغضها الله ويبعاقب عليها ، ويمجتها العقل والعرف ، نسال الله تعالى أن يجيرنا منها ،

فإن الإنسان إذا أنفق وتصدق ثم أتبع ذلك بالمن والأذى بطلت صدقته ، فكيف إذا تحقق منه الأذى من غير تقديم الصدقة كما هو صريح الآية بعد هذه وهي قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى
كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا
يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ عَمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) .

لما بين الله في الآيات السابقة أن إنفاق المال له ثواب جليل وأنه مضاعف عند الله لا يصيبه خوف ولا حزن كما يصيب غيره ، فقد عرفنا في هذه الآية بأن هذا الجزاء العظيم وأن هذا الوعد بعدم الخوف والحزن سوف يفقده المنفق إذا أتبع إنفاقه وصدقته بالمن والأذى ، وكذا يفوته الجزاء إذا كان إنفاقه رياءً لأجل الناس لا لأجل الله ، وقد مثل الله عطاء المنفق الذي يتبعه المن والأذى ، وعطاء الذي يقصد الرياء من عطائه مثلهاما بصفوان عليه تراب ، والصفوان الحجارة الشديدة التي لا ينبت فيها زرع أبداً مهما أصابها من الماء والمطر الغزير وهو الوابل ، فإن الوابل من شأنه وخاصته إذا أصاب الأرض الطيبة أن ينبت بها الزرع ، وكذا جعل الله ثمرة إنفاق المال وبذله للمحتاج كثرة الحبة المبدورة في الأرض الطيبة حيث تنبت الحبة الواحدة سبعمائة حبة .

أما إذا كانت الأرض التي أصابها الوابل حجارة شديدة فلا أثر للماء فيها ولا فائدة ولا ثمرة . وكذا المال المنفق إذا لم يكن مشتملاً على الشروط المتقدمة فلا فائدة فيه ولا ثمرة تجنى منه ، فإن الله يحذرنا من هذه الخسارة التي ليس لنا فيها فائدة مع ذهاب المال من أيدينا .

ثم بعد هذا ضرب لنا مثلاً لمن ينفق المال حائزاً للشروط التي تؤهله للقبول عند الله ، فقال تعالى :

ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير (٢٦٥) .

لما بين الله في الآية السابقة أن الانفاق قد يتعقبه ما يبطل أجره وجزاؤه وهو المن والاذى ويقترن به ما يبطل أجره وهو الرياء، وأن هذا المبطل سواء كان مقارناً أو متأخراً إنما هو ناشئ من نفس المنفق وهو يكون في بعض النفوس الحفيرة الخسيسة ، ذكر في هذه الآية الصنف المقابل لذلك الصنف الحقير وهم الذين ينفقون أموالهم لأجل رضا الله ، ويثبتون جزاء هذا الانفاق من أنفسهم الطيبة ونياتهم الخالصة الطاهرة ولا يبطلونه ببعض تلك المبطلات ، وأن هذا الانفاق الثابت الذي لا يبطل ولا يزول حاله مثل البستان الذي يكون على ربوة من الأرض فإذا نزل عليها الواابل تكثر ثمرتها وتتضاعف، فإن لم ينزل عليها الواابل يكفيها الطل ويكون سبباً لتضاعف الثمرة ، ويمكن أن يكون من مصاديق الواابل تعاقب النفقات بعضها لبعض فتكثر الثمرات وتتضاعف ، والطل عبارة عن النفقات القليلة .

وقد روي عن الامام الصادق عليه السلام قال : ما من شيء أحب إلي من رجل سلفت مني إليه يد أتبعته اختها وأحسن بها له ^(١) الخبر .

كما أن ذلك الصنف الأول لا يؤثر فيه المطر إلا كشف التراب وإظهار حقيقته للناظرين .

«والله بما تعملون بصير» إن كان من الصنف الأول أو من الصنف الثاني

فإن الله يعلمه وهو بصير به لا يخفى عليه .

ثم يبين أن أهل الصنف الأول المبطلين لأعمالهم سوف يأتي عليهم يوم يندمون فيه على ما فعلوا وذلك في قوله تعالى :

أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابها الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢٦٦) .

هذا سؤال إنكاري يمثل الله فيه حال الإنسان الذي يبطل إنفاقه باليمن والأذى أو بالرياء ولم يبق له أثرأ ينتفع به عند حاجته إليه ، فإنه سيأتي عليه يوم يكون في أمس الحاجة الى الصدقة المرضية لله حتى يجازيه عليها بذلك الجزاء الكثير المضاعف .

وقد مثل الله هذا المبطل لصدفته برجل له بستان حاوية لأنواع النخيل وأنواع الأعناب وفيها من كل الثمرات التي ينتفع بها الإنسان ، فلما كبر هذا الإنسان وضعف عن العمل وله أولاد وذرية كلهم ضعفاء ولا يمكنهم أن يقوموا بأي عمل فهو وذريته يعولون على أخذ معيشتهم من هذه البستان ليس له مورد غيرها ، وبيناهم في هذه الحالة إذ بنار تلتهب بالبستان فتحرقها عن آخرها فيصبح هذا الرجل هو وذريته في غاية الحاجة الى اللقمة حتى يموت جوعاً ، ولو كان موته كموت من في الدنيا اذا انتقل منها لاحتاج إليها لهان الأمر ، ولكن موته كما ذكره الله تعالى : «يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت»^(١) فهو المعذب بما يوجب الموت ولا يموت ، فينبغي للإنسان العاقل أن يفكر في هذه

العاقبة فلا يبطل إنفاقه وصدقاته فتكون حسرة عليه .

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : من أسدى الى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو من " عليه فقد أبطل الله صدقته ^(١) .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم
وهما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون
ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد (٢٦٧) .

هذا هو الشرط الثالث من شروط النفقة المرضية لله المقبولة لديه التي
يستحق صاحبها عليها الجزاء المضاعف الذي وعد الله به المنفقين ومعنى الآية هو
أن الله يأمرنا إذا أردنا أن نعطي شيئاً في سبيله وابتغاء مرضاته بأن نختار أحسن
ما عندنا وأطيبه فننقله في سبيله سواء كانت النفقة واجبة أو مندوبة ، وههنا أن
نقصد أخبث ما عندنا وأدونه فننقله ، فإن الله لا يقبل إلا الطيب ولا يشيب إلا
عليه ، وأن ذلك الجزاء الذي وعدنا به إنما يكون لما يرتضيه من المال .

وقد روي عن النبي ﷺ قال : إن الله يقبل الصدقات ولا يقبل منها إلا
الطيب ^(٢) .

وإن هذا الشيء الذي تجعله في سبيل الله لو دفع لك لا تقبله إلا أن
تسامح في أخذه أو تنقص من سعره ، فكيف ذلك عقلك على جعله في سبيل الله
وترجو من الله العوض أضعافاً مضاعفة .

فينبغي للعاقل الفاهم أن يلتفت الى قوله تعالى : «واعلموا أن الله غني حميد»
ويعرف أن الله غني عن أفخر الأشياء وأطيبها وأغلاها وأحلاها وأثمنها ، وإنما

(١) تفسير البرهان : ج ١ ص ٢٥٣ .

(٢) مستدرک الوسائل : ج ٧ ص ٢٤٥ ب ٤٢ ح ٥ .

أمرنا بالانفاق ليجازينا بأضعافه .

وأنّ هذا العبد الذي يريد أن يتقرب الى الله بالشئ الرديء سوف تكون عاقبته سيئة إن لم يتنبه ويتدارك أمره . كما سمعت من القرآن في قصة ابني آدم حيث إنّ السبب الأولي أنهما قربا قرباناً فتقبل من أحدهما لأنه كان طيباً ، ولم يتقبل من الآخر لأنه كان خبيثاً ، فصار التقرب بالخبيث سبباً لخبط المتقرب حتى قتل أخاه فأصبح من النادمين .

ثم إنّ هذه الآيات الشريفة التي مرت عليك كلها تأمر بالبذل والانفاق وتعد المؤمنين بالجزاء الجزيل و التعويض بالأضعاف المضاعفة ، فإذا امتثلها المؤمن وعمل بها يصبح مقرباً لدى الله في الدنيا والآخرة ويكثر ماله ويكون ثرياً ، والفقير ينتعش ، ولا يبقى في حاجة ومسكنة .

وهذا الأمر لا يروق للشيطان عدو الإنسان ، وبالطبع سوف يوسوس للإنسان ويمنعه مهما استطاع من امتثال هذا الأمر ، ولذا نبّه الله الإنسان وحذره من كيد الشيطان ووسوسته بقوله تعالى :

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم (٢٦٨) .

قال بعض الأعلام : الشيطان فيعال من شطن اذا تباعد فكأنه يتباعد اذا ذكر الله تعالى ، وقيل : إنه فعلاّن من شاط يشيط اذا احترق غضباً لأنه يحترق ويغضب اذا أطاع العبد ربه (١) .

قال صاحب المقاصد : الشياطين أجسام نارية شأنها إلقاء النفس في الفساد والغواية بتذكير أسباب المعاصي واللذات وإنشاء منافع الطاعات وما أشبه ذلك (٢) .

(١) راجع لسان العرب : ج ١٣ ص ٢٣٧ مادة «شطن» مع اختلاف في العبارة .

(٢) بحار الانوار : ج ٦٣ ص ٢٨٣ ب ٣ ح ١٧٧ .

وقال المجلسي - رحمه الله - : لا خلاف بين الامامية بل بين المسلمين في أن الجن والشياطين أجسام لطيفة يرون في بعض الأحيان ولا يرون في بعضها ، ولهم حركات سريعة وقدرة على أعمال قوية ، ويجرون في أجساد بني آدم مجرى الدم ، وقد يشكلهم الله بحسب المصالح بأشكال مختلفة وصور متنوعة كما ذهب إليه السيد المرتضى - رضي الله عنه - أو جعل الله لهم القدرة على ذلك كما هو الأظهر من الأخبار والآثار ^(١) .

وقد نقل المجلسي كلاماً من بعض المحققين في كيفية وسوسة الشيطان أحببت نقله هنا ليعرف الانسان ذلك فيحترز من الشيطان ، قال :
اعلم أن القلب مثال قبة مضروبة ، لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ، ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه .

وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال ، أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الانسان ، فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر ، وإن كف عن الاحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء الى شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال الى حال آخر ، والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب .

وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر ، وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار ، وأعني به إدراكه علوماً إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر ، فإنها تسمى الخواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها ، والخواطر هي

المحركات للارادات ، فإن النية والعزم والارادة إنما تكون بعد خطوط المنوي بالبال
لامحالة .

فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ،
والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء .

والخواطر المحركة للرغبة تنقسم الى ما يدعو الى الشر أعني الى ما يضر
في العاقبة ، والى ما يدعو الى الخير أعني الى ما ينفع في الدار الآخرة ، فهما
خاطران مختلفان ، فافتقرا الى اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً ،
والخاطر المذموم أعني الداعي الى الشر يسمى وسواساً .

ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من
محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب .

هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب ، فمهما
استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب
السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب
الخاطر الداعي الى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي الى الشر يسمى
شيطاناً .

و اللطف الذي يتهياً به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذي به
يتيه لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواءً وخذلاناً ، فإن المعاني المختلفة تفتقر
الى أسامي مختلفة .

والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير ، وإفاضة العلم ، وكشف
الحق ، والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك .

والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر ، والأمر بالفحشاء ،
والتخويف عند الهم بالخير بالفقر .

فالوسوسة في مقابلة الإلهام ، والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة

الخدلان . . . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك، وقد قال (ص): للقلب لمتان لمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمّة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا قوله تعالى، والشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . . .

وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والا كباب على الشهوات، أو الاعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الانسان مقتضى الغضب و الشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عشّ الشيطان ومعدنه، لأنّ الهوى هو مرعى الشيطان ومرتمه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه ونشبهه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقرّ الملائكة ومهبطهم . . . ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس، ومهما انصرف القلب الى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم، والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم ^(١) الى آخر ما ذكره هذا المحقق .

وحينئذ إذا عرف الانسان العاقل كيفية وسوسة الشيطان العدو المبين واطّلع على الآيات المتقدمة التي تحت الانسان على البذل والانفاق وأراد أن ينفق شيئاً من المال وجوباً أو ندباً وجاءه الشيطان وقال له : اذا أخرجت هذا المال عن ملكك سوف يقلّ مالك ولعلّك تحتاج إليه بعد هذا اليوم فلا تجده، فاصرف هذا الفقير المحتاج واحذر أن تكون محتاجاً مثله .

فينبغي للعاقل أن يتذكّر وعد الله في الثواب الجزيل والفضل الجليل فإنه يقول: «والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم»، وليركن الى وعد الله الصادق ولا يلتفت الى تخويف الشيطان بالفقر، وليكن من حزب الله ولا يكن

(١) البحار: ج ٧٠ ص ٣٨ ب ٤٤ والعبارات المنقولة هي عن الامام الغزالي، راجع احيا.

من حزب الشيطان فإن حزب الله هم الغالبون المفلحون .

روى عن ابن عباس قال : اثنان من الله واثنان من الشيطان ، فاللذان من الله : المعفرة على المعاصي والفضل في الرزق، واللذان من الشيطان : الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء^(١).

فاذا تمحّض القلب لذكر الله في جميع أوقاته وحالاته ولم يبق للشيطان مجال في التصرف به والوسوسة له تربت حينئذٍ على ذلك الفائدة الكبرى والثمرة العظمى ، وهي ما ذكرها الله عز وجل بقوله :

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩).

لقد تكاثرت الأقوال في تفسير الحكمة ومعناها ، وأحسن ما قيل في معناها هو : تحقيق العلم وإتقان العمل . وبمعناها تعريفها بأنها الإصابة في القول والفعل^(٢) وهذا المعنى هو الظاهر منها والمتبادر الى الذهن عند إطلاقها وهو شامل لبقية المعاني التي قيلت في تفسيرها . فقد قيل في معناها : إنه علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله^(٣) .

عن ابن عباس : قيل : إنه علم الدين^(٤) ، وقيل : هو المعرفة بالله^(٥) ، وقيل : هو الفهم^(٦) ، وقيل : هو خشية الله^(٧) ، وقيل : هو القرآن والفقه^(٨) ، وقيل : هو العلم الذي تعظم منفعته وتجلّ فائدته^(٩) ، وقيل : هو ما أتاه الله أنبياءه وأممه من كتابه وآياته ودلالاته التي يدلّهم بها على معرفتهم به وبدينه^(١٠) ، وجميع هذه المعاني تدخل في المعنى الذي ذكرناه فإنه أعم منها .

(١) الدر المنثور : ج ١ ص ٤٨٢ .

(٢-١٠) مجمع البيان : ح ٢ ص ٣٨٢ .

نعم، إذا قلنا : إن "الحكمة هي القرآن بما فيه من العلم فإنه يكون أعم" من ذلك التفسير ، ولكن علم القرآن يقول مطلق لا يكون إلا عند النبي ووصيه والظاهر من الآيات والأخبار أن "الحكمة يعطيها الله لغير النبي كما أعطاهما الى لقمان وهو ليس بنبي .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : ما أخلص عبداً لله عز وجل أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ^(١) .

وقد علمت أن علوم القرآن لا تكون عند غير النبي والوصي ، فالحكمة تكون أخص من القرآن. وعلى ما ذكر من معنى الحكمة من أنها تحقيق العلم وإتقان العمل ، أو الإصابة في القول والفعل ، إنما تتحقق في المرء اذا كانت جميع مسائله العلمية عن تحقيق وتدقيق ، وجميع أعماله مستندة الى ذلك العلم التحقيقي لاسيما فيما يتعلق بأمر الدين الذي يكون عليه حسابه في الآخرة ، فيلزمه التحقيق لئلا يظهر عليه الخطأ والغلط والسهو ، والتسامح في النشأة الاخرى ، ولا يمكن هناك التدارك والاصلاح ولا ينفع الندم والاعتذار ، فلا يتحقق معنى الحكمة ما لم يكن تحقيق وإتقان وإصابة في القول والعمل والأفعال فيما يخص الدين .

أما لو كان الرجل يحسن تدبيره دنياه وحدها في جميع امورها ومن جميع نواحيها في السياسة والتجارة والحرف والزراع والتغلب على الأعداء في الحرب وغير ذلك فهل يسمى حكيماً اذا لم يكن محققاً في أمر الدين والآخرة ؟

نقول: لا ريب أنه لا يسمى حكيماً لأن الله تعالى يقول: «ومن يؤت الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً» والدنيا المجردة عن الآخرة ليست عند الله بخير، فليست عنده بكثير «قل متاع الدنيا قليل» ^(٢) . فالحكمة التي يؤتيها الله لمن يشاء من عباده إنما هي الحكمة في الدين وفيما يتعلق بأمر الآخرة ، ولذا ترى التعاريف

(١) سفينة البحار ، ج ١ ص ٤٠٨ مادة «خالص».

(٢) النساء: ٧٧ .

المتقدمة التي عرفت بها الحكمة كلها متعلقة بأمر الدين .

وعلى هذا ينبغي للانسان العاقل أن يكون حكيماً فيما يدين به الله وأن يأخذ اصول دينه الاعتقادية وفروعه العملية عن أدلة قطعية بحكمة وتحقيق وإتقان، ولا يأخذ بما أخذ به أبوه فإن ذلك مخالف للحكمة ، فإن الدين لا يؤخذ عن الآباء أو الأعمهات ، بل ينبغي للرجل العاقل أن يتحرى الأديان ويختار الدين الحق الذي ثبت أحقيقته بالأدلة القطعية .

فالرجل المسلم الذي صدق بنبوة محمد ﷺ اذا عرف أن النبي جاء بدين واحد وطريقة واحدة ورأى هذا الاختلاف في أمة محمد ﷺ وهذه الفرق الكثيرة المتباينة في طرقها يلزمه أن يفحص عن الطريقة التي أمر بها النبي ﷺ أمته باتباعها ولا يبقى جامداً على طريقة أبيه وأمه حتى يعرف تلك الطريقة بعينها فيتبعها . فعليه أن يفحص عن أعلم أصحاب النبي ﷺ من بعده وأعرفهم بدينه وأتقنهم لأحكام القرآن ، فإن عرف الأعلام ومميزه بشخصه حينئذ ينظر في بقية صفاته من التقوى والزهد والشجاعة والرحمة وسائر الصفات الحسنة ، فإن عرف اتصافه بها مع كونه أعلم الأصحاب لزمه اتباعه والسير في طريقه .

ثم لا يمكن تشخيص هذا الصحابي المتصف بهذه الصفات إلا من قبل النبي ﷺ فإنه هو وحده الذي يعرفه ويشخصه لنا ، فاللزام علينا أن نرجع الى ما بينه النبي ﷺ في وصف أصحابه حتى يكون عملنا في الاصول والفروع موافقاً لما يريد الله والرسول .

وهذه هي الحكمة التي يعطيها الله لمن يشاء من عباده، فإذا تمسك الانسان بالمقدمات المذكورة أمدّه الله تعالى بالحكمة التي يبتاها يكون قد اوتي خيراً كثيراً .

بقي علينا أن نرجع الى ما ذكره الرواة من الأحاديث النبوية المتسالم

عليها بين جميع الأمة بعد غرض النظر عن كل شيء ، فنقول أول شيء يهمنا هو البحث عن الرجل الذي عنده جميع علوم النبي بحيث يمكنه الجواب عن كل سؤال يوجه إليه من مسلم أو غير مسلم ، ومن صادق ومن منافق ، ومن زنديق ومن مشكك ، فإذا عرفنا هذا الشخص يلزمنا التمسك به والانتفاع بعلمه الذي يوصلنا الى تحقيق وإتقان العمل أو الى الاصابة في القول والفعل، إنه ﷺ قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد المدينة فليأت الباب» كما في مستدرک الصحيحين^(١) والخطيب في تاريخ بغداد^(٢).

والحديث الآخر قوله ﷺ : «أنا دار الحكمة وعلي بابها» كما في صحيح الترمذي^(٣) وتاريخ بغداد بإضافة قوله ﷺ : «فمن أراد الحكمة فليأت الباب»^(٤). فقد عرفنا مما ذكر تواتر الحديث عن رسول الله ﷺ أن العلم لا يمكن تحصيله إلا من الباب ، وليس المقصود هنا إثبات علم علي فإنه لا ينكر ، وإنما الغرض أن الحكمة التي هي الاصابة في القول والفعل لا تحصل إلا بالعلم الحقيقي وهو عند من بيثنه النبي لأمة .

ومن جملة فوائد الحكمة معرفة بطلان وعد الشيطان وأمره ، ومعرفة أحقية وعد الله وأمره في الآية المتقدمة على هذه الآية وهو قوله تعالى : «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً» .

هذا بالنسبة الى العلم ، وأما بالنسبة الى التقوى والزهد الذي يقول ﷺ : «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحتم أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته ... إلخ»^(٥).

(١) مستدرک الصحيحين : ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) تاريخ بغداد : ج ٤ ص ٣٤٨ وج ٧ ص ١٧٢ وج ١١ ص ٤٨ و ٤٩٠ .

(٣) صحيح الترمذي : ج ٥ ص ٦٣٧ .

(٤) تاريخ بغداد : ج ١١ ص ٢٠٤ .

(٥) نهج البلاغة : الخطبة ٧٢٤ ص ٣٤٧ .

وهو **إِلَّا** القائل : لقد رقت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ^(١) .
وأما الشجاعة فيكفي منها موقفه يوم الخندق .

ما ذكره المراهي في تفسيره

«يؤتي الحكمة من يشاء» أي: أنه تعالى يعطي الحكمة والعلم النافع المصروف
للإرادة لمن يشاء من عباده ، فيميز به الحقائق من الأوهام ويسهل عليه التفرقة
بين الوسوس والالهام.

وآلة الحكمة العقل المستقل بالحكم في إدراك الأشياء بأدلتها وفهم الأمور
على حقيقتها، ومن أدنى ذلك عرف الفرق بين وعد الرحمن ووعد الشيطان، وعض
على الأول بالنواجذ وطرح الثاني وراءه ظهرياً .

وقد فسر حبر الأمة عبد الله بن عباس الحكمة بـ «الفقه بالقرآن» أي: معرفة
ما فيه من الهدى والأحكام بأسراره وحكمه، ومن فقه ما ورد في الانفاق وفوائده
وآدابه من الآيات لا يكون وعد الشيطان له بالفقر وأمره إياه بالبخل مانعاً له من
البذل والانفاق ، والآية الكريمة رافعة شأن الحكمة بأوسع ماله من المعاني
وهادية إلى استعمال العقل في أشرف ما خلق له .

«ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» أي: ومن يوفقه الله لهذا النوع
النافع من العلم ويرشده إلى هداية العقل وتوجيهه الوجهة الصحيحة فقد هدى
إلى خير الدنيا والآخرة ، فهو يستخر القوى التي خلقها الله له من سمع وبصر وشعور
ووجدان في النافع من الأشياء ويعدها لتنفيذ ما يرغب فيه . ثم بعدئذ يفوض الأمر
إلى بارئه الذي فطره وسواه ومنه مبدأه وإليه منتهاه ، وبهذا لا يستسلم لوسوس
الشيطان ولا يقض مضجعه ما يجده من مكدرات الحياة وآلامها وما تسوقه إليه

من محنتها وأرزائها اعتقاداً منه أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وبهذا يستريح باله وتهدأ نائرتة ويجد في قلبه برداً وسلاماً لمزعجات الليالي والأيام .

«وما يذكر إلا أولوا الألباب» أي: لا يتعظ بالعلم ويتأثر به ويجعل الإرادة مصرفة خاضعة لمشيئته إلا ذوا العقول السليمة والنفوس التي تغوص في بحر الحقائق وتستخرج منها ما هو نافع في هذه الحياة وبه سعادتها ، وتجعله سلماً ترقى به في معارج الفلاح لتصل به إلى خير العقبى ، حشرنا الله في زمرة أولئك^(١) انتهى كلام المراغي .

ما ذكره سيد قطب في تفسيره

«يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود ، وأوتي إدراك العمل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور . وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال وذلك خير كثير متنوع الألوان .

«وما يذكر إلا أولوا الألباب» فصاحب اللب — وهو العقل — هو الذي يتذكر فلا ينسى ، ويتنبه فلا يغفل ، ويعتبر فلا يلج في الظلال ، وهذه وظيفة العقل ووظيفة أن يذكر موجبات الهدى ودلائله وأن ينتفع بها فلا يعيش لاهياً غافلاً ، فهي معقودة هذه الحكمة يؤتيها الله من يشاء من عباده .

بمشيئة الله سبحانه هذه هي القاعدة الأساسية في التصور الاسلامي رد كل شيء إلى المشيئة المطلقة المختارة .

وفي الوقت ذاته يقرر القرآن حقيقة أخرى وهي: أن من أراد الهداية وسمى لها سعيها وجاهد فيها فإن الله لا يحرمه منها بل يعينه عليها ووالذين جاهدوا

فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين^(١) ليطمئن كل من يتجه الى هدى الله أن مشيئة الله ستقسم له الهدى وتؤتيه الحكمة وتمنحه ذلك الخير الكثير .

وهناك حقيقة اخرى ننم بها قبل مغادرة هذه الوقفة عند قوله تعالى :
والشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم * يؤتي الحكمة من يشاء، إن أمام الانسان طريقين اثنين لاثالث لهما:
طريق الله وطريق الشيطان، إيمان يستمع الى وعد الله أو أن يستمع الى وعد الشيطان،
ومن لا يسير في طريق الله ويسمع وعده فهو سائر في طريق الشيطان ومتبع وعده،
وليس هنالك إلا منهج واحد هو الحق ، المنهج الذي شرعه الله ، وما عداه فهو
للشيطان ، هذه الحقيقة يقرها القرآن الكريم ويكررها ويؤكد بكل مؤكد
كي لا تبقى حجة لمن يريد أن ينحرف عن منهج الله ، ثم يدعي الهدى و الصواب
في أي باب ليست هنالك شبهة ولا غشاة... الله... والشيطان ، منهج الله أو
منهج الشيطان ، طريق الله أو طريق الشيطان، ولئن شاء أن يختار ليهلك من هلك
عن بينة ويحيى من حي عن بينة^(٢) لا شبهة ولا غش ولا غشاة، وإنما هو الهدى
أو الضلال وهو الحق واحد لا تعدد^(٣) انتهى كلام سيد قطب، فتأمل به جيداً حتى
تعرف أن الحق واحد وأنه عند من اوتى الحكمة، فاعرفه.

ما ذكره الطبري في تفسيره

«يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا
اولوا الألباب» يعني بذلك جل ثناؤه: يؤتي الله الاصابة في القول والفعل من يشاء من

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الانفال : ٤١ .

(٣) في ظلال القرآن: ج ١ ص ٣١٢ .

عباده ومن يؤت الاصابة في ذلك منهم فقد اوتي خيراً كثيراً .

واختلف أهل التأويل في ذلك فقال بعضهم : الحكمة التي ذكرها الله في هذا الموضع هي القرآن والفقه به ، ذكر من قال ذلك رواية عن ابن عباس في قوله «ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً» يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله .

حديث آخر عن قتادة : «يؤتي الحكمة من يشاء» قال : الحكمة القرآن والفقه في القرآن .

حديث آخر عن أبي العالية : «ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً» قال : الكتاب والفهم فيه .

حديث آخر عن مجاهد : قوله : «يؤتي الحكمة من يشاء» قال : ليست بالنبوة ولكنه القرآن والعلم والفقه .

وقال آخرون: معنى الحكمة الاصابة في القول والفعل، ذكر من قال ذلك حديث عن ابن أبي نجيح قال: سمعت مجاهداً قال: «ومن يؤت الحكمة» قال: الاصابة. حديث آخر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله عز وجل : «يؤتي الحكمة من يشاء» قال: يؤتي الاصابة من يشاء.

حديث آخر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الكتاب يؤتي إصابته من يشاء. وقال آخرون: هو العلم بالدين، ذكر من قال ذلك حديث عن ابن زيد قال: «يؤتي الحكمة من يشاء» العقل في الدين ، وقرأ «ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً» .

حديث آخر عن ابن وهب قال : قلت لمالك : وما الحكمة ؟ قال : المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له ^(١) انتهى محل الحاجة من كلام الطبري .

ما ذكره ابن كثير في تفسيره

«يؤتي الحكمة من يشاء» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله.

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً : الحكمة القرآن يعني تفسيره ، قال ابن عباس : فإنه قد قرأه البر والفاجر ، رواه ابن مردويه .
وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : يعني بالحكمة الاصابة في القول ، وقال ليث ابن أبي سليم عن مجاهد : «يؤتي الحكمة من يشاء» ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن .

وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله ، فإن «خشية الله رأس كل حكمة» .
وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن عثمان بن زفر الجهنني عن أبي عمارة الأسدي عن ابن مسعود مرفوعاً «رأس الحكمة مخافة الله» .
وقال أبو العالية في رواية عنه : الحكمة الكتاب والفهم .

وقال إبراهيم النخعي : الحكمة الفهم .

وقال أبو مالك : الحكمة السنة .

وقال ابن وهب عن مالك : قال زيد بن أسلم : الحكمة العقل .

قال مالك : وإنه يقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله ، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله ، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها ، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه عالماً بأمر دينه بصيراً به يؤتيه الله إيتاء ويحرمه هذا ، فالحكمة الفقه في دين الله .

وقال السدي : الحكمة النبوة .

والصحيح أن "الحكمة" كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها، وأعلها النبوة والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبعية كما جاء في بعض الأحاديث: من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه، رواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن إسماعيل بن رافع عن رجل لم يسمه عن عبدالله بن عمر .

وقال الامام أحمد : حدثنا وكيع ويزيد قالا : حدثنا إسماعيل - يعني ابن أبي خالد - عن قيس وهو ابن أبي حازم عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها .

وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق متعددة عن إسماعيل ابن أبي خالد ^(١) انتهى كلام ابن كثير .

ما ذكره السيوطي في تفسيره

قوله تعالى : «يؤتي الحكمة» الآية ، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه ، عن ابن عباس في قوله : «يؤتي الحكمة من يشاء» قال : المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومشتابه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله .

وأخرج ابن مردويه من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً « يؤتي الحكمة » قال : القرآن يعني تفسيره . قال ابن عباس : فإنه قد قرأه البر والفاجر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد « يؤتي الحكمة من يشاء »

قال : ليست بالنبوة ولكنه القرآن والعلم والفقه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس « يؤتي الحكمة » قال : الفقه في القرآن .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية « يؤتي الحكمة » قال : الكتاب والفهم به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد « يؤتي الحكمة » قال : الكتاب يؤتي إصابته من يشاء .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد « يؤتي الحكمة » قال : الاسابة في القول .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة « يؤتي الحكمة » قال : الفقه في القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية « يؤتي الحكمة » قال : الخشية لأن خشية الله رأس كل حكمة . وقرأ « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وأخرج أحمد في الزهد عن خالد بن ثابت الربيعي قال : وجدت فاتحة زبور داود « رأس الحكمة خشية الرب » .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول قال : « إن القرآن جزء من اثنين وسبعين جزءاً من النبوة وهو الحكمة التي قال الله : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي امامة قال : قال رسول الله (ص) : من قرأ ثلث القرآن أعطي ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن أعطي نصف النبوة ، ومن قرأ ثلثيه أعطي ثلثي النبوة ، ومن قرأ القرآن كله أعطي النبوة ويقال له يوم القيامة : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ، فيقال له : اقبض فيقبض . فيقال له : هل تدري ما في يديك ؟ فإذا في يده اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم ^(١) .

أقول: إن هذا الحديث الدال على استحقاق قارىء القرآن الدرجات في الجنان إنما يدل إذا كان القاريء عاملاً بمضمون الآيات ، وإلا فالقراءة وحدها لا تكفي كما تقدم من الرواية عن ابن عباس: أن القرآن يقرأه البر والفاجر . أما الذي يكون عنده من النبوة بمقدار ما يقرأه من القرآن - إما الثلث أو النصف أو الثلثان أو الكل - فهو الذي يقرأه ويعرف تفسيره وتأويله، ويعرف ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله، فإذا عرف جميع ما يتعلق بالقرآن فهو لا ينقص من النبوة إلا الوحي (و هو الفرق بينه وبين النبي) .

ثم قال في الدر المنثور :

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله (ص) قال : من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله ، وليس ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من جد ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله ^(١) انتهى كلام السيوطي .

تعبیه :

لقد تبين وتحقق من الآية الشريفة ومما ذكره المفسرون من تفسير الحكمة أن الحكمة أهم شيء يتصف به العباد بعد النبوة، وأن من يتصف بها ينبغي لسائر الناس أن يأتوا به ويكتسبوا منه الأحكام والآداب والأخلاق في زمان فقدان النبي . وأن العقل السليم يحكم ويحكم على صاحبه أن يفحص ويفتش عن أعظم الحكمة ليقتدي به في أعماله حتى يكون ذلك عذراً له يوم يوقف للحساب بين يدي الله فيسأله عن إمامه الذي اقتدى به في الدنيا، فإن الله يقول : ويوم ندعو كل أناس بإمامهم ، ^(٢) فإن الحكمة قد فسرت بتفسير كثيرة، وكل تفسير منها

(١) الدر المنثور : ج ١ ص ٣٤٩ .

(٢) الاسراء : ٧٠ .

يدل على أن المتصف بها لا يقول شيئاً ولا يفعل شيئاً إلا الحق الصحيح الموافق لإرادة الله والموجب لمراضاته، فينبغي لاطالب الرشد والتارك للغي المتبعد عنه أن يتأمل في كل تفسير فسرت به ليعرف أنه مكلف بمتابعة المتصف بها، فقد ذكرنا تفسيرها فيما تقدم فمن ذلك أنها:

- ١- العلم النافع المصرف للإرادة .
- ٢- الفقه بالقرآن ، أي معرفة ما فيه من الهدى والأحكام .
- ٣- إدراك العلل والغايات والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب .
- ٤- الإصابة في القول والفعل .
- ٥- القرآن والفقه به .
- ٦- المعرفة بالقرآن ومثله الكتاب والفهم به .
- ٧- القرآن والعلم والفقه .
- ٨- المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله .
- ٩- يؤتي الحكمة إصابته .
- ١٠- العلم والدين .
- ١١- العقل في الدين .
- ١٢- المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له .
- ١٣- تفسير القرآن .
- ١٤- العلم والفقه والقرآن .
- ١٥- خشية الله .
- ١٦- الكتاب والفهم .
- ١٧- الفقه في دين الله .

١٨- أمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله .

١٩- الكتاب يؤتى إصابته من يشاء .

فكل واحد من هذه المعاني اذا انطبق على شخصية واتصفت به يكون المتصف مصيباً في جميع أقواله وأفعاله لا يخطيء فيها ولا يزل ، لأن الله هو الذي يؤتیه هذه الحكمة التي يتبعها الخير الكثير، فهو في كل حركة وسكون وتكلم وسكوت يكون تابعاً لإرادة الله سائراً على الطريق الذي أمر به الله، وأن الذين يتصفون بها هم اناس معدودون ذكرهم الله تعالى في آيات عديدة من القرآن يأتي التنبيه عليها في محلها ، منها قوله عز من قائل : وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم،^(١) .

ولا تقبل دعوى من يدعي الحكمة إلا أن تقرر بحجة تصدقها ، مثلاً أن أئمة أهل البيت الذين أمر رسول الله أمته أن يتمسكوا بهم ، قرنهم بالكتاب ، وجعلهم كسفينة نوح ، فإن هؤلاء الأئمة قد أعلنوا للناس إعلاناً عاماً وقالوا لهم إن الحديث الذي يأتيكم عنا إن كان مطابقاً للقرآن فخذوا به ، وإن لم يكن مطابقاً للقرآن فأوكلوه الى الذي جاء به .

وكانوا في كل مسألة من المسائل الاعتقادية والعلمية اذا طلب منهم الدليل يستدلون إما بآية من القرآن ، أو بحديث عن النبي ﷺ مسلم الصدور، فمن كان بهذه المرتبة يسند كل أقواله وأفعاله الى الكتاب أو السنة فإنه ممن أوتي الحكمة وينبغي للمؤمن متابعتة والافتداء به .

فهذه الآية الشريفة هي إحدى الآيات الكثيرة التي ترشد الناس الى طريق الهداية وكيفية الاهتداء ، ولكن الناس لشدة جهلهم كثر ميلهم الى اللعب واللهو لا يلتفتون ولا يدققون النظر في معنى الآية فلا ينتفع بها إلا ذوا العقل السليم،

وقد صرح لنا الله بهذا حيث قال : «وما يذكر إلا أولوا الأبواب» .
 فينبغي لذي اللب أن يتأمل ويدقق ليعرف المقصود والمراد من الآية فيعمل
 به ويكون معدوداً من أولي الأبواب عند الله لا عند الناس .

تنبيه لذي اللب

هذه الحكمة التي ذكرها الله ومدحها مدحاً عظيماً وجعل الخير الكثير
 تابعاً لها وسائراً في ركابها وأنه يعطيها لمن يشاء، وإنما يعطيها لمن يتطلبها ويعمل
 لتحصيلها ولا يعطيها لمن لا يريدّها، فإن إعطاءها لمن لا يريدّها أو لا يعرف
 قدرها يعدّ ظالماً لها والله عزّ وجلّ منزّه عن الظلم .

وقد روي أن عيسى بن مريم قام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل
 لا تحدثوا الجاهل بالحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم^(١) ولا يستحق
 الحكمة صاحب العلم الكثير ما لم يكن عاملاً بعلمه .

قال الامام الصادق عليه السلام : يا هشام إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت
 في الصفا ، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر للجبار،
 لأنّ الله تعالى جعل التواضع آلة العقل ، وجعل التكبر من آلة الجهل ، ألم
 تعلم أن من شمع الى السقف رأسه شجّه ، ومن خفض رأسه استظلّ تحته وأكثه
 فكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله ومن تواضع لله رفعه الله^(٢) .

فصاحب العلم اذا عرف الحق في جهة ولم يعلن ذلك للناس كان ظالماً، والله
 لا يعطي الحكمة للظالم .

وروي عن النبي ﷺ قال : من سأل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره

(١) بحار الانوار : ج ٢ ص ٦٦ ب ١٢ ح ٨ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٨ ص ٣١٢ ب ٢٥ ح ١ .

وتزول عنه التقية جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من النار ^(١).

وإذا كان صاحب العلم معتقاً أحد المبادئ الدينية وعرف أن الحق خلاف ذلك يحتم عليه علمه أن يترك ما هو عليه ويلتزم جهة الحق ، فإذا بقي على ما كان عليه مما على بطلانه فهو إذاً متكبر على حكم الله ، والله لا ينبت الحكمة في قلب المتكبر ، لأن الحكمة إنما تكون في مكان سهل نقي ليس فيه ما ينافيها ، وقد نبهنا الله الى هذا الشرط بقوله : « وما يذكر إلا اولوا الألباب » ، فلا تنفع كثرة العلم ما لم تكن منه حكمة ترشده الى أخذ العلم من منابعه الحقيقية ، ويناسب مقامنا ما قاله ابن سينا:

هذب النفس بالعلوم لترقى	وخذ الكل فهي للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والـ	علم ضياء وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حي	وإذا أظلمت فإنك ميت ^(٢)

وقد فسر بعض العلماء قوله تعالى : « اولوا الألباب » ذروا العقول الخالصة عن شائبة الوهم ، فالحكمة التي يؤتيها الله من يشاء هي نور يقذفه الله في قلب عبده الذي سعى في تحصيلها ، وبهذا النور يتوصل العبد الى العلوم التي تكشف عن دين الله الحقيقي بواسطة سفرائه الذين عينهم للناس كالأنبياء وأوصيائهم وليس للخلق أن يعينوا السفير الالهي من أنفسهم : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ^(٣).

فقد تحصل مما ذكرناه في هذه الآية الشريفة: أن الحكمة لا تحصل إلا للذي العقل الخالص عن شائبة الوهم. فمن اتخذ إلهه هواه فإنه يعبد الهوى، ومن اختار شخصاً وجعله منفذاً لأحكام الله ولم يحصل الاذن من الله لهذا الشخص ولم يعطه الله علم القرآن

(١) بحار الانوار : ج ٢ ص ٧٢ ج ١٢ ح ٣٧ .

(٢) أعيان الشيعة : ج ٦ ص ٧٩ .

(٣) النور : ٤٠ .

وأحكامه بواسطة الملك وبواسطة النبي، فيكون هذا الشخص آمراً وناهياً على ما يقتضيه فهمه القاصر من القرآن . فإن هذه العبادة غير مرضية لله لأنها غير مستمدة من الله، إذ الطريق الذي سلكوه غير الطريق الذي عينه الله، وهذه الأهمال ليست مبنية على الحكمة، فالسالك في هذه الطرق إما أن يكون قد عرف خطأها وسلكها متعمداً لأجل الدنيا الدنية، وإما أن يكون غير عالم بالخطأ وهو العامي غير العالم، كما أن الأول هو العالم، والثاني مخدوع بالأول، وكلا النوعين يدخلان في مضمون قوله تعالى : «الشیطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء» .

فالأول غرضه الدنيا لأن الشيطان يخوفه بالفقر في ترك ما هو عليه . والثاني يأمره الشيطان بالفحشاء لاتباعه للأول. فلا تكون لهم عقول خالصة عن الشوائب، وإنما تكون تكون عقولهم مشوبة لجميع الأوهام الدنيوية فلم يحصل لهم من الحكمة شيء أبداً لأنهم بنوا دينهم على أساس غير رشيد بعد ما تبين لهم : «الرشد من الغي» .

تكملة لا بد منها

لا يخفى على المطلع البصير أن العلم الموجود عند سائر الناس إنما هو مقول بالتشكيك، وهو يختلف بحسب الأشخاص قلة وكثرة، فالنبي ﷺ يكون أعلم الناس في جميع الأمور حتى لا يحتاج إلى أحد في علم من العلوم أو في شيء من الأشياء فمن كان أقلّ علماً يلزمه الرجوع إلى الأعلم منه حتى يصل إلى الحقيقة، وإلا إذا بقي جامداً على ما عنده من العلم يقصر عن الوصول إلى الحقيقة في أكثر الأمور الدينية، وهذا أمر واضح لا ريب فيه .

وكذلك يكون الأمر في الحكمة، فمن الناس من يكون حكيماً في جميع الأمور - وهذه درجة الأنبياء - فإن الله يلهمهم الحكمة المطلقة ويجعلهم ساسة الناس في أمور الدين والدنيا، ويلزم على الناس الرجوع إليهم في أمور دينهم،

وفيما يقع بينهم من التخاصم و التنازع و الجدل ليحكموا بين الناس بالعدل والقسط ، فكل من امتنع من الرجوع إليهم دلّ امتناعه على عدم إيمانه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ^(١) .

فالمرجع الذي يؤخذ منه العلم و تقتبس منه الحكمة هو النبي ﷺ في أيام حياته ، وأما بعد رحلة النبي من الدنيا فلا خلاف بين أهل العلم و الدين أن أعلم الناس بعد النبي هو علي بن أبي طالب عليه السلام وهو أحكم الناس أيضاً ، ولا يخالف في هذا إلا مكابر أو جاهل .

ذكر المحب الطبري في ذخائر العقبى عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله (ص) : علي مني بمنزلة راسي من جسدي ، ولا يخفى ما في هذا البيان من البلاغة العظيمة ، فإن الغرض من بعثة النبي (ص) هو التبليغ والارشاد بالكلام وهو في الرأس ، وأن يكون شاهداً على أمته في الدنيا ليشهد عليهم في الآخرة والشهادة تكون بالسمع والبصر وهما في الرأس والحواس الخمس مجتمعة في الرأس ، فكأنه يقول علي نفسي لا ينقصه شيء سوى الوحي ، وإلا فهو مثلي في كل شيء ، فالنبي (ص) قد أبان لنا بهذه الكلمة أن الغرض الذي بعثه الله من أجله يحصل بوجود علي بين أظهرنا ، ولقد تحرك القلم ليكتب شيئاً من فضائل علي فذكرت ما كتبته قبل هذا كتب كثيرة في فضائله ^(٢) .

وقال المحب الطبري عن أنس بن مالك قال : كنت عند النبي (ص) فرأى علياً مقبلاً فقال : يا أنس ، قلت : لبيك قال : هذا المقبل حجتي على أمتي يوم القيامة ^(٣) .

(١) النساء : ٦٤ .

(٢) ذخائر العقبى : ص ٦٣ .

(٣) ذخائر العقبى : ص ٧٧ .

وذكر عن أنس أيضاً أن النبي (ص) قال : أقضى امتي علي . وعن عمر بن الخطاب قال : أقضانا علي . فمن ترك الأعلم الأفضل واتبع المفضول فقد ترك حكمة الله واتبع هواه فلا يضر إلا نفسه ^(١) .

روى في الاحتجاج عن سعيد بن أبي الخضيب قال : دخلت أنا وابن أبي ليلى المدينة، فبينما نحن في مسجد الرسول ﷺ إذ دخل جعفر بن محمد عليه السلام فقمنا إليه فسألني عن نفسي وأهلي ثم قال : من هذا معك؟ فقلت : ابن أبي ليلى قاضي المسلمين! فقال : نعم ، قال له : أأخذ مال هذا فتعطيه هذا وتفرق بين المرء وزوجه ولا تخاف في هذا أحداً؟ قال : نعم ، قال : فبأي شيء تقضي؟ قال : بما بلغني عن رسول الله ﷺ وعن أبي بكر وعمر، قال : فبلغك أن رسول الله ﷺ قال : أقضاكم علي بعدي؟ قال : نعم. قال : فكيف تقضي بغير قضاء علي وقد بلغك هذا؟ قال : فاصفر وجه ابن أبي ليلى ثم قال : التمس مثلاً لنفسك فوالله لا أكلّمك من رأسي كلمة أبداً ^(٢) .

وقد وردت روايات عن معادن الحكمة وأهل بيت الوحي في تفسير الحكمة وما يترتب عليها من الفوائد، نذكر بعضها هنا تبصرة لطالب الحكمة.
روى عن النبي ﷺ قال : إن الله تعالى آتاني القرآن وآتاني من الحكمة مثل القرآن ، وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلا كان خراباً ، ألافقّوها وتعلّموا ولا تمونوا جهلاء ^(٣) .

وعن الكافي أن النبي ﷺ كان ذات يوم في بعض أسفاره إذ لقيه ركب فقالوا : السلام عليك يا رسول الله ، فالتفت إليهم وقال : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . قال : فما حقيقة إيمانكم ؟ قالوا : الرضا بقضاء الله والتسليم لأمر الله والتفويض إلى أمر الله، فقال رسول الله ﷺ : علماء حكماء كادوا أن يكونوا من

(١) ذخائر العقبى : ص ٨٣ .

(٢) الاحتجاج : ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٣) كنز العمال : ج ١٠ ص ١٤٧ ح ٢٨٢٥٠ .

الحكمة أنبياء ، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تجمعوا ما لا تأكلون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون ^(١) .

وروي عن الصادق عليه السلام قال : الحكمة ضياء المعرفة وميراث التقوى وثمرة الصدق ، وما أنعم الله على عبد من عباده نعمة أنعم وأعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة ، قال الله تعالى : «يؤتي الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الأبواب» ^(٢) أي : لا يعلم ما أودعت وهيأت في الحكمة إلا من استخلصته لنفسه وخصصته بها ، والحكمة هي الثبات ، وصفة الحكيم الثبات عند أوائل الأمور والوقوف عند عواقبها ، وهو هادي خلق الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام : لئن يهدي الله على يدك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت ^(٣) .

وفي وصية موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم : واعلموا أن الكلمة من الحكمة ضالة المؤمن ، فعليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه غيبة عالمكم من بين أظهركم ^(٤) . وفي وصية لقمان لابنه : يا بني تعلم الحكمة تشرف بها ، فإن الحكمة تدل على الدين وتشرف العبد على الحر ، وترفع المسكين على الغني ، وتقدم الصغير على الكبير ، وتجلس المسكين مجالس الملوك ، وتزيد الشريف شرفاً والسيد سؤدداً والغني مجدداً ، وكيف يظن ابن آدم أن يتهاى له أمر دينه ومعيشته بغير حكمة ، ولن يهيبه الله عز وجل* أمر الدنيا والآخرة إلا بالحكمة ، ومثل الحكمة بغير طاعة مثل الجسد بغير نفس ، ومثل الصعيد بغير ماء ، ولا صلاح للجسد بغير نفس ولا للصعيد بغير ماء ولا للحكمة بغير طاعة ^(٥) .

(١) اصول الكافي : ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) تفسير البرهان : ج ١ ص ٢٥٦ .

(٣) بحار الانوار : ج ٢١ ص ٣٦١ ب ٣٤ ح ٣ .

(٤) سفينة البحار : ج ١ ص ٢٩١ مادة «حكم» .

(٥) بحار الانوار : ج ٧٨ ص ٤٥٨ ب ٣٣ ح ٢٧ .

قال في النهاية : وفي الحديث : الكلمة الحكمة ضالة المؤمن . وفي رواية : ضالة كل حكيم. أي: لا يزال يتطلبها كما يتطلب الرجل ضالته^(١) انتهى .
وقال بعض شراح الحديث : المراد أن المؤمن يأخذ الحكمة من كل من وجدها عنده و إن كان كافراً أو فاسقاً ، كما أن صاحب الضالة يأخذها حيث وجدها^(٢) .

وقد روي عن عيسى بن مريم مثل هذا المعنى وهو أخذ الحكمة ممن وجدت عنده^(٣) . وقد روى ذلك الامام موسى بن جعفر في ضمن وصيته الجلييلة لهشام بن الحكم حيث يقول في أولها :

يا هشام إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل و الفهم في كتابه فقال : «بشر عباد* الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب»^(٤) هذه الفقرة ذكرناها لارتباطها بالموضوع وهو مدح أولوا الألباب ، ثم يتدرج في وصيته الى أن يقول:

يا هشام إن المسيح عليه السلام قال للحواريين: بحق أقول لكم: لو وجدتم سراجاً يتوقد بالقطران في ليلة مظلمة لاستضاءتم به ولم يمنعكم منه ريح ثنة ، كذلك ينبغي لكم أن تأخذوا الحكمة ممن وجدتموها معه، ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها ، بحق أقول لكم : إن الناس في الحكمة رجлан، فرجل أتقنها بقوله وصدقها بفعله ، ورجل أتقنها بقوله وضيعها بسوء فعله ، فشتان بينهما ، فطوبى للعلماء بالفعل ، وويل للعلماء بالقول. بحق أقول لكم: لا يغني عن الجسد إن كان ظاهره صحيحاً وباطنه فاسداً، كذلك لا تغني أجسادكم التي قد أعجبتكم وقد فسدت قلوبكم، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، لا تكونوا كالمنخل يخرج منه

(٢٠١) لم نعثر عليهما في النهاية ولكن نقلهما صاحب سفينة البحار: ج ١ ص ٢٩١ مادة «حكم».

(٣) بحار الانوار : ج ٧٨ ص ٣٠٧ ب ٢٥ ح ١ .

(٤) الزمر: ١٧ ١٨ .

الدقيق الطيب و يمسك النخالة ، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم و يبقى الغل في صدوركم ^(١) .

يكفي ما ذكرناه من الأخبار في تفسير الحكمة و منافعها لمن يتطلبها حقاً ، فإنه اذا تأمل في هذه الأخبار عرف كيف يعبد الله و كيف يطيعه ، فإن الركب الذي لقى النبي ﷺ فسألهم عن حقيقة إيمانهم كان جوابهم الرضا بقضاء الله و التسليم لأمره ، فإن أمر الله لا يمكن التوصل إليه إلا بواسطة من يعرفه بحقيقته و لا يعرفه إلا من يعينه النبي ﷺ من بعده علماً للامة .

و هذه الأخبار كلها تحت الانسان على أن تكون أعماله كلها مبنية على الحكمة سواء كانت دنيوية أو اخروية ، وقد يتسامح بالامور الدنيوية التي هي بعيدة عن الدين فلا يدقق فيها فإنها إن ظهرت مخالفة للحقيقة فلا تسبب إلا فوات شيء من المال .

أما امور الدين فلا ينبغي للعاقل الرشيد التسامح بها ، ويلزمه أن يكون حكيماً في اختيارها لئلا يقع في خلاف الواقع المطلوب منه ، لأن الله كلف عبده بإقامة الدين ، وهو عند الله شيء محدود مشخص لا يتبدل ولا يتغير و لا يكون برأي أحد من البشر مهما كان من العلم و العقل ، فإنه منزل من الله على نبيه الأكرم ، و النبي ﷺ هو الذي كان يعلم الناس .

و أما بعد رحلته فقد أوصى النبي ﷺ أمته أن يتمسكوا بالثقلين : كتاب الله و عترته أهل بيته ، وأن المتمسك بهما لن يضل ، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض . فإن هذا الحديث لتواتره و شهرته بين جميع العلماء يمكن الاكتفاء به لبعض الناس المطلعين و العارفين بعلماء العترة ، فمن كان يعرف العلماء من العترة إذ ليس المقصود جميع العترة يتمسك به ، و أما من لم يعرف ذلك فيمكنه الرجوع الى الأخبار المفصلة ، فقد

رويت عن النبي ﷺ أحاديث تعيين وتسمي لنا أشخاصاً وتأمرنا بالرجوع إليهم، والأولى نذكر بعض هذه الأخبار تنويراً للقارىء .

فمن ذلك ما ذكره الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي في ينابيع المودة وإني أذكر لك نص "عبارته على طولها لأن" ذكرها لا يخلو من فائدة، قال: الباب السادس والسبعون ، في بيان الأئمة الاثني عشر بأسمائهم قال : وفي فرائد السعطين بسنده عن مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قدم يهودي يقال له نعتل قال : يا محمد أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أجبتني عنها أسلمت على يدك .

قال : سل يا أبا عمارة .

فقال : يا محمد صف لي ربك .

فقال (ص) : لا يوصف إلا ما وصف به نفسه ، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز العقول أن تدركه، والأوهام أن تتأله ، والخطرات أن تحده ، والأبصار أن تحيط به جلّ وعلا عما يصفه الواصفون، فاء في قربه قريب في تأيه ، هو كيف الكيف و أيتن الأيتن ، فلا يقال له أين، وهو منزّه عن الكيفية والأينونية ، فهو الأحد الصمد كما وصف نفسه ، والواصفون لا يبلغون وصفه، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

قال: صدقت يا محمد، فأخبرني عن قولك : إنه واحد ولا شبهه له أليس الله واحد والانسان واحد؟

فقال (ص): الله عزّ وعلا واحد حقيقي، أحدي المعنى أي لاجزاء ولا تركب له ، والانسان واحد ثنائي المعنى مركب من روح وبدن .

قال : صدقت ، فأخبرني عن وصيك من هو؟ فما من نبي إلا وله وصي، وأن نبينا موسى بن عمران أوصى الى يوشع بن نون .

فقال (ص) : إن وصيي علي بن أبي طالب ، و بعده سبطاي الحسن والحسين

تتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين . قال : يا محمد فسمتهم لي ؟

قال (ص) : اذا مضى الحسين فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه الحسن ، فإذا مضى الحسن فابنه الحجة المهدي ، فهؤلاء اثنا عشر .

قال : أخبرني كيفية موت علي و الحسن و الحسين . قال (ص) : يقتل علي بضربة على قرنه ، والحسن يقتل بالسهم والحسين بالذبح .

قال : فأين مكانهم؟ قال (ص) : في الجنة في درجتي .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله وأشهد أنهم الأوصياء بعدك ، ولقد وجدت في كتب الأنبياء المتقدمة و فيما عهد إلينا موسى بن عمران عليه السلام أنه اذا كان آخر الزمان يخرج نبي يقال له أحمد و محمد ، و هو خاتم الأنبياء لا نبي بعده ، فيكون أوصيائه بعده اثني عشر ، أولهم ابن عمه وختنه^(١) والثاني والثالث كانا أخوين من ولده ، وتقتل أمة النبي الأول بالسيف ، والثاني بالسم ، والثالث مع جماعة من أهل بيته بالسيف وبالعطش في موضع الغربة ، فهو كولد الغنم يذبح ، ويصبر على القتل لرفع درجات أهل بيته وذريته ولاخراج محبيه وأتباعه عن النار . والتسعة الأوصياء منهم من أولاد الثالث ، فهؤلاء اثنا عشر عدد الأسباط .

قال (ص) : أتعرف الأسباط ؟ قال : نعم كانوا اثني عشر ، أولهم لاوي بن برخيا وهو الذي غاب عن بني إسرائيل غيبة ، ثم عاد فأظهر الله به شريعته بعد اندراسها وقاتل فرسطيا الملك حتى قتل الملك .

قال (ص) : كائن في أمّتي ما كان في بني إسرائيل حذوا النعل بالنعل والقذة بالقذة ، وأن الثاني عشر من ولدي يغيب حتى لا يرى ، ويأتي على أمّتي زمن لا يبقى من

(١) ختنه : زوج ابنته (لسان العرب : ج ٤ ص ٢٦ مادة «ختن»).

في ذكر الأخبار الدالة على أن الخلفاء بعد النبي اثناعشر ————— ٢٠٣
 الاسلام إلا اسمه ، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه ، فحينئذ يأذن الله تبارك وتعالى
 له بالخروج ، فيظهر الله الاسلام به و يجدده ، طوبى لمن أحبهم وتبعهم ، والويل
 لمن أبغضهم وخالفهم ، وطوبى لمن تمسك بهداهم .
 فأنشأ نعثل يقول :

صلى الاله ذو العلى	عليك يا خير البشر
أنت النبي المصطفى	و الهاشمي المفتخر
بكم هداانا ربنا	وفيك نرجو ما أمر
ومعشر سميتهم	أئمة اثني عشر
جباهم رب العلى	ثم اصطفاهم من كدر
قد فاز من والاهم	وخاب من عادى الزهر
آخرهم يسقى الظما	وهو الامام المنتظر
عترتك الأخيار لي	والتابعين ما أمر
من كان عنهم معرضاً	فسوف تصلاه سقر ^(١)

وقد وردت أخبار كثيرة تدل على أن الخلفاء بعد النبي ﷺ اثناعشر
 كلهم من قریش وهذا ينطبق على قول الامامية ، لأن غيرهم إما يقول بأن
 الخلفاء أربعة أو خمسة بإدخال الحسن بن علي معهم ، وإما أن يقول بأكثر من اثني
 عشر بجعل بني امية وبني العباس من الخلفاء .

فمن تلك الأخبار ما ذكره البخارى في كتاب الأحكام ، فقد روى بسنده
 عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي (ص) يقول : يكون اثنا عشر أميراً ، فقال :
 كلمة لم أسمعها . فقال أبي : إنه (ص) قال : كلهم من قریش .

وبهذا المعنى روايات كثيرة وإن اختلفت في بعض المهمات ، ففي بعضها
 «إثنا عشر خليفة» ، وفي بعضها كلمة «إمام» ، وفي بعضها «وصي»^(٢) .

(١) ينابيع المودة : ج ٣ ص ٩٩ ب ٧٦ .

(٢) صحيح البخارى : ج ٩ ص ١٩ ب ٥ ح ١ .

ذكره مسلم في صحيحه في كتاب الامارة في باب الناس تبع لقريش ، فإنه روى بسندين عن جابر بن سمرة قال : دخلت مع أبي علي النبي (ص) فسمعت يقول : **إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة** . قال : ثم تكلم بكلام خفي علي . قال : فقلت لأبي : ما قال ؟ فقال : قال : **كلهم من قريش** ^(١) .

ورواه الترمذي بسندين عن جابر بن سمرة ^(٢) وذكره ابن حجر في الصواعق المحرقة ^(٣) .

وروي في مستدرك الصحيحين عن مسروق قال : كنا جلوساً ليلة عند عبدالله يقرأنا القرآن ، فسأله رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله (ص) كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبدالله : ما سألتني عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلك ، قال : سألتناه فقال : اثنا عشر عدة نقباء بني إسرائيل ^(٤) .

ورواه أحمد بن حنبل في مسنده ^(٥) ، ورواه كثير غير هؤلاء ، وفي بعض الروايات **« كلهم من بني هاشم »** بدل قوله **« كلهم من قريش »** .

كما ذكره القندوزي في الباب السابع والسبعين من ينابيع المودة عن عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سمرة قال : كنت مع أبي عند النبي (ص) فسمعت يقول : **بعدي اثنا عشر خليفة** ، ثم أخفى صوته ، فقلت لأبي : ما الذي أخفى صوته ؟ قال : قال : **كلهم من بني هاشم** ^(٦) .

قال : وفي المناقب عن وائلة بن الأسقع بن قريظ عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : دخل جندل بن جنادة بن جبيرة اليهودي على رسول الله (ص)

(١) صحيح مسلم : ج ١٢ ص ٢٠١ كتاب الامارة .

(٢) الجامع الصحيح : ج ٤ ص ٥٠١ ب ٤٦ ح ٢٢٢٣ .

(٣) الصواعق المحرقة : ص ٢٠٠ .

(٤) مستدرك الصحيحين : ج ٤ ص ٥٠١ .

(٥) مسند أحمد بن حنبل : ج ١ ص ٣٩٨ و ٤٠٦ .

(٦) ينابيع المودة : ج ٣ ص ١٠٤ ب ٧٧ .

فقال : يا محمد أخبرني عما ليس لله وعما ليس عند الله وعما لا يعلمه الله .

فقال (ص) : أما ما ليس لله فليس لله شريك ، وأما ما ليس عند الله فليس عند الله ظلم للعباد ، وأما ما لا يعلمه الله فذلك قولكم يا معشر اليهود : إن عزيراً ابن الله والله لا يعلم أنه له ولد بل يعلم أنه مخلوقه وعبد . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله حقاً وصدقاً . ثم قال : إنني رأيت البارحة في النوم موسى بن عمران عليه السلام فقال : يا جندل أسلم على يد محمد خاتم الأنبياء واستمسك بأوصيائه من بعده ، فقلت : فله الحمد أسلمت وهداني بك .

ثم قال : أخبرني يا رسول الله عن أوصيائك من بعدك لا تمسك بهم .
قال (ص) : أوصيائي الاثنا عشر .

قال جندل : هكذا وجدناهم في التوراة . وقال : يا رسول الله سمعهم لي؟
فقال (ص) : أولهم سيد الأوصياء أبو الأئمة علي ، ثم ابنه الحسن والحسين ، فاستمسك بهم ولا يفرنك جهل الجاهلين ، فإذا ولد علي بن الحسين زين العابدين يقضي الله عليك ، ويكون آخر زادك من الدنيا شربة لبن تشربه .

فقال جندل : وجدنا في التوراة وفي كتب الأنبياء عليهم السلام إيليا وشبيراً وشبيراً ، فهذه أسماء علي والحسن والحسين . فمن بعد الحسين و ما أسماؤهم؟
قال (ص) : إذا انقضت مدة الحسين فالامام ابنه علي ويلقب بزین العابدين ، فبعده ابنه محمد ويلقب بالباقر ، فبعده ابنه جعفر ويلقب بالصادق ، فبعده ابنه موسى يدعى بالكاظم ، فبعده ابنه علي يدعى بالرضا ، فبعده ابنه محمد يدعى بالتقي والزكي فبعده ابنه علي يدعى بالنقي والهادي ، فبعده ابنه الحسن يدعى بالعسكري ، فبعده ابنه محمد يدعى بالمهدي والقائم والحجة ، فيغيب ثم يخرج ، فإذا خرج يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، طوبى للصابرين في غيبته ، طوبى للمقيمين على محبتهم ، أولئك الذين وصفهم الله في كتابه وقال «هدى للمتقين» الذين

يؤمنون بالغيب،^(١) ثم قال تعالى داوئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون،^(٢).

فقال جندل : الحمد لله الذي وفقني بمعرفتهم .

ثم عاش الى أن كانت ولادة علي بن الحسين ، فخرج الى الطائف ومرض وشرب لبناً وقال : أخبرني رسول الله (ص) أن يكون آخر زادي من الدنيا شربة لبن . ومات ودفن بالطائف بالموضع المعروف بالكوزارة^(٣) .

لقد سمعت وصف رسول الله للركب الذين سألتهم عن حقيقة دينهم فأجابوه بأنهم الراضون بقضاء الله و المسلمون لأمره ، فوصفهم النبي بالعلماء و الحكماء . أخي تثبت ودقق وحقق وسر في الطريق برشد وحكمة حتى تصل الى المطلوب إن كنت تريده ، أما الذي لا يريده فلا يهتك أمره عالماً كان أو جاهلاً . فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا قول إلا بعمل ، ولا قول ولا عمل إلا بنية . ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة^(٤) .

تأمل جيداً في هذا الكلام وهو كلام النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وهو بهذه الجملة المختصرة يرسم لأمته قانوناً ونظاماً يسرون عليه الى يوم القيامة ، فمن تخلف عنه فلا يضر إلا نفسه ، ومن أراد اتباع النبي والسير على سنته يلزمه التمسك بهذا النظام .

ومفاد هذه الجملة موضحاً مبسوطاً ليتجلى معناها هو أن الانسان اذا شهد الشهادتين فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واعترف وشهد بالعدل والبعث والحساب والصراط والجنة والنار ، واعترف بوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج وغير ذلك من الواجبات ، واعترف بحرمة جميع المحرمات ، فهذا الاعتراف باللسان والقول المجرد لا ينفع شيئاً ما لم يكن معه عمل مطابق للقول ، فإذا قال

(١) البقرة: ٣٠٢.

(٢) المجادلة: ٢٢ .

(٣) ينابيع المودة : ج ٢ ص ١٠٠ ب ٧٦ .

(٤) أمالي الطوسي: ج ١ ص ٣٤٧ .

في توضيح قوله (ص): لا قول إلا بعمل.... ٢٠٧

الصلاة واجبة وكرر هذه العبادة في كل يوم وفي كل ساعة مئات المرات لا يفيد شيئاً ما لم يؤدي الصلاة .

فإذا اعترف بوجوبها وأداها بأن صلى الفرائض الخمس في كل يوم وليلة ولكن كانت صلاته بلا نية منه بأن يستقبل القبلة ويكبر ويأتي بر كعتين وقت صلاة الصبح، وكذا يأتي بأربع ركعات وقت الظهر وكذا العصر والمغرب والعشاء، كل ذلك بلا نية منه لأداء الفريضة الواجبة تقرباً إلى الله، فهذا أيضاً لا ينفعه شيئاً ولا يكون مصلحاً ولا بعداً مؤدياً للفريضة .

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي أن يعترف الإنسان بوجوب الصلاة، ثم يأتي بالصلاة وهي مشتملة على النية المعينة للفريضة متقرباً بها إلى الله تعالى ولكنه لا يصيب السنة بحيث لا يأخذ أحكام دينه من واسطة عالمة بأحكام العبادة التي أمر بها النبي ﷺ مستمداً من الوحي السماوي، فهذا أيضاً لا ينفعه كما هو صريح كلامه ﷺ، فإذا أتى بعبادة وهي ناقصة جزء أو زائدة جزء أو متقدمة عن وقتها المضروب لها لا ينتفع بعبادته، لأنها لم تصب السنة ولا يكون الوزر إلا على صاحبها إذا أنه لم يجتهد لدينه كما يجتهد لديناه، فإن عليه أن يأخذ أحكام دينه ممن عينه له النبي ﷺ في قوله: أنا مدينة العلم وعلي بابها^(١) فإن اللازم على العاقل أن يأخذ أحكام دينه ممن يوثق به وتركن إليه النفس في صدقه وعدالته وورعه.

أما الذي لا يتورع في روايته كأبي هريرة وأمثاله فلا يجوز أن يعول عليه في شيء من أمور الدين ولا من غيره، وقد كشف البحث والتنقيب عن كذبه في الرواية عن النبي ﷺ، فانظر في كتاب «شيخ الماضرة» لمحمود أبوريته لتعرف ما قيمة أبي هريرة .

فينبغي أخذ أحكام الدين عن أصحاب النبي الموثوقين، أهل التقوى والدين الذين لم يرتكبوا ذنباً ولا معصية قط لا في حياة النبي ﷺ ولا بعده، وأما الذي

ارتكب معصية ولم يتب منها فإن النفس لا تطمئن إليه ولا يعذر من يأخذ منه أحكام الدين ، فمن أخذ أحكام دينه منه لم يصب السنة فكان عمله هباءً منثوراً .

قوله تعالى : ان تبدوا الصدقات فنعمما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢٧١) .

لقد ذكر الله تعالى في هذه الآية صفتين من صفات الصدقة بعدما ندبهم إليها وحثهم عليها في هذه الآيات العديدة ، وذكر صفاتها التي تكون سبباً لقبولها والتي تكون سبباً لبطلانها وعدم قبولها عند الله .

وهنا ذكر أن الصدقة وهي المال الذي ينفقه المسلم طلباً لمرضات الله إما أن تكون بادية أي يجاهر بها المنفق و يدفعها لمستحقها أمام الناس ، وإما أن يخفيها ويتكتم بها ولا يدفعها أمام الناس .

وذكر أن إبداءها والتظاهر بها حسن «فنعمما هي» وأن التكتم بها وإخفاءها فهو أفضل وأكثر خيراً ، وقد ورد في الأخبار أن الصدقة الواجبة كالزكاة ينبغي إبداءها وإظهارها لئلا تتهم بعدم أدائها ، والصدقة المندوبة ينبغي إخفاءها والتكتم بها فراراً عن الرياء وعما يخطر في القلب من ذلك .

وقد روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: البر صدقة السر ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان عن سبعين ميتة سوء ^(١) .

وكان علي بن الحسين عليه السلام يقول: إن صدقة السر تطفى غضب الرب كما يطفى الماء النار ، فإذا تصدق أحدكم فأعطى يمينه فليخفها عن شماله ^(٢) .

(١) الوسائل : ج ٦ ص ٢٥٥ ب ١٣ ح ٩

(٢) سفينة البحار : ج ٢ ص ٢٤ مادة «صدق» .

وعن الامام الباقر عليه السلام لما غسل أباه علياً نظروا الى مواضع المساجد من ركبتيه وظاهر قدميه كأنها مبارك البعير، ونظروا الى عاتقه وفيه مثل ذلك فقالوا لمحمد عليه السلام: يا بن رسول الله قد عرفنا هذا من إدمان السجود فما هذا الذي نرى على عاتقه؟ قال أما لولا أنه مات ما حدثتكم عنه، كان لا يمر به يوم إلا أشبع به مسكيناً فصاعداً ما أمكنه، وإذا كان الليل نظر الى ما فضل عن قوت عياله فجعله في جراب، فإذا هدأ الناس وضعه على عاتقه وتخلل المدينة وقصد قوماً لا يسألون الناس إلحافاً وفرغه فيهم من حيث لا يعلمون من هو، ولا يعلم بذلك أحد من أهله غيري، فإني كنت اطلعت على ذلك منه يرجو بذلك فضل إعطاء الصدقة بيده ودفعها سرّاً ^(١).

وروي عن بعض أهل المدينة قال: ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين عليه السلام وكان في المدينة كذاو كذا بيتاً يأتيهم رزقهم وما يحتاجون إليه لا يدرون من أين يأتيهم، فلما مات زين العابدين عليه السلام فقدوا ذلك فصرخوا صرخة واحدة ^(٢). وقد صرحت الآية أن الذي يخفي صدقته يكفر الله عنه من سيئاته حيث إن الله خير بما نعمله.

قوله تعالى: ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم و ما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون (٢٧٢).

لما أنزل الله تعالى على رسوله الآيات العديدة التي رغبتم المؤمنين على

(١) سفينة البحار: ج ٢ ص ٢٤ مادة «صدق».

(٢) بحار الانوار: ج ٤٦ ص ٨٨ ب ٥ ح ٧٧.

بذل المال ، وحثهم على الانفاق ووعدهم بالجزاء الجزيل والثواب العظيم المضاعف وفي ضمن هذه الآيات ذكرت الحكمة التي هي أحسن شيء يحظى به المؤمن وأن الله يؤتيها من يشاء ممن يؤهل نفسه لها بإخلاص النية وتصفية القلب والاستعداد من الله في جميع الأمور والاعراض عما سوى الله ورسوله ومن يرتضيانه .

وقد بين الرسول الأكرم ﷺ جميع هذه الأمور لآئمة ، فاتصف بعضهم بهذه الصفات النبيلة فأقر الله الحكمة في قلبه وجرت على لسانه ، وبعضهم يظهر للناس أنه متصف بها ولكن قلبه مغشوش فاسد ، وبعضهم بقي على ما هو عليه من النفاق ، وهذا مما يأسف له الرسول الكريم الذي يريد الخير لعموم البشر ، ولا يحب أن يكون في آئمة نقص ولو في جزء واحد منها ، وهو يعرف هؤلاء المنافقين كما عرفه الله في قوله : « ولتعرفنهم في لحن القول » ^(١) فكثر وجده وزاد أسفه ، فأراد الله تسليته بهذه الآية الشريفة ، وأن هدايته الناس إنما هي بيد الله ولا يقدر عليها أحد غير الله .

ثم بين الله عز وجل لمن تآثر بالآيات فأنفق المال ولمن لم يتأثر فلم ينفق شيئاً وأنفقه رياءً أو اتبع الانفاق بالمن والأذى ، عرفهم جميعاً أن هذا الانفاق الذي يتحقق منهم إنما يعود نفعه عليهم ويخص أنفسهم فقط اذا كان خالصاً لله تعالى كما يدل عليه قوله : « وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله » أما الذي ينفق لغير الله فلا ينتفع به المنفق لأن الله تعهد بالجزاء لمن يعمل لأجله ، وهذا المنفق ليس منهم .

وقد وجه الله الخطاب في الآية أولاً الى النبي وأخبره بأنك غير مكلف من الله بأن تهدي الناس وإنما أنت مكلف بالتبليغ وإسماعهم الآيات والأحكام . ثم وجه الخطاب الى العباد وعرفهم بأن هذا الانفاق الذي بلغكم به الرسول إنما هو لأنفسكم لا يعود على الرسول شيء منه ، والله هو الذي يقرر لكم الجزاء

على نفقاتكم، فاللازم عليكم اذا أردتم الجزاء المضاعف أن لا تكون نفقاتكم إلا خالصة لوجه الله تعالى ، وأن لا يشوبها أحد المبطلات لها من المن والأذى والرياء، أو كون المال المنفق من القسم الرديء الخبيث .

ففي الجملة الاولى وهي: «وما تنفقوا من خير فلا تنفقوا» عرّفهم أن النفقة التي تريدون ثوابها ونفعها لأنفسكم إنما يحصل ذلك لكم، ويتحقق النفع والثواب اذا كانت خالصة لوجه الله . أمّا اذا خالطها شيء آخر كالرياء أو تعقبها من الأذى أو كانت هي بحسب ذاتها غير صالحة لأن تقدم لله لخبثها ورداءتها فليس لكم جزاء عليها ، فإنها فاقدة للشرط الموجب للقبول ، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .

ثم عرّفهم بالجملة الثالثة وهي: «وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون» بأن الخير الذي تنفقونه سيعود إليكم وافياً .

ويمكن أن يكون الفرق بين هذه الجملة والجملة الاولى أن المقصود من تلك هو النفع لكم في الآخرة ، والمقصود من هذه هو التوفية لكم في الدنيا ، فلا تحسبوا هذه النفقة خسارة مالية فإنها ستعود إليكم ، فالذي يعتمد على وعد الله لا يبخل في بذل المال بعد سماعه لهذا الوعد .

ثم أكّدها بقوله: «وأنتم لا تظلمون» أي: أن الوعد بالتوفية ليس فيه خلف وأن خلف الوعد لا يجوز على الله وإنما يقع من بعض البشر الذين لازمة لهم ولا يستقبحون خلف الوعد .

ثم ذكر شرطاً آخر للنفقة المرضية ، فقال عز من قائل :

للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم

لا يسألون الناس الحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم (٢٧٣) .

بعدما حث الله عباده المؤمنين في هذه الآيات العديدة ورغبهم في إنفاق المال ووعدهم بالثواب الجزيل في الآخرة والتعويض المضاعف في الدنيا عرفهم في هذه الآية بمن يدفعون له هذه الصدقات؟ ومن أي الأصناف هم؟ فأمرهم بدفعها للفقراء الذين لا يمكنهم الاتجار والكسب، إمّا لعجزهم عن ذلك، أو لمرض عرض لهم، أو أنهم حسبوا أنفسهم وحصروها بالقيام بما ينفع المسلمين ويؤيد الدين كجهاد الأعداء وتحصيل العلم النافع .

وقد وصفهم الله بالعفة، وأنهم لا يسألون الناس ولا يلحون في الطلب منهم، وهذا يشمل كل مؤمن فقير. فإذا دفع ذو المال صدقته الى المؤمن الفقير كانت هذه النفقة مقبولة عند الله، وقد خص الله هذا الصنف لتدفع لهم الصدقات ولا تدفع لمن لا يستحقها، كما نرى في هذا الزمان بعض الناس يدفع بعض المال الى من بيده السلطة لكي يتقرب له ويدنو منه، فإذا جاء الفقير صرفه محروماً، وبعضهم يدفعها الى السفهاء الذين يضحكون على الناس بالأباطيل ويحرم المستحق لها .

وعلى كل ينبغي دفع الصدقات الى المؤمن الفقير المتعفف، وهو معروف عند أهل العقل في كل زمان ومكان، لأننا نراه لا كسب له ولا ملك ولا تجارة، وهو متعفف لا يسأل الناس شيئاً، وإذا سئل عن حاجته الى المال ينفي ذلك ويقول إني غير محتاج .

قوله تعالى : الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٧٤)

لقد ذكر الله تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل الصدقة وأنواعها وأقسامها

وذكر أنواع المنفقين ، وذكر جزاء النفقات الذي جعله الله لأربابها ، وذكر في هذه الآية صنفاً من المنفقين وهم الذين لم يجعلوا لنفقاتهم وقتاً خاصاً أو مقداراً خاصاً ، بل ينفقون في كل وقت وينفقون جميع ما عندهم ولا يتركون لأنفسهم شيئاً ، اعتماداً على وعد الله بتعويضهم لما ينفقون أضعافاً مضاعفة .

ثم ذكر أن أجر هؤلاء القوم محفوظ عند ربهم ولم يبين له قدراً معيناً ويمكن أن يكون عدم بيان مقداره إشارة إلى عظمته ، وأن العباد لا يمكنهم حصره وعده .

ثم ذكر أن لهم مع هذا الأجر المحفوظ عند الله أنهم لا يصيبهم خوف من كل ما يوجب الخوف في الدنيا والآخرة ، ولا يصيبهم حزن من كل ما يوجب الحزن في الدنيا والآخرة ، فكل خوف أو حزن يصيب الناس في الدنيا والآخرة هم آمنون منه فلا يخافون إلا من الله ولا يحزنون إلا لفوات ثواب الله .
وقد ذكر المفسرون من العامة والخاصة أن الآية نزلت في شأن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام فقد كان عنده أربعة دراهم فتصدق بواحد ليلاً وبواحد نهاراً وبواحد سراً وبواحد علانية فنزلت الآية (١) .

وبعد الانتهاء من ذكر الآيات نذكر بعض الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام في الحث على الصدقة وفي منافعها الدنيوية والاخرية .
روى عن النبي ﷺ قال : من سره أن يدفع الله عنه نحس يومه فليفتح يومه بصدقة (٢) .

وروى عن النبي ﷺ قال : على كل مسلم في كل يوم صدقة ، قيل : من يطيق ذلك ؟ قال : إماطتك الأذى عن الطريق صدقة ، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة ، وعيادتك المريض صدقة ، وأمرك بالمعروف صدقة ، ونهيك عن المنكر صدقة

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٣٨٨ .

(٢) بحار الانوار : ج ٩٦ ص ١٢٦ ب ١٤ ح ٤٢ مع اختلاف يسير .

وردك السلام صدقة^(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: استنزلوا الرزق بالصدقة^(٢).

وقال عليه السلام: من أيقن بالخلف جاد بالعطية^(٣).

وقال عليه السلام: من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة^(٤).

وقال عليه السلام: اذا أملكتم فتاجروا الله بالصدقة^(٥).

وقال في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: واعلم أن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة، وأنه لا غنى بك فيه من حسن الارتياح وقدر بلاغك من الزاد مع خفة الظهر، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك فيكون ثقل ذلك وبالا عليك، واذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك الى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث نحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه، وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه، فعليك أن تطلبه فلا تجده، واغتنم من استقر منك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك^(٦).

وسئل الصادق عليه السلام: أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخاف الفقر، ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا ولفلان كذا^(٧).

وحكي عن ابن فهد في العدة قال: الصدقة على خمسة أقسام:

الأول: صدقة المال، وقد سلفت.

الثاني: صدقة الجاه، وهي الشفاعة.

(١) بحار الانوار: ج ٧٥ ص ٥ ب ٤١ ح ٤.

(٢) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١٢٠ ب ١٤ ح ٢٢.

(٣) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١١٥ ب ١٤ ح ٦.

(٤) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١٣٢ ب ١٤ ح ٦٦.

(٥) نهج البلاغة: الحكمة رقم ٢٥٨.

(٦) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٣١.

(٧) الرسائل: ج ٦ ص ٢٨٢ ب ١٩ ح ١ عن رسول الله (ص).

الثالث: صدقة العقل والرأي، وهي المشورة .

الرابع : صدقة اللسان ، وهي الوساطة بين الناس والسعي في ما يكون سبباً لاطفاء النائرة وإصلاح ذات البين .

الخامس : صدقة العلم، وهي بذله لأهله ونشره على مستحقيه ^(١).

وروي عن النبي ﷺ أنه سأل جبرئيل عن الصدقة فقال: يا رسول الله الصدقة على خمسة أقسام: قسم منها الواحد بعشرة، وقسم الواحد بسبعين، وقسم الواحد بسبعمئة، وقسم الواحد بسبعين ألفاً، وقسم الواحد بمائة ألف، فقال رسول الله ﷺ: ما تفسير ذلك يا جبرئيل؟ قال :

أما التي تكون الواحدة بعشرة اذا كانت على سائر الناس المستحقين صحيحي البدن .

وأما الواحد بسبعين اذا كان المستحق لا يمكنه الاكتساب بمرض أو غيره .

وأما الواحد بسبعمئة اذا كان المستحق من آل الرسول .

وأما التي الواحد بسبعين ألفاً اذا كان لأرحامه أو أبيه .

وأما التي الواحد بمائة ألف اذا كان لطالب العلم صحيحاً كان أو مريضاً لأنه

يتقوى على طلب العلم وينفع به عباد الله ^(٢) .

ولما فتح الله لعباده باب الصدقة وأعلمهم أنها جالبة للرزق الكثير وأن

فيها خير الدنيا والآخرة ، فالؤمن الموحد المعتقد بأن زمام الأمور كلها

بيد الله وليس لأحد غيره قدرة على التصرف في الأرزاق وغيرها من الأمور ينبغي له

بعد الاطلاع على هذه الآيات التوجه الى الله في كل ما يروم ويريد من الأمور،

فإذا لجأ في شيء من الأمور الى ما نهى الله لكشف عمله هذا عن ضعف عقيدته بالله

وعدم الاطمئنان بوعدده .

(١) عدة الداعي : ٦٢ .

(٢) المواعظ العددية : ص ٢٠٥ .

ولهذا فقد توعد الله بالعذاب الشديد لمن يتمسك بما حرم الله في تحصيل الرزق، فقال جل شأنه بعد هذه الآيات تنبيهاً لعباده :

الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله و من عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢٧٥).

لقد فسروا الخبط بالمشي على غير استواء^(١). ويوصف المرء الذي يتصرف في أمر على غير هدى أنه يخبط خبط عشواء، ويقال: خبط البعير الأرض اذا اختلت مشيته. ويعلم من هذا أن كد أمر اذا غير الانسان نظامه الطبيعي أو الشرعي عما جعل عليه بحيث ترك الوجه الصحيح وعمل بالوجه الفاسد فقد تخبط فيه. أما القيام المذكور فتارة يكون المقصود منه القيام المقابل للمجلوس، وتارة يكون بمعنى التصرف وإدارة الشؤون، كما يقال: فلان قام بالأمر أحسن قيام، أو فلان لم يحسن القيام بالأمر الفلاني، ولأمانع من إرادة كلا الأمرين معاً في الآية الشريفة.

و المرابي لما ترك الأمر الذي رخصه الله فيه وهو البيع وعمل بما نهاه عنه وهو الربا فقد خبط خبط عشواء، حيث ترك الطريق الذي أمره الله بسلوكه وأخذ في طريق نهاه الله عنه، وهو مع ذلك يجادل أهل الحق ويدعي عدم الفرق بين الطريقين، لأنه لم يدرك حكمة الله التي بنى الله أحكامه عليها، وليس له إيمان راسخ

متين وعقيدة كعقيدة أهل الحق بأن الله شرع أحكامه على الحكمة والمصلحة حتى يطيع أوامر الله وإن لم يعرف وجه الحكمة ، ولا ريب بأن الله عز وجل في كل قضية حكماً معيناً لا يتغير ولا يتبدل ، وأن الله أودع الأحكام كلها عند النبي ﷺ بواسطة الملك الذي ينزل عليه ، وعلى هذا فكل قضية إذا انحرف الإنسان فيها عن جادة الصواب وسلك طريق الظلال والهلاك فهو متخبط تخبط الأعمى ويكون من مصاديق الآية الشريفة .

بعد ما عرفنا أن المقصود من القيام هو التصرف المخالف للصواب وليس القيام المقابل للمجلوس فقط ، وقد شبه الله هذا الإنسان التارك للصواب والسالك طريق الضلال بالمسوس والمجنون الذي يسلم قياده للشيطان فيقوده الى حيث يهوي به في الظلمات فإن اختيار هذه الطريقة هي من أعظم أنواع الجنون ، لأن الجنون المضرب بالآخرة أعظم ومراتب من الجنون المضرب بالدنيا .

وبعد هذا ينبغي لنا أن نتساءل في الدنيا قبل التساؤل في الآخرة فنقول: اذا كان الله قد جعل لكل قضية ولكل مسألة حكماً معيناً وأودع علم جميع الأحكام الى النبي ﷺ وأنه لم يترك قضية واحدة إلا وبين حكماً كما يدل عليه قوله «اليوم أكملت لكم دينكم» ^(١) وأن النبي ﷺ بلغ جميع هذه الأحكام لأمته باتفاق جميع الأمة على ذلك ، نسأل ما سبب هذا الاختلاف الواقع بين الأمة ؟ نقول : الإشكال هو أن هذا الاختلاف إنما هو من تخبط الشيطان بالإنسان وجره الى الطرق الملتوية التي تبعد عن الصراط المستقيم الذي نصبه الله لعباده وبينه لهم وأوضحه غاية الإيضاح ، وإلا لو ترك شيئاً من الإيضاح لكان غير مبلغ لرسالة ربه ، وحاشاه أن يكون كذلك ، وأن الحجة تلتزم كل شخص على انفراده فإن الله قد أعطى لكل إنسان من العقل ما يميز به بين الحسن والقبيح وبين الضار والنافع ، ولا يسوغ له أن يعول على غيره في هذا التشخيص والتمييز .

وكان الناس في أيام وجود النبي ﷺ يرجعون إليه في أحكام القضايا مهما كان نوعها ، وأما بعد ارتحال النبي ﷺ فالناس قد صاروا على أنواع ، لأنهم اختلفوا فرقا كثيرة ، ولا يمكن أن ينتمي العاقل الرشيد الى واحدة من هذه الفرق إلا بإرشاد من النبي ﷺ ، وقد تواتر الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : إني تارك فيكم ما أن تمسكنم بهما لن تضلوا بعدي : كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي ^(١) ولا ريب أن سيد أهل بيته هو علي بن أبي طالب عليه السلام ، فإنه أودع عنده علومه ولم يترك الأمة نائفة في حيرتها ولا تعرف مرجع أحكامها .

أيها الرشيد اللبيب ، اذا أردت أن تعرف الحق والدين الصحيح فانظر الى كتاب «إثبات الوصية» للمسعودي المقبول عند الجميع ، فإنه يذكر فيه : أن جميع الأنبياء من آدم الى محمد اذا حضرتهم الوفاة يأمرهم الله أن يسلموا نور الله والحكمة والعلم المنزل عليهم الى وصيهم ليقوم بالأمر بعدهم ويكون هو المرشد لآمتهم ^(٢) .

وهذه هي سنة الله في عباده ، فلماذا نسوا الى أفضل الأنبياء وخاتمهم أنه ترك هذا الأمر ولم يعين وصياً مرشداً ، وأن ترك الوصية مستفبح من أقل الناس فكيف ينسب الى النبي ﷺ ؟

أيها المسلم الرشيد المفكر ، لهذا بابان من أبواب الدين الاسلامي : (أولهما) باب الصدقات الواجبة والمندوبة . (وثانيهما) باب الربا المحرم . ويتفرع منهما فروع كثيرة لا تحصى ، وأن الانسان مهما بلغ من العلم فإنه معرض للخطأ والسهو والنسيان ، أما الامام الذي تقول به الفرقة الامامية فإنها تعتبر فيه العصمة من هذه الامور ، وكذا تعتبر فيه العصمة من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها لأنه منصوب من قبل الله والرسول لامن قبل البشر .

(١) بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٣٣ ب ٧ ح ٧٠ .

(٢) اثبات الوصية : ص ١٠٥ .

ولقد كان هذا الكلام عن الامامة تعليقاً على كلمة «يتخبطه الشيطان» وأن كل فعل أباحه الله فجعل العبد المحرم كالمباح أو المباح كالمحرم كما حكى الله عنهم : «قالوا انما البيع مثل الربا» فليعلم أن هذا من تخبط الشيطان .

وليعلم العاقل الرشيد أن أهم الأمور وأعظمها أمر الامامة، فإن الانسان اذا تركها اختلت جميع اموره إذ أنه يأخذ أحكام دينه من منبع غير متصل بالنبي ﷺ وهو يصيب مرة ويخطأ مرات ، وهذا خلاف المرشد ، وسوف يأتي في ضمن الآيات إن شاء الله ما يزيدك وضوحاً .

فكل حكم من أحكام الدين اذا أخذه المكلف من غير العالم المعصوم وكان المفتي له بذلك مخطئاً وعرف المكلف بعد حين أنه كان على غير رشد من أخذه من هذا المفتي فتركه ورجع الى قول المعصوم فإن أعماله مقبولة عند الله وإن كانت خلاف الحق والحقيقة كما يدل عليه قوله تعالى : «فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف» .

واذا عرف الحق فبقي مصراً على باطله فيدخل تحت قوله «ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» فالآية الشريفة وإن كانت واردة في حكم الربا إلا أن حكمها عام شامل لكل من عرف الحق وبقي متمسكاً بالباطل، فافهم ذلك جيداً. ثم إن هذه الآية وإن لم تكن من موضوع كتابنا - لأن الموضوع هو صفات المؤمنين وهذه الآية من القسم المقابل - ولكن لما جعلت مقابلة المؤتي الزكاة والصدقات وفيها فوائد كثيرة تنبه الناس عن غفلتهم أدرجناها في الموضوع، وكذا الآية التي بعدها وهي قوله تعالى :

يُمَحِّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦).

إن إخراج الصدقة من المال ودفعها لمستحقها بلا عوض موجب لنقصان المال،

وهو أمر معلوم محسوس لا ريب فيه ، و أن أخذ الربا وهو الفائض من الغير وإضافته إلى المال - موجب لزيادة المال ، وهو أمر معلوم محسوس يدركه كل أحد ، ولكن لما كان الأمر الأول مما يرضى به الله وأمر به عباده والثاني مما لا يرضى به ونهى عنه عباده أخبرنا الله بأن النتيجة التي تعرفونها سوف تكون معكوسة حتماً وأن الأول سوف يكون موجباً للزيادة والثاني سوف يوجب المحق والابادة ، فمن كان يعرف الله وقدرته فليعلم أن الله سيحقق ما أخبر بوقوعه وتحققه ، فلا تخلف في هذا الأمر .

ثم أخبرنا الله أنه لا ينتهي الأمر بانعكاس النتيجة فحسب وإنما يكون وراء ذلك وبال أشد وأعظم منه ، وهو أن هذا الذي يترك المحبوب لله ويفعل المبغوض له سوف يكتب عند الله من الكافرين والآثمين ، وأن الله لا يحب الكفار الأثيم ، ومن لا يحبه الله فهو من الخاسرين ولا يرى خيراً أبداً في الدنيا والآخرة .

فإذا كان عند الإنسان عشرة دراهم فتصدق بدرهم واحد فهو يوطن نفسه على أن يبقى عنده تسعة دراهم وأنه سيلقى ثواب ذلك الدرهم عند الله في الآخرة فإن ضريح هذه الآية أن الله تعالى يربي هذا الدرهم فيجد المنفق ثواب عشرة دراهم أو سبعين درهماً أو أكثر من ذلك حتى ينتهي إلى المائة ألف أو أكثر ، وأما التسعة التي بقيت عنده وقد يضاعفها الله فتصير بعد زمان قصير أضعاف ذلك العدد ، فهو قد حافظ على ماله في الدنيا وضوعف له ثواب صدقته في الآخرة ، وحافظ على ثواب بقية أعماله من صلاة وصوم وحج وغيرها ، هذا ما يكون من حال المتصدق .

ومرة يكون عند إنسان آخر عشرة دراهم فهو يريد أن يصيرها أحد عشر فيراي فيها ويجزم أنه بعد شهر سيحصل على أحد عشر درهماً وهو يرى بجهله المركب أنه لم يفعل شيئاً إلا كمن باع سلعة بأحد عشر درهماً كان قد اشتراها هو بعشرة دراهم ، ويعتقد بجهله أنه قد أدى ما عليه من صلاة وصوم وحج .

ثم إن هذا الانسان في الدنيا قد يأتي عليه زمن قصير و اذا بهذا الدرهم الذي كان يأمل إضافته الى العشرة قد ذهب في وجه باطل وسحب معه العشرة كلها أو أكثرها فلم يبق عنده شيء ، واذا طال الزمان وكثرت العشرة حتى صارت عشرين أو ثلاثين ترى هذا الرجل معذباً منكوداً يتجول في المحايكم ويقيم الدعوى على أحد المدينين لأنه لم يدفع له المبلغ في المدة المعينة ، يشتكي على الآخر لأنه أصبح مفلساً و ليس عنده شيء ، و يشتكي على ورثة الآخر لأنه مات و لم يخلف شيئاً يسد الطلب ، وهكذا هو في تجوال و خبط في القيام بشؤون حياته .

وأما في الآخرة فإنه يقوم من قبره الى حشره كما وصفه النبي ﷺ وبطنه كالبيت ترى فيه الحيات من الظاهر ، واذا رأى جزاء صلاته اذا بها قد تطهر لها بماء اشتراه من الربا وصلّاها بثوب اشتراه من الربا وأداها في دار اشترأها من الربا وكذا بالنسبة الى حجته ، واذا عرض عليه صومه فإذا به قد تقوى عليه بطعام كله من الربا ، ثم يقال له : إن الأعمال إنما تقبل من المتقين وأنت لمعاودتك على الربا معدود من الكافرين الآثمين .

هكذا يمحق الله الربا فلا راحة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة ، وليعلم المرابي أن ضم الدرهم الى الدرهم ولف الدينار مع الدينار لا ينفعه إذا كان في الدنيا متعباً وفي الآخرة معذباً .

ثم لما بين الله لعباده أنه لا يحب الكفار الآثمين عقب ذلك بأنه يحب المؤمن وأنه يحفظ له جزاءه ، فقد ذكر بعض صفات المؤمنين بقوله تعالى :

ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة و آتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٧٧) .

إن الله وعد طائفة من الناس بأن يحفظ لهم أجرهم الذي وعدهم به ، وأن

يؤمنهم في كل مكان وزمان يكون الناس في خوف ووجل ، وأن يجعلهم فرحين في كل وقت يكون الناس في حزن ، وقد وصف الله هذه الطائفة التي وعدها بهذه الامور الثلاثة وصفهم بأربع صفات ، فمن كانت فيه هذه الصفات فإن الله سيفي له بوعده ، ومن لم تكن فيه هذه الصفات فليجهد نفسه على الاتصاف بها لكي يحظى بوعده الله ويكون من الآمنين الفرحين . والصفات الأربعة هي :

١- أن يكون مؤمناً .

٢- أن يعمل الصالحات .

٣- أن يقيم الصلاة .

٤- أن يؤتي الزكاة .

فالذي يلزمنا فعلاً أن نعرف حقيقة هذه الامور الأربعة حتى نتصف بها كما يريد الله ، فإن الله قد وضع هذه الأسماء الأربعة - وهي : إيمان ، صلاح ، صلاة ، زكاة - وضمها لأشياء و مسميات معينة مشخصة وبيتها النبي ﷺ ، فعلينا أن نعرف المسميات الحقيقية التي عينها الله لهذه الأسماء بلا زيادة ولا نقصان ولا تبديل ولا تغيير . ولو لم يحصل الاتقان والضبط بهذه الصورة و إلا لا يجدي نفعاً عمل المرء المخالف لما أراه الله وإن كانت المخالفة في الأجزاء والشروط .

فإذا كان الإيمان عند الله شيئاً معيناً وجاء الوالي أو الولي الذي فرض نفسه على الناس بالقوة والفهر وهو الذي عبر الله عنه بقوله : «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت»^(١) ففسر الإيمان بشيء آخر مخالف لما جعله الله ، وقبل متابعوهم بهذا التفسير وعملوا به ، أترى أن هؤلاء يكونون من المؤمنين؟ إن هذا لا يوافق عليه المنطق ولا العقل وإن كان العقل بأضعف درجاته .

إني أذكر لك مثلاً واحداً لتعتبر به : قام عمر بن سعد يوم العاشر من المحرم بعد قتل الحسين عليه السلام ونادى بأعلى صوته بلا خوف ولا حياء : يا خيل الله اركبي

وابشري بالجنة ودوسي صدر الحسين . أفترى أن هؤلاء الذين امتثلوا أمره يصلون الى الجنة ؟

ويأتي ولي آخر من أولياء الكافرين متلبساً بلباس المسلمين لأجل التأمر عليهم ، فيزيد في الصلاة جزءاً أو ينقص جزءاً ، سواء كان الجزء لفظياً أو فعلياً و يقبل متابعوهم بهذا التصرف ، أنرى أن هذه الصلاة يقبلها الله بعد ما بين حقيقة الصلاة لرسوله وبينها الرسول لآمته ؟

فعلينا أن نعرف هذه الامور الأربعة معرفة صحيحة مأخوذة من الرسول الأعظم بطريق موصل إليها ، وأن يكون طريق التوصل مأخوذ من الرسول أيضاً وبعد هذا ينبغي أن ندقق ونحقق معاني هذه الامور الأربعة فنقول :

أما الأول - وهو الايمان - فقد عرفناه بتعاريف كثيرة وقد تقدم بعض الكلام في الآيات المتقدمة ويأتي الكثير من الكلام في الآيات إن شاء الله تعالى . قال بعض المحققين : إن الايمان الكامل الخالص هو التسليم لله و التصديق بما جاء به النبي ﷺ لساناً وقلباً على بصيرة ، مع امتثال جميع الأوامر والنواهي كما هي .

ينبغي الالتفات الى الكلمة الأخيرة وهي قوله « كما هي » . إنه شرط لازم في الامتثال ، ويلزم على كل مكلف مسلم محتاط لدينه ونفسه أن يجتهد في تحصيل أوامر النبي ﷺ ونواهيها كما هي من غير تغيير كلمة أو زيادة أو نقص ، فإنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك حتى النبي نفسه إلا بأمر من الله . فالواجب على المسلم هو العمل على طبق قول النبي أو من يخبر عن النبي بقول جازم وهو المعصوم كما تقدم . وأما الأمر الثاني - وهو عمل الصالحات - فهو ما يكون صالحاً عند الله ورسوله لا ما يراه العبد صالحاً ، أو يتظاهر به أمام الناس أنه كذلك كما تقدم من نداء عمر ابن سعد ، وقد صدر كثير من هذا القبيل ممن يشبه عمر بن سعد كنداء معاوية وأشباهه ممن هو على شاكلته بسبب الامام وقتل المؤمنين بحجة الأخذ بشارع عثمان

فهذا الأمر الثاني ينبغي أن يرجع فيه إلى النبي أو من يخبر عنه بقول جازم .
 أما الأمر الثالث - وهو إقامة الصلاة - فإنها أيضاً يلزم فيها الدقة والتحقيق ،
 وكذا في أمر الطهارة التي هي مقدمة للصلاة ، فليس للعبد أن يزيد أو ينقص
 طرفاً أو يعمل بقول من يزيد وينقص من نفسه بلا استناد للقرآن أو قول
 الرسول ﷺ . هذا تكليف من أراد التوصل للدين الصحيح ، فإنها عبادة وعبادة
 توقيفية تتوقف صحتها على أخذها من الشارع ، وأما ما يستحسنه العبد من نفسه
 فليس له أن يدخله في الصلاة .

وأما الأمر الرابع - وهو الزكاة - فقد ذكرت بعض شروطها في الآيات
 السابقة ، والمهم منها الواجبة فإن لها شروطاً وحدوداً لا ينبغي للمسلم أن يتعدها
 أو يخرقها ، ولا يجوز أخذها إلا ممن يرونها ويسندها إلى النبي ﷺ ، وأن يكون
 الراوي موثقاً بعلمه وتقواه ، لا يحتمل في حقه الكذب لا كأبي هريرة وأمثاله .

تنبيه للغافل والمتغافل

لا يخفى أن كثيراً من الناس يكون غافلاً أو أنه يتغافل عن كون هذه
 الأمور تحتاج إلى التحقيق والدقة الشديدة ، وأنه يلزم أخذها من منبع صحيح
 يتصل سنده الصحيح بالنبي . ولا يتأتى ذلك إلا بتوسط المعصوم على رأي الإمامية ،
 ولذا نرى كثيراً من الناس يعتقد أنه مؤمن كامل الإيمان ولكن في الحقيقة ليس
 كذلك دوماً يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ،^(١) .

وكذا يظن بنفسه أنه يعمل الصالحات ويقوم الصلاة ويؤتي الزكاة ، ولدى
 التحقيق تكون أعماله فاقدة للشروط وهو غافل عن ذلك .

أنا أرجو من أخي المسلم أن يعتبر بالآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن

كنتم مؤمنين (٢٧٨) فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون (٢٧٩).

لقد تقدم أن الإيمان هو إقرار باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان، فالله تعالى يخاطب الذين أقرؤا بالسنتهم «يا أيها الذين آمنوا» بالسنتهم «اتقوا الله» أي: خافوه واحذروا منه «وذروا من الربا» واتركوا بقايا ما شرطته على الناس من الربا «ان كنتم مؤمنين» بقلوبكم إيماناً حقيقياً، فإن الإقرار باللسان وحده ليس بإيمان ولا ينفع شيئاً عند الله، وإن هذه الأوامر والنواهي تكشف حقيقة المرء للناس بالامتثال وعدمه فيكون من لوازم الإيمان، فإن لم يتركه فهو غير مؤمن، وإن المؤمن هو العامل بما شرع الله من الحلال والحرام.

ثم ذكر الله ما هو أشد وأعظم عقاباً من ذلك، وهو أن أخذ الربا لا يقتصر على خروجه من الإيمان فقط بل هو أعظم من ذلك حيث قال: «فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله»، فهذا الشخص أو الجماعة أو الأمة اذا عرفوا حرمة الربا وبقوا مصرين على تعاطيه وأخذوه وأكلوه فليعلموا أنهم يستحقون حرب الله لهم. وما يظن هذا العبد الضعيف العاجز من كل شيء اذا حارب به الله والرسول والله هو القادر على كل شيء، فإما أن يسلبه جميع أمواله دفعة واحدة أو تدريجياً أو يبتليه بالأمراض والعاهات أو يسلط عليه بعض الظالمين مثله، فلا يبقى عليه باقية، فيذهب جميع ماله، وقد تذهب معه النفس والأولاد، وإن لم يكن أحد هذه الأمور فالنبي أو وصيه هو الذي يحاربه أو يقتله، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فليس له إلا النار.

ثم بعد هذا الوعيد الشديد يفتح لهم باب ملاحمته بقوله: «وان تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون»، ما أعظم رحمة الله وعفوه، فإن هذا العبد بعدما أخذ من أموال الناس الشيء الكثير قبل نزول آية التحريم لم

يأمره الله بردّ الأموال لأهلها ، بل اذا تاب الى الله يرجع له رأس ماله ، فإن الله لا يرضى للمغني أن يظلم الفقير بأخذ الربا منه ، و لا يرضى للفقير أن يظلم الغني بعدم دفع رأس ماله له اذا كان ذلك ميسوراً له ، أمّا اذا كان الفقير معسراً و لم يتمكن من ردّ مال الغني له ففي هذه الصورة أمر الله الغني أن يصبر على الفقير وهو قوله تعالى :

وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون (٢٨٠) .

لما حدد الله المرابي بذلك التهديد الرهيب و توعدّه بمحق ماله في الدنيا ودخول النار في الآخرة ثم عفا عنه فيما أخذه من الربا قبل التحريم ولم يأمره برده الى أهله ، ثم أمره بعد ذلك باسترجاع رأس ماله من المدين و ترك الربا وإلا فهو غير مؤمن ، وبعد الوصول الى هذه المرحلة صار الحكم المنزل من الله هو أن يترك الغني الربا وأن يدفع الفقير المدين أصل المال الذي أخذه من الغني وسقوط الربا عنه .

ولا ريب أن بعض الفقراء المدينين لا يمكنهم دفع المال ولا بعضه لشدة فقرهم ، و قد يتصور الغني أن مثل هذا الفقير الذي أسقط منه قسم من المال يلزمه دفع الأصل حالاً بلا تأخير ولو يبيع داره أو فرسه أو أثاث بيته .

وهنا قد دفع الله كل هذه التصورات من نفوسهم الشريرة التواقفة الى جمع المال وأمرهم بإظهار مثل هذا المدين الفقير و عدم الضغط عليه حتى يحصل المال بيده .

وقد ورد عن النبي ﷺ أن هذا الانظار يؤجر عليه صاحب المال ويكتب له ثوابه ^(١) .

ثم بعد ذلك أرشدهم الله الى شيء آخر هو خير لهم من هذا الانظار وهو قوله: «وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أي: إن كنتم تعلمون بأن هذا المدين معسراً ليس له من المال ما يفي به دينه، فتصدقوا عليه بما لكم في ذمته فهو خير لكم فإنكم قد أخذتم منه مالاً في الربا قبل هذا، وإن لم تكونوا أخذتم منه شيئاً فإنكم قد ضيقتم عليه وأزعجتموه، فإذا أنتم وهبتموه هذا المال ستدخلون عليه السرور مقابل ذلك الضيق والازعاج، أو يكون المعنى: إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتميزون بينهما، فإن التصديق بهذا المال خير من المطالبة والتضييق على المدين، فإن في التصديق نفع في الدنيا والآخرة.

ولا يخفى أن الله عز وجل قد أدخل آيات الربا في آيات الصدقة لتقابلهما في الثواب والعقاب، والاحسان والاساءة، والصدق في الايمان والكذب فيه.

ثم وجه خطاباً عاماً لجميع الخلق فقال تعالى:

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١).

فقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده كلهم بعد ما بين لهم جزاء المنتصدق وعقاب المرابي وخوفهم من اليوم الذي يجمعهم كلهم فيجازيهم على حسب أعمالهم ونياتهم وهو العالم بالسرائر والضمائر والظواهر والبواطن، وبين لهم أنهم لا يظلمون في ذلك اليوم. وأن المحسن لا ينقص من جزاء إحسانه والمسيء لا يزداد في عقابه.

وقد ذكر لكلا القسمين ما يستحقانه من الثواب والعقاب، وإن كان المرابي يقدر على تحمل هذا العقاب لأجل دربهات يجمعها في الدنيا ويتركها عند الموت لغيره فهو ممن باع آخرته بدنيا غيره، وهي الصفقة الخاسرة، أجاز الله المسلمين منها ونسأله حسن العاقبة.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية هي آخر آية نزلت من القرآن، نزل

بها جبرئيل ، وقال للنبي ﷺ : ضعها في رأس الثمانيين والمائتين من سورة البقرة .
 قال الطبرسي في مجمع البيان : قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية وإنك
 ميت وإنهم ميتون ، ^(١) قال رسول الله ﷺ : ليتني أعلم متى يكون ذلك ،
 فأنزل الله تعالى سورة النصر : « إذا جاء نصر الله والفتح » ^(٢) فكان رسول الله ﷺ
 يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزول هذه السورة ، فيقول : سبحان الله وبحمده
 أستغفر الله وأتوب إليه ، ف قيل له : إنك لم تكن تقوله قبل هذا ، فقال : أما أن
 نفسي نعت إلى ، ثم بكى بكاء شديداً ، ف قيل : يا رسول الله أدبكي من الموت
 وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : فأين هول المطلع ؟ وأين
 ضيق القبر وظلمة اللحد ؟ وأين القيامة والأهوال ؟ ^(٣) إلى آخر ما ذكره .

ثم لما أمر الله المرابين بإظهار المعسر في دفع ماله في ذمته صار ذلك المال
 حقاً مؤجلاً ، فعقبه بذكر أحكام الحقوق المؤجلة ، فذكر الآيتين في أحكام المداينة ^(٤) .
 ثم بعد ذلك ذكر آية فيها وعيد شديد لمن لم يكن سليم القلب ، بل ورد
 أنه حقيق على الله أن لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من
 حب أعداء الله ، وهي قوله تبارك وتعالى :

لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في
 أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من
 يشاء والله على كل شيء قدير (٢٨٤) .

إن الذي يظهر من بعض التفسير أن هذه الآية هي أثقل آية في القرآن

(١) الزمر : ٣٠ .

(٢) النصر : ١ .

(٣) مجمع البيان : ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٤) يعني الآية ٢٨٢ و ٢٨٣ من سورة البقرة .

و أشق تكليفاً، فقد ذكر الطبرسي في الاحتجاج رواية طويلة يرويها عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام مضمونها أنه :

جاء يهودي من يهود الشام وأخبارهم كان قد قرأ التوراة والانجيل والزبور و صحف الأنبياء و عرف دلائلهم ، جاء الى مجلس فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وفيهم علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عباس وابن مسعود وأبو سعيد الجهني فقال: يا أمة محمد ما تركتم لنبي درجة و لا مرسل فضيلة إلا نحلتموها نبيكم ، فهل تجيبوني عما أسألكم عنه؟ فكأخ القوم عنه فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: نعم ما أعطى الله نبياً درجة و لا مرسلأ فضيلة إلا وقد جمعها لمحمد صلى الله عليه وآله، وزاد تحداً على الأنبياء أضعافاً مضاعفة، فقال له اليهودي : فهل أنت مجيبي ؟ قال له: نعم سأذكر لك اليوم من فضائل رسول الله صلى الله عليه وآله ما يقر الله به عين المؤمنين ؟ ويكون فيه إزالة لشك الشاكين في فضائله.

ثم جعل اليهودي يذكر فضائل الأنبياء آدم ومن بعده، وعلي عليه السلام يبين له أن محمداً أعطى أفضل من ذلك، حتى وصل الى سليمان ، فقال اليهودي: فإن هذا سليمان قد سخرت له الرياح فسارت به في بلاده غدوها شهر ورواحها شهر، قال له علي عليه السلام: لقد كان كذلك و محمد أعطى ما هو أفضل من هذا ، إنه سري به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى مسيرة شهر ، و عرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام في أقل من ثلث ليلة حتى انتهى الى ساق العرش ، فدنا بالعلم فتدلى من الجنة رفرف أخضر ، وغشي النور بصره فرأى عظمة ربه عز وجل بفؤاده ولم يرها بعينه فكان كقاب قوسين بينه وبينها أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، فكان فيما أوحى إليه الآية التي في سورة البقرة قوله تعالى : لله ما في السماوات و ما في الارض وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير.

و كانت الآية قد عرضت على الأنبياء من لدن آدم ﷺ الى أن بعث الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ ، و عرضت على الامم فأبوا أن يقبلوها من ثقله، و قبلها رسول الله ﷺ ، و عرضها على أمته فقبلوها ، فلما رأى الله منهم القبول علم أنهم لا يطيقونها .

آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير (٢٨٥) .

وهنا تتم رواية الاحتجاج المروية عن الامام موسى بن جعفر ﷺ . فلما أن صار الى ساق العرش كرر عليه الكلام ليفهمه فقال : « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه » فأجاب الرسول ﷺ عنه وعن أمته « والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله » فقال جل ذكره : لهم الجنة والمغفرة على أن يفعلوا ذلك ، فقال النبي ﷺ : أما اذا ما فعلت ذلك بنا فـ « غفرانك ربنا واليك المصير » يعني المرجع في الآخرة . قال : فأجابه الله جل ثناؤه : قد فعلت ذلك بك وبأمتك ، ثم قال عز وجل : « أما اذا قبلت الآية بتشديدها و عظم ما فيه وقد عرضت على الامم فأبوا أن يقبلوها أو قبلتها أمتك فحق علي أن أرفعها عن أمتك . »

لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا أنت مولانا

فانصرنا على القوم الكافرين (٢٨٦).

وهنا تتم أيضاً رواية الاحتجاج .

وقال: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت ، من خير » وعليها ما اكتسبت» من شر ، فقال النبي ﷺ لما سمع ذلك : أما إذا فعلت ذلك بي وبأمّتي فزدني ، قال : سل ، قال : «ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا» قال الله عز وجل : لست او آخذ أمّتك بالنسيان والخطأ لكرامتك علي .

ثم ذكر الله ما كان على الامم السالفة من التكليف الشاق و قد رفعه عن أمّة محمد، فقال النبي ﷺ : اللهم اذا أعطيتني ذلك فزدني ، قال الله تبارك و تعالى له: سل ، قال: «ربنا ولا تحمل علينا اصرآكها حملته على الذين من قبلنا» يعني بالاصر الشدائد التي كانت على من كان قبلنا .

فأجابه الله وذكر له الآصار والشدائد التي كانت على الامم وهي كثيرة وأنه قد رفعها عن أمّته ، فقال النبي ﷺ : اذا أعطيتني ذلك كله فزدني ، قال : سل ، قال: «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» قال: قد فعلت ذلك، وهو حكيم في جميع الامم، فقال ﷺ : «واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا » قال الله عز وجل: قد فعلت ذلك بتأبّي أمّتك .

ثم قال النبي ﷺ : «فانصرنا على القوم الكافرين» قال الله جلّ اسمه : إن أمّتك في الأرض كالشامة البيضاء في الثور الأسود ، هم القادرون وهم القاهرون ، يستخدمون و لا يُستخدمون لكرامتك علي ، و حق علي أن اظهر دينك على الأديان...^(١) الى آخر الرواية وهي طويلة قد أخذنا منها موضع الحاجة المتعلق بالآيات .

وهنا ينبغي التنبيه على امور :

١- إن الذي يظهر من هذه الرواية المفصلة أن الأمّة وافقت ورضيت وقبلت

بحكم الآية ، ولكن يظهر من رواية اخرى أن بعض الامة اعترضت على الآية ولم توافق إلا بعد التأكيد من النبي ﷺ ، فقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره قال بعد ذكر الآية :

يروى عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية جاء أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف ومعدن الى النبي (ص) فقالوا : يا رسول الله كلّفنا من العمل ما لا نطيق ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يشبث في قلبه وأن له الدنيا ، فقال (ص) : فلعنكم تقولون كما قال بنو إسرائيل سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا ، فقالوا : سمعنا وأطعنا . واشتد ذلك عليهم فمكثوا في ذلك حولا فأترل الله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » فنسخت هذه الآية ما قبلها ، فقال النبي (ص) : « إن الله تجاوز عن أمته ما حدّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به »^(١) .

٢- إن الذي يستفاد من الآية : أن المؤمن الكامل الايمان هو الذي وصفه النبي ﷺ بقوله : « والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا » ، وأن الذي يجمع شروط الايمان كلها كبيرها وصغيرها هو الكلمة الأخيرة وهي قوله « سمعنا وأطعنا » .

فالمناط في تحقيق الايمان في القلب هو السمع والطاعة في جميع الأوامر التي جاء بها النبي ﷺ من الله ، فلو أن عبداً امتثل الأمر في الصلاة فأكثر منها وصرف أوقاته كلها فيها ولكنه خالف النبي في جزء من أجزائها أنقصه أو أزاده لا ينتفع بهذه الصلاة لأنه خرج عن الضابط وهو السمع والطاعة .

٣- ومن شجون الحديث ما ذكره العروسي الحويزي في تفسيره نور الثقلين عن النبي ﷺ حديث طويل وفيه خطبة الغدير وفيها : معاشر الناس ، قولوا الذي قلت لكم ، و سلموا على علي بإمرة المؤمنين وقولوا : « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » ، إن هذه الفقرة من كلام النبي ﷺ إنما تخفق فيها للسمع

ولم تتحقق فيها الطاعة اختلت الطاعة في أغلب الأوامر والنواهي ، لأن النبي ﷺ أودع أحكامها عند علي وأمره علينا ، فإذا عصينا النبي في هذه الامارة فاتنا الكثير مما هو مودع عنده ، فلم يتحقق الشرط المقوم للإيمان وهو السمع والطاعة ، فتدبر جيداً^(١) .

٤- إن المقصود من إخفاء ما في النفس هو ما يعزم عليه العبد من المعاصي ويفعله ولكن لم يظهره للناس ، وليس المراد منه ما يختلج في النفس من الوسوس الشيطانية ثم تزول في حينها ، فإن هذه الهواجس النفسانية الطارئة على النفس من غير إرادة من الانسان مما لا يعاقب عليه كما ورد في الأخبار ويؤيده حكم العقل ، حيث إن هذا غير اختياري للانسان ولا يمكنه دفعه عن نفسه ، فالأقرب والأولى في معنى الآية أن يكون المقصود ممن يخفي ما في نفسه وهو المنافق الذي يخالف ظاهره باطنه ، وهم الذين أظهروا ما في أنفسهم بعد رحلة النبي ﷺ الى الله فانقلبوا على أعقابهم ، فإن الله يحاسبهم على ما كانوا يخفونه حين وجود النبي وهم عازمون على إظهاره بعده .

فالآية واردة في مقام التهديد والترهيب والتخويف ، فإنه تعالى بعد ما بين لنا جملة من أحكام الصدقة والربا والدين والاشهاد عليه وأداء الشهادة ، عرف أهل القلوب المريضة الذين يظنون أن الاعتراف باللسان والانكار بالقلب كاف في المقام ، فبيّن الله لهم أن هذا لا يفيدهم شيئاً وأن الله يحاسبهم على ما انطوت عليه قلوبهم من نياتهم السيئة ونواياهم الخبيثة المخالفة لظواهر ألسنتهم ولأوامر الله ورسوله ، فهذه المحاسبة على إخفاء ما في النفس بالنسبة الى الشر والعصيان والتمرد والطغيان .

أما بالنسبة الى ذوي السرائر الطيبة والنفوس الطاهرة الذين اذا بلغهم النبي ﷺ أحكام الله قالوا : سمعنا وأطعنا فإنها بشارة لهم كما جاءت الروايات

أن من ينوي الحسنة اذا لم يعملها كتبت له واحدة و اذا عملها كتبت له بعشر حسنات (١).

وعلى ما ذكر من معنى الاخفاء فلا وجه للقول بأن الآية منسوخة كما ذهب إليه البعض بقوله «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» لأنه لم يتحقق التكليف بغير الوسع والطاقة حتى ينسخ ، نعم أن الآية الثانية بيّنت لنا أن الشيء الذي يخفيه العبد أو يخفيه المنافق إنما هو من الأمور المقدورة له وليس من الخارج عن وسعته وطاقته.

٥- لا يخفى على المسلم الغيور البصير أن النبي ﷺ قد جعل خاتمة هذه الأمور التي طلبها من الله أهمها وأعظمها نفعاً للإسلام والمسلمين وهو قوله : «أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» الكافر هو الذي لا يعتقد بهذه الصفات التي وصف الله المؤمنين ، فهو لا يعتقد بالله على حد اعتقاد المؤمن الموحد المعتقد بصفات الله الثبوتية و السلبية، فإيمان المؤمن بالله معناه الاعتقاد القلبي بأن الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد، وأنه هو الخالق الرازق المحيي المميت الذي يبعث الخلق بعد الموت فيجازيهم على أعمالهم، وكذا الإيمان بالملائكة الذي هو من الإيمان بالغيب حيث جعله من صفات المؤمن المذكورة في أول السورة، وكذا الإيمان بالكتب ، وآخر الكتب القرآن الكريم .

وقد ذكرنا معنى الإيمان به في الآية (١٧٧) والإيمان بالرسل الذين أخبرنا بهم النبي ﷺ وجاء ذكرهم في القرآن ، وهكذا بالنسبة الى سائر الأمور الاعتقادية ، فإن الكافر يخالفه فيها .

وكذا في الواجبات العملية التي هي من شروط الاسلام والإيمان ، فإن الكافر لا يعترف بها ، فكلا الفريقين مختلفان في العقائد وفي الأعمال، وكل فريق يريد أن ينشر مبدأه في الأرض فلا بد من وقوع التخاصم بين الجانبين ، وبالنتيجة تكون الغلبة للمنتصر وتكون له العزة ويكون هو المتصرف في الأرض حتى في نفوس الجانب الآخر وأموالهم وعقائدهم .

إِلَّا أَنْ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا كَانُوا مُلْزَمِينَ بِأُمُورٍ مُعَيَّنَةٍ مُنْزَلَةٍ عَلَى نَبِيِّهِمْ مِنْ اللَّهِ فَهُمْ مُنْزَهُونَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِعْتِدَاءِ، وَمَعَ ذَلِكَ هُمْ مُكَلَّفُونَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَفْعِ مَادَّةِ الْفُسَادِ مِنَ الْأَرْضِ، وَمُكَلَّفُونَ بِإِرْشَادِ الضَّالِّ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا يُمْكِنُهُمُ الْقِيَامُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ مَعَ كَوْنِ الْغَلْبَةِ وَالْقُوَّةِ وَالشُّوْكَةِ لِلْكَافِرِينَ .

وَلَأَجْلِ كُلِّ هَذِهِ الْفَوَائِدِ وَلَأَجْلِ التَّمَكُّنِ مِنَ الْقِيَامِ بِوَأَجِبِهِمْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ خَاتِمَةَ طُلُبَاتِهِ مِنَ اللَّهِ قَوْلُهُ : «أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا كَلَّفَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ وَلَمْ يَتِمَّكَنِ الْعَبْدُ مِنَ الْقِيَامِ بِهَا إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَمُسَاعَدَتِهِ لَكُنْ الْأُمُورُ كُلُّهَا بِيَدِهِ قَدْ تَمَّ النَّبِيُّ ﷺ الْإِعْتِرَافَ مِنْ نَفْسِهِ وَعَنْ أُمَّتِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ فَقَالَ : «أَنْتَ مَوْلَانَا» ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ الْمَعُونَةَ وَالنَّصْرَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

وَحَيْثُ إِنَّ النَّصْرَ عَلَى الْعَدُوِّ تَارَةً يَكُونُ بِالْغَلْبَةِ عَلَيْهِ فِي الْحَرْبِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِظُهُورِ الْقُوَّةِ وَالشُّوْكَةِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ تَنْفِيزِ الْأَوَامِرِ الْحَقِّقَةِ وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ وَالضَّرْبِ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَرُدِّعِهِ عَنِ الظُّلْمِ وَنَصْرَةِ الْمَظْلُومِ وَالْأَخْذَ لَهُ بِحَقِّهِ .
وَبَعْدَ مَا عُرِفَتْ ذَلِكَ انْظُرْ إِلَى جَوَابِ اللَّهِ لِهَذَا الطَّلَبِ وَتَأَمَّلْ فِيهِ جَيِّدًا فَإِنَّكَ سَتَعْرِفُ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى نَبِيَّهِ النَّصْرَ بِجَمِيعِ الْمَعَانِي، فَقَدْ قَالَ لَهُ فِي الْجَوَابِ: إِنَّ أَمَّتَكَ فِي الْأَرْضِ كَالشَّامَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثُّورِ الْأَسْوَدِ، وَهُمْ الْقَادِرُونَ، وَهُمْ الْقَاهِرُونَ يَسْتَعْدِمُونَ وَلَا يُسْتَعْدَمُونَ لِكِرَامَتِكَ عَلَيَّ، وَحَقِّ عَلَيَّ أَنْ أَظْهَرَ دِينَكَ عَلَى الْأَدْيَانِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا دِينَ إِلَّا دِينَكَ، أَوْ يُؤَدُّونَ إِلَى أَهْلِ دِينِكَ الْجَزِيَّةَ ^(١) .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ، انْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكَ لِتَعْرِفَ مَا أُعْطِيَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي أُمَّتِهِ، إِنَّهُ وَعَدَهُ وَعَدًا مُطْلَقًا غَيْرَ مُعَلَّقٍ عَلَى شَرْطٍ أَوْ مُقَيَّدٍ بِقَيْدٍ، وَعَدَهُ

أن يجعل أمته على قلتهم قادرين على نشر تعاليم الاسلام وبث دينه في عواصم الكفر، وعده أن يجعل أمته قاهرة لسائر الامم وإن كانوا أضعافهم في العدة، والعدد وعده أن يبقى دينه في شرق الأرض وغربها، وعده بأن تؤدي سائر الامم الى أمته الجزية، فهل تدري من هم أمة محمد؟ إنهم المسلمون الذين يقولون كما يقول محمد ﷺ: «أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

وكان ﷺ لا يقبل هدية من كافر، أما الذي يطأطئ رأسه للكافر ويخدمه بنفسه وبسائر من معه، فهل يعد نفسه من المؤمنين ويريد من الله النصر والتأييد؟ وبعد هذا اوجه الخطاب والنداء الى ملوك ورؤساء الحكومات الاسلامية فأقول: ما هذا الضعف في الأمة الاسلامية؟ وما هذا الوهن؟ وما هذا الذل؟ وما هذا التلاعب بها من الكافرين أعداء الاسلام؟

إن أسباب ذلك كثيرة، فمنها: التنافس بين الامم الاسلامية وتقاطع بعضها لبعض، وهذا الشتم والقذف من بعضها لبعض، وهذا الخضوع من بعضها للحكومات الأجنبية الكافرة.

ومن الأسباب: التجاهر بهذه المنكرات من الخمر والميسر والربا والرشوة والزنا وأخذ أموال الناس بالباطل. فهل ترى مع هذه الأعمال إسلاماً صحيحاً؟ إن المسؤولية في حدوث هذه المنكرات إنما هي على الملوك والرؤساء والمالكين لأزمة الحكم، والمسكين بكراسي الأمر والنهي، فلو أنهم أطاعوا الله والرسول بقدر إطاعتهم للكافر المستعمر لأنجز لهم الله وعده ولجعل لهم الأمر والنهي، وسوف يأتي من الآيات الكثيرة الدالة على أن من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فهو من الكافرين.

خاتمة

في تعيين الطريق الذي يتحقق به السمع والطاعة
لقد تحقق مما تقدم أن صفات المؤمنين التي ذكرها النبي ﷺ تتحقق كلها

٢٣٧ ————— في تعيين الطريق الذي يتحقق به السمع و الطاعة
في السمع والطاعة ، و إنما يتحقق السمع والطاعة بالنسبة الى الأمر الصادر من الله
وهو الذي يريد الله من العبد، وأما اذا كان العبد هو الذي يختار بعض الأفعال الموافقة
لهواه ويفعلها ثم يقول كما أخبر الله عنه : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها
آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون،^(١)
فهذا لا يشر سوى الوبال .

فإن الأمر أول ما ينزل من السماء الى الأرض إنما ينزل على الرسول فيكون
الرسول هو المكلف بإثبات كون الخبر الواصل إليه من الله، فالملك الذي ينزل بالوحي
أول الأمر يحتاج الى معجزة تثبت كونه مبعوثاً من الله وإلا فالنبي يحتمل كون هذا
الذي جاءه شيطاناً يلقي إليه هذا الكلام ، ولا يتيقن أنه ملك إلا بالمعجزة ، والنبي
إنما يكون مصداقاً عند أمته بالمعجزة أيضاً . وبعد هاتين المرحلتين تكون الأحكام
التي يأمر بها النبي متيقنة أنها من الله. فكل أمر أو نهى سمعه المكلف من النبي يقطع
أنه أمر الله ونهيه .

أما بعد ارتحال النبي ﷺ من الدنيا فالأحكام المذكورة في الآيات القرآنية
اذا كانت من المحكمات يأخذ بها المكلف، وبعد ذلك فالأحكام التي تكون متواترة
عن النبي يرويهما كل الصحابة أو جلهم .

وأما غير ذلك مما يحتاجه المكلف أو يبتلى به من الأمور التي تحدث
تدرجاً فمن أين يأخذ حكمها ؟ وهنا لابد من الرجوع الى أعلم الأصحاب بآيات
القرآن وبسنة النبي بشرط أن يكون موثقاً في النفوس، مأموناً من الكذب ومن
الخطأ والسهو والنسيان ، هذا هو أقرب الطرق الى الوصول لأحكام الله الحقيقية ،
و لقد دلت الآيات والأخبار على أن المتصف بهذه الصفات هو علي بن أبي
طالب عليه السلام .

فقد روى الشيخ العلامة فقيه الحرمين مفتي العراقين الكنجي الشافعي في

كتابه كفاية الطالب، رواية تنص على أن علياً عليه السلام عنده من القرآن علم الظاهر والباطن وفيما يلي نصها :

عن عبدالله بن مسعود قال : إن القرآن انزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وأن علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن^(١). وحكى في حلية الأولياء لأبي نعيم مثله^(٢).

ثم ذكر الكنجي بعد هذا عن سلمان - رضي الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله لكل نبي وصي فمن وصيك ؟ فسكت عني ، فلما كان بعد رأي قال : يا سلمان ، فأسرعت إليه ، فقلت : لبيك ، قال : تعلم من وصي موسى ؟ قلت : نعم يوشع بن نون ، قال : لم ؟ قلت : لأنه كان أعلمهم يومئذ ، قال : فإن وصيي وموضع سري وخير من أترك بعدي ينجز عدتي ويقضي ديني علي بن أبي طالب^(٣).

و حكي عن الطبراني في معجمه الكبير في ترجمة أبي سعيد عن سلمان مثله^(٤).

(١) كفاية الطالب : ص ٢٩٢ ب ٧٤ .

(٢) حلية الأولياء : ج ١ ص ٦٥ .

(٣) كفاية الطالب : ص ٢٩٢ ب ٧٤ .

(٤) راجع مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١١٣ .

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب (٧).

لقد أطال المفسرون الكلام فى هذه الآية الشريفة، و كثر الخلاف بينهم من جهات شتى، فمنها: كلامهم فى معنى المحكم والمتشابه. ومنها: كلامهم فى معنى التأويل. ومنها: كلامهم فى معنى كون المحكمات ام الكتاب. ومنها: كلامهم فى أن الواد فى قوله تعالى: «والراسخون فى العلم» هل أنها واد العطف أو أنها للاستئناف. و ينبغى لنا قبل الكلام فى هذه الامور أن نعرف أن هذه الآية هل هى من المحكمات أو أنها من المتشابهات؟ ومما لا ريب فيه أن الآية الشريفة إنما هى فى مقام أحكام وإفهام لافى مقام إجمال وإبهام، فالقول بأنها من المتشابهات لا يناسب المقام، فإن الآية نزلت لبيان أن الآيات القرآنية منها محكمات و منها متشابهات،

ولبيان أن الذي في قلبه زيغ يتعلق بالمتشابهات لأجل فتنة الناس ولأجل تأويلها لما يناسب هواه وأغراضه الفاسدة ، ولبيان تأويل القرآن وإنما يعلمه الله والراسخون في العلم ، ومن أراد تأويله الصحيح ينبغي له الرجوع الى الراسخين في العلم . والآية تريد إفهام هذه الامور لعامة الناس .

فلو قلنا : إن الآية متشابهة لا يمكننا أن نحتج بها على من في قلبه زيغ ، فإنه يتشبه بما يوافق هواه ، فالكلام يقع في امور :

الأول : في معرفة المحكم والمتشابه . أما المحكم فقد اتفق المفسرون بأنه الذي احكمت ألفاظه بأن حفظت من الاجمال والاشتباه و علم المراد منه ، فإن عبارات المفسرين وإن اختلفت في تعريفه إلا أن المعنى واحد .

وأما المتشابهات فقد عرفت أنها المفسرون بتعاريف مختلفة ، وأخصر عبارة جامعة في تعريفها هي قول الامام الصادق عليه السلام حيث سئل عن المحكم والمتشابه فقال : المحكم ما يعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله ^(١) .

ولذا فسرنا بعض أكابر المفسرين بقوله «متشابهات» محتملات لا يعلم المراد منها إلا بالرجوع الى الراسخين في العلم ، فإن أغلب المفسرين يرجع تفسيرهم للمتشابهات الى هذا المعنى وهو عدم العلم بالمراد من ظاهر اللفظ ، ولا يعرف المراد إلا بعد البحث والتنقيب أو الرجوع الى الراسخين في العلم ^(٢) .

الأمر الثاني : في معنى الام التي وصف الله بها المحكمات في قوله : «منه آيات محكمات هن أم الكتاب» . فقد اتفق المفسرون على أن الام هنا بمعنى الأصل الذي يرجع إليه الاشتباه ^(٣) .

فقد تحصل مما ذكر أن الآيات القرآنية منها محكمات ومنها متشابهات وأن المتشابهات لا يجوز الأخذ بظاهرها إلا بعد إرجاعها الى المحكمات ، وأن

(١) تفسير البرهان : ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) تفسير المراغي : ج ٣ ص ١٠٠ .

(٣) مجمع البيان : ج ٢ ص ٤٠٩ .

إرجاع المتشابه الى المحكم لا يتمكن منه إلا الراسخون في العلم ، و حيث إن سائر الناس لا يمكنهم الأخذ من الله فيلزمهم أن يأخذوا من الراسخين في العلم المستمدين من الله بواسطة النبي ﷺ.

الأمر الثالث : هل أن قوله تعالى ، « والراسخون في العلم » معطوف على لفظ الجلالة أو أن الواو للاستئناف ؟

لقد ذهب أكثر مفسري الامامية الى القول بالعطف ^(١) ، وذهب أكثر المفسرين من غيرهم القول بالاستئناف ^(٢) .

أما مفسرو غيرهم لما كان من رأيهم ومبدئهم عدم وجود رجال متصفين بهذه الصفة - أي لا يوجد في أمة محمد ﷺ من يكون عالماً بجميع العلوم وهو مع ذلك معصوم من كل عيب يكون في البشر - اختاروا القول بالاستئناف ، إذ القول بالعطف يستلزم وجود الراسخين ، وهم لا يرون من يصلح لهذا المنصب في أمة محمد ﷺ .

وأما القائلين بالعطف فإنهم يرون وجوب وجود هؤلاء الأشخاص من الراسخين في العلم ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والعقل والوجدان . فقولهم بالعطف الموافق لاصول القواعد العربية لا يلزمهم منه محذور .

وهنا ينبغي التنبيه على امور :

الأول : أن اتباع المتشابه أمر اختياري يختاره من ساءت نيته وخبث سريرته ولذا ذمه الله تعالى ووصفه بأنه زائف القلب وأنه يمكن الوصول الى المعنى المراد منه بالبحث والتنقيب و الرجوع الى الراسخين ، ويدل عليه تعريف الامام الصادق ﷺ للمتشابه بقوله : « ما اشتبه على جاهله » ومثله جملة من الأخبار . ويدل عليه أيضاً قول الامام الرضا ﷺ : من رد متشابه القرآن الى محكمه هدى الى صراط مستقيم ^(٣) فإنه يدل على أن الرد أمر ممكن لكل أحد وذلك

(٢٩١) مجمع البيان : ج ١ ص ٤١٠ .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٣١٨ ح ٤٤ .

بالرجوع الى الراسخين .

الأمر الثاني : يدلّ على أنّ الواو للعطف الروايات الكثيرة نذكر جملة منها هنا :

فمنها : ما ذكره العروسي في تفسيره نور الثقلين عن الامام الصادق عليه السلام قوله تعالى : «هو الذي أنزل» الى أن يقول عليه السلام في قوله تعالى : «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» : أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام^(١) .

ومنها : في نفس الكتاب ما يحكيه عن الاحتجاج للطوسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه :

ثم إن الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام :

فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل ، وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه ولطف حسه وصحّ تمييزه ممن شرح الله صدره للاسلام ، وقسماً لا يعرفه إلا الله وأنبيأؤه والراسخون في العلم . وإنما فعل ذلك لثلاث يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب ما لم يجعله الله لهم وليقودهم الاضطرار الى الائتمار لمن ولّاه أمرهم ، فاستكبروا عن طاعته تعزّزاً وافتراءً على الله واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعائد الله جلّ اسمه ورسوله ﷺ^(٢) .

فالرواية ظاهرة في أنّ قوله : «والراسخون» معطوف على الله ، ويستفاد من الرواية أيضاً الجواب عن السؤال عن سبب اشتغال الكتاب على المتشابه ، فإن الظلمة وزائفي القلوب اذا عرفوا جميع ما في القرآن من العلوم بعبارات محكمة تزداد فنونهم في فتنة الناس فيكونون كلهم أبالسة .

ومنها : ما في الكتاب نفسه عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل وفيه يقول :

(١) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٣١٢ ح ١٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ١ ص ٣١٣ ح ١٨ .

وقد جعل الله للعلم أهلاً وفرض على العباد طاعتهم بقوله : «و ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ، فإنها صريحة في كون الواو عاطفة»^(١) .

ومنها : ما ذكره العلامة المجلسي في البحار باب ما ورد عن أمير المؤمنين في أصناف آيات القرآن ، وهو باب مفصل يذكر فيه الامام عليه السلام أنواعاً من العلوم ، و مما ذكر فيه أنواعاً من المتشابهات ، الى أن وصل الى ذكر طبقات المؤمنين في درجات الايمان وأنه قابل للزيادة والنقصان ، وأسند ذلك الى الآيات القرآنية ثم قال عليه السلام :

«ولن يؤمن بالله إلا من آمن برسوله وحججه في أرضه، قال الله تعالى : «من يطع الرسول فقد أطاع الله»^(٢) .

و ما كان الله عز وجل ليجعل لجوارح الانسان إماماً في جسده ينفي عنها الشكوك ، ويثبت لها اليقين وهو القلب ، و يهمل ذلك في الحجج وهو قوله تعالى : «فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين»^(٣) وقال : «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»^(٤) و قال تعالى : «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير»^(٥) وقال سبحانه : «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا»^(٦) .

ثم فرض الله على الأمة طاعة ولادة أمره القويم بدينه كما فرض عليهم طاعة رسوله ﷺ فقال : «أطيعوا الله و أطيعوا الرسول واولي الأمر منكم»^(٧) .

ثم بيّن محل ولادة أمره من أهل العلم بتأويل كتابه فقال عز وجل : «و لو رددوا الى الرسول و الى اولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه

(١) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٣١٥ ح ٢٥ .

(٢) النساء : ٨٠ .

(٣) الانعام : ١٤٩ .

(٤) النساء : ١٦٥ .

(٥) المائدة : ١٩ .

(٦) السجدة : ٢٤ .

(٧) النساء : ٥٩ .

منهم ، ^(١) وعجز كل أحد من الناس من معرفة تأويل كتابه غيرهم ، لأنهم هم الراسخون في العلم المأمونون على تأويل التنزيل ، قال تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » الى آخر الآية . وقال سبحانه : بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم ، ^(٢) ^(٣) .

فهذه العبارة من أمير المؤمنين عليه السلام صريحة في كون الواو للعطف ، وإنما ذكرنا العبارة بطولها لتكون حجة على من لم يعتبر ضرورة وجود الامام المؤمن على العلوم الالهية ، ويدعي أن النبي أهمل أمته ولم يعين لهم من يرشدهم لأحكام دينهم .

أما الامامية فيقررون ويعترفون بأن النبي صلى الله عليه وآله قد عين لامته اثني عشر إماماً ليدلوهم على أحكام دينهم ، وهؤلاء عندهم جميع العلوم الدنيوية والاخرية . ويدل على ذلك من الكتاب ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام من الآيات في عباراته المتقدمة .

وأما ما يدل عليه من السنة فالأخبار الدالة على أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو أعلم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كثيرة ، وقد ذكرنا جملة منها في تفسير آخر آية من سورة البقرة قبل هذه الآية في ص ٢٣٨ ، ونذكر هنا روايات آخر تدل على كون علي عليه السلام هو أعلم الأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله .

منها : ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره الكبير عند الكلام في قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » ^(٤) وعند التعرض لذكر الحواس الباطنة قال : ومنها الذكاء ، قال علي عليه السلام : علمني رسول الله (ص) ألف

(١) النساء : ٨٣ .

(٢) العنكبوت : ٤٩ .

(٣) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٥٧ ب ١٢٨ ح ١ .

(٤) آل عمران : ٣٣ .

باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب. فإذا كان حال الولي هكذا فكيف حال النبي (ص) ؟ ^(١) انتهى كلام الفخر الرازي .

وقد ذكر هذه الرواية كثير من المفسرين فينبغي للإنسان الفاهم أن يتأمل ويتدبر فيما يلقي به ربه من العمل ، هل يأخذ من هذا العالم أو يأخذه ممن لا علم له ؟ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ^(٢) .

ثم إن الفخر الرازي قد ذكر تحقيقاً دقيقاً لطيفاً في هذه الآية سوف يذكر عند الوصول إليها فإنه نافع لمن كان له قلب سليم .

ومنها : ما في الاستيعاب ، روى بسنده عن عبدالله بن العباس قال : والله لقد اعطى علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم ، وإيم الله لقد شار ككم في العشر العاشر ^(٣) .

ومنها : ما ذكره المناوي في فيض القدير ، قال النبي (ص) : علي عيبة علمي . والعيبة - بفتح العين المهملة - : ما تجعل فيه الثياب كالصندوق ، والعيبة من الرجل : موضع سره .

وقال في الشرح : قال ابن دريد : هذا من كلامه الموجز الذي لم يسبق ضرب المثل به في إرادة اختصاصه بالأمور الباطنة التي لا يطلع عليها أحد غيره ، و ذلك غاية في مدح علي عليه السلام ، فقد كانت ضمائر أعدائه منطوية على اعتقاد تعظيمه ^(٤) .

فداء لذوى الالباب

أيها المسلم اللبيب المنصف ، هل سمعت أن النبي علم أحداً من أصحابه ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب ، فصار عدد أبواب العلم لدى الامام باصطلاح

(١) تفسير الرازي : ج ٨ ص ٢١ .

(٢) الزمر : ٩ .

(٣) الاستيعاب (المطبوع بهامش الاصابة) : ج ٣ ص ٤٠ .

(٤) فيض القدير : ج ٤ ص ٣٥٦ .

العصر الحاضر مليون باباً ؟

يا ذوي الأبواب، أتركون هذه الأبواب المفتحة المنيرة اللوائي يتفجر منها العلم والحكمة ، و تتمسكون بباب مرتج ليس وراءه إلا الظلمة ؟ فتمسكوا بهذه الأبواب من قبل أن يضرب بينها وبينكم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

وهنا نذكر لك نبذة من كلام المؤرخ الصدوق المسعودي في كتابه «إثبات الوصية» حيث قال:

واختلف المهاجرون والأنصار ، فقالت الأنصار : منّا أمير و منكم أمير . فقال قوم من المهاجرين : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : الخلافة في قريش . فسلمت الأنصار لقريش بعد أن ديس سعد بن عباد ووطأوا بطنه ، و بايع عمر بن الخطاب أبا بكر و صفق على يديه ، ثم بايعة قوم ممن قدم المدينة ذلك الوقت من الأعراب والمؤلفة قلوبهم، وتابعهم على ذلك غيرهم ، واتصل الخبر بأمر المؤمنين بعد فراغه من غسل رسول الله ﷺ وتحنيطه وتكفينه وتجهيزه ودفنه بعد الصلاة عليه مع من حضر من بني هاشم وقوم من الصحابة كسلمان وأبي ذر والمقداد وعمار وحذيفة وأبي بن كعب وجماعة نحو أربعين رجلاً ، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن كانت الإمامة في قريش فأنا أحقّ قريش بها ، وإن لم تكن في قريش فالأنصار على دعواهم. ثم اعتزلهم ودخل بيته فأقام فيه ومن اتبعه من المسلمين وقال: إن لي في خمسة من النبيين أسوة : نوح إذ قال : «إني مغلوب فانتصر»^(١)، وإبراهيم إذ قال : «وأعتزلكم وما تدعون من دون الله»^(٢)، ولوط إذ قال: «لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد»^(٣) ، وموسى إذ قال : «ففررت منكم لما

(٢) مريم : ٤٨ .

(١) القمر : ١٠ .

(٣) هود : ٨٠ .

خفتكم،^(١) وهارون إذ قال : «إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني»^(٢) .

ثم أَلَفَ ﷺ القرآن وخرج إلى الناس وقد حمله في إزار معه وهو ينط من تحته ، فقال لهم : هذا كتاب الله قد أَلَفْتُهُ كما أمرني وأوصاني رسول الله ﷺ كما أنزل ، فقال له بعضهم : اتركه وامض ، فقال لهم : «إن رسول الله ﷺ قال : إني مخلف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فإن قبلتموه فاقبلوني معه أحكم بينكم بما فيه من أحكام الله ، فقالوا : لا حاجة لنا فيه ولا فيك ، فانصرف به معك لا تفارقه ولا يفارقك ، فانصرف عنهم .

فأقام أمير المؤمنين ﷺ ومن معه من شيعته في منزله بما عهد إليه رسول الله ﷺ ، فتوجهوا إلى منزله فهجموا عليه وأحرقوا بابه واستخرجوه منه كرهاً^(٣) .

و بعد هذا نقول لمن يجعل الواو للاستئناف : «إن الآيات المتشابهات في القرآن كثيرة ، وهي تتعلق بالعبادات والمعاملات وغيرها ، وإن كثيراً من الناس يحتاجون إليها ، فعلى من يعولون ولمن يلجأون؟ وإن زائفي القلوب كل يفسرها بما يطابق هواه وما تشتهي نفسه ، ويلزم على المؤمنين أن يتركوها على ما هي عليه من الاجمال ، فما الفائدة إذاً من إنزالها؟ وما الذي يستفاد منها سوى تثبيت ذوي القلوب الزائفة بها ، وهذا القول مخالف للعقل فلا ينبغي أن يصار إليه. وأما الدليل على ما يعتقد القائلون بوجوب وجود عالم بجميع علوم النبي عقلاً فإن دليلهم من العقل هو أن الأمة كما أنها محتاجة إلى الرسل في طاعة الله كذلك محتاجة إلى الوصي والخليفة ، وليس اضطرارهم مختصاً بوقت دون آخر ، ولا بحالة دون أخرى ، ولا يكفي وجود الكتاب والسنة في رفع الحاجة بين

(١) الشعراء : ٢١ .

(٢) الاعراف : ١٥٠ .

(٣) اثبات الوصية : ص ١٢٣

الامة ، فإن كل طائفة تستند الى الظاهر من بعض الآيات على مبدئها الذي ذهبت إليه . فالكتاب وحده لا يكفي لرفع التخاصم لما عرفت من أن فيه المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمجمل والمؤول وغيرها من الأقسام ، والسنة كذلك فيها المحكم والمتشابه وغيرها مع جهل أكثر الناس بمعاني الألفاظ ونشئت أهوائهم وزينغ قلوبهم ، فلا ينكر ضرورة وجود الوصي إلا مكابر .

ثم إن عقيدة كل مسلم : أن الله أوجب على نفسه اللطف بعباده ، ولا ريب أن وجود الامام العالم في كل زمان لطف ، إذ بوجوده يجتمع الشمل وينتصف من القوي للضعيف ، ومن الغني للمفقر ، ويرتدع الجاهل ويتيقظ الغافل ، وبدونه تعطل أكثر أحكام الدين وأركان الاسلام .

واعتقادنا : أن الله لا يفعل بعباده إلا ما هو الأصلح لهم ، ولا ريب أن نصب الامام العالم العادل هو الأصلح ، إذ بوجوده ينتظم أمر المعاش والمعاد والدين والدنيا ، وبدونه تختل جميع هذه الامور ويفسد نظام الدين والدنيا .

ثم إنه قد اتفق أكثر علماء الامة بأن عادة الله قد جرت في جميع الأنبياء من آدم عليه السلام الى محمد صلوات الله عليه أنه لم يقبض نبياً حتى يعين له خليفة ووصياً يقوم مقامه في إرشاد امته وتعليمهم أحكامه . وجرت عادة نبينا صلوات الله عليه أنه متى سافر عين خليفة في المدينة . وعلى ذلك جرت الرؤساء والوزراء والولاة والتجار وسائر الناس . فكيف يمكن لعافل أن ينسب لأشرف النبيين وأفضل المرسلين تخلفه عن هذه السنة مع أن شريعته باقية الى يوم القيامة ؟

ولا يمكن أن يقال : إن الامة هي التي تعين خليفة يقوم بهذه الامور لأن الذي يقوم مقام النبي يلزمه أن يكون عالماً بجميع علوم النبي بحيث لا تعسر عليه مسألة من امور الدين والدنيا ، وهذا الشخص لا يعرفه ولا يشخصه إلا الله ورسوله . ولو أغضينا عن هذا فكيف يمكن أن يؤخذ آراء جميع الامة مع تفرقها في البلاد وبعدها الشاسع بعضها عن بعض ؟ ومن الذي يتولى جمع آرائهم ؟ ولو فرضنا

إمكان ذلك فكيف يمكن اتفاقها على رجل واحد جامع للمصفات المؤهلة له لهذا المنصب الجليل مع ما نرى من اختلاف أهل بلدة واحدة على اختيار رئيس للبلد أو اختيار مختار للمحلة ؟ وقد ينجر - بل وكثيراً ما ينجر - ذلك الى التخاصم والشتم أو التضارب بالأيدي أو بالسلاح القتال فيذهب ضحية الاختيار والانتخاب جملة من النفوس. هذه في اختيار المختار فكيف في اختيار الرئيس لعامة المسلمين في أقطار الأرض شرقها وغربها سهلها وجبلها برها وبحرها بدوها وحضرها ؟

ثم إن الذي يجعل رئيساً عاماً وهو المعبر عنه بالامام لا يمكن أن يكون من سائر الناس بل يلزم أن يكون معصوماً من سائر العيوب التي تكون في الناس من قبيل الخطأ والنسيان، وعدم معرفته ببعض الأحكام، أو الميل في الحكم الى من يحبه من قرابة أو صديق، بل وإن العصمة لما كانت من الصفات الباطنية فلذا لا يطلع عليها إلا العالم بالسرائر والضمائر .

ولا يمكن أن يعين الامام إلا الله تعالى، وليس في العالم كله من يمكن أن يقال بعصمته وجامعيته للمعلوم وإرثه لعلوم النبي غير علي بن أبي طالب وباقي الأئمة من ذريته عليهم السلام ، و يكفينا في هذا المقام رواية واحدة يرونها أحد العلماء فإنها تكفي لطالب الحق .

ذكر سماحة العلامة الكبير المجاهد الشيخ محمد مرعي الأمين الأنطاكي في كتابه « لماذا اخترت مذهب الشيعة » تحت عنوان : قول النبي صلى الله عليه وآله : هذا علي أخي وخليفتي ووارث علمي، قال : روى الترمذي الحنفي في الكوكب الدرّي عن عمران قال : لما عقد رسول الله (ص) المؤاخاة بين أصحابه قال : هذا علي أخي في الدنيا والآخرة وخليفتي في أهلي ووصيي في امتي ووارث علمي وقاضي ديني ، ماله مني ومالي منه ، نفعه نفعي وضره ضري ، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني .

وأخرج القندوزي الحنفي في ينابيعه ص ٣٥١ نحوه ^(١) انتهى كلامه .

و عن القندوزي الحنفي في ينابيعه عن ابن المغازلي الشافعي بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : لما صرت بين يدي ربي كلفني و ناجاني فما علمت شيئاً إلا علمته علماً فهو باب علمي ^(٢) .

وقد ذكرنا أن الأدلة على معتقد من يقول بإمامة الأئمة الاثني عشر هي :

الكتاب والسنة والعقل والوجدان .

وقد تقدم ذكر الكتاب والسنة والعقل ، وبقي الوجدان وهو ما يراه أهل العلم والفهم من العلوم الصادرة منهم على كثرتها وتنوعها ، فإن لكل واحد من الأئمة عليه السلام ما نقله المؤرخون عنهم من أنواع العلوم ، وقد نقلوا عنهم من فنون العلم مأملاً بطون الكتب والدفاتر ، وألفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة ، فإن المنصف اذا نظر الى نهج البلاغة وعرف ما فيه من الكلام في أنواع العلوم يكفيه ذلك إن كان من أهل العلم ، أما اذا كان لا يعرف شيئاً من معاني خطبه ورسائله وحكمه المذكورة في النهج فلا عتب عليه ولا يفيدنا اعترافه .

وكذا بالنسبة الى بقية الأئمة عليهم السلام فليُنظر طالب الرشد تراجمهم وما نقل

عنهم من العلوم ، منها توحيد المفضل والملحق به المسمى بالاهلية لجهة .

يا طالب الرشد ، انظر الى كتاب قضاء أمير المؤمنين عليه السلام وما فيه من عجائب القضايا التي تبهر العقول ، انظر الى القضايا التي لم يهتم الى حلها الخلفاء الثلاثة الذين تقدموه ، ثم بعد الحيرة رجعوا إليه فحلها لهم من غير تأمل وتوقف بأسرع من طرفة عين ، وأن هذه المسائل التي اضطر الخلفاء الى مراجعة علي بن أبي طالب عليه السلام فيها إنما هي حجة من الله على سائر الخلق ، الحاضر منهم في ذلك العصر والمتأخر عنهم ، لاسيما العارف منهم منزلة العلم فليس له مجال لانكار تقدمه في

(١) لماذا اخترت مذهب الشيعة : ص ٣١٦ .

(٢) ينابيع المودة : ج ١ ص ٦٨ ب ١٤ .

العلم الموجب لتقدمه في الخلافة .

يا طالب الرشد ، إن الله قد أوضح لك الرشد في كتابه قال : «قد تبين الرشد من الغي» ^(١) وفسر ذلك النبي ﷺ في أقواله وخطبه فقال : ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به ^(٢) و أن العقل السليم يحكم حكماً باتاً بأن الأصول الاعتقادية يلزم أن يؤخذ من منبع يقيني لا يتطرقه الشك كالآيات القرآنية وأقوال النبي الجليلة الواضحة .

أما بالنسبة الى الآية المجملة المتشابهة أو كلام النبي ﷺ المجمل فيلزم أن يفسره لك أحد الراسخين في العلم أو باب مدينة العلم حتى لا يبقى لك شك فيه ، وأن باب المدينة اذا فتحت تفتح طبعاً الى الداخل فتكون راسخة في العلم فيكون الباب عين الراسخ في العلم ومنه تؤخذ العلوم ، فلامجال للأخذ من غيره ، فمن أخذ من غير هذين الطرفين يلزم أن يسنده الى الله أو الى الرسول ، فإن الله سوف يسأله عن حجته في ذلك ، فإن كان له جواب يدل على أخذه من الله أو الرسول فهو المطلوب ، وإلا فليس أمامك شيء تجيب به الله إلا أحد أمرين لاغيرهما :

الأول : أن تقول : إنا وجدنا آباءنا على هذه الطريقة فاقتردنا بهم ، و قد أشار الله تعالى في القرآن الى بطلان هذا الجواب وعدم الاستفادة منه لقوله تعالى « قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» ^(٣) .

ثم بين الله سخافة هذا القول بأن الإنسان ليس له أن يتخير الطريقة التي يعبد الله بها ، وأن الله هو الذي يختار لعباده ما هو الأصلح ، وأن العبد اذا كان مشفقاً على نفسه ينبغي له أن يرضى بما اختاره الله له ، فقد بين الله بطلان جوابهم على

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) الكافي : ج ٢ ص ٧٤ ح ٢ .

(٣) الزخرف : ٢٣ .

لسان رسوله بقوله : « قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » ^(١) .

يا طالب الرشد ، أتعرف الطريقة التي هي أهدى مما وجدت عليه آباءك ؟ أنا أعرفك بها : هي الطريقة الموافقة للكتاب والسنة والعقل والوجدان ، وهي التي كتب فيها العلماء آلافاً من الكتب الاستدلالية المشتملة على الحجج القوية المأخوذة من الكتاب والسنة ، ومع جميع هذه الكتب يقول لهم ظالم نفسه : إنا بما جئتكم به كافرون ، ولقد قالوا هذه الكلمة لامام العلماء وهو أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليه السلام كما ذكرت لك قبل قليل في ص ٢٤٧ عن كتاب إنباب الوصية أن علي بن أبي طالب ألف القرآن وخرج الى الناس وقد حملة في إزار معه وهو ينط من تحته ، فقال لهم : هذا كتاب الله قد ألفته كما أمرني وأوصاني رسول الله ﷺ كما انزل ، فقال له بعضهم : اتركه وامض ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ قال : إني مخلف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي لم يفترقا حتى يردها علي الحوض . فإن قبلتموه فاقبلوني معه أحكم بينكم بما فيه من أحكام الله ، فقالوا : لا حاجة لنا فيه ولا فيك فانصرف به معك لا تفارقه ولا يفارقك ... ^(٢) .

انظر الى هذا الكلام وانظر الى الآية الشريفة « قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » فإن كلامهم هذا مطابق لمضمون الآية ، فلا ينفع جواباً يوم الحساب .

وأما الجواب الثاني : هو الذي حكاه الله عن مخالف الطريق الذي عينه الله ورسوله للامة ويسلك طريقاً مخالفاً للقرآن والسنة ، فإذا سأله الله يوم الحساب عن السبب الذي دعاه للخلاف بجيبه بعد أن يتمنى أنه لو أطاع الله والرسول بقوله : « يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » ^(٣) . ولكن التمني لا ينفع ولا يجدي فإنه طلب

(١) الزخرف : ٢٤ .

(٢) اثبات الوصية : ص ١٢٣ .

(٣) الاحزاب : ٦٦ .

ما لا طمع في وقوعه ، ثم يقولون كما أخبر الله عنهم «وقالوا زبنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا»^(١) .

يا طالب الرشد ، إن الذي يخالف أوامر الله مرة يكون داعية الهوى والنفس والشیطان بحيث يترك أمر الله ولا يفعل شيئاً آخر ، ومرة أخرى يكون التّرك لأجل أن يكون عمله مخالفاً لأمر الله فيأخذ بأمر سيده وكبيره الذي لم يجعل الله سيّداً ولا كبيراً ، وإنما صار سيّداً وكبيراً بالقوة والقهر ، فهذا الذي يطيعه ويعمل بأمره لا يكون سبب مخالفته الهوى والشهوة وإنما خلافه العناد لله ومشاقه لله ، ولذا يتمنى في ذلك اليوم أن يكون قد أطاع الله .

فهذه الآية تنبيه لكل من يتخذ سيّداً أو أميراً غير منصوب من الله وغير منصوص عليه من رسول الله ﷺ ، وهذا أمر يعرفه العالم العارف بالكتاب والسنة ، فإنه يميز بين الصالح للامارة وغير الصالح ، ويلزمه إرشاد الناس والعوام الى الصالح لها وردعهم عن لا يصلح ، فإذا أمرهم على متابعة غير الصالح فقد أضلّهم وأعماهم ، فيكون هو من الكبراء المتبّعين والمتبّيعين (بالفتح والكسر) . هذا بالنسبة الى العصور السابقة حيث كانت الامية غالبية على الناس وليس لهم مجال إلا التقليد الأعمى في الاصول والفروع .

أما بالنسبة الى العصر الحاضر فقد كثرت فيه المدارس وعمّ التعليم وثقف الرجال والنساء ، فكل واحد عليه أن يفحص ويفتش عن امور دينه وما يلزمه من الطريقة التي يتبعها ، فلا يكفيه أن يرى أباه سائراً على طريق فيسير فيه أو متخذاً طريقة خاصة فيتبع تلك الطريقة .

وقد أصبح الشباب يعرف ويميّز المعقول والمنقول ، ويعرف الصحيح من السقيم ، والحق من الباطل ، فعليه أن يرجع الى سيرة النبي ﷺ ويدرس أقواله وأفعاله من الكتب المعتمدة الصحيحة الصادقة التي يعترف بها جميع علماء الأمة ، فيعرف

بماذا كلّفه نبيه ؟ وهل جعل نفسه وصياً وخليفةً يرجع الناس إليه اذا التبتست عليهم الامور ؟

و على الشباب أن يراجعوا كتب كل فرقة فيطلّعوا على أدلّتهم وحجّتهم فيما اختاروا من تقديمهم من قدموا في الخلافة ، وهل يجوز بحكم العقل والنقل أن يقدم المفضول و يجعل زمام الحكم بيده ويترك العالم بجميع الامور جليس داره مع كونه جامعاً لجميع الفضائل والصفات الموجبة للتقديم من علم وزهد وكرم وحلم وشجاعة وعبادة وغيرها وغيرها ؟

ثم إن الله عز وجل قد أخبر هذا القسم من الناس وهم الذين يختارون رجلاً من سائر الناس مهما كان من الجلالة والعظمة والجاه والمال فيجعلونه أميراً عليهم و يسمّونه خليفة رسول الله و أمير المؤمنين ، ولكنه ليس منصوباً من الله ورسوله . فقد حكى عنهم عند وقوفهم بين يديه أو عند دخولهم النار كما هو صريح الآية ، فإنهم أولاً يبدون ندمهم وتأسفهم على عدم إطاعة الله ورسوله يوم تقلّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا .

ثم يقدمون العذر الواهن البارد والسخيف الى الله ظناً أنه ينفعهم : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا » فإذا رأوا أن هذا العذر لا ينفعهم شيئاً ولا يخفف العذاب شيئاً حينئذ يطلبون أن يضاعف العذاب على هؤلاء السادات والكبراء حيث كانوا السبب في إضلالهم : « ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً »^(١).

ولما علموا أن المتبوع كان على خلاف الحق وأن أتباعهم له أيضاً على خلاف الحق طلبوا من الله أن يضاعف عليهم العذاب وأن يلعن هذا الكبير بزعمه لعناً كبيراً ليناسب الجزاء صفته الباطلة المزعومة ، فهو يزعم أنه كبير وأتباعه يزعمون أنه كبير ، ولذا يطلبون من الله أن يلعنهم لعناً كبيراً .

ولعل القارىء يستغرب من ما ذكرنا جعل العاصي التارك لأمر الله من

جملة الكافرين ويقول: إن الموحّد اذا عصى الله وترك بعض أوامره لا يكون كافراً. فنقول له :

إن بعض المعاصي إذا صدرت من العبد تخرجه من زمرة المؤمنين وتجعله من الكافرين ، وقد ذكر ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في ذكر أصناف آيات القرآن، قال في بيان أنواع المتشابهات :

وأما الكفر المذكور في كتاب الله تعالى فخمسة وجوه:

منها : كفر الجحود ، و هو ينقسم على وجهين . ومنها : كفر الترك لما أمر الله تعالى به. ومنها : كفر البراءة . ومنها : كفر النعم .

أما كفر الجحود فأحد الوجهين منه جحود الوجدانية، وهو قول من يقول لا رب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا نشور ، و هؤلاء صنف من الزنادقة و صنف من الدهرية الذين يقولون «و ما يهلكنا إلا الدهر» ، و ذلك رأي وضعوه لأنفسهم استحسنوه بغير حجة فقال الله تعالى : «إن هم إلا يظنون»^(١) .

وقال : «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»^(٢) أي: لا يؤمنون بتوحيد الله .

و الوجه الآخر من الجحود هو الجحود مع المعرفة بحقيقته ، قال تعالى : «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً»^(٣) .

وقال سبحانه : «و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»^(٤) أي : جحدوه بعد أن عرفوا. وأما الوجه الثالث من الكفر فهو كفر الترك لما أمرهم الله به وهو من المعاصي، قال الله سبحانه وتعالى : «وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا

(١) الجاثية : ٢٤ .

(٢) البقرة : ٩ .

(٣) النمل : ١٤ .

(٤) البقرة : ٨٩ .

تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون، الى قوله: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» ^(١) فكانوا كفاراً لتركهم ما أمر الله تعالى به، فنسبهم الى الايمان بإقرارهم بالسنتهم على الظاهر دون الباطن، فلم ينفعهم ذلك بقوله تعالى: «فما جزاء من يفعل ذلك منهم إلا خزي في الحياة الدنيا» ^(٢) الى آخر الآية. وأما الوجه الرابع من الكفر فهو ما حكاها الله في قول إبراهيم عليه السلام: «كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده» ^(٣) فقوله: «كفرنا بكم، أي: تبرأنا منكم».

وقال سبحانه وتعالى: في قصة إبليس وتبرئه من الانس يوم القيامة: «إني كفرت مما أشركتمون من قبل» ^(٤) أي: تبرأت منكم.

وقوله تعالى: «إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً» ^(٥) الآية.

وأما الوجه الخامس من الكفر وهو كفر النعم فإن الله تعالى حكى عن قول سليمان: «هذا من فضل ربي أشكر أم أكفر» ^(٦).

وقوله عز وجل: «لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» ^(٧).

وقال تعالى: «فأذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» ^(٨) انتهى

(١) البقرة: ٨٤ و ٨٥.

(٢) البقرة: ٨٥.

(٣) الممتحنة: ٤.

(٤) إبراهيم: ٢٢.

(٥) العنكبوت: ٢٥.

(٦) النمل: ٤٠.

(٧) إبراهيم: ٧.

(٨) البقرة: ١٥٢.

محل الحاجة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ^(١) .

وبعد اطلاع القارىء عليه يتضح له أن بعض المعاصي توجب دخول العاصي

في زمرة الكافرين .

تحقيق دقيق في كلمتين من الآية وهما في قوله تعالى: «والراسخون في العلم»

الأول في معنى الرسوخ، والثاني في المقصود من العلم اذا اطلق كما في الآية .

أما معنى الرسوخ : فقد اتفق أهل اللغة و أهل التفسير على أن معنى

الرسوخ هو الثبوت أو أشد الثبوت بحيث لا يمكن أن يزول عن مكانه من ذات

نفسه إلا أن يزيله الذي أرسخه أو من يساويه في القدرة ، فيقال : رسخ الحبر في

الصحيفة ^(٢) ، فالصحيفة اذا حفظت من الطواريء والأحداث والآفات لا يزول عنها

الحبر إلا أن يزيله المرسخ و الكاتب أو من يساويه ، أو الخالق للجميع : المرسخ

والراسخ والمرسوخ فيه، كما في الصحيفة التي علقتها قريش في الكعبة حين بعث الله

عليها الارضة فأزال حبرها . فكل شيء يكون زواله ممكناً لا يقال له راسخاً

كالعلم الذي يحصل بالتعلم ، فإنه قابل للزوال بالنسيان دفعة أو تدريجاً اذا

تركه صاحبه .

ثم اذا حصل إنسان في آخر عمره على شيء من العلم مدة سنة أو سنتين أو

ثلاثاً ، أو ربع عمره أو ثلثه أو نصفه فهل يسمى راسخاً؟ أو أن الذي يطلق عليه

لفظ الراسخ يشترط أن يكون راسخاً من أول إدراكه ورشده بل من زمن طفولته

بل حين تولده، يكون عاقلاً يتكلم بالحكمة كما تكلم إبراهيم وموسى ويحيى وعيسى

والنبي محمد عليه السلام ، بل يكون علمه حين وجوده في بطن أمه كما هو منقول عن الأنبياء .

و عن الامام علي عليه السلام أنه كان يمنع أمه من الدخول من الباب التي نصبت

عليها الأصنام، وكان يكلمها حتى أن أخاه جعفرأ سمع يوماً كلامه فغشي عليه ^(٣) .

(١) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٦٠ ب ١٢٨ قطعة من حديث ١ .

(٢) لسان العرب : ج ٣ ص ١٨ مادة «رسخ» .

(٣) بحار الانوار : ج ٣٥ ص ١٧ ب ١٤ ح ١٤ .

فالرسوخ إنما يطلق على من كان متصفاً فيه من أول وجوده ، أما الذي قضى كل عمره أو أكثره جاهلاً لا يعرف شيئاً ، أو قضى عمره في عبادة الأصنام ثم حصل على بعض العلوم اكتسبها من الرجال فهذا لا يسمى راسخاً .

ذكر في سفينة البحار أن الشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم العاملي قال :
الراسخ في اللغة هو اللازم الذي لا يزول عن حاله ، ولا يكون كذلك إلا من طبع الله تعالى على علم في ابتداء نشوئه كعيسى عليه السلام في وقت ولادته قال إني عبد الله آتاني الكتاب ، ^(١) الآية . وأما من بقى السنين الكثيرة لا يعلم ثم يطلب العلم فيناله من جهة غيره على قدر ما يجوز أن يناله منه فليس ذلك من الراسخين . يقال : رسخت عروق الشجر في الأرض ولا يرسخ إلا صغيراً .

والأئمة الاثنا عشر عليهم السلام ما نقل عن واحد منهم أنه قعد عند معلم ولا تردداً الى فقيه ولا الى محدث ، فعلم الله تعالى أن المبطل يقول : كل واحد منهم تعلم من أبيه ، فقبض الله تعالى الرضا عليه السلام ولولده الجواد عليه السلام ثمان سنين ، وقبض الجواد ولولده الهادي عليه السلام ثمان سنين ومع هذا لم يقصرا عن علم آبائهما ، ولا تردداً الى معلم ولا فقيه ولا أخذاً عن أحد شيئاً من العلم بل كان علمهم عليهم السلام إفاضة من الله تعالى .

وكذلك علم أمير المؤمنين عليه السلام ما يخلو من أن يكون إفاضة من الله بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله ، فسرى ذلك في ولده ، أو أن النبي أطلعه على أسرار وعلوم ما أطلع عليها غيره من القرابة والصحابة ، وكلا الوجهين يدلان على فضل عظيم وخطر جسيم ^(٢) انتهى .

ثم إن الرسوخ - وهو الثبوت اللازم الذي لا يزول - يحتاج تحقيقه الى موضوع ومحمول ، فكل مورد اذا أردنا أن يغرب عن رسوخ شيء في شيء لا بد وأن نذكر

(١) مريم : ٣٠ .

(٢) سفينة البحار: ج ١ ص ٥٢٠ .

الراسخ والمرسوخ فيه .

فإذا أردنا أن نعرف شخصاً أو نخبر بعدم زوال علمه ينبغي أن نقول: إن علم فلان راسخ في صدره أو في قلبه ، أو نقول : فلان راسخ العلم بالاضافة .

أما الرجال الذين اختصهم الله بالعلم فقد جعلهم راسخين في العلم لأن العلم راسخ في صدورهم ، ولا يخفى ما في هذا التعبير من العظمة إذ الفرق بين التعبيرين بعيد ، فإن الذي يرد عليه العلم إذا لم يعمل به يكون زواله أسهل شيء كما ذكره الله تعالى في قصة بلعم بن باعورا بقوله : «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان» (١) .

أما إذا كانت الذات هي الواردة على العلم الراسخة فيه فانغمست فيه غمساً فهذه قد انكشفت لها الحقائق، إذ العلم لا يكون في صدره فقط وإنما يكون محيطاً به من جميع جوانبه، ويكون نظره بقلبه كنظره بعينه بل أشد من ذلك . وقد ذكر ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً (٢) .

وحكي عن كتاب المحاسن والمساوي قال: وروي أن عدي بن حاتم دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال : أين الطرفات؟ - يعني طريقاً وطارقاً وطرفة - قال : قتلوا يوم صفين بين يدي علي بن أبي طالب عليه السلام . فقال : ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قدّم بنيك وأخّر بنيه، قال: بل ما أنصفت أنا علياً إذ قُتل وبقيت، قال: صف لي علياً ، فقال : إن رأيت أن تعفيني ، قال : لأعفيك ، قال :

كان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول عدلاً وبحكم فصلاً، تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير الدمعة طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا يقلب كفيه

(١) الاعراف: ١٧٥ .

(٢) شرح مائة كلمة: ص ٥٢ .

على ما مضى ، يعجبه من اللباس القصير ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كأحدنا ،
يجيبنا اذا سألناه ويدنينا اذا أتينا ، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لانكلمه
لهيبته ، ولا نرفع أعيننا اليه لعظمته ... الخ^(١) .

انظر الى هذا العبد الصالح الذي نور الله قلبه كيف عرف معنى الراسخين
في العلم فوصفه في قوله : تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه .

ويمكن أن تكون الآية التي قبل هذه الآية و هي قوله تعالى : «هو الذي
يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم»^(٢) فيها الإشارة الى
إرساخ هؤلاء الرجال في العلم والحكمة و هم في بطون أمهاتهم ، لأن الكيف يشمل
جميع الصفات ولا يختص بالصورة الظاهرية .

هذا ما يتعلق بكلمة الرسوخ ، وأما بالنسبة الى كلمة العلم فإن لفظ العلم
اذا أطلقه الله الخالق للعلم فإن الذي يسبق الى الذهن ويتبادر من الاطلاق هو
كل علم موجود في الدنيا حين نزول الآية أو وجد بعد ذلك فإن الله إنما خلق
أصناف العلوم لينفع بها الناس ، ولا بد أن يتوصل إليه بعض الناس أو يلهمهم
الله إيتاء لكي ينفعوا بها البشر .

فاذا تأملنا في لفظ العلم الوارد في قوله تعالى : «والراسخون في العلم» نراه
يشمل جميع العلوم ولا يخص علماء واحداً ولا يخص العلوم التي تخص الشريعة
أو الدين وإنما يعنى العلوم الدنيوية والاخرية ، وأن العقل ليحكم بلزوم وجود
مثل هؤلاء الرجال الحاوين للعلوم كافة ، وإلا فلا فائدة في خلقها وإيجادها لو
بقيت مستورة عن البشر .

وليس في أمة محمد ﷺ من قبل في جمعهم لهذه العلوم إلا الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام
الذين قالت طائفة من الأمة بإمامتهم ، لأنها قد رأيت منهم الخوض والبحث في جميع

(١) المحاسن والمساوي: ص ٤٦ .

(٢) آل عمران: ٦

العلوم التي كانت العقول تقبلها في زمانهم ولهم كلمات تشير الى العلوم التي حدثت في العصور المتأخرة عنهم كقول عاي بن أبي طالب عليه السلام: لو شئت لجعلت لكم من الماء ناراً .

يقول بعض من شرح هذه الكلمة وهو محمد أحمد مهدي في كتابه « القرآن والناس، محمد والناس ، علي و الناس » من جملة كلامه : لقد توفق علماء الغرب الى الكشف عن مغالق الكلمة التي أزجها الامام منذ ألف ونيف من السنين ، بأن اطلعوا على العالم بعد جهد مرير وغوص بعيد بنتائج القنبلة الذرية التي حيرت الأفكار وملأتها إعجاباً فكانت اعجوبة القرن العشرين .

و لقد أوضحوا أن أجزاء الماء مكونة من عناصر مختلفة كالإيدروجين - بمشتقاته الثلاث حالياً - والأكسجين وما الى ذلك.

وإليك ما يقرره أحد أولئك العلماء إذ يقول : إن تحطيم ذرات مل فنيجان شاي من الماء يمد محطة توليد كهربائية قوتها مائة ألف كيلووات بالقوة المحركة لها لمدة عام^(١) انتهى محل الحاجة من الكتاب المذكور .

وكم لعلي عليه السلام مثل هذه الكلمة ؟ وكم له من كلمات حكمة ؟ وكم له من خطب و مواظ ؟ وكم ألف فيه من كتاب .

فقد ظهر مما ذكر أن الراسخين في العلم هم الذين لم يقتصر علمهم ببعض العلوم دون بعض ولم يعجزوا عن بعض العلوم ، بل كل علم لديهم واضح جلي كعلم أجهل الناس بطلوع الشمس ما لم يكن أعمى العينين ، وهم الذين عناهم الله بقوله : «الراسخون في العلم» الذين يعلمون تأويل القرآن الذي فيه علم ما كان وما يكون . وقد تحصل من هذه الآية الامور التالية:

١ - أن الآيات القرآنية على قسمين: منها محكمات، ومنها متشابهات.

٢ - أن المحكمات هن الأصل الذي يلزم الرجوع إليه في معرفة ما يراد من المتشابهات.

٣ - أن الذي يرجع المتشابه إلى المحكم ويخبرنا بالمراد منه هم الراسخون في العلم ويلزم الرجوع إليهم .

٤ - أن الذي يتبع المتشابه باجتهاده ويؤوله على ما يشتهي هو بلا رجوع إلى أهل العلم هو زائغ القلب بصريح القول.

٥ - الذي تحقق من هذه الأمور الأربعة ومن قوله تعالى: «هن أم الكتاب» أن كل تفسير وتأويل للآيات المتشابهات إذا لم يرجع إلى آية محكمة فهو باطل لا عبرة فيه ولا يعتمد عليه ولا يمكن الاستدلال به على شيء، ولذا ترى الأئمة الاثني عشر عليهم السلام قد أوصوا الناس بأن كل ما جاءكم منّا فاعرضوه على القرآن، فإن كان موافقاً فخذوا به وإلا فردوه إلى الذي جاءكم به .

فالآية الشريفة تحكم ببطلان كل استدلال واحتجاج بآية متشابهة ما لم يكن مستنداً على آية محكمة، وبعبارة أخصر وأصرح : إن الله عز وجل أمر عباده أن يأخذوا أحكام دينهم من القرآن، أما الحكم المبين في آية محكمة فيعرفه أهل اللسان ولا يحتاج إلى من يفسره ويؤوله، وأما الحكم الذي يكون في آية متشابهة فيلزم الرجوع فيه إلى أهل العلم، وهم الذين دل الله عليهم بقوله: «والراسخون في العلم» فلا يجوز لأحد من الأمة أن يجزم بحكم يأخذه من آية متشابهة إلا بالرجوع إلى أهل العلم .

وقد دلنا النبي صلى الله عليه وآله على أهل العلم الراسخين فيه بقوله: إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض^(١) . وقد عرفنا النبي صلى الله عليه وآله أن الكتاب لا يفارقهم وهم لا يفارقوه حتى يردا على النبي حوضه . فمن أخذ بواحد وترك الآخر فقد تركهما معاً ولا ينتفع بالكتاب وحده

لأنهم هم المفـرون له. ولا تكفي الآيات المحكمة لأمور الدين إذ أن الكثير من أحكام الدين في الآيات المتشابهة ، فإن أخذ منها برأية هلك وإن تركها بقي ناقص الدين، وإن أخذ بقول غير الراسخين كان في الآخرة من أهل الجواب الثاني الذي تقدم عن قريب وهم الذين يقولون: «ربنا إنا أطعنا ساداتنا و كبراء فأضلونا السبيلا»^(١) فقد تعيّن على المؤمن أن يأخذ أحكام دينه ممن نصّ عليهم الرسول ﷺ وثبتت عصمتهم بإجماع أهل العلم وبالتواتر وبآية التطهير وغيرها من الآيات .

و روى الصدوق بأسناده الى سليم بن قيس الهلالي قال : سمعت علياً عليه السلام يقول : ما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ وأكتبها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ودعا الله عز وجل لي أن يعلمني فهمها وحفظها، فمانسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ فكتبته ، وما ترك شيئاً علمه الله عز وجل من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى، وما كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا علمنيّه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً^(٢) والحديث طويل .

بقي شيء يتعلق بما نحن فيه وهو أن الذي يُعلم من الآية بأن الناس ثلاثة أقسام :

القسم الأول: هم الراسخون في العلم، وقد ذكرهم الله ووصفهم بما يستحقونه من الوصف .

ويقابل أهل العلم طبعاً غير أهل العلم وهم قسمان : الأول: هم أهل القلوب الزائفة وهم الذين يتبعون المتشابهات، وقد مر ذكرهم أيضاً. والقسم الثاني من غير أهل العلم: هم أهل الدين والصلاح والتقوى وهم المتبعون لأهل العلم في أقوالهم وأفعالهم، المتباعدون عن زائفي القلوب ، وهذا القسم لم يذكر في الآية صريحاً

(١) الاحزاب : ٦٧ .

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ج ١ ص ٢٨٤ ح ٣٧ .

ثم إن قوله تعالى: «يقولون آمنا به... الخ»، إما أن تكون جملة حالية من الراسخين على القول بكون الواو عاطفة، أو أنها خبر على القول بالاستئناف. وأهل التفسير لم يذكروا غير هذين الوجهين، فمن قال بالعطف جعل الجملة حالاً من الراسخين، ومن لم يقل بالعطف جعلها خبراً للراسخين.

ولكن يمكن أن تكون الجملة خبراً عن القسم الثالث من الناس الذي لم تذكره الآية صريحاً كما جاء ذلك في نور الثقلين عن علي بن محمد عن عبد الله بن علي عن إبراهيم بن إسحاق عن عبد الله بن حماد عن بريد بن معاوية عن أحدهما عليهما السلام في قول الله عز وجل: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»، فرسول الله عليه السلام أفضل الراسخين في العلم قد علمه الله عز وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله وأوصيائه من بعده يعلمونه كله، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم يعلم ^(١) فأجابهم الله بقوله: «يقولون آمنا به كل من عند ربنا» والقرآن خاص وعام ومحكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ، فالراسخون بالعلم يعلمونه ^(٢).

فعلى هذا يكون قوله تعالى: «وما يذكر إلا أولوا الألباب»، إما مدحاً للراسخين وهو دون مدحهم بالرسوخ بالعلم فإن الرسوخ بالعلم يشمل جميع الصفات، وإما مدحاً للتابعين لهم المقتدين بهم وهو فوق مدحهم بالافتداء والاعتقاد بأن الكل من عند الله، وهكذا يكون ذو اللب وذو العقل فإنه يطلب رضا الله عز وجل ولا يمكنه الوصول إلى حقيقة الرضا إلا باتباع العالم بجميع العلوم والأحكام، أما الذي يمتنع من اتباع العالم فهو لا يبالي أوصل إلى رضا الله أو لم يصل.

ثم لو كان القول والتصديق والإيمان بأن كلاً من المحكم والمتشابه هو من

(١) قال الفيض - رحمه الله -: المراد بالذين لا يعلمون تأويله: الشيعة إذا قال العالم فيهم

يعنى الراسخ في العلم الذي بين أظهرهم.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٣١٧ ح ٣٥.

عند الله، لو كان هو قول الراسخين في العلم فلا منافاة بين قولهم هذا ورسوخهم من العلم لأن الله مختص بعلم أشياء لا يعلمها العباد كالعلم بوقت الساعة، والعلم بحقيقة الروح وغيرها، فهم خاضعون لله في كل وقت، خاشعون له على كل حال، وهذا الخضوع والخشوع والعبادة والذلة لله هي التي رفعتهم وصعدت بهم إلى درجة الرسوخ في العلم.

ثم إن الآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى : «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» ^(١) إما أن يكون من قول الراسخين في العلم فإنهم قد فزعوا إلى ربهم لما تفتحت عيون قلوبهم ونظروا إلى زائغي القلوب فرأوهم يخطئون في الظلام، ويحملون على ظهورهم الأوزار والآثام ويفسدون أمر دنياهم و آخراهم ، وهم منغمسون في دار الغرور و معرضون عن دار النعيم والحبور ، طلبوا من الله أن لا يكونوا مثلهم فقالو: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» أي: يا خالقنا ومالك أمرنا ومن بيده توفيقنا وخذلاننا لا نخذلنا ونسلب عنا لطفك وتوفيقك بسوء أعمالنا فتر يغ قلوبنا وتتحرف عن الحق والاستقامة فنكون كهؤلاء القوم الذين عرفتنا بهم و بزيع قلوبهم نبتغي الفتنة بالتلاعب بتأويل القرآن والاعراض عن الراسخين في العلم ، كل ذلك رغبة في إشباع شهواتهم الدنيوية وإرضاء نفوسهم الشريرة الخبيثة.

ثم إننا نقول لهم: هبوا أن الواد ليست عاطفة وأن الله وحده مختص بتأويل القرآن ومعرفة المقصود من الآيات المتشابهات، وهبوا أن الله أنزل الآيات المتشابهات لتكون محفوظة بين الدفتين ولم يكلف العباد العمل بها، ولكن أما علمتم من هذه الآية أن الله عبداً راسخين في العلم؛ ولماذا خلق هؤلاء العباد وأفاض عليهم هذه العلوم؟ فهل أمرهم أن يجلسوا في دورهم ويخلقوا عليهم الأبواب ولا يعلمون الناس مما عندهم من العلم؟ أو أمرهم الله يا أهل القلوب الزائفة أن تتركوا أهل العلم

وتقاطعوهم ولا تطلبوا ما عندهم من العلم ؟

كَلَّا إِنَّ هَذِهِ آيَةُ الشَّرِيفَةِ هِيَ أَكْبَرُ حُجَّةٍ عَلَى الْعِبَادِ سِوَاءَ جَعَلُوا الْوَادِعَ طَافَةً أَوْ اسْتِثْنَايَةً، حَيْثُ عَلِمُوا بِصَرِيحِ الْكَلَامِ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ عِبَادِ اللَّهِ هُمْ رَاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الرِّسُولُ الْبَاطِنِي يَحْكُمُ حَكْمًا قَاطِعًا بِوُجُوبِ الْفَحْصِ عَنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ وَتَحْصِيلِ طَرِيقِ الرِّشْدِ مِنْهُمْ حَتَّى تَخْلُصَ نَفْسُكَ مِنْ طَرِيقِ الْغَيِّ وَقَلْبُكَ مِنَ الزَّيْغِ فَافْحَصْ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَخُذْ بِمَا أَمْرُوكَ بِهِ مِنْ طَرِيقِ الرِّشْدِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُمْ فِي الْأَرْضِ لَا فِي السَّمَاءِ وَفِي الدُّنْيَا لَا فِي الْآخِرَةِ. وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْعُلُومَ لِيَنْتَفِعَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ وَصَفَّهُمْ بِهَذَا الْوَصْفِ الْجَلِيلِ الْعَظِيمِ وَهُوَ عِبَارَةٌ مَرْغُوبَةٌ مِنْ كَلِمَتَيْنِ: (رَاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)، وَلَكِنْ لَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَشْرَحَ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ يَلْزِمُهُ أَنْ يَعْدِدَ الْعُلُومَ الَّتِي وَجَدَتْ وَحَدَّثَتْ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِ خَلْقِ الدُّنْيَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، هَذَا إِضَافَةً إِلَى عُلُومِ الْآخِرَةِ وَإِضَافَةً إِلَى الْعُلُومِ الَّتِي لَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَيْهَا الْبَشَرُ.

فِي صَاحِبِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ، رَاجِعْ عَقْلَكَ فَانْظُرْ لِمَا نَشْرُوهُ مِنَ الْعِلْمِ تَعْرِفْ مَنْزِلَتَهُمْ وَمَقَامَهُمْ، وَلَا تَهْمَلْ نَفْسَكَ وَعَقْلَكَ هَذَا الْقَوْلُ مِنَ كَلَامِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ. وَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ كَلَامِ غَيْرِهِمْ وَهُمْ الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنَ النَّاسِ وَهُمْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الرَّاسِخِينَ وَاهْتَدَوْا بِهَدَاهُمْ وَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ وَعَرَفُوا مَنْزِلَتَهُمْ، فَهُوَ مِنْهُمْ طَلَبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا يَجْعَلَهُمْ مِثْلَ زَائِفِي الْقُلُوبِ الْمُتَلَاعِبِينَ بِالْأَلْبَانِ الْتَارِكِينَ لِرِجَالِ الْعِلْمِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ وَأَرْشَدُوا إِلَى مَتَابَعَتِهِمْ.

فَعَنِ الْكَافِي فِي مَا يَرْوِيهِ عَنِ الْكَاسِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثِ هِشَامٍ: يَا هِشَامُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ عَلَى قَوْمٍ صَالِحِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: «رَبَّنَا لَا تَزْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» حِينَ عَلِمُوا أَنَّ الْقُلُوبَ تَزِيغٌ وَتَعُودُ إِلَى عَمَّا هَا وَرَدَّاهَا، أَنَّهُ لَمْ يَخَفِ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اللَّهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اللَّهِ لَمْ يَعْقِدْ قَلْبَهُ عَلَى مَعْرِفَةٍ ثَابِتَةٍ يَبْصُرُهَا وَيَجِدُ حَقِيقَتَهَا فِي قَلْبِهِ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ كَذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ قَوْلُهُ

لفعله مصداقاً، وسره علانيته موافقاً لأن الله تعالى لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه^(١).

تأمل جيداً أيها العاقل في هذا الحديث لكي تعرف أن الأحكام الشرعية التي كلف الله عباده بها يلزم أن تكون مأخوذة عما يسندها إلى الله ويستمدّها من الله، فالنبي يأتيه الحكم من الله وقد أودع الأحكام عند وصيه علي بن أبي طالب، وعلي أودعها عند الإمام والوصي بعده، وهكذا كل يودعها عند الآخر من الراسخين بالعلم، فلا تكن من زائعي القلوب الذين يبتغون الفتنة.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أكثروا من أن تقولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ولا تأمنوا الزيف^(٢).

إيقاظ

إن من الواضح أن العلماء تختلف درجاتهم ومنزلتهم باختلاف ما عندهم من العلم كثرة وقلة، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علماً^(٣).

وعلى هذا تكون درجات العلماء مختلفة، فبعضهم عندهم علم واحد وبعضهم عندهم علمان وهكذا، فيقال فلان عالم بالنحو، وفلان عالم بالصرف، وفلان عالم باللغة، وفلان عالم بالكلام، وفلان عالم بالمعقول والمنقول. فإذا انتهت النبوة إلى العالم بجميع العلوم يقال له: عالم بقول مطلق من غير نسبة إلى بعض العلوم، وهو الذي نوه عنه النبي صلى الله عليه وآله بقوله: أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه^(٤).

ثم إن كل عالم من أي الطبقات كان إما أن يكون متصفاً بالإيمان وإما أن لا يكون متصفاً به، فإذا كان عالماً غير مؤمن فهذا لا ينفعه علمه إلا في الدنيا الفانية

(١) الكافي : ج ١ ص ١٨ قطعة من حديث ١٢.

(٢) تفسير البرهان : ج ١ ص ٢٧٢.

(٣) بحار الأنوار : ج ١ ص ١٦٣ ب ١ ح ١.

ولا يقربه علمه الى الله، فإن أفضل العلوم وأشرفها هو المقرب الى الله عز وجل. وقد ذم الله هذا القسم من العلماء وتوعدهم بالعذاب بقوله: «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون* فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده»^(١).

وهذا منطبق على أهل العصر الحاضر تماماً، فترى عديم الايمان عالماً أو جاهلاً اذا كلمته بشيء من امور الدين يجيبك منكرأ عليك قائلاً: إن العلماء قد صنعوا الفنبلة الذرية والصاروخ وسفينة الفضاء وأنتم بعد على عقلكم القديم!؟ فلا يخفى أن الانسان مهما تطور وتقدم وحصل على علوم مهمة فإن الله لا يرفع عنه التكليف في الواجبات، ولا يرخسه في ارتكاب المحرمات، وأما العالم المتصف بالايمان فهو الذي قد حصل خير الدنيا والآخرة، فالعالم في جميع الامور والمؤمن بالله حق الايمان هو الذي يحكم العقل والنقل بوجوب تقدمه على سائر الناس، وهو المرشد لسائر طبقات البشر في امورهم الدنيوية والاخرية، ولا يجوز لغيره التقدم عليه، فإذا تقدم عليه فهو ظالم، وكل من ساعده وأعانه فهو شريكه في الظلم. روي في تحف العقول عن الصادق عليه السلام قال: من دعا الناس الى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال^(٢).

وقد مدح الله هذه الجماعة التي رزقت العلم والايمان في مقامات من القرآن فيها قوله في سورة الروم «وقال الذين اوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون»^(٣). وقال تعالى في سورة المجادلة: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات»^(٤).

(١) غافر: ٨٣ و ٨٤.

(٢) تحف العقول: ص ٣٧٥.

(٣) الروم: ٥٦.

(٤) المجادلة: ١١.

حيث قدرت الآية الأولى أن كلامهم هو الحق المطابق للواقع، وأخبر في الآية الثانية أنه قد رفع درجاتهم فوق جميع الدرجات.

فلا شبهة ولا ريب في حكم العقل والعرف والشرع أن أعلم الناس في سائر أنواع العلم يجب أن يكون هو المقدم في تولية أمور الناس، والمقصود من أعلم الناس في سائر العلوم هو الذي إذا تكلم الناس في أي علم من العلوم نراه هو المبرز فيه، وحجته تكون أعلى الحجج، ولا يتمكن أحد من العلماء على دحض حجته وإبطال كلامه.

وبعد هذه المقدمة هل يتصور أحد أو يقدر أن يعبر عن هذا الشخص الذي فرضناه أعلم الناس في جميع العلوم؟ هل يتمكن أحد أن يصف هذا الشخص بوصف يكون وافياً بالدلالة على مقامه العلمي بعبارة تشبه أو تقرب من قول الله تعالى بما وصفهم الله به بكلمتين هما قوله: «والراسخون في العلم»؟ ثم هل أن الله سبحانه وصف رجالاً موهومين لا وجود لهم في الخارج، وقرنهم بنفسه في وصفهم بمعرفة تأويل القرآن، أو أنهم موجودون ومتصفون بهذه الصفة وهي العلم بالتأويل؟ ثم إنني أوجه السؤال إلى أهل العلم وأهل الحكمة وأهل المعرفة من سائر فرق المسلمين فأسألهم: هل أنهم بحثوا أو فحصوا من يوم نزول الآية إلى يومنا هذا عن هؤلاء الرجال الذين وصفهم الله حتى يحصلوا على شيء من علومهم؟ حيث إن الله يقول: «واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»^(١)، أما خطر في أذهانهم أن يتعرفوا على هؤلاء الرجال؟ أو أنهم بحثوا أو سألوا فلم يعرفوهم؟ أو أنهم عرفوهم فأخفوا ذكرهم لأغراض دنيوية (طبعاً)؟ وما قدر الدنيا بأجمعها في جنب هذا الأمر العظيم؟ أما يتصور ذو العقل أن القرآن فيه علوم الأولين والآخرين؟ وأن الذين يمكنهم استخراج هذه العلوم هم الذين نوه الله عنهم بقوله: «الراسخون في العلم». فلو عرفهم وانتفع بعلومهم لظفر بخير الدنيا والآخرة، أتمام تضييعهم

وإهمال معرفتهم، أو إخفاء ذكرهم بعد معرفتهم، كل ذلك طمعاً في شيء من حطام الدنيا فهذا ليس من اختيار العاقل .

هذا السؤال موجه إلى أهل العلم من سائر الفرق، أما بعض الفرق فقد ادعى معرفتهم، فيلزم بقية الفرق مطالبته بالدليل ليعرف صوابه من خطئه، فإنهم يدعون أنهم عرفوهم وميزوهم وشخصوهم وتمسكوا بهم واغترفوا من علومهم، عرفتهم بهم رسول الله ﷺ وعرفتهم بهم كثرة علومهم التي يعجز عنها جميع البشر، وهم أنفسهم - أي «الراسخون في العلم» - عرفوا الناس بأنفسهم، وليس تعريفهم لأنفسهم مجرد دعوى بل قرئوا التعريف بأدلة وحجج قوية، وأظهروا من علوم القرآن ما يعجز الناس عن عشر معشاره .

أما تعريف النبي ﷺ لهم فمن أظهر موارد قوله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» (١).

هذا الحديث الشريف ليس في صدره عن النبي شبهة ولا ريب، فإن كل من كتب عن النبي ﷺ ذكر هذا الحديث من جميع فرق المسلمين، وأما معناه ومفاده فهو واضح جلي غير متشابه، ولا يحمل، وليس فيه غموض ولا خفاء، وليس لمدنه التي أمرنا بها غاية ولا انقطاع، بل جعل النبي ﷺ هذين الأمرين حجة، وأمرنا بالتمسك بهما من حين ارتحاله من الدنيا إلى وقت ورود الحوض عليه . فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يعمل ملامن أمور الدين أو الدنيا إلا بعد موافقة هذين الأمرين اللذين أمرنا بالتمسك بهما، وحيث إن الكتاب لا يمكن لكل أحد أن يستخرج الحكم منه جعل النبي ﷺ العترة هي التي تستخرج منه الأحكام، ولذا جعلها ملازمة له فقال: لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . وقد جعل النبي ﷺ التمسك بهما واجباً وسبباً للهدى وعدم الضلال، وهذه عبارة واضحة

جلية لا تحتاج أن يفسرها لك عالم ديني أو عالم لغوي .

فيا أيها الشباب المنتور ، إنك تعرف كل شيء بحمد الله في هذا العصر فلماذا تفوتك هذه العبارة والجملة القصيرة ذات الفائدة الجليلة، هذا أمر إن تمسكت به كنت من المهتدين المؤمنين، وإن تركته كنت من الضالين ولن تضلوا ما إن تمسكتم بهما، فكرر بها قليلاً ستتهدي إن شاء الله تعالى فإنها واضحة.

هذه كلمة واحدة من كلمات النبي ﷺ في تعريف الراسخين في العلم وهناك كثير مثلها يعجز القلم عن حصرها وعدّها.

وأما التعريف بهم من ناحية كثرة علومهم فإن من له أدنى إلمام وأقل معرفة بالعلوم فإنه يدرك هذا الأمر.

أما بالنسبة إلى أولهم وهو الامام علي بن أبي طالب عليه السلام فإن المسائل التي وجهت إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعجزوا عن الجواب عنها والتجأوا إليه في الإجابة فأجاب بسهولة عنها فهو كاف في التميز .

وأما ما ذكره في نهج البلاغة من العلوم فهو وحده كاف .

وأما ما ورد عن النبي ﷺ في أنه عنده جميع العلوم كما في الصحاح الستة فهو وحده كاف .

وأما قوله عليه السلام: علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب^(١) فهو وحده كاف في الموضوع .

وأما اعتراف الصحابة بكثرة علمه كأبي بكر وعمر وابن عباس وابن عمر وسلمان وأبي ذر وغيرهم فهو كاف في الموضوع .

وأما ما ذكره هو في بعض المناسبات وهو الصادق المصدق كقوله : سلوني قبل أن تفقدوني ... الخ^(٢) فهو كاف في الموضوع، هذا بالنسبة إلى أول الأئمة.

(١) تفسير نور الثقلين : ج ٤ ص ٤٤٤ ح ١٣ .

(٢) الارشاد : ص ٢٣ .

وأما بالنسبة للباقي وهم بقية الاثنا عشر الذين نوه عنهم النبي ﷺ وذكر أسماءهم فهم كذلك فيما صدر منهم من العلوم .

انظر الى ما صدر عن الامام الصادق عليه السلام حيث إنه لم يكن مضيقاً عليه في ذلك الوقت فإنه صدر عنه في جميع العلوم الأحاديث الكثيرة ، انظر الى توحيد المفضل وما فيه من العلوم ، استمع لما يقوله أبو حنيفة ، حكى عن مسند أبي حنيفة : قال الحسن بن زياد : سمعت أبا حنيفة وقد سئل من أفاقه من رأيت ؟ قال : جعفر بن محمد ، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال : يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيتىء له من مسائلك الشداد . فهيت له أربعين مسألة ، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة ، فأتيته فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه ، فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر ، فسلمت عليه فأدماً إليّ فجلست . ثم التفت إليه فقال : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة ، قال : نعم أعرفه ، ثم التفت إليّ فقال : يا أبا حنيفة : ألق على أبي عبد الله من مسائلك ، فجعلت ألقى عليه فيجيبني ، فيقول : أنتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ، ونحن نقول كذا ، فر بما تابعتكم وربما تابعتهم وربما خالفنا جميعاً ، حتى أتيت على الأربعين مسألة فما أخل منها بشيء ، ثم قال أبو حنيفة : أليس أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس ؟^(١) انتهى .

فهذه شهادة من أبي حنيفة أن الامام الصادق هو أفاقه الناس .

قال الشبلنجي في نور الأبصار : وفي حياة الحيوان الكبرى فائدة ، قال ابن قتيبة في كتاب أدب الكاتب ما نصه : و كتاب الجفر كتبه ، الامام جعفر الصادق ابن محمد الباقر - رضي الله عنهما - فيه كل ما يحتاجون علمه الى يوم القيامة ، والى هذا الجفر أشار أبو العلاء الممرى بقوله :

(١) المناقب لابن شهر آشوب : ج ٤ ص ٣٥٥ نقلاً عن مسند أبي حنيفة .

لقد عجبوا لآل البيت لمّا
أناهم علمهم في جلد جفر
و مرآة المنجم وهي صفري
نريه كل عامرة وقفر^(١)

وقال الشبلنجي في نور الأبصار أيضاً عند ذكر مناقب الامام الصادق عليه السلام قال:
و مناقبه كثيرة تكاد نفوت عد الحاسب ويحار في أنواعها فهم اليقظ الكاتب. روى
عنه جماعة من أعيان الأئمة وأعلامهم كيعحي بن سعيد ومالك بن أنس والثوري
وابن عيينة وأبي حنيفة وأيوب السختياني وغيرهم^(٢).

وقال مالك بن أنس: ما رأيت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر
أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً^(٣).

ثم انظر الى ما صدر من الامام الثامن حين جمع له المأمون أهل الأديان
وأهل الكلام، كيف غلب الجميع وأقام لهم الأدلة من الآيات القرآنية والسنة
النبوية، فلا تفوتك الفرصة.

انظر الى تاريخ حياتهم واحداً واحداً سوف تعرف الحق، فإذا عرفته فلا
تعرض عنه ولا تغمض فيه لأجل شيء من الدنيا، وكن مع الحق أينما كان، فإن
الدنيا زائلة، فقد روى عن الصادق عليه السلام قوله:

علم المحجة واضح لمريده
وأرى القلوب عن المحجة في عمى
و لقد عجبت لهالك و نجاته
موجودة ولقد عجبت لمن نجى^(٤)

وعن تفسير الثعالبي روى الأصمعي له عليه السلام:

أتأمن بالنفس النفيسة ربها
فليس لها في الخلق كلهم ثمن
بها يشتري الجنات إن أنابعثها
بشيء سواها أن ذلكم غبن

(٢٩١) نور الأبصار: ص ١٦٠.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٠ ب ٢٦ ح ١٦.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٥ ب ٢٦ ح ٢٦.

إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن^(١)

وينبغي للانسان أن يتأمل في هذه الآيات الثلاثة ليعرف معناها فإنه عليه السلام يقول: إن نفس الانسان نفيسة لا يقدر على دفع ثمنها إلا الله تعالى، فلا ينبغي للانسان أن يبيعها إلا على الله إذ الخلق كلهم لا يقدرّون على دفع ثمنها، وإذا كان البيع على الله فحسب فلا ينبغي بيعها إلا بالجنة ثمناً فإنها أحسن الأشياء للانسان، فإذا باعها بشيء آخر غير الجنة فهو إذا مغبون، والعاقلة الملتفت لا يغبن، فلو أنك يابذا النفس بعت نفسك بشيء من الدنيا أو بالدنيا كلها فاعلم أنك قد خسرت نفسك لأنك بعتها، والثمن الذي أخذته عوضاً عن نفسك فسوف تخسره أيضاً لأنك ستتركه إذا أتاك الموت، وإن لم تتركه أنت فهو يتركك.

والمقصود من البيع والشراء هنا هو الدين الذي يدين الانسان به ربه، فإن كان أخذه عن الله وكان بأمر الله وإرشاده وبواسطة من جعله الله واسطة بينه وبين خلقه وأودع عنده جميع الأحكام والعلوم فهذا هو الذي باع نفسه على الله. أما إذا كان آخذاً لدينه من رجال لم يجعلهم الله وسطاء بينه وبين عباده وليس لهم اطلاع بالأحكام الالهية وليس عندهم من العلم إلا ما اكتسبوه من أفواه الرجال ويكون هذا التابع لهم ملتفتاً الى ذلك فقد باع نفسه بالدنيا فسوف تذهب نفسه وتذهب الدنيا فيكون ممن خسر الدنيا والآخرة وهو الخسران المبين. وأما دلالتهم لنا على أنفسهم وأنهم هم الراسخون في العلم وهم الوسطاء بين الله وبين عباده، وأنهم هم ساسة العباد وأركان البلاد وامناء الرحمن فقد وردت عنهم أحاديث كثيرة بهذا المضمون نذكر منها ما تيسر في هذا الكتاب وبالله نستعين.

الأول: ما ذكر في بحار الأنوار قال إشارة الى كتاب الارشاد: روى ثقات

أهل النقل عند العامة والخاصة عن أمير المؤمنين عليه السلام في كلام افتتاحه :
الحمد لله والصلاة على نبيه صلى الله عليه وآله. أما بعد، فذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم، إنه
لا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظلم عنه سنخ أصل، وإن الخير كله في من
عرف قدره، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره، وإن أبغض الخلق عند الله
رجل وگله الى نفسه، جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة، قد لهج فيها
بالصوم والصلاة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن
اقتدى به، حمال خطايا غيره رهين بخطيئته، قد قمش جهلاً في جهال غشوه،
غار بأغباش الفتنة، عمي عن الهدى، قد سمأه أشباه الناس عالماً، ولم يغن فيه
يوماً سالماً، بكر فاستكثر مما قل منه خير مما كثر، حتى اذا ارتوى من آجن
واستكثر من غير طائل، جلس للناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره،
إن خالف من سبقه لم يأمن من نقض حكمه من يأتي بعده كفعله بمن كان قبله،
وإن نزلت به إحدى المهمات هيثاً لها حشواً من رأيه ثم قطع عليه، فهو من لبس
الشبهات في مثل غزل العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ، ولا يرى أن من وراء
ما بلغ مذهباً، إن قاس شيئاً بشيء لم يكذب رأيه، وإن اظلم عليه أمر اكتتم به
لما يعلم من نفسه من الجهل والنقص والضرورة كي لا يقال إنه لا يعلم، ثم أقدم
بغير علم، فهو خائف عشوات، رگاب شبهات، خبط جهالات، لا يعتذر مما لا
يعلم فيسلم، ولا يعرض في العلم بضرس قاطع فيغتم، يذري الروايات ذرو الريح
الهشيم، تبكي منه المواريث، وتصرخ منه الدماء، ويستهل بقضائه الفرج الحرام،
ويحرم به الحلال، لا يسلم بإصدار ما عليه ورد، ولا يندم على ما منه فرط^(١).
ثم بعدما أعلمنا بوجود هذا الصنف من الناس وهم الدجالون الذين يجلسون
في مجلس القضاء وليسوا من أهله وعلى الناس أن يقاطعوهم ويترکوا مراجعتهم،
فإن الله يودع العلم عند اناس معدودين فلا يتمكن غيرهم أن يحصلوا على هذا

(١) بحار الانوار : ج ٢ ص ٩٩ ب ١٤ ح ٥٩، الارشاد : ص ١٢٣ وفيه اختلاف يسير .

العلم فإن الله ينقله من واحد الى واحد ممن يختارهم لارشاد العباد، فيلزم على العبد أن يفحص عن هؤلاء الرجال الذين نوه الله عنهم بقوله : « و الراسخون في العلم » ليرشدوه الى طريقة الدين التي يريد بها الله ويعلموه أحكام الدين الحقيقية المستمدة من الله .

فينبغي للماعقل أن يفرغ قلبه ويصني بسمعه لكلام الامام ليدرك ما يخاطبه به . بعد المقدمة المذكورة قال عليه السلام بعد كلامه المتقدم :

أيها الناس ، عليكم بالطاعة والمعرفة بمن لا تعذرون بجهالته ، فإن العلم الذي هبط به آدم وجميع ما فضلت به النبيون الى محمد خاتم النبيين في عترة محمد عليه السلام فأين يتأه بكم؟ بل أين تذهبون؟ يامن نسخ من أصلاب أصحاب السفينة فهذه مثلها فيكم فاركبوها، فكما نجاني هاتيك من نجا كذلك ينجو في هذه من دخلها، أنا رهين بذلك قسماً حقاً وما أنا من المتكلفين . الويل لمن تخلف ثم الويل لمن تخلف ، أما بلفكم ما قال فيهم نبيكم عليه السلام حيث يقول في حجة الوداع : إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي : كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، ألا هذا عذب فرات فاشربوا، وهذا ملح اجاج فاجتنبوا ^(١).

هذا آخر كلامه ، فقد أوضح لك الطريق وبين لك أن العلم الذي هبط به آدم وكذا العلوم التي عند سائر الأنبياء الى خاتمهم وهو محمد بن عبد الله عليه السلام هذه العلوم كلها عند عترة محمد عليه السلام ، فمن أراد العلم الصحيح ومن أراد الدين الحق الذي أمر الله به نبيه ، وبينه النبي عليه السلام لعلي عليه السلام حرفاً حرفاً ، فليقصد عترة محمد عليه السلام ، ولا أقول كل العترة بل الأشخاص الذين أشار الله إليهم في قوله : « و الراسخون في العلم ، وأولهم وأفضلهم النبي ثم أولئك الاثنا عشر الذين قرنهم بالكتاب وجعلهم خلفاء لنا وأمرنا بالتمسك بهم حتى لا نكون من الضالين .

الثاني : ما رواه الشيخ البهائي في أربعينه ، الحديث الحادي والعشرون ، ورواه المجلسي في البحار نقلاً عن النخلة ، و السند واحد عن سليم بن قيس الهلالي :

قال : قلت لأمر المؤمنين عليه السلام : يا أمير المؤمنين إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً في تفسير القرآن و أحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أن ذلك كله باطل ، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم ؟ قال : فأقبل علي عليه السلام فقال : قد سألت فافهم الجواب : إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً ، وصدقاً وكذباً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وعاماً وخاصاً ، ومحكماً ومتشابهاً ، وحفظاً ووهماً ، وقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله على عهده حتى قام خطيباً ، فقال : أيها الناس قد كثرت علي الكذابة فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . ثم كذب عليه من بعده ، وإنما أنا كم الحديث من أربعة ليس لهم خامس :

رجل منافق يظهر الايمان متصنع بالاسلام لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمداً ، فلو علم الناس أنه منافق كذاب لم يقبلوا منه و لم يصدقوه ولكنهم قالوا : هذا قد صحب رسول الله صلى الله عليه وآله و رآه وسمع منه ، فأخذوا عنه وهم لا يعرفون حاله ، وقد أخبره الله عز وجل عن المنافقين بما أخبره و وصفهم بما وصفهم فقال عز وجل : " وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم " (١).

ثم بقوا بعده فتقربوا الى أئمة الضلال والدعاة الى النار بالزور والكذب والبهتان ، فوكلوهم الأعمال وحملوهم على رقاب الناس وأكلوا بهم الدنيا ، وإنما

الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله ، فهذا أحد الأربعة .
 ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه ودهم فيه ولم يتعمد
 كذباً فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه ويقول : أنا سمعته من رسول الله
 ﷺ ، فلو علم المسلمون أنه وهم لم يقبلوه ، ولو علم أنه وهم لرفضه .
 ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً أمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم ، أو
 سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم ، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ ، فلو
 علم أنه منسوخ لرفضه ، ولو علم المسلمون أنه منسوخ لرفضوه .
 وآخر رابع لم يكذب على رسول الله ﷺ مبغض للكذب خوفاً من الله
 وتعظيماً لرسول الله ، لم يسه بل حفظ ما سمع على وجهه ، فجاء به كما سمع ،
 لم يزد فيه ولم ينقص منه ، وعلم الناسخ من المنسوخ ، فعمل بالناسخ ورفض
 المنسوخ ، فإن أمر النبي ﷺ مثل القرآن ، ناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومحكم
 ومتشابهه ، وقد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان : وكلام عام وكلام
 خاص مثل القرآن . وقال الله عز وجل في كتابه : وما آتاكم الرسول
 فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ،^(١) فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ما عني
 الله به ورسوله .

وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ يسأله عن الشيء فيفهم ، كان منهم
 من يسأله ولا يستفهمه ، حتى أن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي والطارى
 فيسأل رسول الله ﷺ حتى يسمعوا . وكنت أدخل على رسول الله ﷺ كل يوم
 دخلة وكل ليلة دخلة فيخاينني فيها ، أدور معه حيثما دار ، وقد علم أصحاب
 رسول الله ﷺ أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري ، وربما كان ذلك في
 بيتي يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي ، وكنت إذا دخلت عليه بعض
 منازل أخلااني وأقام عني نساءه فلا يبقى عنده غيري ، وإذا أتاني للخلوة معي في

بيني لم تقم عنه فاطمة عليها السلام ولا أحد من بني ، و كنت اذا سأله أجابني واذا سكت عنه وفنيت مسألتي ابتدأني ، فما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آية من القرآن إلا أقر أنها وأملأها علي فكتبتها بخطي ، وعلمني تأويلها وتفسيرها ، وناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها ، وخاصها وعامها ، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها ، فما نسيت آية من كتاب الله عز وجل ولا علماً أملاه علي وكتبته منذ دعا لي بما دعا ، وما ترك شيئاً علمه الله من حلال ولا حرام ، أمر ولا نهى ، كان أوبكون ، ولا كتاب منزل علي أحد قبله في أمر بطاعة أو نهى عن معصية إلا علمنيه وحفظنيه ، فلم أنس حرفاً واحداً . ثم وضع صلى الله عليه وآله يده علي صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً . فقلت : يا نبي الله بأبي أنت وأمي إنني منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه ، أفتتخوف علي النسيان فيما بعد ؟ فقال : لا لست أخاف عليك النسيان ولا الجهل ^(١) .

اذا تأمل العاقل في كلمات هذه الرواية وعرف معانيها وأراد أن ينصف نفسه ولا يبيعها بثمن بخس فتذهب نفسه ويذهب الثمن ، ينبغي له أن يعرف واجبه وأن يعرف الذي يأخذ منه معالم دينه ولا يأخذ من أفواه الناس . فإن الامام عليه السلام جعل الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله أقساماً أربعة لا يجوز للمعاقل الأخذ عن ثلاثة أقسام منها ، ويتمين عليه الأخذ من قسم واحد وهو الذي لم يكذب علي رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ينس ما ألقاه اليه النبي صلى الله عليه وآله بل يحفظ ما سمعه علي الدقة ، ويجيء به كما سمع بلا زيادة ولا نقصان ، وأن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمحكم والمتشابه ، وأن لا يشتبه عليه شيء من هذه العوارض ، وأن يكون معصوماً من الذنوب كلها ومن الخطأ والسهو والنسيان ، فلم نر ولم نسمع بأحد نسب هذه الصفات الي نفسه غير علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الصادق المصدق الذي لم تنسب له كذبة قط مدة

(١) الاربعين للبهائي : ص ٩٨ ، بحار الانوار : ج ٢ ص ٢٢٨ ب ٢٩ ح ١٣ ، الخصال :

مهره، وقد أخبرنا بخطبته هذه أن رسول الله ﷺ ما نزلت عليه آية من القرآن إلا علمه بتأويلها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، وكذا ما نزل في سائر الكتب على من تقدمه من الأنبياء .

فإذا كنت ممن يصدق أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلامه هذا فهل يبقى لديك شك أو شبهة في دخوله في قوله تعالى: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»؟

فإذا تيقنت أنه من جملة الراسخين فهل يجوز لك العقل والمنطق أن تقدم عليه غيره أو تأخذ بغير ما يخبرك به من أمور الدين؟ ولكل واحد من الأئمة الاثني عشر كلمة أو أكثر من كلمة يستدل بها على أنه هو حجة الله في عصره وينبت هذه الدعاوى بحجة قوية وبرهان جلي تبصرة لمن تبصر .

قال الفخر في تفسيره الكبير في تفسير سورة الرحمن قال: (المسألة الثالثة) قوله تعالى: «علم القرآن» لا بد له من مفعول ثانٍ فما ذلك؟ انتهى .

وذلك حيث إن «علم» المضاعفة يحتاج إلى مفعولين وإن أحد المفعولين هو لفظ القرآن والمفعول الثاني غير مذكور فإنه بعدما يجيب عن هذا الأمر بجوابين ثم يذكر المسألة الرابعة ويشير إلى السر في حذف المفعول الثاني يقول بعد ذلك: (المسألة الخامسة) ما معنى التعليم؟ نقوله على قولنا له مفعول ثانٍ إفادة

العلم به، فإن قيل كيف يفهم قوله تعالى: «علم القرآن» مع قوله: «وما يعلم تأويله إلا الله»؟ نقول: من لا يقف عند قوله «إلا الله» ويعطف «الراسخون» على الله عطف المفرد على المفرد لا يرد عليه هذا .

أقول: هذا هو قول الإمامية القائلون بالعطف .

ثم قال الفخر الرازي: ومن يقف ويعطف قوله تعالى: «الراسخون في العلم» على قوله: «وما يعلم تأويله» عطف جملة على جملة يقول: إنه تعالى علم القرآن لأن من علم كتاباً عظيماً وقع على ما فيه، وفيه مواضع مشككة فعلم ما في تلك المواضع

بقدر الامكان يقال : فلان يعلم الكتاب الفلاني و يتقنه بقدر وسعه وإن كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين، وكذلك القول في تعليم القرآن، أو تقول: لا يعلم تأويله إلا الله وأما غيره فلا يعلم من تلقاء نفسه ما لم يعلم، فيكون إشارة الى أن كتاب الله تعالى ليس كغيره من الكتب يستخرج ما فيها بقوة الذكاء والعلوم^(١) انتهى. هذا هو قول من يقول بالمعطف.

يقولون: إن علوم القرآن كلها عند رسول الله ﷺ بتعليم من الله لرسوله، وقد أودعها الرسول عند وصيه وخليفته علي بن أبي طالب عليه السلام، أي علمه إياها. كما قال: علمني رسول الله ألف باب من العلم... الخ.

ومن بعد علي عليه السلام انتقلت الى الأوصياء، فقد وردت عنهم الروايات الكثيرة في تفسير هذه الآية بقولهم: إن رسول الله أفضل الراشدين في العلم، فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمون ذلك كله^(٢).

فالفخر الرازي وإن اختلف في هذه الآية الوقف على لفظ الجلالة ولكنه في سورة الرحمن اختلف ما قاله الامامية من مفاد المعطف ومعناه، و نساء الله أن يهدي أهل القرآن الى صواب القول وعدم الزلل.

قوله تعالى: زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب (١٤).

إن الله سبحانه ذكر هذه الأشياء التي زين للناس فهم يحبونها ويشتهونها،

(١) تفسير الرازي: ج ٢٩ ص ٨٤.

(٢) تفسير البرهان: ج ١ ص ٢٧١.

فإن الله جعل هذه الشهوة فيهم ولا يمكنهم التخلص منها، ولكنه أمرهم أن يكون حبهم لهذه الأمور و تمتعهم بها و أخذهم منها بمقدار حاجتهم إليها بحيث تكفي لتلك الشهوة حتى يطمئن الانسان ولا يبقى في قلق واضطراب .

أما التوغل في هذه المشتبهات والازدياد منها واحتكارها ومنعها عن الغير وشدة الحرص الموجب للقلق والخروج عن الحالة الطبيعية الموجبة لانقلاب الشيء الى ضده فهذا ما لا يريد الله، فالخلاف الواقع بين المفسرين من أن المزين لهذه الأمور هل هو الله عز وجل كما اختاره جماعة؟ أو أنه الشيطان كما اختاره جماعة غيرهم؟ يمكن التوفيق فيه بين القولين بما ذكر وهو أن المرتبة الاولى وهي الأخذ بمقدار الحاجة إنما هي من الله . والمرتبة الثانية وهي الحرص على الاكثار والاحتكار ومنع الغير عنه إنما هي من الشيطان.

و قد يشير الى المرتبة الاولى قوله تعالى : «ذلك متاع الحياة الدنيا» فإن المتاع أخذ مقدار الحاجة و غرض النظر عن الزيادة .

ويشير الى المرتبة الثانية قوله تعالى : «و القناطر المقنطرة» فإنه لا يكون إلا من تزوين الشيطان، فإن العقل يحكم أن هذا المقدار من المال يكون سبباً لطغيان صاحبه فيتكبر على الناس بل قد يتكبر على عبادة الله ، فهو مذموم غير محمود ، فإن الله خلق هذه الأشياء و زينها في نفوس عباده لتتم استقامة هذه الحياة وبقاء النوع في الانسان و في الحيوان و لتكون وسيلة و سبباً موصلاً الى الآخرة أيضاً ، ولكن إبليس العدو لله و للانسان زينته في نفس بعض الناس بل القسم الأكثر منهم فاتخذها غاية لنفسها مستقلة لامقدمة للآخرة، و قد قال الله تعالى : «إنا جعلنا ما على الأرض زينة» لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً * و إنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً»^(١).

فلينظر الانسان الى كل قسم من هذه الأمور التي ذكرها الله. فأولها النساء

و آخرها الحرث، فإنه يجد مرتبة إلهية يرضى بها الله ويأمر عباده أن يكونوا كذلك حيث لم يتجاوزوا فيها الحدود التي ترضى الله ويتوصلوا بها الى دار البقاء والخلود، ويجد مرتبة شيطانية دنيوية محضة لا يعمل فيها إلا بالمحرمات الضارة التي نهى الله عنها ولم تكن إلا ملاذ دنيوية زائدة على مقدار ما يحتاج اليه الانسان. ونرى هذه الزيادة تكون موجبة لاضطراب الانسان محدثة الخلل في دينه أو عقله أو بدنه فينقلب الغرض الى ضده ، فكل من خالف الغرض من هذه الامور وتعدى الحدود و لم يستعملها في المقامات النافعة و يتركها في المقامات الضارة بل انغمس فيها انغماساً حتى غلبت على حواسه كان حفظه منها ما يحصل عليه في الحياة الدنيا فقط ، ولم ينتفع فيها بعد انقضاء مدة الدنيا كما نبهنا الله في قوله: «ذلك متاع الحياة الدنيا».

وأما الذي اقتصر منها على موارد النفع سار على الطريقة التي أمر بها الله وترك الزيادة المخلّة به فلم تغلبه بشيء من زينتها، وإنما عمل بها كمقدمة لما يقدم عليه من الآخرة، فهذا قد ربح الدنيا والآخرة كما نبهنا الله بقوله: «ولله عند حسن المآب» .

قوله تعالى: قل أأنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد (١٥).

لقد ذكر الله عز وجل في الآية السابقة الامور التي خلقها للدنيا وعرفنا أن العبد المطيع الذي يريد النفع لنفسه يمكنه أن ينتفع بالامور المخلوقة للدنيا ومع ذلك يحصل على جزاء ونتيجة في الآخرة، و ذلك كمن يتزوج لأجل إحياء النسمة و يطلب النسل و يطلب الولد لا كثار أمة النبي ﷺ و تنقيط الأرض بمن يوحد الله و يطلب المال للنفقة على العيال و صلة الرحم و مساعدة الفقراء، و قس

على ذلك بقية الامور ، فالله عز وجل - حيث إنه يريد لعباده النفع في كل الأحوال ويحب لهم أن يحصلوا على الثواب في دار الخلود - عزهم وبههم أن ذلك ممكن حتى في الانتفاع بالامور الدنيوية، ثم بعد ذلك ذكر لنا الامور التي تنفعنا في الآخرة ، وأنها أحسن و أحسن بكثير من الامور الدنيوية ، وهذه الامور إنما تكون لمن أرادها وعمل بها، وهم المتقون الذين يعملون الأعمال التي يأتي ذكرها في الآية التي بعد هذه الآية، أما في هذه الآية فقد بين الله لنا الأشياء التي يحصل عليها المتقون اذا هم عملوا بما يأتي في الآية الاخرى من الأعمال .

أما الأشياء التي أعدها الله لهم فهي ما ذكرها بقوله : «قل أنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله» فقد ذكر ثلاثة أشياء أعدها الله للمتقين. الأول : جنات تجري من تحتها الأنهار، و الجنات كما عرفها لنا القرآن وعرفنا بها النبي ﷺ في مقامات عديدة وبعد رجوعه من معراجه الى السموات ودخوله الجنة حيث وصفها وصف مشاهدة وبيان، وقد بين القرآن والنبي ﷺ أن فيها كل شيء من ما كول ومشروب و ملبوس، وفيها أنواع المأكول من لحوم مشوية وفواكه متنوعة وغير ذلك، وكذا بالنسبة الى المشروبات، وهكذا الملابس المتنوعة الأجناس .

وأعظم كلمة قالها الله في وصفها أن فيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين،^(١) إذ ليس بعد هذه الكلمة وصف يمكن أن توصف به الجنة.

وقد ذكر الله وذكر لنا النبي ﷺ أن أحسن ما ترغب إليه النفس في الجنة الحور العين وهن اللاتي يكن أزواجاً للمتقين فهي داخلة ومشمولة لقوله : «جنات تجري من تحتها الأنهار» إذ الجنة لا بد أن يكون فيها الحور ولكن الله خصها بالذكر وجعلها الأمر الثاني .

الثاني: مما أعده للمتقين فقال: «وأزواج مطهرة» و إنما خصتها بالذكر لأنها أهم شيء للرجل وألذ من كل لذة مقدمة على سائر اللذات، ولذا جعلها لله المقدمة في ذكر لذات الدنيا. أما بالنسبة الى لذات الآخرة فهي ليست الأولى من اللذات و إنما الأولى هي دخول الجنة ، فإن البشارة بدخول الجنة يعلم الشخص أنه نجا من النار، والنجاة من النار أعظم من كل بشارة.

و السبب الثاني لذكر الأزواج هو وصفها بهذا الوصف و هو أنها مطهرة خلاف نساء الدنيا، فإن نساء الدنيا يحدثن ويحضن ويعرض لهن بعض العوارض من مرض وكبر وهرم وشيب و تشويه و سوء خلق وعدم أمن و أمان و كراهة منها لزوجها أو من زوجها لها . ولو لم يحصل كل هذا فالفراق النهائي الذي لا رجعة له وهذه الصفات لا يوجد شيء منها في الحور، فهن مطهرات من كل حدث وعارض ، فلا يحدثن كحدث نساء أهل الدنيا ، وكذا جميع أهل الجنة ليس عندهم حدث.

و لا بأس بذكر قصة دينية علمية لها تعلق و دلالة بعدم حدث أهل الجنة تنقلها بطولها لأن فيها دلالة على كلامنا في الآية السابقة، و هي وجود و جلال أودع الله عندهم جميع العلوم، وأن الأرض لا تخلو منهم وهم أوصياء نبينا الاثني عشر، وهم الأئمة الذين ذكرهم النبي ﷺ أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآخرهم المهدي المنتظر عليهم سلام الله.

قال السيد عبدالله شبر في جلاء العيون: روى ابن طاووس في كتاب «أمان الأخطا» بإستاد معتبر عن الصادق عليه السلام قال: حج هشام بن عبد الملك بن مروان سنة من السنين وكان قد حج في تلك السنة محمد بن علي الباقر وابنه جعفر بن محمد عليهما السلام ، فقال جعفر بن محمد: الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً و أكرمنا به فنحن صفوة الله على خلقه وخيرته من عباده وخلفائه، فالسعيد من اتبعنا والشقي من عادانا وخالفنا.

ثم قال : فأخبر مسلمة بن عبد الملك أخاه هشاماً بما سمع فلم يعرض لنا حتى انصرف الى دمشق وانصرفنا الى المدينة فأنفذ بريداً الى عامل المدينة ياشخاص أبي وإشخاصي ، فلما وردنا مدينة دمشق حجبنا ثلاثاً ثم اذن لنا في اليوم الرابع فدخلنا ، وإذا به قد قعد على سرير الملك وجنده خاصة وقوف على أرجلهم سباطان متسلحان وقد نصب البرجاس حذاءه وأشياخ قومه يرمون ، فلما دخلنا وأبى أمامي وأنا خلفه فنادى أبى وقال : يا محمد ارم مع أشياخ قومك الغرض .

فقال له أبى : إني قد كبرت عن الرمي فهل رأيت أن تعفيني ؟

فقال : وحق من أعزنا بدينه ونبينا محمد ﷺ لا أعفيك ، ثم أومى الى شيخ من بني أمية أن اعطه قوسك ، فتناول أبى عند ذلك قوس الشيخ ثم تناول منه سهماً فوضعه في كبد القوس ورمى ثم انتزع ورمى وسط الغرض فنصبه فيه ، ثم رمى فيه الثانية فشق فواق سهمه الى نصله ، ثم تابع الرمي حتى شق تسعة أسهم بعضها في جوف بعض وهشام يضطرب في مجلسه ، فلم يتمالك أن قال : أجدت أجدت يا أبا جعفر ، أنت أرمى العرب والعجم ، كلاً زعمت أنك كبرت عن الرمي . ثم أدر كته ندامة على ما قال .

وكان هشام لم يكن أحداً قبل أبى ولا بعده في خلافته ، فهم به وأطرق الى الأرض إطرقة يتردى فيه وأنا وأبى واقفان حذاءه مواجهين له ، فلما طال وقوفنا غضب أبى فهم به ، و كان أبى اذا غضب نظر الى السماء نظر غضبان يرى الناظر الغضب في وجهه . فلما نظر هشام الى ذلك من أبى قال له : إني يا محمد .

فصعد أبى الى السرير وأنا أتبعه ، فلما دنا من هشام قام إليه واعتنقه وأقعده عن يمينه ، ثم اعتنقني وأقعدني عن يمين أبى .

ثم أقبل على أبى بوجهه فقال له : يا محمد لا تزال العرب والعجم تسودها قريش مادام فيهم مثلك ، لله درك من علمك هذا الرمي ؟ وفي كم تعلمته ؟

فقال أبى : قد علمت أن أهل المدينة يتعاطونه فتعاطيته أيام حدائتي ثم

بهر كته، فلمّا أراد أمير المؤمنين مني ذلك عدت فيه .

فقال له: ما رأيت مثل هذا الرمي قط مذ عقلت، و ما ظننت أن في الأرض أحداً يرمي مثل هذا الرمي، أيرمي جعفر مثل رميك؟ فقال: إنا نحن نتوارث الكمال و التمام اللذين أنزلهما الله على نبيه في قوله « اليوم أكملت لكم دينكم وأنممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً »^(١) والأرض لا تخلو ممن يكمل هذه الأمور التي يفصر غيرنا عنها.

فلمّا سمع ذلك من أبي انقلبت عينه اليميني فاحولت، واحمر وجهه و كان ذلك علامة الغضب، ثم أطرق هنيئة ثم رفع رأسه فقال لأبي: ألسنا بني عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد؟

فقال أبي: نحن كذلك ولكن الله جل ثناؤه اختصنا من مكنون سره وخالص علمه بما لم يخص به أحداً غيرنا .

فقال: أليس الله جل ثناؤه بعث محمداً من شجرة بني عبد مناف الى الناس كافة أبيضها و أسودها وأحمرها؟ من أين ورثتم ما ليس لغيركم ورسول الله مبعوث الى الناس كافة؟ وذلك قول الله تبارك وتعالى: «و لله ميراث السماوات والأرض»^(٢) الى آخر الآية، فمن أين ورثتم هذا العلم وليس بعد محمد نبي ولا أنتم أنبياء؟

فقال أبي عليه السلام: من قوله تبارك وتعالى لنبيه: « ولا تحرك به لسانك لتعجل به »^(٣) الذي لم يحرك به لسانه غيرنا أمره الله أن يختصنا به من دون غيرنا، فلذلك كان ناجي أخاه علياً عليه السلام من دون أصحابه فأنزل الله بذلك قرآنه في قوله تعالى: «وتعفيها اذن واعية»^(٤)، فقال رسول الله: سألت الله أن يجعلها اذنك يا علي. فلذلك قال علي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة: علمني رسول الله ألف باب من العلم ففتح

(١) المائدة : ٣ .

(٢) آل عمران : ١٨٠ .

(٣) القيامة : ١٦ .

(٤) الحاقة : ١٢ .

من كل باب ألف باب، خصه رسول الله من مكنون سره بما يخص أمير المؤمنين أكرم الخلق عليه، فكما خص الله نبيه خص نبيه أخاه علياً من مكنون سره مما لم يخص به أحداً من قومه، حتى صار إلينا، فتوارثناه من دون أهلنا.

فقال هشام بن عبد الملك: إن علياً كان يدعي علم الغيب و الله لم يطلع على غيبه أحداً فمن أين ادعى ذلك؟

فقال أبي: إن الله جل ذكره أنزل على نبيه كتاباً بيّن فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة في قوله تعالى: «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء و هدى ورحمة و بشرى للمسلمين»^(١) وفي قوله: «و كل شيء أحصيناه في إمام مبين»^(٢) وفي قوله تعالى «ما فرطنا في الكتاب من شيء»^(٣). وأوحى الله إلى نبيه أن لا يبقى في غيبه سره و مكنون علمه شيئاً إلا يناجي به علياً، فأمره أن يؤلف القرآن من بعده، ويتولى غسله وتكفينه و تحنيطه من دون قومه، وقال لأصحابه: حرام على أصحابي وأهلي أن ينظروا إلى عورتني غير أخي فإنه مني و أنا منه، له ما لي وعليه ما علي، وهو قاضي ديني ومنجز وعدي. ثم قال لأصحابه: علي بن أبي طالب يقابل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله.

ولم يكن عند أحد تأويل القرآن بكما له وتمامه إلا عند علي عليه السلام، ولذلك قال رسول الله ﷺ: أقضاكم علي. أي هو قاضيتكم، وقال عمر بن الخطاب: لولا علي لهلك عمر. يشهد له عمر ويجحد غيره.

فأطرق هشام طويلاً ثم رفع رأسه فقال: سل حاجتك.

فقال: خلفت عيالي وأهلي مستوحشين لخروجي.

فقال: قد آنس وحشتهم برجوعك إليهم ولا تقم، سر من يومك.

(١) النحل : ٨٩ .

(٢) يس : ١٢ .

(٣) الانعام : ٣٨ .

فاعتنقه أبي ودعا له و فعلت أنا كفعل أبي. ثم نهض و نهضت معه و خرجنا الى بابه و اذا ميدان بياض و في آخر الميدان اناس قعود عدد كثير، قال أبي: من هؤلاء؟ فقال الحجاب: هؤلاء القسس و الرهبان، و هذا عالم لهم يقعد إليهم في كل سنة يوماً واحداً يستفتونه فيقتيهم.

فلما فلف أبي عند ذلك رأسه بفاضل ردائه و فعلت أنا مثل فعل أبي، فأقبل نحوهم حتى قعد نحوهم و قعدت وراء أبي. و رفع ذلك الخبر الى هشام، فأمر بعض غلمانه أن يحضر الموضع فينظر ما يصنع أبي. فأقبل و أقبل عدد من المسلمين فأحاطوا بنا، و أقبل عالم النصارى قد شد حاجبه بحريرة صفراء حتى توسطننا، فقام إليه جميع القسيسين و الرهبان مسلمين عليه فجاءوا به الى صدر المجلس فقعده فيه و أحاط به أصحابه و أبي و أنا بينهم، فأدار نظره ثم قال لأبي: أمنا أم من هذه الأمة المرحومة؟ فقال: بل من هذه الأمة المرحومة.

فقال: من أين أنت من علمائها أم من جهالها؟

فقال له أبي: لست من جهالها.

فاضطرب اضطراباً شديداً ثم قال له: أسألك.

فقال له أبي: سل.

فقال: من أين ادعيتم أن أهل الجنة يطعمون و يشربون و لا يحدثون ولا يبولون؟ وما الدليل فيما تدعونه من مشاهد لا يبجل؟

فقال له أبي: دليل ما ندعي من مشاهد لا يبجل: الجنين في بطن أمه يطعم و لا يحدث.

قال: فاضطرب النصارى اضطراباً شديداً، ثم قال: هلا زعمت أنك لست

من علمائها.

فقال له أبي: إنما قلت لك لست من جهالها، و أصحاب هشام يسمعون ذلك.

فقال لأبي: أسألك عن مسألة أخرى.

فقال له أبي: سل.

فقال له : من أين ادعيتم أن فاكهة الجنة أبداً غضة طرية موجودة غير معدومة عند جميع أهل الجنة؟ وما الدليل عليه من مشاهد لا يبجّل؟
فقال له أبي : دليل ما ندعي أنه سراجنا - وفي نسخة ترابنا - أبداً يكون غصناً طرياً موجوداً غير معدوم عند جميع أهل الدنيا لا ينقطع.
فاضطرب اضطراباً شديداً فقال: هلاً زعمت أنك لست من علمائها؟
فقال له أبي : إنما قلت لك لست من جهالها.
فقال له : أسألك عن مسألة.
فقال: سل .

قال: أخبرني عن ساعة لا من ساعات الليل ولا من ساعات النهار؟
فقال له أبي : هي الساعة التي بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، يهدأ فيها المبتلى ويرقد فيها الساهر ويفيق فيها المغمى عليه، جعلها الله في الدنيا رغبة للراغبين و في الآخرة للعاملين ، لها دليلاً واضحاً و حجة بالغة على الجاحدين المتكبرين التاركين لها .

قال : فصاح النصراني صيحة ثم قال : بقيت مسألة واحدة و الله لأسألك عن مسألة لا تهتدي الى الجواب عنها أبداً .

قال له أبي: سل فإنك حاث في يمينك .

فقال : أخبرني عن مولودين ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد ، عمر أحدهما خمسون سنة وعمر الآخر مائة وخمسون سنة في دار الدنيا .

فقال له أبي: ذلك عزيز وعزير ولدا في يوم واحد، فلما بلغا مبلغ الرجال خمسة وعشرين عاماً مرّ عزيز على حمارة راكباً على قرية بأنطاكية وهي خاوية على عروشها، فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها . وقد كان اصطفاه وهداه، فلما قال ذلك القبول غضب الله فأماته الله مائة عام سخطاً عليه بما قال ، ثم بعثه على حمارة بعينه وطعامه وشرابه وعاد الى داره وعزير أخوه لا يعرفه، فاستضافه فأضافه، وبعث إليه ولد عزير وولد ولده وقد شاخوا وعزير شاب في سن ابن خمس وعشرين

سنة ، فلم يزل عزيز يذكر أخاه وولده وقد شاخوا وهم يذكرون ما يذكرونهم ويقولون: ما أعلمك بأمر قد مضت عليه السنون والشهور؟ ويقول له عزيز - وهو شيخ كبير ابن مائة وخمسة وعشرين سنة -: ما رأيت شاباً في سن خمس وعشرين سنة أعلم بما كان بيني وبين أخي عزيز أيام شبابي منك، فمن أهل السماء أنت أم من أهل الأرض؟ فقال: يا عزيز، أنا عزيز سخط الله عليّ بقول قلته بعد أن اصطفاني وهداني فأمانني مائة سنة، ثم بعثني لتزدادوا بذلك يقيناً، إن الله على كل شيء قدير، وها هو هذا حماري وطعامي وشرابي الذي خرجت به من عندكم أعاده الله تعالى كما كان. فعندما أيقن فأعاشه الله بينهم خمسة وعشرين سنة ثم قبضه الله وأخاه في يوم واحد .

فنهض عالم النصارى عند ذلك قائماً وقام النصارى على أرجلهم ، فقال لهم عالمهم : جثثمونني بأعلم مني وأقعدتموه معكم حتى هتكنتي وفضحتني ، و أعلم المسلمين بأن لهم من أحاط بعلومنا وعنده ما ليس عندنا . لا والله لا كلمتكم من رأسي كلمة واحدة ولا قعدت لكم إن عشت سنة ، فتفرقوا وأبى قاعد مكانه وأنامعه . وروى القطب الراوندي : أن الديراي أسلم مع أصحابه على يديه ورفع ذلك الخبر الى هشام ، فلما تفرق الناس نهض أبي وانصرف الى المنزل الذي كنا فيه ، فوافانا رسول هشام بالجائزة وأمرنا أن ننصرف الى المدينة من ساعتنا ولا نجلس ، لأن الناس ماجوا وخاضوا في مادار بين أبي وبين عالم النصارى فركبنا دوابنا منصرفين .

وفي رواية : أنه أمر بحبسه فقالوا له : إن أهل الحبس قد تعلقت قلوبهم بحبه فأرسلنا الى المدينة ، وقد سبقنا بريد من عند هشام الى عامل مسدين على طريقنا الى المدينة : أن ابني أبي تراب الساحرين محمد بن علي وجعفر بن محمد الكذابين فيما يظهران من الاسلام وردا عليّ ، ولما صرفتهما الى المدينة مالا الى القسيسين والرهبان من كفار النصارى وأظهرهما لهما دينهما ومرفقا من الاسلام

الى الكفر ودين النصارى وتقربا اليهما بالنصرانية فكرهت أن أنكل بهما لقرايتهما .
فإذا قرأت كتابي هذا فناد في الناس برئت الذمة ممن يشار بهما أو يبايعهما أو
يصافحهما أو يسلم عليهما فإنهما قد ارتدا عن الاسلام ، ورأى أمير المؤمنين أن
يقتلها ودوابهما وغلمايهما ومن معهما شر قتلة .

قال : فورد البريد الى مدين ، فلما شارفنا مدينة مدين قدم أبى غلمايه
ليرتادوا لنا منزلاً ويشتروا لدوابنا علفاً ولنا طعاماً ، فلما قرب غلماينا من باب
المدينة أغلقوا الباب في وجوهنا وشتموننا وذكروا على بن أبى طالب فقالوا :
لا تزول لكم عندنا ولا شراء ولا بيع يا كفار يا مشركين يا مرتدين يا كذابين يا شر
الخلائق أجمعين ، فوقف غلماينا على الباب حتى اتهمنا إليهم فكلّمهم أبى ويثن لهم
القول وقال لهم :

اتقوا الله ولا تغفلوا فلسنا كما بلغكم ولا نحن كما يقولون فاسمعونا .
فقال لهم : فهنا كما تقولوا ، افتحوا لنا الباب وشارونا وبايعونا كما تشارون
وتبايعون اليهود والنصارى والمجوس .

فقالوا : أنتم أشر من اليهود والنصارى والمجوس لأن هؤلاء يؤدون الجزية
وأنتم ما تؤدون الجزية .

فقال لهم أبى : فافتحوا لنا الباب وأنزلونا وخذوا منا الجزية كما تأخذون
منهم .

فقالوا : لا نفتح ولا كرامة لكم حتى تموتوا على ظهور دوابكم جوعاً
عطاشاً أو تموتوا ودوابكم تحتكم فوعظهم أبى فازدادوا عتواً ونشوزاً .

قال : فثنى أبى رجله عن سرجه ثم قال لي : مكائك يا جعفر لا تبرح ، ثم صعد
الجبل المطل على مدينة مدين وأهل مدين ينظرون إليه ما يصنع ، فلما صار في
أعلاه استقبل بوجهه المدينة وحده ثم وضع اصبعيه في اذنيه ثم نادى بأعلى صوته :

«والى مدين أخاهم شعيباً - الى قوله - بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين»^(١)
نحن والله بقية الله في أرضه .

فأمر الله ربحاً سوداء مظلمة فهبت واحتملت صوت أبي فطرحته في أسماع
الرجال والصبيان والنساء ، فما بقي أحد من الرجال والصبيان والنساء إلا صدوا
السطوح وأبى مشرف عليهم .

وصعد فيمن صعد شيخ من أهل مدين كبير السن فنظر الى أبي على الجبل
فنادى بأعلى صوته اتقوا الله يا أهل مدين فإنه قد وقف الموقف الذي وقف فيه
شعيب حين دعا على قومه ، فإن أتم لم تفتحوا له الباب ولم تنزلوه جاءكم من
العذاب ، وإني أخاف عليكم ، وقد اعذر من أنذر . ففزعوا وفتحوا الباب
فأنزلونا ، وكتب بجميع ذلك الى هشام ، فارتحلنا في اليوم الثاني . فكتب هشام الى
عامل مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله ، فأخذه فدفنوه حياً ، رحمه الله .

وفي رواية: أن هشام بن عبد الملك كتب الى عامل مدين بحمل الشيخ إليه
فمات في الطريق ، وكتب الى عامل مدينة الرسول ﷺ أن يحتال في سم أبي
في طعام أو شراب ، فمضى هشام ولم يتهياً له في أبي من ذلك شيء^(٢) هذا آخر ما ذكر
في هذه الرواية .

«إني أرجو من أهل العلم وممن يحب العلم وأهله وأرجو ممن يطلب
الرشد الذي قد تبين في هذه الرواية وفي غيرها من أمثالها ، أرجو ممن يريد
إنصاف نفسه ولا يرضى بهلاكها هلاكاً أبدياً ، أرجو من كل مسلم ذي عقل
وفهم أن يتأمل في فقرات هذه الرواية تأملاً دقيقاً .

فإن الذي دعاني أولاً لذكرها هو الوصف الذي ذكر في القرآن للأزواج
بقوله تعالى: «وأزواج مطهرة» فقد بين الامام عليه السلام إمكان كون الشخص يأكل

(١) هود : ٨٤ - ٨٦ .

(٢) جلاء العيون : ج ٣ ص ١٩ - ٢٥ .

ويشرب ولا يحدث ، ومثل لنا شيء مشاهد لا يجهل وهو الجنين في بطن أمه .
ثم رأيت أن الأصوب أن أذكر الرواية كلها لما فيها من فنون العلم
والكمال ، وليعرف الناس حق العلماء ، وليعرفوا أن العالم إذا قابله جاهل كيف
يحلم عنه ويتحمل أذاه .

فإن الإمام عليه السلام لما دخل على هشام ما تركه أن يسلم ويجلس بل ناداه حين
دخوله وهو في الباب : يا محمد ارم مع أشياخ قومك . ولما استعفاه الإمام لم يعفه
وحلف يميناً أنه لا يعفيه ، ثم لما أخذ القوس وأبدى تلك المهارة في الرمي التي فاق
بها العرب والعجم كما اعترف هشام نفسه بذلك لم يحترمه ولم يقدره على هذا
العلم الذي أبداه ، ثم لما سأله عما عنده من العلم وعرفه الإمام أن علمه إلهامي
من الله ، واستدل بالقرآن والسنة على ذلك لم يظهر منه أي تقدير واحترام .
ثم لما خرج منه وقابل عالم النصارى وأجاب عن تلك الأسئلة العميقة التي
لا يمكن لأحد أن يجيب عنها كان ينبغي له أن يشكره على تلك ويفخر به
ويظهر للناس ويفاخر الأمم من يهود ونصارى ، إذ أن الرجل من المسلمين وهو
يدعى أنه خليفة المسلمين ، ولكن جهله دعاه أن يحسده و يظهر له العداوة ويكتب
إلى عامله على مدين أن هذا مال إلى النصارى .

فانظر أيها المنصف ، أكان هذا جزاؤه من خليفة المسلمين ؟ ومع جميع هذه
الأفعال لم يفعل الإمام معه شيئاً وحلم عنه وعانقه وقت الفراق ودعا له ، و كان
يمكنه أن يرفع يده إلى الله ويطلب منه أن ينتقم في تلك الساعة ، إلا أن هؤلاء
الرجال - وهم الراسخون في العلم - لا يريدون إلا ما يريد الله .

ثم إن ذلك الشيخ الذي أنذر أهل مدين وحذرهم من العذاب لما توجه
إليهم وصار سبباً لنجاتهم ما كان ذنبه حتى يأمر بقتله ؟ إن ذلك كله ناشئ عن
الغرور والجهل والطفيان ، وأنسى وأجهل منه الذين يطيعونه ويسمونه : خليفة
المسلمين وأمير المؤمنين ، فاذا ذكر قوله الله : «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت» .

الأمر الثالث الذي أعده الله للمتقين هو ما ذكره بقوله تعالى : «ورضوان من الله» قرئ بكسر الراء وضمها ، ومعنى الرضوان هو الرضا ، فالآية الشريفة تخبرنا أن الله عز وجل إذا أمر بعبده أن يدخل الجنة و زوجته من النساء المظهرات يظهر له بعد ذلك أي إمامه ويخبره ، أو يعلن لأهل الجنة أنه راضٍ عن عبده فلان ، وهذه رتبة عظيمة يشرف الله بها عبده فيزداد بها سرور العبد ويتلذذ لذة روحية كما يتلذذ بنعيم الجنة لذة جسمية ، فقد قالوا : إن الله بته على مراتب النعم وإنها ثلاث : فأدناها نعم الدنيا وأوسطها الجنة ، وأعلىها رضوان الله ، وبدل على هذا قوله تعالى : «ورضوان من الله اكبر» (١) .

قال العلامة البلاغى في تفسيره عند وصوله لهذه الفقرة : «ورضوان من الله» وهو الغاية القصوى لاولى الألباب في النعيم (٢) .

وقال الحكماء : إن الجنات بما فيها إشارة الى الجنة الجسمانية ، والرضوان هو إشارة الى الجنة الروحانية ، وأعلى المقامات إنما هو الجنة الروحانية .
ثم إن الدنيا التي جعلها الله للدلالة على نعم الآخرة - وإن كان البون بعيداً - منها مايؤكل وهي جميع أنواع المآكل المفردة والمرتببة ، ومنها المشروب بجميع أنواعه ، ومنها الملبوس ، ومنها المركوب ، ومنها المضاجع وهي النساء .
وهناك شيء آخر لا يدخل في أحد هذه الأنواع ولا يصلح لأن يكون واحداً منها ، ولكن الانسان يلتذ به ويسر إذا حصل عليه وهو القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، فإنه يصلح أن يجلب جميع هذه الأشياء إذا استعصت عليه ، إذ به يحصل كل شيء ، وهكذا يكون رضوان الله ، فإنه إذا حصل للمعبود الساكن في الجنة وحظي به يمكنه تحصيل كل شيء بسببه في الآخرة ، بل إذا حصل رضا الله لعبده في الدنيا يمكنه أن يحصل على كل شيء يقربه من الله ، أما الامور المادية الدنيوية

(١) التوبة : ٧٢ .

(٢) آلاء الرحمن : ص ٢٦٤ .

إذا كان الصلاح في حصولها فكذلك يمكن تحصيلها بواسطة الرضا عنهم من الله.
فقد روي : أن موسى عليه السلام قال : يا ربي أخبرني عن آية رضاك عن عبدك؟
فأوحى الله تعالى إليه : إذا رأيتني اهتني عبي لطاعتي وأصرفه عن معصيتي فذلك
آية رضاي^(١).

وفي رواية أخرى : إذا رأيت نفسك تحب المساكين وتبغض الجبارين
فذلك آية رضاي^(٢).

قوله تعالى : «والله بصير بالعباد» لما ذكر الله عز وجل الأمور التي خلقها
للدنيا وأمرنا أن نأخذ منها ما هو من الوجوه المباحة، وأن نرفض ما هو من الوجوه
المحرمة، وأمرنا أن تكون نياتنا في الأخذ منها نيات صحيحة بسريرة حسنة ،
وكذا بين لنا الأمور التي خلقها للآخرة، وعرفنا بأن التوصل إليها لابد أن
يكون بمقدمات مباحة غير محرمة وبنيات خالصة غير مشوبة بأمر من أمور الدنيا.
ولا يخفى على النبيه أن بعض الناس يستعمل أمور الدنيا للآخرة وهم
أولو الألباب ، وبعض الناس يستعمل أمور الآخرة للدنيا وهم السفهاء أو الجهال،
ظناً منه أن ذلك كما يخفى على الناس يخفى على الله. نبت الله عباده بهذه الكلمة
ليكونوا على بصيرة من أمرهم ، فلا تغفل عن نفسك ، فإنها أعز الأنفس عليك ،
وتذكر دائماً قوله تعالى : «والله بصير بالعباد» وتذكر البيت الذي روي عن الإمام
الصادق عليه السلام والذي مر عليك سابقاً :

إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن^(٣)

قوله تعالى : الذين يقولون ربنا اننا آثمنا فاغفر لنا ذنوبنا
وقنا عذاب النار (١٦).

(٢٩١) سفينة البحار : ج ١ ص ٥٢٤ مادة «رضا» .

(٣) بحار الانوار : ج ٤٧ ص ٢٥ ب ٢٦ ذيل حديث ٢٦ .

لما بين الله سبحانه ما هي زينة الحياة الدنيا، وأمر نبيه أن ينبئنا بخير من تلك الزينة وأحسن من تلك الأمور التي ذكرها، ولكنه خص هذا الغير وهذا الأحسن بالمتقين في الدنيا بأن يكون لهم في الآخرة. وفي هذه الآية عرف لنا المتقين حتى نعرفهم فنكون منهم كي نحصى بهذه الأمور التي تقدم ذكرها، فقد عرف لنا المتقين مرة بأقوالهم ومرة أخرى بأفعالهم، فإن الأفعال وإن كانت من لوازم الأقوال ولكنها تحتاج إلى البيان لأنها لا بد وأن تكون بأمر من الله وباختياره وإرادته لا باختيار العبد، فالقول والفعل معاً لا بد فيهما أن يكونا باختيار الله الذي دلنا عليه بواسطة نبيه ﷺ والنبي أودعه عند وصيه، فليس هناك شيء يرضى الله والله يشيب عليه إلا وأن يكون بدلالة من الله، والواسطة التي تكون بين الله وبين عبده يلزم أن تكون بتعيين الله، وإلا فإطاعة الله لا يمكن أن تكون بنظر العبد واختياره سواء كان ذلك في الكم والكيف أو الواسطة أو غير ذلك.

والكلام الآن في ما بينه الله من أقوال المتقين فقال عز وجل: «الذين يقولون ربنا اننا آمننا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار».

الإيمان: هو التصديق بالله وبرسوله، فإذا قال الشخص: آمنت بالله، أي إني صدقت الله ورسوله، فإذا كان هذا القول مسبقاً ببداية يكون المنادى هو المخاطب. فقول المتقين «ربنا» قد جعلوا الله مخاطباً حين نادوه وقبل أن ينطقوا بما يريدون إظهاره من الإيمان قد أكدوه بـ «إن»، الثقيلة، فقالوا: «ربنا إنا آمناء».

لا يخفى أن تصديق الله والرسول حيث إنه كان مطلقاً غير مقيد بزمان أو مكان أو قضية خاصة فيلزم أن يكون عاماً في كل أمر ونهي، فإذا قال العبد: إني آمنت، أي صدقت بكل ما يأمرني به رسولك عنك، وهذا عهد من العبد يعاهد به ربه بأنه يفعل كل شيء يأمره به الرسول عن الله، ويترك كل شيء ينهاه عنه الرسول عن الله، فإذا خالف العبد بعد ذلك شيئاً من الأوامر أو النواهي فقد نقض عهده وخالفه وأخرج نفسه عن زمرة المتقين.

فعلية أن يتبع ما أَرَادَهُ اللهُ والرسول منه في جميع أحكامه القولية و الفعلية سواء كان وقتها في حياة الرسول أو بعد ارتحاله من الدنيا ، ولا يجوز - بحسب العقل والمنطق والعرف - أن يجتمع جماعة من أمة النبي فيختاروا شخصاً مثلهم ويجعلوه واسطة بينهم وبين الله ورسوله فيقول: افعلوا كذا واتركوا كذا، والشئ الغلاني واجب وذاك محرم.

أما إذا كان الرسول هو الذي عيّن هذا الوسيط حيث إنه علّمه الأحكام وأنّ الله أخبره بصلاحيته لهذه الوساطة لأنّ الله عصمه من الذنوب ومن الخطأ والسهو والنسيان ، فهذا مما يحكم العقل والشرع والعرف والوجدان بوجوب الأخذ منه والاعتماد على أقواله ، وأنّ من ترك أقواله وأحكامه فهو في متاهة وظلال. فمن عرف من الناس هكذا شخصاً نصبه الرسول لآمته من بعده فليتمسك به، ومن لم يعرفه فعليه الفحص والبحث والسؤال عن أهل العلم والدين، ولا يسوغ له في حكم العقل أن يهمل نفسه، فإنّ له نفساً واحدة إذا خسرها يكون قد خسر الدنيا والآخرة، هذا هو الايمان الصحيح الذي يعدّه الله إيماناً ويصف قائله بالمؤمن ويعدّه بالامور الثلاثة المتقدمة :

جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله .
أما الذي يقول آمنت و لا يعرف معناها ، أما الذي يقول آمنت ولا يرتب أثراً على كلامه ، أما الذي يقول آمنت ويعمل بما يشتهي أو يختار وسيطاً كما يشتهي ويعمل بأمره ونهيّه ، فهذا ليس له من الايمان إلا القول باللسان لا غير ، ومثل هذا نداء الله موجّه إليه أن يؤمن بقلبه كما آمن بلسانه ديا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله، ^(١) فليقل مليون مرة: آمنت آمنت ، ففي كل مرة يقولها تكتب عليه كذبة أو أشد من الكذبة ، هذا بالنسبة الى وصف المتقين بأقوالهم .

وأما وصفهم بأعمالهم وأفعالهم فقد وصفهم الله بخمس صفات فقال عز وجل:

الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين

بالأسحار (١٧).

فهذه الصفات الخمس قد وصف الله بها المتقين، وينبغي الكلام في كل صفة

منها حتى تتضح لمريد الخير الطالب للرشد.

أما الصابرون فقد ذكر المفسرون أن الصبر على أقسام:

١ - صبر على الطاعات.

٢ - وصبر عن المعاصي.

٣ - وصبر عند المصيبة.

أما الصبر على الطاعات فهو: أن يأتي العبد بجميع الواجبات ولا يترك منها

شيئاً لثقله وصعوبته، وكذا يأتي بالمندوبات ما أمكن منها ووسع الوقت.

وأما الصبر عن المعاصي فهو: أن يترك جميع المحرمات والمكروهات، وأن

يخالف نفسه التواقة وهواه المردي، بل ينبغي أن يتسرك المباحات ولا يفعل إلا

واجباً أو مندوباً.

وأما الصبر عند المصيبة فهو: ما يرد عليه من موت أحبة أو ذهاب مال أو

اعتداء من الناس وغير ذلك، فعليه أن يصبر في جميع هذه الموارد.

قال الراغب في مفرداته: الصبر هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع

أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف

مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير ويضاده الجزع، وإن كان

في محاربة سمي شجاعة ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رجب

الصدر ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً ويضاده المذل^(١)

(١) مذل بـره: أفشاه.

وقد سَمَّى الله تعالى كل ذلك صبراً ، ونَبَّه عليه بقوله : «الصابرين في البأساء والضراء» ^(١) و «الصابرين على ما أصابهم» ^(٢) و «الصابرين والصابرات» ^(٣) ^(٤) .

وعن المحقق الطوسي قال : الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه وهو يمنع الباطن عن الاضطراب واللسان عن الشكاية والأعضاء عن الحركات غير المعتادة ^(٥) .

ولقد وردت الآيات الكثيرة في مدح الصبر والصابرين حتى أن بعض الآيات جعلت عاقبة الصبر هو الفوز بخير الدنيا والآخرة كما في قوله تعالى : «ولنجزيَن الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» ^(٦) وفي قوله : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» ^(٧) وفي بعض الآيات أن الأئمة الذين جعلهم الله هداة للناس إنما اختارهم لعلمه بصبرهم على ما لا يصبر عليه أحد غيرهم ، كل ذلك لأجل المحافظة على صورة الدين الظاهرة ، كما في قوله عز وجل : «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» ^(٨) فإن الظاهر من سياق الآية وإن كانت بالنسبة إلى بني إسرائيل ، ولكن لا يخفى على ذوي المعرفة أن ذكر القصص القرآنية إنما هي لانتذار هذه الأمة و تبشيرهم فهي موجهة لهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : إنه يقع في هذه الأمة ما وقع في بني إسرائيل حذو النحل بالنحل ^(٩) فذكر قصة موسى وإيتائه الكتاب ، وجعل الأئمة من بني إسرائيل

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) الحج ٣٥ .

(٣) الاحزاب : ٣٥ .

(٤) المفردات : ص ٢٧٣ .

(٥) بحار الانوار: ج ٧١ ص ٦٨ ب ٦٢ ح ٢ .

(٦) النحل : ٩٦ .

(٧) الزمر : ١٠ .

(٨) السجدة : ٢٤ .

(٩) كنز العمال : ج ١ ص ١٨٣ ح ٩٢٨ .

وهم هارون وأولاده نظير بعثة النبي ﷺ وإيتائه القرآن ، وجعل الأئمة ﷺ من أخيه و ابن عمه و أولاده ، كما قال ﷺ : أنت مني بمنزلة هارون من موسى (١) .

ثم إننا اذا لاحظنا سيرتهم نراهم قد صبروا على امور لا طاقة لأحد من البشر أن يصبر عليها، فقد حكى عن الامام موسى بن جعفر عن أبيه عن أبي جعفر ﷺ قال : جمع رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين فأغلق عليهم الباب فقال : يا أهلي وأهل الله إن الله عز وجل يقرئ عليكم السلام، وهذا جبرئيل معكم في البيت ويقول: إن الله عز وجل يقول : إني قد جعلت عدوكم لكم فتنة ، فما تقولون ؟ قالوا : نصبر يا رسول الله لأمر الله وما نزل من قضائه حتى نقدم على الله عز وجل ونستكمل جزيل ثوابه ، وقد سمعناه بعد الصابرين الخير كله ، فبكى رسول الله ﷺ حتى سمع نحيبه من خارج البيت فنزلت هذه الآية « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً » (٢) .

ولنستمع الى أول الأئمة وأعظمهم شأنًا وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين يصف لنا صبره ويذكر المصائب والمحن التي صبر عليها، ففي الرواية المسندة الى ابن عباس قال: ذكرت الخلافة عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: أما والله لقد تقدمتها فلان وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي، ينحدر عنى السيل (٣) ولا يرقى إلى الطير، فسدلت دونها ثوباً، و طويت

(١) مسند أحمد بن حنبل : ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) تفسير البرهان : ج ٣ ص ١٥٨ والاية ٢٠ من سورة الفرقان .

(٣) قال الشيخ محمد عبده عند تعليقه على هذه الكلمة : تمثيل لسمو قدره - كرم الله وجهه - وقربه من مهبط الوحي ، وأن ما يصل الى غيره من قبض الفضل فانما يتدفق من حوضه ثم ينحدر عن مقامه العالي فيصيب منه من شاء الله، وعلى ذلك قوله « ولا يرقى . . الخ » غير أن الثانية أبلغ من الاولى في الدلالة على الرفعة .

عنها كشحاً، وطفقت أرثي بين أن أصول بيدٍ جذاء، أو أصبر على طخية عمياء^(١) يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى، أرى ترائي نهياً حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها الى فلان بعده، (ثم تمثل بقول الأعشى):

شأن ما يومي على كورها و يوم حيّان أخي جابر

فيا عجباً بينا هو يستقيها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشدّ ما تشطّرا ضرعها، فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها (وفي نسخة كلمها) ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تفحّم، فمني الناس لعمر الله بخبطٍ و شماسٍ وتلونٍ واعتراضٍ، فصبرت على طول المدة وشدة المحنة، حتى اذا مضى لسبيله، جعلها في جماعة زعم أنني أحدهم.

فيا لله وللشورى متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر، لكنني أسففت إذ أسفوا و طرت إذ طاروا، فصنى رجل منهم لضغنه^(٢)، ومال الآخر لصهره^(٣) مع هنٍ وهنٍ^(٤)، الى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه^(٥) بين ثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الابل لبنة الربيع، الى أن انتكث قتله، وأجهز عليه عمله و كبت به بطنته، فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلى ينثالون عليّ من كل جانب، حتى لقد وطىء الحسان و شقّ عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلمّا نهضت بالأمر فكنت

(١) طخية - بطاء فحاء بعدها ياء ويثكث أولها - أى ظلمة، ونسبة العمى اليها مجاز عقلى،

وانما يعنى القائمون فيها اذ لا يهتدون الى الحق، وهو تأكيد لظلام الحال واسودادها.

(٢) يشير الى سعد بن أبي وقاص.

(٣) يشير الى عبد الرحمن بن هوف.

(٤) يشير عليه السلام الى أغراض آخر يكره ذكرها.

(٥) نافجاً حضنيه : رافعاً لهما، ويشير الى عثمان بن عفان.

طائفة ومرفت أخرى وقسط آخرون^(١) كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول:
 « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض و لافساداً و العاقبة
 للمتقين »^(٢).

بلى والله لقد سمعوها و دعوها ، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم ، وراقهم
 زبرجها ، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو لاحظوا الحاضر وقيام الحجة بوجود
 الناصر ، و ما أخذ الله على العلماء أن لا يفارقوا على كظنة ظالم و لا سغب مظلوم ،
 لألقيت حبلها على غاربها ، و لسقيت آخرها بكأس أولها و لألقيتكم دنياكم هذه
 أزهد عندي من عفطة عنز .

(قالوا :) و قام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه الى هذا الموضع من
 خطبته فناوله كتاباً ، فأقبل ينظر فيه ، قال له ابن عباس رضي الله عنهما : يا أمير المؤمنين
 لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت ، فقال : هيهات يا ابن عباس تلك شقشة هدرت
 ثم قرأت .

قال ابن عباس : فوالله ما أسفت على كلام قط كأنسني على هذا الكلام أن
 لا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد^(٣) انتهى .

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف وصف لك أمير المؤمنين عليه السلام المصائب
 العظام التي مرت عليه فتلقاها بالصبر وسعة الصدر ، وعرفت قيمة الدنيا عنده فإنها
 لا تساوي عفطة عنز ، وإنما يريد إحقاق الحق وإقامة العدل ، ولكن الناس لا يريدون
 ذلك فهو سيد الصابرين وإمام المتقين .

وقال أيضاً يصف صبره على المصائب كما في النهج :

(١) الناكثة أصحاب الجمل ، و المارقة أصحاب النهروان ، و القاسطون أي الجائرون
 أصحاب صفين .

(٢) القصص : ٨٣ .

(٣) نهج البلاغة (شرح الشيخ محمد عبده) : ج ١ الخطبة ٣ ص ٣٠ .

فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ^(١) وَلَا ذَابٌ^(٢) وَلَا مُسَاعِدٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ^(٣) بِهِمْ عَنِ الْمُنِيَّةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى^(٤)، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا^(٥)، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظَمِ الْفَيْظِ عَلَى أَمْرٍ^(٦) مِنَ الْعَلَقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشَّفَارِ^(٧).

تأمل أيها القارئ في كلامه لتعرف مقدار صبره و يتضح لك أن الآية الشريفة إنما تنطبق عليه وهي قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ»^(٨).

ومن الشعر المنسوب إليه قوله **عَلَيْهِ السَّلَام** :

هي حالان شدة و رخاء	و سجالان نعمة و بلاء
و الفتى الخاذق الأريب اذا ما	خانه الدهر لم يخنه الغراء
إن أملت ملامة بي فإني	في الملمات صخرة صماء
صابر في البلاء علماً بأن	ليس يدوم النعيم و البلواء ^(٨)

وقال أمير المؤمنين **عَلَيْهِ السَّلَام** : الصبر مطية لانكبو، والقناعة سيف لا ينبو^(٩).

ثم إن هؤلاء الذين جمعهم رسول الله ﷺ في الدار و أغلق عليهم الباب وأخبرهم بأن الله قد جعل عدوهم فتنة لهم وهم : أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين **عَلَيْهِمُ السَّلَام** قد ابتلوا من أعدائهم - وهم الشجرة الملعونة من بني أمية و بني الحكم - بمصائب عظيمة وقد صبروا عليها، فإن الإمام الحسن **عَلَيْهِ السَّلَام** قد ابتلي بمعاوية، فإنه

(١) الرافد : المعين .

(٢) الذاب : المدافع .

(٣) ضننت : بخلت .

(٤) أغضيت على القذى : غضضت الطرف عنه و لا مساعد .

(٥) الشجا : ما عترض في الحلق من عظم و نحوه ، يريد به غصة الحزن .

(٦) نهج البلاغة (ضبط صبحي الصالح) : الخطبة ٢١٧ ص ٣٣٦ .

(٧) السجدة : ٢٤ .

(٨) الديوان المنسوب لأمير المؤمنين : ص ١٤ .

(٩) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٩٦ ب ٦٢ ح ٦١ .

قد فعل معه من الأذى ما تمكن منه، وقابله الامام بالصبر و الحلم الى أن دس إليه السم فمات شهيداً.

و أما الامام الحسين عليه السلام فكل أحد يعلم ما فعل معه بنو امية من تشريد وقتل وسلب وتمثيل وسبي عيال، وهذه الأفعال والأعمال ليست مع الحسين وإنما هي مع رسول الله ﷺ.

و أما فاطمة الزهراء عليها السلام فيكفي من عظم مصائبها أنها وقفت قبال قبر أبيها ﷺ وبشته أحزانها وحكت له ماجرى عليها، و آخر بيت خاطبته به هو قولها سلام الله عليها:

صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن ليالياً^(١)

وقد ذكرنا قصصاً وحكايات عن بعض الصابرين والصابرات لا يسع المقام لذكرها. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إياكم والجزع فإنه يقطع الأمل و يضعف العمل و يورث الهم، واعلم أن المخرج من أمرين ما كانت فيه حيلة فلاحتيال، وما لم تكن فيه حيلة فالاصطبار^(٢).

حكى عن بعض التواريخ أن سخط كسرى على بزرجهر فحبسه في بيت مظلم وأمر أن يصفد بالحديد، فبقي أياماً على تلك الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله فإذا هو منشراح الصدر مطمئن النفس، فقال له: أنت في هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال! فقال: اصطنعت ستة أخلاط وعجنتها واستعملتها فهي التي أبقتني على ماأرون، قالوا: صف لنا هذه الأخلاط لعلنا ننتفع بها عند البلوى، فقال: نعم. أما الخلط الأول: فالثقة بالله عز وجل.

وأما الثاني: فكل مقدر كائن.

وأما الثالث: فالصبر خير ما استعمله الممتحن.

(١) بيت الاحزان: ص ١٤٠.

(٢) بحار الانوار: ج ٨٢ ص ١٤٤ ب ٦١ ح ٢٩.

وأما الرابع : فإذا لم أصبر فماذا أصنع ؟ ولا عين على نفسي بالجزع

وأما الخامس : فقد يكون أشدّ مما أنا فيه .

وأما السادس : فمن ساعة إلى ساعة فرج . فبلغ كسرى ما قاله فأطلقه وأعزّه^(١) .

الصفة الثانية من صفات المتقين هي صفة الصدق المرادة بقوله تعالى :

«والصادقين» .

فقد ذكر القرآن آيات عديدة في مدح الصدق والصادقين ، وكذا ورد

المدح في السنة .

ثم الصدق يكون تارةً بالقول وهو الظاهر المتبادر عند إطلاق كلمة الصدق ،

وهو ما كان مجانباً للكذب بحسب اعتقاد المتكلم حين تكلمه ، وهذا هو المطلوب

من الانسان ، وهو صفة حسنة جميلة يوصف صاحبها بالصدق .

ومرة أخرى يكون الصدق بالفعل ، بمعنى أنه يأتي بفعله على الوجه الأكمل

بلا زيادة ولا نقص ولا عيب ولا خلل تامّ الأجزاء والشرائط موافقاً لإرادة الأمر

وهو الشارع المقدس ، حيث إنّ كلامنا في صفات المؤمنين ، فيلزم على العاقل

الرشيد الذي يريد أن ينتفع من أفعاله فتكون محفوظة عند مولاه العالم بأسرارهم

أن تكون أفعاله موافقة لإرادة المولى ، أي: تكون بدلالته وإرشاده ، وتكون

مستمدة من الله بالوسائط التي يقطع العبد أنها مرضية لله ، ولا يجعل لله على نفسه

حجة يوم يلقاه ، فإذا سأله الله وقال له: من الذي أمرك أن تأخذ بقول زيد وقول

عمرو ؟ ومن الذي سوغ لك الأخذ بقول فلان وفلان ؟ فليس للعبد جواب مقبول .

أما إذا أخذ بقول أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ، فإذا

سأله الله عن ذلك يقول له: إن رسول الله قال لنا: إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله

وعترتي أهل بيتي لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما .

فالعبد الذي تكون أفعاله العبادية مطابقة لمذهب أهل البيت تكون يوم القيامة

ويوم السؤال ويوم العرض الأكبر حجة واضحة قوية، أما غيره الآخذ بأقوال أبي هريرة وأشباهه فليس لديه جواب في ذلك اليوم «كل نفس بما كسبت رهينة»^(١) هذا هو الصدق بالفعل المحمود الممدوح عند الله وعند الرسول وعند كل أحد.

و مرة ثالثة يكون الصدق في النية، قال الامام الصادق عليه السلام : صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأن سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الامور كلها، قال الله: «يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم»^(٢).

فالنية بالنسبة الى الأعمال العبادية التي يريد العبد أن يتقرب بها الى ربه، وهذه النية تكون هي الواسطة بين العلم والعمل، فإن الانسان اذا لم يعلم الشيء لم يمكن قصده، و ما لم يمكن قصده لم يصدر منه، وإن المتعبد حيث كان غرضه التقرب الى الله يلزمه معرفة ما يطلبه الله منه معرفة حقيقية حتى يمكنه التقرب به فتكون النية منه صادقة، وإن لم يجزم بكون الشيء مطلوباً ومحبوباً لله فلا يمكن أن تنأى عنه النية.

هذا بالنسبة الى كل أحد، وإنما الفرق بين العالم والجاهل هو أن العالم يتوصل الى كون الشيء مطلوباً لله بالأدلة القطعية المقبولة عند الله، والجاهل يعمل باخبار العالم العادل، فالعالم يكون مكلفاً عن عمله وعمل الجاهل، فإن لم يبين عمله على أدلة صحيحة مقبولة يكون عليه وزره ووزر من يعمل بقوله، وهذا من أعظم البلاء الذي يجلبه المرء على نفسه.

ولا تظن أن النية أن تخطر بقلبك عند إرادة العبادة بأن تنوي أنك تأتي بهذه العبادة قربة الى الله تعالى، فإن هذا الاخطار غير كافٍ، وإنما النية المعتبرة هي انبعاث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها، وهذا الميل والانبعاث اذا

(١) المدثر : ٣٨ .

(٢) البحار : ج ٧٠ ص ٢١٠ ب ٥٣ ح ٣٢ والاية ٨٨ و ٨٩ من سورة الشعراء .

لم يكن حاصلها يمكنها اكتسابه بمجرد التصور لتلك الألفاظ أو النطق بها .
ولا يخفى أن طريق ابتعاث النفس وصرف القلب الى الشيء إنما يكون
بتحصيل الأسباب الموجبة له واجتناب الامور المضادة له ، فإذا كان قلبك عند إرادة
العبادة منهمكاً ومشغولاً بالامور الدنيوية والتوجه بطلبها ، أو نويت العبادة المطابقة
لقتوى العالم الذي يوجد في الأمة أعلم منه ، وذلك أعلم هو المتصف بالعدالة والعصمة
دون هذا ، فكيف يمكنك أن تتقرب بهذه العبادة الى الله وأنت لاتعلم بأن الله
طلبها منك حيث لم تكن موافقة للغرض ؟

فالنية على هذا غير صادقة وإنما هي مجرد ألفاظ تخطر على قلبك ، فكل
من أخذ أحكام دينه من غير العالم الذي أودع النبي عنده الأحكام لم يكن حين النية
جازماً بكون الفعل مطلوباً لله ولم يكن صادقاً في نيته .

روي عن النبي ﷺ أنه قال : لا يقبل قول إلا بعمل ، ولا يقبل قول وعمل
إلا بنية ، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بإصابة السنة ^(١) .

فمن يقول : أنا مسلم مؤمن ويقول أشهد أن لا إله إلا الله لا يقبل منه هذا
القول إلا أن يعمل بمضمونه ، ومن يعمل لا يقبل منه العمل إلا بنية صادقة ، ومن
يعمل بنية لا يقبل منه إلا بإصابة السنة ، والسنة لا يتوصل لها الانسان إلا بوسائل
عدول ينقلون له الأحكام التي نزلت على النبي ﷺ ، ولا واسطة عدل غير علي
وأولاده المعصومين عليه السلام ، لأن الله لما طلب منه إبراهيم أن يجعل الإمامة في
ذريته قال : ولا ينال عهدي الظالمين ^(٢) .

ومن أظهر مصاديق الظلم عبادة الأصنام ، فمن عبد صنماً في يوم من أيام حياته
لا يصلح أن يكون إماماً والشرط في الامام أن يكون موحداً مؤمناً يوم ولادته ،
وليس كذلك غير علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعليه آلاف الصلاة والسلام .

(١) أمالي الطوسي : ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

وروي عن الامام الصادق عليه السلام في قوله تعالى : «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً»، قال: ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة.

ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عز وجل^(١).

فقوله عليه السلام «ليس يعني أكثركم عملاً، لأن العمل الغير الخالص مهما كثر فهو لا يعتد به بل تضييع للعمر، وإنما العمل النافع ما ذكره بقوله عليه السلام «ولكن أصوبكم عملاً، والإصابة مطابقة العمل حقيقة لما أمر به المولى .

أما اذا كان المأمور به شيئاً والمأني به شيئاً غيره فهذا شيء غير مفيد وإن كانت المغايرة بزيادة جزء أو نقيصته، فالشرط في قبول العمل إصابته للسنة وأن يكون خالصاً لله تعالى .

أما إصابة السنة فتعرف في الخارج من أخذ العمل من الدليل المنصوب من قبل الله .

وأما الإخلاص فلا يمكن معرفته ولا يدل عليه دليل لأنه أمر قلبي لا يطلع عليه أحد ولا يدل عليه شيء ولا يعلمه إلا الله تعالى، والله قد يخبرنا عنه في بعض الأوقات لأجل أن ترسخ العقيدة في قلوبنا، فمن تلك الموارد التي أخبرنا بها قوله إخباراً ممن نزلت في حقهم سورة هل أتى في قوله تعالى : «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً»^(٢) فإن المطعمين المسكين واليتيم والأسير لم يتكلموا بذلك وإنما علمه الله فأخبر عما انطوت عليه سرائرهم، وكذا قوله تعالى : «وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٣٠ ب ٥٤ ح ٦ والاية ٧ من سورة هود، و ٢ من سورة الملك.

(٢) الانسان : ٩ .

وجه ربه الأعلى،^(١) فإنه لا يعلم هذه النية إلا الله تعالى ، هذا بالنسبة الى صدق النية في العبادة .

و أما بالنسبة الى صدق النية في أصل العقيدة المعتبرة في تحقق الايمان التي هي الأصل وعليها يبتني كل شيء من عمل وغيره وعليها تكون معاملة الله لعبده في الدنيا والآخرة فإنها - أي الصدق في العقيدة - هي المقصودة من قوله تعالى في وصف المتقين الذين هيا الله لهم الامور الثلاثة :

١- جنات تجري من تحتها الأنهار.

٢- أزواج مطهرة .

٣- رضوان من الله.

ثم وصفهم بقوله تعالى: «الصابرين والصادقين... الخ». فإن صدق النية التي ينعقد بها الايمان اذا تحققت من العبد تحقق معها كل شيء وتبعثها كل الصفات الخمس، وتحقق منه معنى القول الذي ذكره أنه يقوله وهو قوله: «ربنا إنا آمنة فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار»^(٢) وإن لم ينطبق به بلسانه فإن هذه النية الصادقة تنوب عنه وتفي به ، واذا تحقق الصدق في النية تحقق الصدق في القسمين المتقدمين وهما :

الصدق في القول ، والصدق في الفعل.

فمن أراد أن يكون من المتقين وأراد أن يحظى بوعده الله للمتقين بالامور الثلاثة عليه أن يتصف بصدق النية في العقيدة، فإن الله سيهديه الى صدق النية في العبادة ويجعله صادقاً في القول والفعل .

فقد تواترت الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: نية المؤمن خير من عمله^(٣)

(١) الليل : ١٧ - ٢٠ .

(٢) آل عمران : ١٦ .

(٣) كنز العمال : ج ٣ ص ٤١٩ ح ٧٢٣٦ .

و قد أدلت هذه الكلمة بتأويلات عديدة ، ومن أحسن التأويلات أن مراده من النية هي العقيدة الحقة ^(١) فإنها لا شك خير من عمله ، والعقيدة الحقة هي الموافقة للفرقة الناجية المقابلة لاثنتين و سبعين فرقة كلها في النار ، فيلزم على المرء أن يتصف بهذه النية بعد أن يبحث ويفحص و يبذل الجهد في تمييز الفرقة الناجية حتى تكون نيته عندما يصل الى حد الرشد و يتوجه إليه الخطاب من الله تعالى بأن يعتنق الدين الاسلامي ، وأن يدخل في زمرة المؤمنين ويشمله التكليف الموجه الى العقلاء من عبادات ومعاملات ، و يريد العبد في ذلك الحين أن يسلم وجهه لله ويؤمن به وبرسوله ينبغى له أن تكون نيته نية صحيحة موافقة لتلك الفرقة الناجية . لا أقول : إنه يلزمه في تلك الحالة البحث عن عقائد الفرق كلها و اختيار العقيدة الحقة ، فإن هذا غير ممكن أن يتحقق في سنين عديدة .

و لكن أقول : عليه اذا نوى الدخول في الدين الاسلامي أن تكون نيته اتباع ما جاء به النبي ﷺ من الله ، وامتنال أوامره ونواهيه و أخذ أحكامه من القرآن بواسطة العلماء العاملين بأحكامه الذين عينهم النبي ﷺ الأعظم ﷺ بقوله : **إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله و عترتي** ^(٢) .

فالنبي ﷺ إنما جعلهم عدلاً للقرآن لا يفترقان الى يوم القيامة لأن عندهم علم القرآن و لا يوجد عند غيرهم ، فإذا نوى أن يأخذ أحكام دينه ممن هو عالم بها حقيقة بجميع أقسامها اصولاً وفروعاً ، فقد تحقق منه صدق النية وأن الله سيعينه ويسدده ويرشده ويوصله الى مطلوبه ، هذا اذا كانت النية صادقة .

أما إذا كانت نيته غير صحيحة من أول الأمر أو أنها فسدت بعد ذلك حين تفرغ الدنيا و يستولي عليه الطمع فتكون نيته كما ذكر الله في قوله : **ومن**

(١) بحار الانوار : ج ٧٠ ص ١٨٩ ب ٥٣ ح ٢ .

(٢) راجع بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ١٧ .

الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض،^(١) فقد أخبر الله أن هؤلاء الناس يقولون آمنا ولكنهم غير مؤمنين، وأن يتهم الخديعة ولكن لا يخدعون إلا أنفسهم، وقال الله إن هؤلاء لهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون.

أما الذي يكون صادقاً في مثل هذا القول - أي إذا قال آمنت بالله وباليوم الآخر بنية صادقة - فقد أخبر الله عنهم بقوله: «وهذا يوم ينفع الصادقين صدقهم»،^(٢) فقد ظهر أن نيته الإيمان و الاسلام، إذا كانت صادقة تبعها خير الدنيا والآخرة مادامت مستقيمة، وإذا كانت كاذبة فليس لصاحبها في الآخرة نصيب، ولا يصيبه في الدنيا إلا ما قدر له الله.

ثم إن الصدق في النية إنما هو مصداق واحد وطريق واحد ليس فيه التواء، وأما الكذب فيها فله مصاديق عديدة لأن الكذب إنما ينشأ عن عدم العقيدة.

وعدم الاعتقاد مرة يكون بالنسبة إلى الواحد الأحد، وتارة يكون بالنسبة إلى نبوة محمد بن عبد الله ﷺ، وثالثة يكون بالنسبة إلى ما جاء به النبي ﷺ كلاً أو بعضاً، ومرة رابعة يكون بالنسبة إلى الوسطة التي نصبها النبي ﷺ ليكون علماً من بعده، وغير هذا وذاك، ولذا صارت الفرق الهالكة اثنتين وسبعين، والناجية واحدة.

وقد وردت الآيات والروايات الكثيرة في تصحيح النية والصدق فيها والتعبير عنها تارة بلفظ النية وتارة أخرى بالسريرة، فلا يتحقق الإيمان إلا بصحة السريرة، فلا ينبغي للعاقل أن يخدع نفسه كما نطقت الآية الشريفة، وفي الآخرة ليس له إلا العذاب الأليم.

ومن جملة الروايات التي ترشدنا إلى تصحيح النية وأنها إذا صحت أربعين

(١) البقرة: ٨ - ١٠.

(٢) المائدة: ١١٩.

يوماً أثبت الله الحكمة في قلبه، ما رواه الكليني في الكافي بالاسناد الى ابن عيينة عن السندي عن أبي جعفر عليه السلام قال : ما أخلص عبد الايمان بالله أربعين يوماً إلا زهده الله في الدنيا وبصرة داءها ودواءها وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه ثم تلا: «إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلك في الحياة الدنيا وكذلك تجزي المفترين»^(١) فلا ترى صاحب بدعة إلا ذليلاً، أو مفترياً على الله عز وجل وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته صلوات الله عليهم إلا ذليلاً^(٢).

فإخلاص الايمان لله إنما يكون إيمان لا يشوبه شيء آخر من الشرك والرياء وسائر المعاصي، بحيث تكون نيته خالصة لله في جميع أعماله من عباداته ومعاملاته وسائر حركانه، من كلام وسكوت وقيام وقعود وأكل وشرب ويقظة ونوم ونظر وسماع وغيرها، وأهم هذه الامور وأصلها ومنبعها وأولها وآخرها معرفة الواسطة التي تكون بين النبي وبين أمته في تبليغ الأحكام، فإن النبي صلى الله عليه وآله ترك لأمته القرآن والسنة.

أما القرآن فلا يتمكن كل أحد من معرفة أحكامه وتفسيره وتأويله . وأما السنة فلا تنفي بجميع الأحكام مع أن فيها الناسخ والمنسوخ والمجمل والمحكم والمتشابه، وترك النبي لأمته مع القرآن أهل بيته وهم المفسرون للقرآن لا يفارقونه ولا يفارقهم، فمن أخذ بواحد وترك الآخر فقد تركهما جميعاً، بل لا يمكن الأخذ بواحد منهما على الحقيقة، لأن الأخذ بالكتاب وحده يحتاج الى فهم معانيه ومعرفة ما فيه من الأحكام، ولا يعرفها إلا أهل البيت عليهم السلام، فإذا كان الأخذ به تاركاً لأهل البيت لم يكن حينئذٍ أخذاً بالقرآن وإنما هو أخذ بهواه، وأما الأخذ بأهل البيت عليهم السلام وحدهم فلا يتصور لأنهم متمسكون بالقرآن.

وقد عرفونا مراراً عديدة بأن كل شيء يجيئنا منهم إنما يجوز لنا الأخذ به اذا كان موافقاً للقرآن، فالأمر أن الذين تركهما لنا النبي متلازمان لا يمكن

(١) الاعراف : ١٥٢ .

(٢) الكافي : ج ٢ ص ١٦ ح ٦ .

أن يفارق أحدهما صاحبه، فمعنى إخلاص الإيمان لله أن يكون العبد مستمداً من الله في جميع أموره بمن عيّنه الله له ولا يجعل هو من ذات نفسه أحداً من الناس واسطة بينه وبين الله ورسوله، فإن من جعل أحداً من ذات نفسه فهو من أتباع الهوى، ولذا نرى الإمام الباقر عليه السلام استدلالاً بالآية الشريفة وهي قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ... الخ»، ولا يخفى على النبي ما في الاستدلال بالآية المتعلقة بقوم موسى من معنى دقيق، وذلك أن قوم موسى إنما اتخذوا العجل حينما غاب عنهم موسى، وجعل أخاه هارون خليفة عنه بأمرهم وبينهاهم، فتركوه واتخذوا العجل.

فهذا أحد أوصياء النبي وأحد خلفائه محمد الباقر عليه السلام يريد أن يعرفنا بأن كل من ترك الوسائط الذين عيّنهم النبي ﷺ لكم في أمور دينكم ودنياكم وأخذ بقول غيره واعتبر غيرهم واسطة، فإن عبادته غير خالصة وهو كمن اتخذ العجل سيناله غضب من الله وذلك.

فالمتقي الذي وصفه الله بالصدق لا بد وأن يكون صادقاً في جميع هذه المواطن، صادقاً بالقول، وصادقاً بالفعل، وصادقاً في نية العبادة، وصادقاً في نية العقيدة والإيمان، فإذا اتصف بالصدق في هذه المواطن كلها كان هو الرجل الكامل من جميع الجهات الجامع لجميع الصفات، لأن كلامه صدق وعمله صدق ونيته صدق، فليس فيه من جميع النواحي كذب ونقص، وهو المعنى والمقصود بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»^(١) فقد أمر الله المؤمنين بالتقوى وبالملازمة للصادقين والافتداء بهم والأخذ بأقوالهم لأن أقوالهم ليس فيها كذب. وكذا بالنسبة إلى أفعاله، فكل من كتب في تفسير القرآن أو كتب عن هذه الآية شيئاً لا ريب أنه من المؤمنين، وأن الله قد أمره بأمر حتمي مطلق غير معلق على شيء، أمره أن يكون مع الصادقين.

فيلزم عليه أن يفحص ويبحث عن هؤلاء الرجال المتصفين بالصدق في جميع

المواطن وأن يكون معهم لامع غيرهم، فإن عرفهم وتركهم فينبغي له أن يحكم على نفسه بلاتردد أنه غير مؤمن، وإن لم يعرفهم وترك البحث عنهم فهو أيضاً غير مؤمن لأن الله أمره بالتمسك بهم، والله لا يأمر بالتمسك بشيء غير موجود .

أما إذا قال : إنه بحث وفحص فلم يجدهم فأنا أدله عليهم وأقول له : إنهم أئمة أهل البيت الاثنا عشر عليهم السلام الذين قرنهم النبي بالكتاب ، فعليه أن يلاحظ تراجعهم وأيام حياتهم فسوف يقف على ما اتصفوا به من الصدق في القول والفعل والنية في العبادة والعقيدة فضلاً عن سائر الصفات الاخر من الصبر وغيره . وإذا أبى وامتنع عن ملاحظة أحوالهم فإنه لا يريد أن يكون من المؤمنين وذلك يعود إليه، وسيأتي الكلام على هذه الآية مع ما قبلها من الآيات في سورة التوبة إن شاء الله تعالى .

الصفة الثالثة من صفات المتقين هي التي ذكرها الله بقوله : «والقانتين» .

القنوت في اللغة بمعنى الدعاء والطاعة والسكون والقيام في الصلاة والامساك عن الكلام والخشوع وغير ذلك^(١)، وأما في اصطلاح الفقهاء فهو الدعاء في أثناء الصلاة في الركعة الثانية بعد الفراغ من القراءة قبل الركوع، سواء كان مع رفع اليدين أو بدونه، وإن كان الغالب إطلاقه على الدعاء مع رفع اليدين .

وقال الجوهرى: القنوت الطاعة، هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: «القانتين والقانتات»^(٢)، وقريب منه كلام ابن فارس^(٣) .

ولا يخفى أن الطاعة تشمل جميع المعاني ، فإذا كان القنوت هو الطاعة أو الخشوع فإنه يختلف باختلاف حال الناس قلّة وكثرة، فمن كان طائعاً أو خاشعاً في بعض الأوقات ويكون في وقت آخر غير طائع ولا خاشع فهذا لا يمكن أن يكون هو الممدوح في الآية الشريفة، وأن الذي يقطع بكونه داخلاً في مضمون الآية وأنه ممدوح من قبل الله هو ما يكون طائعاً وخاشعاً في جميع أحواله وفي جميع أوقاته وأفعاله

(١) لسان العرب : ج ٢ ص ٧٣ مادة «قنت» .

(٢) الصحاح للجوهرى : ج ١ ص ٢٦١ مادة «قنت» والاية ٣٥ من سورة الاحزاب .

(٣) معجم مقاييس اللغة : ج ٥ ص ٣١ .

وهو نفس الموصوف بالصفتين المتقدمتين من الصبر و الصدق، وهو عين المتصف بالصفة القولية التي ذكرها الله قبل هذه الصفات بقوله: «الذين يقولون ربنا إنا آمنة فاغفر لنا ... الخ»، فهو المؤمن الكامل الايمان من جميع الجهات و بجميع المعاني، و هم رجال معدودون ذكرهم الله لعباده ليعرفونهم بأسمائهم و صفاتهم فيقتدون بهم ويتعلمون منها العلوم و كيفية العبادة و الطاعة لله والخشوع له، و هم الذين قرنهم النبي بالكتاب وأمر بالتمسك بهم .

وقد روى عنهم عليه السلام العارفون بهم من رجال المؤمنين أدعية كثيرة كانوا يدعون بها في الصلاة وفي غير الصلاة، فالمؤمن أو المسلم الذي يطلب الرشد ويروم القرب من الله ومن رسوله، يلزمه أن يتعرف على هؤلاء الرجال الذين خصهم الله بذكره، ويتأمل فيما علمونا به من الأدعية والأذكار والأوراد حتى يصل الى حقيقة الحق و الى الدين الصحيح .

انظر الى دعاء كميل الذي علمه أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد، و الى غيره من الأدعية .

وانظر الى دعاء الحسين عليه السلام يوم عرفة و الى ما فيه من المضامين العالية الدقيقة .

وانظر الى أدعية الصحيفة المروية عن زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام .

وانظر الى دعاء أبي حمزة الذي يقرأ وقت السحر في شهر رمضان .

وانظر الى القنونات الواردة عنهم، لكل إمام قنوت يقنت في الصلاة .

وانظر الى الأدعية التي يدفعون بها شرّ الجبابرة من أعدائهم .

وانظر الى الدعاء الذي أمر الامام الحادي عشر الحسن بن علي العسكري عليه السلام

أهل قم أن يدعوا به لما شكوا من موسى بن بغي .

فإنك اذا اطلعت على هذه الأدعية تعرف معنى القنوت وتعرف من هم القانتون .

لقد ضيق ملوك بني امية على الامام علي بن الحسين عليه السلام غاية التضييق

ومنعوه من الجلوس الى الناس و تعليم العلوم، ولما رأى هذا الضيق منهم صار

يجلس في المسجد ويدعو الله عز وجل بفنون الدعوات، ويعلم الناس مكارم الأخلاق بدعواته، ويعلمهم آداب الدين وأحكام العبادات بدعائه، حتى جمعوا من دعواته الصحيفة وبقيت إلى هذا اليوم يدعى بها، ولكن لا يعرفها إلا من يعرف مقام الامام مع شهرتها وانتشارها وطبعها مرات عديدة.

فيا أيها المسلم، اعرف القانتين الذين عناهم الله في كتابه الكريم.

حكى عن كتاب طب الأئمة عليهم السلام قال: روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دعاء المكروب والملهوف ومن قد أعبته الحيلة وأصابته بلية دلا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، يقولها ليلة الجمعة إذا فرغ من الصلاة المكتوبة من العشاء الآخرة. وقال: إني أخذته عن أبي جعفر محمد الباقر، قال: أخذته عن علي بن الحسين ذي الثغفات، أخذه عن الحسين بن علي، قال: أخذه عن أمير المؤمنين عليه السلام، أخذه عن رسول الله. أخذه عن جبرئيل صلوات الله عليهم أجمعين، أخذه جبرئيل عن الله عز وجل^(١). أقول: هل يوجد هذا السند عن أحد من الناس غير أهل بيت النبوة، هذا واحد من ملايين فلا تغفلوا عنه.

باطالب الرشد، استمع لما يرويه حبة العرنى، قال حبة: بينا أنا ونوف نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمر المؤمنين عليهم السلام في بقية من الليل واضعاً يده على الحائط شبيه الواله وهو يقول: **إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**^(٢) قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمر شبه الطائر عقله، فقال لي: أراقد أنت يا حبة أم راقق؟ قلت: راقق، هذا أنت تعمل هذا العمل، فكيف نحن! قال: فأرخى عينيه فبكى.

ثم قال لي: يا حبة إن الله موقفاً ولنا بين يديه، موقفاً لا يخفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبة إن الله أقرب إلي وإليك من حبل الوريد، يا حبة إنه لن يحببني

(١) طب الأئمة: ص ١٢٢ والآية ٨٧ من سورة الأحزاب.

(٢) البقرة: ١٦٤.

ولا إيمانك عن الله شيء.

قال: ثم قال: أراقدا أنت يانوف؟ قال: قال: لا يا أمير المؤمنين ما أنا براقدا، ولقد أطلت بكائي هذه الليلة. فقال: يانوف إن طال بكائك في هذا الليل مخافة من الله تعالى قرت عينك غداً بين يدي الله عز وجل، يانوف إنه ليس من قطرة قطرت من عين رجل من خشية الله إلا أطفأت بحاراً من النيران، يانوف إنه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله من رجل بكى من خشية الله وأحب في الله وأبغض في الله، يانوف إنه من أحب في الله لم يستأثر على محبته، ومن أبغض في الله لم ينل ببغضه خيراً، عند ذلك استكملتم حقائق الإيمان.

ثم وعظهما وذكّرهما وقال في أواخره: فكونوا من الله على حذر فقد أذرتكما. ثم جعل يمر وهو يقول: ليت شعري في غفلاتي أعرضت أنت عني أم ناظر إلي؟ ليت شعري في طول منامي وقلة شكري في نعمك على ما حالي. قال: فوالله ما زال في هذا الحال حتى طلع الفجر.

وقد ذكر نواف لمعاوية بن أبي سفيان بعض صفات الامام وأنه ما فرش له فراش في ليل قط ولا أكل طعاماً في هجير قط. وقال نواف: أشهد لقد رأيته في بعض مواقفه فقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، وهو قابض بيده على لحيته يتململ يتململ السليم ويبكي بكاء الحزين... الخ^(١).

فإذا أردت أن تعرف الفاتنين من هم فانظر الى أفعالهم وأقوالهم.

الصفة الرابعة من صفات المتقين التي ذكرها الله هي قوله: «والمنفقين».

الاتفاق هو إعطاء المال في سبيل الله لمن هو محتاج إليه، سواء كان بقصد الزكاة الواجبة أو المندوبة، أو صلة الرحم، أو الصدقة المطلقة أو المساعدة والمعاونة أو الهدية، أو سائر الوجوه الواجبة أو المندوبة، بشرط أن يكون

خالصاً لوجه الله تعالى لا يخالطه شيء من أمور الدنيا، وقد ذكرنا في سورة البقرة الآيات الآمرة بالانفاق وشروطه التي تجعله مقبولا عند الله .

و قبل الشروع في ذكر ماورد في الحث على الانفاق من الآيات و الأخبار ينبغي الالتفات الى أن الله عز وجل قد ذكر في الآية المتقدمة قبل هذه الآية أن الأمور التي زينت للناس وهم يحبونها ويشتهوها إنما هي متاع الحياة الدنيا، وقد بتهنا في هذه الآية على شيء مهم وهو : أن من جملة أمتعة الدنيا الذهب والفضة ، وأنه يتمكن الرجل العالم العاقل أن يجعل الذهب والفضة سبباً للتمتع في الآخرة مضافاً الى الدنيا ، وذلك بأن ينفق الكل أو البعض في سبيل الله ، فيحرز بهذا الانفاق صفة من صفات المتقين ، فإذا ضم إليها بقية الصفات دخل في جملة المتقين ، فيحصل على ما أعد الله له في الآخرة من الجنات والأزواج والرضوان .

وقد ورد جملة من الأخبار بهذا المعنى ، فمنها ما روي عن الصادق عن أبيه الباقر عليه السلام أنه سئل عن الدنانير والدراهم وما على الناس فيهما، فقال أبو جعفر عليه السلام: هي خواتيم الله في أرضه جعلها الله تعالى مصلحة لخلقه ، و بها تستقيم شؤونهم ومطالبهم، فمن أكثر له منها فقام بحق الله تعالى فيها وأدى زكاتها فذلك الذي طابت وخلصت له ، ومن أكثر له منها فبخل بها ولم يؤد حق الله فيها وانخذ منها الآية فذلك الذي حق عليه وعبد الله عز وجل في كتابه : « يوم يحمى عليها في نار جهنم ، ^(١) .

وروي أن يهودياً أتى الى أمير المؤمنين عليه السلام فسأله عن مسائل ، فكان فيما سأله أن قال : لم سمي الدرهم درهماً والدينار ديناراً ؟

فقال عليه السلام : إنما سمي الدرهم درهماً لأنه دارهم ، من جمعه ولم ينفقه في طاعة أدرته النار . وإنما سمي الدينار ديناراً لأنه دار النار ، من جمعه ولم ينفقه في طاعة

الله أودته النار ، فقال اليهودي: صدقت يا أمير المؤمنين^(١).

وقال رسول الله ﷺ: الدينار والدرهم أهلكا من كانا قبلكم وهما مهلكاكم^(٢)

الانفاق :

ومدح فاعله بصورة مطلقة، وأن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد عن النار، وأن البخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة قريب من النار، ولكن الانفاق يختلف ثوابه بحسب معرفة المنفق وعلمه، حيث إنه يعرف أين يضع المال وفي أي وجه ينفقه، فإننا قد نرى أشخاصاً ينفقون الشيء الكثير من المال ولكن في غير محله، وقد يعطي الرجل شيئاً قليلاً مصادفاً محله فيمدح عليه كثيراً، وقد يعطي وهو لا يملك غير المال الذي أعطاه فيمدح عليه كثيراً حيث إنه لا يملك سواء، فالمناط في الانفاق معرفة المحل والمورد الذي ينبغي الانفاق فيه.

وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: ليس السخي المبذر الذي ينفق ماله في غير حقه ولكنه الذي يؤدي إلى الله عز وجل ما فرض عليه في ماله من الزكاة وغيرها، والبخيل الذي لا يؤدي حق الله عز وجل في ماله^(٣).

ولهذا ترى أن أعلم الناس بحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة أسمع الناس كفاً وأزهدهم في المال، بل لا يفرق بينه وبين التراب في بذله لمريده. ولقد كان الأئمة الأطهار عليهم السلام من حيث معرفتهم بزوال الدنيا ومن حيث إنهم أكمل الناس في كل شيء، كانوا أسمع الناس وأسخى الناس بعد رسول الله ﷺ، وقد شهد الله لهم بذلك ورسوله ومحبيه وعدوهم.

أما شهادة الله لأول الأئمة وهو علي بن أبي طالب عليه السلام فقد أنزل آية واحدة

(١) سفينة البحار : ج ١ ص ٤٤٥ مادة «درهم» .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٣٥٢ ب ٨٧ ح ٩ .

عرفنا فيها أنه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وأنه الخليفة والولي علينا بعد الرسول ﷺ وهي قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»^(١). فهذه الآية الشريفة فيها شهادة من الله على أربعة أشياء .

الأول: كونه من المؤمنين الكاملين بالإيمان .

الثاني: كونه مقيماً للصلاة .

الثالث: كونه مؤتياً للزكاة .

الرابع: كونه ولياً للمؤمنين بعد النبي ﷺ .

وإنما لم تذكر الجهة الأولى وهي الإيمان لأنه جعله ولياً للمؤمنين ، ولا يكون ولي المؤمنين إلا الكامل في إيمانه، ولا يجوز أن يكون الولي ناقص الإيمان، وأعني من ناقص الإيمان هو الذي تصدر منه معصية واحدة من أول عمره إلى آخره ولو كانت صغيرة أو صدرت منه سهواً أو خطأً، فكيف بمن عبد الأوثان وسجد لها! وهذا يعرف من أداة الحصر التي صدرت بها الآية وهي لفظة «إِنَّمَا» حيث حصر الولاية بالله وبالرسول وبالمؤمنين المتصفين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم راکعون . وليست هذه الآية وحدها نزلت في حق الإمام بل هناك آيات غيرها ستذكر إن شاء الله عند الوصول إليها .

وأما شهادة النبي والمحبين فهي الأخبار التي رواها الأصحاب عن النبي ﷺ في حقه وهم بها مقرون معترفون .

وأما شهادة أعدائه فمنها قول ألد الأعداء وهو معاوية بن أبي سفيان وكان يجتهد في وصفه وعيبه وذلك حينما جاءه محفن بن أبي محفن الضبي وقال له: جئتكم من عند أبخل الناس ، فقال له معاوية: ويحك كيف تقول إنه أبخل الناس ولو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبين لأنفذ تبره قبل تبينه، وهو الذي كان يكنس

بيوت الأموال ويصلي فيها وهو الذي قال: يا صفراء ويا بيضاء غري، وهو الذي لم يخلف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام^(١).

وأما سخاء إمامنا الحسن بن علي عليه السلام فمنه ما روي أنه أعطى سائلاً خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار، وأعطى طيلسانه لكري العمال، وأعطى سائلاً آخر ما في الخزانة وأنشد قائلاً:

نحن اناس نوالنا خضل	يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا	خوفاً على ماء وجه من يسأل
لو علم البحر فضل نائلنا	لغاض من بعد فيضه خجل ^(٢)

وقال أنس بن مالك: حيث جارية للحسن بن علي عليه السلام بطاقة ريحان فقال لها: أنت حرة لوجه الله. فقلت له في ذلك، فقال: أدبنا الله تعالى فقال «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها»^(٣) وكان أحسن منها اعتاقها^(٤).
وله عليه السلام شعر:

إن السخاء على العباد فريضة	لله يقرأ في كتاب محكم
وعد العباد الأسخياء جنانه	وأعد للبخلاء نار جهنم
من كان لا تندي يدها بنائل	للاغبين فليس ذاك بمسلم ^(٥)

وله حكايات كثيرة في السخاء:

قال البيهقي في المحاسن في باب محاسن الحسن عليه السلام: وكان عليه السلام أسخى أهل زمانه، وذكروا أنه أتاه رجل في حاجة، فقال: اذهب فاكتب حاجتك في رقعة وارفعها إلينا نقضها لك، قال: فرفع إليه حاجته فأضعفها له، فقال بعض جلسائه:

(١) بحار الانوار: ج ٤١ ص ١٤٤ ب ١٠٧ قطعة من حديث ٤٥.

(٢) بحار الانوار: ج ٤٣ ص ٣٤١ ب ١٦ ح ١٤.

(٣) النساء: ٨٦.

(٤ و٥) بحار الانوار: ج ٤٣ ص ٣٤٣ ب ١٦ ح ١٥.

ما كان أعظم بركة الرقعة عليه يا بن رسول الله ؟ فقال : بركتها علينا أعظم حين جعلنا للمعروف أهلاً^(١) .

وأما حكايات السخاء عن إمامنا الحسين الشهيد عليه السلام فهي كثيرة منها : قضاؤه دين اسامة وهو ستون ألف درهم^(٢) ، وإعطاؤه الفرزدق أربع مائة دينار^(٣) . ومنها : أنه وفد أعرابي إلى المدينة فسأل عن أكرم الناس فدل على الحسين عليه السلام ، فدخل المسجد فوجده مصلياً فوقف يازائه وأنشأ يقول :

لم يخب الآن من رجالك ومن	حرك من دون بابك الحلقة
أنت جواد وأنت معتمد	أبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذي كان من أوائلكم	كانت علينا الجحيم منطبقه

قال : فسلم الحسين عليه السلام وقال : يا قنبر هل بقي من مال الحجاز شيء ؟ قال : نعم أربعة آلاف دينار ، فقال : هاتها قد جاءها من هو أحق بها منا ، ثم نزع برده ولف الدنانير فيها ودفعتها للأعرابي وأنشأ يقول :

خذها فإنني إليك معتذر	واعلم بأنني عليك ذو شفقه
لو كان في سيرنا الغداة عصى	أمت سمانا عليك مندقته
لكن ريب الزمان ذو غير	والكف مني قليلة النفقه

قال : فأخذها الأعرابي وبكى ، فقال له عليه السلام : لعلك استقلت ما أعطيناك ؟ قال : لا ولكن كيف يأكل التراب جودك^(٤) .

وروي أن عبدالرحمن السلمى علم ولداً للحسين سورة الحمد فلما قرأها على أبيه أعطاه ألف دينار وألف حلّة وحشى فاه دراً ، فقيل له في ذلك فقال : وأين يقع هذا من عطائه ، يعني بذلك تعليمه^(٥) .

(١) المحاسن والمساوي : ص ٥٥ .

(٢) بحار الانوار : ج ٤٤ ص ١٨٩ ب ٢٦ ح ٢ .

(٣) بحار الانوار : ج ٤٤ ص ١٩٠ ب ٢٦ ح قطعة من حديث ٢ .

(٤) بحار الانوار : ج ٤٤ ص ١٩١ ب ٢٦ ح ٣ .

وروي أنه جاء الحسين عليه السلام رجل من الأنصار يريد أن يسأله حاجة، فقال:
يا أخ الأنصار من وجهك عن ذلّ المسألة، وارفع حاجتك في رقعة واثت بها
سأسرك إن شاء الله. فكتب إليه: يا أبا عبد الله إن لفلان عليّ خمسمائة دينار
وقد ألح بي فكلّمه ينظرني الى ميسرة، فلما قرأ الحسين الرقعة دخل منزل له
فأخرج صرة فيها ألف دينار، وقال له: أمّا خمسمائة فاقض بها دينك وأمّا خمسمائة
فاستعن بها على دهرك ولا ترفع حاجتك إلا الى أحد ثلاثة: الى ذي دين أو مروة
أو حسب ^(١).

وأما ما ذكر عن سخاء علي بن الحسين عليهما السلام فقد روي عن عمرو بن دينار
قال: حضرت زيد بن اسامة بن زيد الوفاة فجعل يبكي، فقال له علي بن الحسين عليهما السلام:
ما يبكيك؟ قال، يبكيني أن عليّ خمسة عشر ألف دينار لم أترك لها وفاء،
فقال له علي بن الحسين: لا تبك فهي عليّ وأنت بريء منها، فقضاها عنه ^(٢).

وروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: لما حضر محمد بن اسامة الموت
دخلت عليه بنو هاشم، فقال لهم: قد عرفتم قرابتي ومنزلتي منكم وعليّ دين
فاحب أن تضمنوه عني، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: أما والله تلك دينك عليّ،
ثم سكت وسكتوا، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: عليّ دينك كله، ثم قال: أما أنه
لم يمنعني أن أضمنه أولاً إلا كراهة أن يقولوا سبقنا ^(٣).

وكان علي بن الحسين يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة، وكان يعجبه
أن يحضر طعامه لليتامى والاضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم، وكان
يناولهم بيده، ومن كان منهم له عيال حمل له الى عياله من طعامه، وكان لا يأكل
طعاماً حتى يبدأ فيتصدق بمثله ^(٤).

(١) بحار الانوار: ج ٧٨ ص ١١٨ ب ٢٠ ح ١٢.

(٢) بحار الانوار: ج ٤٦ ص ٥٦ ب ٥ ح ٨.

(٣) سفينة البحار: ج ١ ص ٦٠٩ مادة «سخي».

وأما ما يروى من سخاء أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام فإنه كان يجيز بالخمسمائة الى الستمائة الى الألف درهم ، وكان لا يمل من صلة إخوانه وقاصديه ومؤمليه وراجيه ^(١) .

وأما ما روي عن سخاء إمامنا جعفر الصادق عليه السلام فعن أبي جعفر الخثعمي قال : أعطاني الصادق عليه السلام صرة فقال لي : ادفعها الى رجل من بني هاشم ولا تعلمه أنني أعطيتك شيئاً ، قال : فأتيته فقال : جزاء الله خيراً ما زال كل حين يبعث بها فتعيش به الى قابل ولكن لا يصلني جعفر بدرهم في كثرة ماله ^(٢) .

وروي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال : كنت عند سيدنا الصادق عليه السلام إذ دخل عليه أشجع السلمي يمدحه فوجده عليلاً فجلس وأمسك ، فقال له سيدنا الصادق عليه السلام : عد عن العلة واذكر ما جئت له ، فقال أشجع :

أبسك الله منه عافية في نومك المعتري وفي أرقك
يخرج من جسمك السقام كما أخرج ذل السؤال من عنقك

فقال الصادق عليه السلام : يا غلام أيش معك ؟ قال : أربعمائة درهم ، فقال : أعطها للأشجع ، قال : فأخذها وشكر وولى ، فقال : ردوه ، فقال : ياسيدي سألت فأعطيت فلم رددتني ؟ قال : حدثني أبي عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : خير العطاء ما أبقي نعمة باقية ، وأن الذي أعطيتك لا يبقى لك نعمة باقية ، وهذا خاتمي فإن أعطيت به عشرة آلاف درهم وإلا فعد علي وقت كذا وكذا اوفك إيتاء ، قال : ياسيدي قد أغنيتني وأنا كثير الأسفار وأحصل في المواضع المفزعة فتعلمني ما آمن به علي نفسي ، قال : فإذا خفت أمراً فاترك يمينك على أم رأسك واقراً برفيع صوتك : وأقير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون ^(٣) ، قال أشجع : فحصلت في وادي فعتت فيه الجن ، فسمعت قائلاً

(٢٩١) سفينة البحار : ج ١ ص ٦٠٩ مادة «سخي» .

(٣) آل عمران : ٨٣ .

يقول : خذوه ، فقرأتها ، فقال قائل : كيف تأخذه وقد احتجز بآية طيبة ^(١) .

وأما سخاء الامام السابع موسى بن جعفر عليه السلام فإنه كان يصل بالمائتي دينار الى الثلاثمائة ^(٢) .

وكانت صرار موسى مثلاً بين الناس . كانوا يقولون : عجباً لمن جاءته صرة موسى فشكى الفلة ^(٣) .

وقد أعطى العمري الذي كان يؤذيه ويسبه ثلاثمائة دينار وله قصة لطيفة ^(٤) . وأعطى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي أراد أن يسمى به عند هارون أربعمائة وخمسين ديناراً وألفاً وخمسمائة درهم ^(٥) .

وروي أنه قد حضره فقير مؤمن يسأله سداً فاقته ، فضحك في وجهه ، فقال : أسألك مسألة فإن أصبتها أعطيتك عشرة أضعاف ما طلبت ، وإن لم تصبها أعطيتك ما طلبت ، وكان قد طلب منه مائة درهم يجعلها في بضاعة يتعيش بها ، فقال الرجل : سل ، فقال موسى عليه السلام : لو جعل إليك التمني لنفسك في الدنيا ما كنت تمنى ؟ قال : كنت أتمنى أن ارزق التقية في ديني وقضاء حقوق إخواني ، قال : ومالك لم تسأل الولاية لنا أهل البيت ؟ قال : ذلك قد أعطيته وهذا لم اعطه ، فأنا أشكر على ما اعطيت وأسأل ردّ ما منعت ، فقال : أحسنت ، اعطوه ألفي درهم ، وقال : اصرفها في كذا يعني في العفص فإنه متاع يابس ^(٦) .

وأما سخاء الامام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام فإنه قضى دين أبي محمد الغفاري وكان ديناً ثقيلاً ^(٧) .

وأعطى الرجل الخراساني الذي افتقد نفقته في طريق الحج مائتي دينار ^(٨) . وأعطى أبانؤاس ثلثمائة دينار والبغلة التي كان ركبها ^(٩) .

(١) سفينة البحار : ج ١ ص ٦٠٩ مادة «سخي» .

(٢-٩) سفينة البحار : ج ١ ص ٦١٠ مادة «سخي» .

ولما دخل عليه دعبل بن علي وإبراهيم بن العباس في ولاية العهد أنشده دعبل:

مدارس آيات خلت من تلاوة و منزل وحي مقفر العرصات

وأنشده إبراهيم :

أزال عزاء القلب بعد التجلد مصارع أولاد النبي عهد

فوهب لهما عشرين ألف درهم من الدراهم التي عليها اسمه^(١).

وروى الصدوق عن البرزطي قال: قرأت كتاب أبي الحسن الرضا عليه السلام إلى ولده

أبي جعفر عليه السلام: يا أبا جعفر بلغني أن الموالي إذا ركبتم أخرجوك من الباب الصغير

وإنما ذلك من بخل بهم لئلا ينال منك أحد خيراً، فأسألك بحقي عليك لا يكن

مدخلك ومخرجك إلا من الباب الكبير، وإذا ركبتم فليكن معك ذهب وفضة،

ثم لا يسألك أحد إلا أعطيته، ومن سألك من همومك إذ تبره فلا تعطه أقل من خمسين

ديناراً والكثير إليك، ومن سألك من عمتك فلا تعطها أقل من خمسة وعشرين

ديناراً والكثير إليك، إني إنما أريد أن يرفعك الله تعالى فأنفق ولا نخش من ذي

العرش اقتاراً^(٢).

وأما الإمام التاسع محمد الجواد عليه السلام فإنه عمل بما كتب أبوه الرضا عليه السلام، فصار

يخرج ويدخل الباب الكبير ويعطي كل من يجده عند الباب^(٣).

أما ما ذكر عن سخاء الإمام العاشر علي بن محمد الهادي عليه السلام فإنه أعطى كل واحد

من أحمد بن إسحاق وعلي بن جعفر الهمداني وعثمان بن سعيد ثلاثين ألف دينار،

وأعطى الرجل الذي قصده من الكوفة لأداء دينه ثلاثين ألف درهم^(٤).

أما الإمام الحادي عشر الحسن العسكري عليه السلام فقد أعطى علي بن إبراهيم

(١) سفينة البحار : ج ١ ص ٧٧ مادة «برهم» .

(٢) سفينة البحار : ج ١ ص ١٤٤ مادة «خلق» .

(٣) سفينة البحار : ج ١ ص ٦١٠ مادة «سخي» .

ابن موسى بن جعفر خمسمائة درهماً ، وأعطى ابنه محمد ثلاثمائة و كانا على الوقف ^(١) .

وأعطى إسماعيل العباسي مع كذبه في سؤاله مائة دينار ^(٢) .

وأعطى لأبي يوسف شاعر المتوكل وكان فقيراً أربعمائة درهم ^(٣) .

وأعطى بعض العلويين خمسين ديناراً ^(٤) .

وأما ما يكون من سيرة الامام المنتظر عجل الله فرجه وجعلنا من أنصاره فقد أخبرنا بها أجداده الأئمة الأطهار الأبرار .

فمن ذلك ما رواه في البحار عن جابر قال : دخل رجل على أبي جعفر الباقر عليه السلام فقال له : عافاك الله اقبض مني هذه الخمسمائة درهم فإنها زكاة مالي ، فقال له أبو جعفر : خذها أنت فضعها في جيرانك من أهل الاسلام والمساكين من إخوانك المسلمين ، ثم قال : اذا قام قائم أهل البيت قسم بالسوية وعدل في الرعية فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله ، وإنما سميت المهدي لأنه يهدي الى أمر خفي ويستخرج التوراة وسائر كتب الله عز وجل من غار بأفطائية ، ويحكم بين أهل التوراة بالتوراة وبين أهل الانجيل بالانجيل وبين أهل الزبور بالزبور وبين أهل القرآن بالقرآن ، ويجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض وظهرها ، فيقول للناس : تعالوا الى ما قطعتم فيه الأرحام وسفكتم فيه الدماء الحرام ور كبتكم فيه ما حرم الله عز وجل فيعطى شيئاً لم يعطه أحد قبله ، ويملا الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً كما ملئت ظلماً وجوراً وشرأ ^(٥) .

وروي عن أبي نصر عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ في

قصة المهدي قال : فيجيء الرجل فيقول : يا مهدي أعطني أعطني ، فيحني له في

(١-٤) سفينة البحار : ج ١ ص ٦١٠ مادة «سخي» .

(٥) بحار الانوار : ج ٥٠ ص ٢٩٤ ب ٣٧ ح ٦٩ .

نوبه ما استطاع أن يحمله^(١).

وفي خبر آخر في البحار مسنداً الى أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال

رسول الله ﷺ:

يخرج في آخر الزمان خليفة يعطي المال بغير عدد. هذا حديث صحيح

أخرجه مسلم عن زهير بن حرب عن عبد الصمد بن عبد الوارث عن أبيه عن داود. انتهى^(٢).

الصفة الخامسة التي ذكرها الله للمتقين بقوله: «والمستغفرين بالأسحار».

الاستغفار هو طلب العبد من الله أن يغفر له ذنبه وتقصيره. والمغفرة والغفران:

هو أن يستر عليه الله ذنبه، وأن يعفو عما يستحقه العبد من العقوبة على ما صدر منه من الذنب والتقصير. والاستغفار و طلب العفو من الله لا يعني أنه صدر منه إحدى الذنوب التي يعرفها الناس من المعاصي الصغائر والكبائر، فإن هذا المعنى إنما يكون بالنسبة الى سائر البشر غير الأنبياء والأوصياء الذين يلزم كونهم معصومين من الذنوب، فإن هذا القسم يرى نفسه مذنباً اذا اشتغل بأكل أو شرب أو نوم، حيث إنه شغل نفسه بما ينفع به جسمه، ويرى أن الواجب عليه أن يصرف جميع أوقاته في عبادة الله.

ثم إن هذه الصفة - وهي الاستغفار بالأسحار - تدخل في صفة القنوت الذي

تقدم اذا قلنا إنه بمعنى الخشوع أو الدعاء، وتكون هذه الصفة في وقت خاص وهو وقت السحر.

اذا عرفت ذلك فيلزم أن تعرف أن الاستغفار إنما يتحقق من العبد اذا

كان ملتفتاً الى نفسه والى تقصيره في حق مولاه، وأن هذا التقصير يستحق عليه العقوبة ويحذر من المولى أن يوقع به هذه العقوبة فيتدارك تقصيره بالتوبة وطلب

(١) بحار الانوار: ج ٥١ ص ١٠٤ ب ١ ضمن حديث ٣٩.

(٢) بحار الانوار: ج ٥١ ص ١٠٥ ب ١ ذيل حديث ٣٩.

العفو والمغفرة .

و من أحسن الأوقات و أنسبها لطلب العفو والاستغفار وقت السحر، فإن النوم طيب ويلذ في ذلك الوقت، فإذا ترك العبد النوم في وقت طيبه ولذته وتوجه لعبادة الله بعد أن أسبغ وضوءه و صلى الصلاة المطلوبة منه في ذلك الوقت و هي صلاة الليل، وبعد فراغه من الصلاة يتذكر ذنوبه و آثامه، أو يلتفت الى تقصيره، ثم يتذكر ما أعدّه الله للعاصي من العذاب، أو يتذكر حال المقصرين و بعدهم عن الله عز وجل فيندم على ما فرط منه من الذنب أو التقصير، فيستغفر الله من ذلك ويسأله أن يغفر له هذا الذي صدر منه من ذنب أو تقصير ويعاهد الله أنه لا يعود الى هذا العمل أبداً .

إن أولياء الله و عباده المقربين الذين ذاقوا حلاوة المناجاة يستأنسون في مناجاتهم في تلك الساعة وهي ساعة السحر، لأن الناس كلهم في نوم عميق، وليس في ذلك الوقت أصوات تشغلهم عما هم عليه، فهم في فراغ من كل الامور الدنيوية وقد انقطعوا الى الله بقلوبهم وناجوه مناجاة الحبيب احببيه، فهم يستغفرونه و يطلبون منه عتق رقابهم من النار .

ثم إن الاستغفار فيه فوائد كثيرة دنيوية و اخروية كما جاءت الآيات و الروايات بذلك . فمن الآيات قوله تعالى حاكياً عن نوح عليه السلام : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهاراً »^(١) فهذه الآية الشريفة تبين لنا أن الانسان اذا استغفر ربه بعد ارتكاب المعصية ولم يبق مصراً على الذنب يغفر له الله و لا يعاقبه في الآخرة على فعله التائب عنه. و أما في الدنيا فإن الله يرسل عليه من السماء كل شيء يطلبه من الله، ويزيد له في أمواله و أولاده و يجعل له جنات أنهاراً في الدنيا والآخرة .

تنبيه

ومما ينبغى للحكومات الاسلامية أن يلتفتوا إليه ويتأملوا فيه ويعتبروا بقوله تعالى في سورة هود : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين »^(١) .

إنى أكتب هذه الأسطر في سنة ١٩٦٦ والحكومات الاسلامية في غاية الاضطراب فيما بينها ، فترى كل حكومة لا ترضى أعمال غيرها من الحكومات ولننظر الى سوريا قد أحاط بها الخطر من جميع جوانبها قد حشدت اليهود جيشها على حدودها ، هؤلاء اليهود أذل الامم وأحقرها وأقلها قوة وبأساً وأخضعها للاسلام و اذا بهم يحشدون جيشهم على حكومة إسلامية ، فيالأسف أين قوة الاسلام و سطوته و رهبته ! فهل تعرفون السبب في هذا ؟ فإنني اخبركم به .

إن السبب هو ارتكابهم للجرائم وعدم استغفارهم كالأعلان في بيع الخمر و أكل الربا ومخالفة قوانين القرآن ، وعدم اتفاق المسلمين بعضهم مع بعض ، وقد قال الله تعالى في سورة النساء : « ولأنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً »^(٢) .

وإن من أصعب الامور الاقتداء بالكافرين ولو في أقل الامور ، و إنما كرت تاريخ كتابة هذه الأسطر بالتاريخ الميلادي لأنى لو أرخته بسنة ١٣٨٦ لجهله أكثر الناس ولظنوا أن الكتابة كانت قبل ستمائة سنة .

فليستغفر المجرمون ربهم و يتوبوا إليه حتى يزدحم قوة الى قوتهم ويخلصهم من كيد المستعمرين الذين يلعبون بهم لعب الأطفال بالكرة ، ومع الأسف ينبغى أن نقول فى هذا العصر لعب الرجال بالكرة ، فإن رجالنا اقتداء بالأعداء قد تروا ما ينفعهم واهتموا بلعبة الأطفال .

(١) هود : ٥٢ .

(٢) النساء : ٦٤ .

ومن شجون الحديث أنني بالأمس قرأت في بعض الصحف الإسلامية افتخار المسلمين بفوز البطل محمد علي كلاي في الملاكمة، فما أدري أي فرقة أو أي مذهب من مذاهب المسلمين جواز أو رجح لهذا البطل هذه اللعبة الخطرة التي قد تأتي على بعض أعضائه الرئيسية فتعيبها أو تسقطها عن الاعتبار ! وقد تأتي على عينيه فتتركه جليس داره لا ينفع نفسه ولا ينفع المسلمين بشيء من هذه القوة التي وهبها الله إياها، وما أدري أي فائدة تعود عليه أو على المسلمين من هذه الملاكمة ! نعم لو كانت في حرب المسلمين مع أعدائهم لكان ذلك من أعظم الأمور، لأنهم أن ضربوا علي عليه السلام يوم الخندق إلى الآن تذكر على المنابر وصفحات التاريخ حيث إنها كانت لأجل الدين.

وأما ما جاء من الأخبار في فوائد الاستغفار فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : لكل داء دواء ودواء الذنوب الاستغفار (١).

وعن الإمام الخامس أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : كان رسول الله والاستغفار لكم حصنين حصينين من العذاب، فمضى أكبر الحصنين وبقي الاستغفار، فأكثرُوا منه فإنه ممحاة للذنوب، قال الله عز وجل : «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» (٢).

وعن النبي ﷺ قال : طوبى لمن وجد في صحيفته عمله يوم القيامة تحت كل ذنب : أستغفر الله (٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال : كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مجلس وإن خف حتى يستغفر الله خمسين مرة (٤).

وعن الحارث بن مغيرة عن الصادق عليه السلام قال : إن الله يحب المفتن التواب،

(١) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٧٩ ب ١٥ ح ١١ .

(٢) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٧٩ ب ١٥ ح ١٣ والاية ٣٣ من سورة الانفال .

(٣) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٨٠ ب ١٥ ح ١٥ .

(٤) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٨١ ب ١٥ ح ٢٢ .

قال : وكان رسول الله ﷺ يتوب الى الله في كل يوم سبعين مرة من غير ذنب ، قلت : يقول : أستغفر الله وأتوب إليه ؟ قال : كان يقول : أتوب الى الله ^(١) .

وعن النبي ﷺ قال : من كثرت همومه فليكثر من الاستغفار ^(٢) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : العجب ممن يهلك والمنجاة معه ، قيل : وما هي ؟ قال : الاستغفار ^(٣) .

وعن النبي ﷺ قال : من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ^(٤) .

فالذي يظهر من الأخبار أن البلاء الذي يصيب الناس إنما يصيبهم لأجل إصرارهم على الذنوب وعدم استغفارهم ، تأمل في كلمة الامام أمير المؤمنين عليه السلام : «العجب لمن يهلك والمنجاة معه» فالعبد ينبغي له أن يذكر الله في كل أمر يريد فعله أو يذكره في كل يوم مرة .

أما الذي بيده السلطة والأمر والنهي فينبغي له أن يكون على حذر في كل حين، وأن يستغفر الله من كل خطيئة في كل وقت. ومعنى الاستغفار من ذوي الأمر: هو ترك ظلم العباد ، وإلا فإن قول «أستغفر الله ربي وأتوب إليه» لا ينفعه اذا كان مجرداً عن ترك الذنب .

فقد ورد في الأخبار أن العبد اذا استغفر الله وهو باقٍ على فعل المعاصي فهو كالمستهزئ بربه، وأن العقوبة ونزول البلاء أقرب وأسرع الى هذا العبد من غيره ^(٥) .

(١) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٨٢ ب ١٥ ح ٢٥ .

(٢) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٨٣ ب ١٥ ح ٢٨ .

(٣) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٨٣ ب ١٥ ح ٣٠ نقلاً عن دعوات الراوندي .

(٤) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٨٤ ب ١٥ ذيل حديث ٣٠ نقلاً عن دعوات الراوندي .

(٥) بحار الانوار : ج ٦ ص ٣٦ ب ٢٠ ح ٥٤ نقلاً بالمعنى .

هذا ما أمكن ذكره في باب الاستغفار، والآيات والأخبار الواردة فيه كثيرة جداً. وبعد الوصول الى هنا فقد علمنا من الآية الشريفة أن المتصف بهذه الصفات الخمس فهو من المتقين وممن وعده الله بالامور الثلاثة بالآخرة، وأن الذي في صفة واحدة أو صفتان أو ثلاث من هذه الصفات فإنه حائز على بعض صفات المتقين، ويمكن أن توصله هذه التي فيه الى بقية الصفات إن كان ممن يطلب العلى ويجاهد نفسه. وبعد هذا نقول : لما انتقل النبي ﷺ من دار الدنيا الى دار الخلود فهل عثرت الامة بعده أو وجدت من هو حادٍ لهذه الصفات كلها أو بعضها من أصحابه وخاصته وأهل بيته؟ وهل ذكر أهل التاريخ أن أحداً فحص وبحث وتصفح ممن اجتمعت فيه هذه الخصال بعد النبي ﷺ؟ أو أن القرآن والنبي ﷺ أشارا الى من تجمعت فيه هذه الخصال باسمه الصريح حتى يعرف في الامة؟

والجواب عن هذه الأسئلة هو : أن القرآن لم يصرح باسم أحد كما صرح باسم النبي محمد ﷺ أنه رسول الله، ولكنه وصفه لنا وصفاً ببعض أفعاله، والنبي ﷺ عرفنا أيضاً بصاحب الصفة التي ذكرها القرآن، فمن أراد الحق والحقيقة فقد عرفه بصفته من القرآن وباسمه من النبي، فيلزمه أن ينزله بالمنزلة التي أنزله بها القرآن، وأما من يريد المغالطة والمماراة ويتغنى الفتنه بتأويل المتشابه من القرآن فإنه سيكون مع زائفي القلوب ويحشر الى النار.

وأما النبي ﷺ فقد ذكر لنا من هو المتصف بالصفات الخمس وبغيرها مما يؤهله الى منصب الخلافة بعد رسول الله.

أما ما ذكره القرآن فهو قوله تعالى : وإنا ما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ^(١) فهذه الآية عربية صريحة محكمة يفهمها كل عربي له أدنى فهم، ولا تخفى إلا على إنسان يقول ويعترف بأنه لا فهم له ولا معرفة. فالآية تعرفنا وتأمرننا بأن الولي علينا بعد

رسول الله هو صاحب هذه الصفة ، وأن الله هو الذي جعله ولياً علينا وليس لنا أن نرفضه أو نبدله، فالآية ليس فيها إجمال ولا تحتاج الى ترجمة لمن لا يعرف شيئاً من العربية ، يبقى علينا أن نعرف صاحب هذه الصفة من هو .

فقد ذكر المفسرون من علماء الأمة المحمدية من جميع فرقهم أن النبي ﷺ لما نزلت عليه الآية قال لأصحابه: قوموا حتى نرى من صاحب هذه الصفة، فتوجهوا الى المسجد فعرفوا أن المتصدق هو علي بن أبي طالب عليه السلام تصدق بخاتمه على المسكين وهو راكم ^(١) .

وبعد هذا نرجع الى مانحن فيه فنقول: إن هذا المؤمن المتصدق في صلاته الذي جعله الله ولياً على المؤمنين بعد رسوله لا بد وأن يكون حائزاً على هذه الصفات الخمس وعلى غيرها من العلم والعمل به والزهد وغيرها الى آخر الأخلاق الحميدة، هذا اذا أراد الانسان أن يعرف صاحب الصفات فإن ما ذكر كاف في المعرفة، أما اذا أراد المجادلة بالباطل فإن أبواب الباطل كثيرة وإن كانت كلها واهية، وإن في القرآن آيات اخر كلها تدل على ما دلت عليه هذه الآية، فمن أرادها فليطلبها، ومن لم يردّها فهي حجة عليه ، ولا يبطل مدلولها اذا لم يردّها المتكبر على أحكام الله. وأما ما ذكره النبي ﷺ فهو موقوف على ذكر مقدمة ليكون الأمر واضحاً جلياً لكل أحد ويظهر لنا أن المجادل فيه إنما هو مجادل بالباطل .

أما المقدمة فهي قوله تعالى: «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقلوا حطة نغفر لكم خطاياكم و سنزيد المحسنين» ^(٢) .

وحاصل الأمر من هذه الآية: أن قوم موسى لما كتب الله عليهم أن يتبوهوا في الأرض أربعين عاماً وبعد انقضاء المدة لما فصلوا من أرض التيه ودخلوا العمران،

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ٢١٠ .

(٢) البقرة : ٥٧ .

وكان بنو إسرائيل قد أخطأوا خطيئة فأحب الله أن ينقذهم منها إن تابوا علمهم طريقة التوبة ووعدهم على ذلك أن يرغد لهم العيش فيكونوا منعمين في الدنيا والآخرة. أما طريقة التوبة فهي في غاية السهولة وذلك بأن يدخلوا الباب التي أمرهم بالدخول منها بحالة مخصوصة وأن يقولوا كلمة مخصوصة .

أما كيفية الدخول فهي أن يدخلوا حائنين ظهورهم كهيئة الراكع إشارة لخضوعهم لله تعالى وأنهم مطيعون لأمره .

وأما الكلمة التي أمروا أن يقولوها فهي كلمة الاستغفار المعبر عنها بكلمة «حطة» والمقصود منها الطلب من الله أن يحط عنهم خطيئتهم ويغفر لهم، وقد جعل الله الدخول من الباب بهذه الكيفية المخصوصة علامة للمؤمن المطيع، وعدم الدخول من هذا الباب أو الدخول بكيفية أخرى أو عدم التكلم بهذه الكلمة حين الدخول أو عدم نية الامتثال لأمر الله بأن يدخل ويقول ولكن لاعتقيدة وإيمان علامة للمنافق العاصي الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

و بعد أن جعل الله الدخول بهذه الكيفية هي العلامة الفارقة بين المؤمن والكافر كان المؤمن من بني إسرائيل إذا أراد الدخول من الباب أحنى ظهره - أي دخل الباب ساجداً وهو خاضع لله - وهو يقول: اللهم حط عنا الذنوب واغفر لنا. وأما الكافر كان إذا أراد الدخول ولم يتمكن من الدخول قائماً - حيث إن الباب كان واطئاً - يزحف على استه ويقول بدل حطة حنطة حمراء، وقد أشار الله إلى هؤلاء الذين بدلوا القول والفعل بقوله: «فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون»^(١) .

فقد اتضح للمسلم الذي يروم التبصير في دينه والذي يطلب الرشد ولا يكون كالأعمى الذي يقوده غيره، فلا يدري أين يضع قدميه وما يبطأ برجليه، اتضح له أن المؤمن هو الذي يدخل باب حطة على الكيفية التي أمره الله بها، وأن الذي يمتنع من الدخول أو يدخل على خلاف ما أمره الله فهو كافر، وأنه من الظالمين، وأنه

من الفاسقين الذين سينزل الله عليهم رجزاً من السماء .

إذا عرفت هذا فاستمع أيها المسلم المصدق بالنبى ﷺ لما يقوله لك نبيك ويرويه عنه الثقات من العلماء، ثم ارجع الى عقلك فاسأله عما يحكم به من امور الدين فاعمل به و لا تخالفه ، فإنك إن خالفت حكم العقل و حكم القرآن و حكم النبى فلماذا تسمى نفسك مسلماً؟ فهل تريد أن تخذع نفسك أو تخذع الناس؟! فإن ذلك لا يضر غيرك، فاحذر وثبت.

في الصواعق المحرقة لابن حجر قال: الحديث الرابع و الثلاثون ، أخرج الدار قطني في الافراد عن ابن عباس أن النبى (ص) قال : علي باب حطة ، من دخل منه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً^(١).

وأخرج علي المتقي في كنز العمال^(٢) والمنتاوي في فيض القدير^(٣) و كل منهما قال: أخرجه الدار قطني في الافراد عن ابن عباس ... الى آخر الحديث المتقدم . أيها المسلم ، قد عرفت معنى باب حطة و سمعت قول النبى ﷺ والمراد من قوله هو : أن من اتخذ علياً عليه السلام إماماً بعد النبى ﷺ و عمل بأقواله فهو كالداخل من باب حطة يعد عند الله و عند الرسول مؤمناً و يغفر الله له ذنوبه ، ومن لم يتخذ علياً إماماً ولم يعمل بأقواله ولم يتخذ أحكام دينه منه لم يكن من المؤمنين كما ذكر النبى ﷺ فهو عند الله من الكافرين ، ولم يغفر له ذنوبه ويعاقبه عليها، هذا صريح قول النبى ﷺ فإن كنت تفهم من قوله ﷺ معنى آخر خلاف هذا الظاهر فتخذ بما تفهم وذن الله به فإنه سيحاسبك عليه ، و يعلم بسرك و خفي أمرك فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

هذه رواية واحدة ذكرتها لك و هي كافية لمن يطلب الرشد ، فقد ذكرها

(١) الصواعق المحرقة : ص ١٢٥ .

(٢) كنز العمال : ج ١١ ص ٦٠٣ ح ٣٢٩١٠ .

(٣) فيض القدير : ج ٤ ص ٣٥٦ .

رجل مناوئء للشيعة و ألف الصواعق رداً على الشيعة و ذكر فيه هذه الرواية ،
فالمطالب للحق^١ يكتفي بها بعدما عرف حقيقة باب حطة وسمع قول النبي ﷺ .
وإذا أردت التأكد والزيادة على هذه الرواية فإن مثلها كثير من الروايات .

قال في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش مسند أحمد: علي باب حطة، من
دخل منه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً^(١) .

وهكذا ذكره في المناقب المرتضوية العلامة الشيخ محمد صالح الكشفي الحنفي^(٢) .

و كذا ذكره في أرجح المطالب الشيخ عبيد الله الأمرتري الحنفي^(٣) .

و كذا ذكره في أسنى المطالب العلامة الشيخ محمد درويش الحوت^(٤) .

و كذا في ينابيع المودة للشيخ سليمان القندوزي الحنفي^(٥) و كذا في

مفتاح النجا في مناقب آل العبا^(٦) .

و ذكره العلامة النبهاني في الفتح الكبير^(٧) .

و كذا ذكره الكثير من العلماء والمؤرخين .

وما الفائدة من التعداد والكتابة فإن القارئ إما أن يكون طالباً للحق

فإنه يكفيه حديث واحد يذكره عالم غير متهم، وإن كان يريد كثرة الرواة وتعداد

الروايات من غير تأثير بذلك فعليه بالكتب الكبار، فليقرأ ما يشاء، فإن كل خبر

كل رواية يقرأها تكون حجة عليه يسأله الله عنها يوم الحساب الأكبر، فلا يجد

عذراً له ولا جواباً .

إذا عرفت هذا فلنرجع الى ما نحن فيه من الصفات الخمس المذكورة في

الآية الشريفة، وهل أنها مجموعة في رجال نوه الله والرسول عنهم؟

(١) منتخب كنز العمال المطبوع بهامش مسند أحمد بن حنبل : ج ٥ ص ٣٠ .

(٢) (٤١٣ و ٤١٤) لم نشر عليها .

(٥) ينابيع المودة : ج ٢ ص ٧١ .

(٦) لم نشر عليه .

(٧) الفتح الكبير : ج ٢ ص ٣٤٢ .

فنقول: إن النبي ﷺ لم يكن ليأمر أمته أجمع بالرجوع الى شخص ويحثهم على أخذ أحكام دينهم منه ويحكم بإيمان المتمسك به و كفر المبتعد عنه كما سمعت من قوله ﷺ: علي باب حطة من دخل منه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً. فإن النبي ﷺ لم يحث على هذا إلا بالنسبة الى شخص يكون مثله باتصافه بجميع الأخلاق والصفات الحميدة وجمعه لجميع العلوم .

هذا الذي يمكن أن نقوله في حق النبي ﷺ واذا قلنا غير هذا فقد قصرنا في حق النبي .

وأما رواية عبدالله بن مسعود التي أخرجهما العلامة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة بسنده حيث قال: وعن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : علي بن أبي طالب باب الدين من دخل فيه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً . فمن أراد أن يدين الله بالدين الذي جاء به الرسول فليمتثل أمر النبي وليدخل من الباب الذي عينه النبي له، فإن الله يقول: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واثتوا البيوت من أبوابها،^(١).

فقد تحصل عندنا أن الرجال المتصفين بهذه الصفات من أول وجودهم في الدنيا الى ساعة خروجهم منها هم الذين خصص الله لهم جزاء في الآخرة خيراً من الدنيا كلها من أولها الى آخرها، ولا يكفي اتصاف البعض بهذه الصفات في بعض أيام حياتهم وإن كان له عند الله الجزاء الحسن ولكنه لا يساوي المتصف في جميع أيام حياته. فيلزم على الانسان العاقل أن يفحص و يبحث عن هؤلاء الرجال الذين مدحهم الله ورضي عنهم وجعلهم أهلاً للجزاء الاخروي ، يلزم على المرء معرفة هؤلاء ليقتردي بهم في أقوالهم وأفعالهم إن كان ممن يطلب الرشد ويريد التقرب الى الله. فإن الله قد وصفهم بصفات كثيرة في آيات عديدة فمنها الآية التي بعد هذه

الآية وهي قوله تعالى:

شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائماً
بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (١٨).

الشهادة: لغة " مأخوذة من الشهود وهو الحضور ولا يجوز أن يكون أحد شاهداً
على شيء حتى يكون متيقناً للشيء بأحد الحواس، وحيث إن " وحدانية الله وعدله
المعبر عنه بقيامه بالقسط ليسا مما يدركان بالجوارح والحواس الظاهرية وإنما
يدركان بالعقل والمعرفة، فالشاهد عليهما من البشر لم يكن شاهداً بذلك المعنى
أي: مدركاً لهما بالحواس، وإنما قيل له شاهد لكمال يقينه وقدرته على إقامة
الحجة عليهما، وقد جعل الله اولى العلم شهوداً على هذين الأمرين وهم من البشر،
قرنهم الله بالملائكة و أنزلهم بهذه الرتبة العالية بحيث اختارهم شهوداً على
وحدانيته وعدله .

وهذا مقام رفيع اختص الله به اولى العلم من خلقه، فإن الآية وإن لم تكن
من موضوع الكتاب فإنه خصص لصفات المؤمنين، و لكن الآية هي من صفات
أولياء المؤمنين فيلزم ذوي العقل وطالبي الرشد أن يفحصوا عن أهل العلم الذين
اختارهم الله شهوداً لوحدانيته وعدله، حتى يسمعو منهم ما يفيضونه عليهم من
العلوم المتعلقة بالوحدانية والعدل، فهؤلاء هم الذين جعلهم الله شهوداً على هذين
الأمرين .

والمطلوب من أمة خاتم الأنبياء أن يدينوا الله بالاعتقاد بهذين الأمرين، يلزم
على كل فرد من الأمة أن يستمع الى ما يلقيه هؤلاء الشهود حتى يعرفوا معنى
الوحدانية والعدالة والقيام بالقسط معرفة حقيقية مطابقة لما يريد الله وتعرفه

الملائكة، فإنه لا يعرفها من البشر إلا أولوا العلم، وأن هؤلاء - أي أولوا العلم الذين ذكرهم الله - عندهم علوم القرآن بجميع أنواعها وأصنافها، وحيث إن أمة النبي ملزمة بالعمل بالقرآن يلزمهم الرجوع إلى العلماء ليتعلموا منهم أحكام القرآن أيضاً.

ثم نسأل الأمة هل أنها تعرف من هؤلاء العلماء أحداً بعد رسول الله أو أنها بقيت في التيه عن معرفة الطريق إليهم؟ نعم يتمكن التائه أن يعرف الطريق إليهم بكلمة واحدة إذا تأمل فيها وأراد الاهتداء إلى الطريق.

وإذا أردت أن تعرف ما هي الكلمة فهي قول أولهم ورئيسهم الصادق المصدق، قال عليه السلام: علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب^(١). فهل ترى أيها العاقل الطالب للرشد الذي تريد الدين الصحيح، هل ترى في أمة محمد رجلاً كهذا علمه رسول الله ألف باب أو مائة باب أو عشرة أبواب يفتح له من كل باب عشر أبواب؟ فما بال الناس لا تطلب العلم من هذا الرجل؟ وقد خاطبهم مراراً عديدة قائلاً لهم: سلوني قبل أن تفقدوني^(٢).

أيها الأديب، إن هذا العصر يختلف عما سبقه من العصور، هذا عصر عرف فيه قدر العلم، فانظر أنت في خطب أمير المؤمنين وما فيها من بديع المعاني، انظر إلى خطبته في التوحيد، وما جمعت من أصول العلوم ما لا تجمعها خطبة، فمنها قوله عليه السلام: وما وحده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا إيتاء غنى من شبيهه الخ... الخ^(٣).

و قد أودع أمير المؤمنين عليه السلام هذه العلوم كلها عند الأئمة الأحد عشر من

(١) تفسير نور الثقلين : ج ٤ ص ٤٤٤ ح ١٣ .

(٢) نهج البلاغة : ص ٢٨٠ الخطبة ١٨٩ ضبط صبحي الصالح .

(٣) نهج البلاغة : ص ٢٧٢ الخطبة ١٨٦ .

بنيه ﷺ ، و هم الذين نوه عنهم رسول الله وسمّاهم بأسمائهم ، فانظر لما صدر منهم من العلوم النافعة للبشر و لاتسلك طريقاً سلكه قبلك اناس اميون ليس لهم شيء من المعارف ، فإنك بحمد الله عارف أديب تفهم الكلام وتميز بين الحسن وغيره . انظر الى توحيد المفضل لتعرف الأدلة والبراهين التي بينها الامام الصادق عليه السلام للمفضل بن عمر ، واعرف لأهل العلم حقهم ، واعرف كيف فضّلهم الله وعرف الأمة بهم حيث جعلهم شهداء لتوحيده و عدله وقيامه بالقسط وهي منزلة رفيعة عالية ، فلا تبخسها ولا تكن من الجاهلين .

ثم بعدما بين لنا الله الامور التي زينت للناس في الدنيا ، و أنها تزول أو يزول عنها صاحبها ، و أنبأنا أن عند الله خيراً منها ، و أن هذا لا يكون إلا للمتقين ، و أخبرنا أن المتقين الحقيقيين إنما هم الذين اتصفوا بهذه الصفات ، عرفنا أن التقوى إنما تحصل بالاعتقاد بعدله و أنه قائم بالقسط ، و حيث إن الاعتقاد بقيامه بالقسط يلزمه الكف عن الظلم سواء كان ظمناً للنفس أو ظمناً للغير ، فإنه إن لم يكف عنه فمقتضى عدل الله القصاص منه .

وحيث إن الانسان خلق جاهلاً لكل شيء و هو محتاج الى العلم بجميع أنواع العلم حتى يتركه فيفوز برضا الله ، ولهذا خلق الله رجالاً فالهمهم العلم وأمرنا بالرجوع إليهم لنعرف أحكام ديننا .

وبالختام لا بأس بذكر شيء من فضل آية الشهادة .

قال في مجمع البيان: ومما جاء في فضل هذه الآية ما رواه أنس عن النبي ﷺ قال: من قرأ «شهد الله... الآية» عند منامه خلق الله منها سبعين ألف خلق يستغفرون له الى يوم القيامة .

وعن الزبير بن العوام قال: قلت: لأدنون هذه العشية من رسول الله وهي عشية عرفة حتى أسمع ما يقوله ، فحبست ناقتي بين ناقة رسول الله وناقة رجل كان الى جنبه فسمعته يقول: «شهد الله أنه لا إله إلا هو... الآية» فما زال يرددها حتى رفع .

و عن غالب القطان قال: أثبت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش، فكنيت اختلفت إليه، فلمّا كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر الى البصرة قام من الليل يتهجّد فمرّ بهذه الآية «شهد الله أنه لا إله إلا هو . . . الآية»، ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به و أستودع الله هذه الشهادة و هي لي عند الله ودية «إن الدين عند الله الاسلام»، قالها مراراً . قلت: لقد سمع فيها شيئاً فصلّيت معه وودعته ، ثم قلت: آية سمعتك تردها فما بلغك فيها؟ قال : لا احديثك بها الى سنة ، فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة، فلمّا مضت السنة قلت: يا محمد قد مضت السنة. فقال: حدّثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله: يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله: «إن لعبدي هذا عهداً عندي وأنا أحقّ من وفي بالعهد، أدخلوا عبدي هذا الجنة .

و قال سعيد بن جبیر: كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً فلمّا نزلت «شهد الله أنه لا إله إلا هو . . . الآية» خرّرن سجّداً^(١) انتهى .
ثم بعد كل هذه الامور أخبرنا الله تعالى بأنه لا يقبل منا إلا ما عينه لنا من الدين، وهو قوله تعالى :

ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفربآيات الله فان الله سريع الحساب (١٩).

فإن الاسلام هو التسليم لله و لرسوله في كل الامور و الخضوع و الانقياد لأمرهما و نهيهما ، وإن جماعة من اليهود - وهم الذين اوتوا الكتاب - كانوا في المدينة وأطرافها وكانوا يحدّثون عن بعثة النبي و يذكرون أوصافه و ينتظرون ظهوره، وكانوا يظنون أنهم يمكنهم التلاعب والاحتيال والمكر والختل كما هي

عادتهم في كل مكان وأوان، فلمّا بعث النبي ورأوا أنه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً أظهروا الخلاف وغالطوا وناقشوا وقالوا: إن الموعود غير هذا «وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب» .

أما غير أهل الكتاب من الذين آمنوا بالنبي ﷺ فإن ساروا على الطريق الذي أرشدهم إليه ودلهم عليه و سلموا له في جميع الامور فإن الله يقبل منهم ذلك، وأما إذا خالفوا أمر النبي وشرعوا اموراً من آرائهم وما تشتهيهم أنفسهم فإن هذا من أعظم المآثم والجرائم، وخذ لك مثلاً واحداً وقس عليه سائر الامور. فإن النبي ﷺ قال لهم في مقامات عديدة: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنكم لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما»^(١) .

فينبغي للمرء أن يتدبر ويتأمل ويفكر ويتحقق ولا يكن من الغافلين ويقول «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»^(٢) فإن هذا الاعتذار لو كان الأمي الذي كان في العصور السابقة يقنع به نفسه يقبله منه مثل من كان مثله في الآية، أما في العصر الحاضر الذي دخل الناس فيه المدارس وتعلموا العلوم حتى تخرج منهم : المدرس والمهندس والطبيب والدكتوراه الذي يمكنه أن يتوصل الى رتبة الوزارة أو غير ذلك من الرتب العالية، فهل ترى أن الأمي الذي امتد به الزمن فعاش الى هذا العصر هل يعذر هذا المتعلم لو اعتذر بهذا العذر؟ أو تراه يجابهه بالرد عليه ويقول له: أنا ما كنت أعلم ولا أفهم ولا أفكر بأن أبي كان ضالاً فأنت أيها الدكتور كيف تقول ذلك؟ وأنتك توصلت الى امور دقيقة عجز عنها جدك وأبوك وهذا قول البسطاء البلهاء السذج الذين لا علم لهم ولا معرفة. ولندكر للدكتور كلمة قالها أمير المؤمنين عليه السلام في تعريف الاسلام

(١) راجع بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .

(٢) الزخرف : ٢٣ .

وعليه بالتدبر فيها لعله يتوصل منها الى شيء ينفعه .

قال عليه السلام: لأنسبن* الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي... الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق والتصديق هو الاقرار، والاقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل . ثم قال : إن* المؤمن أخذ دينه عن ربه و لم يأخذه عن رأيه، إن* المؤمن يعرف إيمانه في عمله و إن* الكافر يعرف كفرانه بإنكاره ، أيها الناس دينكم دينكم فإن* السيئة فيه خير من الحسنة في غيره، إن* السيئة فيه تغفر، وإن* الحسنة في غيره لا تغفر^(١).

تأمل في هذه الكلمات التي ألقاها عليك باب مدينة العلم فإنه يقول : إن* المؤمن أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه . وهل يمكنك أن تأخذ دينك عن ربك إلا بواسطة من قال في حقه النبي صلى الله عليه وآله : أنا مدينة العلم وعلي بابها^(٢). وقال علي عليه السلام : علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب^(٣). أيها الدكتور الأديب الفاهم، لاتخذع نفسك فإنه لا يقبل منك قولك وإنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .

ثم بعدما بين الله لعباده بواسطة نبيه أن الدين هو التسليم والانقياد والخضوع والامتثال في كل ما يأمر به المولى بحيث يأخذه عن ربه ولا يخلطه بشيء يأخذه عن رأيه ، بعد ما بين لنا هذا بإيضاح وجلاء ولم يبق فيه شيء من الابهام والخفاء حتى يعتبر به من يريد الفتنه ويريد الفساد، فمن كان بهذه الصفة فهو مؤمن ومسلم حقيقة ، ومن لم يكن بهذه الصفة فإن* الله أمر نبيه أن يقول للمخالفين له بأنه هو ومن اتبعه - أي من اتصف بهذه الصفات - هم المسلمون حقاً، ثم يكرر عليهم السؤال ثانياً ويسألهم سؤال إنكار وتوبيخ هل أنهم أسلموا كإسلامه أو أنهم مصرّون

(١) بحار الانوار : ج ٦٨ ص ٣١١ ب ٢٥ ح ٣ .

(٢) كنز العمال : ج ١١ ص ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٠ .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج ٤ ص ٤٤٤ ح ١٣ .

على البقاء فيما كانوا عليه؟ فقال تعالى :

فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين
اوتوا الكتاب والاميين أسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا
فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد (٢٠).

أي: بعدما بينت أيها النبي للناس حججك وأدلتك على توحيد الله وقيامه
بالقسط، وأن القيام بالقسط معنى عام يشمل جميع المخلوقات من أنواع البشر والحيوان
والشجر والنبات والجن* و الملائكة بأن* خلقتها جعلت على هيئة حكيمة ليس
فيها نقص ولا ميل الى زيادة أو نقصان ، و من جملة ذلك الشرائع السماوية ، فإنها
مرتببة من قوانين حكيمة ليس فيها حرج ولا شدة على العباد ، و إنها يلزم فيها
الدقة في التطبيق ويلزم فيها امتثال أمر الله في الكثير والقليل، فمن خالف قاعدة منها
وعمل فيها برأيه فقد خرج من زمرة المؤمنين في هذه التي خالفها.

فبعد ما دل* الدليل على قيام الله بهذا القسط العام وشهد الله والملائكة واولوا
العلم على ذلك اذا خالف مخالف و احتج* معاند سواء كان من أهل الكتاب أو
من الاميين فقل لهم: إني «أسلمت وجهي لله ومن اتبعن» .

فقد نبين مما تقدم: أن* الاسلام هو التسليم والانقياد والاذعان، وهذه الآية
توضح لنا هذا المعنى، فإن* وجه كل ذي وجه اذا كان في يد أحد ونحت إرادته
يكون صاحب الوجه طوع إرادة ذلك المالك لوجهه، ولا يمكنه التخلف عنه مقدار
ذرة واحدة ، إذ أنه لا يمكنه الانحراف عنه والميل الى جهة اخرى فلا يتصور في
حقه المخالفة، وهذا هو التسليم والانقياد والخشوع .

و أما القول باللسان مع عدم تسليم الوجه فلا يتحقق به التسليم الحقيقي،
فالنبي ﷺ مأمور من الله بأن يقول لأهل الكتاب من يهود ونصارى وغيرهم من

الملل و اللامين : إني و من اتبعني قد أسلمنا وجوهنا لله فلا نخالف شيئاً من أوامره، فهل أنتم أسلمتم كما أسلمنا ؟ فإن أسلموا كما أسلم النبي ﷺ فينبغي لهم أن يسيروا على سيرته ويعملوا بأوامره في زمانه وبعد زمانه الى زماننا هذا، فإن الأمر واضح والطريق مستقيم والكتاب موجود على حاله ومؤولو الكتاب ومفسروه و العالمون بحقائقه ودقائقه قد بينوا لنا جميع ذلك ودونت أقوالهم ولم يبق عذر لطالب الحق.

و أهمّ الامور التي يجب متابعة أمر الله فيها هو اتباع من جعل الله علم أحكام الشريعة عنده وأمر البشر بالأخذ منه، فإذا ترك أحد من الأمة أخذ الأحكام من النبي أو ممن نصبه النبي لهذه الغاية وأخذ أحكام دينه من شخص آخر أو عمل برأيه فهذا الشخص تكون عباداته باطلة لا قيمة لها و هو مسؤول أمام الله حيث ترك النبي و وصيه.

أما اذا قلت : إن النبي ﷺ لم ينصب وصياً من بعده و ترك أمته تغبط خبط عشواء يكفّر بعضها بعضاً فهذا قول لا يرضيه العقل . ثم عليه أن ينظر في أدلة القائلين بنصب النبي خليفة للناس من بعده، فإذا ردها كلها بأدلة أقوى منها و رأى أقواله أرجح من ذلك القول بالأدلة و الحجج الكافية فليتمسك به ، و إلا فلا يجوز له العقل أن يقول به بلا دليل ويترك القول الآخر المؤيد بالأدلة الكافية. وبعبارة أوضح وأخصر يفهمها كل قارئ وامي أن تسليم الوجه ليس المقصود منه جلدة الوجه المجردة وإنما يكون الرأس كله بيد من سلم له الوجه، فيكون حاله حال من أخذ برأس أحد قد شدّ بحبل فإنه لا يتمكن أن يذهب يميناً أو شمالاً بل يتبع قائده ويسير حيث سار .

أما اذا كان يمشي خلف شخص من غير حبل يمسك رأسه فهو لا يتبع خطاه، واذا رأى شيئاً عن اليمين أو الشمال فأعجبه ذلك الشيء ترك صاحبه و مال يميناً أو شمالاً أو رجع القهقري الى الخلف، هذا هو معنى تسليم الوجه. وقد أمرنا الله

أَنْ نَسْلَمَ رُؤُوسَنَا وَأَنْفُسَنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»^(١) وَأَمَرَنَا النَّبِيُّ أَنْ نَسْلَمَ أَنْفُسَنَا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ فِي خُطْبَةِ غَدِيرِ خُمٍ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَا فَعَلِيَ مَوْلَا. اللَّهُمَّ وَآلَ مَنْ وُلَاهُ وَعَادَ مِنْ عَادَاهُ وَانصَرَ مِنْ نَصَرِهِ وَاجْزَلْ مِنْ خِزْلِهِ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتَ؟ قَالُوا: بَلَى، فَقَالَ لَهُ مَهْرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَخْبِئُ لَكَ يَا بَنَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ^(٢).
ثُمَّ بَعْدَ مَا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يُسْأَلَ كُلُّ قَارِيءٍ وَآمِيٍّ هَلْ أَتَاهُ أَسْلَمَ كَهَذَا الْإِسْلَامُ؟ وَهَلْ سَلَّمَ وَجْهَهُ كَهَذَا التَّسْلِيمِ؟ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أُمَّةِ النَّبِيِّ وَمِنْ أَتْبَاعِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ «فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا» وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ كَفَعَلَ النَّبِيَّ وَأَتْبَاعَهُ - أَيُّ لَمْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ وَنَفْسَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ نَصَبَهُ الرَّسُولَ خَلِيفَةً مِنْ بَعْدِهِ فَقَدْ عَبَّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» أَيُّ: مَنْ لَمْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ لِلَّهِ فَلَيْسَ هُوَ بِمُسْلِمٍ وَلَا مِنْ أُمَّةٍ عَمَّهَا ﷺ وَلَا مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِهِ وَبَصِيرٌ بِنِيَّتِهِ السَّيِّئَةِ وَنَوَائِيهِ الْخَبِيثَةِ الرَّدِيئَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تَوَلَّجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجَ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرُجُ الْمَيِّتُ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧).

إِنَّ مِنْ شُرُوطِ الْمُؤْمِنِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي يَلْزِمُ الْإِتِّصَافَ بِهَا هِيَ أَنْ يَكُونَ مُعْتَقِدًا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمَالِكُ الْحَقِيقِيُّ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَأَنَّ

(١) الْأَحْزَابُ : ٦ .

(٢) يَتَابِعُ الْمَوْدَّةُ : ج ١ ص ٢٨ مَعَ اخْتِلَافٍ يَسِيرٍ .

الخلق كلهم عبيده يتصرف بهم كيف يشاء، وأن ما في أيدي الناس من الأموال إنما هي عارية جعلها الله في أيديهم واشترط عليهم شروطاً وخصصهم بالتصرف بها بكيفية مخصوصة، وفي موارد مخصوصة، وحتم عليهم الاعطاء منها في موارد معينة، وحرّم عليهم إعطاؤها في موارد معينة.

فمن أعطى في مورد المانع والحرمة يلزم عليه أخذها وردّها، ومن منع العطاء في وقت الوجوب فقد احتمل إثماً يعاقبه الله عليه في الآخرة، وأن الله يعطي من يشاء متى شاء كيف شاء، وبأخذ ممن يشاء متى شاء، وأنه يخلق من الخلق ما يشاء من أنواعها وأصنافها ويميت من يشاء من الموجودين.

فإذا اعتقد المرء اعتقاداً جازماً بأن روحه بيد الله يسلبها منه في أي حين شاء، لا ينبغي له أن يقدم على ما حرم الله، ولا ينبغي له أن ينكب على الدنيا وينغمس فيها.

و إذا اعتقد و جزم أن ما بيده من الأموال هي ملك لله و أن الله جعلها وديعة عنده وأمره أن يعطي منها شيئاً معيناً للفقراء الذين يحتاجون الى قوتهم وقوت عيالهم لا ينبغي له مع هذه العقيدة أن يمتنع عن العطاء ويبخل به مع علمه بأن الله إذا شاء انتزعه في حينه .

و كذا اذا علم أن الله المالك لما في يده من المال الذي جعله وديعة عنده قدنها أن يصرف شيئاً منه في الوجوه المحرمة التي عينها له النبي وخلفاؤه، خالف إرادة الله و صرف شيئاً في المحرمات فإن الله سيعاقبه عليه .

و كذا يشترط في المؤمن أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن العزة والذلة بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، فلا ينبغي له أن يطلب مرضاة المخلوق بسخط الخالق و لا يخدم الظلمة أعداء الله و أعداء رسوله و أوليائه ويتقرب إليهم بمعصية الله ، ويظن أنه يكون بذلك عزيزاً عند الناس فإنه يصير ذليلاً عند الله، ومن كان ذليلاً عند الله سيكون ذليلاً عند الناس، بل ينبغي للمؤمن العارف المطلع على الأخبار

أن يأخذ بإرشادات الأئمة الأطهار عليهم السلام، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: وإن أردت عزاً بلا عشيرة و هبة بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله الى عز طاعته ^(١).

تنبيه

إن الله تعالى ذكر في أول الآيات ما يشتهي الانسان في هذه الحياة، وعبر عنه بأنه زينة الحياة الدنيا، قد ذكر أنواعاً منها: كالنساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وغيرها ^(٢).

وذكر بعد ذلك: أن الله عنده حسن المآب، وفي هذه الكلمة بيان: أن هذه الامور كلها ليس لها مآب حسن، وأن ذلك عند الله وهو غيرها.

ثم قال في آية بعدها: **وقل أنبئكم بخير من ذلك...** الآية ^(٣)، فقد نبأنا الله بأن في الآخرة أشياء هي خير من الدنيا وزينتها، فالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة جعلها الله من زينة الدنيا لأنها تزول ولا تبقى، أما الشيء الذي يسميه الله ملكاً فينبغي أن يكون مما يمتد نفعه الى الآخرة ولم يخنص بالدنيا كملك الامور.

ولذا قال جماعة: إن المقصود من الملك في الآية الشريفة هو النبوة والامامة والحكمة والعلم فإنها أخرى بهذا الاسم لأنها باقية وتلك زائلة، وبناء على أن الملك هي هذه الامور أو الأعم من الزائلة والباقية، يلزم حينئذ على المؤمن أن يعتقد بأن النبوة والامامة إنما هي بإرادة الله وإشائه يختار من يريد للنبوة، ويختار من يريد للامامة، ويودع أحكام الحلال والحرام وما يحتاجه الأنام عند النبي صلى الله عليه وآله والامام، فلا ينبغي لمؤمن أن يقول: إن الامامة إنما هي باختيار الأمة، فإن الأمة لا تعرف المصالح والمفاسد في تعيين هذا وعزل ذاك، وإنما يعرف الله ذلك،

(١) بحار الانوار: ج ٧٨ ص ١٩٢ ب ٢٣ ح ٦.

(٢) اشارة الى آية ١٤ من سورة آل عمران وقد تقدم البحث عنها.

(٣) آل عمران: ١٥.

يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .
 فهل ترى أيها المؤمن العاقل أن العزة التي يقصدها الله من قوله « تعز من تشاء » هي العزة بكثرة المال والأولاد ، أو كثرة النساء ، أو القناطير من الذهب والفضة ؟ فانظر الى قصة قارون وما كانت عاقبته ، وهذا كله داخل في قوله تعالى :
 « قائماً بالقسط ، فإن قيامه بالقسط هو إعطاء النبوة والامامة لمن يمكنه من القيام بهما ، ويزيده بسطة في العلم والعقل وجميع المؤهلات لهذا المنصب العظيم الخطير .
 أما الأمة اذا اجتمعت واتفقت واختارت رجلاً منها على أن يكون أميراً لها ورئيساً يرشدهم لأمور دنياهم فلا بأس بذلك إن كان قادراً على ذلك ، وأما اذا اختارت الأمة رجلاً ليكون خليفة للنبي ليرشدهم لأمور الدين فهذا ليس لهم وإنما هو مما يرجع الى إرادة الله ، فإن خالفوا الله وفعلوا ذلك صار حكمهم كحكم من ذكرناه في آية الكرسي في قوله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (١) .

إيقاظ الى العرب خاصة والى المسلمين عامة :

لقد ذكر المفسرون في سبب نزول آية الملك أن النبي ﷺ لما خطب الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً ، احتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً ، فقال المهاجرون : سلمان منا ، وقال الأنصار : سلمان منا ، فقال النبي ﷺ : سلمان منا أهل البيت .

قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان وحذيفة ونعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً ، فحفرتنا فأخرج الله تعالى من بطن الخندق صخرة مدورة كسرت حديدنا و شقت علينا ، فقلنا : يا سلمان ارق الى رسول الله (ص)

وأخبره خبر هذه الصخرة ، فإما أن نعدل عنها أو يأمرنا فيه بأمره فإننا لا نحب أن نجاوز خطه .

قال : فرقى سلمان الى رسول الله (ص) وهو ضارب عليه قبة تركية فقال : يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مدورة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحتك فيها قليل ولا كثير ، فمرنا فيها بأمر فإننا لا نحب أن نجاوز خطك .

فهبط رسول الله (ص) مع سلمان الخندق والتسعة على سفير الخندق ، فأخذ رسول الله (ص) المعول من سلمان ف ضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيتها حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبر رسول الله (ص) تكبير فتح فكبر المسلمون .

ثم ضربها (ص) الثانية فبرق منها برق أضاء ما بين لابتيتها حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبر (ص) تكبير فتح وكبر المسلمون .

ثم ضربها (ص) الثالثة فكسرها وبرق منها برق كذلك فكبر (ص) تكبير فتح وكبر المسلمون ، وأخذ بيد سلمان ورقى .

فقال سلمان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط ، فالتفت رسول الله (ص) الى القوم وقال : رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : ضربت ضربتي الاولى فبرق لي الذي رأيتم ، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضربت الثانية فبرق لي الذي رأيتم ، أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها .

ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق لي الذي رأيتم ، أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها ، فابشروا . فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحفر .

فقال المنافقون : ألا تعجبون ! ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يشرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا يستطيعون أن تبرزوا للمقتال، فأنزله الله تعالى القرآن دو إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً،^(١) وأنزل هذه الآية : «قل اللهم ... الخ»^(٢).

فإن : الملك في الآية وإن اختلف فيه هل أنه الملك الديوي المنقطع كالمال والبنين، أو الملك الذي ينجر إلى ملك الآخرة كالنبوة والخلافة ؟ فإذا حملنا الآية على معناها العام - الشامل لملك النبوة وملك العلم وملك العقل وملك الصحة والأخلاق المحسنة والنفوذ والقدرة وملك المحبة وملك الأموال وغير ذلك - فإن اليهود كانوا يقولون إن النبوة كانت في آبائنا وأسلافنا ، وأما فريش فما كانوا أهل النبوة والكتاب ، فكيف تليق النبوة بمحمد وقد أنزل الله هذه الآية الشريفة وهي بشارة للاسلام وإنذار ووعد لبني إسرائيل ؟

وأن هذه البشارة للاسلام إنما هي بشارة بجميع هذه المعاني التي ينطبق عليها معنى الملك ، أي الملك الديني والديوي الذي يكون العمل فيه بطاعة الله. وإنما نزع الله الملك بقسميه من بني إسرائيل لأنهم عملوا فيه بمعاصي الله واختلفوا فيما بينهم ، فسلب الله الملك منهم وآناه للمسلمين فتغلبوا عليهم ووطأوا أرضهم وديارهم ، وذلك حين قالوا عن عقيدة راسخة وإيمان قوي : «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء» وأهم كلمة وأقوى عقيدة كانوا يتفوهون بها قولهم : «بيدك الخير أنك على كل شيء قدير» .

ثم بعد ذلك تفرقت كلمتهم ووقع الخلاف بينهم وعملوا بمعاصي الله ، حتى أننا نرى في زماننا أن الخمر تباع علانية في جميع البلاد الاسلامية، وكذا الربا

(١) الاحزاب : ١٢ .

(٢) تفسير روح المعاني : ج ٣ ص ١١٢ .

رائج في جميع البلاد والقوانين المخالفة للقرآن، فلمّا وصلوا الى هذه الدرجة تسلط عليهم عدوهم وسلبوا منهم أرضهم وديارهم، حتى أن أذلّ الأمم وأحقرها - وهم اليهود - نراهم لليوم ينادون قسماً من الاسلام والقسم الآخر متفق معهم، وهذا من أكبر الكبائر كما تسمعه في الآية التي بعد هذه الآية فانتظرها قريباً.

فإذا أراد المسلمون أن يعودوا الى قوتهم وشوكتهم و يرجع إليهم ملكهم و يرجع إليهم عزهم و تعود إليهم هيبتهم فليتمسكوا بالآية الشريفة قولاً وعملاً وليقولوا: «اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير».

أمّا الآية السابعة والعشرون وهو قوله: «تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت و تخرج الميت من الحي و ترزق من تشاء بغير حساب» فإنما يتعلّق بموضوع البحث قوله: «تخرج الحي من الميت» وتخرج الميت من الحي، على القول بأنّ «الحي» والميت هما المؤمن والكافر، والظاهر أنّ هذا القول أقوى من غيره، فإنه وارد عن أهل البيت عليهم السلام وهم أعلم بتفسير القرآن من غيرهم.

وكذا يتعلّق بموضوع بحثنا قوله تعالى: «وترزق من يشاء بغير حساب»، فإنّ الرزق يعمّ الأموال الدنيوية والاخرية وهو العلم والحكمة، فإنّ الله رزق نبينا محمد صلى الله عليه وآله جميع العلوم التي أعطاها لسائر الأنبياء من آدم الى زمانه، فهو أعلم الأنبياء وأفضلهم وأشرفهم، ومع هذه العلوم التي أعطاه الله أمره أن يطلب منه الزيادة بقوله: «وقل رب زدني علماً»^(١).

ولاريب أن الله لما أمره بهذا الدعاء وهذا الطلب يريد أن يزيده علماً فهو يستجيب له كلما طلب منه، والنبي لا يطلبه مرة واحدة بل في كل يوم أو في كل ساعة يقول: رب زدني علماً، وهو القائل كما روت عنه عائشة: إذا أتى عليّ يوم

لأزداد فيه علماً يقربني الى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع الشمس ذلك اليوم^(١).
إذا عرفت مقدار علم النبي ﷺ - ولم تعرفه ولن تعرفه - فاعلم أن هذه العلوم كلها أودعها عند علي بن أبي طالب عليه السلام كما جاءت بذلك الروايات الصحيحة.
ويكفي في علم علي عليه السلام قوله: علمني رسول الله ألف باب... الحديث^(٢) فتكون أبواب العلم باصطلاح هذا العصر مليون باب، هذا عدد الأبواب، ولا ريب أن كل باب تفتح عن مدينة.

ثم إن أمير المؤمنين أودع هذه العلوم الى الخلفاء الأحد عشر من بعده كل إمام يودعها عند الامام الذي يليه حتى وصلت الى الامام الثاني عشر عجل الله فرجه.
وأما فضل هذه الآية قال في مجمع البيان عند ذكر الآية: روى جعفر بن محمد عن آبائه عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: لما أراد الله أن ينزل فائحة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله وقل اللهم مالك الملك - الى قوله - بغير حساب تعلقن بالعرش وليس بينهن وبين الله حجاب، وقلن: يارب تهبطنا الى دار الذنوب والى من يعصيك ونحن معلقات بالطهور وبالعرش! فقال الله: وعزتي وجلالي ما من عبد قرأ كن في دبر كل صلاة مكتوبة إلا أسكنته حضيرة القدس على ما كان فيه، وإلا نظرت إليه بعيني المسكونة في كل يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وإلا أعذته من كل عدو ونصرته عليه، ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت^(٣).

وقال معاذ بن جبل: احتبست عن رسول الله ﷺ يوماً لم أصل معه الجمعة، فقال: يا معاذ ما يمنعك من صلاة الجمعة؟ قلت: يا رسول الله كان ليوحنا اليهودي

(١) جامع بيان العلم وفضله: ص ٧٢.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج ٤ ص ٤٤٤ ح ١٣.

(٣) مجمع البيان: ج ١ ص ٤٢٦.

عليّ اوقية من تبر وكان علي بابي يرصدني، فأشفقت أن يحبسني دونك، قال: أتعجب يا معاذ أن يقضي الله دينك؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء - الى قوله - بغير حساب، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطى منهما ما تشاء وتمنع منهما ما تشاء اقض عني ديني، فإن كان عليك ملء الأرض ذهب لأداه الله عنك^(١).

قوله تعالى: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين و من يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذر كم الله نفسه والى الله المصير (٢٨).

بعدما بين الله عز وجل في الآيات السابقة أن المرء لا يكون مسلماً حتى يسلم وجهه لله، وأن تسليم الوجه لا يتحقق حتى يعتقد اعتقاداً جازماً بأن كل ما في الوجود من ناطق وصامت هو ملك لله تعالى، وأن الله هو المعطي والآخذ والمعز والمذل، وكل ذلك بيده.

فالمسلم هو من توفرت فيه هذه الشروط واتصف بهذه الصفات، فالذي لم تكن فيه هذه الصفات لا يكون مسلماً وإنما هو كافر، والمسلم يحتاج الى تنظيم امور دينه ودنياه.

وأما تنظيم امور الدين فليستمدّها من الله بواسطة النبي المبعوث من الله عز وجل، ولا يتصور ولا يعقل بالنسبة الى امور الدين المتعلقة بعبادة الباري والتي تحرز له النجاة في الآخرة أن يختار الانسان ثم ينصبه ويقف أمامه و يعبدّه، فهل يصوب عقلك هذا العمل؟ فهؤلاء الفرق الذين ينكرون أئمة المسلمين كاليزيدية والبهائية وأمثالهم ويختارون رجلاً منهم ويجعلونه دليلاً لهم في عباداتهم وهو

لا يعرف شيئاً من آيات القرآن ولا من سنة النبي ﷺ وهم يدعون أنهم من المسلمين ومن أمة محمد ﷺ. فما أدري كيف وافقت عقولهم على ذلك! ولكن ما حالهم إلا كحال أولئك الذين كانوا ينحتون الأصنام ثم يعبدونها، وهل يحكم عقلك بصحة ما ينسب للرسول الأعظم وهو أعقل أهل الأرض والسماء أنه قال لا إله إلا الله عند اقتراب أجله: اختاروا لكم خليفة؟ كيف يقول ذلك والخليفة يلزمه العلم بتفسير القرآن وتأويله: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»^(١) وقد عرفت من هم الراسخون في العلم فيما مر من تفسيرها.

وبناءً على أن الملك في قوله تعالى: «مالك الملك» هو ملك الدنيا والآخرة فلا يمكن للمسلم أن يستند على القوانين الدينية إلا المأخوذة من النبي أو من عينه النبي.

وأما بالنسبة إلى ملك الدنيا فقد عرفنا من تفسير آية الملك: أن المسلم هو المعتقد بأن مالك الكل هو الله وأنه هو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، وأنه هو المعز والمذل، وأن الخير كله بيده، فيكون المسلم هو المعتقد بأن خير الدنيا والآخرة بيد الله وإشاءته وإرادته، وأن العزة والذل بيد الله، فلا ينبغي له أن يأمل من مخلوق خيراً أو ملكاً أو مالاً أو عزاً إذ ليس بيد أحد شيئاً. نعم إذا كان المأمول منه ولياً من أولياء الله يمكن للمسلم أن يطلب منه الدعاء والطلب من الله أن يقضي حاجته، أما إذا كان كافراً فالمسلم الحاوي على شروط الإسلام لا يمكن أن يواليه أو يأمل منه النفع، وهذا هو الذي بينه لنا الله بصيغة النهي عن موالاة الكافرين، فلو أن واحداً أو جماعة من المسلمين والوال الكافرين فهذه الموالاة تكشف عن عدم رسوخ الإسلام في قلوبهم، وقد أخبر الله عنهم بقوله: «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء».

تعرفنا هذه الجملة أن الله بريء منهم، وأن الإسلام بريء منهم، وأن

المسلمين بريئون منهم، وأنه هو بعيد عن الله وعن الاسلام وعن المسلمين ، لا ربط له بهم ولا صلة بينه وبين الله ولا بين الاسلام والمسلمين.

نعم قد استثنى الله صورة واحدة وهي اذا كان المسلم بين جماعة من الكافرين وكان يخشى منهم على نفسه أو ماله أو أذى يوقعونه به فله أن يظهر لهم الموالاة بحسب الظاهر ويباديهم في الباطن.

ثم بعدما بيّن الله منزلة الموالى للكافر بهذه الجملة الشديدة التي سمعتها حذره وهدده بجملة اخرى هي في الشدة كسابقتها، فلا يتحمل مسلم إحدى الجملتين فضلاً عن تحملهما معاً .

والجملة الثانية هي قوله تعالى: «ويحذركم الله نفسه» أي: أن الله بعدما نهى عن موالاة الكافرين وبيّن لكم أنهم لا فائدة عندهم وأن فوائد الدنيا والآخرة بيد الله، وبيّن لكم أن الموالى لهم هو خارج عن جماعة المسلمين فهو يجري عليه أحكام الكافرين في كل الامور ، وأن الله لا يعينه ولا يساعده ولا يعطيه إلا ما يعطي سائر الكفار .

فهو في الجملة الاولى قد خرج من جملة المسلمين ، وبالجملة الثانية نبّهه الله أن ضرره على المسلمين أكثر من ضرر الكفار ، لأنه يظهر الاسلام وينافق، فقد حذره الله من أن يبطش به في الدنيا ولا يؤخره الى عذاب الآخرة كسائر الكفرة إذ بوجوده ضرر على المسلمين ، فيلزم إعلام المسلمين به ليحذروا منه فإذا أعلمهم به لا بد وأن ينتقموا منه بسلب الأموال ثم التنكيل به بأنواع العذاب. ولا ينتهي الأمر بهذا العذاب الديوي الذي يوقعه به البشر بل أنذره الله بالعذاب الاخروي بجملة ثالثة وهي قوله : «والى الله المصير» فيلزمك أن تقرأ وتطلع في الجملة على ما أعد الله من العذاب في الآخرة للكافرين ثم تنصف نفسك وترحمها .

قوله تعالى : قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير (٢٩) .

لما بين الله في الآيات المتقدمة شروط الاسلام اللازمة، وشرح لنا الصفات التي يلزم المسلم الاتصاف بها، وبين أن الشرط الأخير هو مباينة الكافرين وعدم موالاتهم إنما يدور إسلام المرء عليه وجوداً وعدماً، فمن والاهم فهو ليس بمسلم، والمسلم هو من لم يوالهم .

ذكر في هذه الآية أن عدم الموالات إنما يلزم أن يكون في الظاهر والباطن، وأنكم اذا قاطعتموهم في الظاهر وواليتموهم في الباطن فإن الله عالم بقلوبكم وصدوركم وظاهركم وباطنكم ، والأقرب والأنسب أن يكون هذا بالنسبة الى جميع الشروط ، فمن لم يعتقد بأن الملك بيد الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولم يعتقد أنه يعز من يشاء ويذل من يشاء، ومن لم يعتقد بأن الخير كله بيد الله ، ومن لم يعتقد بأن الله هو الذي انتزع الملك من بني إسرائيل وجعله في قريش، في بني هاشم، في بني عبدالمطلب ، في رجال عينتهم الله وميزهم وألهمهم العلم والحكمة ، حيث إن النبي نوه عنهم وسميهم ، فإن كل صنف من هؤلاء الأصناف إسلامه غير مقبول عند الله ، إذ أنه لم يسلم وجهه لله كما أسلم النبي ومن اتبعه .

فقوله تعالى : «قل ان تخفوا ما في صدوركم...» الآية إنذار لكل من تسمى بالمسلم ففقد أحد الشروط ، لأن الله يريد إسلاماً حقيقياً بالمعنى الذي عرفه لنبيه ﷺ وسنته النبي بقوله «أسلمت وجهي لله ومن اتبعن» ^(١) فمن أراد

متابعة الرسول فليحذو حذوه وليتبع أثره فإنه غير خفي على البصير المتتبع وقد تبين الرشد من الغي،^(١).

إن المقصود من اخفاء ما في النفس هو ما يعزم عليه العبد من المعاصي ولكن لم يظهره للناس وليس المقصود منه كل ما يختلج بالنفس من الوسوس الشيطانية ثم تزول في حينها، فإن هذا مما لا يعاقب عليه كما ورد في الأخبار ويؤيده حكم العقل، حيث إن هذا غير اختياري للإنسان ولا يمكنه دفعه عن نفسه.

فالأقرب والأولى في معنى الآية : أن المقصود ممن يخفي هو المنافق الذي يخالف ظاهره باطنه ، وهم الذين أظهروا ما في أنفسهم بعد النبي ، فانقلبوا على أعقابهم ، فإن الله يحاسبهم على ما كانوا يكتُمونه في وجود النبي و هم عازمون على إظهاره بعده ، فالآية واردة في مقام التهديد والترهيب والتخويف ، فإنه تعالى بعدما بيّن لنا جملة من أحكام الصدقة والربا والدين والاشهاد عليه وأداء الشهادة ، عرف أهل القلوب المريضة الذين يظنون أن الاعتراف باللسان والانكار في القلب كاف ، ويبن لهم أن هذا لا يفيدهم شيئاً ، وأن الله يحاسبهم على ما انطوت عليه قلوبهم من نيّاتهم السيئة المخالفة لأوامر الله.

و كذا تكون الآية مقدمة لما يأتي من أن الإيمان هو السمع والطاعة ، وأن السماع وحده لا يحقق الإيمان ، وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قوله : ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها،^(٢) نسخاً لهذه الآية فإنه لم يتحقق التكليف بغير الوسع والطاقة حتى يأتي نسخه ، هذا بالنسبة الى ناوي العصيان.

وأما بالنسبة الى ناوي الطاعة فالآية تكون ترغيباً ووعداً وبشارة بأن الله عالم بهذه النية الحسنة وأنه يحاسبه عليها ، كما ورد في الأخبار بأن ناوي الحسنة اذا لم يعملها تكتب له واحدة وإن عملها يكتب له عشرة .

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

قوله تعالى : يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً
وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم
الله نفسه والله رؤوف بالعباد (٣٠) .

لما تبين من الآية السابقة أن الله عز وجل يعلم ما تنطوي عليه الصدور
من النيات كما يعلم ما هو المكشوف من الأعمال، وأنه لا فرق عنده بين الظاهر
والمستور، كما أنه يعلم جميع ما في السماوات والأرض، ولم تتعرض الآية لأكثر
من هذا، فإن أهل القلوب المريضة والنيات الخبيثة والسرائر الفاسدة وهم الذين
يفقدون بعض شروط الاسلام المهمة لاسيما الشرط الأخير وهو مقاطعة الكافرين
وعدم موالاتهم، أنهم بعد سماعهم الآية لعلمهم يقولون : لو أن الله علم ما يخفى
واطلع على نياتنا فهذا لا يضرنا مادام المسلمون لا يعلمون شيئاً منها، فنحن نعاشرهم
كما يعاشرهم غيرنا و نحصل على ما يحصل عليه غيرنا ، و أن أصحابنا الكافرين
أو المنافقين يعلمون بنا بأننا لسنا مسلمين فليكن حالنا مكشوفاً عند الله مستوراً
عند المسلمين .

وحيث إن الاسلام بشروطه وصفاته هو خير محض، وأن التظاهر به مع
فقدان بعض الشروط بهذه النية السيئة هو سوء محض، فقد بين الله سبحانه في
هذه الآية أن ما عليه المرء في دار الدنيا من خير أو سوء فسوف يتجلى للخلائق
يوم القيامة و يتجسم له هناك، و كل امرء يجازى بما كان عليه في الدنيا من خير
أو سوء، فإن وجد خيراً يسر به وإن وجد سوء يود في ذلك اليوم أن يكون
بينه وبين ذلك سوء أمداً بعيداً ما بين الأرض والسما، أو كبعد ما بين المشرق
والمغرب، ولكن لا ينفعه هذا التمني شيئاً.

فهذه الآية فيها إتمام الحجة على كل من تظاهر بالاسلام وهو فاقد لبعض

شروطه ، أمّا في هذا العصر وهو القرن الرابع عشر - وإذا لم تعرفه فنقول لك قرن العشرين - فإنّ أغلب المسلمين يوالون الكفار ويكونون عيوناً لهم على المسلمين ، فترى كل فرقة عيناً على الفرقة الأخرى .

نسأل الله تعالى أن يبدل مانحن فيه من فقدان الشروط ، وأن يجعلنا مسلمين كاملي الإيمان و أن يعزنا بعزه إنه أرحم الراحمين .

ثم بعدما بين الله لعباده أن أعمالهم الحسنة والسيئة ستكون حاضرة عندهم وسيجازون عليها ، وأنّ عامل السوء يودّ في ذلك اليوم أن يكون بينه وبين عمل السوء أمداً بعيداً ، قال تعالى : « ويحذركم الله نفسه » .

إنّ الله عزّ وجلّ قد حذر عباده بنفسه لأنه قد بعث أفضل الأنبياء بخير الأديان واختار له أشرف الشرايع ، فجاهد النبي ﷺ في نصرته هذا الدين وصرف عمره في جدّ وتعب حتى أسلم جماعة من أمته طوعاً وكرهاً ، وبعد ذلك تحرّكت هذه الفرقة الموالية للكافرين وهي تريد أن تكشف للكافرين مواقع الخلل من المسلمين و تساعدهم على حرب المسلمين ليخرجوهم عن دينهم ، فإنهم بعملهم هذا يريدون محاربة الله ، ولذا حذرهم الله سبحانه وتعالى بنفسه حيث إنه لا يغالبه أحد وهو على كل شيء قدير .

ثم بعد ذلك أعلمهم - لو كانوا يعلمون - وأفهمهم بأنّ هذا التحذير المؤكّد المكرر إنما هو لرأفته بهم و رحمته لهم فإنه لا يريد لهم إلا الخير ، وقد بين لهم كل ما يجلب الخير فقال تعالى : « والله رؤوف بالعباد » .

ولولم يكن من فضل الله على عبده إلا هذه الكلمة المتكفلة بالوعد برحمة العباد لكان اللازم على العبد العاقل أن يطيع الله ولا يعصيه ، ولكن الإنسان جهول .

قوله تعالى : قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله

ويعفركم ذنوبكم والله غفور رحيم (٣١).

هذه الآية الشريفة تأخذ الانسان من جميع جوانبه ولا تترك له مجالاً للجواب عما يذهب إليه من المذاهب و الفرق الثلاث والسبعين إلا طريقاً واحداً الى الفرقة الحقّة التي تتمسك بأقوال النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته على ما أمر به. فاستمع الى الآية وافهم معناها ، و لا تعرض عنها و لا تجعل نفسك من الجاهلين الذين لا يفهمون الكلام العربي.

إنّ هذه الآية تقول للناس جميعاً: إنّ من أحبّ الله ، و كل يدعي حبّ الله ، فاليهود يقولون : نحن أبناء الله و أحبّاءه ، و النصارى يقولون: نحن نؤله عيسى حباً لله لأنه ابن الله، و عبدة الأصنام من العرب وغيرهم يقولون: إنّما نعبدهم ليقتربونا الى الله زلفى و ذلك حباً لله ، و من أحبّ الله طلب رضاه ، و لا يحصل رضاه إلا بعبادته .

وقد أمر الله نبيه أن يقول للناس عامة : إنّ كنتم تحبون الله و تطلبون رضاه فإنه لا يرضى عنكم ولا يحبكم و إنّ عبدتموه و إنّ صليتم و صمتم و فعلتم كل عبادة، إلا أن تكون طاعتكم و عبادتكم عن طريق اتباعي و تعلّمي المأخوذ عن الله .

ولا تنفع العبادة اذا كانت عن رأيك كما ذكرت لك عن قريب فالآية الشريفة تأمر النبي ﷺ: « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » أندرى كيف تكون من أتباع النبي ﷺ؟ إنه بيّن لك ذلك قبل عدة آيات بقوله : «فإن حاجتك فقل أسلمت وجهي لله و من اتبعن»^(١).

فان أسلمت وجهك لله كنت من أتباع النبي وصرت مسلماً، و إنّ لم تتبعه فإنّ الله لا يحبّك و لا يرضى عنك و إنّ صليت و صمت و تصدقت و فعلت ما فعلت إلا باتباع النبي ﷺ.

تأخذ دينك عن الله لا عن رأيك وقد عرفت أن تسليم الوجه هو عبارة عن الانقياد والخضوع والعمل طبق أمره ونهيه وعدم المخالفة في أقل شيء .

ولا يخفى على كل عارف أن النبي ﷺ قد عين لنا من نرجع إليه بعد موته بقوله: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»^(١) وفي رواية «إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»^(٢) .

وأن هذه الجملة قد رواها عن النبي جميع الفرق، وقد تكررت منه ﷺ في مجالس عديدة، فما أدري أن التارك لهذه الجملة وغير العامل بمضمونها هل هو من أتباع النبي أو أنه مفارق له في هذا المقام!

تأمل جيداً وأنصف نفسك، إن المفسرين للقرآن اذا وصلوا الى هذه الآية نراهم يشددون الأمر في وجوب متابعة النبي والعمل بما يأمرهم، ولكنهم لا يذكرون لنا من الذي يفسر لنا القرآن تفسيراً حقيقياً ولا يذكرون من هو أعلم أصحاب النبي وأفضاهم بإرشاد ودلالة من النبي. فهل أن التكليف سقط عنا بعد النبي ﷺ؟ أو أن أصحابه صاروا كلهم علماء لا يحتاجون أحداً في حل المشاكلك؟ فلو فرض ذلك: فمن لأولادهم وأحفادهم؟

يقول ابن كثير في تفسيره: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله أنه قال: ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد^(٣) انتهى. وقال سيد قطب في تفسيره عند ذكر الآية: إن حب الله ليس دعوى باللسان ولا هياماً بالوجدان إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله والسير على هداه وتحقيق منهجه في الحياة، وأن الإيمان ليس كلمات تقال ولا مشاعر تجيش ولا شعائر تقام،

(٢٠١) راجع بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٢٩ .

ولكنه طاعة الله والرسول وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول^(١) انتهى.

نوجه السؤال الى سيد قطب ونقول: إنّ منهج الله الذي كان يحمله الرسول في حياته من يحمله بعد وفاته بحيث يتمكن من تطبيقه حرفياً لا يفوته منه شيء بأن يكون عالماً بتفسير القرآن كله والسنة النبوية؟ فهل يوجد أحد يمكنه هذه الدعوى غير علي بن أبي طالب عليه السلام مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسيد أهل بيته الذين جعلهم عدلاً للقرآن؟ فهل يكون غضّ النظر عن هذا الأمر المهم موافقاً لمنهج الله أو مخالفه؟

قوله تعالى: قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب

الكافرين (٣٢).

هذه الآية يكون بها الامتحان الخارجي الذي يتبين بها المسلم من الكافر فإنّ الله أمرهم بالآية التي قبلها باتباع الرسول، والاتباع وإن كان مهماً شديداً دقيقاً يستدعي متابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأفعال والأقوال، ولكن الذي يريد المخالفة يتمكن أن يقول: أنا متابع له وكل شيء أفعله أو سأفعله في بيتي، ولكن في هذه الآية طلب الله تعالى من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمر بالاطاعة وامتنال الأمر، فلا يتمكن من يريد الخلاف أن يعتذر بالتسوية ويقول سأفعل أو سوف أفعل، لأنّ الأمر بالاطاعة فعل كل شيء بوقته فعلاً كان أو قولاً، وهذا الأمر ممتدّ المفعول الى زمان انتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الله وإلى زماننا هذا.

فلو كانت الطاعة من جميع الأمة محققة لما وقع الخلاف الذي رأيناه بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولما وقع الظام العظيم على أهل بيته عليهم السلام الذين جعلهم الله

عدلاً للقرآن إذ قال ﷺ : سوف اسأل الأمة عما فعلوا بأهل بيتي ^(١) يسأل كل فرقة عما فعلته مع عدل القرآن لأنه هو الذي قال : إن القرآن والعتره لا يفترقان حتى يردا علي الحوض، وإني سائلكم عنهما اذا وردتم علي الحوض ^(٢).

فعلي هذا، فإنه سوف يسأل كل فرقة عنهما اذا وردت عليه الحوض، فمن تمسك بهما سوف ينجو من هول ذلك اليوم، و من لم يتمسك بهما فإن النبي ﷺ سيعرض بوجهه عنه ولا يسقيه من حوضه، لأن الساقى علي الحوض هو نفس علي بن أبي طالب عليه السلام يسقي بأمر النبي ﷺ، و هو يعرف من والاه و تمسك به ويعرف من لم يواله ولم يتمسك به، والنبي ﷺ أيضاً يعرفه، والمؤمنون المسلمون الذين تمسكوا به يعرفون غير المتمسكين، والملائكة تعرفهم، و إضافة الى هذا سيجد عمله مكتوباً في صحيفته و الله خير الشاهدين «فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين».

و بعد هذا كله نسأل سيد قطب و ابن كثير : إن الذي ترك حديث الثقلين و أهمله ولم يرتب أثراً لهذا الاهتمام الذي أبداه الرسول في نشر هذا الحديث وإبلاغ الأمة به، فهل هذا الرجل عامل بمنهج الله الذي حمّله الرسول الى الناس أجمع؟ وهل أنه متبع للشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أفعاله وأقواله؟ ولا يمكن أن يقال إنه لم يطلع عليه لأنه من أهل العلم والاطلاع كسيد قطب و ابن كثير. قال العلامة البلاغي - رحمه الله - في تفسيره عند ذكر هذه الآية: و أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم في مستدر كه علي شرط البخاري ومسلم، وعن ابن حبان في أبواب السنّة و العلم ونحو ذلك بأسانيدهم، عن أبي رافع عن رسول الله ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً علي أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه» ^(٣).

(١) اثبات الهداة : ج ١ ص ٤٤٤ ح ٢٥٥ نقلاً بالمعنى .

(٢) اثبات الهداة : ج ١ ص ٦٢٥ ح ٦٨٣ نقلاً بالمعنى .

(٣) آلاء الرحمن : ص ٢٧٥ .

قوله تعالى: ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (٣٤). بعد أن بين الله لعباده أن أعمالهم التي يعملوها له وعباداتهم التي يعبدونه بها أنه لا يقبلها منهم إلا أن تكون بواسطة النبي وإرشاداته وتعاليمه، وأن كل عمل يعملها المرء المحب لله - وإن تفادى في حبه - إذا لم يكن متبعاً لنبيه وآخذاً أحكام دينه منه فلا فائدة في أعماله ولا يحبه الله ولا يرضى عنه بين الله لنا في هذه الآية أن الأنبياء والأوصياء الذين يكونون واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أحكام الله إلى الخلق ليسوا كسائر الناس في كل شيء، فهم لا يخطئون ولا يذنبون ولا يعصون الله طرفة عين ولا يفعلون شيئاً لا يريد الله، لأن الله اصطفاهم و صفاهم من كل كدر ومن كل سوء ومن كل شين، صفاهم من كل عيب، صفا جميع الأنبياء أولهم آدم عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ وهو من آل ابراهيم، فلا يشبههم أحد من العالمين، ولا يتمكن أحد أن يكون مثلهم في الأعمال أو في الأخلاق أو في الصفات التي يتمكن الانسان من اكتسابها والتخلق بها، فكيف له بالنسبة إلى العلم الإلهامي الذي لا يكون إلا بإرادة الله وقدرته! وأن الله خلق أنبياءه من أول خلقهم خالصين من كل كدر وعيب يكون في غيرهم، خلقهم أنواراً فجعلهم بعرشه محدقين.

فقد روى جميع الصحابة أخباراً كثيرة أن النبي ﷺ قال: خلقني الله وعلي ابن أبي طالب من نور قبل أن يخلق آدم بألفي عام فكنا نسبح الله ونهمله في ساق العرش، فلما خلق آدم قذفنا في صلبه... الخ^(١).

وفي ذخائر العقبى قال: عن وائلة بن الأسقع قال، قال رسول الله (ص): إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذه خليلاً، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، ثم اصطفى من ولد إسماعيل تزاراً، ثم اصطفى من ولد تزار مضرأ، ثم اصطفى من

مضر كنانة، ثم اصطفى من كنانة قريشاً، ثم اصطفى من قريش بني هاشم، ثم اصطفى من بني هاشم بني عبدالمطلب، ثم اصطفاني من عبدالمطلب.

ثم قال : أخرجه بهذا السياق أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي وأخرجه مسلم والترمذي وأبو حاتم مختصراً^(١).

لما عرفنا الله في الآية السابقة أنه لا يقبل شيئاً منا إلا باتباع النبي لأنه هو المعارف بأحكام الله فقط وهذا في زمن وجوده يتحقق وما بعد رحلته، فلا يمكن أن يخبرنا أحد عن حكم الله إلا من كان مثل النبي خالصاً من كل كدر، مصفى من كل دنس، قد اصطفاه الله واستخلصه من إبراهيم خليله، ولا يوجد أحد بهذه الصفات إلا علي بن أبي طالب إذ أن أغلب أصحابه بل كلهم - إلا من شذ - قد سجدوا للأصنام وعبدوا الأوثان إلا علي كرم الله وجهه، هذا مضافاً إلى علمه وكرمه وشجاعته وجمعه الصفات الحميدة .

فليس لأحد أن يجعل الواسطة بينه وبين الله من سائر الناس بعد أن اعتبر الله في المبلغ أن يكون من المصطفين الخالصين، وأن يكون من ذرية إبراهيم الذين لم يتلبسوا بظلم ولم يصدر منهم ذنب، وقد بين الله ذلك لإبراهيم وذلك لما قال له: «إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين»^(٢).

فقد جعل الله الإمامة في ذريته الذين لم يظلموا أحداً ولم يظلموا أنفسهم، وأي ظلم أعظم من السجود للأصنام، فلا يجوز لمن سجد للصنم أن يجعل إماماً وواسطة لتبليغ الأحكام.

أما الذي يختاره بعض الناس و لم ينصبه الله ولا الرسول فهو فاقد لجميع الشروط .

ثم إن بعض المفسرين الذين يكتبون ولا يدرون ما يكتبون، وأن نفوسهم

(١) ذخائر العقبى : ص ١٠ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

تأبى أن تكون الخلافة والامامة في آل محمد عليهم السلام وآل إبراهيم وإن أراد الله ورسوله ذلك.

و من جملة هؤلاء سيد قطب فإنه يقول في تفسيره : يبدأ هذا القصص ببيان من اصطفاهم الله من عباده واختار لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة ، ليكون طلائع الموكب الايماني في شتى مراحل المتصلة على مدار الأجيال والقرون، فيقرر أنهم ذرية بعضها من بعض.

ثم يقرر سيد قطب أصلاً لا يوافق عليه أهل اللغة فيقول لغرض إبعاد الخلافة عن آل محمد من ذرية إبراهيم يقول بعد كلامه المتقدم: و ليس من الضروري أن يكون ذرية النسب وإن كان نسب الجميع يلتقي في آدم و نوح فهي أدلاً رابطة الاصطفاء والاختيار الالهي و نسب هذه العقيدة و الموصول في ذلك الموكب الايماني الكريم .

ثم يقول بعد سطرين من نفس الصفحة: ولقد ذكر السياق آدم ونوحاً فردين، وذكر آل إبراهيم وآل عمران اسرتين، إشارة الى أن آدم بشخصه ونوحاً بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء ، فأما إبراهيم وعمران فقد وقع الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك على القاعدة التي تقررت في سورة البقرة عن آل إبراهيم، قاعدة أن وراثته النبوة والبركة في بيته ليست وراثته الدم إنما هي وراثته العقيدة^(١).

وهذا رأيه بعيد عن ظاهر الآية، وأن اشتمال الآية على كلمتي الآل والذرية يكشف عن أن المراد ذرية النسب، نعم لولا وجود هاتين الكلمتين لأمكن الحمل على الاتحاد في العقيدة وذلك كقوله تعالى: المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف و يقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون،^(٢) الى آخر الآيات.

(١) في ظلال القرآن : ج ١ ص ٣٩١ .

(٢) التوبة : ٦٧ .

ثم لو سلمنا ما يقول من أن المقصود الانحداد في العقيدة والايمان و العلم و التقى و الزهد الى آخر الصفات ، فهل هناك أحد أشبه برسول الله ﷺ من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، لا يمكن لأحد يدعي ذلك إلا مكابر مجازف، و يؤكد مما قلناه قوله تعالى : «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم» فإن جعل الذرية بعضها من بعض ينطبق على النسب لاعلى العقيدة.

ذكر في العيون في حديث الرضا عليه السلام مع المأمون، قال المأمون: هل فضل الله العترة على سائر الناس؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه ، فقال له المأمون: أين ذلك من كتاب الله؟ فقال له الرضا في قوله: «إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» ذرية بعضها من بعض، الى آخر الحديث^(١).

و روي عن الصادق عليه السلام قال : قال محمد بن الأشعث بن قيس الكندي للحسين عليه السلام : يا حسين بن فاطمة أيتها حرمة لك من رسول الله ليست من غيرك ؟ فتلا الحسين عليه السلام هذه الآية: «إن الله اصطفى آدم و نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» ذرية بعضها من بعض، ثم قال: والله إن محمداً ﷺ لمن آل إبراهيم وإن العترة الهادية لمن آل محمد^(٢).

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن إبراهيم عن يونس عن هشام ابن الحكم في حديث بريه (وهو رجل من النصارى) أنه لما جاء معه الى أبي عبد الله عليه السلام فلقى أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام فحكى له هشام الحكاية، فلما فرغ قال أبو الحسن عليه السلام لبريه: يا بريه كيف علمك بكتابك؟ قال: أنا به عالم .

ثم قال: كيف ثقتك بتأويله؟ قال: ما أوثقني بعلمي فيه، قال: فابتداً أبو الحسن عليه السلام يقرأ الانجيل، فقال بريه: إياك كنت أطلب منذ خمسين سنة أو مثلك، قال:

(١) عيون أخبار الرضا : ج ١ ص ١٨١ .

(٢) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٢٧٥ ح ١٠٦ .

فآمن بريه وحسن إيمانه وآمنت المرأة التي كانت معه.

فدخل هشام وبريه والمرأة على أبي عبدالله عليه السلام فحكى له هشام الكلام الذي جرى بين أبي الحسن موسى عليه السلام وبين بريه، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليهم» فقال بريه: «أننى لكم التوراة و الانجيل و كتب الأنبياء» قال: هي عندنا ورائة من عندهم نقرأها كما قرأوها ونقولها كما قالوا، إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيء فيقول لا أدري^(١).

قال الفخر الرازي عند ذكر هذه الآية في تفسيره الكبير: اصطفى في اللغة: اختار، فمعنى اصطفاهم أي: جعلهم صفوة خلقه، تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يصفى وينقى من الكدورة، ويقال على ثلاثة أوجه: صفوة و صفوة و صفوة. ونظير هذه الآية قوله لموسى: «إني اصطفتك على الناس برسالاتي»^(٢) وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب «وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار»^(٣).

إذا عرفت هذا فنقول: في الآية قولان:

الأول: المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون الاصطفاء راجعاً الى دينهم وشرعهم ومآلتهم، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف المضاف. والثاني: أن يكون المعنى أن الله اصطفاهم أي: صفاهم من الصفات الذميمة، وزينهم بالخصال الحميدة.

و هذا القول أولى ، لوجهين : (أحدهما) أننا لانحتاج فيه الى الاضمار . (والثاني) أنه موافق لقوله تعالى: «الله أعلم حيث رسالته»^(٤).

وذكر الحلبي في كتاب المنهاج: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانية والقوى الروحانية.

(١) الكافي : ج ١ ص ٢٢٧ ح ١ ، تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٢٧٤ ح ١٠٣ .

(٢) الاحراف : ١٤٤ .

(٣) ص : ٤٧ .

(٤) الانعام : ١٢٤ .

(أما القوى الجسمانية)، فهي إما مدركة وإما محركة.

أما المدركة فهي إما الحواس الظاهرة وإما الحواس الباطنة، أما

الحواس الظاهرة فهي خمسة.

أحدها: القوة الباصرة، ولقد كان الرسول مخصوصاً بكمال هذه الصفة ويدلّ

عليه وجهان:

(الأول) قوله (ص): زويت لي الأرض فأريت مشارفها ومغاربها.

(والثاني) قوله (ص): أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري.

ونظير هذه القوة ما حصل لإبراهيم وهو قوله تعالى: «و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض»^(١) ذكروا في تفسيره أنه تعالى قوى بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل.

قال الحلبي - رحمه الله - : وهذا غير مستبعد لأن البصراء يتفاوتون، فردى

أن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فلا يبعد أن يكون بصر النبي أقوى من بصرها.

وثانيها: القوة السامعة، وكان (ص) أقوى الناس في هذه القوة، ويدلّ عليه

وجهان: (أحدهما) قوله (ص): أطت السماء وحق لها أن تثنى، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى. فسمع أطيّط السماء.

(والثاني) أنه سمع دويّاً وذكر أنه هوى صخرة قذفت في جهنم فلم تبلغ

فقرها إلى الآن.

قال الحلبي: ولا سبيل للفلاسفة إلى استبعاد هذا، فإنهم زعموا أن فيثاغورث

راض نفسه حتى سمع حفيف الفلك. ونظير هذه القوة لسليمان عليه السلام في قصة النمل

«قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم»^(٢). فالله تعالى أسمع سليمان كلام

(١) الانعام : ٧٥ .

(٢) النمل : ١٨ .

النمل وأوقفه على معناه، وهذا داخل أيضاً في باب تقوية الفهم وكان ذلك حاصلًا لمحمد (ص) حين تكلم مع الذئب ومع البعير.

وثالثها: تقوية قوة الشم، كما في حق يعقوب عليه السلام، فإن يوسف عليه السلام لما أمر بحمل قميصه إليه وإلقائه على وجهه، فلمّا فصلت العير قال يعقوب عليه السلام: إني لأجد ريح يوسف فأحس بها من مسيرة أيام.

و رابعها: تقوية قوة الذوق، كما في حق رسولنا (ص) حين قال: إن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم.

وخامسها: تقوية القوة اللامسة، كما في حق الخليل عليه السلام حيث جعل الله تعالى للنار برداً وسلاماً عليه، فكيف يستبعد هذا ويشاهد مثله في السمندل والنعامة؟ وأما الحواس الباطنة فمنها قوة الحفظ، قال الله تعالى: «سنقرئك فلا تنسى»^(١). ومنها قوة الذكاء، قال علي عليه السلام: علّمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب. فإذا كان حال الولي هكذا فكيف حال النبي (ص)؟ وأما القوى المحركة فمثل عروج النبي (ص) إلى المعراج، وعروج عيسى حياً إلى السماء، ورفع إدريس وإلياس على ما وردت به الأخبار. وقال الله تعالى: «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك»^(٢).

(وأما القوى الروحانية العقلية) فلا بد وأن تكون في غاية الكمال ونهاية الصفاء، واعلم أن تمام الكلام في هذا الباب: أن النفس القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس، ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء والفطنة والحرية والاستعلاء والترفع عن الجسمانيات والشهوات، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت هذه القوى المحركة والمدرّكة في غاية الكمال، لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصله إلى البدن، ومتى كان

(١) الأعلى : ٦ .

(٢) النمل : ٤٠ .

الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء.

إذا عرفت هذا فقلوه: «إن الله اصطفى آدم ونوحاً، معناه: إن الله اصطفى آدم إماماً من سكان العالم السفلي على قول من يقول: الملك أفضل من البشر، أو من سكان العالم العلوي على قول من يقول: البشر أشرف المخلوقات.

ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم ﷺ هم شيث وأولاده إلى إدريس ثم إلى نوح ثم إلى إبراهيم، ثم حصل من إبراهيم شعبتان: إسماعيل وإسحاق. فجعل إسماعيل مبدأً لظهر نور الروح القدس لمحمد (ص)، وجعل إسحاق مبدأً لشعبتين: يعقوب وعيسو، فوضع النبوة في نسل يعقوب، ووضع الملك في نسل عيسو، واستمر ذلك إلى زمان محمد (ص)، فلما ظهر محمد (ص) نقل نور النبوة ونور الملك إلى محمد (ص) وبقياً - أعني الدين والملك - لأتباعه إلى قيام القيامة. ومن تأمل في هذا الباب وصل إلى أسرار عجيبة^(١) انتهى كلام الفخر الرازي.

أقول: أيها المسلم الذي يروم الوصول إلى رضا الله، قد عرفت من كلام هذا العالم الكبير أن النبي ﷺ لا بد وأن يكون أكمل أهل زمانه من جميع الجهات، وعرفت أن الدين والملك قد حصره الله في محمد ﷺ ولم يعطه لأحد غيره، وأن النبي قد جعله في أمرين من بعده وهما الثقل الأكبر والثقل الأصغر، وهما القرآن والعترة الطاهرة من أهل بيت النبي، وأن القرآن لا يقدر أحد أن يفسره ويبين تأويله غير أهل البيت علي وبنيه ﷺ كما ذكر لك الفخر الرازي من تعلم علي مليون باب من العلم، فهل يسوغ لك عقلك أن تأخذ أحكام دينك من غير علي وبنيه؟ وهل عند أحد من الناس من العلم عشر معشار ما عنده؟ فلي نصف العاقل نفسه ولا يخذعها، فإنها أعز الأنفس عليه.

قال الفخر الرازي بعد كلامه المتقدم.

من الناس من قال: المراد بآل إبراهيم المؤمنون كما في قوله: «و أدخلوا

آل فرعون،^(١) والصحيح أن المراد بهم الأولاد وهم المراد بقوله تعالى: وإني جاءك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين،^(٢).

نعرف من هذا أن الإمامة في ذرية إبراهيم الذين لم يصدر منهم ظلم إلى الناس ولا إلى أنفسهم، فمن لم يكن مؤمناً حين عرف نفسه كالإمام علي عليه السلام لا يمكن أن يكون إماماً.

فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين (٦١) .

إن قصة المباحلة متفق على مضمونها بين المفسرين . وحاصل القصة هي ما روي: أن النصارى لما دعوا إلى المباحلة قالوا للنبي: حتى ننظر، فلما تخالوا - أي خلا بعضهم إلى بعض - قالوا للعاقب: ما ترى؟ وكان صاحب الرأي فيهم، فقال: والله لقد عرفتم نبوته ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا. فإن أبيتم أن لا آلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا.

فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفهم صلوات الله عليهم أجمعين، والنبي يقول: إذا أنا دعوت فآمنوا. فقال اسقفهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فأتوا المباحلة، فصالحوا على ألفي حلة وثلاثين درعاً في كل عام.

فقال النبي ﷺ: و الذي نفسي بيده لو باهلوا المسخوخا قردة و خنازير ولاضطرم الوادي عليهم ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر^(٣).

(١) غافر: ٤٦ . (٢) تفسير الرازي: ج ٨ ص ٢٢ والاية ١٢٤ من سورة البقرة .

(٣) مجمع البيان: ج ٢ ص ٤٥١ .

هذا ملخص قصة المباهلة وقد أكثر فيها المفسرون وأطنبوا وذكروا فضلاً كثيراً لأهل بيت نبيهم وفخروا بهم على أعدائهم، ويحق للمسلم ولمن يعتقده نبوة محمد ﷺ أن يفخر بأهل بيته.

أما الإمامية الذين يشترطون العصمة في الخلافة وهم القائلون بإمامة علي بعد النبي بلا فصل. وأن غيره إنما يجوز أن يكون خليفة إذا كان مثله معصوماً من الخلل وأن يكون حاوياً لكل علم بحيث لا يحتاج إلى غيره في شيء من العلوم أبداً، فإنهم يستدلون بأفضليته على غيره بهذه الآية من وجهين :

أحدهما: أن موضوع المباهلة إنما هو لتمييز المحق من المبطل، وذلك لا يصح أن يفعل إلا بمن هو مأمون الباطن مقطوعاً بصحة عقيدته وهو أفضل الناس عند الله بعد النبي ﷺ.

الثاني: أنه جعله مثل نفسه بقوله: وأنفسنا وأنفسكم، لأنه أراد بقوله: «أبناءنا» الحسن والحسين بلا خلاف، وبقوله: «ونساءنا» فاطمة بلا خلاف، وبقوله: «وأ أنفسنا» نفسه ونفس علي عليه السلام بلا خلاف، وإذا جعله مثل نفسه وجب أن لا يدانيه أحد في الفضل ولا يقارنه.

وكذا تدل الآية على أفضلية الزهراء على سائر النساء إذ المقصود من قوله «نساءنا» هي فاطمة الزهراء بلا خلاف لأنه لم يحضر المباهلة غيرها، وأن المباهلة هي لتمييز الحق من الباطل، ولا يكون ذلك إلا بمن هي أفضل النساء، ويؤيد هذا بما جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال: فاطمة بضعة مني يربني ما رابها^(١) وقال ﷺ: إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها^(٢).

وقد صح عن حذيفة أنه قال: سمعت النبي يقول: أتاني ملك فبشرني أن أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة^(٣).

و عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: أسر النبي ﷺ إلى فاطمة شيئاً

فضحكت فسألتها فقالت: قال لي: أترخين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة و نساء المؤمنين؟ فضحكت^(١).

والأخبار عن النبي ﷺ في فضلها كثيرة .

و كذا الآية تدل على أفضلية الحسين ، وإني أنقل لك نص عبارة الفخر الرازي في تفسيره الكبير لتعرف أن العالم المنصف لا يبغض أحداً حقه قال : هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين كانا ابني رسول الله (ص) وعدا أن يدعوا أبناءه، فدعا الحسن والحسين فوجب أن يكونا ابنيه، ومما يؤكده هذا قوله تعالى في سورة الأنعام: «ومن ذريته داود وسليمان» ... الى قوله «وزكريا ويحيى وعيسى»^(٢) ومعلوم أن عيسى عليه السلام إنما انتسب الى إبراهيم عليه السلام لا بالآب، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ابناً.

ثم قال الفخر الرازي: كان في الري رجل يقال له: محمود بن الحسن الحمصي وكان معلّم الاثني عشرية، وكان يزعم أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد عليه السلام ، قال : والذي يدل عليه قوله تعالى : «وأنفسنا وأنفسكم» وليس المراد بقوله «وأنفسنا» نفس محمد (ص) لأن الانسان لا يدعوا نفسه بل المراد به غيره. وأجمعوا أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فدلّت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد ، ولا يمكن أن يكون المراد منه أن هذه النفس هي عين تلك النفس .

فالمراد : أن هذه النفس مثل تلك النفس، وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه ترك العمل بهذا العموم في حق النبوة وفي حق الفضل لقيام الدلائل على أن محمداً كان نبياً وما كان علي كذلك. ولا نعقاد الاجماع على أن محمداً عليه السلام كان أفضل من علي رضي الله عنه، فيبقى فيما وراءه معمولاً به.

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٤٥٣ .

(٢) الأنعام : ٨٤ و ٨٥ ..

ثم الاجماع دلّ على أنّ حمداً لله كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام، فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء ، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية .
ثم قال: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية الحديث المقبول عندالموافق والمخالف وهو قوله عليه السلام : من أراد أن يرى آدم في علمه، ونوحاً في طاعته، وإبراهيم في خلته، وموسى في هيبته، وعيسى في صفوته، فلينظر الى علي بن أبي طالب .

فالحديث دلّ على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم ، و ذلك يدلّ على أنّ علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد (ص) .

و أما سائر الشيعة فقد كانوا قديماً و حديثاً يستدلون بهذه الآية على أنّ علياً رضي الله عنه مثل نفس محمد عليه السلام إلا فيما خصه الدليل ، و كان نفس محمد أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم، فوجب أن يكون نفس علي أيضاً من سائر الصحابة. هذا تقدير كلام الشيعة^(١) انتهى كلام الرازي.

وقال الزمخشري في الكشف بعد ما نقل القصة كما نقلناها هنا ثم قال: وعن عائشة أنّ رسول الله خرج وعليه مرط - مرجل من شعر أسود - فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم فاطمة فأدخلها ثم علي، ثم قال: وإنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت،^(٢) انتهى.

وقال ابن كثير في تفسيره: وقال أبو بكر ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن داود المكي ، حدثنا بشر بن مهران، حدثنا محمد بن دينار عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن جابر قال: قدم علي النبي (ص) العاقب والطيب، فدعاهما الى الملاعنة فواعداه علي أن يلاعناه الغداة، قال: فغدا رسول الله (ص) فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن و الحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا، وأقرا له بالخراج، قال: فقال رسول الله (ص) والذي بعثني بالحق لو قالوا دلاء، لأمطر عليهم

(١) تفسير الرازي : ج ٨ ص ٨١ .

(٢) تفسير الكشف : ج ١ ص ٣٦٩ والاية ٣٣ من سورة الاحزاب .

الوادي ناراً . قال جابر : وفيهم نزلت : «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم» . قال جابر : «أنفسنا وأنفسكم» رسول الله (ص) وعلي بن أبي طالب «وأبنائنا» الحسن والحسين «ونساءنا» فاطمة .

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه عن علي بن عيسى عن أحمد بن محمد الأزهر عن علي بن حجر عن علي بن مسهر عن داود بن أبي هند بمعناه، ثم قال : صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه هكذا، قال :

وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلًا ، وهذا أصح ، وقد روي عن ابن عباس والبراء نحو ذلك^(١) انتهى ما ذكره ابن كثير .

ولا يخفى أن كل من فسر القرآن عند وصوله الى هذه الآية يذكر هذه القصة ، ومن الواضح أن المسلم المؤمن بالنبي ﷺ اذا سمع مدح أهل بيت نبيه يفرح بذلك ويسر^٢ ويذكره للناس افتخاراً به ، وأن هذه القصة فيها من المدح العظيم . أولاً : ما قاله اسقف النصارى لأصحابه فإنه قال : لا تبأهلوا فإني أرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيلوا جبالاً لأزاله .

وثانياً : قال النبي ﷺ : لو باهلتهم لاحترق عليهم الوادي ناراً ، ثم إن النبي ﷺ قد تحتاج مع جماعات عديدة . فهل سمعتم أنه أحضر بنته في مورد من هذه الاحتجاجات إلا في هذا المورد؟ حيث إنه مورد مهم يتوقف عليه تأييد الدين . وإني لأعجب من بعض الكتاب أرى له لساناً قوياً وقلماً سيالاً واطلاعاً واسعاً لا يمكن أن يفوته حديث روي عن النبي ﷺ .

وقد ورد عن النبي ﷺ في حق علي : من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني^(٢) وهكذا ورد في حق فاطمة والحسن والحسين ، فلا عذر لمن يدعي الاسلام وهو لا يحب هؤلاء .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) بحار الانوار : ج ٣٩ ص ٢٦١ ب ٨٧ ح ٣٣ .

وإني نظرت الى ما ذكره هذا الكاتب في تفسيره و اذا به قد ذكر كلمات قليلة و لم يتعرض فيه للقصة أو للمعجزة ، و إليك نص عبارته بعد ذكره لآية المباهلة قال:

وقد دعا الرسول (ص) من كانوا يناظرونه في هذه القضية الى هذا الاجتماع الحاشد ليبتهل الجميع الى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين ، فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة وتبين الحق واضحاً^(١).

انتهى ما قاله هذا الكاتب بعدما أطل الكلام في مدح المسيح وآمه و أطنب في الثناء على مريم، وهما عليهما السلام أهل لذلك ، ولكن هذا الكاتب لم ير نفسه أهلاً لمدح أهل بيت رسول الله ﷺ، ولا أهلاً للثناء على بنت محمد المصطفى، راجع العبارة بنفسك لعلك تجد له عذراً في عدم ذكر فضيلة لأهل بيت النبي صلوات الله عليه وعليهم. وقد ذكرنا من جملة الأسئلة التي سأل المأمون عنها الرضا عليه السلام قال المأمون: ما الدليل على خلافة جدك علي بن أبي طالب؟ قال الامام الرضا عليه السلام: الدليل على ذلك آية «أنفسنا» أي: لو كان هناك شخص أقرب الى نفس النبي من حيث الروحانية والنورانية والصفاء والاصطفاء من علي بن أبي طالب لعبر النبي عنه بالنفس ولأخذه معه وباهل به ، إذ المباهلة ينبغي أن تكون بأفضل الناس بعد الرسول بحيث لم ينقص عن الرسول ﷺ إلا درجة النبوة ويساويه في بقية الصفات الحميدة. هذه العبارة تفسيره للكلمة التي قالها الرضا في جواب المأمون: وهي قوله: «آية أنفسنا» وقد فهم المأمون ما قصده الرضا من كلامه وعرف معناه ، فأجابه بجواب متين واحتج عليه بما يمكن الاحتجاج به من علماء البشر الغير المصطفين الذين لم يحيطوا بدقائق معاني الكلام إحاطة تامة فقال المأمون: «لولا نساءنا» أي: أن وجود كلمة نساءنا مقابل أنفسنا يدل على كون المراد من أنفسنا الرجال فيشمل كل رجل سواء في ذلك المتكلم وغيره ، وهو جواب متين لكنه لم يتنبه الى ما يعلمه

الراسخون في العلم فقال له الرضا عليه السلام : «لولا أبناءنا» أي : لو كان المقصود من أنفسنا مطلق الرجال الشامل للبعيد المباين للنفس لكان شاملاً للحسنين فلاحاجة الى قوله «وابناءنا» فسكت المأمون ولم يعترض لأنه من أهل الفهم والادراك ^(١). وعن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن أمير المؤمنين سئل عن فضائله فذكر بعضها ، ثم قالوا له : زدنا ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه حبران من أحبار النصارى من أهل نجران فتكلمما في أمر عيسى فأنزل الله هذه الآية : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم... إلخ» ^(٢) فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة عليها السلام ثم خرج ورفع كفه الى السماء وفرج بين أصابعه ودعاهم الى المباهلة .

قال : وقال أبو جعفر عليه السلام : وكذلك المباهلة يشبك يده في يده ويرفعهما الى السماء ، فلمّا رأى الحبران قال أحدهما لصاحبه : والله لئن كان نبياً لنهلكن ، وإن كان غير نبي كفانا قومه ، فكفّا وانصرفا ^(٣) .

قوله تعالى : ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم (٦٢) .

أي : هذا الذي أوحيناه إليك عن كيفية خلقه عيسى وما اشتمل عليه من الأدلة هو الحق وليس غيره حق ، وأن ما ادعته النصارى من أنه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة فكله باطل ، لأن الله وحده لا شريك له ، وليس هناك إله إلا الله ، وأنه هو العزيز الذي يفعل ما يريد بلا استعانة بأحد بل بقدرته وقوته ، وهو الحكيم الذي تكون أفعاله كلها مطابقة للحكمة والمصلحة فلا يعرف أحد

(١) راجع البحار : ج ٤٩ ص ١٨٨ ب ١٤ ح ٢٠ ونقل بالمعنى .

(٢) آل عمران : ٥٩ .

(٣) تفسير العياشي : ج ١ ص ١٧٥ ج ٥٤ .

قوله تعالى: فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين (٦٣).

بعد ما بين الله تعالى كيفية خلقه المسيح بصورة يقبلها كل ذي عقل بحيث لم يبق مجال للشك والريب، ثم جاءهم بشيء يظهر الحق ويدحض الباطل في أي جانب كان وهو المباشلة فلم يوافقوا عليها، وهذه الآية تقول للنبي: اذا لم يرضوا بهذا القصص الحق، وبهذا الأمر الحقيقي الذي يتناه لهم، وأعرضوا عنه، وبقوا مصرين على العناد، فإنهم لا يريدون إلا الفساد والله يعلم منهم ذلك، وسوف يجازيهم على نيتهم هذه. فإنه تهديد شديد لا يبقى مصراً عليه إلا الذي لا يعرف الله حق معرفته.

وهذا التهديد يعم كل أحد يتضح له الحق بأدلة صحيحة قوية فلا يقبله ويبقى مصراً على إنكاره، وسوف يتضح هذا الأمر في الآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٦٤).

إن هذه الآية الشريفة تكون فيها عظة للمسلم أكثر مما تكون دعوة لغيره من أهل الكتاب، فقد تبين منها ما يحصل من الاسلام من الفوائد العظيمة، وهي اتحاد الكلمة الموجبة لحصول العدل بين جميع المسلمين، وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الانسان اذا قال هذه الكلمة بإخلاص واعتقاد ولم يشبها بشيء مما يهواه من أمور الدنيا، فهذا الانسان هو

المسلم حقاً كما تقدم تفسير المسلم في قوله تعالى: «فقل أسلمت وجهي لله و من اتبعن»^(١) وقد عرفت معنى تسليم الوجه، وأنه هو الازعان والخضوع لله عز وجل بحيث إن العبد لا يفعل شيئاً ولا يقول شيئاً إلا بإذن الله، يستمد ذلك من النبي ﷺ، أو ممن أمر بالرجوع إليه والأخذ عنه والتعلم منه، فإذا أخذ العبد شيئاً من أحكام دينه من شخص لم يأذن الله و لارسوله بالرجوع إليه كان ذلك نوعاً من الشرك الذي نهت عنه الآية .

فقد روي أنه لما نزلت الآية قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: أما كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ فقال: نعم، فقال النبي ﷺ: هو ذاك^(٢).

أما أئمة أهل البيت الاثنا عشر عليهم السلام فإنهم صرحوا للناس في كل موطن أن الأمر الذي يأتي من قبلهم إن كان موافقاً للقرآن فخذوا به، وإن لم يكن موافقاً للقرآن فردوه الى الذي جاء به ولا تقبلوه منه^(٣).

وإن الآية تصرح بأن كل من أسلم ينبغي أن يكون بهذه الصفة وبهذا النوع من الازعان والخضوع والانقياد لله و لرسوله، حتى تكون كلمة المسلمين كلمة واحدة ليس فيها خلاف ولا اختلاف، وهذه الكلمة وأهل هذه الكلمة وهم أهل التوحيد - بمعناه الوحيد الذي ليس معه غيره - هم الذين يقفون مقابل الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، و يدعونهم الى دين الله ليسادوهم في التمسك والاعتقاد بهذه الكلمة، وإلا فالحرب أو الجزية.

أما الاختلاف بين طوائف المسلمين ومذاهبهم فيلزم على كل فرقة منهم أن تنظر الى عقيدتها هل أنها مدعنة منقادة الى الله بحيث قد أسلمت وجهها الى

(١) آل عمران : ٢٠ .

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ٢٣ .

(٣) راجع اصول الكافي : ج ١ ص ٦٩ ح ٥٥٢ .

الله وأخذت أحكامها من النبي ﷺ ، أو ممن أمر النبي ﷺ بالرجوع إليه ، أو أنها ليست كذلك ، ولا يبقى مصرّة على ما وجدت عليه آباءها؟

فإن أغلب الناس كانوا في العصور المتقدمة يلحظون رغبة الملوك الذين كانوا يسمّون أنفسهم خلفاء ، وكان الناس ينادونهم: يا أمير المؤمنين. كانوا في كل وقت ضدّ الدين ، فلذا تراهم يقادمون الأئمة الذين يدعون إلى الحقّ وبه يعملون. أنت أيها المسلم انظر إلى أول الأئمة وهو علي بن أبي طالب عليه السلام فهل ترى في الأحكام التي بينها للناس وهو يسندّها إلى الآيات ، فهل تتمكن أن تعثر على حكم واحد من الحلال والحرام مخالفاً لحكم الكتاب أو لسنة النبي ﷺ؟

فهذه الآية الشريفة تخبرنا بصورة حتمية: أن المسلمين بکلمتهم واحدة سواء ، فإذا تفرقت واختلفت فليس المسلمون إلا فرقة واحدة و باقي الفرق ليست من الاسلام وإن كانت كل فرقة تدعي أنها هي المسلمة .

هلمّوا ولنسر على الطريقة التي خطّها لنا الرسول ﷺ وهي التمسك بما أمرنا به من حديث الثقلين ، فإنه مسلم الصدور ، و كل الفرق ترويه عن النبي ﷺ ، فانظروا من هو المتمسك به ومن هو التارك له .

و اذا كان عند أحد من الفرق حديث كهذا الحديث صحيح السند واضح الدلالة فليذكره حتى يتبصر الناس ولا يبقون في عماهم فتكون جميع الفرق مسلمين حقيقيين ، وتكون كلمتهم واحدة ، حتى تقف صفّاً واحداً في قبال هذا التيار الجارف من يهود ونصارى وغيرهم ، فنعود إلى إسلامنا «فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» .

وهذه الجملة لا تحتاج إلى تفسير وتحليل ، ولا تحتاج إلى ترجمة بالنسبة إلى العربي. أمّا بالنسبة إلى غيره فيتمكّن كل عربي أن يترجمها له اذا كان مسلماً كما أمره الله لأن يسلم وجهه لرب العالمين ، أمّا اذا كان مسلماً كما يأمره هواه وكان موالياً للكافرين فتكون ترجمته كما يشتهي هو .

قوله تعالى : ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون (٦٩) .

إن الله من رافقه بالمؤمنين ورحمته لهم يخاطبهم ويخبرهم بنوايا اليهود، وبما تضرره قلوبهم في حق المسلمين من النوايا الخبيثة السيئة لكي يحذروا منهم ويتعدوا عنهم، فإنهم يودون أن يضلّوهم عن دينهم بعد أن اهتدوا وكانوا مؤمنين، وإنهم يفعلهم هذا أو يتمنيهم إضلال المؤمنين قد صاروا من الضالين وكفروا بما في كتابهم .

وإنما سماهم الله أهل كتاب إنكاراً عليهم ، لأن أهل كل كتاب يلزمهم العمل بما في كتابهم ، وأن كتابهم قد حرم عليهم إضلال المؤمنين، وفي مخالفتهم لكتابهم وارتكاب ما حرم عليهم فيه يكونون قد أضلّوا أنفسهم من حيث لا يشعرون. أما المؤمنون الذين ودوا إضلالهم فإن كان إيمانهم راسخاً فلا يؤثر فيه إضلال المضلين ، وإن كان إيمانهم متزلزلاً غير مستقر فإنه يزول من كل شبهة. ثم إن هذه الآية تكون منبهة لفرق المسلمين الثلاث والسبعين حيث إنهم أهل كتاب وأهل دين ، وأن اثنين وسبعين فرقة منهم على غير الحق، وأن الحق مع من تمسك بوصية النبي ﷺ في قوله: إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ^(١) .

فكل فرقة غير متمسكة بقول النبي ﷺ إذا أرادت إرجاع فرقة أخرى الى ما هم عليه يكونون يفعلهم هذا قد أضلّوا أنفسهم وما يشعرون ، وأن عليهم قبل كل شيء أن يحققوا لأنفسهم التمسك بوصية النبي ﷺ، فإنه أرشدهم الى طريق واحد، وعليهم أن يسيروا فيه ولا يخرجوا منه يميناً وشمالاً وإلا فهو الضلال والاضلال.

قوله تعالى: يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون (٧٠).

إن هذا النداء من الله لأهل الكتاب إنما هو حجة عليهم حيث إنهم يدعون أنهم يعملون بما في كتبهم من التوراة والانجيل، والله المنزل له قد أمر نبيهم وأمرهم في نفس الكتاب أن يصدقوا بالنبي الموصوف بالكتاب وأن لا ينكروا صفته، ولما بعث النبي كفروا بالآيات التي جاء بها وهم يرونها رأي العين ويشاهدونها، وأن الله ينكر عليهم فعلهم هذا، ويفضحهم عند المسلمين، ويحكم عليهم أنهم كفروا بآياته مع أنهم يسمون أنفسهم أهل كتاب، فتكون الحجة أعظم، ويستحقون بذلك العذاب من الله، وفي نفس الآية إنذار للمسلمين الذين يكفرون بآيات القرآن، ويغيرونها ويعملون بخلافها، وقد يستنون مواداً قانونية مخالفة للقرآن. وقد وبخ الله أهل الكتاب، وأنكر عليهم بالآية التي بعد هذه الآية، وفيها إنذار للمسلمين وهي قوله تعالى:

يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون (٧١).

ما أكثر هذا التلبس في هذا العصر عند المسلمين، فإن أهل الأطماع الذين لا يعرفون إلا المادة، ويأملون أن ينالوا شيئاً منها من الأمراء الخونة يذكرون الآية النازلة في شأن المؤمنين الأبرار ثم يطبقونها على هذا الفاجر الخالي من الدين، ويكتمون أعماله السيئة وظلمه للناس واغتصاب أموالهم، وهم يعلمون بها فلا يقولون الحق إذا حضروا عنده أو سئلوا عنه، وبهذا شابهوا أهل الكتاب في تلبس الحق بالباطل وكتمان الحق.

وأنّ هذا الانكار من الله على أهل الكتاب وهذا التوبيخ وهذا الوعيد لم يؤثر فيهم شيئاً ، فلم يتركوا شيئاً من باطلهم ولم يقربوا عن الحق ، بل عمدوا الى مكر آخر وحيلة جديدة ليخدعوا بها البسطاء من المسلمين، وأنّ الله قد نبّه المسلمين وحذرهم حتى لا ينجسوا فقال جلّ اسمه :

و قالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون(٧٢) ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم او يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم(٧٣) يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم(٧٤).

هذه الآيات المنزلة على النبي ﷺ بعضها تحكي نوايا اليهود التي أرادوا أن يفعلوها لكي يرجع المسلمون عن إسلامهم، وأنّ الله من لطفه ورأفته ورحمته بالمسلمين أخبرهم بما يكيد لهم اليهود، فإذا اطلع المسلمون على المكر والخديعة بطل أثره فلا ينفع شيئاً، ولا تحصل منه النتيجة المطلوبة، بل ينعكس الأمر ويكون ضرر مكرهم عليهم.

وملخص هذا المكر الذي أراده اليهود هو: أنه اجتمع جماعة من أحبارهم، و أوعزوا الى جماعة منهم بأن يظهروا الايمان بالنبي في أول النهار ثم يعلنوا الكفر به في آخر النهار، ويعلمون هذا الكفر بأنهم اشتبهوا في تطبيق الأوصاف عليه ، وأنّ ما وصف به النبي الأمي في كتابهم لا ينطبق على محمد بن عبدالله، فإذا فعلوا ذلك يقول من آمن بالنبي: إنّ أهل الكتاب أعرف بهذا الأمر منافير جمعون عن إسلامهم.

ولكن الله قد فضح اليهود، وأعلن مكرهم للمسلمين فلم ينتفعوا به، وعرف كل مسلم أن اليهود من أهل المكر والخداع، وأنهم أعداء للدين الاسلامي. وقد نقل المفسرون أقوالاً أخرى في تفسير الآية، فالآية الأولى هي حكاية عن حال اليهود، وأما قوله: «ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم» من الآية الثانية فهي أيضاً حكاية حالهم.

والمعنى أن الطائفة اليهودية التي دبّرت تلك الحيلة المنوّه عنها بالآية السابقة وهي الايمان بالنبي في صلاة الصبح الى بيت المقدس، والكفر به في صلاة الظهر الى الكعبة، أو الايمان مطلقاً في أول النهار والكفر في آخره، وبعد تدييرهم تلك الحيلة، والعزم على إجرائها وإمضائها، جعل يوصي بعضهم بعضاً، أو يوصي الأحبار أتباعهم بهذه الوصية التي حكاها الله بقوله: «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم». وقد اختلف المفسرون في المقصود منها. فقال بعضهم: إن المعنى لاتصدقوا نبياً إلا أن يقرر شرائع التوراة، أما من جاء بشيء مخالف لما في التوراة فلا تصدقوه. وهذا هو مذهبهم ودينهم في ذلك العصر^(١).

أما في هذا العصر، فلو بعث الله لهم موسى بن عمران عليه السلام وأراد أن يعمل على التوراة فإنهم يقاوموه ويعارضوه ولا يوافقوه إلا أن يحرف التوراة، وينقص ويزيد حسبما ما يريدون.

وقال بعض المفسرين: إن المعنى لاتخبروا واحداً بهذا الأمر الذي تواطأتم عليه من الكيد والمكر لامن المسلمين ولا من غيرهم إلا أن يكون تابعاً لدينكم على كل حال سواء ظهر له الحق أو لم يظهر^(٢).

وأما قوله تعالى: «قل ان الهدى هدى الله» فهو من كلام الله يرد به على اليهود، ويؤدّب به المؤمنين ويعلمهم طريق الاهتداء. أي: أن الهدى الحقيقي

(١) راجع التفسير الكبير: ج ٨ ص ٩٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٩٦.

الذي ينتفع به المرء في الدنيا والآخرة إنما هو هدى الله لا ما تعتبرونه أنتم هدى، فالْمُؤْمِنُونَ قد اهتدوا بهدى الله، وهم في غنى عما ترونه أنتم هدى، وأنتم إن صدقتم النبي وآمنتم به أو كفرتم وكذبتم، أظهرتم أو أخفيتم، كل ذلك على حد سواء بالنسبة الى المؤمنين، فإن الله ينزل القرآن على نبيه ﷺ، والنبي يتلوه على المؤمنين، وهم يعملون بمضمونه ويتمسكون به، وإذا عملوا بمضمون القرآن عرفوا أن أقوالكم كلها باطلة، وأعمالكم عاطلة، فلا ينخدعون بأقوالكم، ولا يضعف إيمانهم بأفعالكم.

وأما قوله تعالى: «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم» فقد اختلفوا فيه هل أنه من تنمة كلام أهل الكتاب، أو أنه من رد الله عليهم؟ فقال بعضهم: إنه من تنمة كلام اليهود^(١).

والمعنى: أنكم لا تبدون تدبيركم الذي دبرتموه لمن لا تتؤمنوه على أسراركم، وذلك لئلا يكون عندهم من العلم بصفة النبي عندكم من ذلك فيعرفون صدقه، وأنتم تريدون خلاف ذلك، أو إذا صار عندهم من العلم والحكمة وأنتم خالفتموهم في تصديق النبي فإنهم يحاجوكم به عند الله.

وعلى هذا القول يكون قوله تعالى: «قل إن الهدى هدى الله، جملة معترضة بين كلامهم، أي: أن الله أبطل صدر كلامهم قبل أن يأتوا على آخره انتصاراً للمسلمين، ودحواً لحجتهم، وهذا غاية في الازلال والتحقير، لأن القاعدة الجارية بين المتكلمين هي أن يترك المتكلم حتى يأتي على آخر كلامه، ولكن إذا كان الكلام غاية في السخافة وكان مطلعها ظاهر البطلان يضرب المتكلم على فمه ولا يعطى مجالاً لاتمامه، وإنما ذكر الله بقية كلامهم حتى يظهر للناس بطلانه أولاً وآخراً. وقال بعض المفسرين: إنه من جملة رد الله عليهم^(٢).

(١) راجع التفسير الكبير : ج ٨ ص ٩٧ .

(٢) راجع تفسير الكشاف : ج ١ ص ٣٧٤ .

فيكون المعنى: أن الهدى هدى الله، وإنما منعتهم إفشاء الأمر لغير أهل ملتكم حسداً منكم وخوفاً من أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الاطلاع على صدق النبي ﷺ، وأنه هو الموعود به الذي يبعث و يكون خاتمة الأنبياء، فإذا عرفه جميع الناس وقع الأحبار بين محذورين: إما أن يؤمنوا به فتبطل رئاستهم وتقدمهم بين اليهود ويكون حالهم حال أحد المسلمين، لهم مالهم و عليهم ما عليهم، وإما أن يبقوا على ما هم عليه من التمسك باليهودية فيحاجوهم - أي المسلمون - عند ربهم. هذا ما فكر به اليهود من دوران الأمر بين هذين الأمرين .

أما الأمر الثالث فلم يفكروا فيه وهو: ما فعله الله من إخبار المسلمين وفضح أمرهم على رؤوس الأشهاد، وإنزال قرآن يقرأ الى يوم القيامة، وأن الله و نبي المسلمين وسائر المسلمين سوف يحاجوهم يوم الحساب، وأن الله سيعذبهم ويعاقبهم على هذه الأعمال التي عملوها مع المسلمين، هذا كله لم يفكروا فيه لأنهم بعيدون عن الله و لا يعرفون أو لا يعترفون بشيء من أمور الآخرة، وإنما يعرفون الدنيا وزينتها وزخرفها ويعرفون المادة لا غيرها.

هذا كله مما يتعلق باليهود و مكروهم و خداعهم و حيلتهم، و ليس هو من موضوع كتابنا وإنما موضوع كتابنا صفات المؤمنين التي ذكرها الله في القرآن. وقد ذكر الله في ضمن هذه الآيات أموراً ثلاثة:

١ - قوله تعالى: «قل إن الهدى هدى الله» .

فإنه تعالى قد نفى كل شيء يسمونه الناس هدى عن حقيقة الهدى إلا ما كان من عند الله، فيلزم المؤمن أن تكون عقيدته مطابقة لهذا الذي قرره الله، وأن لا يسمي شيئاً هدى إلا ما كان من عند الله بسبب متصل مقرر من الله بواسطة الملك الذي يحمل الوحي الى النبي ﷺ .

و النبي بدوره بعد انقضاء مدته يسلمه الى من له قابلية هذا المنصب بأمر وتعين من الله، ولا يتمكن أحد أن يجعل نفسه أو غيره ممن بيده هداية الله، فإن الله لا يجعل قيماً عليها إلا من يرضيه ويؤهلها لها.

٢- قوله تعالى: «قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم». لما قرر الأخبار من اليهود التكتّم والتستر وعلّلوا ذلك بأن لا يكون عند أحد من الناس ما عندهم من العلم والحكمة التي وجدوها في التوراة من صفات النبي والحكمة التي سبّبت تحويل القبلة من بيت الى بيت ردّ الله عليهم بأن النبوة والخلافة العامة والحكمة والعلم ومعرفة الأسباب والمسبّبات هو كلّ فضل من الله، وهو بيده يعطيه من يشاء، فكما أعطاه الى بني إسرائيل وجعله عندهم مدة من الزمن أعطاه الآن الى النبي العربي من ذرية إبراهيم، وسوف يبقّيها في ذرية إبراهيم، وأن الله واسع في كل فضل، عليم بالمصالح وبمن يكون أهلاً لفضله كما قال لإبراهيم: «لا ينال عهدي الظالمين»^(١).

٣- الأمر الثالث هو ما يؤكّد به الأمرين المتقدمين ويوضح المراد منهما، وهو قوله تعالى: «يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم». إن اليهود كانوا يمتنون أنفسهم أن يستولوا على رئاسة الدين والدنيا جميعاً، فكانوا يدعون دعوى غرور أنهم قتلوا عيسى وصلبوه، وجعلوا يكيدون أنواعاً من الكيد للقضاء على محمد ﷺ حتى يمسكوا بزمام الحكم، وقد حاولوا مراراً عديدة أن يقتلوا أحد أجداد النبي هاشم أو عبدالمطلب، أو يقتلوا أباء عبدالله، أو يقتلوه هو شخصياً، فما تمكّنوا.

ثم حاولوا بعد البعثة وبعد نزول الوحي عليه أن يخدعوا الناس ليرتدوا عن الاسلام، فأعلن الله مكرهم وكيدهم للأنام، ثم عرفهم وعرف المسلمين الذين اعتنقوا الاسلام، وعرفهم هموم البشر بالآيتين اللتين تقدمتا: «قل إن الهدى هدى الله» و«قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم».

إن الهدى إنما يحصل بإرادته وإشأته ولا يمكن أن يتحقق هدى إلا من عنده، وأن الفضل وهو النبوة والرئاسة الدينية والملك وهو السيطرة التي تعامل

الناس بالعدل إنما هو بيد الله يعطيه من يشاء ويصرفه ممن يشاء .

وبعد الآيتين عرّف الجميع أن "أمر النبوة والملوك أي الرئاسة العادلة يختص"

بها الله من يشاء فقال : "يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم" .

فقد عرفنا من هذه الجمل الثلاث أن "أمر النبوة والرئاسة العادلة العامة بيد

الله تعالى، أما اليهود فلا يرجعون عن غيتهم ولا يعدلون عن تمنياتهم ولا يقطعون

آمالهم، وهم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم بل إلى اليوم الذي يكونون فيه هم أذل من

قوم سباً وإن كانوا في يومهم هذا كذلك، فإنهم على أملهم الكاذب يأملون ما لا يكون .

إن اليهود مع ما نزل فيهم من الذم الكثير في القرآن وبيان ما هم فيه

من الصفات الرذيلة فإنهم يطمحون أن يستعمروا العالم بأسره ، وأن يستعبدوا

الناس جميعاً بالمكر والخداع والحيل ، ولكن الله تعالى قد بين للمسلمين كل ما

هموا به من فعل فتحذر المسلمون منهم .

أما الطرف الآخر المقابل لهم وهم النصارى فإنهم مع علمهم بعداوة اليهود

لهم وأنهم لو تمكّنوا من إزالتهم عن وجه الأرض لأزالوهم ، وأن الله قد ذكر

في القرآن أنه وعد المسيح أن يجعل من اتبعه فوق الذين كفروا به وهم اليهود

إلى يوم القيامة ، ومع هذا كله فإن اليهود قد خدعوا النصارى حتى ساعدوهم

على مقاومة المسلمين، فاغتصبوا أرض المسلمين وأسكنوهم فيها، وجعلوا يمدونهم

بالمال والسلاح، ثم خدعوهم خديعة كبرى لا ينخدع بها مجنون أو معتوه أو طفل

صغير أو امرأة ضعيفة معدمة يملأون لها بيتاً من تبر ، ألا وهذه الخديعة كانت

بالنسبة إلى أعقل طبقاتهم وهم الأساقفة والآباء ، خدعوهم بالأصفر اللمّاع بل

بالقراطيس المطبوعة حتى برأوهم عن دم المسيح ، وهم ينادون ويعلمون مدة

عشرين قرناً بأننا قتلنا المسيح ، وبعد هذه المدة يأتي رجال مسيحيون فيبرثون

اليهود من دمه .

يقول الطنطاوي في تفسيره: "لقد ذكر أحد علماء الأفرنج أنه قرأ في التلمود

- وهو شرح التوراة - ما يأتي وهو قول اليهود : نحن شعب الله في الأرض وقد أوجب أن تفرقنا في الأرض لمنفعتنا ذلك ، إنه لأجل رحمتنا ورضاء عنا سخر لنا الحيوان الانساني وهم كل الامم والأجناس ، سخرهم لنا لأنه تعالى يعلم أننا نحتاج الى نوعين من الحيوان : نوع آخرس كالدواب والأنعام والطيور ، ونوع ناطق كالنصارى والمسلمين والبوذيين وسائر الامم من أهل الشرق والغرب ، فسخرهم لنا ليكونوا مسخرين لخدمتنا ، فلذلك فرقنا في الأرض لئلا نمتطي ظهورهم ونمسك بعنانهم ونستخرج فنونهم ونسخرهم لمنافعنا أجمعين ، لذلك يجب علينا أن تزوج بناتنا الجميلات للملوك والوزراء والعظماء ، وأن ندخل أبناءنا في الديانات المختلفة وأن تكون لنا الكلمة العليا في الدول وأعمالها فنفتنهم ونوقعهم في الحرب ، وندخل عليهم الرعب والخوف ، وفي ذلك كله نحن نستفيد الاستفادة كلها ^(١) .

واليهود هم الذين أذاعوا في المانيا أنه لارحمة على ضعيف ، حتى وقف غيلوم ملك الألمان وقال : ويل للمغلوب . كل ذلك فعل اليهود وهم الذين قاموا يسترجعون فلسطين بعد ضياعها من أيديهم نحو ألفي سنة ، لقد أخبرني أحدهم قائلاً : إن لهم جمعية دائمة ترسل في كل عام جماعة تجوس الأقطار وتبحث في الأمصار عن اليهود القاطنين في الأماكن المختلفة وتحصي ما يحتاجون إليه من المعونة ، وترجع فترسل لهم ما إليه يحتاجون . فهذه بعض خصال اليهود الدالة على محافظتهم على قوميتهم التي تغالوا الى الاضرار بالامم .

و أما غيرهم من أنواع البشر فمنهم من ينكر الخالق فيعمل له صنماً من حجر أو من غيره فيعبده ، ومنهم من ينكر انبي فيعمل له صنماً ويقول : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » ^(٢) فيتخذ الصنم واسطة ويجعله في مقام النبي ، فهل ترى من فرق بين هذين الصنفين ؟

(١) تفسير الجواهر : ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) الزمر : ٣ .

فأنا أرجو من أخي المسلم الذي يتطلب الرشد أن يجعل هذه الجمل الثلاث نصب عينيه : « قل إن الهدى هدى الله » و « قل إن الفضل بيد الله » و « يختص برحمته من يشاء » .

و لا يخفى أن المراد بالفضل والرحمة هو النبوة والرئاسة العادلة العامة، فلو أن الخلق كلهم اجتمعوا وأخذوا بيد رجل عاقل كامل وقالوا كلهم بكلمة واحدة: أنت نبي الله، أنت رسول الله، فهل يكون ذلك الرجل نبياً ورسولاً؟ ولو أنهم كلهم اجتمعوا وأخذوا بيد رجل وقالوا له: أنت إمام مفترض الطاعة من ذرية إبراهيم، فهل يمكن أن يكون إماماً بعد رسول الله و من ذرية إبراهيم ما لم يجعله الله و رسوله بهذه المنزلة؟ فتدبر جيداً أيها المسلم و فكر بالجمل الثلاث حتى تصل الى الصواب وتسلم يوم الحساب من العقاب .

قوله تعالى: و من أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل و يقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٧٥).

المراد من أهل الكتاب هم النصارى و اليهود، و القنطار هو المال الكثير . وقد اختلفوا في مقداره، والدينار معروف معين، وأن الله قد مدح المرء الذي يودع عنده مال كثير فيؤديه الى صاحبه متى أراد، و ذم الشخص الذي يخون الأمانة و يطمع حتى بالقليل من المال و ذلك بخساسة نفسه .

وقد قال بعض المفسرين: إن الذين يردون الأمانة لأهلها هم النصارى وإن كانت كثيرة، والذين يخونونها هم اليهود^(١).

و هذا القول هو الأقرب لأن اليهودي عن إذا صار في يده مال لغير يهودي وأمكنه أكله لا يرده أبداً، والمقصود من الآية هو ذم اليهود من جهتين:

الجهة الاولى: أنهم يخونون الأمانة وإن كانت قليلة جداً، بحيث لا يطمع فيها إلا الفقير المعدم الرذيل الذي لا يستحي مما قيل فيه، فهذا لا يرد هذا المقدار الزهيد إلا أن تبقى ملازماً له ملحقاً عليه ، كالذي يقف على رأس إنسان فلا يدعه أن يقوم أو ينام أو يأكل و يشرب فيضطر الى دفعه له ، والخيانة صفة مذمومة عند جميع الناس وجميع الفرق سواء كانوا أهل دين أو لا.

الجهة الثانية: أنهم يسندون هذه الخيانة وأكل مال الناس الى مسوغ ديني كما حكاه الله عنهم بقوله : «ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل». فتارة يقولون: إن الأموال التي أصبناها من العرب لا ينبغي لنا ردها لأنهم مشركون. هذا بالنسبة الى من لم يسلم.

و يقولون تارة أخرى بالنسبة الى من أسلم: إننا حين عاملناهم كانوا على دين وقد تحولوا عنه الى دين آخر.

وقال بعضهم: إننا حين عاملناهم كانوا على ديننا ثم خرجوا من الدين فصاروا كفاراً فلاحق لهم في رد مالهم .

وادعوا أن كل هذه التعليقات في كتبهم ومفتضى دينهم، وحيث إن الدين قليله وكثيره لا يكون إلا من عند الله، فقد نسبوا هذه العلة الباطلة الى الله كذباً وزوراً، وهو ما ذكره بقوله : «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» أن هذا الأمر غير موجود في كتبهم وليس هو من الدين.

قوله تعالى: ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم

يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (٧٧).

لما ذكر الله في الآية السابقة أنه يحب العبد إذا وفى بعهده وكان من المتقين ذكر في هذه الآية الوعيد الشديد لمن لم يف بعهده سواء كان العهد مع الله بواسطة الرسول أو كان العهد مع الناس، فإن الحكم في الآية عام يشمل جميع العهود وجميع الناس وإن نزلت الآية في شأن اليهود أو في قضية أخرى شخصية.

كما يروى أنها نزلت في الأشعث بن قيس، أو في عبدان وامرئ القيس، أو في رجل آخر حلف يميناً فاجرة في إنفاق سلعته^(١).

فالوعيد المذكور في الآية شامل لكل إنسان عاهد عهداً ثم نكثه ولم يف به، أو حلف يميناً كاذباً على خلاف الحق.

أما ما كان من أمر اليهود فإن جميع أقوالهم وأعمالهم باطلة مبنية على الكذب والخداع، وإن الله هو الذي تولى فضيحتهم وبيّن في القرآن بعض مساوئهم ليحذّرهم الناس ويتخلصوا من شرهم.

ولكن الذي يهمنّا أمر المسلمين فإن الإنسان إذا صدق النبي واعتقد أنه مبعوث من الله وأن القرآن منزل عليه لا ينبغي له أن يخالف حكماً من أحكام القرآن سيما إذا كان الحكم مشتملاً على الوعيد كما نحن فيه، فإن الله قد أعد لنا كثر العذاب ما لا يتهاون به إلا المنكر للخالق، فاسمع لما تعدّه الآية من أنواع الهوان والابعاد إذ يقول: «اولئك ١ - لا خلاق لهم في الآخرة ٢ - ولا يكلمهم الله ٣ - ولا ينظر إليهم يوم القيامة ٤ - ولا يزكيهم ٥ - ولهم عذاب أليم، فهل هناك بشر يتحمل هذه الأنواع من العذاب؟

ولا يخفى عليك أيها المسلم إنك إذا قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فإن معنى هذه الشهادة وهذا الاعتراف هو عهد وميثاق

والتزام منك الى الله ورسوله بأنك تمتثل جميع الأوامر والنواهي الواردة في القرآن ولا تخالف منها شيئاً، فإذا أنت خالفت بعض الأحكام كترك بعض الواجبات أو ارتكاب بعض المحرمات فإنك قد نقضت العهد ولزمك العذاب من المواد المتقدم ذكرها . هذا بالنسبة الى عموم الأحكام التي يشملها مجرد الدخول في الاسلام .

أما إذا كانت هناك قضية مهمة بالنسبة الى الدين الاسلامي وأخذ النبي ﷺ من أمته عهداً خاصاً فيها فبهذه يتأكد العقاب بالنسبة الى من ينقضها وينكثها . فالبيعة التي تعقد بين اثنين هي عهد وثيق، وإما أن تكون بيعة حق* وهدى خالصة لله فهي لازمة يجب الوفاء بها ، وإما أن تكون بيعة ضلال يراد بها ظلم الناس ونهب أموالهم و هتك أعراضهم وهتك حرمة الله فهي باطلة محرمة من أصلها ، ويجب فسخها والتبري ممن بايعه .

وأما بيعة الحق فنكثها من أشد المحرمات وهي التي تكون بأمر الله ورسوله وإن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ،^(١)

فالبيعة التي تكون للنبي والتي تكون بأمره ﷺ يكون نكثها أو نقضها من أعظم المحرمات، والناكث لها يستحق العقاب بالمواد الخمس التي تقدم ذكرها، ولعل العقاب يكون بأكثر من ذلك .

ولقد طلب النبي ﷺ بيعة في ابتداء أمره وبيعة في انتهاء أمره وأخذ فيهما كثيراً ، ومتعلق البيعتين - أي أحد الطرفين في كل من البيعتين - كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . والطرف الثاني في البيعة الاولى كان النبي ﷺ ، وفي البيعة الثانية كان الطرف الثاني أمة النبي ﷺ .

أما البيعة الاولى فقد كانت عندما نزل قوله تعالى «وأندر عشيرتك الأقربين»^(٢)

(١) الفتح : ١٠ .

(٢) الشعراء : ٢١٤ .

فقد جمع النبي ﷺ أقرباءه وصنع لهم طعاماً وأشبعهم وأرواهم بمعجزة منه ، ثم طلب أن يؤازره أحدهم على قيامه بالتبليغ ليكون وصيه وخليفته من بعده ، فلم يجبه أحد إلا علي بن أبي طالب عليه السلام . فكرر عليهم ثلاثة أيام فلم يجبه غيره ، وبأيعه على ذلك ، فكانت البيعة من علي عليه السلام لرسول الله ﷺ ، وقد وفى بها وقام بها أحسن قيام ^(١) .

وأما البيعة الثانية فهي : لما عزم النبي ﷺ على حجة الوداع أمر مناديه أن ينادي في المدينة وفي أطرافها بالحج ، وحشهم على الحج في تلك السنة ، فحج مائة وعشرون ألفاً من الناس ، وقيل : أكثر من ذلك . فلما قضى حجه ورجع جمع الناس على ماء يسمى « غدير خم » ، وأعلمهم أن الله أمره كما هو صريح الآية ^(٢) .

وإن الذين جاؤوا من بعد تلك الطبقة فنكثوا فإنما إثمهم على أولئك الذين كانوا حضوراً ولم يفوا بالبيعة .

وأما بالنسبة إلى الأيمان الكاذبة فإن أغلب الناس قد ارتكبوه في البيع والشراء . ولا يخفى على التجار والكسبة أن الذي يحلف كاذباً إنما يستحق العذاب المذكور بأنواعه الخمسة . فإذا أراد الخلاص من العذاب فليتب إلى الله وليكفر عن إيمانه ويقطع عن اليمين ولا يقدم عليه بعد ذلك .

فقد روي عن أبي وائل عن النبي ﷺ أنه قال : من حلف على يمين كاذباً يقطع بها مال أخيه لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان ، فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك في كتابه « الذين يشتركون به عهد الله و إيمانهم ثناً قليلاً » ^(٣) . والروايات بهذا المضمون كثيرة .

وليعلم الناكث للعهد والحالف يميناً كاذباً أنه مهما حصل عليه من مال

(١) راجع مجمع البيان : ج ٧ ص ٢٠٦ .

(٢) بحار الانوار : ج ٣٧ ص ١٠٨ ب ٥٢ .

(٣) الوسائل : ج ١٦ ص ١٤٨ ب ٤ ح ١٨ .

الدنيا فإنه قليل في مقابل ما أعدّ الله لأهل الوفاء بالعهد والتارك لليمين تعظيماً لأسماء الله تعالى، وأنه زائل عن قليل، وأن عاقبته العذاب الدائم الذي ليس له انقطاع.

قوله تعالى : **وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ أَصْرِي قَالَوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١).**

إنّ هذا الميثاق الذي أخذه الله إماماً أن يكون على النبيين أنفسهم، أو على اممهم، أو عليهم وعلى اممهم، وليس بعد ذلك احتمال آخر . فإذا كان الميثاق على الامم وحدها أو عليها وعلى الأنبياء فذلك أمر عام ، وإذا كان على الأنبياء كانت الامم أولى به منهم إذ الأنبياء معصومون من الخطأ ولا يتعدون الصواب ، فإنهم لا يحتاجون الى ميثاق بخلاف الامم . وعلى جميع الوجوه يكون الميثاق على امم الأنبياء .

ولا ريب بشمول الحكم لجميع الأنبياء ولجميع الامم من آدم الى عيسى الذي جاء من بعد محمد ﷺ ، فالله تعالى يقول لأهل الكتاب الذين لم يصدقوا بالنبي ﷺ ولم يؤمنوا به كيف لا تؤمنون وقد أخذ الله الميثاق عليكم بواسطة أنبيائكم الذين آتيناهم كتاباً مشتملاً على كثير من الامور ؟ ككتاب موسى الذي فيه تفصيل كل شيء ، وكنز انجيل عيسى الذي علمه فيه احياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وآتاهم مع هذه الكتب حكمة يتمكنون معها من جعل كل شيء في محله وإنزاله منزلته لا يخطأون ولا يزلون .

أما الميثاق المأخوذ على الأنبياء وعلى الامم هو : أنه اذا جاء رسول من الله عنده جميع ما في كتب الأنبياء من العلم وعنده جميع أنواع الحكمة التي عند الأنبياء

يلزم على الأنبياء وعلى الأمم أن يؤمنوا بهذا الرسول وأن ينصروه.

والظاهر من الآية الشريفة أن المقصود منها هو هذا الذي ذكر، لأن الإنسان إما أن يصدق بإنسان آخر فينبغي أن يقول: «مصدق بكم»، وليس المقصود التصديق بالأنبياء وإن تحقق ذلك وإلا لقال: «مصدق لكم»، وإما أن يكون مصدقاً بصفاته وعلومه فيقول: «مصدق بما عنده»، ولكان أن يقول: «مصدق بما معكم».

وأما التصديق للصفات - أي الكتاب والحكمة - فمعناه أنه حاور لهما ومحقق لهما في نفسه وصدوره، فهو مصداق لما معكم من كتاب وحكمة.

فعلم من هذا التعبير وهو قوله: «مصدق لما معكم» أنه إذا جاء رسول عنده جميع ما كان عند الأنبياء من كتاب وحكمة لزم جميع الأنبياء والأمم التصديق والإيمان بنبوته ونصرتة على المشركين الذين ليسوا بأهل كتاب.

وقد عكس أهل الكتاب الأمر وخالفوا الميثاق وكنثوا العهد حيث إن المشركين قد آمنوا بالنبي ﷺ وأهل الكتاب يريدون أن يضلّوهم عن دينهم وجاهدوا بالمكر الأخير وهو ما ذكره الله بقوله: «آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون»^(١).

فهذه الآية الشريفة كما أخبرتنا أن محمد بن عبد الله ﷺ وهو رسول مبعوث من الله وأن معجزته القرآن عرّفتنا أيضاً أن عنده علوم جميع الأنبياء وحكمتهم، وأن جميع الأنبياء أقرّوا لذلك وأخذوا الميثاق على أممهم والله شهيد على ذلك. هذا بالنسبة إلى أهل الكتاب، وأن حجج الله في القرآن كثيرة على أهل الكتاب ولكنهم لا تنفع فيهم معجزة.

أما بالنسبة إلى المسلمين فنقول: إن هذا الرسول هو الذي أوصى الله به جميع الأنبياء وأمهم وأخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا به وينصروه وأعطاه علوم جميع الأنبياء وحكمتهم، وجعله خاتم الأنبياء، وجعل حلاله وحرامه حلالاً وحراماً إلى يوم القيامة، وأراد أن يكون كتابه معمولاً به إلى يوم القيامة، وأنه قد بقي في

الديار بعد بعثته ثلاثاً وعشرين سنة منها ثلاث عشرة سنة في مكة مشغولاً بأنايا قريش وقد أمر أصحابه بالفرار منها إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة وبقى بها عشر سنين مشغولاً بالحروب والغزوات .

ثم إن " أمة محمد ﷺ هي أمة من الأمم بل هي أفضل الأمم وأشرفها، فالميثاق من الله يلزمها بل هي أولى به من غيرها، فهي ملزمة بالإيمان به وبنصرته وتطبيق أحكامه. وأنه يلزم على كل فرد من الأمة رجلاً كان أو امرأة أن يؤمن به، ويعتقد بأن " الأحكام التي جاء بها هي من عند الله لا تبدل لها ولا تغير، ويلزمه أن ينصره ولا يخذله، والخذلان بأن يجعل ما أوجبه من الأمور غير واجب فيترك الصلاة والصوم والحج والزكاة، ويجعل ما حرمه من الأمور جائزاً، فيستحل المحرمات من شرب الخمر وأكل الربا واللعب بالميسر وأخذ الرشأ وأمثال ذلك من المحرمات فيشملة قوله تعالى :

فمن تولي بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون (٨٢).

المقصود من التولي المخالفة وعدم الطاعة ، و المخالفة تارة تكون بعدم الإيمان بالله وتصديق النبي، ومرة تكون بعصيان أوامر النبي ﷺ كلها أو أكثرها أو بشيء قليل منها، وأن التوبة يقبلها الله من جميع الأصناف ، فمن أراد أن يتدارك نفسه قبل الموت تمكن من ذلك فلا يقصر عنها ولا يهملها.

قوله تعالى : أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون (٨٣).

بعدما بين الله في الآية السابقة أنه أخذ ميثاق الأنبياء و الأمم في الإيمان بالرسول المتأخر، وأن " الرسول ﷺ قد جاء، وقد أنزل الله عليه كتاباً وشرع له ديناً، فمعناه أن " جميع الأنبياء متفقة على أن " دين هذا الرسول هو دين الله ودين

الحق، فماذا تريدون بعد هذا؟ إذ الممتنع من قبوله لا يريد دين الله، والذي لا يريد دين الله ليس مراده إلا الضلال، وكل من يريد الدين فقد أسلم لله الذي أسلم له من في السماوات والأرض إما طوعاً وهو من يقتنع بالحجج والبراهين، أو كرهاً أي مكرهين بالسيف، أو معاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الفرق كما اتفق لفرعون.

أما قوله تعالى : «واليه يرجعون» فهو البشارة للمؤمن و الوعيد للكافر والمنافق والفاسق، أي: أن جميع من في السماوات والأرض من أسلم منهم و من لم يسلم يكون مرجعهم إلى الله بعد الموت وعند الحساب، وكل إنسان يجازى بعمله.

قوله تعالى : قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (٨٤).

فإن الله أمر رسوله أن يعلن للملأ أنه هو الذين آمنوا معه يؤمنون بالله وبما أنزل عليه من الله وما أنزل على بقية الأنبياء من آدم ومن بعده، فهو عالم بكل ما أنزل على الأنبياء كعلمه بما أنزل عليه. و يعلم من هذه الآية أن الذي يؤمن بمحمد ﷺ يلزمه أن يؤمن بما أنزل عليه.

و معنى الإيمان العمل بما فيه من الأحكام الشرعية التي تضمنها الكتاب والسنة، وهذا لا يمكن لجميع أفراد الأمة ما لم يكن للنبي خليفة يعلم بجميع ما في الكتاب من حلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، وكل جزئية وكلية، ولا يمكن إحالة الأمة على الكتاب وحده، فإنه لا يكفي لقطع الخصام وفصل دعاوي وإرشاد الضال وتعليم الجاهل، فالامامة العامة لا بد منها، وبدونها ينتقص أمر النبوة، فلا يقول بها إلا من لا يلاحظ العواقب ولا يهمه أمر الدين .

ثم بعد الاعتراف بالايمان بالله وشرائعه وكتبه ورسله كما أمر الله رسوله بهذا الاعتراف أمره في النهاية أن يقول عنه وعن أمته «و نحن له مسلمون» .
أمرهم بالانقياد والخضوع والتسليم لله وفي جميع الامور كما مر عليك
تفسيره في قوله: «أسلمت وجهي»^(١) فلا تغفل ولا يذهب عنك معنى الايمان والاسلام،
فانه ليس مجرد التلفظ باللسان بل هو مع التلفظ اعتقاد بالجنان وعمل بالأركان،
فكن مسلماً كما يريد الله و كما علمك النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار.

قوله تعالى : ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو
في الآخرة من الخاسرين (٨٥).

بعدما أمر الله في الآية السابقة النبي ﷺ و أمته بالايمان بالله وبما انزل
عليه وما انزل على جميع النبيين وعدم التفرقة بينهم بيّن في هذه الآية أن الدين
الذي عيّنه الله في هذا العصر هو الدين الذي بعث به محمد ﷺ وهو المقبول عند الله
ولا يقبل الله غيره وهو دين الاسلام. ولو لم تكن هذه الآية لكأنى باليهود يقولون
اذا لم يكن فرق عند الله بين النبيين كما قال : ولا نفرق بين أحد منهم^(٢) فنحن
نتبع دين موسى و نعمل بشريعته . فقد قطعت ألسنتهم بهذه الآية و لم يبق
لكلامهم مجال.

قوله تعالى : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا
من شيء فان الله به عليم (٩٢) .

بيّن الله في هذه الآية صفة من صفات المؤمنين وهي صفة السخاء والكرم،

(١) آل عمران : ٢٠ .

(٢) البقرة : ١٣٦ .

صفة إنفاق المال في سبيله وامتنال أمره، وقد تقدم ذكر عدة آيات في سورة البقرة كلها في إنفاق المال وفي ذكر بعض شروطه التي تجعله مقبولا عند الله، وأما هذه الآية فقد علق نوال البر على إنفاق ما يحبه العبد . أي : لن تبلغوا كمال البر أو لن تكونوا أبراراً أو لن تدر كوا بر الله وثوابه حتى تنفقوا مما تحبون.

إن الذي يحبه الانسان قبل كل شيء هو النفس التي ليس له غيرها ، ثم المال ، ويرجع حبه الى حب النفس وكذلك الأولاد والنساء والجاه والسلطة وغيرها ، فإن حب الكل يرجع الى حب النفس ، وكذا حب ما أمر الله بحبه ، فإن المرء اذا أحب حباً خالصاً لله فإنما هو لحب نفسه .

نعم إن بعض الامور يحبها المرء لنفع نفسه في الدنيا ، وبعضها يحبها لنفع نفسه في الآخرة ، وكل شيء يحبه المرء إنما هو لأجل نفسه ، ولما ذكر الله في الآية السابقة أن بعض الناس يكفرون ويموتون على كفرهم فهم لا يرجعون الى الله . وهذا النوع من الناس لو أراد أن يخلص نفسه - التي هي أحب الأشياء لديه بل ليس هناك محبوب سواها كما ذكرنا - لا يمكنه ذلك . فلو فرض أنه تمكن من ذهب يملأ الأرض وقدم هذا الذهب ليفتدي به نفسه لا يقبل منه ولا يمكنه أن يخلص نفسه .

وقد ذكر في هذه الآية أن هذه النفس المحبوبة الوحيدة يتمكن الانسان أن يضمن لها النجاة بحيث يكون هو من الأبرار أو يفوز ببر الله ورحمته بشيء يعمل في دار الدنيا ، وهو أن ينفق مما يحبه لا كل ما يحب ، فإذا أنفق ذلك حضى بتلك الدرجة ولا يحتاج الى فداء في الآخرة ، إذ أنه قدم الفداء في الدنيا .

ولا يخفى أن من يعمل هذا العمل إنما هو من المؤمنين لا من الكافرين ولا يموت على الكفر ، ثم يتن لنا أن كل شيء تنفقه في سبيل الله - سواء كان مما نحبه أو من غيره - فإن الله به عليم ، وسواء كان نفساً أو مالاً أو جاهاً أو علماً أو

غيرها من الأمور فإن كل شيء ينفقه الإنسان يوصله الى درجة من درجات البر، جعلنا الله من الأبرار .

قوله تعالى : ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين (٩٦) فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فان الله غنى عن العالمين (٩٧).

إن في هذه الآية بيان فريضة من فرائض الاسلام . واجب من واجبات المسلمين الضرورية التي من أنكرها صار كافراً، ولكن أول الآية إنما هو رد على اليهود وانتصار للمسلمين ، وكم في القرآن من الرد على اليهود ، ولكن اليهود كالشيطان، فإنه مشغول بعمله مهما بيتن الله للناس كفره وطرده ولعنه، فهو لا يبالي بجميع ذلك و يحسب أن أكبر غنيمة يحصل عليها أن يخدع أحداً من الناس فيدخله في معصية الله .

واليهود كذلك فإن الله قد أنزل في القرآن من الآيات في بيان كفرهم ومكرهم وخدعهم وحيلهم أكثر مما أنزل في الشيطان وهم لا يباليون بذلك وهم دائبون في عملهم من المكر والخداع والحيل ، فإن مسخهم قرده وخنازير لم يؤثر بهم وكيف يؤثر بهم الكلام؟!

وإننا لم نأسف من أفعالهم الشائنة الخبيثة فإنهم جرثومة فساد لا يمكن التخلص منهم إلا بمحو وجودهم من على وجه الأرض بحيث لا يبقى منهم شخص واحد، وكيف يمكن ذلك وقد طلب إبليس أن ينظره الله وذريته الى يوم الوقت المعلوم، وهم لا يرب من جملة ذريته لقوله تعالى : « وشاركهم في الأموال والأولاد، »^(١).

و لكن الأسف كل الأسف من الامم الذين هم على وجه الأرض من مسلمين و مسيحيين كيف لا يتفقون معاً و يزيلون هذه البذرة الخبيثة الضارة المفسدة من على وجه الأرض ؟ فما أدري هل أن حكومات العالم تقرأ ما يكتبه المفسرون للقرآن من تفسير الآيات النازلة في ذمهم ، و أظن أنها لا تقرأ شيئاً من ذلك ، ولو أنهم قرأوا شيئاً من التفسير لسارعوا الى محوهم وإزالتهم .

أما المسلمون فيكفيهم ما في القرآن من الآيات الدائمة لليهود التي لم تجعل لأحد من البشر ثقة في أقوالهم ولا في دينهم ولا في أعمالهم ، ولو حلفوا لك أيها المسلم آلاف الأيمان فلا تصدق قولهم ولا تثق بعهدهم ، ولا تقرب إليهم ولا تخلو بأحدهم فإن النبي ﷺ قال : ما خلا يهودي بمسلم إلا وحدته نفسه بقتله^(١) . وأما المسيحيون فإنهم - وإن لم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ - يعتبرون القرآن كتاباً مقدساً ، فليعتبروا بما فيه من ذم اليهود ، وإن لم يعتبروا بذلك فإنهم - أي اليهود - قد قتلوا نبيهم المسيح كما يعتقد ذلك اليهود والنصارى جميعاً . فإن قيل أو قال أحد الفريقين : إن القرآن نفى ذلك فليصدقوا ببقية آيات القرآن . نعم إن القرآن ذكر خلاصه من الصلب والقتل بإرادة إلهية لم يطلع عليها اليهود ولا النصارى حيث ألقى شبهه على رجل آخر ورفعه الى السماء ، ولم ينكشف هذا الأمر الى أن نزل القرآن . فهو - أي المسيح عليه السلام - باعتقاد الفريقين مقتول ومصلوب بأيدي اليهود .

والآن وبعد عشرين قرناً خدع اليهود المسيحيين فصدروا حكماً ببراءة اليهود من دم المسيح ، تعست هذه العقول التي أصدرت هذا الحكم ، فإن اليهود لو لم يروا المسيحيين عبيداً لهم ينفذون أوامرهم لتمكّنوا من صلبهم أجمعين وفضوا عليهم بساعة واحدة .

وقد خدع اليهود الأمريكان و الانكليز فأصبحوا يمدونهم بالمال والسلاح

ليقودهم على الدول الإسلامية ، ولو كان عندهم شيء من التفكير والعقل السليم لعلموا أن الحكومات الإسلامية أنفع لهم من اليهود، ومهما يكتب الإنسان في مثالب اليهود فلا يمكنه أن يستوفي معشار ما فيهم.

وعلى كل حال فإن اليهود قد افتخروا على المسلمين فقالوا: إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء والأرض المقدسة . فرد الله عليهم في هذه الآية وبيّن أن الكعبة هي الأفضل والأقدم ، بل هي أول بيت وضع للعبادة، وليس قبله بيت بهذه الصفة، وقد جعله الله مباركاً أي: كثير الخير لمن حجّ واعتمر .
ثم قال : «هدى للعالمين» لأنه متعبد لهم وقبلتهم.

ثم قال : «فيه آيات بينات» كإهلاك أصحاب الفيل وغيرهم، ومحافظة السباع للصيد في حرمة وعدم التعرض له ، وأن الطير لا تعلموه ، وأن فيه مقام إبراهيم حيث فيه أثر قدمه في الحجر وغوصها إلى الكعبين، وحفظه من الأعداء، وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء .

سئل الصادق عليه السلام ما هذه الآيات البينات؟ قال عليه السلام: مقام إبراهيم، - حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماء - والحجر الأسود ومنزل إسماعيل^(١) .
و منها قوله : «ومن دخله كان آمناً» أي: من الآيات مقام إبراهيم، و أمن من دخله .

وروي عن الصادق عليه السلام قال: من بايع قائمتنا ودخل معه ومسح على يده ودخل في عقدة أصحابه كان آمناً^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام قال: من دخله وهو عارف بحقنا كما هو عارف به خرج من ذنوبه وكفى هم الدنيا والآخرة^(٣) .

وعن الامام الباقر عليه السلام قال: من دخله عارفاً بجميع ما أوجبه الله كان آمناً

(٢٠١) تفسير البرهان : ج ١ ص ٢٩٩ .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٣٠٦ ح ٢٦١ .

في الآخرة من العذاب الدائم^(١).

وعنه عليه السلام قال: من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن من سخط الله، ومن دخله من الوحش والطير كان آمناً أن يهاج أو يؤذى^(٢).

وعنه عليه السلام قال: إذا أحدث العبد في غير الحرم جنابة ثم فرّ إلى الحرم لم يسع لأحد أن يأخذه من الحرم، ولكن يمنع من السوق ولا يبيع ولا يطعم ولا يسقى ولا يكلم، فإنه إذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤخذ، وإذا جنى في الحرم جنابة اقيم عليه الحد في الحرم لأنه لم ير للحرم حرمة^(٣).

ثم بعدما ذكر الله تعالى هذه الآيات البينات كلها وعدم تأثر اليهود بشيء منها وبقاؤهم مصرين على عنادهم مظهرين العداوة للمسلمين ولنبیهم ولدينهم أظهر الله شرف هذا البيت وبيّن عظمته بنوع آخر من التعظيم ووجه هذا البيان لعامة الناس، ولم يخص به المؤمنين وإنما دعا الناس إلى الإيمان بطريق الدعوة إلى هذا البيت فقال: «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً و من كفر فإن الله غنى عن العالمين».

لا يخفى أن المقصود من الناس هم البشر أبناء آدم فلا يدخل في هذا البيان الملائكة ولا الجن، ويخص من الحيوان الذين خصوا بالعقل والفهم وخرجت سائر الحيوانات، فمن كان يعد نفسه من الناس تشمله هذه الدعوة إذا كان يؤمن بالله. أما اليهود فإنهم لا ينفع معهم شيء، وكل شيء يخص الدين والإيمان والنبوة والموت والبعث والآخرة إذا لم يكن فيه شيء من الماديات فإنهم ينكرونها ولا يعترفون بها.

وأما النصارى فإنهم حكموا بكفر اليهود لأنهم لا يصدقون بعيسى عليه السلام مع ما

(١) تفسير التبيان : ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) تفسير العياشي : ج ١ ص ١٨٩ ح ١٠١ .

(٣) تفسير العياشي : ج ١ ص ١٨٩ ح ١٠٣ مع اختلاف يسير .

جاء به من المعجزات، فلماذا لم يصد قواهم - أي النصارى - بمحمد ﷺ و بما جاء به من المعجزات؟ وبعد ذلك تصالحوا مع اليهود و وافقوهم و حكموا ببراءتهم من دم المسيح، فسوف يغضب عليهم المسيح، فإذا جاؤوا يوم القيامة طردهم موسى وعيسى ومحمد ﷺ، وبقوا بلا شفيح، كما أن اليهود سوف يطردون إذا لم يعملوا بشريعة أحد من هؤلاء الثلاثة .

وقد دعا الله الناس الى هذا البيت الذي نسبه الى نفسه دعوة عامة اذا استطاع الروحاح إليه، والاستطاعة تحصل أولاً بالبلوغ والعقل و سلامة البدن من العاهات بحيث يقدر على الحركة، ثم بتخليه السبيل والتمكّن من المال. فإذا وجد الانسان هذه الامور وكان مؤمناً بالله يلزمه ما يلزم الناس من حج البيت، و إن قال أحد إن الدعوة لم تشملها فهو إما معدوم الايمان أو مسلوب الانسانية، و إن ادعى أنه من الناس ولم يحج فهو من أخس الأقسام حيث عبّر الله عنه بقوله: «ومن كفر فإن الله غني عن العالمين».

قال بعض المفسرين في معنى الآية : من جحد فرض الحج و لم يره واجباً فهو كافر^(١).

قال السيد عبد الله شبر في تفسيره الجوهر الثمين عند قوله: «ومن كفر فإن الله غني عن العالمين»: أكد تعالى أمر الحج بإيجابه بصيغة الخبر والجملة الاسمية، و إيراده على وجه يفيد أنه حق لله في رقاب الناس وتخصيص الحكم بعد تعميمه، وهو تكرير للمراد وبيان بعد إبهام وتقليظ تركه بتسميته كفراً كما سمي تاركه في الحديث يهودياً أو نصرانياً، وذكر الاستغناء الدال على المقت والسخط وابدل عنه بـ «عن العالمين» الدال على الاستغناء عنه بالبرهان وعلى عظم السخط.

وفي النبوي: تارك الحج وهو مستطيع كافر، قال الله: «والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين» .

و من سوف الحج حتى يموت بعنه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً .
ونحوه غيره .

وعنه عليه السلام في قوله «ومن كفر» قال: يعني ترك .

وقيل للكاظم عليه السلام: من لم يحج منا فقد كفر؟ قال: لا، ولكن من قال: ليس هذا هكذا فقد كفر^(١) انتهى .

روى عن الامام الصادق عليه السلام في قوله تعالى «من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً»^(٢) قال: نزلت فيمن سوف الحج حتى مات ولم يحج فعمى عن فريضة من فرائض الله^(٣) .

و روى عن ذريح قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول : من مات و لم يحج حجة الاسلام ولم يمنعه عن ذلك حاجة نجحف به أو مرض لا يطيق الحج من أجله أو سلطان يمنعه فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً^(٤) . والأخبار كثيرة في ذم تارك الحج .

وأما الأخبار الواردة في ثوابه فكثيرة أيضاً، فقد روى عن الصادق عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للحاج والمعتمر إحدى ثلاث خصال: إما يقال له قد غفر لك ما مضى وما بقى، وإما يقال له قد غفر لك ما مضى فاستأنف العمل، وإما أن يقال له قد حفظت في أهلك وولدك وهي أحسنهن^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام قال: لو كان لأحدكم مثل أبي قبيس ذهب ينفقه في سبيل الله ما عدل الحج، ولدرهم ينفقه الحاج يعدل ألفي ألف درهم في سبيل الله^(٦) .

(١) الجواهر الثمين : ج ٤ ص ٣٥١ .

(٢) الاسراء : ٧٢ .

(٣) بحار الانوار : ج ٩٩ ص ٥٥ ب ٢ ح ٥ .

(٤) بحار الانوار : ج ٩٩ ص ٢٠ ب ٢ ح ٧٢ .

(٥) بحار الانوار : ج ٩٩ ص ٦٦ ب ٢ ح ٩ .

(٦) بحار الانوار : ج ٩٩ ص ٨٨ ب ٢ ح ٢٠ .

و عن الصادق عليه السلام قال : اذا اجتمع الناس بمنى نادى مناد : أيها الجمع لو تعلمون بمن حللتم لايفنتم بالمغفرة بعد الخلف، ثم يقول الله تبارك وتعالى : إن عبداً أوسعت عليه في رزقه لم يفد إليّ في كل أربع لمحروم^(١).

وروي أن حجة مقبولة خير من الدنيا وما فيها^(٢).

وأما من منع أحداً من الحج فإثمه عظيم، فقد روي عن الصادق عليه السلام قال: ليحذر أحدكم أن يعوق أخاه عن الحج فتصيبه فتنة في ديناه مع ما يدخر له في الآخرة^(٣).

وعن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن رجلاً استشارني في الحج وكان ضعيف الحال فأشرت عليه أن لا يحج، فقال: ما أخلقك أن تمرض سنة، فقال: فمرضت سنة^(٤).

وروي عن أبي حمزة الثمالي قال : قال لنا علي بن الحسين عليه السلام : أي البقاع أفضل ؟ قلنا: الله تعالى ورسوله و ابن رسوله أعلم، فقال لنا: أفضل البقاع ما بين الركن والمقام، ولو أن رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك المكان ثم لقي الله تعالى بغير ولايتنا لاينفعه ذلك شيئاً^(٥).

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين (١٠٠).

روي عن زيد بن أسلم و السدي أن قوماً من اليهود أغروا بين الأوس

(١) بحار الانوار : ج ٩٩ ص ٩ ب ٢ ح ٢٣ .

(٢) بحار : ج ٩٩ ص ١١ ب ٢ ح ٣٤ .

(٣) بحار الانوار : ج ٩٩ ص ١٥ ب ٢ ح ٤٥ .

(٤) من لا يحضره الفقيه : ج ٢ ص ٢٢١ ح ٢٢٣٤ .

(٥) مجمع البيان : ج ٢ ص ٤٧٨ .

والخزرج بتذكيرهم حر و بهم في الجاهلية ليفتنوهم عن دينهم فنزلت الآية^(١).

وهذه الآية حكمها باقي الى يومنا هذا ، و أن إغراء اليهود بين طوائف المسلمين في هذا العصر أكثر بأضعاف مضاعفة مما كانوا يأتونه أيام النبي ﷺ ، وقد سمعت وتسمع من الآيات التي تنوء عما يأتونه في ذلك العصر مع وجود النبي ﷺ ونزول الوحي عليه ، مع أن المسلمين كان إيمانهم أقوى من إيمان مسلمي هذا الزمان ، وكان النبي ﷺ يقرأ عليهم الآيات التي توحى إليه ويعرفهم بالطرق التي يسلكها اليهود ويحذرهم منها .

أما في هذا الزمان وإن تنوّرت فيه الأفكار وتبصّر فيه الناس ، وأن شباب المسلمين قد يصل الى حقائق الأمور قبل وصول شيوخ العصور السابقة، ولكن كما تقدم هؤلاء - فرساً - خمسون بالمائة فإن اليهود تقدموا أيضاً بالمكر والخداع والحيلة مائة بالمائة، والمسلمون مختلفون على حقهم ، وفي كل وقت ترى الأعداء يلقون الفتنة بين المسلمين ، وهذا ديدنهم و شأنهم و مما يوحى إليه كفرهم بالحق والحقيقة .

ولكن اللوم كل اللوم يتجه الى المسلمين ، إذ أن الآية الشريفة لم يختص حكمها بزمان النبي ﷺ وإنما يعم كل زمان ، و يعم جميع طبقات المسلمين . وكذا يعم جميع طبقات أهل الكتاب .

فقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا» يعم جميع الدول الاسلامية المؤمنة : عراق ، حجاز ، اردن ، سوريا ، كويت ، يمن ، ايران ، أفغانستان ، باكستان ، وغيرها وقوله : «ان تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب» يعم جميع حكوماتهم : أمريكا انكلترا ، روسيا ، فرنسا ، وغيرها ، والاطاعة تعم الاطاعة بكل شيء : فتح محلات لبيع الخمور ، فتح مصارف لمعاونة الربا ، فتح دور للرقص ، فتح دور لاذاعة الفناء ، ترخيص اللعب بالقمار .

فإن أهل الكتاب أعداء المسلمين إنما يأمرون المسلمين بكل شيء منافي للدين الاسلامي ثم يأتونهم من طرق السياسة فيلقون الفتنة بينهم، فلذا نرى الحكومات الاسلامية ينتقد بعضهم بعضاً، بل نرى داخل الحكومة الواحدة والشعب الواحد فئات مختلفة من هذه الأحزاب الالحادية، وكل فرقة معادية ومتربصة لبقية الفرق، فهم يتضاربون فيما بينهم حتى يقنئ بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون، تقنى الأموال وتقنى النفوس شيئاً فشيئاً حتى يهلكوا عن آخرهم .

أيها المسلمون، أتشعرون أنكم إذا رفضتم مبادئ الاسلام وأحكام القرآن واعتنقتم مبادئ الكافرين وأطعتموهم في اعتناق هذه المبادئ أتشعرون أنهم ردوكم بعد إيمانكم كافرين !

أيها المسلمون، إذا تركتم الكتاب والسنة والقوانين الاسلامية وتمسكتم بأقوال الكافرين واعتصمتم بقوانينهم، وأطعتم قولهم وأمتثلتم أمرهم في قتل إخوانكم وأهل بلادكم وسجنتم النساء فإنهم «يردوكم بعد إيمانكم كافرين» .

فتأملوا قليلاً في معنى الآية فإن الله يناديكم ويعرفكم حقيقة الأمر ويحذركم مكائد أعدائكم، فأطيعوا الله ترحبوا ولا تخالفوه فتهلكوا، ويسلط عليكم عدوكم فيستعبدكم ويستعمركم .

وبعد، فإن كنت أيها العبد المسلم تصدق بكلام الله وياخبره - حيث إنك مسلم يلزمك التصديق فإذا لم تصدق بها فأنت غير مسلم وليس لنا معك كلام أصلاً، أما إذا كنت مسلماً - فإن الله أخبرك بأنك إذا أطعت أحداً من أهل الكتاب يعني يهودياً أو نصرانياً فإنه سيردك أيها المسلم بعد إيمانك كافراً، إما دفعة واحدة أي : بفعلة واحدة من الأفعال الموجبة للكفر، أو يردك كافراً تدريجياً، بحيث يأمرك أولاً بمعاداة إخوانك المسلمين باتخاذك مبدأً جديداً، ثم يأمرك بشرب الخمر ولعب القمار وأكل لحم الخنزير وأكل الربا وغيرها من المحرمات فتكون كافراً

وأنت لا تشعر بنفسك وتظن أنك من المؤمنين . ولكن نحن لا يمكننا أن نصدقك ونكذب إخبار الله فيك إذا رأيناك تطيع الكافرين ، بل نرى عندك أكثر من الاطاعة ، إذ نراك تريد أن تطبق نظام الكافرين على جميع المسلمين وتحاربهم على ذلك وتقتل منهم جماعة على ذلك ، تقتل الرجال والنساء والأطفال ولا تبالى بشيء في سبيل تطبيق نظام الكافر .

و أنا أرجو منك أحد أمرين : إما أن تحكم على نفسك بالاسلام فتطيع أمر الله سبحانه ، وإما أن تحكم على نفسك بالكفر فتلتحق بإخوانك من يهود أو نصارى .

ثم بعدما حكم الله بالكفر على من يطيع الكفار وجه إليهم سؤالاً يلزمهم الاجابة عليه ، فقال تعالى :

وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله
وهن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (١٠١).

هنا سؤال إنكاري بصورة التعجب من هذا الأمر الذي قد وقع منك ، يقول الله تعالى : يا أيها الرجل الذي كان مؤمناً ثم ارتدّ وصار كافراً أنت لما اعتنقت الدين الاسلامي إنما اعتنقته عن بصيرة وتدبر ، وبعد قيام الحجج والأدلة على أحقيته وأنه هو الوحيد من الأديان الذي يلزم العاقل اعتناقه و الالتزام به ، فصرت مسلماً وآباؤك وأجدادك كانوا مسلمين ، ورسول الاسلام هو ذلك الرسول بعينه ، وكتاب الاسلام هو القرآن بعينه ، والآيات تتلى عليك صباحاً ومساءً فما بدا لك حتى صرت كافراً؟ فهل تبين لك بطلان الدين بحجة أقوى ودليل دلّ على بطلان الاسلام وأحقية ما دخلت فيه من أحزاب الكافرين ؟ فإن حدث عندك دليل جديد فأعلنه للناس حتى يعرفوه و اطرحه أمام العلماء المتمسكين بالقرآن ، فإما أن يردوه

وإِذَا أَنْ يُوَافِقُوكَ عَلَيْهِ.

هذا السؤال متوجه من الله إليك فأجب عنه ، وليس عندك جواب ولكن العدو خدعك وغرك وأملك بأشياء باطلة لا يفي بشيء منها ، وإنما يسلب منك دينك حتى يستبدك وجعلك خادماً عنده فتخسر الدنيا والآخرة .

ثم يبين الله لك ولكل مسلم أنكم إذا أردتم التخلص من كيد هؤلاء الكافرين وأن يكون إيمانكم ثابتاً غير متزلزل فعليكم بالاعتصام بالله فإن «من يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم» .

الاعتصام هو التمسك ، والمقصود من هذا الجملة أنه ينبغي للمسلم أن يلتجئ إلى الله في جميع أموره حتى يساعده الله عليها ، وينبغي له أن يتمسك بدين الله بحيث لا يترك واجباً ولا يفعل حراماً ولا يعمل برأيه بل يأخذ دينه من الله بالوسائط التي عينها الله له ولا ينخدع بقول من يدعي العلم أو المعرفة أو يدعي أنه إمام المسلمين ما لم يتم الحجة التامة على دعواه ، فإذا اعتصم بالله فقد هدي إلى الصراط المستقيم والله هو الهادي وهو المرشد ، فقد بين الطريق وأوضحه للنبي ﷺ والنبي بيته لأمته بقوله : إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ^(١) .

وهذا يفسر قوله تعالى : «كيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله» فإن الآيات هي نفسها باقية ، والرسول وإن ارتحل عنا ولكنه أقام مقامه أهل بيته ، فهم الذين يفسرون لنا القرآن ، فلا يكون المسلم كافراً ما دام متمسكاً بهذين الأمرين ، أما إذا تخلى عنهما أو عن أحدهما فإن الكافر يطمع فيه ويأمل أن يجره إليه ويخرجه من دين الاسلام ، فلا تغفل عن نفسك أيها المسلم فإن الله قد أرشدك ودلك على الطريق .

ثم إن الله أكد لنا الأمر وأوضح لنا الطريق تفضلاً منه على عباده ، فقال عز وجل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢).

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ لَنَا قَبْلَ هَذَا أَنَّ إِطَاعَةَ الْكَافِرِ تَسَبِّبُ الْارْتِدَادَ إِلَى الْكُفْرِ، وَيَبَيِّنُ أَنَّ الْإِعْتَصَامَ بِاللَّهِ يَهْدِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الَّذِي يَهَيِّئُ الْإِنْسَانَ لِلْمَوْتِ عَلَى دِينِهِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ، أَيُّ: الْإِحْتِرَازَ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ بِحَيْثُ لَا يَقْتَرِبُ إِلَى مَعَاصِيهِ بِتَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ حَرَامٍ، فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى - فَإِنَّهُمْ صَارُوا تَلَامِيذَ الْيَهُودِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، فَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ وَصْفُ الشَّيْطَانَةِ - وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْعَاقِبَةِ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ عَلَى كِلَا الْأَمْرَيْنِ بِتَقْوَى اللَّهِ حَقَّ تَقَاتِهِ، فَقَدْ فَسَّرَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام هَذِهِ الْجُمْلَةَ - أَيُّ تَقْوَى اللَّهِ حَقَّ تَقَاتِهِ - بِقَوْلِهِ: يَنْطَاعُ وَلَا يُعْصَى، وَيُذَكَّرُ وَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرُ وَلَا يُكْفَرُ ^(١).

وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ عَظِيمَةٌ لَوْ أَنْصَفَ بِهَا الْعَبْدُ لَا يَتْرَكَ وَاجِباً وَلَا يَفْعَلُ مُحَرِّماً وَلَا يَطِيعُ كَافِراً وَيُوفِّقُهُ اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ مُسْلِماً، فَإِنَّهُ إِذَا لَا يَنْسَاءُ فِي سَائِرِ أَوْقَاتِهِ لَا يَنْسَاءُ سَاعَةَ الْمَوْتِ أَيْضاً.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣).

لقد أمرنا الله في هذه الآية بثلاثة أشياء، و نهانا عن شيء واحد، أما الامور التي أمرنا بها :

فالأول: أمرنا أن نعصم بحبل الله.

الثاني: أن نذكر نعمة الالفة بين قلوبنا بعدما كنا أعداء .

الثالث: أن نذكر نعمة إنقاذنا من النار وقد كنا على شفا حفرة منها .

وأما الذي نهانا عنه فهو التفرق إذ قال «ولا تفرقوا» .

أما الاعتصام بحبل الله فقد فسر بتفسيرات متعددة، فقال بعضهم: حبل الله هو

القرآن^(١). وقال بعضهم: الدين الاسلامي^(٢). وقال بعضهم: التوبة^(٣). و قال بعضهم: طاعة الله^(٤). وهناك أقوال اخر .

وأما إنقاذهم من النار فمن حيث تركهم الكفر واعتناق الاسلام ، و الكافر

هو على شفا حفرة من النار، فأنقذهم بالرسول الأعظم ﷺ حيث بعثه إليهم فآمنوا به وصدقوه، وهذه نعمة يجب أن يذكروها ويشكروها مدى الحياة .

وأما نعمة الالفة بين القلوب فإنها أيضاً بسبب الاسلام فإنهم حين كانوا كافرين

كان كل فريق منهم لا يرى للآخرين حرمة لافي الدماء ولا في الأموال ولا يعرف

شيئاً من الحرام أنه حرام، وكان يغزو بعضهم بعضاً، والقتل والأسرى ضمن الغزو ونهب

الأموال، فلما أسلموا حصلت الالفة بينهم بسبب الاسلام. فالاسلام هو المؤلف والكفر

هو المفرق.

ومن هنا نعرف أن الأمر الواحد الذي نهينا عنه وهو التفرق إنما هو التفرق

في الدين و أنه نهى عن العودة الى الكفر والخروج عن الاسلام ، فقد عرفنا أن

(٢١) مجمع البيان : ج ١ ص ٤٨٢ .

(٣) تفسير الرازي : ج ٨ ص ١٦٣ .

(٤) تفسير الكشاف : ج ١ ص ٣٩٤ .

الاسلام هو المنقذ من النار، و هو الموجب للالفة والمحبة وببذالعداوة، وأن التفرق موجب للكفر بالنسبة الى الفرقة التي تفارق الاسلام لتركها بعض الامور الأساسية للاسلام التي مهدها النبي ﷺ في حياته ففارقته بعض الفرق إما في حياته أو بعد وفاته .

وقد تواترت الرواية عنه أنه قال: ستفترق امتي الى ثلاث وسبعين فرقة، فرقة واحدة ناجية والباقي في النار^(١) وهذه الرواية تفسر لنا الآية وهي الاعتصام بحبل الله ، فإن الحبل الموصل الى رضا الله واحد ليس له شعب .

بقي علينا أن نعرف المقصود من حبل الله أي شيء هو؟ فهل هو إنسان جمع العلوم الموصلة الى الله والى رضاه؟ أو أنه عمل أو عقيدة أو شيء آخر؟

لا شك ولا ريب أن النبي ﷺ في حياته هو الحبل الموصل الى الله، إذ هو العارف بحكم كل شيء من الأشياء، إما لوجوده في القرآن، أو لعلمه به من الملك، أو من الآيات المتشابهة بحيث إنه عالم بها .

أما بعد فقدان النبي ﷺ فالقرآن موجود ولكن لا يعرف أحكامه كل أحد ، بل لا يعرف جميع أحكامه أحد كما يعرفها النبي ﷺ إلا إذا كان النبي قد أخبرنا أنه علمها لرجل بعينه .

بقي علينا أن نسأل الفرق الاسلامية فرقة فرقة: هل أن في رجالكم الذين أخذتم منهم مبادئكم الدينية اصولاً وفروعاً أحداً قد علمه النبي ﷺ جميع أحكام الدين وتفسير القرآن حتى يحل محل الرسول بعد رحلته الى دار البقاء؟

فما أجاب أحد على هذا السؤال إلا فرقة الامامية فقالوا : إنه قد تواتر عن النبي ﷺ كما يروي الفخر الرازي في تفسيره الكبير في تفسير نفس الآية قال : وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) أنه قال: إني تارك فيكم الثقلين:

كتاب الله تعالى جبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي^(١) .

وهذه الرواية يرونها جميع علماء المسلمين، وقد رواها بعضهم عن أبي سعيد بأبسط وأوضح مما ذكرها الرازي ، قال : روى أبو سعيد الخدري عن النبي (ص) أنه قال : أيها الناس إني قد تركت فيكم جبلين إن أخذتم بهما لن تضلوا بعدي أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله جبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي ، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض^(٢) .

فإن هذا الحديث يدل على أنه أودع علومه كلها عند أهل بيته عليهم السلام ، وأن أول أهل بيته ورئيسهم علي بن أبي طالب عليه السلام ، وأن فرقة الإمامية نحتج بهذا الحديث ، ولذا نوالي أهل البيت وترجع إليهم في أخذ أحكام الدين .

ولهم أدلة أخرى كثيرة على أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو المؤهل للخلافة من الله ومن رسوله بحديث الغدير وأنه أكثر الصحابة علماً، وأنه أقضى الأصحاب كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: أقضاكم علي^(٣) .

والظاهر أن السبب في حدوث هذه الفرق التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وآله هو إطاعتهم أهل الكتاب ، فإنهم في زمن وجود النبي صلى الله عليه وآله لم يتمكنوا أن يؤثر دا على المسلمين، ولكن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله تمكنوا من التغلب على جملة من الرجال، فجعلوا يحدّثون فرقة بعد فرقة . و لم يكتفوا بما فعلوا فإنهم في هذا الزمان يعملون ويحدّثون ، فأحدثوا أحزاباً إلحادية أشغلوا المسلمين بهذه الامور حتى يعملوا ما يريدون .

أيها المسلمون، تنبهوا وافتحوا عيون قلوبكم وتداركوا الأمر قبل أن يفوت أوانه فلا تقدرون على شيء .

(١) تفسير الرازي : ج ٨ ص ١٦٢ .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٦٠ .

(٣) راجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج ٢ ص ٢٩٦ .

ثم بعد هذا البيان الوافي في القرآن والتأكيد المكرر وإيضاح الأمر وتفصيله وحصر الوصول الى الله والى رضوانه بطريق واحد يستخرجه العاقل بفهمه وذكائه، فإنه غير خفي على من كان له أدنى فهم أن حبلى الله ليس كسائر الحبال، حبله أضوأ من القمر وأنور من الشمس، حبل يأمر الله الناس أجمعين أن يعتصموا به وهو الرؤوف الرحيم.

ولكنه مع هذا الايضاح يعلم أن الناس لا يطيعون كلهم، وأن الأغلب منهم يغلب عليهم الطمع وحب الدنيا والميل الى اللهو واللعب، ولذا أوجب وأكد على ذوي العقول الكاملة أن يكونوا دعاة للدين، وأن يبذلوا جهودهم بمقدار ما يمكنهم في إرشاد الناس، وأن يفهموهم الحق ويرشدوهم الى الطريق المستقيم، وهو حبل الله الممدود من السماء الى الأرض كما أوضحه لهم النبي ﷺ، فليس الموجود في هذا العصر من العلماء أقل تكليفاً ممن كان في عصر النبي . إن الآيات والأحاديث موجودة وقد محضت وغربت وتبينت الكذب من الصدق، وقد أوجب الله على العلماء أن يقوموا بهذه المهمة كما في قوله تعالى :

ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون (١٠٤).

هذه المهمة هي مهمة الأنبياء، فإن كل نبي مبعوث من الله الى البشر إنما يؤمر ليكون بهذه الصفة، وليكون عمله الذي ذكر في هذه الآية يدعو الى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فقد أوجب الله على علماء امة محمد ﷺ الذين يعملون بالخير أن يدعو الناس الى الخير بعملهم، وأن يأمروا بالمعروف بشرط أن يكونوا عاملين به، وأن ينهوا عن المنكر بشرط أن يكونوا تاركين له. أمر العلماء الذين هم من الفرقة الناجية

المعتصمين بحبل الله بأن يكونوا على يقين من أمرهم بحيث تكون معهم أدلة قوية متينة لا تتمكن بقية الفرق الذين بلغ عددهم اثنان وسبعون فرقة على رد حججهم وإبطال أدلتهم ، هؤلاء العلماء من الفرق الناجية أو كل الله إليهم وظيفه الأنبياء وأمرهم بإرشاد الناس الى حبل الله ليعتصموا به حتى يتخلصوا من كيد الشياطين الذين يسمون أنفسهم بأهل الكتاب ، فإن الله ماسمأهم بهذا الاسم إلا تويخاً لهم وإلزامهم بالحجة التي سوف يعاقبهم عليها ، حيث إنهم لم يعملوا بكتابهم المنزل على رسولهم بل حرفوه وغيروا ، ولم يعترفوا بالكتاب المنزل على الرسول الذي جاء مصداقاً لما مع الرسول السابق ، وقد أخذ العهد والميثاق منهم بأن يصدقوه اذا جاء .

هذه هي وظيفه العلماء التي بينها الله لهم في القرآن بعد أن أوضح لهم الطريق ، فمن عرف الطريق وأرشد إليه فقد نجا وصار من مصداق قول النبي ﷺ : فرقة ناجية ، ومن عرف الطريق وخرج منه وسار في طريق آخر أو عرف الطريق وأرشد الى طريق الغي والضلال فإن النبي ﷺ أخبر أن الفرق الهالكة التي تكون في النار عددها اثنان وسبعون .

وبعد ذلك أشار الى الفرق الناجية التي اعتصمت بحبل الله وسارت في الطريق التي دلهم عليه نبيهم وعملوا بوظيفتهم من الدعاء الى الخير والعمل به ، والأمر بالمعروف والعمل به ، والنهي عن المنكر والترك له ، أشار الله إليهم بقوله : **دواولئك هم المفلحون** .

ثم إن الله عز وجل - بعدما أمرنا بالاعتصام بحبله وأمر نبيه أن يوضح لنا الأمر ولا يتركه مبهماً ونهانا عن التفرق والاختلاف في الدين وعرفنا الرسول ﷺ أن الاختلاف والتفرق مهلك وإنما ينجو منكم من هذه الفرق فرقة واحدة وهي المتمسكة المعتصمة بحبل الله ، وبعد هذه الأدلة كلها - ذكرنا ونبئنا الى ما صارت إليه الامم السالفة بعد نبيها من الاختلاف والافتراق ، وأن هذا التفرق سبب

خروجهم من الدين الذي جاءهم به نبيهم فصاروا كافرين واستحقوا من الله اللعنة،
فإياك أيها المسلم من الخروج عما جاء به نبيك .

قال تعالى : ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما
جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (١٠٥) .

هذه الآية الشريفة تبين لنا أن الامم التي كانت قبلنا - وهم اليهود والنصارى -
قد جاءتهم البينات من ربهم، والبيانات هي الأوامر التي أرسلها الله الى رسولهم
مقترنة بالأدلة والحجج القوية التي تثبت أنها من الله عز وجل ولا يبقى لأحد شك
أو شبهة و هذه البينات التي جاءتهم تبين لهم الطريق التي يجب عليهم السير فيه
وعدم التعدي الى غيره، وتعرفهم بالمرشد والدليل الذي يدهم على كيفية أعمالهم،
وتعرفهم بالذي يكون خليفة بعد نبيهم وأن النبي ﷺ يودع عنده العلوم التي
تحتاج إليها الامة، ولكنهم مع هذه البينات والآيات تفرقوا واختلفوا.

والآية هذه تنهانا أن نكون مثل هذه الامم، وتبين لنا أن من يكون كذلك
فله عذاب عظيم، أي: أنكم يا أمة محمد قد جاءكم البينات من الله، فقد أنزل الله
على نبيه قوله: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»، والنبي عرفكم بما يراد من
الحبل فقد قال لكم: أيها الناس إني تارك فيكم حبلين إن أخذتم بهما لن تضلوا
بعدي: كتاب الله وعترتي^(١) .

وقد ذكرت لك الحديث قبل هذا عن قريب، فالله والرسول قد أوضحا لنا
الأمر جلياً بيناً ، فلا عذر لأحد أن يقول : ما كنت أعلم. فإياكم يا أمة محمد أن
تكونوا مثل الامم السالفة، فلا تفرقوا ولا تختلفوا فيكون مصيركم الى العذاب العظيم.
وأن هذا البيان وهذا الانذار هو لطف زائد من الله، وإلا فإن حقنا على

الله أن يبين لنا ما أوجبه علينا، وقد بين ذلك بقوله: «واعتصموا بحبل الله»، وشرح النبي لنا هذه الجملة فتمت بذلك الحجة علينا.

أما بيان أن الامم السالفة قد خالفوا هذا الأمر وقد كفروا واستحقوا العذاب العظيم وأنتم اذا اختلفتم وتفرقتم مثلهم أيضاً تكونون كفرة و تستحقون العذاب العظيم فهذا لطف زائد من الله تعالى.

ولكن بعد فقد الرسول ﷺ قد تداخل أهل الكتاب في الأمر وكانوا يظنون أنهم قد قطعوا الحبل وأنهم أطفأوا نور الاسلام، والله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فوقع الاختلاف و وقع التفرق.

والآن لا يمكن إصلاح المجتمع بأكمله، ولكن الانسان عليه نفسه، فليتاامل ولا يتبع ما وجد عليه آباءه، فإنه عاقل رشيد بصير إنما ينفع نفسه أو يضرها. ثم بعد هذا اللطف العظيم من الله على عباده - حيث أوضح لهم الامور وشرح لهم حال الامم التي كانت قبلهم - زادهم لطفاً فذكر لهم عقاب هذا الصنف من الناس، وهم الذين آمنوا ثم كفروا بعد إيمانهم، لأنهم تركوا الطريق الذي امروا بسلوكه، أو لأنهم تفرقوا واختلفوا، فقال تعالى :

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم

أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (١٠٦).

أسمعت ما يقول الله تعالى أيها المسلم؟ إنه يقول سيأتي عليك يوم وهو يوم القيامة وهو يوم الجزاء، يوم يرى كل إنسان ما عمله في الدنيا، ففي ذلك اليوم تبيض بعض الوجوه وتسود بعض الوجوه، أي: أن هذا الانسان الذي آمن بالله و صدق نبيه ثم كفر بعد ذلك - بأن صار من الذين تفرقوا واختلفوا وتركوا الذي جاء به النبي من الله من اصول الدين الاسلامي وهم مع ذلك ينتسبون الى

الاسلام - فهذا الشخص يسود وجهه، أي: يحشر يوم القيامة أسود الصحيفة أو عليه
 كآبة الخوف أو تحوطه ظلمة شديدة من جميع أطرافه ، فلا يهتدي الطريق في
 الآخرة كما ترك الطريق في الدنيا .

ثم يوبخ بما ذكر الله فيقال له : يا فلان بن فلان أكفرت بعد إيمانك! وهذا
 تعجب من فعله الذي فعله في الدنيا ، يقال له : إنك آمنت بالله وصدقت بالنبى محمد
 ﷺ فلماذا كفرت بعد ذلك ؟ أكان كفرك طمعاً في الدنيا وحرصاً عليها ؟ تركت
 الدين الحق و الطريقة التي عينها الله لك و أضحها لك النبى و خالفت المسلمين
 وفارقتهم و مع ذلك تدعى أنك مسلم وتفرض نفسك على المسلمين وتزاحمهم في
 حقوقهم فصار كفرك سبباً لوصلك الى العذاب في نار جهنم «فذوقوا العذاب بما
 كنتم تكفرون» ، وينتهى الأمر بإدخالك في جهنم وتنسى جميع تلك اللذات التي
 ذقتها في الدنيا بسبب الكفر ، فلا تذوق هناك إلا العذاب ، تنسى كل شيء حصلت
 عليه في الدنيا ولا تذكر إلا تلك الخطوة التي خطوتها من طريق الحق الى طريق
 الباطل برفع يدك وإطلاقها من حبل الله و اعتصامها بحبل الشيطان ، فكن حازماً
 رشيذاً واعتصم بحبل الله .

ثم قال تعالى : وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم

فيها خالدون (١٠٧).

هؤلاء الذين آمنوا بالله و صدقوا النبى و ثبتوا على إيمانهم و ساروا على
 المنهاج الذي أمرهم به ببيهم واعتصموا بحبل الله ولم يفارقوا قانون الاسلام و لم
 يخالفوا أحكام الشريعة تبيض وجوههم في ذلك اليوم وتبيض صحائفهم ، ويظهر
 السرور والفرح على وجوههم ، ويحاطون بالنور من جميع أطرافهم ، يسعى نورهم
 بين أيديهم وعن أيمنهم .

ألا تحبّ أيها المسلم أن تكون مثل هؤلاء و معهم ، فإن كنت تحبّ ذلك فكن مسلماً حقاً وسر على النهج الذي سنّه لك نبيك ، أتعرف ما هي رحمة الله؟ هي الجنة التي عرضها السماوات والأرض، الجنة التي فيها ما تشتهيهِ الأَنفس و تلذّ الأعين ، الجنة التي من دخلها لا يخرج منها أبداً كما نطقت الآية : «ففي رحمة الله هم فيها خالدون» .

قوله تعالى : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين (١٠٨).

لما بين سبحانه أن الامم السابقة جاءتهم البينات و الدلائل والحجج الواضحة الدالة على وحدة الدين الآمرة لهم باتباعه بأجمعهم ليكونوا فرقة واحدة وأنهم خالفوا البينات فتفرقوا واختلفوا فخرجوا عن الدين و كفروا فاستحقوا العذاب الأليم ذكر في هذه الآية أن تلك الآيات التي مرّ ذكرها عليك يا محمد وأنت بينتها لامتك وفصلتها لهم تفصيلاً ، وأن تلك الآيات كلها حقائق جارية على الحكمة والصواب ، وأن الامم السالفة لما كان بعضهم مطيعاً وبعضهم عاصياً فإن الله يعامل كل أحد بما يستحقه من الثواب والعقاب بلا زيادة في العقاب ولا نقيصة في الثواب ، إذ الزيادة في الأول والنقيصة في الثاني إنما هما من الظلم، والله منزّه عن الظلم ، لأن المحتاج الى الظلم العاجز والفقير ، والله هو الغني القادر . وهو الذي خلق للناس وأنشأهم وابتدعهم وآتاها من النعم ما لا تسعوا إليه همهم وأعد لهم من نعم الآخرة ما هو أعظم منها قدراً وأجلّ خطراً ، وأنتم يا أمّة محمد قد جاءكم البينات كما جاءت لمن كان قبلكم ، و علمتم ما صارت إليه عاقبة من كان قبلكم ، فازددتم بذلك اعتباراً وعظمة ، فلا ينبغي لكم أن تكونوا مثلهم في التفرق والاختلاف ويلزمكم السير على الطريق المستقيم والاستقامة في الدين كاستقامة الجبل المدود

من السماء الى الأرض ليس فيه اعوجاج ولا التواء، فكونوا كذلك في الدنيا لتكونوا كذلك في الآخرة .

ثم ذكر سبحانه وجه غناه عن الظلم فقال عز من قائل :

ولله ما فى السماوات وما فى الارض والى الله ترجع الامور (١٠٩) .

فهو الخالق ، وهو المالك ، وهو العالم بعاقبة كل أحد وكل شيء ، وهو المجازي عباده بما يستحقونه من ثواب وعقاب ، وأنتم يا أمة محمد عليكم أنفسكم ولا يغلبنكم عليها الشيطان فتخسروها ، ومن خسر نفسه فقد خسر كل شيء وليس له شيء ، فعليكم بالأمر الأول الذي ذكر لكم وهو من أهم البينات التي ذكرت للأولين والآخرين « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » واذكروا نعمة الله عليكم .
وروى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عند ذكر قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » قال : حدثني أبي عن صفوان بن يحيى عن أبي الجارود عن عمران بن هيثم عن مالك بن زمرة عن أبي ذر - رحمة الله عليه - قال : لما نزلت هذه الآية : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » قال رسول الله ﷺ : يرد علي أمتي يوم القيامة على خمس دايات ، فراية مع عجل هذه الأمة فأسألهم : ما فعلتم بالثقلين من بعدي ؟ فيقولون : أما الأكبر فحرفناه ونبدناه وراء ظهورنا ، وأما الأصغر فعادينا وأبغضناه وظلمناه ، فأقول : ردوا النار ضمناً مضمين مسودة وجوهكم .

ثم ترد علي راية مع فرعون هذه الأمة فأقول لهم : ما فعلتم بالثقلين من بعدي ؟ فيقولون : أما الأكبر فحرفناه ومزقناه وخالفناه ، وأما الأصغر فعادينا وقاتلناه ، فأقول : ردوا النار ضمناً مضمين مسودة وجوهكم .

ثم ترد علي مع سامري هذه الأمة فأقول لهم : ما فعلتم بالثقلين من بعدي ؟

فيقولون : أما الأكبر فعصينا ونر كناه، وأما الأصغر فخذلناه وضيعناه وصنعناه كل قبيح ، فأقول : ردوا النار ضمناً مضمين مسودة وجوهكم .

ثم ترد عليّ راية ذي الندية مع أول الخوارج وآخرهم فأسألهم : ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون : أما الأكبر ففرقناه وبرئنا منه، وأما الأصغر فقائلناه وقتلناه ، فأقول : ردوا النار ضمناً مضمين مسودة وجوهكم .

ثم ترد عليّ راية مع إمام المتقين وسيد الوصيين وقائد الغر المحجلين ووصي رسول رب العالمين فأقول لهم : ماذا فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون . أما الأكبر فاتبعناه وأطعناه ، وأما الأصغر فأجنبناه وواليناه وآزرناه ونصرناه حتى أهرقت فيهم دماؤنا ، فأقول : ردوا الجنة رواء مرويين مبيضة وجوهكم، ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى : «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ... الخ»^(١).

هذه الرواية تذكر أن النبي ﷺ قال : إن الرايات خمس يوم القيامة، مع أن الفرق التي ذكرت للامة أكثر من خمسة، فالظاهر أن الفرق تجتمع على المفرق الأول لها وإن تفرقت بعد ذلك الى عدة فرق ، فكأنما اذا كانت عشر فرق أو أكثر كلهم يرجعون الى إمام واحد فيجتمع الكل تحت رايته، وقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله : «يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن اوتى كتابه يمينه فاولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون قتيلاً * ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً»^(٢).

ومن الواضح البيّن أن الامام والمأموم حكمهم واحد في إيتاء الكتاب في اليمين أو الشمال، وفي كون كل من الامام والمأموم أعمى في الآخرة اذا كان أعمى في الدنيا عن طريق الحق.

وأما الجواب من أهل الرايات عن السؤال حين سألهم ما فعلتم بالثقلين؟ قالوا:

(١) تفسير القمي : ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) الاسراء : ٧١ و ٧٠ .

أما الأ كبر فحرفناه ومزقناه. إن المراد بالأ كبر هو القرآن الكريم، والمقصود من التحريف والتمزيق هو نبذ أحكامه وعدم العمل بها.

و لا يخفى أن أمة محمد ﷺ من أولها الى آخرها كل واحد منهم يلحق بإمامه الذي اتخذه واقتدى به، فليتخذ إماماً صالحاً للامامة بحيث اذا سأله ربه يوم القيامة عن الحجة التي دعت الى اتخاذ هذا الامام أن يكون عنده جواب معقول، ولا يكفي أن يقول في الجواب: وجدت أبي هكذا فاتبعته، أو: إني أطعت السيد أو الكبير على هذه الطريقة فسلكتها، فإن هذا لا يكفي، نعم يكفي في الجواب أن يقول العبد لربه: إن نبيك أمرني أن أتخذ فلاناً إماماً فاتخذته، فإذا كان صادقاً في قوله و كان النبي ﷺ قد أمره بذلك فهو سبب نجاته.

قوله تعالى : كنتم خیر امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠).

لقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على أقوال عديدة، وأقرب الأقوال الى ظاهر الآية ما ذكره الشيخ الطوسي - رحمه الله - في «البيان» وحاصله: أن ذلك لما كان في الكتب المتقدمة ما يسمع من الخير في هذه الامة من جهة البشارة. قال الحسن : نحن آخرها وأكرمها على الله . وكذلك روي عن النبي ﷺ أنه قال: أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله .

ثم قال الطوسي: ويكون التقدير «كنتم خير امة» من الكتب الماضية فحققوا ذلك بالأفعال الجميلة^(١) انتهى كلام الشيخ الطوسي.

وأن هذا المعنى الذي ذكره لا يدل على المدح المطلق، وأن المدح إنما يكون بانصاف الامة بالصفات المذكورة عن الله، وهي أن الله يريد من أمة محمد ﷺ

أن يتصفوا بالامور التي ذكرت في الآية الشريفة و هي أن يؤمنوا بالله و يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر، فإن كل أمة أو معظم الأمة التي يمكنها التغلب على الباقي اذا اتصفت بهذه الصفات صلحت الأمة كلها وكانت خير أمة على وجه الأرض، ولكن أنت أيها المسلم ترى من أمة محمد ماترى من ترك المعروف وارتكاب المنكر. وقد يقال في حقهم إنهم يرون المعروف منكراً والمنكر معروفاً كما أخبر النبي ﷺ أنه يكون الأمر كذلك في آخر الزمان .

فقد وصف الله في هذه الآية خير أمة ظهرت للناس بثلاث صفات، فلو أن هذه الصفات تجتمع في جماعة من الأمة بحيث تكون لهم قابلية وقدرة على التأثير على بقية الأمة لصلحت جميع الأمة، والخصال هي:

١- الأمر بالمعروف .

٢- النهي عن المنكر.

٣- الإيمان بالله تعالى .

والثالث هو عمدتها وأهمها ، فإن ما قبله مترتب عليه، وذلك أن الإيمان بالله هو إيمان بجميع ما يأمر به الله وما يريد منهم، وكذلك إيمان به في كل ما يكرهه وينهى عنه، فإن الإيمان بالله إيمان بوجوده وبصفاته .

ومن جملة صفاته الإيمان بعلمه، ومنه العلم بمصلحة ما أمر به ونفعه للعباد والعلم بمفسدة ما ينهى عنه وضرره للعباد، فإذا علم العبد و تيقن واعتقد بأن الله عالم بجميع المصالح و المفسد و أنه لا يأمر ولا ينهى إلا لمصلحة أو مفسدة يلزمه امتثال أوامره والانتها عن نواهيه .

فقوله تعالى «وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» أي : تمتثلون جميع أوامره و نواهيه مع اعتقاد بالقلب بأن صلاح الدين والدنيا والآخرة إنما يترتب على هذا الامتثال وهذه الطاعة ، ثم يحثه هذا الإيمان بالله على أن يدعو الناس كلهم الى هذا الإيمان فيرى من واجبه العقلي أن يأمر الناس بالمعروف و ينهاهم عن المنكر لأنه يرى

الخير كله في هذا الايمان ، و يدعو به حب الخير للبشر أن يدعوهم ويجرهم الى ما وصل هو إليه قبل أن يرد فيه أمر شرعي، فإذا جاء الأمر من الله تأكد عليه الواجب .

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه لا يقدر عليه كل أحد وإنما يقدر عليه من يعرف المعروف والمنكر ويمكنه التمييز بينهما ويمكنه الأمر والنهي من غير ضرر يرد عليه ، وإنما يجب على من توفرت فيه الشروط.

سئل الامام الصادق عليه السلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجب على الأمة جميعاً؟ فقال: لا، قيل: ولم؟ قال: إنما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف من المنكر لا على الضعفاء الذين لا يهتدون سبيلاً الى أي من أي - يعني الى الحق من الباطل- ويشير الى ذلك قوله تعالى: «ولتكن منكم أمة»^(١).

فإنه لم يوجهه على كل الأمة وإنما جعله خاصاً، فالوجوب ليس على الجاهل ولا على الضعيف وإنما يتأكد الوجوب على ذوي السلطة من الامراء والحكام من حيث قوتهم وعلى العلماء من حيث علمهم بمواقفه و مواضعه ، فإذا كان الامراء والحكام هم أحوج الناس الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن يكون أقوى منهم حتى يأمرهم وينهاهم؟

نقول: إنما يكون أقوى منهم العالم الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ويكون اعتماده على الله ، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله : «إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر»^(٢).

إذا كان العالم يظن أنه يقبل منه، وكان الأمير أو الحاكم من غير المسلمين فإنه يتبع دينه و علماء ملته أولى به .

أما إذا كان من المسلمين فإن الله والرسول يحتمان عليه أن يكون هو من

(١) بحار الانوار : ج ١٠٠ ص ٩٣ ب ١ ح ٩٢ .

(٢) بحار الانوار : ج ١٠٠ ص ٩٣ ب ١ ح ٩٣ .

الأمريين بالمعروف والناهيين عن المنكر لأنه قوي مطاع.

و إذا كان هو من التاركين للمعروف و الفاعلين للمنكر، ففي صدر الاسلام لا يتمكن أحد من أمره و نهيه حيث كان الأمر كله بيده يفعل ما يشاء، أما في هذا الزمان فإن الوزير يتمكن أن يأمره وينهاه، فإن كان وزيره مثله فالوجوب على بقية الوزراء، فإذا كانوا كلهم كذلك صار التكليف على العلماء المرتبطين بهم فإنهم أولى بهم، فإن زعموا أنهم لا يتمكنون من ذلك فعليهم أن يهجروهم ولا يجالسوهم ولا يضحكوا في وجوههم.

فقد روي في تفسير قوله تعالى: «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»^(١) قال: أما أنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم^(٢).

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن منهم السفهاء لركوب المعاصي والحكماء لترك التناهي^(٣).

وعن شهر بن حوشب أن علياً عليه السلام قال لهم: إنه لم يهلك من كان من الامم إلا بما أتوا من المعاصي ولم ينههم الربانيون و الأحبار، فلمّا تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون و الأحبار عمهم الله بعقوبة، ألا فامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، فإن الأمر ينزل من السماء الى الأرض كقطر المطر الى كل نفس بما قدر الله لها^(٤).

(١) المائدة : ٧٩ .

(٢) بحار الانوار : ج ١٠٠ ص ٨٥ ب ١ ح ٥٦ .

(٣) بحار الانوار : ج ١٠٠ ص ٩٠ ب ١ ح ٧٣ .

(٤) بحار الانوار : ج ١٠٠ ص ٩٠ ب ١ ح ٧٦ .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إن الله تعالى ذكره لم ير من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر^(١). وقد روي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضتان واجبتان من الله عز وجل على الامكان^(٢).

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من رأى منكم منكراً فلينكره بيده إن استطاع ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، فحسبه أن يعلم الله من قلبه أنه لذلك كاره^(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم ، وعلى كل داخل في باطل إيمان : إثم العمل به وإثم الرضا به^(٤).

وعن الصادق عليه السلام : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله تعالى ، فمن نصرهما أعزه الله ومن خذلهما خذله الله^(٥).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر والتقوى ، فإذا لم يفعلوا ذلك تزعجت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض ، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء^(٦).

فتمحصل لنا من هذه الآية أن أمة خاتم الأنبياء إنما تكون خير أمة إذا انصفت بالصفات المذكورة ، ويؤكد هذا المعنى ما ذكره بعض المفسرين من أن قوله تعالى : «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» حال عن الأمة يفيد اشتراط اتصافها بالأوصاف المذكورة.

(١) لم نثر عليه.

(٢) الوسائل : ج ١١ ص ٣٩٨ ب ١ ح ٢٢ نقلاً بالمعنى .

(٣) الوسائل : ج ١١ ص ٤٠٧ ب ٣ ح ١٢ .

(٤) بحار الانوار : ج ١٠٠ ص ٩٦ ب ٢ ح ٧ .

(٥) الكافي : ج ٥ ص ٥٩ ح ١١ .

(٦) التهذيب : ج ٦ ص ١٨١ ح ٢٢ .

وقوله : «وتؤمنون بالله» يعم الأوصاف المتقدمة في الآيات التي قبل هذه الآية من الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق والاختلاف، فلا يمكننا القول بأن قوله: «كنتم خير أمة» يعم جميع الأمة من أولها الى آخرها .

نعم يمكن القول بل يمكن الجزم بأنه يعم الفرق التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: فرقة ناجية والباقي في النار، فإن أهل النار ليس فيهم ولا عندهم شيء من الخير. نعم اذا عدلت الفرق الضالة عما هي عليه الى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فصار الكل فرقة واحدة يقال لها حينئذ أنها خير أمة، نسأله تعالى أن يجعلنا كذلك.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون (١١٨).

لقد تكررت الآيات وتكاثرت من أول القرآن الى هذه الآية في نهي المؤمنين عن موالاته الكافرين، وقد جاءت الآيات مختلفة البيان، ففي كل آية يكون البيان مشيراً الى علة قوية تدل على وجوب مقاطعتهم وعدم السماح بالاتصال بهم .

وأما هذه الآية فقد بين الله لنا أسرارهم وما تخفيه صدورهم مما يريدون بنا، وهذا من غاية لطف الله بالمؤمنين، فإنه تعالى قد تكفل لعباده أن يرزقهم في الدنيا من المعيشة بمقدار كفايتهم، وأن يرشدهم لامور دينهم ما يكفل لهم نجاتهم في الآخرة من العذاب، أما أنه يخبرهم ويطلعهم على أسرار عدوهم ويوضح لهم ما يضره العدو لهم من تدبير شيء ليضرهم به فهذا لم يتعهد به الله لعباده، ولم يتفضل به على غير المؤمنين مع أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان إذ أن فيهم جملة كثير من المنافقين، فما ظنك بربك أيها المؤمن الكامل؟ وما ظنكم بالله في معاملة ذلك المؤمن الذي لا يغفل عن ربه طرفه عين أبداً؟ أما تأملون من

الله أن يطلعه على علم ما كان و ما يكون بأن يبعث لهم ملكاً أو يلهمه إلهاماً أو يملأ قلبه نوراً فيرى به ما كان وما يكون ؟ إن ذلك ليس ببعيد على الله مع عبده المؤمن ، فاستمع أيها المؤمن لما يخاطبك به الله ، فإن كنت مؤمناً فاطع الله فيما يأمرك به ، وإن لم تكن مؤمناً فليس لنا معك كلام .

إنه عز اسمه يخاطب المؤمنين بقوله : «يا أيها الذين آمنوا» إيماناً ظاهراً أو إيماناً باللسان دون القلب إن أردتم أن تكونوا مؤمنين حقيقيين، إن أردتم أن تكونوا مؤمنين كاملي الايمان ، إن أردتم أن تحرزوا بإيمانكم خير الدنيا والآخرة ، إن أردتم أن تكونوا مؤمنين يحبكهم الله والرسول ، فاستمعوا لما يتلى عليكم .

«لا تتخذوا بطانة من دونكم، أي: لا تتخذوا أصدقاء من الكافرين تجعلوهم من أخصائكم لاصفين بكم كما تلصق بطانة ثوبكم بجلدكم، فهم لا يفارقونكم في وقت من الأوقات وأنتم تفشون لهم أسراركم وتطلعونهم على كل شيء يحدث عندكم. أيها المؤمن أما سمعت اليهود قبل هذا يوصي بعضهم بعضاً « لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم» (١) ؟

فكن أنت أيها المؤمن حريصاً على أسرار المسلمين ولا تبديها لليهود وللغيرهم من أعدائكم فيكيدوا لكم كيداً ، فإنهم «لا يألونكم خبالاً» أي: أنهم لا يقصرون فيما يؤدي الى فساد أمركم ، ولا يدعون جهدهم في مضرركم ، ولا يفترون عن إلقاءكم فيما يضركم من المهالك.

ثم أخبر الله المسلمين بأن هؤلاء الذين تتخذونهم بطانة «ودوا ما عنتم» أي: تمنوا وأحبوا عنتكم، وهو وقوعكم في شدة الضرر والمشقة، أو تمنوا إضلالكم عن دينكم. لقد أخبركم الله عن تمنياتهم التي أضروها في قلوبهم، فالؤمن الكامل يصدق بما أخبره الله به ، و يجزم بأن هؤلاء اليهود يودون أن نرتد عن ديننا ،

وأنّ نكون في كل وقت في شدة ضرر ومشقة وعناء وتعب ولا نستريح في وقت من الأوقات .

ثم إنّ الله نبه المسلمين وألفت أنظارهم الى شيء لا ينبه عليه إلا الغافل الخامل الذي لا يلتفت الى ما يأتي به قرينه وجليسه وبطائه ومن يكون كذلك يوصف بالبلادة وعدم الذكاء، فقال تعالى : «قد بدت البغضاء من أفواههم، أي: ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم وفي فحوى أقوالهم وفلتات كلامهم فلماذا لا تشمرون بذلك وأنتم تحسبونهم أولياء تكشفون لهم أسراركم المهمة !!

ثم أخبر الله تعالى المسلمين بشيء آخر خفي لا يطلع عليه إلا علام الغيوب فقال : «وما تخفي صدورهم أكبر» فإنّ الله أخبر المسلمين عن ضمائر اليهود والنصارى بأنّ الذي يخفونه في صدورهم من العداوة والبغضاء لكم أكبر وأكثر مما يبدوونه بألسنتهم .

فانظر الى لطف الله ورأفته بالمسلمين كيف يخبرهم عن سرائر أعدائهم ، ويأمرهم أن يكتموا عنهم أسرارهم ولا يبدوها لهم ، وهم يخالفون أمر ربهم ويوالون أعداءه وأعداءهم ويعلمونهم أسرارهم .

إنّ مثل هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم مسلمين ولكنهم ليسوا بمسلمين بل هم أعداء المسلمين - ومثل هؤلاء البشر كثيرون في هذا الزمان، وفيهم اناص كبار ورؤساء ووزراء يأتمرون بأمر الكافر وينفذون إرادته على المسلمين، لا يمثلون شيئاً من أوامر الله ، ولا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر - بماذا يجيبون الله يوم يوقفهم للحساب ويقول لهم: إني أعطيتكم الرئاسة والامارة والوزارة على جماعة المسلمين فماذا صنعتم؟ هل نصرتم مظلوماً أو أغثتم ملهوفاً أو دفعتم ظالماً أو قمعتم بدعة أو أقمتم سنة؟ فماذا يكون جوابهم؟ فإنّ سيدهم لم يأمرهم بهذه الأشياء وإنما أمرهم بالظلم والجور وفتح محلات لبيع الخمر وفتح مصارف لأخذ الربا وفتح محلات للرقص والغناء واللعب بالميسر وأمثال ذلك ، وهذه الامور

كلها ينتفع بها الكافر وتضر بالمسلمين وتوقعهم في الشدائد والمشقة وأوزار الجميع تكون على هذا الرئيس وجماعته الذين يساعدون على تنفيذ أوامر سيدهم الكافر، فاعرف أيها المسلم معنى قوله تعالى: «ودوا ما عنتم» فقد ذكرت لك معناها قبل أسطر . فإن هذا الرئيس أو الأمير مهّد لهذا الكافر الوصول الى ما تمناه ووده من عنت المسلمين، فيكون المهناً لذلك الكافر والعبد والوزير والعذاب والعقاب والحساب والنار لهذا الذي يسمّي نفسه مسلماً، و لعلّ بل الأقرب أن تكون عاقبته القتل والصلب والسحب في الشوارع والأزقة كما رأينا كثيراً منهم كذلك.

فارع نفسك أيها الرئيس والأمير والوزير فإنّ الله قد لطف بك لأجل هذه الصفة التي انصفت بها ظاهراً وبالا اسم المجرّد عن كل معنى وهي صفة الاسلام، فقد أطلعك الله على ضمائر أعداء الاسلام الكافرين وأمرك باجتناّبهم والتباعد عنهم. ولكن في آخر الآية كلمة لا يعرف معناها إلا المؤمن الحقيقي ولو فسرناها ألف مرة وهي قوله تعالى: «قد بهنا لكم الايات ان كنتم تعقلون».

هذه كلمة مستعملة في عرف الناس وخطاب بعضهم لبعض، فإذا كان لأحدهم ولد أو صاحب أو أخ يدله في كل وقت على ما ينفعه ويصلحه ثم أوقفه أمامه في بعض الأيام وأخذ يرشده الى ما يصلحه وبعد أن انتهى من كلامه قال له: إني قد بينت لك جميع الامور التي تنفعك وحذرتك عن كل ما يضرّك إن كنت تعقل . فمعنى هذه الجملة الشرطية هو : أن المخاطب لا يعقل شيئاً مما ينفعه أو يضره ، فهو كالمجنون والجاهل الذي لا يعقل ما يضره و يهلك نفسه وأهله ، فافهم واغتنم نصائح الله لك.

ثم بعد ما علق فهم هذه الآيات البيّنات على تعقلهم لها، وجعل الشرط لفهمها ثبوت عقول راسخة ، و حيث إنهم لم يفهموها تبين أنهم لا عقول لهم ، فخاطبهم كما يخاطب الصبي الجاهل بقوله:

ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله
واذا لقوكم قالوا آمنة واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ
قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور (١١٩).

اذا كان لشخص ولد غير^(١) وكان يمشي أو يجالس أو يلعب مع صبي خبيث
ابن حرام، وهذا ابن الحرام ينبغي الغوائل^(٢) لذلك الفرّ ويسرق منه نقوده وأسباب
لعبه، وهو لا يقلع عن مجالسته كلما نهاه أبوه، فإن في آخر الأمر لا يرى الأب ما
يقنع به ولده عن مجالسة ذلك الخبيث إلا أن يقول له: يا بني إنك تحب فلاناً وهو
لا يحبك، فالصبي اذا سمع هذه الكلمة من أبيه وهو يعرفه بالصدق والنصيحة يقاطع
ذلك الخبيث ولا يجالسه .

إن الله خاطب هؤلاء الجهلة بما يخاطب به الصبي الفرّ بعدما نبههم كما
ينبه النائم بهذا النداء «ها» أي : تنبهوا واسمعوا ، نبههم كما ينبه الصبي الفرّ .
ثم قال «انتم اولاء» أي : هؤلاء الخاطئون الذين واليتهم الكافر وأطعتم أمره
وصرتم عبيداً له ومهدتم جميع ما تمناه، واعلموا أنكم تحبون هؤلاء الكافرين وهم
لا يحبونكم، فإن كنتم عقلاء فقد كلمكم الله كما يكلم العقلاء، وإن كنتم جهلاء
ولا تفهمون إلا لغة الصبيان فقد خوطبتم بها، فافهموا ذلك.

ثم كرر عليهم الخطاب كما يخاطب العاقل فقال «وتؤمنون بالكتاب كله»
أي: أنكم تؤمنون بكتابكم وكتابهم وبقية الكتب المنزلة من الله، أي: مع كونكم
تؤمنون بكتابهم فهم لا يحبونكم، فلماذا أنتم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم؟
فالصبي اذا أفهمه أبوه بهذا اللسان يقلع عن مصاحبة الخبيث، ولكن هؤلاء
الموالين للكافرين لم ينفع معهم كل ما قيل لهم، فهم أشدّ حباً للكفر من الكافرين

(١) الفرّ : الشاب لا خبرة له (المنجد) .

(٢) الغائلة : الفساد (المنجد) .

وهم يسمّون أنفسهم مسلمين .

ثم إن الله تعالى لم يقطع عطفه و رأفته عن هؤلاء المسلمين الذين صاروا أشدّ جهلاً من الجاهل ، فأخبرهم بصفة أخرى من صفاتهم السرية ، و بفعل من أفعالهم التي يفعلونها اذا خلوا فيما بينهم فقال تعالى : « واذا لقوكم قالوا آمنا ، كذباً منهم وزوراً وتغريراً لكم ليخدعوكم كما يخدع الطفل ، وتأثرتكم بهذه الكلمة الواحدة التي قالها لكم هذا الكافر المخادع مع ما جاءكم من الآيات البينات ، حيث إنكم لم تنتفعوا بها ، مع أن هؤلاء الذين يقولون لكم حين يلقوكم آمنا « واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ » .

هذا الفعل - وهو عضّ الانامل - إنما هو من أفعال الجاهل اذا تأسف على شيء فات منه أو رأى شيئاً يغيظه ولم يتمكن من تغييره جعل يعضّ أنامله ، أما العاقل المتوكل على الله فلا يفعل هذا الفعل وإنما يلجأ الى ربه ويدعوه ليغير الشيء الذي يضره أو يضر المسلمين .

وإن هؤلاء الأعداء من أهل الكتاب هم اليهود فإنهم لما رأوا اتفاق المسلمين وتكاتفهم واجتماع كلمتهم ورأواهم متمسكون برأي رسول الله ﷺ المأخوذ من الله عزّ وجلّ لم يجدوا سبيلاً الى تفريق كلمتهم وإلقاء العداوة بينهم كما كانوا يفعلونه قبل الاسلام عملاً بالقاعدة المعروفة بين الناس « فرق تسد » اذا رأوا ذلك من المسلمين وخلوا فيما بينهم يعضّون أناملهم من الغيظ تأسفاً .

وهنا أيضاً علم الله المسلمين ما يفعلونه مع هؤلاء الكفرة فقال انبياه أو أنه خاطب كل مسلم بقوله تعالى : « قل موتوا بغيظكم » أي : أيها المسلمون إذا رأيتم أعداءكم متألمين و متأسفين من تألفكم واتحاد كلمتكم ومساندة بعضكم لبعض فلا يهكم ما هم فيه ، بل قولوا لهم أو نادوا بصوت واحد « موتوا بغيظكم » أي : اطلبوا من الله ربكم - الذي أنعم عليكم بالالفة و محبة بعضكم لبعض -

أن يميتهم على هذه الحالة من الغيظ أي: اطلبوا من الله أن يبقاكم في الفة واتفاق ومحبة فيبتقون هم في غيظ وأسف الى أن يموتوا .

هذا أمر الله وإرشاده للمسلمين ، فهل امتثل المسلمون بهذا الأمر ؟ وهل عملوا بما أرشدهم إليه ربهم ؟ وهل بقي الأعداء في غيظ و كمد وأسف ؟ كلاً فلا المسلمون بقوا في اتفاقهم والفتهم وعزهم ، ولا الكافرون بقوا في أسفهم و غيظهم ، بل انعكس الأمر بعد رحلة النبي ﷺ الى دار البقاء ، فإن الكافرين قد حصلوا على ما يريدون وتمكّنوا من تفريق المسلمين وإلقاء العداء بينهم حتى صاروا ثلاثاً وسبعين فرقة ، فهل تركوهم حين وصلوا الى هذا العدد ؟ كلاً إنهم في هذا العصر أكثر تصرفاً في شؤون المسلمين وأشدّ إيذاءً لهم ، وهم يطمعون أن يجعلوا عند كل فرد منهم عشرة من المسلمين ليكونوا عبيداً لهم .

فلا يتخلص المسلمون من شرهم وكيدهم و نفاقهم حتى تكون بين جميع المسلمين الفة واخوة ومحبة، وترتفع هذه الحزازات والعداوات، وبعبارة أجلى: حتى يجعلوا أعمالهم و قوانينهم موافقة لأحكام القرآن ، ويمنعوا كل شيء حرمه القرآن من خمر وقمار وربا ورقص وغناء ، ولكن أنى يكون هذا والكافر معهم في كل وقت، وإذا أراد أحدهم أن يفعل شيئاً من هذا يخدعه الكافر بقوله الباطل بأن فعل هذا خلاف التقدم والتمدن، فإذا فعلته سوف تتأخر بلادك وشعبك حتى يصرفه عن فعله.

فنقول للمسلمين : إذا أردتم ان يرجع إليكم مجدكم السابق فتمسكوا بكتابكم وبشريعة نبيكم ولا تخالفوها ، واعملوا بهذه الآيات التي مرت عليكم وبالآيات التي تأتي بعد ذلك .

و بعد أن بيّن الله لكم هذه الأحكام وكشف لكم هذه الأسرار ذكر لكم أمراً عاماً يكون فيه بشارة للمسلمين ونقمة على الكافرين فقال تعالى : **و ان الله**

عليهم بذات الصدور، أي : أن الذي أخبركم بهذه الأسرار وهذه الأمور التي أراد عدوكم أن يكيدكم بها هو الله تعالى لأنه عليم بذات الصدور ، أي : بكل شيء في الصدر من خير أو شر ، فيعلم ما في صدورهم من غيظ وحنق وبغضاء وما هو أخفى منها .

وذات الصدور هي الصور العلمية المتمكنة في الصدور ، وإنما تكون بشارة للمسلمين لأن الله يخبرهم بكل شيء يحدث ويتجدد في صدور الكافرين فيأخذوا حذرهم منه .

فينبغي للمسلم أن يكون أمله الدنيوي والآخرى بالله ولا يأمل غيره ولا يخالف أمر الله ولا يوالي عدو الله ، فإنه إن والى عدو الله صار من أعداء الله ، وإن الله كما يعلم ما في صدور الكافرين كذلك يعلم ما في صدور المسلمين الذين يوالون الكافرين ويكشفون لهم أسرار المسلمين ، فيعوضونهم عن هذه الخيانة بشيء من مال الدنيا الفانية . ويغفل هذا الذي يدعي الاسلام من أن الله مالك الدنيا والآخرة ، وأنه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، فالله عالم بسر برته وضميره فإن المسلمين إذا صلحوا كلهم وكان الخائن واحداً فإنه يفسد عليهم أمرهم فلا يمكنهم الإصلاح حتى يقتلوا هذا المفسد الذي ينقل أخبارهم إلى الكافرين أو يسجنوه حتى لا يصل إلى الكافر .

ثم إن الله تعالى أخبرنا بسر آخر من أسرار أعدائنا التي انطوت عليها صدورهم و لم يظهروها إلى الخارج ، ولكن الله العليم بذات الصدور أخبرنا به لنعرف ولنصدق أنهم أعداء لنا فقال تعالى :

ان تمسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها
وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون

محيط (١٢٠) .

إن هذه الصفة التي ذكرها الله للمسلمين وأخبرهم أنها من صفات عدوهم
لهي من أقوى الأدلة وأكبر الحجج على شدة عداوة أهل الكتاب للمسلمين ، فإن
الإنسان إذا كان يستاء ويحزن ويتألم بما يصيب المسلمين من الأمور الحسنة كزيادة
الرزق والغلبة في الحرب و تأكد اللفة والمحبة بينهم فهذا الذي يستاء لذلك هو
من أشد الأعداء لهم .

ثم إذا أصاب المسلمين ما يسوؤهم من محنة أو اختلاف في الرأي أو تفرق
في الدين أو تسلط عدو عليهم فإن أهل الكتاب المتقدم ذكرهم يفرحون بهذا
ويأنسونه .

وهذه أيضاً أعظم حجة على عداوتهم الشديدة للمسلمين وبغضهم لهم ، فهذا
العدو اللدود لا ينبغي للعاقل أن يقرب إليه ويواليه ويبين له أسرار له فإنه يجتهد
في إفساد أمره وإبطال عمله .

فهل عرفت أيها المسلم أن الله كشف لنا جملة من أسرارهم التي أضمرها
لنا وسترها عنا ونحن لا نعلم بشيء منها ولكن من رافة الله بنا أخبرنا بهالنتكون
على بصيرة من أمرنا .

وإني أرى أن أعداء لك الأمور التي أضمرها لنا الأعداء في صدورهم وأخبرنا
بها الله لتعرف نعمة الله على المسلمين فتكون مسلماً كاملاً ، وذلك بعد أن أمرنا الله
أن لا نتخذ منهم بطانة ، أما الأمور فهي في قوله تعالى :

١ - «لا يألونكم خبالاً»

٢ - «ودوا ما عنتم»

٣ - «وما تخفى صدورهم أكبر»

٤ - «ولا يحبونكم»

٥ - «إذا خلوا عضتوا عليكم الأنامل من الغيظ ،

٦ - «إن تمسكم حسنة نسوهم ،

٧ - «وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، .

هذه الامور السبعة كلها كانت مخفية في صدورهم ليعرف المسلمون عنها شيئاً ، وكانوا يتربصون بكم، فكلما وجدوا مجالاً لتنفيذها كلها أو بعضها نفذوه وأن الله قد أخبركم بها وأطلعكم عليها وأبطل جميع محاولاتهم بهذا الاخبار وأمركم في أول الأمر أن لا تتخذوا منهم بطانة .

وفي كل هذه الامور تكون الحجة قوية على المسلمين ممن خالف أمر الله واتخذ ولياً من الكافرين ، فإن حجة الله عليه مؤكدة فيكون العذاب عليه أشد وأبقى .

ثم بعد ذلك أرشدنا الى الطريق والعمل الذي نسلم به من غوائل العدو ، ولا يضرنا كيده ، ونفس هذا العمل يحرز لنا النجاة في الآخرة والراحة في الدنيا والنصر على هذا العدو، فقال تعالى في آخر الآية « و ان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .

وقد أمرنا الله فيها بالصبر على عداوتهم وعلى التكاليف الشاقة والصبر عن ملاذ المحرمات ، وأمرنا بالتقوى والتحرز عن موالاتهم وعن المعاصي، وأن أكبر المعاصي موالاتهم ، فإن الآيات السابقة والاخبار عما في صدورهم كلها لأجل التحرز عن موالاتهم .

ومع كل هذه التأكيدات فإنه يوجد بعض الناس لهم نفوس خبيثة لا يؤثر فيهم شيء ، ولذا ذكر الله في آخر الآية كلمة فيها نوع من التهديد لمريدي السوء ، وفيها وعد بحسن الجزاء لمريدي الخير فقال تعالى : ان الله بما تعملون محيط ، أي : علمه محيط بأعمالكم وأقوالكم ونياتكم، يعلم ما تعملونه من خير أو شر ، ويعلم مقدار صبركم ومقدار تقواكم ، ويعلم من يوالي الأعداء ومن

يوالي المؤمنين ، لأنه قال في أول الآية حين وجه النداء الى المؤمنين «لا تتخذوا بطانة من دونكم» فبطانة المؤمن يلزم أن يكون مؤمناً ، أي: أن المؤمن لا يجوز له أن يكشف أسرار المؤمنين التي من شأنها معاملة الكافرين ومقابلتهم إلا لمؤمن مثله .

تذكر كيف أوصى اليهود بعضهم بعضاً حين قال الأخبار لأتباعهم «لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم» (١) .

وأنت أيها المؤمن يوصيك الله ويعلم لك إعلاناً ويقول بصورة جهرية «لا تتخذوا بطانة من دونكم» حتى يسمع اليهود والنصارى أن الله قد نهى المسلمين من اتخاذهم بطانة ، ويعرفوا أن من اتخذهم بطانة بعد هذا النهي فإنه خائن للمسلمين فلا يحسبوه على المسلمين ، والمسلمون إذا اطلعوا عليه لا يحسبونه مسلماً ، والله لا يحسبه مسلماً لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة .

ولا يخفى على ذلك الشخص الذي يوالي اليهود والنصارى أن اليهود لا يحسبوه يهودياً لأنهم لا يأتهمونه على أسرارهم التي تواصوا بينهم أن لا يبدونها إلا لمن تبع دينهم ، وكذا لا يحسبه النصارى مسيحياً لأنهم لا يبدون له أسرارهم التي يعاملون بها من يستعمرونه من المسلمين .

أعرفت الآن مصيرك يا من تسمي نفسك مسلماً وأنت تتولى اليهود والنصارى ، فأما أنا وغيري من المسلمين فلا نعرفك مسلماً لأن الله ورسوله والمسلمين لا يدعونك مسلماً ولا يقبلونك أن تكون واحداً منهم لاحقاً ولا ميتاً ، وأما اليهود فلا يعدونك يهودياً ولو صرفت عمرك في خدمتهم ، وأما النصارى فلا يعدونك نصرانياً . فأين تذهب والى أي أمة تنتمي ؟ فإن الله أعلم بمصيرك ، فلا بد أن يلحقك بآمة من الأمم ، فاعرف نفسك ولا تبقى مجهول الجنسية عند جميع الملل والأمم ، وأسأل الله الهداية للجميع .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٣٠) .

الربا باب من الأبواب المحرمة في الدين الاسلامي ، وقد ذكره الفقهاء في الرسائل العملية التي يكتبونها للعوام ليعمل على طبقها ، وذكروا له شروطاً وقواعد . فهو - أي حرمة الربا - مما اتفق عليه جميع فرق المسلمين ، ولكنه بالرغم من هذا الاتفاق فإن جميع الحكومات الاسلامية تتعاطاه وتتعامل به مع شعبها أو مع حكومة اخرى .

إن الله قد خص المؤمنين بالنداء ووجه لهم نهياً صريحاً « لا تأكلوا الربا » ، فلو أخذ المسلم وصار في قبضته وتحت تصرفه فلا يجوز له أن يأكل منه شيئاً ، بل يجب عليه أن يرده الى صاحبه الذي أخذه منه ، وكل من يعد نفسه من المؤمنين ويشمله النداء فلا يجوز له التعامل به .

والربا هو أخذ الزيادة على ما يدفعه الانسان لآخر سواء تكررت أم لا ، ولا فرق فيما يأخذه سواء أكله أم لم يأكله ، وقد فصلت أحكامه في كتب الفقه ، والمقصود هنا تفسير الآية الشريفة ، فإن الله قد نهى المؤمنين عنه وجعل اجتنابه والبعد عنه وعدم التناول منه علة موجبة للفلاح ، ثم قال :

واتقوا النار التي أعدت للكافرين (١٣١) .

فانه يظهر من الآية الشريفة أن تناول من الربا يسبب دخول النار، وأن تركه وعدم أخذه منه اتقاء النار التي أعدت للكافرين، ثم قال:

وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون (١٣٢) .

إن إطاعة الله والرسول واجبة على كل من صدق بالنبى وصار من المسلمين

ومعنى ذلك أن يفعل الواجب ويترك المحرم، فيكون الأمر بالاطاعة هنا بعد النهي عن أكل الربا تأكيداً لبيان حرمة، وأن العصيان هنا في أمر الربا لازمه عدم إطاعة الله والرسول، ومن لم يطع الله والرسول فالرحمة بعيدة عنه، أما المطيع لله ولرسوله في ترك الربا فالرحمة قريبة منه.

وقد وردت أخبار كثيرة في ذم آكل الربا .

منها: عن النبي ﷺ فيما أوصى به علياً عليه السلام أنه قال: يا علي درهم ربا أعظم من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام^(١).
ومنها: عنه عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه^(٢).

ومنها: حول قوله تعالى «يمحق الله الربا ويربي الصدقات»، قيل للصادق عليه السلام: قد نرى الرجل يربي وماله يكثر، فقال عليه السلام: يمحى الله دينه وإن كان ماله يكثر^(٣).
ومنها: عن النبي ﷺ أنه قال: من أكل الربا ملاً الله بطنه نار جهنم بقدر ما أكل، فإن كسب منه مالاً لم يقبل الله شيئاً من عمله، ولم يزل في لعنة الله وملائكته مادام معه قيراط^(٤).

ومنها: عن الصادق عليه السلام أنه قال: إنما حرم الله عز وجل الربا لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف^(٥).

إلى غير ذلك من الأخبار والروايات وهي كثيرة .

قوله تعالى: وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها

(١) بحار الانوار : ج ١٠٣ ص ١١٩ ب ٥ ح ٢٢ .

(٢) بحار الانوار : ج ١٠٣ ص ١١٦ ب ٥ ح ٨ .

(٣) بحار الانوار : ج ١٠٣ ص ١١٧ ب ٥ ح ١٢ .

(٤) بحار الانوار : ج ١٠٣ ص ١٢٠ ب ٥ ح ٢٧ .

(٥) الكافي : ج ٧ ص ١٧ ب ١ ح ٧٢ .

السموات والأرض أعدت للمتقين (١٣٣).

لما نهى الله المؤمنين عن أكل الربا وبين لهم أن تعاطيه يوجب النار حنهم ودرغهم في هذه الآية على ما يوجب المغفرة ودخول الجنة، وأن أحسن شيء يوجب المغفرة ودخول الجنة، هو اجتناب المعاصي المعبتر عنها في القرآن الكريم وفي الأخبار بالتقوى، فقال تعالى بعد بيان أن الجنة عرضها السموات والأرض: «أعدت للمتقين» أي: أن الجنة هيئت للمتقين. ثم ذكر الله بعض أوصاف المتقين فقال:

الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين (١٣٤).

أول وصف وصف الله به المتقين هو إنفاق المال في السراء والضراء، لأن المال هو أغز شيء عند الإنسان بعد النفس، ولكن الإنسان المسلم إذا طلب غفران الله والجنة هان عليه بذل المال في حال العسر واليسر كما عن بعض، أو في حال السرور أو في حال الاغتمام.

والمقصود أنهم ينفقون الأموال في كل الأحوال بما يقدرون عليه، لأن أحوالهم لا تخلو عن أحد هذين الأمرين: إما مسرة وإما مضرة، وقد تقدمت آيات كثيرة في الحث على البذل والإنفاق، فهو محبوب لله ورسوله.

ثم الوصف الثاني للمتقين قوله تعالى: «والكاظمين الغيظ» و معنى كظم الغيظ هو أن يمتلىء الإنسان غيظاً وغضباً على أحد ويتمكن على إمضائه والانتقام منه، ولكنه لا يمضيه ويشد عليه ويمنعه من النفوذ، وهذه الصفة ممدوحة في الشخص سواء كان مؤمناً أم غير مؤمن، لكنها قليلة جداً في غير المؤمنين، فإن المؤمن إنما

يتصف بها بعد إرشاد الله له ، فهو يضبط على نفسه ضغطاً شديداً حتى يمنعها عن إماءة غيظها لأجل التقرب الى الله ورغبة فيما وعد الله على ذلك من الثواب .

فقد روي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً ^(١) .

وعنه عليه السلام أنه قال : ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة ، وقد قال الله عز وجل : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » ، وأتابه الله مكان غيظه ^(٢) .

وروي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : قال لي أبي : يا بني ما من شيء أقر لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر ، وما يسرني أن لي بذل نفسي حمر النعم ^(٣) .

والصفة الثالثة التي وصف بها المتقين قوله تعالى : « والعافين عن الناس » والعفو هو ترك عقوبة المذنب ، أي : ترك عقوبة من جنى عليك ابتداءً ، فيصير لك الحق في مؤاخذته بأن تقتصر منه فتعفو عنه فتكون من العافين عن الناس . وقد أمر الله عباده بالعفو في آيات عديدة ومدحهم على ذلك .

وورد الحث عليه في الأخبار . وصدر العفو من النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ممن جنى عليهم ، فمن أعظم موارده عفو النبي صلى الله عليه وآله عن أهل مكة بجملة ^(٤) ، وقد صدر منهم من الأذى عليه وعلى المسلمين ما لا يحصى .

وروي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال : الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة ^(٥) .

(١) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٤١١ ب ٩٣ ح ٢٥ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٤٠٩ ب ٩٣ ح ٢٤ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٤١٢ ب ٩٣ ح ٣٨ .

(٤) بحار الانوار : ج ٢١ ص ١٣٢ ب ٢٦ .

(٥) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٤٠١ ب ٩٣ ح ٦٤ .

وعن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: العفو عند القدرة من سنن المرسلين والمتقين ^(١).
وقال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه
شكراً للقدرة عليه ^(٢).

وحكي عن الشهيد الثاني - قدس سره - أنه قال: ورد في خبر: إذا جئت
الامم بين يدي الله يوم القيامة نودوا ليقيم من كان أجره على الله تعالى فلا يقوم إلا
من عفا في الدنيا عن مظلمة ^(٣).

وروي عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام أنه جمع ولده يوماً فقال لهم: يا بني
إني موصيكم بوصية فمن حفظها لم يضع معها، إن أناكم آتٍ فأسمعكم في
الاذن اليمنى مكروهاً ثم تحول الى الاذن اليسرى فاعتذر وقال: لم أقل شيئاً
فاقبلوا عذره ^(٤).

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: عليكم بالعفو فإن العفو لا يزيد العبد إلا
عزاً فتعافوا بعزكم الله ^(٥).

ثم إن هذه الصفات الثلاث التي ذكرها الله وهي: الانفاق في السراء والضراء،
والكظم للغيظ، والعفو عن الناس، جعلها من نعوت المتقين اللازمة لهم، فلا يصدق
على أحد أنه من المتقين حتى يتصف بها.

ثم ذكر صفة أخرى وذكر أنه يحب من اتصف بها مطلقاً ومن أي صنف
كان، وهي صفة الاحسان الى الغير فقال تعالى: «والله يحب المحسنين». فإذا
كانت اللام للعهد تكون الاشارة الى هؤلاء المتصفين بصفات المتقين، وإذا كانت اللام
للجنس شملتهم مع غيرهم.

(١) بحار الانوار: ج ٧١ ص ٤٢٣ ب ٩٣ ح ٦٢.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ١١ ص ٤٧٠.

(٣) سفينة البحار: ج ٢ ص ٢٠٨ مادة «عفا».

(٤) سفينة البحار: ج ٢ ص ٦٦٤ - اداة «وصى».

(٥) بحار الانوار: ج ٧١ ص ٤٠١ ب ٩٣ ح ٥.

وباب الاحسان باب واسع ، وقد ورد الأمر به لجميع الناس ، ويكفي في حسنه وفضله هذه الجملة المذكورة هنا «والله يحب المحسنين» فإن الله اذا أحب عبداً أعطاه كل شيء ، وإذا حصل العبد على العتق من النار ودخول الجنة فقد فاز فوزاً عظيماً .

ولنذكر لك من الأخبار ما يرغبك في الاحسان .

روى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: صنایع المعروف تقي مصارع السوء، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة ، وأول أهل الجنة دخولا الى الجنة أهل المعروف ، وأن أول أهل النار دخولا الى النار أهل المنكر ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن للجنة باباً يقال لها باب المعروف لا يدخله إلا أهل المعروف ^(٢) .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إني لأعجب من أقوام يشترون المماليك بأموالهم ولا يشترون الأحرار بمعروفهم ^(٣) .

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، لأنهم في الآخرة ترجح لهم الحسنات فيجودون بها على أهل المعاصي ^(٤) . وهذا الخبر يتضمن ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، قيل : يا رسول الله و كيف ذلك ؟ قال : يغفر لهم بالتطول منه عليهم ويدفعون حسناتهم الى الناس فيدخلون بها الجنة فيكونون أهل المعروف في الدنيا والآخرة ^(٥) .

وروي عن النبي ﷺ: من أدخل على مؤمن فرحاً فقد أدخل على فرحاً ،

(١) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٤٠٧ ب ٣٠ ح ١ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٤٠٨ ب ٣٠ ح ٣ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٤٠٧ ب ٣٠ ذيل ح ٢ .

(٤) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٤١٠ ب ٣٠ ح ١٥ .

(٥) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٤١٢ ب ٣٠ ح ٢٥ .

ومن أدخل عليّ فرحاً فقد اتخذ عند الله عهداً، ومن اتخذ عند الله عهداً جاء من الآمنين يوم القيامة^(١).

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: تصغيره، وستره، وتعجيله، فإنك إذا صغرتَه عظمتَه عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تممتَه، وإذا عجّلته هتيتَه، وإن كان غير ذلك محقته ونكرته^(٢).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: من سرّ مؤمناً فقد سرّني، ومن سرّني فقد سرّ رسول الله، ومن سرّ رسول الله فقد سرّ الله، ومن سرّ الله أدخله جنته^(٣).

وروي أن جارية لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب الماء على يديه ليتهاياً للصلاة، فسقط الابريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله يقول «والكاظمين الغيظ» فقال عليه السلام: كظمت غيظي، فقالت: «والعافين عن الناس» قال: عفا الله عنك، قالت: «والله يحبّ المحسنين»، قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله^(٤).

فعلى هذا يكون الاحسان صفة رابعة للمتقين.

ثم بعدها ذكر الصفة الخامسة لهم وهي قوله تعالى:

و الذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم و من يغفر الذنوب الا الله و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون (١٣٥).

لقد فسروا الفاحشة بالقبح العظيم ومثلوا له بالزنا، والظاهر أن المراد منه الذنب العظيم فيعمّ جميع الكبائر.

أما ظلم النفس فقد فسره بعضهم بما هو أعظم من الفاحشة، وفسره بعضهم

(١) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٤١٣ ب ٣٠ ذيل ح ٢٧ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٤٠٨ ب ٣٠ ح ٨ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٤١٣ ب ٣٠ ذيل ح ٢٧ .

(٤) مناقب ابن شهر آشوب : ج ٤ ص ١٥٧ .

بما هو أهون منها مثل له بالصغائر .

و على كل فإن كل معصية كبيرة كانت أو صغيرة فيها ظلم للنفس و بعضها يكون فيها تعد على الغير و ظلم لهم و بعضها لم يكن فيها سوى ظلم النفس .

وعلى كل فإن الله يصف هؤلاء القوم - أي المتقين - بأنهم إذا فعلوا معصية ذكروا الله إماماً بتذكّر نهيهِ عن هذا الفعل ، أو بتذكّر عقابه ، أو أنهم في كل وقت يذكرون الله ولا ينسونهُ كما مر في تفسير قوله «فأذكروني أذكركم»^(١) فإذا ذكر الله لا يمكنه أن يبقى على حالته التي ارتكب فيها السيئة، أي: لا يبقى ملتزماً بها كحالتها حين التلبس ، بل يندم و يأسف و يحس بالحمى يحز به من تلك المعصية، فإذا ندم على فعله و ذكر الله يستغفر الله و يطلب منه العفو و المغفرة، إذ أنه لا يجد ملجأً ولا يعرف أحداً يغفر له تلك الفاحشة و يمحو عنه تلك المعصية إلا الله، و قد أبد الله هذه العقيدة، أي: أنه لا يغفر الذنوب أحد إلا الله .

ثم وصفهم بأنهم إذا ندموا و استغفروا الله لا تتكرر منهم تلك المعصية أو مطلق المعصية فقال تعالى : «ولم يصروا على ما فعلوا» أي: أن المعصية التي فعلوها ثم ندموا عليها و استغفروا الله منها لا تتكرر منهم مرة ثانية ، لأن ندمهم ناشئ عن ذكر الله و عن تدبر و معرفة بالله و بعقوبته التي أعدّها للمذنبين، فهو يريد أن يتدارك هذا الظلم الذي أتى على نفسه و يرفعه عنها إذ لا طاقة له به .

ومن كان كذلك لا يكون سبباً لجلب ظلم آخر على نفسه ، إذ ليس لنفس واحدة و بدن ضعيف تحمل ظلمين من نوع أو نوعين يسببان عقابين، فكيف إذا تكرّر الظلم مراراً فوصل إلى العشرات أو المئات! ولذا قال تعالى في وصفهم : «ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون» أي : لم يأتوا بهذه المعصية مرة أخرى وهم يعلمون أنها معصية إلا أن تصدر منهم جهلاً و خطأ لا عن عمد و علم .

روي عن الباقر عليه السلام أنه قال: الاصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث

نفسه بتوبة ، فذلك الاصرار ^(١).

وقد وردت الأخبار الكثيرة في الحث على الاستغفار وفوائده الكثيرة .
فمن النبي ﷺ أنه قال: "عَوِّدُوا أَلْسِنَتَكُمْ الِاسْتِغْفَارَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْلَمْكُمْ
الِاسْتِغْفَارَ إِلَّا وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ" ^(٢).

وعن محمد بن الريان قال: كتبت الى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله أن يعلمني
دعاء للشدائد والنوازل والمهمات وأن يخصني كما خص "آبَاؤَهُ مَوَالِيَهُمْ" ، فكتب
إلي: "الزم الاستغفار" ^(٣).

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: من استغفر بعد ذنبه بقوله: "أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ
وَأَتُوبُ إِلَيْهِ" ، لم يكتب عليه شيء ^(٤).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إذا صليت العصر فاستغفر الله سبعاً وسبعين مرة
تخط "عَنْكَ" عمل سبع وسبعين سنة ^(٥).

وروي عنه ﷺ أنه قال: من ظلم أحداً فقاته فليستغفر الله له فإنه كفارة ^(٦).
فعلى هذا يكون الاستغفار كفارة لظلم نفسه وظلم غيره ، فالعاقل -المعتقد
بأن "الحسنات والسيئات كلها تكتب عليه وسوف يحاسب عليها ثم يكون الثواب
والعقاب عليها، وعلم أن "السيئة يمكن أن لا تسجل عليه أو يمكن محوها من
الصحيفة بعد تسجيلها- لا ينبغي له أن يتسامح في هذا الأمر ويبقيها في صحيفة مسجلة
عليه وهو يجد لمحوها طريقاً. هذا هو الحكم العقلي الذي يسير العقلاء، فلا تغفل منه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) سفينة البحار: ج ٢ ص ٢٨ مادة «صرر».

(٢) (٣٩٢) بحار الانوار: ج ٩٣ ص ٢٨٣ ب ١٥ ح ٣٠ نقلا عن دهوات الراوندي.

(٥٥٤) سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٢٢ مادة «غفر» .

(٦) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٢٨٢ ب ١٥ ح ٢٣ نقلا عن جامع الاخبار.

يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين (١٤٩).

إن الآيات الناهية للمؤمنين عن إطاعة الكافرين متكررة و كثيرة في القرآن بتعابير مختلفة كما مرت عليك، فتارة تقول «لا تتخذهم أولياء»، وتارة تقول «لا تتخذوهم بطانة».

أما التعبير في هذه الآية فإنه ينبه السامع بأن المتصف بهذا الوصف إنسان مختل العقل أو منافق لا يعقل شيئاً من الأمور الواضحة ، فإن المؤمن إنما يقال في مقابل الكافر، فهما لفظان متضادان، فالؤمن هو الذي آمن بالله وصدق الرسول وصلى إلى الكعبة وصام شهر رمضان وجاهد الكافر، والكافر هو من لم يفعل شيئاً من هذه الأمور.

فإذا قيل : إن فلاناً مؤمن مطيع للكافر يتعجب السامع من هذا الكلام ويلتفت إلى المتكلم مستفهماً منه كيف يكون فلان مؤمناً وهو يطيع الكافر والمبادئ مختلفة، فالؤمن موحد والكافر غير موحد ، وهذا مصدق بالرسول وذاك غير مصدق، وهذا يصلى إلى الكعبة وذاك لا يصلى ، وهذا يصوم شهر رمضان وذاك لا يصوم ، والمسلم يحارب الكافر فكيف يحاربه وكيف يطيعه! ومن أطاع شخصاً لا يحاربه فهو إذاً ليس بمؤمن ، ومن حارب شخصاً لا يطيعه ، فالؤمن المحارب لا يطيع الكافر .

فاتضح لك أن المؤمن لا يمكن أن يطيع الكافر ، فيكون قوله تعالى : **«يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا»** تنبيهاً للبشر وتنبيهاً للمؤمنين بأن هذا الشخص - المدعى للإيمان وهو يطيع الكافر - ليس بمؤمن وإنما هو منافق فعلاً ، و سوف يرد على عقبه فينقلب خاسراً حتى من اسم المؤمن ، فإنه دخل مع المؤمنين وانتسب إليهم ليحصل على هذا الاسم ، ولكنه لا يسمى مؤمناً بعدما عرف أنه يطيع الكافر .

وقد ذكر المفسرون أن الآية نزلت في المنافقين إذ قالوا للمؤمنين يوم أحد يوم الهزيمة: ارجعوا الى إخوانكم وارجعوا الى دينهم. وقيل: في اليهود والنصارى. وسواء كان القائل المنافقون أو اليهود فإن الله جعلهم من الكافرين، كما عبر عنهم كذلك وهم قد تهيأوا وتحفزوا لاضلال المسلمين بحيث بذلوا جهدهم كله لذلك، ولذا تجد الآيات الكثيرة تحذر المسلمين وتنبههم وتخبرهم عن ضمائر اليهود المنطوية على الغل والحسد والمكر والخديعة.

ومع ذلك كله نرى جماعات من المسلمين موالين لهم ويطيعون أوامرهم وينفذونها في البلاد الاسلامية، ونحن إنما نسميهم مسلمين لأجل أن يعرفهم الناس بهذا الاسم، وإلا فهم لا يستحقون التسمية بهذا الاسم وحسابهم على الله.

قوله تعالى: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله و ان تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم» (١٧٩).

قيل في سبب نزول هذه الآية: إن المشركين قالوا لأبي طالب: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر، فإن وجدنا مخبره كما أخبر آمناً به، فذكر ذلك للنبي ﷺ^(١).

وقيل: سئل المؤمنون أن يعطوا علامة ليفرقوا بها بين المؤمن والمنافق، فنزلت الآية^(٢).

و اذا كان المؤمنون هم طلبوا ذلك فإنه ينبىء عن كثرة المنافقين في ذلك

الزمان، وإن المؤمنين تأذوا منهم، حيث إنهم يرون منها بعض الأفعال المنافية بالدين. أما في هذا الزمان فلقلّة المؤمنين والمحافظين على إيمانهم نرى أكثر الناس لا يهتمون بكل شيء، فيجالسون مرتكب الكبائر كشارب الخمر واللاعب بالميسر وآكل الربا وتارك الصلاة والزكاة والحج والصوم فلا يقاطعونه ولا يهجرونه. بل يجالسون الموالي للكفرة والذي هو عين لهم المسحّي «الجاسوس» نعوذ بالله منه. وعلى كل حال فإن الله وإن لم يجبهم إلى ما سألوا، أي: لم يجبهم إلى تشخيص المؤمن من المنافق بتعيين اسمه واسم أبيه وعشيرته بحيث يخبرهم أن فلان ابن فلان الأسرائيلي هو منافق وأن فلان ابن فلان الأوسي أو الخزرجي هو مؤمن حقاً، فإنه وإن لم يجبهم إلى هذا الطلب ولكنه قال: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب» أي: أن الله لا يطلعكم على غيبه فتعرفون ضمائر القلوب وتطلعون على قلب المؤمن أنه مؤمن وعلى قلب المنافق أنه منافق، ولكن الله يميزهم بالاختيار بما يكلفهم به من الأعمال الشاقة كالجهاد وأمثاله وكالأمر بأداء الحقوق من زكاة وغيرها. وقد ذكر المفسرون أنه لما نزل قوله تعالى «إن الدين عند الله الإسلام»^(١) قال اليهود: نحن مسلمون، فلما نزلت آية وجوب الحج رفضوا الإسلام^(٢). وهؤلاء المسلمون الذين نراهم في هذا العصر أغلبهم لا يفعل الواجبات ولا يجتنب المحرمات، وهذا يكفي في تمييز المسلم من غيره.

وهناك شيء آخر يميز بين المسلم وبين غيره وهو حوادث الأيام التي حدثت في هذه العصور، ويمكن أن نعتبر هذه الحوادث من المميزات من قوله تعالى: «ولنبلونكم بشيء من الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين»^(٣).

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) راجع تفسير الرازي: ج ٨ ص ١٥٤ عن الضحاك وص ١٥٨ عن ابن عباس.

(٣) البقرة: ١٥٥.

وقد تقدم تفسير الآية في سورة البقرة، ولكن ما أذكر أن أحداً فسر الصبر بالثبوت على الدين والتمسك به، فإننا قد رأينا كثيراً من الناس قد خرجوا من دينهم عند حدوث البدع من هذه الأحزاب الالحادية، فإنهم تركوا قوانين الدين وعند وصولي الى هذه الآية رأيت من الأقوى أن يكون المراد بقوله : « وبشتر الصابرين » هو الصبر على الدين والثبوت عليه وعدم الخروج منه ، فإن الله وإن لم يجب طلب من أراد تشخيص المؤمن عن غيره ولكنه جعل له أحكاماً كلفه بها وأوجبها عليه وأخرى حرمها عليه ، ففعل بعض الناس بعكس ما أمر الله ونهى ، ففعلوا المحرم وتركوا الواجب، وهذا يكفي لتمييز المؤمن من المنافق .

و كذا يكفي التمييز بحوادث الأيام فإننا رأينا اناساً كانوا يحضرون جماعة المسلمين فتركوها، وجماعة كانوا يحضرون مجالسهم فتركوها بل صاروا يسخرون من المؤمنين ويعيبونهم .

ثم إن الله بين لنا أنه يطلع من يجتبي من رسله على بعض الامور الغيبية، وإن أفضل رسله هو نبينا محمد ﷺ فلا بد أن يكون الله أطلعهم على كثير من الامور، وإن النبي ﷺ قد أخبر بأشياء غيبية كثيرة ، ثم بعد ذلك عيّن لنا ما يلزمنا فعله فقال « فآمنوا بالله ورسله » فإن الذين طلبوا من الله بواسطة النبي ﷺ أن يعرفهم بالمؤمن والكافر والمنافق وأن يجعل بينهم فارقاً بيناً بحيث يعرفهم كل أحد إما أن يكونوا من المشركين أو من المنافقين أو من المؤمنين .

ثم بعدما بين الله لهم أنه لا يطلعهم على الغيب وأنه لا يترك الناس على ما هم عليه بحيث لا يعرف المؤمن من الكافر والمنافق خاطب الجميع وأمرهم بأن الذي يراد منهم أن يؤمنوا بالله ورسله .

أما التمييز بين الطيب والخبيث فهو يرجع الى الله وهو عالم بهم ، وقد يحتاج النبي ﷺ الى التمييز فإن الله يطلعهم عليه على مقتضى ما تلزمه المصلحة والحكمة .

و أنتم أيها الناس من كان منكم مؤمناً أو منافقاً أو مشركاً فعليكم أن تؤمنوا بالله إيماناً حقيقياً ليس فيه شيء يفسده أو يبطله ، وأن يكون إيمانكم خالصاً ، و تعتقدوا بأن الله وحده هو المطلع على الغيب ، وأنه قد اجتبى الأنبياء واختارهم من بين العباد ، وأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يقولون إلا ما أمرهم به الله ، فعليكم أن تصدقوهم في كل ما أخبروكم به . فهذا الإيمان بالله ورسله هو الذي ينجيكم من عذاب الله ويخلصكم من شر الكافرين والمنافقين .

ثم أرشدنا إلى أكثر من ذلك فقال : «وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم» أي: من أراد ثواب الله في الآخرة ورغب في الدرجات الرفيعة وكذا من أراد الراحة في الدنيا فليتق الله وليجتنب معاصيه كلها ، وأهم المعاصي وأعظم الذنوب الشرك بالله ، ومنها النفاق الذي يبعد صاحبه عن رحمة الله إلا أن يتوب ، فالؤمن الصادق في إيمانه الذي يوافق ظاهره باطنه هو الذي لا يترك شيئاً من الواجبات ولا يفعل شيئاً من المحرمات ، ولا يفعل شيئاً يظن به أو يحتمل أنه لا يرضي الله . وهذا هو المتقي ، وهو الذي وعده الله بالأجر العظيم ، والشيء الذي يصفه الله بالعظمة لا يتمكن الإنسان أن يتصوره أو يصل إليه وهمه . وهو الذي ينبغي للعاقل أن يرغب فيه ويسعى للحصول عليه .

ولا يخفى على المؤمن أن الله عز وجل قد حقر الدنيا وذمها ، وهي و ما فيها لا تساوي عنده جناح بعوضة ، ولم يعبر الله عنها في كتاب مما أقرله أنها عظيمة . فهذا الأجر الذي عبر عنه أنه عظيم لا بد وأن يكون أحسن من الدنيا بجمعها ، والله يعطيه لعبده إذا اتقى معاصيه وعمل بأوامره .

ومن جملة ما أمر الله به المؤمن إخراج حقوقه التي فرضها عليه من ماله بمقدار معين ، فإذا بخل بهذا المال الحقير الذي هو جزء يسير من مال الدنيا بخل بهذا المال اليسير وزهد في ذلك الأجر العظيم .

فإن الله بعدما عرفه من فوات ذلك الأجر ذكر له أن يبخل بهذا اليسير لا ينفعه شيئاً ، فإن هذا المال سيفارقهم أو يفارقوه حتماً ، وأن هذا البخل سيجر

عليهم وبالأ عظيمًا إضافة الى فراقه لهم وفراقهم له ، وهذا الوبال هو ما ذكره في قوله تعالى :

ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير (١٨٠) .

فهذا الذي يجب عليه شيء من الخمس أو من الزكاة أو من سائر الحقوق فيبخل به ويمتنع من دفعه يظن "أن" هذا الامتناع فيه خير له ، وأنه اذا أبقاه عنده ولم يدفعه يزيد ماله ، ولكن الله أخبره "أن" هذا الامتناع هو شر له لاخير فيه ، وذلك لأن "الأمر بإعطاء هذا المال أولاً هو من جملة مميزات الطيب من الخبيث فدفعه وبذله يلحقه بالطيبين ، ومنعه والبخل به يلحقه بالخبيثين . وثانياً أن المنع والبخل وعدم البذل فيه شر" لصاحبه في الدنيا والآخرة .

أما في الآخرة ، فهو ما ذكره الله بقوله : «سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة» ذكر بعض المفسرين أن "المعنى سيلزمهم وباله إلزام الطوق الذي لا ينفك" (١) . ورودي عن الباقر والصادق عليهما السلام قالا : ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب ، وهو قول الله «سيطوقون ما بخلوا به» (٢) .

وعن الصادق عليه السلام قال : ما من ذي زكاة مال نخل أو زرع أو كرم يمنع زكاة ماله إلا قلده الله تربة أرضه يطوق بها من سبع أرضين الى يوم القيامة (٣) .

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٥٤٦ .

(٢) بحار الانوار : ج ٩٦ ص ٢٠ ب ١ ح ٤٦ .

(٣) بحار الانوار : ج ٩٦ ص ١٧ ب ١ ذيل ح ٣٧ .

وروي عن الباقر عليه السلام قال : الذي يمنع الزكاة يحول الله تعالى ماله يوم القيامة شجاعاً من نار له زبيبتان فتطوقه ثم يقال له : الزمه كما لزمك في الدنيا . وهو قول الله تعالى «سيطوقون ما بخلوا به» ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام قال : من منع قيراطاً من الزكاة فليس هو بمؤمن ولا مسلم ولا كرامة ^(٢) . وبهذه الرواية نعرف أن وجوب الزكاة هو أحد المميزات بين الطيب والخبيث ، أي : بين المؤمن والمنافق ، فاعرف نفسك يا مدعي الإيمان .

وروي عن الصادق عليه السلام قال : إن الله بقاعاً تسمى المنتقمة ، فإذا أعطى الله تعالى عبداً مالاً ولم يخرج حق الله عز وجل سلط الله عليه بقعة من تلك البقاع فأتلف ذلك المال فيها ثم مات وتركها ^(٣) .

وفي كتاب علي عليه السلام : إذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كلها ^(٤) .

وفي رواية : إذا منعت الزكاة ساءت حال الفقير والغني ^(٥) .

ومانع الزكاة أحد من كفر من هذه الأمة كما في الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله : كفر بالله العظيم عشر من هذه الأمة ^(٦) .

وورد عنه صلى الله عليه وآله : إن البخيل حق البخيل هو مانع الزكاة ^(٧) .

و عن الصادق عليه السلام أنه قال : ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بمنع الزكاة ^(٨) .

وورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : إن مانع الزكاة ملعون ولا تقبل منه الصلاة ^(٩) .

(١) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ٨ ب ١ ح ٣ والشجاع: نوع من الحيات.

(٢) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١١ ب ١ ح ١٢ .

(٣) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١١ ب ١ ح ١٤ .

(٤) (٥) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١٥ ب ١ ح ٣٢ .

(٦) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١٣ ب ١ ح ٢٠ .

(٧) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١٦ ب ١ ح ٣٤ .

(٨) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ٢١ ب ١ ح ٤٨ .

(٩) سفينة البحار: ج ١ ص ١٥ ومادة «زكاة» .

وأخرج النبي ﷺ من المسجد خمسة نفر لأنهم لا يزكون^(١).
وعن الصادق عليه السلام أنه قال: من منع الزكاة في حياته طلب الكربة بعد موته^(٢).
وقال عليه السلام: من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً^(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما منع به غني، والله تعالى جده سائلهم عن ذلك^(٤).
وعن علي عليه السلام قال: من كثر ماله ولم يعط حقه فإنما ماله حيات تنهشه يوم القيامة^(٥).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من ذي مال ذهب أو فضة يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله عز وجل يوم القيامة بقاع قرقر وسلط عليه شجاعاً أقرع يريد به وهو يحيد عنه فإذا رأى أنه لا يتخلص منه أمكنه من يده فيقضها كما يقضم الفجل ثم يصير طوقاً في عنقه^(٦).

والأخبار الواردة في عقاب تارك الزكاة كثيرة.

وأما كون البخل وترك العطاء شرّاً لصاحبه في الدنيا فيفهم من قوله تعالى: «ولله ميراث السماوات والأرض، أي: أن كل ما في السماوات والأرض هو ملك لله والله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وأن المال الذي في يد الإنسان يمكن زواله بأسرع وقت، وإن لم يذهب في حياته فإنه يفارقه بعد موته، وأن الله قد وعد المنفقين أن يعرضهم أضعاف ما أنفقوا، فإن كانوا مؤمنين بالله فلا ينبغي لهم أن

(١) الوسائل: ج ٦ ص ١٢ ب ٣ ح ٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ٢٠ ب ١ ح ٤٧ عن ثواب الأعمال.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ٢٢ ب ١ ح ٥٣ عن نهج البلاغة.

(٤) بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ٢٩ ب ١ ح ٥٧ عن دعائم الإسلام.

(٥) بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ١٦ ب ١ ح ٣٧، وقرقر: القاع الالئس.

يبتخلوا وإن لم يصدقوا بوعد الله ، فهو ما قاله الله في الآية السابقة : « ما كان ليدرك المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » فإن هذا الباخل قد ميز نفسه عن المنفق المصدق بوعد الله الممثل لأمر الله .

ثم قال الله بعد ذلك « والله بما تعملون خبير » فإن كان هذا البخيل مؤمناً بالله وصفاته وعليه المحيط بكل شيء وأنه عالم ببخله ومنعه لهذا الحق الواجب ومؤمن بكرمه ووفائه بعهده وأنه وعد المنفق بالعوض المضاعف ومع كل هذا يبخل بما أمر أن ينفقه فهذا هو من موارد التمييز « حتى يميز الخبيث من الطيب » .

قوله تعالى : كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (١٨٥) .

أما الجملة الأولى وهو قوله : « كل نفس ذائقة الموت » فلا يشك فيها أحد ، وكل فرد يعلم علماً يقيناً أن مصيره إلى الموت مهما كان دينه ومهما كانت عقيدته ، ولكن ينبغي العلم في كيفية الموت وحالاته وأطواره ، وما يراه المرء حين الموت ، وما يسمعه من أمور نوره رؤيتها وسماعها أو بسوؤه ذلك .

قال تعالى في سورة القيامة « كلا إذا بلغت التراقي » وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق ، (١) .

أما التي تبلغ التراقي فهو روح الإنسان حين خروجها من جسده ، فإذا وصلت إلى التراقي يقطع بأنه الموت ، ولكن أمله لا ينقطع عن الدنيا ويأمل العود إليها ، ويأمل أن تعود الروح إلى جسده ويبرأ من مرضه ، ولذا يقول : هل من راق .

فقد روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل "وقيل من راق، قال: ذلك قول ابن آدم اذا حضره الموت قال: هل من طبيب؟ هل من دافع؟ قال: «وظن» أنه الفراق، يعني فراق الأهل و الأحبة عند ذلك، قال: «والتفت الساق بالساق» قال: التفت الدنيا بالآخرة، قال: «الى ربك يومئذ المساق» قال: الى رب العالمين يومئذ المصير^(١).

وروي أنه قيل لأمر المؤمنين عليهم السلام: صف لنا الموت، قال: على الخير سقطتم، هو أحد ثلاثة امور يرد عليه : إما بشارة بنعيم الأبد، وإما بشارة بعذاب الأبد، وإما تحزين وتهويل وأمره مبهم لا يدري من أي الفرق هو. فأما وليتنا المطيع فهو المبشر بنعيم الأبد، وأما عدونا المخالف علينا فهو المبشر بعذاب الأبد - ، وأما المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله وهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدري ما يؤول إليه حاله يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً ثم لن يسويه الله عز وجل بأعدائنا لكن يخرجهم من النار بشفاعتنا، فاعملوا وأطيعوا ولا تتكأوا ولا تستصغروا عقوبة الله عز وجل، فإن من المسرفين من لا تلحقه شفاعتنا إلا بعد عذاب ثلثمائة ألف سنة^(٢).

فعلى هذا يكون الانسان حين الموت مفاجئاً بأحد هذه الامور الثلاثة، وهي امور مهمة لا ينبغي للانسان أن يتسامح في تحصيل الأول منها وهو البشارة بنعيم الأبد، و لو كان هذا الأمر لا يحصل إلا بترك الدنيا بأجمعها لأن هذه البشارة تضمن له النعيم الى ما لا نهاية له فليس من العقل التسامح به و هو لا يحتاج الى زيادة عمل تشغله عن امور دنياه اللازمة له .

فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له : ما الاستعداد للموت ؟ قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم والاشتغال على المكارم، ثم لا يبالي أوقع على الموت أم

(١) تفسير البرهان: ج ٤ ص ٤٠٨.

(٢) معاني الاخبار: ص ٢٨٨.

وقع الموت عليه ، والله ما يبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت أم وقع الموت عليه^(١) .
وهذه الامور التي جعلها الامام استعداداً للموت هي الصفات التي وصف الله
ورسوله بها المؤمنين في مقامات عديدة ، فالؤمن هو الذي يؤدي الفرائض التي
أوجبها الله عليه و يجتنب المحرمات التي نهى الله عنها ، وأما الاشتغال على المكارم
فالشرع والعقل يحكمان بحسنه .

فإذا اجتمعت في المرء هذه الامور الثلاثة كان من المؤمنين ، والله تعالى قد
وعد المؤمنين بالأمن والأمانى عند الموت وبعده ، ووعد بالدرجات العلى والفوز
بالجنان ، ولذا قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام لمن كانت فيه هذه الخصال الثلاث : لا يبالي
أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

وقد وردت الأخبار بأن قبض روح الكافر والفاجر في غاية الشدة وكأنه
قرض بالمقاريض ونشر بالمنشير ، هذا بالنسبة الى الموت .
و أما ما يكون بعد الموت فهو امور شديدة وأحوال صعبة ، وقد أشارت
الآية الاخرى وهي قوله : «وانما توفون اجوركم يوم القيامة» .

هذه الآية وآيات اخر كثيرة تعرفنا بيوم القيامة و حشر الناس وحسابهم
وإعطاء كل إنسان ما يستحقه من الثواب أو العقاب .

ثم ذكر سبحانه في الآية أن النجاة والفوز العظيم الذي يتخلص به الانسان
من جميع الشدائد و الأحوال هو أن يعطى الانسان براءة من النار ، والآية هي
قوله تعالى : «فمن زحزح عن النار و ادخل الجنة فقد فاز» ،

لقد نزلت الآيات الكثيرة في وصف الجنة و النار و كذا وردت الروايات
في وصفهما ، وذكر النبي صلى الله عليه وآله لما اسرى به الى السماء أنه رآهما ثم وصفهما لنا .
وفي الآيات والأخبار العث و التشويق على اكتساب الجنة والتحذير الكثير
في الابتعاد عن النار ، والعقل السليم يحكم حكماً باتاً على وجوب الابتعاد عن الضرر

المتيقن وعن الضرر المظنون أو المحتمل .

ثم نبهنا الله تعالى على أن الدنيا شيء زائل ولا ينبغي للعاقل أن يرضى بشيء زائل بدلاً عن شيء دائم ثابت أحسن من ذلك الزائل بأضعاف مضاعفة ، بل الدنيا كلها من أولها الى آخرها لا تساوي لذة ساعة من ساعات الآخرة .

فتأمل أيها العاقل في قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور » .

كل إنسان لابد وأن يكون قد ابتلى في عمره يوماً بإنسان غره وخدعه وباع عليه شيئاً معيباً لا يساوي عشر القيمة التي اشتراها بها ، فهذا الانسان المخذوع المغرور تراه يأسف غاية الأسف حتى أنه يريد أن يقطع أنامله من الغيظ على ذلك البائع الذي غره وخدعه . فالله سبحانه يمثل الدنيا كلها بأسرها بما فيها من زينة وفتنة وملاذ ونعيم يمثلها بسلعة اشتراها إنسان فظهرت معيبة غره البائع بها فندم عليها المشتري ، وهذه السلعة تمتع بها صاحبها ساعة من الدهر ثم انقضت ولم تعد ، فالذي ينهمك في الدنيا وينغمس في ملاذها ويففل عن آخرته ويترك واجباته يكون آخر أمره الندم والأسف . وأما الذي يعمل لآخرته ولا يأخذ من الدنيا إلا مقدار بلغته التي تؤديه وتوصله الى عمل الآخرة فهذا هو الناجح وهو الفائز الذي فاز بدخول الجنة والبعد عن النار .

وحيث إن هذه المنزلة وهذا المقام لا ينال بالتنعم والراحة وإنما يحصل بالعناء والتعب والشدة في الدنيا ، فقد نبهنا الله لذلك فقال تعالى :

لتبطلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور (١٨٦) .

المقصود من البلوى هو الاختبار والامتحان لأجل أن يتميز الخبيث من

الطيب والمطيع من العاصي والمؤمن من المنافق ، ثم الابتلاء تارة يكون بالأموال وقد قدمت على النفوس في هذه الآية ، فإن بعض الناس يقدم ماله على نفوس سائر البشر ، والابتلاء بالأموال هو إخراج حقوق الله منها وما يصيبها من التلف، وتارة يكون الابتلاء بالنفوس ، وهو على أنواع ، إما قتل أو أسر أو جرح أو مرض أو غيرها مما تكون معرضة له .

وهذه الامور التي ترد على الأموال والنفوس اذا كانت في سبيل الله وفي رضاه يكون بها الاختبار والابتلاء ، أما اذا كانت في غير سبيل الله كبذل المال في المعاصي والقتل والأسر والجرح وفي حروب جاهلية غير شرعية فهذه مما يعاقب عليها الانسان . وبعدما أخبرنا الله أنه يختبرنا بالمال والنفوس أخبرنا بأن يختبرنا أيضاً بما يؤذي من الكلام الذي نسمعه من اليهود والنصارى والمشركين . وهذا الكلام الذي يؤذي المؤمنين كان في الزمان الأول هو هجاء النبي ﷺ والطعن في الدين وشتم المؤمنين وسبهم ، فإنه كان يؤذي المؤمنين ، وقد أخبرهم به الله قبل وقوعه ليوطنوا عليه أنفسهم حتى اذا سمعوه لا يخرجون عن حالاتهم الطبيعية ويتمكنوا من الصبر . أما في زماننا هذا فالمسلمون يؤذيهم من الكلام ما يقال لهم إنكم غير متمدين وإنكم متمسكون باموركم القديمة فأنتم رجعيون وهذا الزمان يلزمه أشياء جديدة ، وإذا قالوا له ذلك يحمله هذا الكلام على رفض الدين و الأخذ بقواعد اليهود والنصارى .

وذكر بعض المفسرين أن الآية نزلت في رجل من اليهود اسمه كعب بن الأشرف ، فإنه كان يهجو النبي والمؤمنين ويحرض المشركين عليهم ويشيب بنساء المسلمين ، فقال النبي ﷺ من لي بابن الأشرف؟ فقال محمد بن سلمة: أنا يا رسول الله ، فخرج هو وأبو نائلة مع جماعة فقتلوه غيلة وأتوا برأسه الى النبي آخر الليل^(١).

وقد بلغ عدد المسلمين اليوم (٧٠٠) مليون نسمة ^(٢) واليهود ينادون من إذاعاتهم بسب هذه الفرقة من المسلمين وعيب فرقة أخرى ونقد فرقة ثالثة ولا يتأذى أحد من المسلمين بذلك !

وعلى كل حال فإن الله قد أخبر المسلمين كلهم ما تعاقبوا و تناسلوا بأنه مبتليهم بهذه الامور، وهي الأموال والأنفس والسماع من أهل الكتاب ومن المشركين كلاماً يؤذيهـم ، ثم قال لهم : «وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور». فالمؤمن اذا ابتلي بالمال - أي اذا صار صاحب مال - فعليه أن يخرج حقوقه الشرعية ، واذا ابتلي بالنفس - بأحد العوارض المتقدم ذكرها - فعليه أن يصبر ، وأن يتقي الله بحيث لا يترك شيئاً من الواجبات بسبب ابتلائه و لا يفعل شيئاً من المحرمات ، واذا سمع كلاماً من أهل الكتاب مخرلاً بالنبي أو بالدين أو بسائر المؤمنين أو بسائر المسلمين فعليه أن يرده و يبطل ما جاؤوا به ، فإذا لم يتمكن من ذلك ولا يمكن أن يفعل معه كما فعلوا بكعب بن الأشرف فعليه أن يصبر و يتوكل على الله و يطلب منه أن ينتقم من الكافر .

ثم مدح الله المؤمن الذي اتصف بهذه الصفات بقوله تعالى: «فان ذلك من عزم الامور» أي: المؤمن الذي يصبر ويتقي ويعتمد على الله فهو المؤمن الرشيد المصيب في أفعاله ، ويلزمكم أن تكونوا كلكم مثله ، فإن كنتم كذلك تكون لكم الغلبة ويكون لكم النصر وسوف تستولون على جميع العالم وتفهمون أعداءكم فكونوا كذلك تريحوا.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا و رابطوا
واتقوا الله لعلكم تفلحون (٢٠٠).

(١) بل بلغ عدد المسلمين حسب الاحصاءات الاخيرة اكثر من مليارد مسلم .

هذه آخر آية من سورة آل عمران، وحيث إنه ذكر فيها أحكاماً كثيرة فإنه في هذه الآية يوصيكم بوصية تنفعكم في الدنيا والآخرة فقال عز اسمه «يا أيها الذين آمنوا اصبروا» وقد خص المؤمنين بهذه الوصية، وأنت أيها القارىء قد عرفت فيما تقدم من هو المؤمن، هو المطيع لله في كل الأمور، هو الذي يفعل الواجبات و يترك المحرمات و يمثل جميع الأوامر، وهذه الوصية من جملة الأوامر، فلا بد أن يمثلها المؤمن ولا يخالفها، فقد أمره الله أولاً بالصبر على كل شيء لا يصبر عليه غير المؤمن، فالصبر على فعل الواجبات الشاق منها و غير الشاق، و لا ريب أن غير المؤمن لا يصبر عليها، والصبر على ترك المحرمات، و غير المؤمن من لا يترك المحرم الذي فيه لذة، فإن أغلب المحرمات لهو و لعب و زينة و تفاخر و تكاثر و لا يتركها إلا المؤمن، والصبر على المشاق والأعراض والأمراض البديية. ثم بعد الأمر بالصبر أمرنا بقوله: «و صابروا» و التصابر من التفاعل الذي يكون من جانبين كما نقول: قاتل زيداً أو فاخر همراً و ضارب بكرة و صارع خالداً، فالتفاعل لا يتحقق إلا من فاعلين، فيكون الظاهر من اللفظ أن على كل مؤمن أن يحث كل مؤمن على الصبر، فإذا كان كل واحد يحث جميع الأفراد على الصبر تحقق الصبر في الجميع، وقد تبين أن الصبر إنما هو على الأحكام التي تقدم ذكرها في هذه السورة، فالمؤمنون كلهم يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً على تنفيذ الأحكام ومقاطعة العدو، ثم إن الله تعالى أمر في هذه الآية بأربعة أشياء و هي: اصبروا، و صابروا، و رابطوا، و اتقوا الله.

قال الفيض الكاشاني - رحمه الله - في تفسيره: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا» على الفرائض «و صابروا» على المصائب «و رابطوا» على الأئمة. كذا في الكافي عن الصادق عليه السلام والقمي عنه عليه السلام: اصبروا على المصائب، و صابروا على الفرائض، و رابطوا على الأئمة. والعياشي عنه عليه السلام: اصبروا عن المعاصي، و صابروا على الفرائض. و في رواية: اصبروا على دينكم، و صابروا عدوكم ممن يخالفكم، و رابطوا إمامكم. وعن الباقر عليه السلام: و صابروا على التقية. و في المعاني عن الصادق عليه السلام: اصبروا على

المصائب، وصابروهم على الفتنة، ورابطوا على من تقتدون به^(١) انتهى.

هذا ما في الروايات وكلام المفسرين في قوله تعالى: «ورابطوا».

وأما قوله تعالى: «واتقوا الله لعلكم تفلحون» فهي - أي التقوى - العمدة

لما تقدمها من الأمور الثلاثة، وهي الأساس الذي يبتني عليه غيره من أمور الدين،

فإذا رسخت التقوى في قلب أحد من العباد تم له كل شيء من أمور الدين وحصل

على كل خير، وقد علّق الله تعالى الفلاح عليها فإن الأمور التي تقدمت عليها تابعة

لها وحاصلة بحصولها، فمن تمكن من الانصاف بالتقوى من الطرق المأخوذة عن

الله بواسطة النبي ﷺ أو بواسطة من عنده علم النبي ﷺ فقد فاز فوزاً عظيماً.

أما إذا كان يعمل أعمال المتقين ويتعب نفسه ولكن عن غير الطريق الذي

عينه الله لرسوله وبيئته الرسول لو صيه، وإنما اختاره العبد لنفسه أو اختاره له

إمامه الذي لم ينصبه الله ولم يعرف جميع أحكام الله، وهذا العامل على النهج المذكور

المأخوذ عن غير الله هو كما ذكره الله تعالى في قوله: «قل هل أنبئكم بالآخرين

أعمالاً * الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»^(٢).

(١) تفسير الصافي: ج ١ ص ٣٨٠

(٢) الكهف: ١٠٣ و ١٠٤.

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة
وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله
الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً (١) .

إن الله تعالى ختم سورة آل عمران بالأمر بالتقوى للمؤمنين بعدما أمرهم
بأحكام كثيرة في السورة ، حيث إنهم مصدقون بما يقول الله ، وقد أمرهم بالتقوى
ليمتثلوا ما أمرهم به ، ويثبت أن نتيجة التقوى هو الفلاح والفوز بالدرجات .
وفي هذه السورة أمر الناس جميعاً المؤمن والكافر بالتقوى ، وقرن الأمر بالدليل
القاطع على أنه الخالق الواحد القادر على أن يخلق من العدم نفساً واحدة ، والمقصود
به آدم أبو البشر ﷺ ، ثم يخلق من فضلة طينة ضلعه امرأة من جنسه ويخلق منهما
هذا الخلق العظيم من رجال ونساء .

فحريّ بهؤلاء الناس أن يتقوا هذا الخالق وأن يمتثلوا أوامره ولا يخالفوه
بشيء من الأشياء ، وأن هذه العلة موجبة للتقوى يحكم العقل بوجوبها بعد معرفة
كيفية الخلق التي يبينها الله بهذه السورة المفصلة ولم يكونوا يعرفونها من قبل بل
كانوا يعرفون شيئاً مجملاً من أمر الخالق ، وهو أن السماوات خالقاً وهو خالقهم ،

و كانوا يتساءلون به ، فكان يسأل بعضهم بعضاً بالله أن يسدي إليه نفعاً أو يدفع عنه ضرراً .

و بعد ما عرفوا أنهم كلهم من رحم واحد وأن بعضهم رحم بعض صاروا يتساءلون بالله وبالرحم ، فإن الله أمرهم بالتقوى لما كانوا يعرفونه أولاً من أمر الخلق، ثم أمرهم بالتقوى ثانياً لما عرفوا من كيفية الخلق وأن بعضهم رحم بعض . هذا ما عرفه سائر الناس من العالم والجاهل، وإلا فالأسباب الموجبة للتقوى كثيرة، وأن التقوى من أوجب الأمور على العبد، ولا يخلصه شيء مما يخاف منه ويحذر وقوعه عليه غير التقوى، فإنها عبارة عن ترك كل شيء يحتمل فيه أن يكون جالباً لضرر ما .

وهذا الأمر يحكم العقل بوجوبه حكماً قطعياً باتاً ليس فيه تردد ولا شك، ومن لم يعمل فيه فقد غرر بنفسه وألقاها في الهلكة، نسأل الله النجاة منها لجميع المؤمنين. هذا على عطف كلمة «الأرحام» على موضع الجار والمجرور من «به» .

أما اذا كان معطوفاً على لفظ الجلالة وهي «الله» فيكون المعنى:

واتقوا الله واتقوا الأرحام أن تقطعوها، أي: كما يجب عليكم التوقي والتحرز عن عقاب الله كذلك يجب عليكم التحرز عن قطيعة الأرحام ، فإن قطع الرحم موجب للعقاب، وقد وردت الأخبار الكثيرة في العث على صلة الرحم والعقاب على قطعها كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

ثم بعدما ثبت وجوب التقوى بأمر الله وبحكم العقل على الانسان و بيان علة الوجوب كما ذكر في الآية أخبرهم الله أن العمل بالتقوى لا يتحقق بمجرد دعواهم بأنهم عملوا بواجبهم ، بل أن الله يكون رقيباً عليهم فيحصى أعمالهم الموافقة للتقوى والمخالفة لها ، فقال تعالى: «ان الله كان عليكم رقيباً» .

قوله تعالى : **وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ** انه كان حوباً كبيراً (٢) .

هذه الآية الشريفة تأمر الناس الذين أوجبت عليهم ملازمة التقوى في جميع الامور تأمرهم الآن بالمحافظة على أموال اليتامى وأن يدفعوها إليهم كاملة صحيحة من غير تصرف بها .

والظاهر من الآية أن الناس كانوا إذا تمكّنوا من أموال اليتامى على قسمين : فبعضهم يأخذها ويضمها الى ماله ويجعلها ملكاً له ، وبعضهم يأخذ الجيد منها ويعطيهم مثله من المال الرديء ، وقد نهاهم الله عن كلا الأمرين وأمرهم بدفع أموالهم بنفسها على ما كانت عليه فقال تعالى **«وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ»** .

وهذه جملة واضحة يعرفها كل عربي يريد أن يطيع الله . أما الذي يريد أن يعصى الله فيقول : إني لا أعرف معنى هذه الجملة ، ولعل الشيطان يوحى إليه بعض الكلمات الموجبة للتشكيك فياً كل مال اليتيم ولا يدفعه إليه .

وأما قوله : **«وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ»** فيمكن أن يكون المراد : لا تأخذوا أموالهم المحرمة عليكم وتعطوهم أموالكم الطيبة المحللة لكم ، أو لا تأخذوا أموالهم الجيدة الطيبة وتعطوهم أموالكم الرديئة الخبيثة ، أو لا تبدلوا أموال الدنيا الفانية الخسيسة بأموال الجنة الباقية الطيبة ، أو لا تتعجلوا الأموال المحرمة قبل أن يأتيكم الرزق الحلال الذي قدر لكم ، أو لا تأخذوا الارث وحدكم أيها الكبار وتحرمون النساء والصغار منه ، وقد اختارت كل فرقة أحد هذه الأقوال .

أما قوله : **«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ»** أي : لا تضيفوا أموالهم الى أموالكم فتأكلوها جميعاً ، ولا تخلطوا الجيد من أموالهم بالرديء من أموالكم فتأكلوها فإنه في ذلك إجحافاً وإضراراً بهم .

قوله تعالى : **«إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا»** ، الحوب : هو الاثم والذنب ، أي : من يأكل شيئاً من أموال اليتامى بأي طريق كان مما تقدم ذكره فقد ارتكب ذنباً

عظيماً كبيراً، والشيء الذي يصفه الله بالكبر لا يمكن للانسان أن يتصوره ويقدره، فليس له إلا الفرار عنه والتخلص منه، وقد نزلت آيات ووردت أحاديث في عقاب أكل مال اليتيم ونكتفي بقوله تعالى : «ان الذين يأكلون مال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً» ^(١) فليأكل المرء من مال اليتيم بمقدار ما يقدر أن يكون في بطنه من النار ، أعاذنا الله من مال اليتيم ومن النار .

قوله تعالى : وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً (٩) .

هذه الآية والتي بعدها فيهما تهديد بعقاب دنيوي وعقاب اخروي، وفيهما تعليم وتأديب للمسلمين في كيفية معاملة أيتام الناس و كيفية معاملة من يتر كونه من أولادهم الصغار بل الكبار أيضاً ، فإن في تفسير الآية أربعة أقوال كما ذكر الشيخ الطوسي في التبيان :

أحدها : النهي عن الوصية بما يجحف بالورثة فيكون النهي موجهاً الى الموصي بأن يرأف بأولاده ولا يضرب بهم بصرف ماله في حياته ، بل يوصي بثلاث ويترك الباقي للورثة .

الثاني : أن يكون الخطاب لمن يحضر عند الموصي المريض المشرف على الموت من أصحابه، حيث كانوا يقولون له : عليك بنفسك لاتحرمها ولا تبق المال لأولادك واصرفه على نفسك ، فنهاهم الله عن ذلك ونصحهم بأن يرأفوا بأولاد الميت كما يرأفون بأولادهم ، وأن يحبوا لهم ما يحبون لأولادهم .

الثالث : أن يكون الخطاب لمن يتولى حال اليتيم . وهو كل من يكون وصياً وقيماً على بعض أيتام الناس، فيأمره أن يكون أميناً محافظاً على هذا اليتيم وعلى ماله الذي بيده كما يحافظ على ولده وعلى ماله، و كما يجب أن يكون الولي و المقيم على مال ولده أميناً محافظاً غير خائن ولا متساهل ولا متسامح في

حفظ مال ولده فليكن هو كذلك ، فإن صار كذلك هيباً الله لولده من يحافظ عليه وعلى ماله.

وأما إذا كان هو غير محافظ أو أنه ارتكب شيئاً من الخيانة يكون الولي على أيتامه مثله، فمن شاء أن تحفظ أيتامه من بعده في أنفسهم وأموالهم فليحفظ أيتام الناس .

الرابع : أن يكون الخطاب لمن يمنع المسلم أن يوصي لأقاربه بشيء من المال فيقولون للمريض: اترك مالك لأولادك و وفر عليهم ولا تعطه لغيرهم^(١). ولا يخفى على القارئ أن الأقوال الأربعة كلها راجحة و مروية، وأن الأخذ بها راجح أيضاً.

وأما الآية التي بعد هذه الآية فهي قوله تعالى:

ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً (١٠).

فتفسيرها في بطون آكلي أموال اليتامى فمن شاء الاطلاع على تفسيرها إن كان من الآكلين لأموال اليتامى فسوف ينظر الى بطنه اذا القي في السعير، وإن كان من غير الآكلين وأحب الاطلاع عليهم فإنه سينظر إليهم، نسأل الله أن يجير المسلمين منه.

قوله تعالى: يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولا بويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له

ولد فان لم يكن له ولد و ورثه أبواه فلامه الثلث فان كان له
 اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم
 وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله
 كان عليماً حكيماً (١١) ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن
 ولد فان كان لهن ولد فلکم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها
 أو دين و لهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان
 لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو
 دين وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل
 واحد منهما السدس فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في
 في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من
 الله والله عليم حلیم (١٢).

إن هاتين الآيتين ليستا من موضوع هذا السفر، فإن أحكامها وإن كانت
 لازمة على كل أحد ولكنها ليست من الصفات التي نحن بصددھا و هما في بيان
 فرائض ورثة الميت الذي انسلخ عن ملكيته ما كان يملكه حال حياته، وقد عيّن
 الله للملكية ماله اناساً آخرين ورتبهم على طبقات، وأن الطبقة المتأخرة لا ترث
 مع وجود الطبقة المتقدمة.

ولا يجوز لأحد غير الطبقة التي عيّنھا الله أن يأخذ من المال الموروث شيئاً،
 فإن الورثة يكون فيهم الكبار و الصغار و الحاضر و المسافر و العاقل و المجنون
 و السفیه و الرشید و الذکر و الانثی، فيلزم أن يشخص لكل فرد حقه المعيّن له

ويعطى بيده إن كان بالفاً عاقلاً رشيداً، وإلا فيودع عند شخص أمين ليصرف عليه حسبما تقتضيه مصلحة القاصر حتى يبلغ سن الرشد.

وبعد أن بين سبحانه طبقات الوارثين قال عز اسمه :

تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣).

أي : أن هذه السهام وهذه الفروض التي فرضها الله لكل واحد من الآباء والأمهات والأولاد البنات والأخوة والأخوات وغيرهم من طبقات الورثة هي حدود الله . والحد هو الحاجز الذي يكون بين الدارين أو الحديقتين أو بين قطعتي الأرض فإذا جعل الملك القوي أو جعلت لجنة التحكيم حداً بين أرضها أو حديقتهما وبين أرض أو حديقة لشخص آخر وكان ذلك الشخص ضعيفاً حقيراً مهيناً فقيراً ذليلاً ليس له قدرة على أن يتحرك بحركة واحدة بالنسبة إلى هذا الحد ، ثم إنه تجاوز الحد في بعض الأيام وأخذ من أرض اللجنة الحاكمة فماترى الذي تفعله اللجنة في حقه وهي ذات القوة والشوكة والسيطرة ؟ فإذا حكمت عليه بالاعدام فليس عليها لوم وهو مستحق للعقاب .

من هنا نعرف أنه ليس لأحد من عباد الله أن يتعدى هذه الحدود لاني ولا وصي ولا ولي ولا ملك مقرب ، فإذا خرقتها أحد فهو فرعون هذه الأمة ، له ما لفرعون من العذاب . وقد أعد الله سبحانه لمن يطيعه ويطيع رسوله ولا يتعدى هذه الحدود وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم .

أما من خالف هذه الأحكام السماوية فإنه مستحق لعقاب الله وسخطه، وقد شاهدتم وشاهدنا عاقبة الكثيرين ممن خالفوا سنن الله وأحكامه، وقد سبقت الإشارة إلى أحد الظلمة^(١) فإنه استولى على أحكام المسلمين الذين ينبغي لهم العمل بها وأخذ

(١) المقصود به هو عبدالكريم قاسم الرئيس السابق للعراق .

بحكم برأيه من دون مجلس نيابي ولا رجال شوري و جعل في أول أمره بركة على الناس ويعمر البلاد، وقد أنس أغلب الشعب بحكمه .

ثم بعد ثلاث سنين أصدر كراساً مشتملاً على مواد عديدة سمّاه قانون الأحوال الشخصية، فذكر من جملة قوانينه أن البنت والولد مشتركان في الارث على السواء، وينسخ بزعمه قول الله تعالى : «لذكر مثل حظ الأنثيين»^(١) وقد كلفه العلماء ونصحوه في العدول عن هذه الفكرة فلم يقبل منهم ولم يلتفت الى قوله تعالى في من يخالف هذه الاحكام : «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين»^(٢) فأمهله الله سنة كاملة لكي يستمع نصائح العلماء ومواعظ الصالحاء، فلمّا أبى وامتنع عن قبول شيء منها أخذ الله أخذ عزيز ذي انتقام حتى أنه لم يعلم أحد أين صار جسده ، فهذه الحادثة تكون عبرة لغيره من ذوي الأمر فلا يغروهم بالله الغرور .

قوله تعالى : انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً (١٧).

قد ذكر الله في الآيتين السابقتين أن من يأتي من الناس بالفاحشة وهي الزنا أو هو مع غيره من اللواط والسحق فجزاؤهما أن يؤذيا حتى يتوبا ويصلحا، فإذا تابا فكفوا عنهما، وذكرنا في كيفية الايذاء التوبيخ والتعير وأضاف بعضهم الى التعبير الضرب بالنعل .

وفي هذه الآية بيّن الله كيفية التوبة وزمانها وتعهد بقبولها إن كانت جامعة

(١) النساء : ١١ و ١٧٦

(٢) النساء : ١٤

للمشروط ، فقال عز وجل : **«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ»** أي : قبول التوبة أمر لازم على الله ، فهو وعد من الله لعباده أن يقبل توبتهم اذا كانت جامعة للشروط ، ثم بين شروط التوبة بقوله : **«لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ»** أي : أن الله يقبل توبة الذين يعملون السوء ، والمقصود من السوء هو معصية الله وعمل ما لا يرضى به الله ولا فرق بين المعصية الكبيرة والصغيرة ، والمراد من الجهالة هي الفكرة أو السبب الذي يدفع العبد و يحمله على عمل المعصية ، فإن المعصية كلما كانت أعظم كشف عن عظم جهله .

أما اذا كان داعي المعصية مضادة لله في حكمه ، ودعوى أن حكم الله لا يناسب هذا العصر ، وأن الذي يراه العاصي من الحكم هو المناسب لعصره ، فهذا الرجل أشد جهلاً وأكثر سفاهة بل هذا هو الكفر ، فكل من يعمل شيئاً من المعاصي إنما يعملها عن سفاهة وجهل .

روى العياشي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه ، وقد قال في ذلك تبارك وتعالى يحكي قول يوسف لآخوته : **«هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ»** فنسبهم الى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله ^(١) .

ففي هذه الآية قد وعد الله عبده العاصي اذا تاب عن المعصية أن يتوب عليه . وقد عرفت فوا التوبة بأنها عبارة عن الندم على فعل السوء مع العزم على أن لا يعود الى مثله في القبيح ^(٢) .

وقال بعضهم : يكفي في تعريفها الندم على فعل القبيح ^(٣) .
وأما العزم على عدم العود فهو شيء خارج عن حد التوبة بل هو أمر آخر يعزم عليه الانسان وقد ينسخ هذا العزم في حينه اذا تهيئت له تلك المعصية أو

(١) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢٢٨ ح ٦٢ والاية ٨٩ من سورة يوسف .

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ٢١ .

غيرها ، ولكن هذا القول لا ينطبق على حقيقة التوبة لأننا بعدما عرفنا أن العبد لا يعصى الله إلا أن يكون في حالة سفه ونقصان رشد وهو المعبر عنه بالجهل في الآية ، فهذا العبد العاصي ما دام على تلك الحالة من الجهل والسفه يكون مصراً على معصيته ولا يحصل عنده ندم عليها .

أما إذا رجع إليه رشد أو آب هو الى رشده فحينئذ يحصل الندم ولا يعود الى رشده إلا أن يلتفت الى عظمة الله القادر على ما يريد ، ويتذكر وعيد الله بالنسبة الى العاصي ، ويتأمل في عقاب الله الشديد الذي لا يشبهه عقاب الدنيا ، وينظر الى بدنه الضعيف الذي لا طاقة له على هذا العقاب ، وبعد معرفة هذه الأمور يعرف نفسه أنه كان جاهلاً سفيهاً حين ارتكاب المعصية ، ويلزمه أن يخلص نفسه من عقاب هذا السوء الذي وقع فيه ، وأن لا يوقع نفسه مرة أخرى فيه وفي أمثاله ، ولا يمكنه التخلص إلا بترك ذلك الجهل والسفه والرجوع الى حالة الرشده والتمسك بحكم العقل .

وهذا لا يتحقق إلا بالندم على ما فعل ملازماً للغم على عدم العود ، فإن الندم وحده لا يرفع العقاب عنه ، وإلا فكل العصاة يتحقق منهم الندم عند معاينة الموت وبعد الموت وعند الحشر وعند الحساب ولا ينفعهم ذلك في تلك الأحوال ، وإنما ينفع الندم اذا كان العاصي متمكناً من تلك المعصية مرة أخرى ولكنه عرف ضررها وسوء مغبتها فندم على فعلها ، ولازم هذا أن يكون الندم ملازماً للغم على عدم العود . حيث إنه مع الاصرار على المعصية لا يمكن أن تتحقق منه التوبة .

وأما قوله تعالى : «ثم يتوبون من قريب» فقد اختار أكثر المفسرين أن «القريب» هو ما قبل الموت^(١) ولكن المتبادر من إطلاق لفظ «القريب» أنه الزمن المتصل بصدور المعصية من العبد ، وأن «العقل يحكم حكماً باتاً بأن التوبة واجبة حين

صدور المعصية، فإنَّ المعصية اذا صدرت من العبد المملوك الضعيف وهو يعلم أنَّ هذه المعصية يستحقُّ عليها نوعاً من العذاب بمقتضى القانون الالهي يحكم عليه العقل السليم أن يسعى ويجتهد بالطرق التي ترفع عنه هذا العقاب، إذ أنه يسبب هلاكه، وأنَّ أقرب طريق وأنجح في رفع العقاب هو التوبة اعتماداً على وعد الله، ففي تلك الساعة التي صدرت منه المعصية يلزمه تداركها حتى لا يسجل عليه العقاب.

و يؤيد هذا ماورد في الأخبار أنَّ الله قد أمر الملك الكاتب للسيئات أن يؤجل الكتابة مدة فلعلَّ العاصي يتوب فلا تكتب عليه، واذا انقضت المدة ولم تتحقق التوبة حينئذٍ يسجلها الملك الموكل بالعبد، وهذا لا ينافي القبول من الله الى وقت الموت وذلك لأنَّ العاصي مكلف بالتوبة شرعاً وعقلاً حين المعصية، فإذا لم يمثل هذا الأمر فهو عاصٍ وفي الساعة التي تليها هو مكلف بالتوبة أيضاً، وهكذا في كل ساعة تمرُّ عليه ولا يتوب فهو عاصٍ مأمور بالتوبة، فإذا تحققت منه التوبة في زمن كونها مقبولة فقد تحققت من قريب لأنها متصلة بالمعصية، فإذا انقضت المدة بحضور الموت لا تقبل منه حين ذاك لانتفاء موضوعها كما تقدم من أنها عبارة عن الندم مع العزم على الترك، وحيث لا يتحقق العزم على الترك لانتفاء الزمن المقرر له لذا لا يتحقق موضوع التوبة، وقد نزلت آيات كثيرة في الحثِّ على التوبة وكذا وردت الأخبار الكثيرة بوجوب التوبة والمبادرة إليها.

وكذا يحكم العقل بالمبادرة لعدم علم المذنب بوقت الموت وقدمه، فقد يرد عليه الموت فلا يمكنه إحداث التوبة فيموت مصراً على المعصية، ففي كل حين العقل يحثُّ المذنب ويأمره بالتوبة ولكن الانسان لا يلتفت الى هذا الحكم، وأنَّ الآية التي بعده هذه الآية توضح لنا هذا المعنى الذي ذكر من انتفاء الموضوع

وهي قوله تعالى:

و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر
أحدهم الموت قال انى تبت الان ولا الذين يموتون وهم كفار
اولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً (١٨).

إن هذه الآية الشريفة تبين لنا أن الذين يعملون السيئات اذا لم يتوبوا
قبل حضور الموت وبقوا مصرين على المعاصي الى أن حضرهم الموت وعانوا أهوال
الآخرة و في تلك الساعة يقولون ربنا إنا تبنا إليك فإن التوبة لا تقبل منهم لأنهم
بمعايينة أهوال الآخرة خرجوا من الدنيا.

والتوبة إنما تقبل في الدنيا كما تقدم حيث يمكنهم المعصية فيتوبون . منها،
أما اذا لم يمكنهم أن يفعلوا المعصية فمن أي شيء يتوبون ؟ فلاموضوع للتوبة
وإنما هو الندم وحده حين حضور الموت و حين قبض الروح ، فإن كيفية قبض
روح المجرم غير كيفية قبض روح المؤمن ، وكذا الندامة باقية مستمرة في القبر
وعند سؤال منكر ونكير وعند البعث وعند الحساب وعند الصراط وفي النار إن
لم يكن محلاً للشفاعة، فإن شملتهم رحمة الله بشفاعة أحد أو بغير شفاعة وإلا فليس
لهم إلا الندامة والعذاب .

وقد ورد في الأخبار أن البعض لا تاحقه الشفاعة إلا بعد ثلاث مائة سنة^(١)
فينبغي للعاقل أن يبادر الى التوبة في يومه قبل غده وفي ساعته قبل التي تليها .
وروي عن النبي ﷺ قال: ليس شيء أحب الى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة^(٢).

(١) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ٢٣١ ب ١٣٧ في بيانه لحدیث ١٦ .

(٢) بحار الانوار : ج ٦ ص ٢١ ب ٢٠ ح ١٥ .

وروي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال : إن الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدتهما ، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها^(١).

تكملة نافعة

إن كلمة الجهل اذا اطلقت إنما يراد عدم العلم ، وهذا المعنى هو الذي ينصرف الى الذهن عند سماعها ، سواء كانت النفس خالية عن العلم بالشيء أو معتقدة بالشيء خلاف ما هو عليه ، فإن كلا الأمرين يسمى جهلاً . ولا يمكن حمل الآية على أحد هذين الأمرين ، فإن الظاهر من الآية أن عامل السوء عالم بأنه سوء حين عمله وأنه مأمور بتركه وأنه يحتاج الى التوبة ، والأولى حمل الجهل على غير الأمرين وهو فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً ، فكان العامل للشيء يخرج نفسه من مقام العلم الى مقام الجهل ، أو يهبط بنفسه ويرجع بها من زمن الشريعة ووجود النبي المشرع الى زمن الجاهلية وعدم وجود النبي ، وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى : « قالوا اتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين »^(٢) فهو - أي العامل - يتجاهل مع كونه عالماً ، فهو قد حقر نفسه حيث أنزلها من مرتبة العلم الى هوة الجهل ، وترك ما يأمر به العقل واتباع ما تجرّ إليه الشهوة أو الغضب ونبذ ما ترشد إليه الشريعة المستمدة من الله والرجوع الى ما يفعله أهل الجاهلية كما في قوله : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى »^(٣).

فكل أمر من الامور التي يفعلها المسلم اذا كان تاركاً لحكمه الشرعي وفعله بخلاف ما حقه أن يفعل فقد رجع الى الجاهلية ، ولذا لما رأى بعض الادباء كثرة

(١) الكافي : ج ٢ ص ٣١٦ ح ٨ .

(٢) البقرة : ٦٧ .

(٣) الاحزاب : ٣٣ .

ما يركبه الناس من الخلاف بعد النبي ﷺ قال من جملة قصيدة :

والناس عادت إليهم جاهليتهم كأن من شرع الاسلام قد افكا^(١)

وقد يكثر هذا الفعل من بعض الناس فيترك أكثر الواجبات أو كلها ويفعل أكثر المحرمات أو كلها فيكون منسلخاً عن الشريعة وكأنه من أهل الجاهلية، أو أنه يفعل بعض الواجبات ولكن لا يأخذه عن النبي وإنما يفعله برأيه، ويستفاد هذا الأمر من قول النبي ﷺ: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية^(٢).

فهذا الكلام من النبي مطلق وشامل للعامل لبعض الواجبات والتارك لبعض المحرمات ، أو التارك لجميع الأحكام ولكنه يفعل ويترك برأيه أو برأي غير إمام زمانه ، وأن هذا الأمر الواحد يسبب للانسان الموت على الجاهلية ، أما الذي يعرف إمام زمانه اذا ارتكب محرماً أو ترك واجباً فيكون رجوعه الى الجاهلية وانسلاخه من الشريعة بالنسبة الى ذلك الفعل فحسب .

فالانسان العاقل اذا تأمل في الآية الشريفة وعرف المعنى والمغزى من قوله تعالى «بجهالة» لا ينبغي له أن يعمل سوءً ويفعل خلاف أمر الله ، فإنه بعمله هذا يخالف الله ويخرج نفسه عن الشريعة الاسلامية ويجعلها من الجاهليين، وهذه خطوة عظيمة الخطر لأنه لا يعلم أنه يوفق للتوبة أو لا يوفق ، فإذا مات على غير توبة لا يمكنه التدارك هناك .

والمقصود من الجاهلية هو المعنى الحقيقي لها وهو عدم العلم ، فإنها اذا اطلقت يراد منها الحالة التي كانت عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله ورسوله وشرايع الدين، والأعمال التي كانوا يعملونها كلها ناشئة عن هذا الجهل، ولو أنهم رجعوا الى العقل وحكمه لأرشدتهم الى الحسن ونهاهم عن القبيح، ولكنهم أهملوا العقل وحكمه إلا القليل منهم ، وأن الذي يجهل في هذا الزمان أشد عقاباً وأكثر لوماً لقيام الحجة عليه .

(١) الدر النضيد : ص ٢٤١ ، وهذا المقطع هو من قصيدة للسيد جعفر الحلبي .

(٢) سفينة البحار : ج ١ ص ٣٢ مادة «امم» .

ينبغي لكل أديب وليب أن يتأمل في كلمة النبي ﷺ التي مرت عليه قبل أسطر وهي قوله: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. فمن هو الامام الذي يقصده النبي ويلزم أمته بمعرفته؟ وهل يقصد كل من يتزعم على الناس بالقوة والقهر وإن كان فاسقاً فاجراً؟ كلاً وحاشا أن يعم كلامه مثل هذا، وإنما يقصد الامام الذي يأمر بالمعروف ويعمل به، وينهى عن المنكر وينتهي عنه، الامام الذي لا يجهل شيئاً من أحكام الدين يعرف الحلال والحرام، الامام الذي يعرف تأويل القرآن، الامام الذي لا يحتاج الى غيره في شيء من الأشياء.

أما الامام الذي يرتكب المحرمات ويترك الواجبات ويجهل الأحكام فينبغي للناس مقاطعته وهجرانه، فإن الله والرسول يريدان من الناس معرفة الامام العادل فعليك بمعرفته فإنك تنفع نفسك.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبن ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (١٩).

إن الله قد وجه النداء في هذه الآية الى المؤمنين و نهامهم عن أشياء كانوا يعملونها في الجاهلية، فأول شيء نهامهم عنه في قوله: «لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهأ»، وقد ذكرنا في معنى ذلك أقوالاً:

الأول: ما ذكر عن أبي جعفر عليه السلام واختاره جماعة هو أن يحبس الرجل المرأة عنده لاجابة له إليها و ينتظر موتها حتى يرثها فنهى الله تعالى عن ذلك ^(١).

الثاني: ما كان يعمله أهل الجاهلية وهو أن الرجل اذا مات وترك امرأة يأتى وارثه فيطرح الثوب على رأسها إن لم تكن أمه و يقول ورثت امرأته كما

ورثت ماله، فإن شاء تزوجها بالصداق الأول ولا يعطيها شيئاً، وإن شاء زوجها وأخذ صداقها، وهذا مروي أيضاً عن أبي جعفر واختاره جماعة^(١).

الثالث: ما روي عن الصادق عليه السلام وهو: أن الرجل تكون في حجره اليتيمة القريبة له فيمنعها من التزويج اضراً بها^(٢).

الرابع: ما قيل إن المعنى ليس لكم أن تسيؤوا صحبتهم ليفتدين بمالهن أو بما سقتم إليهن من مهورهن^(٣).

أما قوله تعالى: «ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتينكموهن» ففيه أقوال:
الأول: أن يكون المقصود منه الزوج، أمره الله بتخلية سبيل زوجته إذا لم يكن له فيها حاجة، ولا يمسكها اضراً بها حتى تفقد ببعض مالها^(٤).

الثاني: أن يكون المقصود بالنهي الوارث، نهى الله عن منع المرأة من التزويج كما كان يفعل أهل الجاهلية^(٥).

الثالث: أن يكون المقصود منه الولي، كما عن مجاهد^(٦).

الرابع: ما حكى عن ابن زيد إن المقصود منه المطلق يمنعها من التزويج، كما كانت تفعل قريش في الجاهلية، ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة، فإذا لم توافقه فارقها على أن لا تزوج إلا بإذنه، فيشهد عليها بذلك و يكتب كتاباً، فإذا خطبها خاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها، وإن لم تعطه عضلها، فنهى الله عن ذلك^(٧).

وهذه الوجوه التي ذكرت كلها حرمها الله فلا مانع من إرادتها كلها

من الآية .

أما قوله: «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» فهو استثناء من قوله: «ولا تعضلوهن» فإن العضل هو الحبس والمنع عن الزواج، وقد استثنى منه صورة إتيانهن بفاحشة.

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٤ .

(٢) تفسير البرهان: ج ١ ص ٣٥٤ .

(٣-٧) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٤ .

أما الفاحشة فقال بعضهم : هي الزنا ^(١) وقال بعضهم : النشوز ^(٢) . والمروى عن أبي جعفر أنها كل معصية ^(٣) وفي رواية عن الصادق عليه السلام إذا قالت له : لا أغتسل لك عن جنابة ، ولا أبر لك قسماً ، ولا وطن فراشك من تكرهه ، حل له أن يخلعها ويحل له ما أخذ منها ^(٤) .

أما قوله تعالى : «وعاشر وهن بالمعروف» فقد أمر الله الرجال بأن يعاشرُوا النساء بالمعروف ، وأن لا يميلوا في المعاشرة ميلاً يسبب للنساء خروجهن من طاعة الله وطاعة زوجهما ، فإذا كانت معاشرة الرجل لزوجته حسنة جميلة فإنها تهتدأ وتسكن ولا تعمل شيئاً يؤذي زوجها .

ولعل أمر الله الرجل بالمعاشرة بالمعروف بعد إتيان المرأة بالفاحشة المبيّنة ولذا وصفهم بالكراهة لهم فقال تعالى : «فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» .

والكراهة إنما تحدث بعد رؤيته منها ما يكره ، فهي وصية من الله للرجال بالصبر والتأني عن الطلاق وعدم المسارعة إليه ، ولعل هذا الصبر والتأني يكون سبباً للخير الكثير يأتي من هذه المرأة ، مثل ولد صالح أو كثرة النسل أو أنها هي نصير صالحة وتبدل أخلاقها ، وقد وردت أخبار كثيرة تأمر بالتأني عن الطلاق وعدم المسارعة إليه .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ^(٢٩) .

(١-٣) مجمع البيان : ج ٣ ص ٢٤ .

(٤) سفينة البحار : ج ١ ص ٤٠٨ مادة «خلع» .

قد عرفت فيما سبق أن المؤمن هو الذي صدق بالله ورسوله وعمل بما يأمران به من فعل أو ترك ، وفي صدر هذه الآية قد نهى الله المؤمنين أن يأكل بعضهم من أموال بعض بوجه باطل منهي عنه من قبل الله ، وهذا يشمل جميع الوجوه المحرمة التي تؤخذ من غير رضا أصحابها وإن لم يمنع صاحبه عن أخذه ولكنه غير راض . وذلك كالمال المأخوذ في الربا أو القمار أو الظلم بجميع أنواعه ، ولا يحل لكم التصرف بمال غيركم بجميع أنواع التصرف إلا عن طريق التجارة التي تكون بتراضي الطرفين البائع والمشتري ، أو بأحد العقود التي رخص فيها الشرع الشريف . وأما الأمور التي نهى عنها فيكون المال الذي يأخذه كل واحد من الآخر محرماً عليه ولا يجوز له التصرف فيه ، فإن تصرف به أو يبعضه فهو ضامن يجب عليه أن يرده إلى صاحبه ، فالمال المأخوذ من الربا والمأخوذ في القمار والذي يؤخذ ثمناً للخمر أو ثمناً لبيع آلة محرمة كالشطرنج وغيرها وثمر الكلاب التي تؤخذ للعب وما شابه ذلك هو مال حرام .

فإن كنت تعد نفسك مؤمناً فإن الله قد ناداك أولاً فعليك أن تجيب نداءه فتقول : لبيك اللهم وسعديك ، وبعد إجابتك له قد قال : لا يحل لك أن تأخذ المال بعنوان الربا فإذا أخذته لا يجوز لك التصرف فيه ويجب عليك أن ترده إلى صاحبه . فكأنني بك أيها العاصي تجيب ربك وتقول : إني أخذته ولا أردّه وأتصرف به وآكل وألبس وأشرب منه . ولكن إذا دهتك داهية تقول : يارب فرج عني وخلصني ، وإذا مرضت تقول : يارب شافني ، وإذا افتقرت تقول : يارب ارزقني فأنت في وقت الحاجة إليه تناديه يارب ، وإذا ناداك ونهاك عما يضرك لاتجيبه ولا تنتهي عما نهاك عنه . فهل يجوز ذلك في حكم العقل أو في حكم العرف الذي هو دون حكم العقل وأنت تحكم بعدم جوازه بالنسبة إلى غيرك فكيف تريد تطبيقه بالنسبة إلى نفسك ؟

روي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الرجل يكون عنده شيء يتبلغ به وعليه

دين أيطعمه عياله حتى يأتي الله تبارك وتعالى بميسرة، أو يقضي دينه، أو يستقرض على ظهره في خبث الزمان وشدة المكاسب، أو يقبل الصدقة و يقضي بما عنده دينه؟ قال : ويقبل الصدقة ولا يأخذ أموال الناس إلا وعنده وفاء بما يأخذ منهم أو يقرضونه الى ميسرته ، فإن الله يقول : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ** ، فلا يستقرض على ظهره إلا وعنده وفاء ، ولو طاف على أبواب الناس فردوه باللقمة واللقتين والتمرة والتمرتين ، إلا أن يكون له ولي يقضي دينه من بعده ، إنه ليس منا من ميت يموت إلا جعل الله له ولياً يقوم في عديته ودينه ^(١) .

أيها العبد المؤمن، اذا قرأت قول إمامك الصادق عليه السلام الذي يحكي لك عن رسول الله ﷺ عن الله تعالى يقول لك: لو طفت على الأبواب فأعطوك التمرة أو اللقمة خير لك من أن تستقرض وأنت ليس عندك وفاء لما تستقرض.

و أنت أيها المدعي للإيمان، تأتي الى أخيك المؤمن وتستقرض منه مقداراً من المال فيعطيك ولا يأخذ منك كتاباً لذلك و بعد ذلك تنكر المال ، و اذا طلب منك اليمين تحلف يمينا كاذباً وأنت تدعي الايمان وأنتك من الموالين لأهل البيت.

وقد روي عن النبي ﷺ قال: أربعة يؤذون أهل النار مع ما بهم من الأذى يقول أهل النار بعضهم لبعض ما بال هؤلاء الأربعة آذونا مع ما بنا من الأذى؟ ثم إن أهل النار يسألون الأربعة - الى أن قال النبي ﷺ : - أحدهم معلق بتابوت من حجر يجر أمعاءه ، فإذا سأله أهل النار: ما بال الأبعد قد آذانا مع ما بنا من الأذى؟ فيقول: إن الأبعد قد مات وفي عنقه أموال الناس لم يجد لها في نفسه أداء ولا وفاء ^(٢) .

هذا ما يتعلق بالشطر الأول من الآية .

(١) تفسير البرهان : ج ١ ص ٣٦٣ ح ٧

(٢) المواظ العديدة : ص ٢٠٥ .

وأما الشطر الآخر وهو قوله: «ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً»

فقد فسر بتفسير عديدة:

الأول: أن يقتل الإنسان نفسه في حال غضب أو حال ضجر بأن ينتحر بآلة قاتلة^(١).

الثاني: ما يسمى بالبخع، وهو الذي يصيبه ما يفضبه أو يغمه فيبقى متأسفاً متأثراً ولا يمتثل أمر الله بالصبر حتى يهلك نفسه جزعاً^(٢).

الثالث: ما يكون إشارة إلى صدر الآية، أي: لا تأكلوا أموال الناس بالباطل فتقتلوا أنفسكم، أي: تهلكوها في الآخرة بالدخول في نار جهنم. وأما في الدنيا فقد يتسلط عليكم ظالم فيأكل أموالكم كما أكلتم مال غيركم وكذا بالنسبة إلى بقية المعاصي الموجبة لدخول النار^(٣).

الرابع: ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام: أن معنى لا تخاطروا بنفوسكم في القتال فتقاتلوا من لا تطيقونه^(٤).

الخامس: ما في الصافي عن القمي: كان الرجل إذا خرج مع رسول الله ﷺ يحمل على العدو في الغزو وحده من غير أن يأمره رسول الله ﷺ، فنهى الله أن يقتل نفسه من غير أمره^(٥).

السادس: ما عن العياشي عن الصادق عليه السلام: كان المسلمون يدخلون على عدوهم في المغارات فيتمكن منهم عدوهم فيقتلهم كيف يشاء، فنهاهم الله أن يدخلوا عليهم في المغارات^(٦).

السابع: هو إلقاء النفس في التهلكة بكل قول أو فعل كان^(٧).

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٧.

(٢) تفسير المراغي: ج ٥ ص ١٩.

(٣) روح المعاني: ج ٥ ص ١٦ مع اختلاف يسير في الالفاظ.

(٤) مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٧.

(٥) تفسير الصافي: ج ١ ص ٤١٠.

(٦) تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٣٧.

(٧) لم نثر عليه.

الثامن: أن المراد من «أنفسكم» هي أنفس غيركم من المؤمنين من أهل دينكم، إن المؤمنين كنفس واحدة فمن قتل مؤمناً فقد قتل غيره وقتل نفسه^(١). وهذا الأمر الأخير هو أعظم الأمور المتقدمة لأن الله قد جعل عقابه الخلود في النار، ومع هذا فهو أكثرها وقوعاً في هذا العصر، لأن الناس قل إيمانهم وضعف فلا يتحرجون من قتل النفس، وقد يقتلون إنساناً لسبب تافه لا يستوجب قتلاً ولا ضرباً.

والسبب الثاني للاقدام على القتل هو عدم القصاص، فإن الحكومات الإسلامية قد تتركوا الحكم الذي أمر الله به في كتابه المنزل على نبيه وهم بزعمهم قد صدقوا بالرسول وبالكتاب، وقد ذكر الله لهم أن القصاص موجب لعدم وقوع القتل وعدم تكرره في قوله: «والكم في القصاص حياة يا أولي الألباب»^(٢) ومع ذلك تركوا الحكم بالقصاص ولم يأخذوا بهذه الحكمة الموجبة لرفع القتل وأخذوا بأقوال أعدائهم الكافرين و تابعوهم على أحكامهم، وأثبتوا بفعالهم هذا أنهم ليسوا بذوي عقول فإنه يقول: «يا أولي الألباب، فثبت بتركهم القصاص أنهم ليسوا من أولي الألباب. وقد نبهنا الله بعظيم رحمته بنابضه في آخر الآية «ان الله كان بكم رحيماً» أي: إن الله لا يحب أن يقتل المؤمن إلا في سبيل إحياء الدين والجهاد في سبيل الله حتى يعوضه الله الدرجات الرفيعة في الآخرة، ولا يرضى لعبده المؤمن أن يلقي نفسه في غير ما أمر الله به فيقتل عبثاً بلا فائدة تعود على الدين، فمن فرط رحمته بعباده المؤمنين نهاهم عن قتل أنفسهم.

وروى العياشي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سألت رسول الله ﷺ عن الجبائر تكون على الكسر كيف يتوضأ صاحبها وكيف يغتسل إذا أجنب؟ قال، يجزيه المسح بالماء عليها في الجنابة والوضوء، قلت: وإن كان في برد يخاف على نفسه إذا

(١) تفسير الميزان: ج ٤ ص ٣٢٠.

(٢) البقرة: ١٧٩.

أفرغ الماء على جسده؟ فقرأ رسول الله ﷺ: «ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً»^(١).

فقد أمر الله المسلمين في هذه الآية أن يحافظ كل فرد منهم على نفوس الآخرين وأموالهم، فإن أطاعوه فقد تمّ التصافي والتآخي وحصلت المودة والالفة، فلا يتمكن العدو من أخذ شيء من الأموال كما لا يتمكن من الاعتداء على النفوس وأصبح المسلمون كلهم في راحة وأمان ولكنهم لا يريدون لأنفسهم ما أراد الله لهم من الهناء والصلاح والطمئنان، فمن خالف أمر الله وعامل الناس بعكس ما أرشده الله إليه من حفظ النفوس والأموال وفعل ما نهى الله عنه من الأمور التي تقدم ذكرها فإنما يريد قبل نفسه وهلاكها بسوء اختياره واستحق من العذاب ما ذكره الله بقوله :

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً (٣٠).

أسمعت أيها المؤمن ما قال الله لك؟ إنه بعدما ناداك بصفة هي أحب صفات عباده إليه بيتن لك أمرين رئيسيين هما من أهم الأمور الهدامة للمجتمع ونهاك عنهما وهما الاعتداء والظلم في الأموال والنفوس، فنهاك عنهما نهياً مؤكداً، وتوعذك النار على مخالفة ما بيّنه لك، ونهاك عن التصرف بمال غيرك .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية لما نزلت توقف المؤمنون الذين كانوا في زمن الرسول عن الأكل من بيوت أحد أقاربهم وتأبّوا عن ذلك وقالوا: إن الأكل بغير أمر تجاري لا يجوز لنا، إلى أن نزل قوله: «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من

بيوتكم أو بيوت آبائكم... الخ الآية^(١).

و أنتم أيها المسلمون في هذا العصر لا ترضون من الناس أن تأخذوا منهم من المال ما فرضتم أخذه ظلماً فحسب وإن كان مخالفاً للقرآن، وإنما يريد بعض الموظفين زيادة على ما قرره القانون، يريد الرشوة التي يعتبر عنها في الأخبار بالكفر. فاعرف أيها المسلم في أي محل أنت من المسلمين؟ وماذا التزمت من قانون الاسلام والقرآن؟

ثم أخبرنا الله تعالى بقوله : «وكان ذلك على الله يسيراً» أي: أن إحراق هذا الظالم - الذي يعتدي على أموال الناس وعلى نفسه أو أنفس الناس فيقتلها - يسير على الله، وأن الرحمة التي ذكرها الله لكم بقوله : «إن الله كان بكم رحيماً» لا تشمل هذا الانسان المعتدي على أموال الناس و أكلها بالباطل، فإن جسمه الذي نبت على الحرام النار أولى به وليس له محل غير النار، ولو لم يكن جسده مستحقاً للنار لا يعذبه الله أبداً، إذ تعذيب غير المستحق لا يصدر من الله ولذا قال: إن تعذيب آكل الحرام يسير عليه، أي: ليس مخالفاً لرحمته ورأفته على العباد وهو يريد الرحمة لهم في كل وقت و لكن العبد هو يلقي بنفسه في الهلكة، فينبغي له أن يتبصر في هذه الآية وأمثالها فإنها كثيرة في القرآن.

قوله تعالى: ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً (٣١).

هذه الآية الشريفة تدل على أن الأمور التي نهى الله الناس عنها فيها كبائر وغير كبائر، وغير الكبائر عبث الله عنها في هذه الآية بالسيئات، و في غير هذه الآية بالصغائر، و في كلام المفسرين و الفقهاء أن الذنوب منها كبائر

وصفائر .

وقال بعضهم : إن كل معصية كبيرة بالنسبة الى جرأة العبد مع الله ولكن الكبر والصغر إنما هو بنسبة بعضها لبعض، ثم اختلفوا في تشخيص الكبائر أي قسم منها ؟ فقال بعض : هي ما ذكرت في القرآن . وقال بعض : هي ما توعد الله عليها النار ، وقالوا غير ذلك ^(١) .

والأخبار كذلك مختلفة، وأنا أذكر لك رواية عن الامام الصادق عليه السلام يعدها فيها قسماً ويستدل بالكتاب والسنة كما طلب منه السائل ذلك .

قال في مجمع البيان : وروي عبدالعظيم بن عبدالله الحسني عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه علي بن موسى الرضا عن موسى بن جعفر عليه السلام قال : دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فلما سأم وجلس تلا هذه الآية والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش، ^(٢) ثم أمسك فقال أبو عبدالله عليه السلام : ما أسكتك ؟ قال : احب أن أعرف الكبائر من كتاب الله، قال : نعم يا عمرو أكبر الكبائر الشرك بالله ، يقول الله عز وجل : **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ»** ^(٣) وقال : **«مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ»** ^(٤) . وبعده اليأس من روح الله لأن الله يقول : **«لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»** ^(٥) .

ثم الأمن من مكر الله لأن الله يقول : **«فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ»** ^(٦) . ومنها : عقوق الوالدين لأن الله تعالى جعل العاق جباراً شقيماً في قوله :

(١) تفسير الميزان : ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٢) الشورى : ٣٧ .

(٣) النساء ٤٨ .

(٤) المائدة : ٧٢ .

(٥) يوسف : ٨٧ .

(٦) الاعراف : ٩٩ .

«وَبِرَّآءٍ بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيئاً»^(١).

ومنها : قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأنه يقول : «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها»^(٢).

وقذف المحصنات لأن الله يقول : «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم»^(٣).

وأكل مال اليتيم ظلماً لقوله : «الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً»^(٤).

والفرار من الزحف لأن الله يقول : «ومن يؤلفهم يؤمّنون معه إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير»^(٥).

وأكل الربا لأن الله يقول : «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»^(٦) ويقول : «فإن لم تفعلوا فائذنوا بحرب من الله ورسوله»^(٧).

والسحر لأن الله يقول : «ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق»^(٨).

والزنا لأن الله يقول : «ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً»^(٩).

(١) مريم : ٣٢.

(٢) النساء : ٩٣.

(٣) النور : ٢٣.

(٤) النساء : ١٠.

(٥) الانفال : ١٦.

(٦) البقرة : ٢٧٥.

(٧) البقرة : ٢٧٩.

(٨) البقرة : ١٠٢.

(٩) الفرقان : ٦٨ و ٦٩.

واليمين الغموس لأن الله يقول : «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة»^(١).

والغلول قال الله : «ومن يغفل يأت بما غل» يوم القيامة^(٢).

ومنع الزكاة المفروضة لأن الله يقول : «يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم»^(٣).

وشهادة الزور و كتمان الشهادة لأن الله يقول : «ومن يكتمها فإنه آثم قلبه»^(٤).

وشرب الخمر لأن الله تعالى عدل بها عبادة الأوثان .

وترك الصلاة متعمداً وشيئاً مما فرض الله تعالى لأن رسول الله ﷺ يقول : من

ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة الله وذمة رسوله .

و نقض العهد وقطيعة الرحم لأن الله يقول : « أولئك لهم الملعنة و لهم سوء

الدار»^(٥).

قال : فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم

في الفضل والعلم^(٦).

إذا قرأت أيها المسلم هذه الامور فتذكر أن الله قد ناداك قبل هذه الآية ووصفك

بالايمان ونهاك عن امور تقدم ذكرها ، وأهم هذه الامور هو ما ذكره الله بقوله :

«لأننا كلوا أموالكم بينكم بالباطل»^(٧) ونهاك عن قتل نفسك وقتل أحد من المؤمنين

أما قتل نفسك فإنما يتحقق بارتكاب الجرائم والأفعال المحرمة ، وأما قتل غيرك

(١) آل عمران : ٧٧ .

(٢) آل عمران : ١٦١ .

(٣) التوبة : ٣٥ .

(٤) البقرة : ٢٨٣ .

(٥) الرعد : ٢٥ .

(٦) مجمع البيان : ج ٢ ص ٣٩ .

(٧) النساء : ٢٩ .

فيكون إما بآلة أو أنك تسبب له القتل بأحد الأسباب .

وفي هذه الآية يقول لك رحمة بك ورأفة عليك: يا أيها المسلم المؤمن اذا تجنبت الكبائر من المعاصي - أي اذا ابتعدت عنها ولم تركبها وتركت الامور العظام التي نهاك الله عنها وصدرت عنك بعض السيئات الطفيفة التي لا تضر بها إلا نفسك ولم تكن مصراً عليها ولم يكن فيها ضرر على غيرك و تبت الى الله منها - فإن الله سيغفرها لك ويكفرها عنك ويمحوها من صحيفةك، فإذا غفرت لك تكون العاقبة كما قال الله : « و ندخلكم مدخلا كريماً » وهي الجنة إذ ليس في الآخرة مدخلا إلا الجنة أو النار، والجنة هي المدخل الكريم فلا تبخل بالجنة على نفسك ولا تدخلها النار .

قوله تعالى : ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليماً (٣٢) .

ذكر في مجمع البيان في سبب نزول الآية ما لفظه: قيل: جاءت وافدة النساء الى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أليس الله رب الرجال والنساء وأنت رسول الله إليهم جميعاً فما بالنا يذكرك الله الرجال ولا يذكركنا؟ نخشى أن لا يكون فينا خير ولا لله فينا حاجة فنزلت هذه الآية .

وقيل: إن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث ، فليتنا رجال فنغزو و نبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت الآية عن مجاهد .

وقيل : لما نزلت آية الميراث قال الرجال: نرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث فيكون أجرنا على الضعف من

أجر النساء ، وقالت النساء: إنا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف عن نصيبهم في الدنيا. فنزلت الآية^(١) انتهى ما في المجمع .

إذا عرفت ما ذكر في نزول الآية فإن الذي يستفاد من كلام المفسرين أمور:
الأول: أنه لا يجوز للمسلم أن يتمنى ما يكون عند غيره له، أي: ما يكون عند غيره يتمنى أن يكون له لا لذلك الشخص. فقد روي عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: لا يقل أحدكم ليت ما أعطي فلان من المال والنعمة والمرأة الحسناء كان لي فإن ذلك يكون حسداً، ولكن يجوز أن يقول: اللهم أعطني مثله^(٢). فعلى هذا يكون النهي عن الحسد لأن الحسد يفعل بصاحبه ما فعل بآدم القاتل لأخيه.
الثاني: أن يكون النهي عن أن يتمنى الإنسان أن يكون على غير الحالة التي هو فيها، كأن يتمنى الرجل أنه لو كان امرأة وتتمنى المرأة أنها لو كانت رجلاً لأن الله لا يفعل إلا ما هو الأصلح، ويكون المتمنى تمنى ما ليس بأصلح، وهذان الأمران من الأمور التي تكون في الدنيا فيكون قوله: «للرجال نصيب مما اكتسبوا» وللنساء نصيب مما اكتسبن» معناه أن لكل من الرجال والنساء الحظ أو السهم الذي يحصل بسبب التكسب والتجارة لا ما يحصل بالتمنى والحسد .

ثم بين لهم وأرشدتهم أنكم إذا أردتم الزيادة والتوسع ف«اسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليماً» ، فإذا كانت الزيادة والسعة فيها صلاح لكم أعطاكم ، وإذا كان صلاحكم بعكس ذلك فيلزمكم الرضا بقضاء الله .

الثالث: أن يكون التمني لأمر آخر ذي كما تتمنى النساء أن يكن رجالاً لكي يغزون فيحصلن على الأجر ، وكتمنى الرجال أن يكون لهم ضعف جزاء المرأة في الآخرة، فهذا ليس فيه حسد ولا يؤول إلى أمر محرم ولكنه تمنى، وقد

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٤٠ .

(٢) تفسير البرهان : ج ١ ص ٣٦٦ .

عرف التمني أنه طلب ما لا طمع في وقوعه فيكون للرجال نصيب مما كسبوا، إن الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - إنما له نصيبه مما عمله في الدنيا من الأعمال الحسنة ولا تكون الزيادة في التمني ، ومن أراد الزيادة يسأل الله من فضله .

والذي حصل لنا من الآية : بالنسبة الى النعم الدنيوية فيلزم أن لا يتمنى الانسان أن يكون له مال غيره ولا يحسد أحداً على ما أعطاه الله ، وأن يرضى بما قسم الله له، وأن يكون طلبه من الله الرزق للعباد. وأما بالنسبة الى النعم الاخرية أن يعمل بما أمر الله به وأن يزداد أعمالاً ، وأن يعتمد على الله ويطلب من فضله، وأن يعتقد بأن الله لا يفعل إلا ما هو الصالح لعبده، وأن كل إنسان إنما يكون نصيبه من الثواب بمقدار ما اكتسبه من أعمال الخير والفضل بيد الله .

وفي الصافي عن الخصال عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: من تمنى شيئاً وهو لله تعالى رضاء لم يخرج من الدنيا حتى يعطى. وفيه عن الفقيه عن النبي صلى الله عليه وآله : إن الله تعالى أحب شيئاً لنفسه وأبغضه لخلقه، أبغض عز وجل لخلقه المسألة وأحب لنفسه أن يسأل وليس شيء أحب إليه من أن يسأل، فلا يستحي أحدكم أن يسأل الله عز وجل من فضله ولو شجع نعل.

وفيه عن الكافي عن الصادق عليه السلام : من لم يسأل الله من فضله افتقر. وفيه عن الكافي والعياشي عن الباقر عليه السلام: ليس من نفس إلا وقد فرض الله لها رزقاً حلالاً يأتيها في عافية، وعرض لها بالحرام من وجه آخر، فإن هي تناولت شيئاً من الحرام قاصتها به من الحلال الذي فرضه لها، وعند الله سواهما فضل كثير وهو قول الله عز وجل: «واسألوا الله من فضله» .

وفيه عن الصادق عليه السلام : إن الأرزاق مضمونة مقسومة ، والله فضل يقسمه من طلوع الفجر الى طلوع الشمس وذلك قوله تعالى: «واسألوا الله من فضله»، ثم قال:

وذَكَرَ اللهُ بعدَ طلوعِ الفجرِ أبلغَ في طلبِ الرزقِ من الضربِ في الأرضِ^(١).
وعلى كلِّ حالٍ إمّا أن يكونَ التمنيُّ المنهَى "عنه المحسود عليه صاحبه قد
حصل لصاحبه بالتكسب والتجارة فلا ينبغي للمؤمن أن يحسده عليه ويتمنى انتقاله
إليه، وإمّا أن يكونَ قد جاءه بالارث ويكونَ ذلكَ المتمنى لا إرثَ له أو أنه أقلُّ
نصيباً وفرضاً من هذا، فينبغي له أن يرضى بقسمة الله ولا يفضّ و لا يحسد صاحب
السهم الأكثر.

وقد أكّد الله الأمر بالآية التي بعد هذه الآية أي أنه عيّن لكلِّ إنسان يموت
من يرثه من أقاربه ولا يجوز التعدي عن عيّنه الله فقال تعالى:

ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت
أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كلِّ شيء شهِيداً (٣٣).

هذه الآية الشريفة تعرف الناس أن كلَّ إنسان يموت رجلاً كان أو امرأة،
فإن الله قد جعل وارثه الذي يرث أمواله معيّناً معلوماً إمّا واحداً أو أكثر، وقد
جعلهم طبقات لأسهم للطبقة المتأخرة مع وجود المتقدم، ولكل واحد من الطبقة
الواحدة فرض معيّن ولا يجوز التعدي والأخذ أكثر ممّا عيّنه الله لكل واحد،
ولا يجوز لأحد إدخال نفسه في طبقات الارث والأخذ منه.

ولو كان قوياً لا يقدر أحد على رده فليعلم أن الله أقوى منه وأشدّ بأساً،
فلماذا يتحمل هذا الائم العظيم وهو يأخذ هذا السهم ويجعله في صندوق المال
فيكون الائم عليه وهو المسؤول عنه؟ أي: الذي أسس هذا القانون والذي أمضاه
وصدّقه وأبقاه وهو يقدر على زواله. فلا ينبغي لأحد أن يطمع في إرث من ليس
له فيه نصيب لأنّ عاقبته النار وبئس المصير. هذا بالنسبة إلى ما تضمنه صدر الآية.

وأما قوله: «والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم» فقد ذكر المفسرون أن الرجل في الجاهلية كان يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، و حربى حربك، وسلمى سلمك، وترتني وأرثك، و تعقل عني وأعقل عنك. فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف، فأمر الله بإعطاء حظهم بقوله «فآتوهم نصيبهم» ثم نسخ ذلك بقوله: «وادلوا الأرحام بعضهم أولى ببعض»^(١).

ثم قال تعالى: «إن الله كان على كل شيء شهيداً» هذه الجملة التي ختم الله بها الآية فيها وعد ووعد، وعد للمطيع الذي لا يتجاوز الحدود التي بينها الله في الارث و لا يزيد أو ينقص من السهام لذويها، ولا يسرق شيئاً إن كان وصياً عن الميت أو قتيماً على الصغار، أو كان حاكماً أو قاضياً وقد تسلط على المال فإن الله يجازيه على أمانته وتقواه. وفيها وعيد لمن يرتكب أحد هذه الأمور ويسرق أو ينهب أو يغصب شيئاً من أموال الوارثين. أما إذا كانوا صغاراً فإن العذاب يكبر ويكثر، فيلزم على المسلم أن يتورع ويجتنب مال اليتيم ولا يأخذ منه شيئاً فإن الله هو الشهيد عليه.

قوله تعالى: الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع و اضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ان الله كان علياً كبيراً (٣٤).

الآيات التي ذكرت في هذا الكتاب في وصف المؤمنين وهي نعم النساء في أغلب الأمور إلا ما يكون مختصاً بالرجال. و هذه الآية تختص بالنساء و تبين

أوصافهن* وتجدد الصالحات منهن، فقد ذكر في الآية أول الأمر أن الرجال قوامون على النساء، أي: أنهم مسيطرون عليهن* في التدبير والتأديب والرياضة والتعليم.

فقد ذكروا أنها نزلت في سعيد بن الربيع بن عمرو وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير وهما من الأنصار، وذلك أنها نشرت عليه فلعطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلعطمها، فقال النبي ﷺ: لتقتص* من زوجها، فانصرفت مع أبيها لتقتص* منه، فقال النبي ﷺ: ارجعوا فهذا جبرائيل أتاني وأنزل الله هذه الآية. فقال النبي ﷺ: أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خيراً ورفع القصاص. وقال الكلبي: نزلت في أسعد بن الربيع وامرأته خولة بنت محمد بن مسلمة، وذكر القصة نحوها^(١).

وقد ذكر الله سبب التولية عليهن* في هذه الأمور بقوله: «بما فضل الله بعضهم على بعض، أي: إنما ولّاهم الله أمرهن* لما لهم من زيادة الفضل عليهن* بالعلم والعقل وحسن الرأي والعزم وبما أنفقوا من أموالهم، عليهن* من المهر والنفقة، كل ذلك بيان علة تقويتهم عليهن* وتوليتهم أمرهن*».

وهذا من فضل الله ورحمته على المرأة أن كلف الرجل ليكون قيمًا عليها ويتولى قضاء حوائجها وإكمال أمورها الكلية والجزئية، وأن يدفع لها المهر عند الزواج لتهدئ لنفسها كلما تحتاج من أثاث البيت دفعة واحدة، ولا تطلب من الزوج كل يوم حاجة قد لا يتمكن من شرائها فتبقى متحيرة، وإذا انتقلت إلى بيت زوجها الكامل المؤثث فإن الزوج هو المكلف بجلب ما تحتاج إليه الزوجة من الطعام والشراب والكسوة، وإذا فقد شيء من الأثاث فهو المكلف بشراء بدله، وإذا احتاجت شيئاً جديداً فهو الملزوم بشرائه، وهكذا يبقى مكلفاً في كل يوم وليلة مدة عمره ومدة عمرها لها ولأولادها وهي غير مكلفة بشيء من هذه الأمور، كل

ذلك حفظاً للمرأة وصوناً لها وحباً لراحتها وتكريماً لها لئلا تقع في مشقة الطلب والكد والكدر والأشغال الشاقة التي تسبب السفر أو التبرج .

ثم بعدما ألزم الله الرجال بهذه الأمور الشاقة وكلفهم بالكسب والسعي في الأرض والحصول على المعيشة ذكر أوصاف المرأة الصالحة وهو يريد من كل امرأة أن تكون صالحة كما يريد من كل رجل أن يكون صالحاً فقال تعالى في وصف المرأة الصالحة: « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » وصف الله النساء الصالحات بوصفين:

الأول: أن يكن قانتات، أي: مطيعات لله ولأزواجهن كما ذكره المفسرون^(١) فإطاعة الزوج مع طاعة الله شرط للصلاح في الرجال والنساء، وإطاعة الزوج مع طاعة الله شرط في صلاح النساء، فالمرأة إذا عصت زوجها في الأمور الغير محرمة فهي من غير الصالحات. نعم إذا أمرها بشيء محرم قد حرمه الله عليها فلا أمر له ولا يستحق الإطاعة لأن أمر الله مقدم على أمره فإذا أمر الله بترك السفر أو التبرج فليس للزوج أن يأمر بفعله، فإذا أمر بذلك لزم على الزوجة عصيانه وعدم إطاعته. وكذا إذا أمرها بترك الواجب من الصلاة والصيام والزكاة وأمثال ذلك فهي مأمورة بإطاعة زوجها في غير المحرم.

وأما الوصف الثاني للصالحات، فهو ما ذكره الله تعالى: « حافظات للغيب » أي: إذا غاب الزوج عن زوجته - وليس المقصود من الغياب هو السفر إلى البلاد النائية فقط بل المقصود إذا خرج الزوج إلى العمل ليحصل على المعيشة التي كلفه الله بها وترك زوجته في الدار - لزم على الزوجة أن تحفظه في أمرين:

الأول: الحفظ في ماله، أي: لا تسرق منه ولا تبذره فيه ولا تعطي منه لأحد من غير إذنه، وأن تحافظ عليه من كل ما يضر به .

والأمر الثاني: هو المحافظة على نفسها بجميع أنواع المحافظة، وليس المقصود منه الزنا فقط، بل تحافظ على عفافها وسترها، فلا تكشف وجهها أمام

الأجنبي ولا يدها ولا ترفع صوتها ولا تكشف أسرارها لأحد حتى لا تمها وأبيها واختها، فإذا اتصفت بذلك فقد حفظته في غيبته .

وهذه الصفة - أي : حفظ الزوج في غيبته في المال وفي نفسها - وإن كانت من حقوق الزوج ولكنها حقاً لله قبل كونها من حق الزوج ، فلوا فرض وجود زوج لا غيره له ولا حمية وأنه يرضى لزوجته أن تفعل ما تشاء ونشتهي فليس رضا الزوج يجوز لها ذلك بل هو محرم أشد الحرمة ، وإنما جعله الله حقاً للزوج لأنه يتأذى ويتأثر بفعله ، وقد جعل الله له الحق في عقابها على ذلك كما يأتي بالآية التي بعدها .

فإذا اتصفت المرأة بهذين الوصفين وهي كونها من القانتات ومن الحافظات تكون حينئذ من الصالحات، فإذا أرادت المرأة أن تحشر يوم القيامة مع الصالحات كحواء ومريم وفاطمة وآسية زوجة فرعون فلتتصف بالصفتين ولا تغرها الحياة الدنيا ، فإن آسية بنت مزاحم زوجة فرعون الطاغية المتجبر على الله كانت الدنيا بيدها ويد زوجها وكانت هي مؤمنة متصفة بجميع صفات الإيمان . ولما أحسن بها زوجها أنها لا تعترف بربوبيته وأنها مؤمنة توحيد الله عذبها بأنواع العذاب فلم يشنها عن مبدئها وماتت تحت العذاب . فكوني كذلك أيتها المسلمة حتى تحشري مع أزواج النبي الصالحات وتدخل الجنة فإن فيها النعيم الذي لا انقطاع له . وقد روي عن النبي ﷺ قال: ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسره إذا نظر إليها ، و تطيعه إذا أمرها ، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله ^(١) .

ثم بعد وصف الله الصالحات بهذين الوصفين الخفيفين اللذين ليس فيهما مشقة ولا شدة فإن الأمر الثاني - وهو الحفظ في ماله ونفسها - عبارة عن عدة تترك كترك السفور وترك التبرج، وترك مخالطة الأجنبي، وترك رفع الصوت بالكلام، وترك

سرقة المال و تبذيره . ولعل الأمر الأول - وهو إطاعة الزوج - يرجع الى هذه التروك ، فإن الزوج المسلم لا يريد من زوجته المسلمة إلا هذه التروك .

فإن الله بعدما طلب من المرأة أن تتصف بهذين الوصفين ذكرها ببعض نعمته عليها حتى تكون شاكرة لنعمه بإطاعة أمره الذي يجعلها من الصالحات فتصل نعم الآخرة بنعم الدنيا ، فلا ترى بؤساً ولا ألماً ولا مشقة في الدنيا ولا في الآخرة ، فقال تعالى : **وبما حفظ الله ، أي : كما أن الله حفظ للنساء المهر على الرجال فرضه لهن ، و كما ألزم الرجال بالنفقة عليهن مدة العمر و كما حفظ لهن التوفيق لحفظ أزواجهن بالغيب ، فإن الله هو الموفق لكل خير ، فينبغي للنساء أن يحافظن على الوصفين المذكورين حتى يكن من الصالحات .**

ولا يخفى أن أحب الصالحات الى الله وأنفعهن للمجتمع اذا كن من ذوات العلم والأدب ، كما أن أنفع الرجال الصالحين أهل العلم ، فإن المرأة ذات العلم والأدب التي تدرس الطالبات وتعلمهن اذا كانت من الصالحات المطيعة لأوامر الله سوف تربي الطالبات تربية دينية صحيحة وتعلمهن القرآن وتختار لهن من القرآن الآيات التي تهذب المرأة التي تأمرها بالعفة والحجاب واجتناب الاختلاط مع الرجال ، فإن الاختلاط بغير الصالحين من الرجال مفسد للمرأة لأن الرجل الغير الصالح حكمه حكم الشيطان ، وأن الشيطان يوحى إليه من الامور ما يخدع به المرأة فيخرجها عن طاعة الله وطاعة زوجها ويسبب لها دخول النار ، ولا طاقة لهذا الخلد الناعم على تحمل النار ، أعاذ الله المسلمين منها .

ثم بعدما أمر الله الرجال بالانفاق على المرأة في كل ما تحتاج إليه مما تتوقف عليه الحياة ، وأمر النساء بإطاعة الأزواج والحفظ لهم في الغيبة ، وهو يعلم أن النساء لا يتصفن كلهن بالصلاح وأن بعض النساء لا يطعن ولا يحفظن ، فالرجل بالنسبة الى هذه المرأة العاصية لا يكون مكلفاً بالقيام بجميع واجباته ، يشن

الله له ما يعمل به تجاه هذه المرأة العاصية حتى ترجع الى الطاعة فقال تعالى :
«واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن».
 أي : المرأة التي لا تقوم بواجبها من إطاعة ربها وإطاعة زوجها وحفظه في
 ماله ونفسها فهذه تسمى ناشزاً، فإذا أراد زوجها أن يرجعها الى طاعته يلزمه قبل
 كل شيء أن يعظها ، أي : يذكّرها بأوامر الله ونواهيه وبعقاب الله على المعصية،
 فإن لم تنفع معها الموعظة يهجرها في المضجع ، أي : لا يضاجمها ولا ينام معها في
 فراش واحد ولا يجامعها ، فإن لم ينفع ذلك معها يضربها ضرباً غير مبرح ، أي :
 لا يؤثر في لحم ولا في عظم ، كما روي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال: هو الضرب
 بالسواك ^(١).

فيكون طريق إعادة المرأة الى الطاعة له ثلاث مراتب :

الأول : الموعظة .

الثاني : الهجران في المضاجع .

الثالث : الضرب .

أما الاول : فأغلب الناس لا تعرفه، فإن العوام والعمال والكسبة لا يعرفون
 ولا يحفظون رواية واحدة في هذا الموضوع، وأما غيرهم ممن دخل المدارس وحصل
 على وظيفة فإنه قد يحفظ الكثير من أحكام القانون المدني ولكنه لا يعرف شيئاً
 من امور الدين ، فرأيت الأنسب أن أقوم بهذا الأمر ، ولعل من تريد الانتفاع
 بمواعظ الله والرسول وتحب أن تتأدب بأداب القرآن أن ترجع الى ما أذكره
 لها هنا .

روي أن امرأة جاءت الى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ما حق الزوج
 على المرأة ؟ فقال : تطيعه ولا تعصيه، ولا تصدق من بيته بشيء إلا بإذنه، ولا تصوم
 تطوعاً إلا بإذنه، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة

السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب و ملائكة الرحمة حتى ترجع الى بيتها ،
فقلت : يا رسول الله من أعظم النساء حقاً على الرجل ؟ قال : والدته ، قالت : فمن
أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها ، قال : فما لي عليه من الحق مثلما
له علي ؟ قال : لا ، ولا من كل مائة واحد ، فقلت : والذي بمنك بالحق لا يملك
رفعتي رجل أبداً ^(١) .

وقال النبي ﷺ : أيما امرأة آذت زوجها بلسانها لم يقبل الله منها صرفاً
ولا عدلاً ولا حسنة من عملها حتى ترضيه وإن صامت نهارها وقامت ليلها وأعتقت
الرقاب وحملت على جياذ الخيل في سبيل الله وكانت أول من يرد النار ، وكذلك
الرجل اذا كان لها ظالماً ^(٢) .

وقال النبي ﷺ : أيما امرأة لم ترفق بزوجها وحملته على ما لا يقدر عليه
وما لا يطيق لم يقبل منها حسنة وتلقى الله وهو عليها غضبان ^(٣) .
وزوج رسول الله امرأة من رجل فرأت منه بعض ما كرهت فشكت ذلك
الى النبي ﷺ ، فقال : لعلك تريدن أن تختلمي فتكوني عند الله أنتن من جيفة
حمار ^(٤) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : ليس للمرأة مع زوجها أمر من عتق ولا صدقة ولا
تدير ولا هبة ولا نذر ولا حج أو زكاة أو بر أو الديها أو صلة قرابتها من مال زوجها
إلا بإذنه ^(٥) .

وعن رسول الله ﷺ قال : حق الرجل على المرأة إفارة السراج وإصلاح
الطعام ، وأن تستقبله عند باب بيتها فترحب به ، وأن تقدم إليه الطشت والمنديل
وأن توضئه ، وأن لا تمنعه نفسها إلا من علة ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام قال : إن قوماً أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله

إنا رأينا اناساً يسجد بعضهم لبعض ، فقال رسول الله : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ^(١).

وقال النبي ﷺ : لا تؤدي المرأة حق الله عز وجل حتى تؤدي حق زوجها ^(٢).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله عز وجل كتب على الرجال الجهاد وعلى النساء الجهاد ، فجهاد الرجل أن يبذل ماله ودمه حتى يقتل في سبيل الله ، وجهاد المرأة أن تصبر على ما ترى من أذى زوجها وغيره ^(٣).

وقال أبو جعفر عليه السلام : إن الناجي من الرجال قليل ومن النساء أقل ^(٤).

وفي حديث آخر قال عليه السلام : جهاد المرأة حسن التبعل ^(٥).

وقال عليه السلام : أيما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حق لم تقبل منها صلاة حتى يرضى عنها ^(٦).

وقال رسول الله ﷺ : أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها فلا نفقة لها حتى ترجع ^(٧).

وقال ﷺ : أيما امرأة تطيبت لغير زوجها لم يقبل منها صلاة حتى تغتسل من طيبها كفسلها من جنابتها ^(٨).

وقال ﷺ : أيما امرأة قالت لزوجها ما رأيت منك خيراً قط إلا حبط عملها ^(٩).

وعن أنس بن مالك قال : خرج رجل غازياً في سبيل الله وأوصى امرأته أن لا تنزل من فوق بيته الى حين يقدم ، وكان والدها في أسفل البيت فاشتكى ، فأرسلت الى رسول الله ﷺ تخبره وتستأمره ، فأرسل إليها أن انقي الله وأطيعي زوجك ^(١٠).

وروي أن رجلاً من الأنصار على عهد رسول الله ﷺ خرج في بعض حوائجه

فعهد الى امرأته عهداً أن لا تخرج من بيتها حتى يقدم ، ثم إن أباه مرض فبعثت المرأة الى رسول الله ﷺ وقالت : إن زوجي خرج وعهد إلي أن لا أخرج من بيتي حتى يقدم وإن أبي مرض أفتأمرني أن أعوده ؟ فقال : لا ، اجلسي في بيتك وأطبعي زوجك ، قال : فمات أبوها فبعثت الى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن أبي قد مات أفتأمرني أن أحضره ؟ فقال : لا ، اجلسي في بيتك وأطبعي زوجك ، فدفن الرجل فبعث إليها رسول الله ﷺ إن الله تبارك وتعالى قد غفر لك ولأبيك بطاعتك لزوجك ^(١).

وروى المجلسي عن عيون أخبار الرضا عن الوراق عن محمد الأزدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني عن محمد بن علي الرضا عن آباءه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : دخلت أنا وفاطمة علي رسول الله ﷺ فوجدته يبكي بكاء شديداً فقلت : فداك أبي وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاك ؟ فقال : يا علي ليلة اسري بي الى السماء رأيت نساء من أمتي في عذاب شديد فأنكرت شأنهن ، فبكيت لما رأيت من شدة عذابهن .

رأيت امرأة معلقة بشعرها يغلي دماغ رأسها ، ورأيت امرأة معلقة بلسانها والحميم يصب في حلقها ، ورأيت امرأة معلقة بشديها ، ورأيت امرأة تأكل لحم جسدها والنار توقد من تحتها ، ورأيت امرأة قد شدت رجلاها الى يديها فقد سلط عليها الحيات والعقارب ، ورأيت امرأة صماء عمياء خرساء في تابوت من نار يخرج دماغ رأسها من منخرها وبدنها متقطع من الجذام والبرص . ورأيت امرأة معلقة برجليها في تنور من نار ، ورأيت امرأة يقرض لحم جسدها من مقدمها ومؤخرها بمقاريض من نار ، ورأيت امرأة يحترق وجهها ويدها وهي تأكل أمعاءها ، ورأيت امرأة رأسها رأس خنزير وبدنها بدن الحمار وعليها ألف ألف لون من العذاب ، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل في جوفها وتخرج

من فيها والملائكة يضربون رأسها وبدنها بمقامع من نار ، فقالت فاطمة : حبيبي وقره عيني أخبرني ما كان عملهن وسيرتهن حتى وضع الله عليهن هذا العذاب؟ فقال : يا بنتي أما المعلقة بشعرها فإنها كانت لا تغطي شعرها من الرجال ، وأما المعلقة بلسانها فإنها كانت تؤذي زوجها ، وأما المعلقة بشديها فإنها كانت تمنع من فراش زوجها ، وأما المعلقة برجليها فإنها تخرج من بيتها بغير إذن زوجها ، وأما التي كانت تأكل لحم جسدها فإنها كانت تزين بدنها للناس ، وأما التي شد يداها الى رجليها وسلط عليها الحيات والعقارب فإنها كانت قذرة الوضوء قذرة الثياب وكانت لا تغتسل من الجنابة والحيض ولا تنظف وكانت تستهين بالصلاة ، وأما الصماء العمياء الخرساء فإنها كانت تلد من الزنا فتلحقه بزوجها ، وأما التي كان يقرض لحمها بالمقاريض فإنها كانت تعرض نفسها على الرجال ، وأما التي كان يحرق وجهها وبدنها وهي تأكل أمعاءها فإنها كانت قوادة ، وأما التي كان رأسها خنزير وبدنها بدن الحمار فإنها كانت نمامة كذابة ، وأما التي كانت على صورة الكلب والنار تدخل من دبرها وتخرج من فيها فإنها كانت قينة نواحة حاسدة .

ثم قال ﷺ: ويل لامرأة أغضبت زوجها وطوبى لامرأة رضي عنها زوجها^(١). هذا ما يتعلق بقوله تعالى: «واللاني تخافون نشوزهن». هذه الموعظة التي قرأتها أيتها المرأة الصالحة تأدبي بأدبها وعلمها غيرك من الأخوات بما سمعتي حتى يكون لك الأجر الكامل .

وأما الأمر الذي بعد الموعظة وهو قوله تعالى: «واهجووهن» في المضاجع واضربوهن، فإن الرجل إذا كان عارفاً بما له من الحق على زوجته وكانت عاصية عليه في أداء حقه فله أن يعاقبها بما ذكره الله ، وأما إذا أراد منها شيئاً محرماً فأبى عليه وكان لها الحق في الإباء عليه فلا يجوز عقابها بشيء .

وأما قوله تعالى: «فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، أي: إذا كانت المرأة

مطبعة للرجل من ابتداء أمرها أو بعد العصيان فليس للرجل سبيل على إبدائها بالقول أو بالفعل ، وعليه أن يقوم بما أمره الله به من النفقة والكسوة والمعاشرة بالمعروف وحسن الخلق .

ثم قال تعالى : « ان الله كان علياً كبيراً » هذا تحذير للرجال ، أي : احذروا أيها الرجال أذى نساءكم فلا تؤذوهن " اذا كن " مطيعات لكم أو اذا رجعن بعد المعصية الى الطاعة فإن " الله أقدر عليكم من قدرتكم على نساءكم ، وانكم تعصون الله في كل وقت ثم تعودون الى الطاعة فلا يؤاخذكم الله بعصيانكم و يقبل منكم التوبة ، فتعلموا من الله العفو ولا تؤاخذوا نساءكم بما فعلن بعد التوبة ، واقبلوا منهن " العذر ، وسيأتي بعد ذلك من الآيات ما يذكر من أحكام الرجال والنساء .
و من وصايا النبي ﷺ لعلي عليه السلام قال : يا علي ليس على النساء جمعة ، ولا جماعة ، ولا أذان ، ولا إقامة ، ولا عيادة مريض ، ولا اتباع جنازة ، ولا هرولة بين الصفا والمروة ، ولا استلام الحجر ، ولا حلق ، ولا تولي القضاء . ولا تستشار ، ولا تذبح إلا عند الضرورة ، ولا تجهر بالتلبية ، ولا تقيم عند قبر ، ولا تسمع الخطبة ، ولا تتولى التزويج ، ولا تخرج من بيت زوجها إلا بإذنه ، فإن خرجت بغير إذنه لعنها الله وجبرائيل وميكائيل ولا تعطي من بيت زوجها إلا بإذنه ، ولا تبين زوجها عليها ساخط وإن كان ظالماً لها ^(١) .

ولا يخفى على المرأة المتعلمة الأدبية أن " المقصود من إذن الزوج للمرأة للخروج من البيت أن يكون إذنه لها غير مخالف للشرع ، وإلا فإن " رجال هذا العصر لا يبالون ولا يغارون على نساءهم وإن جلسن من الأجانب أو خلون بهم ، وهذا الرجل الذي يرضى لزوجته مجالسة الأجانب من الرجال قد لعنه النبي ﷺ وسماء ديوثاً .

فمن جملة كلامه ﷺ قوله : أئمارجل تنزين امرأته وتخرج من باب دارها

فهو ديوث ولا يؤثم من يسميه ديوثاً، والامراة اذا خرجت من باب دارها متزينة متعطرة والزوج بذلك راض يبنى لزوجها بكل قدم بيت في النار - ثم وجه خطابه الى الرجال بقوله: - فقصروا أجنحة نساءكم ولا تطولوها فإن في تقصير أجنحتها رضاً وسروراً ودخول الجنة بغير حساب، احفظوا وصيتي في أمر نساءكم حتى تنجوا من شدة الحساب، ومن لم يحفظ وصيتي فما أسوأ حاله^(١).

إن النبي الأكرم سوف يوقف النساء المتعلمات و العالمات اللاتي يعرفن هذه الأحكام ولا يعملن بها بل يعملن بخلافها، فسيألهن يوم القيامة عن هذه المعصية العظيمة ويكون عقابهن من نا حيتين:

الاولى: مخالفتهن للحكم.

الثانية: لعدم تعليمهن الطالبات الجاهلات هذا الحكم المهم في الشريعة الاسلامية الذي يصرح به القرآن والسنة النبوية ، فليس لهن عذر عند الله وعند رسوله يوم القيامة .

وبعد هذا نقول: لم يفت أوان الارشاد ولم يمض الوقت الذي يمكن تدارك الأمر وإصلاح الفساد، فلو اتفقت مائة امرأة من العالمات - وما أكثرهن في المسلمين - وتعاهدن على أن يكن صالحات كما وصفهن الله «فالصالحات قانتات حافظات للغيب، فإن هذا الاتفاق اذا صاحبه إرشاد للجاهلات يكون له أثر عظيم في المجتمع، و لكن هيهات هيهات فإننا نرى الأمر على عكس ذلك ، فإن المرأة التي تكون محافظة على امور دينها و شريعتها في أوان صغرها وحين تكون طالبة نراها اذا وصلت الى درجة راقية وحصلت على شهادة من كلية أو جامعة ترمي بكل اصول الدينية وتخرج متبرجة في غاية الخلاعة، وقد عرفت حق المعرفة قوله تعالى: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى»^(٢) و سوف تأتي الآيات التي تذكر شروط

(١) سفينة البحار : ج ٢ ص ٥٨٦ مادة «نساء» .

(٢) الاحزاب : ٣٣ .

المرأة المسلمة إن شاء الله تعالى ، وإني أذكر هذه الرواية تحفة للنساء الصالحات لتكون حجة لهن على غير الصالحات .

أخرج البيهقي عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمي أنا وافدة النساء إليك واعلم - نفسي لك الفداء - أنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا إلا وهي على مثل رأيي، إن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء فأمنّا بك ويألهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعديونكم ومقتضى شهواتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتُم علينا بالجمعة والجماعة وعبادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وأن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم فما نشاركم في الأجر يا رسول الله ؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه ؟ فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها ثم قال لها : انصري أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن بعلٍ أحداً كن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله، فأدبرت المرأة وهي تهمل وتكبر استبشاراً^(١) .

ثم إن الآية التي بعدها تحتاج إلى ذكر مقدمة لها حتى يعلم الرجال والنساء مقدار رحمة الله ورأفته بهم ، فنقول :

إن الله خلق النساء للرجال والرجال للنساء ليأنس كل منهما بالآخر ، وأمر بالزواج وحث عليه لتكون المرأة سكناً للرجل ، ويثن للزواج حدوداً وشروطاً ، وجعل لكل من الزوج والزوجة حقوقاً على الآخر ، وذكر في الآية السابقة أن المرأة إذا خرجت عن الطاعة تؤدب بالامور الثلاثة متدرجاً فيها، وكذا

الرجل اذا خالف حقوق المرأة يؤدب ويردع ، وأن الله إنما أمر بتأديب المخالف لكي يرجع الى الالفه والمحبة والانس .

أما اذا خفنا من التأديب أن ينجر الى الخلاف و النزاع والانشقاق فقد أمرنا الله باتخاذ طريقة اخرى للمحافظة على الالفه والمحبة ، فقال تعالى :

وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله و حكماً من أهلها ان يريد اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً (٣٥) .

إن الله خاطب بهذه الآية إماماً أهل الزوج و الزوجة ، وإماماً الحكام الذين يتولون النظر في امور المسلمين، وإماماً عموم المسلمين لأنهم كلهم مكلفون بإصلاح ذات البين، يقول الله لهم اذا خشيتم أو اذا تيقنتم أن هذين الزوجين لا يتمكنان أن يدبرا أمرهما وحدهما وهما مختلفان في من خرج عن الطاعة كل واحد يرمى صاحبه بالخروج عن الطاعة ، واذا بقيا على هذه الحالة يحصل الانشقاق بينهما - أي الانفصال والتباعد - فكل واحد منهما يكون في شق من المكان ، وحينئذ تبقى المرأة معلقة ويبقى الرجل وحده، أو أنه يتغلب عليه الغضب والحدة فيطلقها، وكلا الأمرين غير محبوبين لله .

لذا أمر الله من أمر إمام أهل الزوجين أو الحكام والقضاة أو عموم المسلمين أن يبعثوا بحكم من قبل أهل الزوج وآخر من قبل أهل الزوجة ، والحكمان إماماً من الأقارب أو يكفي كونهما من الأجانب، وهذان الحكمان ينظران في أمر هذين الزوجين ويشخصان الخارج عن الطاعة من يكون منهما، ويشترط في الحكامين أن يكونا من صالح الرجال والنساء لا يتحيزا بل يكونا من العدول .

فإذا اجتمع الحكمان واطلعا على أمر الزوجين ونظرا فيما يحكمان به من الأمر وعرفا أيهما المطيع وأيهما الخارج عن الطاعة فحينئذ إما أن يتفق الحكمان

على شيء واحد، وإما أن يختلفا في صورة الاختلاف فيرجع النزاع الى ما كان أولاً.
أما في صورة الاتفاق فيكون قوله تعالى : «ان يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما» فيه أربع صور :

الاولى : أن يكون ضمير الفعل وضمير الظرف راجعين الى الحكمين .

الثانية : أن يكون الضميران عائدين على الزوجين .

الثالثة : أن يكون ضمير الفعل عائداً على الحكمين والآخر على الزوجين .

الرابعة : عكس الثالثة ، فإرادة الإصلاح إما من الحكمين، وحينئذ يوفق

الله بينهما ويوفق بين الزوجين، فيكون لله توفيقان أحدهما بين الزوجين والآخر بين الحكمين . وإما أن تكون إرادة الإصلاح من الزوجين، وحينئذ يوفق الله بين الزوجين وبين الحكمين أيضاً في الحكم، فيكون لله توفيقان في الصورة أيضاً، وهذا دليل على حب الله لعباده الالفة والوفاق دون الانشقاق .

هذا بالنسبة الى شخصين فكيف يكون حكم الانشقاق في جماعة المسلمين

عامة؟ فإنه من أبغض الأمور الى الله تعالى ، فمن أين انبعثت هذه الفرق الاثنين وسبعين ما عدا الفرقة الناجية .

وقد ذكر الطبرسي في الاحتجاج رواية تتعلق بالموضوع أحببت ذكرها

هنا قال: روي أن نافع بن الأزرق جاء الى محمد بن علي بن الحسين عليه السلام فجلس بين يديه يسأله عن مسائل في الحلال والحرام، فقال له أبو جعفر - في عرض كلامه -:

قل لهذه المارقة : بما استحللتم فراق أمير المؤمنين عليه السلام وقد سفكتم دماؤكم بين

يديه وفي طاعته والقرب الى الله تعالى بنصرته؟ فيقولون لك: إنه حكم في دين

الله، فقل لهم: قد حكم الله تعالى في شريعة نبيه صلى الله عليه وآله رجلين من خلقه، قال جل

اسمه : « فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله

بينهما ». وحكم رسول الله صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ في بني قريضة، فحكم بما أمضاه الله،

أوما علمتم أن أمير المؤمنين عليه السلام إنما أمر الحكمين أن يحكما بالقرآن ولا يتعديا

واشترط ردّ ما خالف القرآن من أحكام الرجال ؛ وقال حين قالوا له : حكمت على نفسك من حكم عليك، فقال: ما حكمت مخلوقاً فإنما حكمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر بالحكم بالقرآن ؟ واشترط ردّ ما خالفه ولولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان؟ فقال نافع بن الأزرق : هذا والله ما طرق بسمعي قط ولا خطر مني ببال، هو الحق إن شاء الله تعالى^(١).

و قوله تعالى بعد ذلك : «ان الله كان عليماً خبيراً» في هذه الجملة وعد ووعيد ، كما في أغلب الآيات المشتملة على الأحكام : فإنها تختتم بجملة فيها الوعد والوعيد ، الوعد لمن سار على طريق الحق ولم يخرج عن الطاعة ، سواء كان أحد الزوجين أو أحد الحكمين أو أحد أهالي الزوجين أو أحد الحكّام أو القضاء أو أحد المسلمين المكلفين بالاصلاح .

و الوعيد لمن خرج عن طاعة الله والرسول وخالف القرآن والسنة .
فاحذر أيها المسلم وأيتها المسلمة فإن الله عليم بمن يريد الشقاق ، وخير بمن يريد الوفاق .

إذا عرفت هذا وانضح لك أن الله تعالى يحبّ الوفاق ويكره الشقاق، وأن الفرقتين المختلفتين لا بدّ وأن تكون إحداهما باطلة إذا لم تكن كلتاهما كذلك تجلّى لك قوله تعالى :

واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً
وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار
الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم
ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً (٣٦).

فإنه وجه الخطاب للعموم ولم يخصّ به المؤمنين، فهو يشمل جميع الناس

من الرجال والنساء في جميع طبقاتهم، والكل يعرف أن الله واحد ورسوله واحد وكتابه واحد وعبادته واحدة ليس فيها اختلاف، فيلزمهم أن يأخذوها من كتابه بواسطة من يعلم تأويله وتفسيره ولا يجوز لهم أن يفسروه بآرائهم فإن ذلك موجب للاختلاف والشقاق، وعند ذلك يكون الشرك بالله، لأن الظاهر من هذه الآية ومن التي قبلها أن المقصود من الشرك هو شرك الطاعة لا شرك العبادة، فإن الشرك إما أن يكون بجعل الشريك لله في العبادة بحيث يعبد كما يعبد الله ويسجد له كما يسجد لله، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله كما ذكره في قوله تعالى: وإن الله لا يغفر أن يشرك به^(١)، وإما أن يكون بجعل الشريك له في الطاعة، وهذا لا ينجو منه أحد إلا المعصوم لأن كل معصية هي طاعة للشيطان.

فالعبد العاصي كما يطيع الله كذلك يطيع الشيطان، فإن الله تعالى لما بين صفة المرأة الصالحة ثم ذكر أن بعض النساء يكن ناشزات لا يطقن الله ولا يطقن أزواجهن، ثم ذكر كيفية تأديب الناشز، وبعد ذلك أمر المسلمين - إذا خافوا من وقوع الشقاق والتباعد بين الزوجين من سبب معصية أحدهما أو كليهما - أن يبعثوا حكمين عدلين لينظرا في الأمر.

وفي هذه الآية وجه خطاباً عاماً لجميع العباد - الذكور والإناث - أن يسيروا على أحكام الله في أوامره ونواهيه ولا يخالفوا شيئاً منها، فإنهم إذا خالفوا أمر الله فقد أطاعوا الشيطان، وطاعة الشيطان هي الشرك في الطاعة، والنزاع والجدال والانشقاق بين الاثنين أو بين الجماعتين أو بين المسلمين إنما يحدث إذا عملوا المعاصي وخالفوا أمر الله ورسوله.

وأما إذا كان كلهم أو جلهم مطيعين عاملين بأوامر الله تعالى التي تلقوها من رسوله في حياته ومن بعد الرسول يأخذونها ممن جعل الرسول علم الحلال والحرام وتفسير القرآن عنده فيكون مصدره واحداً ليس عنده اختلاف.

أما اذا تفرق المسلمون وصاروا فرقا وشيعا ، ولكل فرقة إمام يختلف مع إمام الفرقة الاخرى في معرفة الأحكام ، وليس عندهم كلهم علم القرآن ومعرفة الحلال والحرام ، فلا ريب من وقوع الاختلاف ووقوع الشقاق ، وهذا أمر واضح يدركه كل ذي عقل ، فعلى العاقل أن يتبع العالم بالأحكام ولا يتبع المفضول .. واذا اتضح لك المعنى المقصود من الآية وأن الله ينهى عن المعصية المتعلقة بالفروع والعمل فلا يبعد أن يكون المقصود كما اختاره بعض المفسرين من قوله تعالى : « وبالوالدين احسانا » إنه يريد بالوالدين (النبي و الوصي) اللذين ذكرهما النبي بقوله لعلي : أنا وأنت أبوا هذه الأمة ^(١) ويكون الاحسان إليهما الذي أمر به الله هو إطاعتهما فيما يخبران به عن الله ، فإذا اتفق الناس كلهم على طاعتهما ارتفع الخلاف والتأم الشقاق فصارت الفرق كلها واحدة وتحقق قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » فإنهما الأبوان اللذان يريان الروح ويرشدان الى النعيم الدائم الذي لا انقطاع له .

وأما الأبوان اللذان يريان البدن ويجلبان لولدهما نعيم الدنيا المنقطع فقد أوصى بهما الله وصاية مؤكدة ، ولكن حق مربى الروح أعظم من حق مربى البدن ، والمرشد الى النعيم الدائم يكون حفظه أعظم ممن يدل على النعيم المنقطع والذي ينقذك و يخلصك من العذاب الدائم الأبدي اتباعه و طاعته أولى و أوجب ممن يدفع عنك الآلام والآفات الموقته الزائلة .

نقل العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أحد الوالدين وعلي الآخر ، فقلت : أين موضع ذلك في كتاب الله ؟ قال : اقرأ : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ^(٢) .

وفيه عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : « وبالوالدين إحسانا »

(١) تفسير البرهان : ج ١ ص ١٢١ .

(٢) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢٤١ ح ١٢٨ .

قال : إن رسول الله ﷺ أحد الوالدين وعلي الآخر ، وذكر أنها الآية التي في النساء^(١).

فإذا كان المقصود الوالدين هما اللذان عندهما تفسير القرآن وتأويله وعندهما علم الأحكام كان الأخرى والأقرب والأنسب لقوله تعالى : «وبذى القرين» هم الذين عندهم تأويل القرآن ومن جعلهم النبي ﷺ عدلاً في وجوب التمسك بهما في وصيته حيث قال : إني مخلف فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً : أحدهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهم لن يفترقا حتى يردا علي الحوض^(٢).

وبعد ذلك أوصى الله بالاحسان إلى اليتامى بقوله «واليتامى»، واليتيم هو الذي فقد أبويه أو أباه فقط وبقي بلا كفيل، ويطلق اليتيم على من لا مثيل له ولا نظير. ويمكن أن يكون المراد منهم قراء القرآن الذين ليس لهم مثيل في العلم والعمل. وقد وردت الآيات والأخبار الكثيرة في الحث على الاحسان إلى اليتيم وعظيم الأجر من الله على ذلك، فمن ذلك ما روي عن النبي ﷺ قال: مر عيسى بن مريم عليه السلام بقبر يعذب صاحبه، ثم مر به من قابل فإذا هو ليس يعذب، فقال: يارب مررت بهذا القبر عام أول فكان صاحبه يعذب، ثم مررت به العام فإذا هو ليس يعذب، فأوحى الله عز وجل إليه : يا روح الله إنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً فغفرت له بما عمل ابنه^(٣).

وعنه ﷺ قال: من كفل يتيماً وكفل نفقته كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وقرن بين اصبعيه السبابة والوسطى^(٤).

(١) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢٤١ ح ١٢٩ .

(٢) راجع بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .

(٣) سفينة البحار : ج ٢ ص ٧٣٠ مادة «يتيم» .

(٤) سفينة البحار : ج ٢ ص ٧٣١ مادة «يتيم» .

وقد وردت الروايات أن من مسح يده على رأس يتيم ترحمًا له أعطاه الله تعالى بكل شعرة نوراً يوم القيامة ، وكتب الله له بكل شعرة مرت يده عليها حسنة^(١).

وقال النبي ﷺ لأبي ذر : يا أباذر إنني أحب لك ما أحب لنفسي ، إنني أراك ضعيفاً فلا تأمرن على اثنين ولا تلين مال اليتيم^(٢).

وعن أبي بصير قال : قالت لأبي جعفر عليه السلام : أوصاك الله ما أيسر ما يدخل به العبد النار ؟ قال : من أكل من مال اليتيم درهماً ونحن اليتيم^(٣).

ثم أوصانا الله تعالى بعد الوصايا باليتيم بالاحسان الى المساكين بقوله تعالى : «والمساكين» فلا ينبغي ولا يجوز الغفلة عن المساكين ويلزم إعطاؤهم ما يحتاجون إليه من الطعام والكسوة وما لا بد لهم منه .

ثم أوصانا بعد ذلك بالجار وقد جعلهم قسمين بقوله : «والجار ذي القربى والجار الجنب» فالجار مرة يكون من الأقارب ومرة يكون أجنبياً ، ولعل الوصاية بالأجنبي لأن بعضهم يرى أن الأجنبي لا تلزم صلته .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق : حق الجار وحق القرابة وحق الاسلام ، وجار له حقان : حق الجوار وحق الاسلام ، وجار له حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب^(٤).

وروي أن حد الجوار الى أربعين دار^(٥).

ثم قال تعالى : «والصاحب بالجنب» قال في مجمع البيان : في معناه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الرفيق في السفر ، عن ابن عباس و سعيد بن جبیر و جماعة ، والاحسان إليه بالمواساة وحسن العشرة .

وثانيها : أنه الزوجة ، عن عبد الله بن مسعود وابن أبي ليلى والنخعي .

(١-٣) سفينة البحار : ج ٢ ص ٧٣١ مادة «يتيم» .

(٤) مجمع البيان : ج ٣ ص ٤٥ .

وتألفها: أنه المنقطع إليك يرجو نفعك ، عن ابن عباس في إحدى الروايتين وابن زيد.

ورابعها : أنه الخادم الذي يخدمك ، والأولى حملته على الجميع^(١) انتهى ما في المجمع .

ثم أمر الله تعالى بالاحسان بعد من تقدم ذكره بقوله: «وابن السبيل وما ملكت أيمانكم» .

أما ابن السبيل فهو المسافر الذي ذهب ماله في أثناء الطريق ولا يمكنه الوصول لبلده ، فقد أفتى الفقهاء بإعطائه مما ينطبق عليه من الحقوق وإن كان غنياً في مكانه ، وأن الله يأمرنا بالاحسان إليه ، وأن لا نهمله ولا نتركه في حاجة . وأما المماليك فهم العبيد والاماء ، ينبغي لكل من يخدم نفسه مولى أن يحسن الى ممالئكه ، فإن لم يحسن إليهم فأولى به أن يكون عبداً . والأهل والعيال أيضاً مما ملكت يده لأنهم تحت يده وهم يأملون منه الاحسان ، فلا ينبغي له أن يقتصر عليهم في المعاش أو فيما يحتاجون إليه .

ثم ختم الله عز وجل بقوله : «ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً» . المختال هو المتكبر على أحكام الله أو على عبادة الله ، فكل من ترك شيئاً من الامور التي ذكرت في الآية فهو متكبر عليها ، وكل من لم يحسن الى الأصناف كلهم أو بعضهم فهو متكبر عليهم .

وكذا من يكون مفاخرأ للناس إما من أحد الأصناف الذين ذكرهم الله وأمر بالاحسان إليهم ، أو من غيرهم .

فإن هاتين الصفتين لا يحبهما الله ولا يحب المتصنف بهما أو بأحدهما ، فيلزم على المسلم أن ينزه نفسه منهما ليكون محبوباً لله ، فالمرء الذي يتكبر ويتجبر لكثرة ماله لو تأمل لحظة وعرف أن المال لله يؤتیه من يشاء وينزعه ممن يشاء

لعرف أنه أجهل الجهلاء .

قال في المجمع : و هذه الآية جامعة تضمنت بيان أركان الاسلام و التنبيه على مكارم الأخلاق، و من تدبرها حق التدبر و تذاكر بها حق التذاكر أغنته عن كثير من مواعظ البلغاء و هدته الى جم غفير من علوم العلماء^(١) .

ثم إن الله بعدما بين هذه الأحكام وأمر بالاحسان الى الأصناف المتقدم ذكرهم ذم في الآية الآتية من يتخلف عن أمره بقوله:

الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً (٣٧) .

ذكر المفسرون أن المراد بالبخل إما أن يبخل ببذل المال المفروض عليه كالزكاة و شبهها أو يبذل المال المندوب إليه، وإما أن يبخل ببذل العلم المأمور بنشره و بثه في الناس .

وهذا القسم الثاني مرة يكون ذمّاً لأهل الكتاب حيث وجدوا صفة النبي ﷺ في التوراة مطابقة لما هو عليه فأخفوها و كتموها أو أنكروها و حرفوها، وهؤلاء لا يكون ضرر كتمانهم للدين الاسلامي كبيراً، لأن الله هو الذي يصف النبي ويؤيده بنصره ويمده بالمعجزات الباهرات، ومرة اخرى يكون ذمّاً لامة محمد اذا سمعوا شيئاً من النبي ﷺ يتعلق بعموم الامة وله مساس باصول الدين، وقد أمرهم النبي ﷺ أن يبلغوا من لم يكن حاضراً، ومع كل هذا فإنهم أخفوه و كتموه .

ولعل الآية التي في آخر الفصل تشير الى ذلك، فإن هذا الكتمان أكثر

ضرراً على الدين والمسلمين من كتمان أهل الكتاب، وأعم فساداً وأشدّ أثراً في تفريق الأمة.

و سواء كان المقصود البخل ببذل المال أو ببذل العلم، و كذا بالنسبة الى الكتمان إن كان كتمان المال أو كتمان العلم، فإن جميع الأصناف يشملهم الذم من الله ومن الناس، وأكثرهم ذمّاً وأعمهم فساداً الذين أمرهم النبي ﷺ بنشر حديثه وإبلاغ من كان غائباً عنهم. وهم كتموا الحديث وأنكروه، ولم يكتفوا بكتمان الحديث وإخفائه وإنكاره بل جعلوا يأمر ون الناس بالكتمان ويعاقبون من يظهره منهم ولا تنس ما كتبه معاوية لعماله في سائر الأقطار أن برئت الذمة ممن يذكر فضيلة لأبي تراب^(١) و بعض المسلمين يسميه (أمير المؤمنين) و هو يسمع قول الله تعالى حيث يقول في حق هؤلاء الذين يكتُمون ما آتاهم الله: «واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً» فكل من سمع حديثاً من النبي ﷺ فكتمه فهو كافر بمقتضى الآية، وكذا إذا أمر الناس بكتمانهم.

ولافرق بين من كان موجوداً في زمان النبي ﷺ أو أنه وجد في الأزمنة المتأخرة عنه بصدور الحديث، وعلم بصدوره عنه بالتواتر وثبوته في الكتب المعتمدة والأسانيد الصحيحة، فكل واحد منهم مكلف بإذاعة الحديث وبذله لمن يطلبه ونشره للملا حتى تطلع عليه جميع الأمة، وكل واحد منهم مؤاخذ على كتمانهم وإخفائه.

ولافرق أيضاً بين كتمان الحديث و بين تحريفه وحمله على خلاف ظاهره، فإن الحديث الذي لا يمكن كتمانهم لظهوره وشهرته وثبوته في جميع الكتب لا يهون مثله على هذا الذي يعتبر الله عنه بالكافر فإنه يحمله على معنى بعيد عن الظاهر وإن لم يوافقه على هذا أحد إلا من هو مثله في اتباع الهوى وحب كتمان الحق فهم في ذلك سواء، أما أهل الحق والصدق فإنهم لا يكتُمون ولا يحرفون.

ثم ذكر الله صنفاً آخر ممن تخلف عن قبول أوامره وامتنع عن الاحسان الى الاصناف الذين أمر الله بالاحسان إليهم فقال تعالى:

والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً (٣٨).

هذه الآية الشريفة تذكر صنفاً من المنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ويظهرون للناس أنهم مطيعون لأوامر الله حيث أمرهم بالانفاق على من تقدم ذكرهم ، ولكن إنفاقهم إنما هو للناس وليس لامتناع أمر الله لأنهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بيوم القيامة الذي فيه الثواب والعقاب، وليس لهم غاية من بذل المال إلا مدح الناس لهم وإن ذمهم الله .

وقد أخبر الله عن هؤلاء بأنهم قرناء الشيطان ، وأن أسوأ قرين للانسان هو الشيطان نفسه، فإن الانسان يعلم علماً يقيناً قطعياً أن الشيطان هو عدو له، يريد به السوء في كل وقت وعلى كل حال، فإذا اتخذ قريناً مع هذا العلم فإنه اتخذ قريناً سيئاً باختياره ورضاه ولا يرضى بذلك إلا ناقص العقل .

ثم إن الله سبحانه وجهه سؤالاً إنكارياً لكلا الفريقين أي الباخلين والمنفقين رياءً ، فقد وبخهم بهذا السؤال وذمهم على عملهم فقال تعالى :

وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً (٣٩) .

إنه تعالى يقول لهم أو يقول للنبي ﷺ أو لمن يعرف مصلحته ويراعي نفسه: أي ضرر من أضرار الدنيا والآخرة يرد على هؤلاء الذين يبخلون ويكتمون ما آتاهم الله من مال ومن علم قد بينه لهم النبي ﷺ لأجل إيضاح الحق والحقيقة

فأخفوه وكنتموه لأجل أن يكتموا حقائق الدين الذي بينه الله لنبيه ، فلو أنهم آمنوا بالله وبيّنوا ما كنتموه وأنفقوا ما عندهم من مال أو علم لينتفع به الناس هل يترتب على ذلك ضرر يصيبهم في دنياهم أو آخراهم ؟

فإذا فكّر العاقل في هذا السؤال الموجه الى هؤلاء الذين كفروا أو بخلوا أو كنتموا يعلم علماً قطعياً أنه لا يصيبهم ضرر في الدنيا أبداً لا كثير ولا قليل .
وأما في الآخرة فإنّ العاقل الذي لم يحصل له اعتقاد في الآخرة فينبغي له أن يتخذ له طريقة موافقة للاحتياط ، حيث إنّ من أمر منهم شيء ليس في امتثاله ضرر عليه ، ويحتمل احتمالاً عقلائياً أن في تركه ضرراً عليه يحكم العقل بوجوب إثباته لأنّ احتمال الضرر يكون في الترك وليس في فعله ، وهذا هو الحكم الذي عليه العقلاء .

وقد روي عن أبي منصور المتطبيب قال : أخبرني رجل من أصحابي قال : كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبد الله بن المقفع في المسجد الحرام ، فقال ابن المقفع : ترون هذا الخلق وأدمى بيده الى موضع الطواف ، ما منهم أحد أوجب له اسم الانسانية إلا ذلك الشيخ الجالس - يعني جعفر بن محمد عليه السلام - فأما الباقيون فرعاع وبهائم .

فقال له ابن أبي العوجاء : وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء ؟ قال : لأنني رأيت عنده ما لم أرَ عندهم .

فقال ابن أبي العوجاء : لا بدّ من اختبار ما قلت فيه منه .

فقال له ابن المقفع : لا تفعل فإنني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك .

فقال : ليس ذا رأيك ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه

المحلّ الذي وصفت .

فقال ابن المقفع : أما اذا توهمت على هذا فقم إليه وتحفظ ما استطعت من

الزلل ولا تثن عنائك الى استرسال يسلمك الى عقاب ، وسمّه ما لك أو عليك .

قال : فقام ابن أبي العوجاء وبقيت وابن المقفع ، ورجع إلينا وقال : يا ابن المقفع ما هذا يبشر، وإذا كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً ويتروح إذا شاء باطناً فهو هذا .

فقال له : وكيف ذاك ؟

قال : جلست إليه ، فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال : إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون - يعني أهل الطواف - فقد سلموا وعطبتهم، وإن يكن الأمر كما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم وهم .

فقلت له : يرحمك الله و أي شيء نقول و أي شيء يقولون؟ ما قولي و ما قولهم إلا واحد.

فقال: كيف يكون قولك وقولهم واحد وهم يقولون: إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً ويدينون بأنّ للسماء إلهاً وأنها همران، وأنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد؟

قال : فاغتنمتموها منه فقلت له : ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه ويدعوهم الى عبادته حتى لا يختلف منهم اثنان؟ ولم احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟ ولو باشرهم بنفسه كان أقرب الى الايمان به .

فقال لي: وملك وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك! نشؤك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك، وعزيمك بعد إبانك، وإبانك بعد عزيمك، وشهوتك بعد كراحتك، وكراحتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاؤك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطرك ما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنت معتقده من ذهنك. و ما زال يعدّ على قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر فيما

بينى وبينه^(١).

وشاهدنا من ذكر الرواية بطولها كلمته الاولى وهو قوله: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء ... فقد سلموا وعطبتهم.

وبعد هذا توجه السؤال الى هؤلاء الذين سمعوا كلام النبي ﷺ المتعلق بالدين فبخلوا بنشره للناس وأمروا أصحابهم ومن تابعهم بعدم نشره وكنموه عن كل أحد، نسألهم بعد أن سألهم الله: ما كان يحدث عليهم وما يصيبهم لو حدثوا به وأعلنوه للملأ، ونقول لهم - كما قال الامام لابن أبي العوجاء -: إن كنتم لا تعتقدون بالمعاد فإن كان الأمر كما فعل غيركم من نشر حديث النبي وإذاعته لأن الدين لا يتم إلا به فقد سلموا وعطبتهم. ولا ريب أننا نخاطب أهل عصرنا هذا، أما أهل ذلك العصر - أي الذين كانوا بعد النبي - فقد مضوا وعلموا أنهم قد عطبوا، وإن كان الأمر كما فعلوه من البخل بالحديث وإيثار كتمانهم وإيس كما يقولون فقد ساويناهم في كل شيء فلا نأسف ولا نندم.

ومن جملة الأحاديث التي بخل بنشرها وكتمت أو حرفت وحملت على خلاف معانيها الحقيقية ما ناشدهم عليه أمير المؤمنين علي عليه السلام حين خطبهم بالكوفة فقال: نشدت الله رجلاً سمع النبي يقول يوم غدیر خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، إلا قام فشهد، فقام جماعة وامتنع بعضهم، فسأله علي عن عدم شهادته، فقال: كبرت ونسيت، فقال علي: إن كذبت في مقالك هذا ضربك الله ببياض لا تستره العمامة، فضربه الله ببياض في جبهته فكان ينزل عمامته على جبهته فينزل البياض فلا تستره العمامة^(٢).

وفي هذا العصر كل إنسان مكلف بنفسه ومسؤول عنها، والسؤال موجه إليه من الله، فإذا علم بصدق الحديث المروي عن النبي ﷺ فعليه أن يعمل به

(١) سفينة البحار: ج ٢ ص ٤٣٩ مادة «قفع».

(٢) القدير: ج ١ ص ٢٨١ نقلاً بالمعنى.

وينشره لقومه وأصحابه ولا يكتمه، والله يعلم ذلك منه ويجازيه على عمله كما يصرح له في آخر الآية ويعدّه بالجزاء الحسن بقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

انظر كيف يعدكم الله بالجزاء الحسن حيث إنه عالم بكم وبما تعملون، فمن شاء أن يتدارك نفسه في حياته قبل فوات الأمر وحضور الأجل فالطريق واضح. ثم إن الله عقب ذلك الأمر الأول وهو الحكم على من بخل وكنتم أحاديث النبي بالكفر و توعدهم بالعذاب المهين، فإنه ليس بظالم لهم وإنما هو جزاؤهم وذلك قوله تعالى :

ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً (٤٠).

أسمعت أيها المسلم الذي تريد النجاة في الآخرة من العذاب، وتحب أن تلقى الله يوم تموت ويوم تبعث وهو راضٍ عنك غير ساخط عليك، فلا تفعل ما نهاك الله عنه من البخل بنشر الحديث وأمر الناس بذلك وكتمانه وتحريفه وحمله على غير حقيقته، فمن يفعل ذلك - أي يبخل ويكنم فيكفر - فإن الله غير ظالم له في إدخاله في العذاب المهين .

وأما من يجود بنشر الحديث ويحدث به الناس ويعمل به ويحمله على معناه الحقيقي فإن الله يجعل لهذا العمل حسنة، ثم يضاعف له هذه، ولم ندر إلى كم يضاعفها له، فإنها - أي المضاعفة - غير محدودة، ثم بعد ذلك يؤتي الله من لدنه - أي من فضله وإحسانه - من غير كونه جزاء على عمل وهذا العطاء أجر عظيم، فالشيء الذي يعبر الله عنه بالعظيم لا يمكن أن يتصوره الانسان، فهل يسوغ في حكم العقل أن يترك الانسان المحتاج الى حسنة واحدة يسوم القيامة

هذا الأجر العظيم لأجل كتمان حديث بلغه عن رسول الله ﷺ وقد أمره إنسان مثله بالكتمان، وهذا الكتمان يعود نفعه الديني لذلك الأمر! فإن عقلت بمنع عن تضييع هذا الأجر العظيم لنفع غيرك .

ثم إن الله تعالى ذكر ما يؤول إليه أمر هذا الكاتم للحديث يوم حشر الناس للحساب والثواب والعقاب فقال تعالى :

فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً (٤١) .

أي : كيف يكون حال المخالفين لأوامر الله تعالى؟ وكيف يعمل من أظهر للنبي ﷺ الإيمان والتصديق به ولكنه بخل بإيصال قوله وإبلاغ من كان غائباً بأمره وكتّم حديثه . فلما ذكر به حرفة وحمله على غير معناه المقصود منه؟ كيف حال هذا المرء اذا حشر الله الناس وحشر الأنبياء ليشهدوا على أممهم .

ثم يقول الله للنبي ﷺ : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » أي : نسألك عن عمل المنافقين من أمتك الذين بخلوا على بذل المال وبذل الحديث الذي هو تكملة للمدين فكتموا .

وقد وردت الأخبار في تفسير الآية أن كل نبي يشهد على قومه وأمته في ذلك اليوم فيشهد للمطيع بالطاعة وعلى العاصي والمخالف بالمعصية .

وهكذا نبينا ﷺ يشهد على أمته، كما ورد في الصافي عن الصادق عليه السلام أن الآية نزلت في أمة محمد ﷺ خاصة ، في كل قرن منهم إمام شاهد عليهم وعهد الله ﷻ شاهد علينا .

وروى في الصافي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه أحوال أهل الموقف قوله عليه السلام : فيقام الرسل فيُسألون عن تأدية الرسائل التي حملوها الى

امهم فأخبروا أنهم قد أدوا ذلك الى امهم ، وتُسأل الامم فيجحدون كما قال الله : «فلنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ ارسل اليهم ولنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» ^(١) فيقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيستشهد الرسل رسول الله فيشهد بصدق الرسل ويكذب من جحدها من الامم فيقول لكل أمة منهم : بلى قد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ، أي : مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ : «فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» فلا يستطيعون ردّ شهادته خوفاً من أن يختم الله على أفواههم، وأن يشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون ، ويشهد على منافقي قومه وأمتهم وكفارهم بالحادهم وعنادهم ونقضهم عهده وتغييرهم سنته واعتدائهم على أهل بيته وانقلابهم على أعقابهم وارتدادهم على أدبارهم واحتدائهم في ذلك سنة من تقدمهم من الامم الظالمة الخائنة لأنبيائها فيقولون بأجمعهم «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين» ^(٢) .

ثم قال الفيض الكاشاني - رحمه الله - في تفسيره بعد ذكره الحديثين المتقدمين: أقول: نزول الآية في هذه الأمة لا يتنافى عموم حكمها، فلا تنافي بين الروايتين، وقد مضى تمام الكلام في هذه في سورة البقرة عند قوله سبحانه: «و كذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس» ^(٣) انتهى كلام الفيض أعلى الله مقامه ^(٤) . نعم إن نبينا ﷺ يشهد على كل واحد من أمتهم بما عمل فيقول : فلان ابن فلان صدقني وعمل بما أمرته به ولم يغير ولم يبدل ولم يكتنم الحديث الذي أمرت بالعمل به ولم يحرفه ولم يحمله على خلاف معناه، ثم يلتفت الى آخر أو الى جماعة اخرى فيقول: هؤلاء أظهروا الايمان وأظهروا التصديق بي ولكنهم قد

(١) الاعراف : ٦ .

(٢) المؤمنون : ١٠٦ .

(٣) البقرة : ١٤٣ .

(٤) تفسير الصافي : ج ١ ص ٤١٨ .

انقلبوا من بعدي على أعقابهم وقد ارتدوا ولم يعملوا بأوامري ولم ينشروا ما أمرتهم بنشره من الحديث فكتموه وغيروا معناه وحرفوه، وقد سبوا بفعلهم هذا اختلاف أمتي وافتراقهم الى فرق عديدة كلها خرجت عن الدين إلا فرقة واحدة وهي التي تمسكت بدينها .

فكيف تعمل هذه الفرقة التي شهد عليها النبي ﷺ بالارتداد ؟ ليس لها إلا التمني الذي لا طمع لهم به كما أخبر الله عنه بقوله :

يوهئذ يود الذين كفروا و عصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثاً (٤٢) .

أنعرف من هؤلاء الذين يتمنون أن تسوى بهم الأرض؟ وقبل الجواب عن هذا السؤال لابد من الإشارة حول تسوية الأرض التي وردت في الآية الكريمة ، فهي عبارة عن أن تكون الحفرة التي دفنوا بها مملوءة حجراً بحيث لا يبين فيها أثر من الحفر ، ولم يكن فاصل بين ذرات الحجر ، فتكون مصمتة ^(١) متراسة الأجزاء حتى لا تتبين أجسادهم ولم يمكن فصلها من الأرض ، وما علموا أن قدرة الله فوق ذلك، فإن الأجساد تستحيل تراباً وتختلط به وتستحيل ماء وتمزج به ، وتستحيل الى معادن أخرى كالملاح وغيره ، فإذا جاء أمر الله ميّزت وفصلت عما اختلطت به .

وأما الذين يتمنون ذلك فهم الذين أمرهم النبي ﷺ حين كانوا في الدنيا من الأصناف التي ذكرت في الآية، وهم الذين بخلوا بنشر الحديث وأمروا الناس بالبخل وكتمو ما آتاهم الله، كتمو ما أمرهم النبي ﷺ بإذاعته وبيانه والعمل على طبقه .

(١) المصمت : الذي لاجوف له . (المنجد) .

وهل تدري أيّ حديث هذا الذي كتموه؟ إنه مهمّ جداً لأنّ الله قد عابهم وذمهم على كتمانهم، وهم في يوم الحشر يتمنون أن لا يكونوا كتموه، ليس عندنا حديث مهمّ له هذه الأهمية العظيمة والذي يحكم الله بكفر كاتميه إلا الحديث الذي جمع رسول الله ﷺ الناس له في رجوعه من حجة الوداع، وكانوا مائة وعشرين ألفاً، فحدثهم وأمرهم أن يبلغ الحاضر منهم الغائب.

وحيث إنّ هذا الحديث به كمال الدين وإتمام النعمة كما قال تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم و أنعمت عليكم نعمتي»^(١) فمن أنكره و جحدته يتمنى يوم القيامة أن تكون الأرض تساوت به ولم يكن عصي الرسول و كتم الحديث، إنّ كتمان هذا الحديث هو السبب في حدوث اثني و سبعين فرقة باطلة مقابل فرقة واحدة متمسكة بالحديث عاملة على طبقه.

إنّ كتمان هذا الحديث هو الذي أوقع العداوة بين أمة محمد ﷺ، و صار بعضهم يكفر بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، لأنّ من بخل بنشره و بيانه جعل يأمر الناس بالبخل، فمن لم يوافق على ذلك يعاديه ويقتله ويكفره، ومن يوافق على ذلك يكفره الله و يتوعده بالنار و العذاب المهيّن. فحدثت هذه الفرق الكثيرة التي أخبر رسول الله ﷺ أنها في النار^(٢).

و روى الفيض في تفسيره عن علي بن إبراهيم قال: يتمنى الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام أن تكون الأرض تبلعهم في اليوم الذي اجتمعوا فيه على غصبه، وإن لم يكتموا ما قال رسول الله ﷺ فيه^(٣).

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم

(١) المائدة: ٣.

(٢) سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٥٩ مادة «فرق».

(٣) تفسير الصافي: ج ١ ص ٤١٨.

سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً الا عابري سبيل حتى
تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من
الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً
فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله كان عفواً غفوراً (٤٣).

إن الله تعالى نادى عباده المؤمنين والمؤمن هو الذي يؤمن بالله ويصدق رسوله
ويعمل بما أمر الله ورسوله ، ولا يترك شيئاً من الأوامر والنواهي إلا امتثلها
وعمل بمقتضاها ، فلو ترك شيئاً منها كان ناقص الإيمان .

والمؤمن اذا أراد أن يصلي لله يعرف أنه يريد أن يناجي الله ويكلمه ، وهو
بهذه النية وهذه الارادة لابد وأن يكون مستجمع العقل والفكر والتمييز ومعرفة
ما يتكلم به ، فالمؤمن العاقل عنده حكم عقلي ينهاء عن القيام للصلاة ما لم يقطع
أنه على علم بما يقوله ويتكلم به ويناجي به ربه .

وهذا الأمر الذي وجهه الله الى المؤمنين وإن كان عاماً يشمل الجميع ،
فهو بالنسبة الى العاقل العالم به الملزم نفسه في تحقيقه يكون مؤكداً لحكمه
العقلي ، وبالنسبة الى الجاهل الغير عارف وضعيف الدين والايمان تعليم وإرشاد
ودلالة على طريقة العمل التي يكون بها العمل مقبولا عند الله .

فلا عبرة بما ينسبه بعض المفسرين كابن كثير وأمثاله الى كامل الايمان من
أنه صلى وهو في حالة سكر وقرأ تعبداً ما تعبدون^(١) ، فإن العاقل فضلاً عن كونه
مؤمناً لا يشرب خمرأ كما ورد في حق جعفر بن أبي طالب أن الله شكر له أربع
خصال : منها عدم شربه الخمر^(٢) ، فكيف عمن كان كامل الايمان والعقل صارفاً

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٢) أمالي الصدوق : ص ٧٠ .

أوقاته وحالاته في طاعة الله .

أما اذا كان الانسان ضعيف الايمان أو قليل المعرفة ولا يعرف معنى الصلاة فإنه يقال له لا تقرب الصلاة وأنت سكران، فإنه يظن "أن الصلاة قيام وقعود وقراءة قد حفظها ويتلوها حين الصلاة ، وقد يغلط ويخلط ولا يعرف ما يقول .

ثم إنه قد ذكر المفسرون في معنى السكران أقوالاً، فقال بعضهم: هو شارب الخمر^(١)، وقال بعضهم: التعمسان أو الكسلان أو المتناقل^(٢).

وعلى كل حال فالمقصود أن يقوم الانسان لصلاته وهو يعلم ما يقول ملتفتاً الى ما يتكلم به هذه هي الغاية المذكورة في الآية: «حتى تعلموا ما تقولون» . فإن الانسان الذي يريد حفظ نفسه ويريد أن يكون في مظهر جميل بحيث يُعَدُّ من العقلاء اذا تكلم مع سائر الناس يحافظ على كلامه من الغلط وينتقي الكلمات الجميلة ، أما اذا أراد أن يكلم شخصية كبيرة مثل الملك أو الوزير فإنه يهين له كلاماً خاصاً حذراً من وقوع الشطط في كلامه ، فكيف بهذا الانسان الكامل اذا أراد أن يقف بين يدي جبار السماوات وهو يعرف عظمة الله !

فلا بد أن ينبذ كل فكرة عنده ويهين نفسه لفصيح الكلام ، ومهما بلغ الانسان من الكمال فإنه عاجز عن تهيئة كلام يخاطب الله به في صلاته ، وأن الله هو الذي أنزل على رسوله كلاماً وأمره أن يعلمه أمته لكي يخاطبوا الله به في صلاتهم وهو سورة الفاتحة والتسبيحات الأربعة وذكر الركوع والسجود . فعلى الانسان أن يعرف معناها ويخاطب بها ربه حين الصلاة ، ويلزمه أن يكون على أهبة واستعداد وجامعاً لشروط الكلام .

وأما الصلاة التي أمر الله بعدم القرب منها حتى يعلم ما يقول فالمراد منها إما نفس الصلاة وإما موضع الصلاة ومكانها .

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ٥١ .

(٢) تفسير الصافي : ج ١ ص ٤١٩ .

فإن كان المقصود نفس الصلاة يكون قوله : «ولا جنباً إلا عابري سبيل» أي: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا في حالة السفر بحيث لا تجدون الماء للفعل، وحينئذٍ يجوز لكم الصلاة بالتييم.

وإن كان المقصود موضع الصلاة وهو المسجد فيكون قوله: «ولا جنباً إلا عابري سبيل» أي: لا يجوز الدخول في المسجد للجنب إلا عابراً ومستطرقاً كما عليه فتوى العلماء، ويستثنى من ذلك المسجدان فإنه لا يجوز الاستطراق منهما .
ثم بيّن الله حكم المحتاج الى طهارة من وضوء أو غسل ولم يتمكن منهما فقال تعالى: «وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامسكم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً» .
بيّن الله عز وجل في هذه الآية أن الذي عليه غسل أو وضوء ولم يتمكن من ذلك إما لمرض أو لعدم القدرة للوصول الى الماء فيكفيه التيمم لصلاته ، وهذه المسألة مذكورة تفصيلاً في كتب الفقه والرسائل العملية.

ثم ذكر الله عباده بفضله عليهم بقوله: «ان الله كان عفواً غفوراً» .
إن العبد الذي خلقه الله من العدم وأنعم عليه بالوجود وجعله إنساناً سوياً كامل الأعضاء والجوارح، ثم تلطف عليه فدعاه الى مناجاته ليحييه اذا تاجاه، فإذا قام العبد الى المناجاة وشرب ما يزيل عقله ويذهب بشعوره ويفسد تمييزه ، و هو يعرف ويدري أنه يلزمه القيام ليخاطب ربه ومع ذلك يقدم على هذا الفعل الشنيع فهو من أجهل الجهلاء وأسفه السفهاء.

وبعد هذه الفعلة الشنيعة فإن الله لا يريد أن يطرده عن بابه ولا ينحيه عن خدمته ولا يجعله آيساً من رحمته فأخبره ابتداءً منه وقبل الطلب من العبد وتفضل عليه رحمة به وعظماً عليه بأنه اذا فعل ما فعل من الجهالة و السفاهة فإنه يعفو عنه ويغفر له ويقبله اذا تاجاه، وليست هذه الفعلة مانعة عن العود الى الله، فليتدارك العبد أمره و لا يكرر فعل السفهاء، فإن العبد قبل نزول هذه الآيات كان جاهلاً

بالأحكام التي بينها الله فصار بعد نزولها عالماً بها.

وكذلك علم أن القيام إلى الصلاة بعد شربه الخمر وصيرورته سكراناً أو حينما يكون ناعساً شيء غير مقبول عند الله، فلا بد أن يكون صاحباً مميزاً لما يقول، فإذا بقي مصرّاً على فعله بعد العلم بالحكم يستحق الطرد والبعد.

و قد زادنا الله تبصرة حيث عرفنا بما عليه جماعة من الناس من إصرارهم على المعصية والمخالفة بعد العلم بالحكم فقال تعالى :

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤).

فإن الله قد ذم هؤلاء القوم الذين يعلمون بما في الكتاب وهم يخالفونه، فالذين يعلمونه هو الهدى ومخالفتهم له هو الضلالة، فهم يشترون الضلالة، أي: يأخذونها كما يأخذ المشتري السلعة ويدفع الثمن وهو - أي الثمن الذي دفعوه - هو الهدى.

ألا وإن العجب كل العجب في هذه الصفقة المشومة على أهلها، ويظهر معنى التعجب في قوله «ألم تر» سواء كانت الرؤيا قلبية أو بصرية، فإن هذا الفعل وهذه المعاملة لا يقدم عليها إلا المجنون بأن يعطي شيئاً في غايه الحسن و يأخذ شيئاً في غايه الخبث والسوء، يعطي شيئاً فيه الكثير من النفع الدائم الباقي و يأخذ شيئاً فيه كثير من الضرر الدائم الباقي، ليس هذا من فعل العقلاء، ولكن الحسد والبغض والحقد يحمل الإنسان على ذلك.

وأنت أيها المسلم بعدما عرفت هذه الأحكام من الآيات المنزلة على نبيه إذا خالفته وعصيت الله فيها يكون حالك كحال هؤلاء القوم، أي: أنك تشتري الضلالة بالهدى، وأحسن شيء أن امثل لك بأمر من أمور الدنيا فإنك تتعقلها قبل تعقلك

لامور الدين، فأقول لك:

لو عرضت عليك إحدى الوزارات التي تعطى لكل أحد في هذا العصر وأنت ترفضها وتختار وظيفة كناس يكنس الشوارع صباحاً ومساءً ويتلقى التراب والغبار حتى يمتلأ حلقه وعينه منهما، أترى هذا من العقل والتمييز؟ يا حبذا لو صرت كناساً ولكنه العذاب في نار جهنم.

ثم إن الله عز وجل نبه المسلمين الى شيء آخر في قوله: «ويريدون أن تضلوا السبيل»، نبهنا الله تعالى بأن هؤلاء الذين تركوا الهدى ورفضوه وأخذوا عوضه الضلالة لم يكتفوا بجعل الضلالة خاصة بهم بل يريدون أن يضلوا المسلمين بأن يخرجوهم عن الطريق المستقيم ويدخلوهم في الطريق المعوج المظلم الذي يتيه المرء بسلكه ولا يهتدي الى الدين و الى الاسلام، وإنما يخرج المرء من طريق الحق الى الباطل اذا تابع هؤلاء القوم و هم أهل الكتاب الذين عندهم علم من الكتاب وهي التوراة والانجيل، فهم يجيئون الى المسلم المتمسك بدينه فيخدعوه عن دينه و يدعون أنهم أعرف بالدين منه و أنهم يحبونه و ينصحونه و يطلبون منه المتابعة لهم.

وفي هذا العصر الذي صار الناس فيه بعيدين عن الدين يأتي أهل الكتاب الى صاحب القوة والسلطة فيقولون له نحن أعلم بالسياسة وقوانين الحكومات منك ونحن نحبك و نريد لك الخير والنفع، فاعمل بما نأمرك به حتى تبقى لك الرئاسة والامارة والملوكية. فإذا صار في طاعتهم أخذوا منافع البلاد وتركوا الشعب فقيراً معدماً معذباً والملك وحاشيته منعمين مترفين، فإذا خالفهم الملك في مسألة من المسائل غضبوا عليه وفعلوا به الأفاعيل العجيبة كما شاهد كل واحد منا ذلك في كثير من الملوك والرؤساء وغيرهم.

وقد نبه الله الملوك وغيرهم بأن هؤلاء القوم - وهم أهل الكتاب - يكذبون في دعواهم الحب والنصيحة لكم وإنما هم أعداء لكم فقال تعالى:

والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً (٤٥).

إن الله عز وجل يحب جميعاً الرئيس والمرؤوس، ويعلمهم أن هؤلاء القوم - وهم المعبر عنهم بأهل الكتاب، وهم الكفرة والمستعمرون للبشر، وهم الذين سلبوا أموال الناس وسلبوا دينهم وغيرتهم وشرفهم - يظهرون لكم الحب والمودة والنصيحة، ولكنهم يكذبون في دعواهم، وإنما هم أعداؤكم، وإنه يعلم السر وأخفى ويعلم وسوس الصدور، وإن قلوب القوم مشحونة من البغض والعداء لكم ولا يريدون إلا إضلالكم وإخراجكم من الطريق المستقيم .

وكانني بهذا الملك أو الرئيس المطيع لهم والتابع لهم في أقوالهم وأفعالهم يقول : إني إذا خالفتهم ولم أطبق ما يقولون أخشى أن يكيدوا بي وأن يدبروا حيلة في قتلي والفتك بي، فأقول أو يقول الملك أو للرئيس الذي يجالسه : إن الله تعهد لك أن يكفيك شرهم إن كنت تعتمد على الله وتصدق بوعده فإنه قال لك : **« وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً »**.

فإذا أنت عاملتهم كما أمرك الله - أي لم تتخذهم أولياء ولا تعامل المسلمين كما يأمروك ولا تظلم شعبك لأجل نفعهم ولا تطلب رضاهم بسخط الله - فإن الله قد تعهد أن يكون لك ناصراً وولياً ، وإذا كان الله هو وليك هل تظن أن أحداً يقدر أن يضرك؟ لكن الله اشترط مع ذلك شرطاً آخر وهو العدل في الرعية وعدم الظلم لهم والمساواة بينهم فلا ترجح منهم أحداً على غيره .

ولو أن ملوك ورؤساء الحكومات الإسلامية ساروا على هذا الطريق لما تمكن أذل الأمم وأحقر البشر أن يغتصبوا أراضيهم ويجعلوا حكومتهم فيها ويعتدوا عليهم في كل وقت، وأنا أودّ وكل مسلم يودّ أن يجعل ملوك ورؤساء الحكومات الإسلامية هذه الآية نصب أعينهم ويتذكروا مضمونها فيما بينهم : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلّوا السبيل *

والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً.

ثم أنزل الله بعد هذه الآية آيتين، الأولى منهما وهي قوله تعالى:

من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون
سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في
الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا و اسمع وانظرنا لكان خيراً
لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً (٤٦).

يصف فيها اليهود ويذكر أفعالهم السيئة وما قاموا به من أذى النبي ﷺ
ويحذر المسلمين عن موالاتهم ويأمرهم بالتباعد عنهم، ويبين للمسلمين أن اليهود
يطعنون في دينكم ويعيبون نبيكم فلا تصدقوهم ولا بكلمة واحدة.

وأما الآية التي بعدها فهي قوله تعالى :

يا أيها الذين اتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا صدقاً لما
معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أديبارها أو نلعنهم
كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً (٤٧).

يأمرهم الله فيها بالإيمان وبتصديق هذا النبي الذي عرفوا صدقه من التوراة
فلا يخالفوها، ثم يتوعدهم إذا هم لم يؤمنوا بتوعدهم أن يطمس وجوههم فيصدهم
على أعقابهم أو يلعنهم كما لعن أصحاب السبت.

وكل هذه الآيات لم تؤثر شيئاً معهم، وهذا التهديد والوعيد لم ينفع معهم،
فهم على عداوتهم للمسلمين يتربصون بهم الفرص، وقد اتفقوا جميعاً على المسلمين
ليضلّوهم عن دينهم وقد نجحوا مع كثير من المسلمين في ذلك، وينبغي للبقية الباقية

من المسلمين أن يحذروهم، وإلا فإنهم يضلّوهم عن دينهم كما أضلّوا غيرهم .

قوله تعالى : ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً (٤٨) .

إنّ ظاهر هذه الآية واضح لا يحتاج الى تفسير، والمعنى: أنّ الله يغفر لعباده كل ذنب اذا اقتضت مشيئته الغفران إلاّ الشرك به، أي: العبد الذي يجعل لله شريكاً في العبادة فهذا لا يغفر الله له، وما عدا هذا يرجع الى مشيئة الله، فهي واضحة الظاهر. وإنما الغرض من ذكرها هو بيان ما ذكره في مجمع البيان من سبب النزول ليعلم الانسان عظمة فضل الله عليه وكثرة حبه له وإرادة الخير لعبده، وأنّ العبد هو الذي يلقي نفسه في الشرّ بسوء اختياره، وإني أذكر هنا عبارة المجمع بعينها وهي ما يلي:

قال الكلبي: نزلت في المشركين ، وحشي وأصحابه وذلك، أنه لما قتل حمزة وكان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوف له بذلك، فلمّا قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا الى رسول الله ﷺ: إنا قد ندمنا على الذي صنعناه وليس يمنعنا عن الاسلام إلاّ أنا سمعناك تقول وأنت بمكة و الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ولا يزنون ،^(١) ، وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزيننا فلولا هذه لا تبعناك . فنزلت الآية وإلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً...^(٢) ، فبعث بهما رسول الله الى وحشي وأصحابه ، فلمّا قرأهما كتبوا إليه: إنّ هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً فلا نكون من أهل هذه الآية، فنزلت هذه الآية وان الله لا يغفر

(١) الفرقان : ٦٨ .

(٢) الفرقان : ٧٠ .

أن يشرك به ويفغر مادون ذلك لمن يشاء : فبعث بها إليهم فقرأوها فبعثوا إليه: إنا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته، فنزلت: «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً»^(١) فبعث بها إليهم، فلما قرأوها دخل هو وأصحابه في الاسلام ورجعوا الى رسول الله ﷺ فقبل منهم، ثم قال لو حشي: أخبرني كيف قتلت حمزة؟ فلما أخبره قال: ويحك غيب شخصك عني . فلحق وحشي بعد ذلك بالشام وكان بها الى أن مات^(٢).

هذا ما ذكره في سبب النزول ، ولكن الانسان إذا تأمل فيها يقطع بأن الله تعالى لا يهتم هذا الاهتمام العظيم بوحشي وإسلامه وأنه أنزل هذه الآيات كلها لأجل أن يسلم وحشي قاتل حمزة أسد الله وأسد رسوله فيعيش بين المسلمين آمناً مطمئناً ويبقى الى أن يموت يتعاطى الخمر ثم يموت من الخمر على ما ذكرنا في ترجمته ، مع أن النبي ﷺ قال له : غيب شخصك عني، فلو علم النبي منه أنه يسلم إسلاماً حقيقياً فيكون من المؤمنين لما قال له ذلك بل كان يستغفر له ويقره في المدينة ليكثر به المؤمنين ، ولكن وحشي أراد أن يحقن دمه وماله ويبقى سكيراً في كل أوقاته لا يتعرض له أحد من المسلمين .

وحيث إن الآيات التي قبل هذه الآية كلها كانت في ذم اليهود وفي بيان صفاتهم السيئة ونواياهم الفاسدة فهذه الآية آيستهم من شمول رحمة الله لهم وبيان عدم غفرانه لهم لأنهم كفروا وأشركوا ، وقد جاءت الآية التي بعدها في بيان مساوئهم وقبيح صفاتهم .

قوله تعالى: ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً (٤٩) .

(١) الزمر: ٥٣ .

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ٥٦ .

إن هذه الآية وإن كانت في مساق الآيات الدائمة لليهود ولكنها عامة في ذم كل من يزكي نفسه ويحمدها، فكل من يزكي نفسه فقد شهد عليها بالذم والنقصان وبعدها عن الله، وكل من وصف نفسه بوصف يميزها به عن سائر المؤمنين ولم تكن التسمية والوصف عن الله أو عن رسوله فإنه وصف يشهد بنقصانه واغتصابه لصفة غيره كما يسمى الشخص نفسه بأمر المؤمنين، فمن لم يجعل الله ورسوله هذه الأمانة له فإنها إمانة مزعومة لا حقيقة لها، فليتنظر الإنسان المميز لكل من تسمى بهذا الاسم «أمير المؤمنين» من يوم عرف هذا الاسم ومن يوم وجد المؤمنين إلى يومنا هذا ويحاسب المتسمين به فرداً فرداً، فهل أن الله ورسوله والمؤمنين يرضون به أن يكون أميراً للمؤمنين؟ أو أن المسمى به هو انتحال له لنفسه فيكون من مصداق الآية «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم» ويشمله ذم الله له وإنكاره عليه.

حكى عن الأحياء قال : قدم هشام بن عبد الملك حاجاً أيام خلافته فقال : آتوني برجل من الصحابة ، فقيل : قد تفانوا ، قال : فمن التابعين ، فأتني بطاووس اليماني ، فلمّا دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين بل قال : السلام عليك ، ولم يكنه وجاس بإزائه وقال : كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضباً شديداً وقال : يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟! قال : وما صنعت؟ فازداد غضبه فقال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ، ولم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين ، ولم تكنني ، وجلست بإزائي وقات كيف أنت يا هشام ، فقال طاووس : أمّا خلع نعلي بحاشية بساطك فإنني أخلعتها بين يدي ربّ العزة كل يوم خمس مرات ولا يغضب عليّ لذلك ، وأمّا قولك لم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب ، وأمّا قولك لم تكنني فإنّ الله عزّ وجلّ سمّي أوليائه فقال : يا داود ويا يحيى ويا عيسى وكنى أعداءه فقال : تبت يدا أبي لهب ، وأمّا قولك جلست بإزائي فإنني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال

هشام : عظمي، فقال طاووس: سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إن في جهنم حيتات كالللال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وهرب ^(١) انتهى.

إن هذا الرجل العالم العامل بعلمه المتمسك بأحكام دينه قد تخرج عن تسمية هشام بأمير المؤمنين لأنه لم يحرز رضا المؤمنين بأن يكون أميراً عليهم، بل يحرز العكس ويعتقد بعدم رضاهم، فإن الذي يكون أميراً على المؤمنين يلزمه أن يكون أعلمهم وأتقاهم وأقدمهم في كل شيء، حتى إذا عجز المؤمنون كلهم عن شيء فزعوا إليه فيكون عنده الحل الصحيح لكل قضية، دينية كانت أو دنيوية. فقد ظهر من موقف طاووس مع هشام أنه كما لا يجوز للمرء مهما كان عنده من صفات جميلة أن يسمى نفسه أمير المؤمنين كذلك لا يجوز لأحد أن يناديه بهذا ويقول له يا أمير المؤمنين، فإنه يكون مساعداً ومؤيداً له على الباطل.

أما إذا كانت التسمية من الله أو من رسول الله فلا بأس بمنااداته به ووصفه بهذا الوصف، ولذا سمعت طاووساً قد أطلق الوصف على الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مرتين في كلامه مع هشام لأنه على يقين من أن النبي وصفه به وسماه أمير المؤمنين في حياته.

أما من لم يعلم تسميته من النبي صلى الله عليه وآله فلا يقدر صاحب الدين أن يسميه أمير المؤمنين لأنه كذب على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين إلا أن يكون في مقام تقية.

أما وصف النبي صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام بأمير المؤمنين فقد ذكر في كتاب «فضائل الخمسة من الصحاح الستة» عن حلية الأولياء روى بسنده عن أنس قال: قال رسول الله (ص): يا أنس اسكب لي وضوءاً، ثم قام فصلى ركعتين ثم قال: يا أنس أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد

الغرة المحجلين وخاتم الوصيين . قال أنس : قلت : اللهم اجعله رجلاً من الأنصار وكتمته إذ جاء علي عليه السلام فقال : من هذا يا أنس ؟ فقلت : علي ، فقام مستبشراً فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه ، ويمسح عرق علي بوجهه . قال علي : يا رسول الله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما صنعت بي من قبل ! قال : وما يمنعني وأنت تؤدي عني وتسمعهم صوتي وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي ، قال أبو نعيم : رواه جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن أنس نحوه ^(١) انتهى .

وفي تاريخ بغداد بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : ليس في القيامة راكب غيرنا ونحن أربعة . قال : فقام عمه العباس فقال له : فداك أبي وأمي أنت ومن ؟ قال : أما أنا فعلى دابة الله البراق ، وأما أخي صالح فعلى ناقة الله التي عقرت ، وعمي حمزة أسد الله وأسود رسول الله على ناقتي العضاء ، وأخي وابن عمي وصهري علي بن أبي طالب على ناقة من نوق الجنة مدبجة الظهر رحلها من زمرد أخضر مضرب بالذهب الأحمر رأسها من الكافور الأبيض وذنبها من المنبر الأشهب وقوائمها من المسك الأذفر وعنقها من لؤلؤ ، وعليها قبة من نور الله ، باطنها عفو الله ، ظاهرها رحمة الله ، بيده لواء الحمد ، فلا يمر بملاً من الملائكة إلا قالوا : هذا ملك مقرب أو نبي مرسل أو حامل عرش رب العالمين ، فينادي مناد من لدنان العرش - أو قال من بطنان العرش - : ليس هذا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ولا حامل عرش رب العالمين ، هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين إلى جنات رب العالمين ، أفلح من صدقه وخاب من كذبه ، ولو أن عابداً عبد الله بين الركن والمقام ألف عام وألف عام حتى يكون كالشن البالي ولقي الله مبغضاً لآل محمد أكبره الله على منخره في نار جهنم ^(٢) .

وهذا المقدار يكفي دليلاً لاختصاص علي بهذا اللقب ، أما غيره فلا دليل

(١) فضائل الخمسة : ج ٢ ص ١١٤ نقلاً عن حلية الأولياء : ج ١ ص ٦٣ .

(٢) فضائل الخمسة : ج ٢ ص ١١٥ نقلاً عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ج ١٣ ص ١٢٢ .

على جواز وصفه به ، فالذي تحقق لنا من الآية الشريفة أنها تردّ على أهل الكتاب قولهم : «نحن أبناء الله وأحباؤه» ^(١) وقولهم : «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى» ^(٢) وفيها ذمّ وردّ على كل من وصف نفسه بصفة تميّزه عن سائر المسلمين وتفضّله عليهم إلا أن تكون من الله والرسول كما ينبّه على ذلك قوله تعالى : « بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً » ، فإنّ من كان مستحقاً لصفة حسنة استحقها بعمل خالص ونية خالصة فإنّ الله يزكّيه ويصفه بما يستحق . ثم أمر الله النبي ﷺ و كل ذي عقل ورأي وتمييز أن يتأمل في هؤلاء القوم الذين يزكون أنفسهم ويختارون لها الألقاب الكاذبة افتراءً على الله وعلى رسوله فقال تعالى :

انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى بهائماً هبيناً (٥٠).

إنّ نزكية النفس بالشيء الذي يسند الى الله تعالى هو إثم عظيم ، والآية الشريفة تسمّيه افتراءً على الله وذلك مثل قول اليهود والنصارى «نحن أبناء الله وأحباؤه» وقولهم : نحن أزكياء عند الله ، وكذا الألقاب التي لا يمكن أن تعطى إلا من قبل الله والرسول كلقب أمير المؤمنين ويعسوب المتقين فإنه ادعاء بلا حجة .

أما الامور الاخر التي لا ربط لها بغيره كقول القائل : إني ما تركت الصلاة ولا الصيام مدة عمري ، أو : ما قتلت نفساً ، فهذه وأمثالها لا بأس بها لأنها لا تمسّ بغيره ولا يريد صاحبها بها خلافة أو تأمراً على أحد ، فكل من نسب نفسه الى صفة تكفيه فخراً وثواباً بحيث لا يحتاج معها الى عمل آخر ، وأنّ هذه النسبة تكفيه للفوز في رحمة الله والخلود في جنانه كقولهم : نحن أحباء الله ، ولازم المحبوب الفوز برحمة المحب ، وكذا من سمّى نفسه أمير المؤمنين ، ولازم

(١) المائدة : ١٨ .

(٢) البقرة : ١١١ .

الأمير أن يكون أكثر المؤمنين أفعالاً ، فإذا كان كذلك يكون أكثرهم ثواباً وجزاءً ، فهو المقدم في الآخرة عليهم فمن نسب نفسه لشيء وهو كاذب مجازف مخادع فإن الله يقول « وكفى به إثماً مبيناً » أي : أنه نسب نفسه لشيء يكفيه عن كل عمل ، فكذلك جعل الله إثمه كافياً عن كل إثم آخر وهو يوجب له العذاب الدائم .

فاعرف أيها المسلم أن كلمة أمير المؤمنين كانت مستعملة عند الناس مع ملوك بني أمية وبني العباس وهم لا يرون بها بأساً ولا يترجون منها ، وأن الله قد خص بها شخصاً واحداً وهو الذي وصفه النبي ﷺ ، فمن جاء بحديث أو خبر أو رواية أن النبي خاطب بها أحداً أو وصف بها شخصاً غير علي بن أبي طالب عليه السلام فليتحفنا بها حتى يتضح لنا الأمر ، ولو أن معاوية بن أبي سفيان التفت الى هذا الأمر لأعطى شيئاً من المال الى رواة السوء وأمرهم أن يرووا حديثاً عن النبي ﷺ أنه قال فلان أمير المؤمنين ، ولكن الناس خاطبوهم به جزافاً من دون التفات وتعق في معناه « وكفى به إثماً مبيناً » .

قوله تعالى : ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً (٥١) .

إن هذه الآية الشريفة كما قيل إنها نزلت في من كان قبلنا من أهل الكتاب حيث إنهم انصفوا بهذا الفصل وهذا القول ، أي : إيمان بالجبت والطاغوت وحكم باطل وقول زور وكذب بأن الكافرين أهدى سبيلاً من المؤمنين .

كذلك قيل : إنها نزلت في جماعة ممن أسلموا ورجعوا الى الجبت والطاغوت بعدما سمعوا آيات الكتاب وسمعوا أحاديث النبي ﷺ .
أما بالنسبة لمن كان قبلنا من أهل الكتاب فقد قيل : إن كعب بن الأشرف

خرج في سبعين راكباً من اليهود الى مكة بعد وقعة احد ليحالفوا قريشاً على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دور قريش فقال أهل مكة لهؤلاء اليهود: إنكم أهل كتاب وتحمّد صاحب كتاب فلا تأمن من أن يكون هذا مكرأ منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما، فسجد كعب للصنمين وآمن بهما. ثم قال كعب: يا أهل مكة ليحيى منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلصقاً كبادنا بالكعبة فتعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمّد، ففعلوا ذلك، فلمّا فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم، فأبنا أهدى طريقاً وأقرب الى الحق نحن أم محمّد؟ قال كعب: أعرضوا على دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكرماء ونسقيهم الماء ونقري الضعيف، ونفكّ العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمّد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمّد الحديث، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمّد، فأنزل الله الآية، هذا بالنسبة الى الامم السالفة^(١).

و أمّا بالنسبة الى امّة محمّد ﷺ فقد قيل: كان أبو برزة كاهناً في الجاهلية فتنافس إليه ناس ممن أسلم فنزلت الآية^(٢).

و أمّا الآية فهي عامّة تشمل كل أهل الكتاب الذين تركوا حكم كتابهم وسنة نبيهم ورجعوا الى من لم يحكم بما أنزل الله المعبر عنه بالجبت والطاغوت. فأما الجبت والطاغوت فقد قيل: إنهما صنمان لقريش^(٣).

وقيل: إن الجبت صنم، والطاغوت كلما يعبد من دون الله^(٤).

وقيل: إن الجبت الساحر، والطاغوت الشيطان^(٥).

وقال بعضهم: الجبت السحر، وقيل: الجبت الساحر، والطاغوت الكاهن^(٦).

(١-٣) مجمع البيان : ج ٢ ص ٩٥ .

(٤-٦) مجمع البيان : ج ٢ ص ٦٠ .

وقيل: إن الجبت حي بن أخطب اليهودي ، و الطاغوت كعب بن الأشرف،
لأنهما حكما أن الذين كفروا أهدى من الذين آمنوا سبيلاً^(١) .

وقيل: إن الجبت والطاغوت كلما يعبد أو يطاع من دون الله^(٢) .

ونحن لا يهمننا ما نزل في اليهود من الذم واللعن وبيان أفعالهم السيئة، وإنما
أمرنا بمقاطعتهم وحر بهم، فإنهم في كل زمان حرب لنا ويلزمنا أن نكون حرباً بهم.
والذي يهمننا من الآية أن لا نكون ممن تنطبق عليه ، ولا نكون ممن ترك
الكتاب والسنة ورجع الى الطاغوت ، أي : اتخذ له ولياً لم يأمر الله والرسول
باتخاذ ولياً ، وهو الذي لم تكن إمارته من الله ، ولم تجتمع فيه شروط الامارة
من العلم بجميع العلوم والعصمة و كونه أفضل من جميع الناس في كل شيء ،
وقد ذكرت شروط المرجع العام في قوله تعالى : «والذين كفروا أولياؤهم
الطاغوت»^(٣) .

ونرى كثيراً من الناس يقول في حق من يتولاه من الجاهلين من جميع الجهات:
إنه أهدى من المؤمن العالم الكامل في جميع الصفات، فإنه يخالف حكم العقل وصريح
الآية والسنة لأجل هوى نفسه، فيقدم الناقص على الكامل والمفضول على الأفضل
حتى يشمل قوله تعالى:

اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً (٥٢).

الاشارة بقوله «اولئك» تكون الى القوم الذين يحكمون أن الكافرين أهدى
من المؤمنين سبيلاً، الذين يفضلون الكافرين على المؤمنين، سواء كان الكافر والمؤمن
فردين أو جماعتين، فإن الذي يفضل رجلاً كافراً على رجل مؤمن أو رجلاً جاهلاً
على رجل عالم بجميع العلوم فإنه يتولى ذلك الذي يفضله دون الآخر المفضل

عليه الذي عنده الأحكام المأمور بها من قبل الله ورسوله، فمن فعل هذا توجه عليه اللعنة من الله وليس له نصير من دون الله.

إن كل واحد منّا مكلف بأن يعرف أفضل الأمة فيتولاه، وإذا تركه وتولى المفضول شملته هذه الآية وعمته اللعنة من الله، فإن الإنسان مكلف بنفسه ولا يكفيه أن يتبع ما وجد عليه أباه وجدته، بل ينبغي له أن يتبع ما أمر به النبي ﷺ من التمسك بالثقلين، وهو حديث مشهور ليس فيه شك ولا شبهة.

إن هذا وإن كان كافياً لطالب الرشد ولكن نريد القارىء تبصرة بما في اسد الغابة لابن الأثير في ترجمة أبي ليلى الغفاري حيث ذكر حديثاً مسنداً عنه قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : ستكون بعدي فتنة ، فإذا كان ذلك فالزموا علي بن أبي طالب ، فإنه أول من يراني ، وأول من يصفحني يوم القيامة ، وهو الصديق الأكبر ، وهو فاروق هذه الأمة ، يفرق بين الحق والباطل ، وهو يعسوب المؤمنين ^(١).

ثم إن الله - بعدما ألفت أنظار الناس إلى هؤلاء القوم الذين فضلوا المشرك على المؤمن ، وقدموا المفضول على الأفضل ، وتبعوا الجاهل بالعلم والعرفان ، وفارقوا صاحب الثروة العلمية وصاحب الدين والسماحة والأخلاق الفاضلة بأجمعها - بعد ذلك أعلن للناس أنه وجه لعنته على هؤلاء القوم بصورة لا يجدون مجالاً للتخلص منها. ثم وجه الله سؤالاً إنكارياً يدل على ذمهم وتوبيخهم ، وأن حكمهم الذي أصدره والذي عملوا به وساروا عليه إنما هو ناشئ عن جهل ولم يستند إلى حجة ، وأن الله لم يوجه السؤال إليهم تحقيراً لهم وبياناً للناس عن ذلهم بل وجه السؤال لكل من يسمع ويعقل فقال تعالى :

أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً (٥٣).

أي: أن القوم الذين تقدم ذكرهم وهم الذين يفضلون المفضل على الفاضل فإنهم في غاية الجهل إذ لا يوجد عاقل يقدم على هذا العمل، فهل أن الملك الذي هو من المناصب الإلهية كالنبوة والامامة والخلافة والرياسة الدينية يملكون شيئاً منها ويكون اختيار الأنبياء وتفضيل الأديان وأهلها بيدهم فيعرفون الأفضل منها وغير الأفضل؟ و لو أنها كانت بيدهم وكانوا يملكون ذلك ما كانوا يعطون أحداً منها مقدار النكير، و هي النقطة في ظهر النواة، أو ما يؤخذ بالمنقار و هي الحبة الواحدة .

فهؤلاء القوم في غاية الجهل و في غاية البخل، والمؤمن المطيع لله هو الذي يقدم من قدمه الله من ذوي العلم الذين ينفعون الناس بعلومهم ولا يبخلون بها على أحد .

أما الذي سمع كلام الله وعرف الحق من الباطل ويميز بينهما و هو مع ذلك يقول: إن المشرك والجاهل أحسن من المؤمن العالم، فهذا ليس عنده شيء من الإيمان و هو يريد أن يتلاعب في الدين ويخدع أهل الدين السذج حتى يخرجهم عن دينهم .

ولما كان هذا الأمر معدوماً - أي ليس لهم نصيب من الملك و ليس بيدهم شيء من الأمر - يكون السبب فيما قالوه و ما فعلوه من تقديم المفضل وترجيح المشرك على المؤمن هو الشق الثاني الذي ذكره الله تعالى بقوله:

أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً (٥٤).

بيّن في هذه الآية أن سبب ذلك الحكم - الآخرق المشوه الذي لا يقبله طفل ولا مجنون بل لا يقبله طفلة مجنونة يهودية وهو الحكم بأن المشرك أحسن

من المؤمنين هدايةً وطريقاً، وأنّ الجاهل بكل شيء أولى بالاتباع من العالم بكل شيء، فإنّ هذا الحكم لا تقبله حتى البهائم، أنّ السبب الوحيد في هذا الحكم - هو الحسد لمن أعطاه الله من فضله.

والمقصود من الفضل في قوله «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» هو الكتاب والحكمة وليس المقصود منه الأموال الدنيوية، فإنّ المال وإن كان هو أهمّ الأشياء وأفضلها عند اليهود وعند من لم يقدر العلم، ولكنه عند الله هو الذي يقرب عباده إليه من العلم والحكمة.

ويدلّ على كون المقصود من الفضل ما ذكر في الجملة التي بعد هذه الجملة من الآية وهي قوله تعالى: «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً».

فإنّ الله قد أعرض عن خطاب هؤلاء الذين قرروا الحكم الجنوني إذ ليس لهم لياقة للخطاب، فإنّ الذي يصلح للخطاب هو الذي يعقل الخطاب، وهؤلاء بعد حكمهم بغير المعقول صاروا بمنزلة ما لا يعقل.

وقد وجّه الله الخطاب لذوي العقول من الناس وعرفهم بأنّ هؤلاء القوم ظنوا أنهم بفعلهم هذا - وهو تفضيل الكافر على المؤمن وترجيح الجاهل على العالم - سوف يسبب للناس الضلال والارتداد عن الدين، ويسبب الزوال والانقطاع لهذا الفضل من الله.

وبعبارة أوضح: أنّ اليهود حسدوا النبي ﷺ حيث إنه سبب انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى قريش، وبعض العرب حسدوا آل النبي ﷺ حيث إنه - أي النبي ﷺ - أمر الأمة بالرجوع إليهم وجعلهم عدلاً للقرآن كما ورد في حديث الثقلين، ففضل اليهود الكافرين على المؤمنين حسداً منهم للنبي ﷺ، وفضل بعض المسلمين المفضول على الفاضل حسداً منهم لآل النبي ﷺ وقالوا: لا تكون النبوة والامامة في بيت واحد قولاً بلا حجة ولا دليل.

وقول اليهود يرجع الى تفضيل المفضول على الفاضل ، وأن المقصود من الناس المحسودين في الآية هو النبي وآله عليهم السلام حيث إن الله اصطفاهم وفضلهم على العالمين ، وإن هؤلاء القوم الذين حسدوهم ظنوا أن قولهم السخيف وتفضيلهم الجاهل على العالم والمشارك على المؤمن ظنوا أن قولهم يكون له الأثر الكبير ويسبب رجوع الناس الى الكفر ، فإذا رجع الناس كلهم الى الكفر تبطل نبوة محمد بزعم اليهود وإمامة آل محمد بزعم الحاسدين من العرب .

لكن الله قد أبان عن خيبة أملهم وسخافة ظنهم ونقصان عقولهم بقوله تعالى «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مأكلاً عظيماً أي: أن الله قد أراد وقضى وحتم أن يعطي آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم ، وآل إبراهيم الماضين والحاضرين والأولين والآخرين ، فمن الأولين الماضين إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم ، ومن آل إبراهيم الآخرين الحاضرين محمد وآله ، فقد آتاهم الله الكتاب والنبوة والحكمة ، وهي أسرار الأحكام والملك العظيم وهو القضاء الحقيقي والامامة إماماً بعد إمام لا انقطاع لها .

روى العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» أنه قال : فمنح المحسودون على ما آتانا الله من الامامة دون خلق الله جميعاً ، وقوله : «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مأكلاً عظيماً» يقول : فجعلنا منهم الرسل والأنبياء والأئمة فكيف يقرون بذلك في آل إبراهيم ونكروا في آل محمد عليهم السلام قال : قلت : قوله في آل إبراهيم : «وآتيناهم مأكلاً عظيماً» ما الملك العظيم ؟ قال : أن جعل منهم أئمة ، من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم ^(١) .

ثم الجزء الأول من الكتاب وسيليه إن شاء الله الجزء الثاني منه - حسب تجزئة المؤسسة - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

- فهرس الاحاديث
- فهرس المحتويات

فهرس الاحاديث

- أ -

٤١	: أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة	النبي
١٩٧	: أناخذ مال هذا فتعطيه هذا ...	الصادق
٣٧٦	: أنااني مالك فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة	النبي
٣٥٦	: أتعجب يا معاذ أن يقضى الله دينك ؟	النبي
٢٩	: أتدرون متى يتوفر على هذا المستمع وهذا القارىء هذه المثوبات	النبي
٣٧٧	: أترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الامة ؟	النبي
٢٠٢	: أتعرف الأسباط ؟	النبي
٢٩٢	: اتقوا الله ولا تغلظوا فلسنا كما بلغكم	الباقر
٣٠	: اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات	النبي
٢٠٤	: اثنا عشر عدة نقباء بني إسرائيل	النبي
٥٠٧	: اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك	النبي
٣٢٦	: أحسنت ، اعطوه ألفي درهم	للكاظم
٥١٠	: احفظوا وصيتي في أمر نسائكم حتى تنجوا من شدة الحساب	النبي
٥٣٩	: أخبرني كيف قتلت حمزة ؟	النبي
٤٦٢	: أداء الفرائض واجتناب المحارم والاشتغال على المكارم	أمير المؤمنين

- ٣٢٢ الحسن المجتبي : أدبنا الله تعالى فقال «واذا حييتم...»
- ٣٢٥ الصادق : ادفعها الى رجل من بني هاشم ولا ...
- ٣٧ العسكري : آدم لنا توفيقك الذي به أطعمناك
- ٣٥٤ النبي : اذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الى الله ...
- ٤١١ الصادق : اذا اجتمع الناس بمنى نادى مناد : أيها الجمع ...
- ٤٠٨ الباقر : اذا أحدث العبد في غير الحرم جنابة ثم فرّ الى ...
- ٥٤٠ أمير المؤمنين : اذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر ...
- ٢٣١ النبي : اذا أعطيتني ذلك كله فردني
- ٢١٤ أمير المؤمنين : اذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة
- ٣٧٥ النبي : اذا أنا دعوت فأمنوا
- ٢٠٥ النبي : اذا انقضت مدة الحسين فالامام ابنه علي
- ٩٢ زين العابدين : اذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي منادٍ ...
- ٤٤٨ مجهول : اذا جثت الامم بين يدي الله يوم القيامة ...
- ٣٢٥ الصادق : اذا خفت أمراً فاترك يمينك على امّ رأسك واقراء ...
- ١٣٤ الصادق : اذا دعوت فظن أن حاجتك بالباب
- ٤٥٢ النبي : اذا صليت العصر فاستغفر الله سبعاً وسبعين مرة
- ٣٢ الرضا : اذا قال المعلم للمصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم ...
- ٤٨٥ الصادق : اذا قالت له : لا أغتسل لك عن جنابة ولا ...
- ٣٢٨ الباقر : اذا قام قائم أهل البيت قسم بالسوية
- ٣٣ النبي : اذا قرأت الحمد لله فاقراءوا بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢٠٢ النبي : اذا مضى الحسين فابنه علي ، فإذا مضى ...
- ٤٥٩ مجهول : اذا منعت الزكاة ساءت حال الفقير والغني
- ٤٥٩ أمير المؤمنين : اذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها

- الحسن المجتبى : اذهب واكتب حاجتك في رقعة وارفعها إلينا ٣٢٢
- أمير المؤمنين : أراقدا أنت يا حبة أم راقم؟ ٣١٧
- أمير المؤمنين : أراقدا أنت يا نوف؟ ٣١٨
- النبي : أربعة يؤذون أهل النار مع ما بهم من الأذى ٤٨٧
- النبي : ارجعوا فهذا جبرائيل أتاني ٥٠٠
- النبي : أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خيراً ٥٠٠
- الصادق : ارشدنا للزوم الطريق المؤدي الى محبتك ٣٨
- للكاظم : أسألك مسألة فإن أصبتها أعطيتك ٣٢٦
- الصادق : استعبدكم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه ١١١
- أمير المؤمنين : استنزلوا الرزق بالصدقة ٢١٤
- أمير المؤمنين : الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين ٣٤٥
- الصادق : اصبروا على دينكم وصابروا عدوكم ممن يخالفكم ٤٦٧
- الصادق : اصبروا على المصائب وصابروا على الفرائض ٤٦٧
- الصادق : اصبروا على المصائب وصابروهم على الفتن ٤٦٧
- الصادق : اصبروا عن المعاصي وصابروا على الفرائض ٤٦٧
- الباقر : الاصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا... ٤٥١
- النبي : أطت السماء وحق لها أن تئط ٣٧٢
- النبي : اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ٧٢ و ٣٦
- الصادق : إعراب القلوب على أربعة أنواع ٥٧
- النبي : أعلم الناس من جمع علم الناس الى علمه ٢٦٧
- أمير المؤمنين : اعلم أن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ٢١٤
- زين العابدين : أفضل البقاع ما بين الركن والمقام ٤١١
- النبي : أقضاكم علي بعدي ١٩٧ و ٢٨٨ و ٤١٩

- النبي : أقضى امتي علي ١٩٧
- النبي : أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري ٣٧٢
- الصادق : أكبر الكبائر الشرك بالله ٤٩٢
- النبي : أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً ٢٦٧
- للصادق : أكثروا من أن تقولوا : ربنا لا ترغ ... ٢٦٧
- النبي : ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ٥٦
- النبي : ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم ١٣٠
- أمير المؤمنين : ألا إن العالم الذي هبط به آدم من السماء ... ١٦٣
- الباقر : الذي يمنع الزكاة يحول الله تعالى ماله يوم القيامة ... ٤٥٩
- علي الهادي : الزم الاستغفار ٤٥٢
- النبي : اللهم إذا أعطيتني ذلك فزدني ٢٣١
- النبي : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ٨٣
- زين العابدين : أما أمه لم يمنعني أن أظمنه أولاً إلا ... ٣٢٤
- النبي : أما كان يحلون لكم ويحرمون نتأخذون بقولهم ؟ ٣٨٣
- الصادق : أما والله إن كانت أعمالهم أشدّ بياضاً من القباطي ٥٩
- زين العابدين : أما والله ثلث دينك عليّ ٣٢٤
- أمير المؤمنين : أما والله لقد تقمّصها فلان وإنه يعلم ... ٣٠١
- الصادق : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله ٤٣٢
- النبي : المرأة إذا خرجت من باب دارها متزينة متعطرة ... ٥١٠
- النبي : أما التي شدّ يداها إلى رجلها وسلط عليها الحيات ... ٥٠٨
- النبي : أما التي كان رأس خنزير وبدنها بدن حمار ... ٥٠٨
- النبي : أما التي كان يحرق وجهها وبدنها ... ٥٠٨
- النبي : أما التي كان يقرض لحمها بالمقاريض ... ٥٠٨

- النبي : أمّا التي كانت على صورة الكلب ... ٥٠٨
- النبي : أمّا أخى صالح فعلى ناقة الله ٥٤٢
- النبي : أمّا اذا فعلت ذلك بي وبأمتي ... ٢٣١
- النبي : أمّا اذا ما فعلت ذلك بنا ... ٢٣٠
- النبي : أمّا الصماء العياء الخرساء .. ٥٠٨
- أمير المؤمنين : أمّا الكفر المذكور في كتاب الله تعالى فخمسة وجوه ٢٥٥
- النبي : أمّا أنا فعلى دابة الله البراق ٥٤٢
- النبي : أمّا المعلقة بشديها فإنها كانت تمنع من فراش زوجها ٥٠٨
- النبي : أمّا المعلقة برجليها فإنها تخرج من بيتها بغير إذن زوجها ٥٠٨
- النبي : أمّا المعلقة بشعرها فإنها كانت لا تغطي شعرها ٥٠٨
- الحسين : أمّا خمسمائة فاقض بها دينك وأمّا ... ٣٢٤
- العسكري : أمّا قوله الذي ندبك إليه وأمرك به عند قراءة القرآن ٣٠
- الباقر : أمّا لولا أنه مات ما حدثتكم عنه ٢٠٩
- النبي : أمّا ما ليس لله فليس لله شريك ٢٠٥
- الصادق : أن تصدق وأنت صحيح شحيح ٢١٤
- الصادق : أن جمل منهم أئمة من أطاعهم أطاع الله ومن ... ٥٥٠
- الصادق : أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك ٤٨
- الصادق : أن يتدع شيئاً فيتوكل عليه ويبرأ ممن خالفه ٤١
- أمير المؤمنين : إن أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان ... ٣٥٠
- أمير المؤمنين : إن طال بكأوك في هذا الليل مخافة الله تعالى ... ٣١٨
- أمير المؤمنين : إن كذبت في مقالك هذا ضربك الله ببياض ... ٥٢٥
- الصادق : إن يكن الآخر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون ... ٥٢٤

١٨٢	النبي	: أنا دار الحكمة وعلى بابها
٣٤٥ و ٢٠٧ و ١٨٢ و ١٦٢ و ١٣٩	النبي	: أنا مدينة العلم وعلى بابها
٥١٦	النبي	: أنا وأنت أبوا هذه الأمة
٣٢٢	الحسن المجتبي	: أنت حرة لوجه الله
٣٠١	النبي	: أنت مني بمنزلة هارون من موسى
٤٢٨	النبي	: أنتم تتمتون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها
٣٣	النبي	: أنزلت علي آتفا سورة
١١٢	النبي	: انصرف الرجل وهو فقيه
٥١١	النبي	: انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء
١٣٠	الصادق	: إن آدم ^{عليه السلام} لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً
٤٣٠	النبي	: إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر
١٠٩	الصادق	: إن أفضل الفرائض وأوجبها على الإنسان معرفه الرب
٣٨١	الصادق	: إن أمير المؤمنين سئل عن فضائله فذكر بعضها
٤٩٧	الصادق	: إن الأرزاق مضمونة مقسومة
٤٣٢	الصادق	: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضتان واجبتان
٤٥٩	النبي	: إن البخيل حق البخيل هو مانع الزكاة
٤٨٤	الصادق	: إن الرجل تكون في حجره اليشيمة القريبة له ...
١٩٣	الصادق	: إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا
٤٤	العسكري	: إن القرآن الذي افتتح به دالم هو ذلك الكتاب الذي أخبر ...
٣٦٦	النبي	: إن القرآن والعترة لا يفترقان حتى يرثي علي الحوض
٣٤٥	أمير المؤمنين	: إن الكافر يعرف كفرانه بإنكاره
١٩٨	الكاظم	: إن الكلمة من الحكمة ضالة المؤمن
٥٠٦	الباقر	: إن الناجي من الرجال قليل ومن النساء أقل

- الرضا : إن الله أبان فضل العترة على سائر الناس ٣٧٠
- النبي : إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذهُ خليلاً ٣٦٧
- أمير المؤمنين : إن الله أقرب إليّ وإليك من حبل الوريد ٣١٧
- أمير المؤمنين : إن الله أمر عباده أن يستعيذوا به من طريق المغضوب عليهم ٣٩
- النبي : إن الله تبارك وتعالى قد غفر لك ولأبيك ٥٠٧
- الصادق : إن الله تبارك وتعالى يقول: من شغل بك كرى عن مسألتى... ٥٦
- النبي : إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثوا به أنفسهم ٢٣٢
- النبي : إن الله تعالى آتاني القرآن... ١٩٧
- النبي : إن الله تعالى أحب شيئاً لنفسه وأبغضه لخلقه ٤٩٧
- الباقر : إن الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من... ٤٨١
- أمير المؤمنين : إن الله تعالى ذكره لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض... ٤٣٢
- الباقر : إن الله جلّ ذكره أنزل على نبيه كتاباً ٢٨٨
- الحسين : إن الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا... ١١٠
- أمير المؤمنين : إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ٤٦٠
- أمير المؤمنين : إن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا... ٤٣١
- الباقر : إن الله عز وجل كتب على الرجال الجهاد وعلى النساء... ٥٠٦
- النبي : إن الله عز وجل لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ٤٤٥
- الكاظم : إن الله قد حكى عن قوم صالحين أنهم... ٢٦٦
- الكاظم : إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيء فيقول لا أدري ٣٧١
- أمير المؤمنين : إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة ٦٧
- الصادق : إن الله يحب المفتتن التواب ٣٢٢
- النبي : إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها ٣٧٦

- النبي : **إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَاتِ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا إِلَّا الطَّيِّبَ** ١٧٤
- أمير المؤمنين : **إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَخَذَ دِينَهُ عَنْ رَبِّهِ وَلَمْ يَأْخُذْهُ عَنْ رَأْيِهِ** ٣٤٥
- أمير المؤمنين : **إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْرِفُ إِيمَانَهُ فِي عَمَلِهِ** ٣٤٥
- النبي : **إِنَّ الْمَلِكَ يَنْزِلُ الصَّحِيفَةَ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ وَأَوَّلِ اللَّيْلِ** ٥٨
- الرضا : **إِنَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْرَبَ إِلَى اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ مِنْ...** ٣٢
- مجهول : **إِنَّ حُجَّةَ مَقْبُولَةٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** ٤١١
- الصادق : **إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَتَاهُ حَبْرَانِ مِنْ أَحْبَارِ النَّصَارَى** ٣٨١
- الباقر والصادق : **إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَحَدَ الْوَالِدَيْنِ وَعَلَى الْآخَرِ** ٥١٦ و ٥١٧
- مجهول : **إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى** ٩٢
- زين العابدين : **إِنَّ صَدَقَةَ السَّرِّ تَطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ** ٢٠٨
- النبي : **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهَا الرِّيَّانُ** ١٣٠
- النبي : **إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلاً** ٢٧٧
- أمير المؤمنين : **إِنَّ فِي جَهَنَّمَ حَيَّاتٍ كَالْتَّلَالِ وَعَقَارِبٍ كَالْبَغَالِ** ٥٤١
- الصادق : **إِنَّ قَوْماً أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : ...** ٥٠٥
- النبي : **إِنَّ لِلْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهَا بَابُ الْمَعْرُوفِ** ٤٤٩
- الصادق : **إِنَّ لِلَّهِ بَقَاعاً تُسَمَّى الْمُنْتَقِمَةِ** ٤٥٩
- الباقر : **إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً مِيَامِينَ مِيَا سِيرَ** ١٣٣
- النبي : **إِنَّ لِلَّهِ مَلَكاً يَنَادِي عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ كُلَّ لَيْلَةٍ ...** ١٠٤
- أمير المؤمنين : **إِنَّ لِلَّهِ مَوْقِفاً وَلَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ مَوْقِفاً** ٣١٦
- النبي : **إِنَّ مَانِعَ الزَّكَاةِ أَحَدٌ مِنْ كُفْرٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ** ١١٥
- النبي : **إِنَّ مَانِعَ الزَّكَاةِ مَلْعُونٌ وَلَا تَقْبَلُ مِنْهُ الصَّلَاةُ** ٤٥٩
- الصادق : **إِنَّ مَعْنَاهُ لَا تَخَاطَرُوا بِنَفْسِكُمْ فِي الْقِتَالِ** ٤٨٨
- مجهول : **إِنَّ مَنْ مَسَحَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّماً لَهُ أَعْطَاهُ ...** ٥١٨

- النبي : إن وصي علي بن أبي طالب ٢٠١
- النبي : إن وصي وموضع سري وخير من أترك ... ٢٣٨
- النبي : إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة ٢٠٤
- النبي : إن هذا الانظار يؤجر عليه صاحب المال ٢٢٦
- النبي : إن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم ٣٧٣
- الصادق : إن هذه علامات قدام القائم ٦٧
- الباقر : إنا نحن ثوارث الكمال والتمام ٢٨٧
- النبي : إنكم في زمان هدنة ١١١
- النبي : إنما أخاف على امتي ثلاثاً ٣٩
- الصادق : إنما حرم الله عز وجل الربا لئلا يمتنع الناس من ... ٤٤٥
- أمير المؤمنين : إنما سمي الدرهم درهماً لأنه دار هم ٣١٩
- أمير المؤمنين : إنما سمي الدينار ديناراً لأنه دار نار ٣١٩
- الصادق : إنما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف من المنكر ٤٣٠
- أمير المؤمنين : إنه لم يهلك من كان من الامم إلا ... ٤٣١
- أمير المؤمنين : إنه لن يحجبني ولا إياك عن الله شيء ٣١٧
- أمير المؤمنين : إنه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله من ... ٣١٨
- أمير المؤمنين : إنه ليس من قطرة قطرت من عين رجل من خشية الله إلا ... ٣١٨
- أمير المؤمنين : إنه من أحب في الله لم يستأثره على محبته ٣١٨
- النبي : إنه من لقي الله عز وجل يشهد ... ١١٠
- النبي : إنه يقع في هذه الأمة ما وقع في بني إسرائيل ٣٠٠
- النبي : إنني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ٢٧٠ و ٢٧٦ و ٣١١ و ٤١٥ و ٤١٩
- النبي : إنني تارك فيكم حبلين إن أخذتم بهما ... ٤٢٢ و ٤١٩
- النبي : إنني تارك فيكم خليفين ١٦٢

- النبي : إني تارك فيكم ما إن تمسكتكم بهما لن تضلوا بعدي ٢١٨ و ١٦٧ و ١٣٩
- الباقر : إني قد كبرت عن الرمي ٢٨٦
- النبي : إني لأجد لنبي إلا نصف عمر الذي قبله ١٦٢
- النبي : إني لأجد ريح يوسف فأحس بها من مسيرة أيام ٣٧٣
- أمير المؤمنين : إني لأعجب من أقوام يشترون المماليك بأموالهم ولا... ٤٤٩
- النبي : إني مخاف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ٢٦٢ و ٢٥٢ و ٢٤٧ و ٤١
- ٣٠٦ و ٣٤٤ و ٣٦٤ و ٣٨٥ و ٥١٧
- النبي : إني وأهل بيتي مطهرون فلا نسبقوهم فتضلوا ١٦٣
- النبي والباقر والصادق : أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ٤٤٩
- الباقر : أهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة ٤٤٩
- الصادق : أوحى الله تعالى إلى موسى... يا موسى لخلوف فم الصائم... ١٣٠
- النبي : أوحى الله تعالى إلي أن يا أخا المرسلين... ٥٩
- النبي : أوصيائي الاثنا عشر ٢٠٥
- الحسين : أوصيكم بتقوى الله فإن الله قد ضمن لمن اتقاه... ٤٦
- الباقر : أول أهل الجنة دخولا إلى الجنة أهل المعروف ٤٤٩
- الباقر : أول أهل النار دخولا إلى النار أهل المنكر ٤٤٩
- النبي : أولهم سيد الأوصياء أبو الأئمة علي ٢٠٥
- الصادق : الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى ١٠٩
- الصادق : الإيمان عقد في القلب وإقرار في اللسان ١٠٩
- زين العابدين : أي البقاع أفضل؟ ٤١١
- أمير المؤمنين : إيتاكم والجزع فإنه يقطع الأمل ٣٠٥
- النبي : أيتما امرأة آذت زوجها بلسانها لم يقبل الله منها صرفاً... ٥٠٥
- الباقر : أيتما امرأة بانت وزوجها عليها ساخط في حق ٥٠٦

- النبي : أَيْتَمَا امْرَأَةٌ تَطِيبَتْ لِغَيْرِ زَوْجِهَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا صَلَاةٌ ٥٠٦
- النبي : أَيْتَمَا امْرَأَةٌ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا بِغَيْرِ إِذْنِ زَوْجِهَا ... ٥٠٦
- النبي : أَيْتَمَا امْرَأَةٌ قَالَتْ لَزَوْجِهَا: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ إِلَّا... ٥٠٦
- النبي : أَيْتَمَا امْرَأَةٌ لَمْ تَرْفُقْ بِزَوْجِهَا وَحَمَلَتْهُ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ... ٥٠٥
- النبي : أَيْتَمَا رَجُلٌ تَتَزَيَّنُ امْرَأَتُهُ وَتَخْرُجُ مِنْ بَابِ دَارِهَا ... ٥٠٩
- أُمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : أَيُّهَا النَّاسُ دِينُكُمْ دِينُكُمْ فَإِنَّ السَّيِّئَةَ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ... ٣٤٥

- ب -

- الصادق : الْبَاغِي الَّذِي يَخْرُجُ عَلَى الْإِمَامِ ١٠٧
- الصادق : الْبَاغِي بَاغِي الصَّيْدِ ١٠٧
- الصادق : الْبَاغِي الظَّالِمِ ١٠٧
- عيسى : بِحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ وَجَدْتُمْ سَرَاجًا يَتَوَقَّدُ بِالْقَطْرَانِ... ١٩٩
- الباقر : الْبِرُّ وَصَدَقَةُ السَّرِّ يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ ٢٠٨
- الحسن المجتبي: بَرَكَتُهَا عَلَيْنَا أَعْظَمُ حِينَ جَعَلْنَا لِلْمَعْرُوفِ أَهْلًا ٣٢٣
- النبي : بَعْدِي اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً ٢٠٤

- ت -

- النبي : تَارَكَ الْحَجَّ وَهُوَ مُسْتَطِيعٌ كَافِرٌ ٤٠٩
- النبي : تَضَمَّنَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... ٨٥
- النبي : تَطِيعُهُ وَلَا نَعْصِيهِ وَلَا تَتَصَدَّقُ مِنْ بَيْتِهِ بِشَيْءٍ إِلَّا يَأْذَنُ ٥٠٤
- مجهول : تَعْرِفُ إِلَى اللَّهِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ ٥٨

- ث -

- النبي : ثَلَاثٌ لَا تُطِيقُهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ ٥٥
- الباقر : ثَلَاثٌ مِنْ أَشَدِّ مَا عَمِلَ الْعِبَادُ ٥٦

- أمير المؤمنين : ثم إن الله جل ذكره لسعة رحمته ودأفته ... ٢٤٢
النبي : ثم إني أوصيك بتقوى الله ٤٦

- ج -

- الحسن المجتبي : جاء نفر من اليهود الى رسول الله ﷺ ... ١٣٠
أمير المؤمنين : جعل الله للعلم أهلاً وفرض على العباد طاعتهم ٢٤٣
الباقر : جمع رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة و... ٣٠١
الباقر : جهاد المرأة حسن التبعل ٥٠٦
النبي : جهد المقل على ذي الرحم الكاشح ١١٤
النبي : الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق ... ٥١٨

- ح -

- فاطمة : حبيبي وقرة عيني أخبرني ما كان عملهن وسيرتهن ٥٠٨
الصادق : حدثني أبي عن آبائه عن النبي أنه .. ٣٢٥
النبي : حرام على أصحابي وأهلي أن ينظروا الى عورتني غير أخي ٢٨٨
النبي : حق الرجل على المرأة إنارة السراج وإصلاح الطعام ... ٥٠٥
الصادق : الحكمة ضياء المعرفة وميراث التقوى وثمرة الصدق ١٩٨
الصادق : الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً ٢٨٥
أمير المؤمنين : الحمد لله والصلاة على نبيه، أما بعد، فذممتي بما أقول رهينة ٢٧٥
النبي : حملة القرآن المخصوصون برحمة الله ٢٩

- خ -

- الباقر : خذها أنت وضعها في جيرانك ٣٢٨
الصادق : خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال : ... ١١٠
النبي : الخلافة في قريش ٢٤٦

- الباقر : خلفت عيالي وأهلي مستوحشين لخروجي ٢٨٨
 النبي : خلقني الله وعلي بن أبي طالب من نور قبل أن يخلق آدم ٣٦٢
 النبي : خير العطاء ما أبقي نعمة باقية ٣٢٥

- د -

- أمير المؤمنين : دخلت أنا وفاطمة على رسول الله فوجدته يبكي ٥٠٧
 النبي : درهم ربا أعظم من سبعين زنية كلها بذات محرم في ... ٤٤٥
 الصادق : دعاء المكروب والملهوف ومن قد أعيته ... ٣١٧
 الرضا : الدليل على ذلك آية «أنفسنا» ٣٨٠
 الباقر : دليل ما ندعي من مشاهد لا يجهل ... ٢٨٩
 النبي : الدينار والدرهم أهلكا من كانا قبلكم وهما مهلكا كم ٣٢٠

- ذ -

- الصادق : ذكر الله بعد طلوع الفجر أبلغ في طلب الرزق من ... ٤٩٨
 الباقر : ذلك عزيز وعزير ولدا في يوم واحد ٢٩٠
 الباقر : ذلك قول ابن آدم اذا حضره الموت ... ٤٦٢

- ر -

- أمير المؤمنين : الراسخون في العلم أمير المؤمنين والأئمة ٢٤٢
 أمير المؤمنين : الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم ٤٣٢
 الصادق : رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال ٤٥٠
 النبي : رأيت ما يقول سلمان ؟ ٣٥٢
 الباقر أو الصادق : رسول الله أفضل الراسخين في العلم ٢٦٤

- ز -

- النبي : زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومقاربها ٣٧٢

- س -

٢٨٧	النبي	: سألت الله أن يجعلها اذنك يا علي
٤٨٩	أمير المؤمنين	: سألت رسول الله ﷺ عن الجبائر تكون على ...
٦٥	الصادق	: سبحانه الله المؤمن أكرم على الله من ذلك
٤٣٣ و ٤١٨	النبي	: ستفترق أمتي الى ثلاث وسبعين فرقة
٥٤٧	النبي	: ستكون بعدي فتنة فإذا كان ذلك فالزموا علي
٣٥١	النبي	: سلمان منا أهل البيت
٣٤١ و ٢٧١	أمير المؤمنين	: سلوني قبل أن تفقدوني
٣٦٦	النبي	: سوف اسائل الامة عما فعلوا بأهل بيتي

- ص -

٤٦٧	الباقر	: صابروا على التقية
٣٠٧	الصادق	: صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم
١٢٩	النبي	: الصائم في السفر كالمفطر في الحضر
١٢٩	الصادق	: الصائم في شهر رمضان في السفر كالمفطر في الحضر
٣٠٤ و ١١٧	أمير المؤمنين	: الصبر مطية لا تكبو
١١٦	زين العابدين	: الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد
٣٢٤	الحسين	: صن وجهك عن ذل المسألة
٤٤٩	الباقر	: صنائع المعروف تقي مصارع السوء
٥٣	النبي	: صنفان من الناس اذا صلحا صلح الناس
١٢٩ و ١٢٧	النبي	: الصوم جنة من النار
١٢٩	النبي	: الصوم لي وأنا اجزي به

- ض -

٣٥٢	النبي	: ضربت ضربتي الاولى فبرق لي الذي رأيت
-----	-------	---------------------------------------

- ط -

- النبي : طوبى لامرأة رضى عنها زوجها ٥٠٨
النبي : طوبى لمن وجدني صحيفة عمله يوم القيامة... ٣٣٢

- ع -

- الصادق : العادي الذي يقطع الطريق ١٠٢
الصادق : العادي السارق ١٠٢
الصادق : العادي الفاصب ١٠٢
الصادق : عبد الله حبر من أحبار بني إسرائيل حتى صار مثل الخلال ٦١
النبي : عجباً للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ٩١
أمير المؤمنين : العجب ممن يهلك والمنجاة معه ٣٣٣
الصادق : عد عن العلة واذكر ما جئت له ٣٢٥
الصادق : العفو عند القدرة من سنن المرسلين والمتقين ٤٤٨
أمير المؤمنين : علمني رسول الله ألف باب من العلم ... ١٣٩ و ١٦٢ و ٢٤٤ و ٢٧١
و ٢٨١ و ٢٨٧ و ٣٤١ و ٣٤٥ و ٣٥٥ و ٣٧٣
النبي : علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء ١٩٧
أمير المؤمنين : على الخير سقطتم ، هو أحد ثلاثة أمور ... ٤٦٢
النبي : على كل مسلم في كل يوم صدقة ٢١٣
النبي : عاي باب حطة ، من دخل منه كان مؤمناً ٣٣٧ و ٣٣٨ و ٣٣٩
النبي : علي بن أبي طالب باب الدين ، من دخل فيه كان مؤمناً ٣٣٩
النبي : علي بن أبي طالب يقا تل على تأويل القرآن ٢٨٨
زين العابدين : على دينك كله ٣٢٤
النبي : على عيبة علمي ٢٤٥

١٩٦	النبي	: على منى بمنزلة رأسى من جـدى
٢٧٦	أمير المؤمنين	: عليكم بالطاعة والمعرفة
٤٤٨	النبي	: عليكم بالعفو فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً
٤٥٢	النبي	: عودوا ألسنتكم الاستغفار

- ف -

٣٧٦	النبي	: فاطمة بضعة منى يربىنى مارا بها
٢٣٢	النبي	: فلعلمكم تقولون كما قال بنى إسرائيل
٢٠٢	النبي	: فى الجنة فى درجتى
٦٠	الصادق	: فى كل نفسى من أنفاسك شكر لازم لك

- ق -

٣٩	الصادق	: قال الحواريون لعيسى بن مريم: يا معلم الخير...
٥٦	الصادق	: قال الله تعالى: ابن آدم اذكرنى فى نفسك اذكرك فى نفسى
٤٢	النبي	: قال الله تعالى: قسمت الحمد بينى وبين عبدى نصفين
٩١ و ٧٨	النبي	: قال الله عز وجل: يا بن آدم إن ذكرتنى فى نفسك... ٧٨ و ٩١
٩٣	النبي	: قال الله: يا مملك الموت قبضت ولد عبدى؟
٤٤٧	الباقر	: قال لى أبى: يا بنى ما من شىء أقر لعين أبىك من جرعة...
٣٧٠	الصادق	: قال محمد بن الأشعث بن قيس الكندى للمحسنين: يا حسين...
٨٣	النبي	: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فى حفرة فى الأرض
٢٧٧	أمير المؤمنين	: قد سألت فافهم الجواب
٢٧٧	أمير المؤمنين	: قد كثرت على الكذابة
٢٩	النبي	: للقرآن مادية الله تعالى فتعلموا من مادية الله عز وجل
٥١٣	الباقر	: قل لهذه المارقة: بما استحللتم فراق أمير المؤمنين
١١٦	زين العابدين	: قول الحق والحكم بالعدل والوفاء بالعهد

النبي : قوموا حتى نرى من صاحب هذه الصفة ٣٣٥

- ك -

- الصادق : كان المسلمون يدخلون على عدوهم في المغارات... ٤٨٨
- الصادق : كان رجل في الزمن الأول طلب الدنيا من حلال ٤٠
- الصادق : كان رسول الله لا يقوم من مجلس وإن خف حتى يستغفر الله ٣٣٢
- الباقر : كان رسول الله والاستغفار لكم حصنين حصينين من العذاب ٣٣٢
- الصادق : كان رسول الله يتوب الى الله في كل يوم سبعين مرة ٣٣٣
- النبي : كان في أمتي ما كان في بني إسرائيل ٢٠٢
- الباقر : كذلك المباهلة يشبك يده في يده ويرفعهما الى السماء ٣٨١
- النبي : كفر بالله العظيم عشر من هذه الأمة ٤٥٩
- النبي : كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتى ٣٥
- الصادق : كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل ٤٧٧
- الباقر : كل معروف صدقة ٤٤٩
- مجهول : الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ١٩٩
- مجهول : الكلمة الحكمة ضالة كل حكيم ١٩٩
- النبي : كم من قارئ للقرآن و القرآن يلغنه ١١٣
- الكاظم : كنت عند سيدنا الصادق إذ دخل عليه... ٣٢٥
- أمير المؤمنين : كنّا اذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله ١١٦
- أمير المؤمنين : كونوا من الله على حذر ٣١٨
- الكاظم : كيف ثقّتك بتأويله ؟ ٣٧٠
- الصادق : كيف يكون قولك وقولهم واحد... ٥٢٤

- ل -

النبي : لا أجر له ٨٥

١٠٤	: لا أشبع الله بطنه	النبي
١٩٣	: لا تتحدّثوا الجاهل بالحكمة فتظلموها ، ولا تمنعوها ...	عيسى
١٤٢	: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض	النبي
٤٨	: لا تقولوا إنّ محمدًا منا	النبي
٥٠٦	: لا تؤذي المرأة حقّ الله عزّ وجلّ حتى تؤذي حقّ زوجها	النبي
١٨٨	: لا حسد إلا في اثنين	النبي
١١٦	: لا دين لمن لا عهد له	النبي
٢٠٦	: لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا ...	النبي
٣٦٦	: لألقين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر ...	النبي
٣٤٥	: لأنسبنّ الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي	أمير المؤمنين
١٩٨	: لئن يهدي الله على يدك رجلاً ...	النبي
٤١٠	: لا، ولكن من قال ليس هذا هكذا فقد كفر	الكاظم
٤٣٢	: لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر	النبي
٣٠٨	: لا يقبل قول إلا بعمل ولا يقبل قول وعمل إلا ...	النبي
٤٩٦	: لا يقل أحدكم ليت ما اعطي فلان من المال و...	الصادق
٥٠٠	: لتفتنّ من زوجها	النبي
١٢٥	: لذة النداء أزال تعب العبادة والعناء	الصادق
٣٢٣	: لعلك استقلت ما أعطيناك	الحسين
٥٠٥	: لعلك تريد أن تختلعي فتكوني عند الله أنتن من جيفة ...	النبي
٣٦	: لقد تجلّى الله لعباده في كلامه	الصادق
١٨٣	: لقد رفعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها	أمير المؤمنين
١٦٣	: لقد علم المستحفظون من أصحاب محمد	أمير المؤمنين
٢٢٩	: لقد كان كذلك ومحمد اعطي ما هو أفضل	أمير المؤمنين

٥٧١	فهرس الأحاديث
٣٣٢	النبي : لكل داء دواء، ودواء الذنوب الاستغفار
٤١٠	النبي : للحاج والمعتمر إحدى ثلاث خصال: إما يقال له...
١٧٨	النبي : للقلب لمستان
١٣٥	الباقر : لله عباد ملاعين منا كيد
٣٥٥	النبي : لما أراد الله أن ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسي...
٣٢٤	زين العابدين : لما حضر محمد بن اسامة الموت دخلت عليه...
٢٥٠	النبي : لما صرت بين يدي ربي كلمني...
٢٤٢	أمير المؤمنين : لن يؤمن بالله إلا من آمن برسوله وحججه
٤٨	أمير المؤمنين : لو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد...
٢٦	النبي : لو أن الناس أخذوا بهذه الآية لكفتهم
٤١١	زين العابدين : لو أن رجلاً عمر ما عمر نوح في قومه...
١٢٩	الصادق : لو أن رجلاً مات صائماً في سفر
٣٧٩	النبي : لو باهلتهم لاحترق عليهم الوادي ناراً
٣٢٦	الكاظم : لو جعل إليك التمني لنفسك في الدنيا...
٣٤	الصادق : لو قرأت الحمد على ميت سبعين مرة...
٤١٠	الصادق : لو كان لأحدكم مثل أبي قبيس ذهب ينفقه في سبيل الله...
٢٥٩	أمير المؤمنين : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً
٥٠٦	النبي : لو كنت امرأة أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة...
٣١٨	أمير المؤمنين : ليت شعري في طول منامي وقلة شكري
٣١٨	أمير المؤمنين : ليت شعري في غفلاتي أمعرض أنت عني؟
٢٢٨	النبي : ليتني أعلم متى يكون ذلك
٤١١	الصادق : ليحذر أحدكم أن يعوق أخاه عن الحج فتصيبه فتنة
٣٢٠	الصادق : ليس السخي المبذر الذي ينفق ماله في غير حقه

النبي	: ليس شيء أحب إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة... ٤٨٠
النبي	: ليس على النساء جمعة ولا جماعة ولا أذان ولا... ٥٠٩
النبي	: ليس في القيامة راكب غيرنا ونحن أربعة ٥٤٢
الصادق	: ليس للمرأة مع زوجها أمر من عتق ولا صدقة ٥٠٥
الباقر	: ليس من نفس إلا وقد فرض الله لها رزقاً حلالاً ٤٩٧
النبي	: ليس مني من استخف بالصلاة ١١٥
الصادق	: ليس يعني أكثركم عملاً ولكن... ٣٠٩
النبي	: ليلة أسري بي إلى السماء رأيت نساء من أمتي في عذاب ٥٠٧

- م -

النبي	: ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ١١٢
النبي	: ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ٨٥
الباقر	: ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً إلا... ٣١٣
النبي	: ما أخلص عبد لله عز وجل أربعين صباحاً إلا... ١٨٠
النبي	: ما أخلقك أن تمرض سنة ٤١١
النبي	: ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من... ٥٠٢
النبي	: ما تفسير ذلك يا جبرائيل ٢١٥
النبي	: ما خلا يهودي بمسلم إلا وحدثته نفسه بقتله ٤٠٦
الصادق	: ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بمنع الزكاة ٤٥٩
الكاظم	: مالك لم تسأل الولاية لنا أهل البيت؟ ٣٢٦
الصادق	: ما لهم قاتلهم الله محمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله ٣٢
الباقر والصادق	: ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا... ٤٥٨ و ١١٥
الصادق	: ما من ذي زكاة مال نخل أو زرع أو كرم... ٤٥٨
الصادق	: ما من ذي مال ذهب أو فضة يمنع زكاة ماله إلا... ٤٦٠

- الصادق : ما من شيء أحب إليّ من رجل سلفت مني إليه يد... ١٧٢
- النبي : ما من شيء يفر بكم من الجنة ويباعدكم من ... ٢٥١ و ١٣٦
- النبي : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله و .. ٧٥
- الصادق : ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عز وجل عزاً... ٤٤٧
- الصادق : ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس إلا... ٥٦
- النبي : ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها ... ٩٢
- النبي : ما من مؤمن يصوم شهر رمضان احتساباً إلا... ١٣١
- أمير المؤمنين : ما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلا... ٢٦٣
- أمير المؤمنين : ما وحّده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثله ٣٤١
- الصادق : ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ ٦٤
- أمير المؤمنين : المتعبّد على غير فقه كحمار الطاحونة ١٣٤
- الصادق : المحكم ما يعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله ٢٤٠
- النبي : مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقبر يعذب صاحبه ٥١٧
- النبي : المسلم الذي يخاطب الناس ويصبر على أذاهم ٨٣
- النبي : معاشر الناس قولوا الذي قلت لكم وسلّموا على علي ٢٣٢
- الصادق : مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماء ٤٠٧
- النبي : من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني ٣٧٩
- الصادق : من أخرجها من ضلال إلى هدى فقد أحيّاها ٤٠
- النبي : من أدخل على مؤمن فرحاً فقد أدخل على فرحاً ٤٤٩
- النبي : من أراد أن يرى آدم في علمه ونوحاً في طاعته و... ٣٧٨
- النبي : من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتها ٧٥
- الصادق : من استغفر بعد ذنبه بقوله... ٤٥٢
- النبي : من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه .. ١٧٤

- الصادق : من اضطرَّ الى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل... ١٠٧
- النبي : من أطاع الله فقد ذكر الله ٥٧
- النبي : من أكل الربا ملأ الله بطنه نار جهنم ٤٤٥
- النبي : من أكل لقمة حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ١٠٣
- الباقر : من أكل من مال يتيم درهماً... ٥١٨
- أمير المؤمنين : من أيقن بالخلف جاد بالعطية ٢١٤
- النبي : من أنعم الله عليه نعمة فإنَّ الله يحبُّ أن يرى... ٩١
- الصادق : من بايع قائمنا ودخل معه ومسح على يده و... ٤٠٧
- النبي : من ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة الله ٤٩٤
- النبي : من تمنى شيئاً وهو لله تعالى رضاء لم يخرج من... ٤٩٧
- النبي : من حفظ القرآن فقد ادرجت النبوة بين كتفيه غير أنه... ١٨٨
- النبي : من حلف على يمين كاذباً يقطع بها مال أخيه... ٣٩٨
- الباقر : من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن من سخط الله ٤٠٨
- الباقر : من دخل عارفاً بجميع ما أوجبه الله كان آمناً... ٤٠٧
- الصادق : من دخله وهو عارف بحقنا كما هو عارف به... ٤٠٧
- الصادق : من دعا الناس الى نفسه وفيهم من هو أعلم منه... ٢٦٨
- الرضا : من ردَّ متشابه القرآن الى محكمه هدى الى صراط مستقيم ٢٤١
- النبي : من سأل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره... ١٩٤
- الصادق : من سرَّ مؤمناً فقد سرني، ومن سرني فقد سرَّ رسول الله ٤٥٠
- النبي : من سره أن يدفع الله عنه نحس يومه فليفتح يومه بصدقة ٢١٣
- النبي : من سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ١٢١
- النبي : من سوف الحج حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو... ٤١٠
- الصادق : من صام لله عزَّ وجلَّ يوماً في الحر... ١٣٠
- النبي : من ظلم أحداً ففاته فليستغفر الله له ٤٥٢

- النبي : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ٣٦٤
- النبي : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ٨٥
- النبي : من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه... ١٩٠
- النبي : من قرأ ثلث القرآن اعطي ثلث النبوة ، ومن ... ١٨٩
- النبي : من قرأ «شهد الله ...» عند منامه خلق الله منها ... ٣٤٢
- الباقر : من قوله تبارك وتعالى لنبيه «لا تحرك به لسانك...» ٢٨٧
- النبي : من كثرت همومه فليكثر من الاستغفار ٣٣٣
- أمير المؤمنين : من كثر ماله ولم يعط حقه فإنما ماله حيات تنهشه يوم القيامة ٤٦٠
- الصادق : من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله... ٤٤٧
- النبي : من كفل يتيماً و كفل نفقته كنت أنا وهو في الجنة ٥١٧
- النبي : من كنت مولاه فعلي مولاه ٥٢٥ و ٣٤٨
- النبي : من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ٣٣٣
- الباقر : من لم يبرء الحمد لم يبرئه شيء ٣٤
- الصادق : من لم يسأل الله من فضله افتقر ٤٩٧
- النبي : من لي بابن الأشرف؟ ٤٦٥
- الصادق : من مات ولم يحج حجة الاسلام ولم يمنعه عن ذلك حاجة... ٤١٠
- النبي : من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية ٤٨٢
- الصادق : من منع الزكاة في حياته طلب الكفرة بعد موته ٤٦٠ و ١١٥
- الصادق : من منع قيراطاً من الزكاة فليس هو بمؤمن ولا مسلم ٤٥٩ و ١١٥
- الصادق : من منع قيرطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً... ٤٦٠ و ١١٥
- النبي : المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء ١٠٣
- النبي : المؤمن ينظر بنور الله ١٥٦
- أمير المؤمنين : من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة ٢١٤

- ن -

الصادق	: نحن المحسودون على ما آتانا الله من الامامة...	٥٥٠
الباقر	: الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة	٤٤٧
الصادق	: نزلت في أمة محمد ﷺ خاصة	٥٢٧
الصادق	: نزلت في من يسوف الحج حتى مات ولم يحج	٤١٠
أمير المؤمنين	: نشدت الله رجلاً سمع النبي يقول يوم غدیر خم ...	٥٢٥
أمير المؤمنين	: نعم سأذكر لك اليوم من فضائل رسول الله ...	٢٢٩
أمير المؤمنين	: نعم ما أعطى الله نبياً درجة ولا رسالة فضيلة إلا ...	٢٢٩
الصادق	: نعم يتساءلون ويتعارفون	٦٥
الصادق	: نوم الصائم عبادة ونفسه تسبيح	١٣٠
النبي	: نية المرء خير من عمله	٣١٠

- ه -

الحسين	: هاتها قد جاءها من هو أحقّ بها منا	٣٢٣
النبي	: هذا المقبل حجتي على امتي يوم القيامة	١٩٦
النبي	: هذا علي أخى في الدنيا والآخرة	٢٤٩
النبي	: هذا عبي أخى وخليفتي ووارث علمي	٢٤٩
أمير المؤمنين	: هذا كتاب الله قد أكفته كما أمرني وأوصاني رسول الله	٢٤٧
النبي	: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها ...	٥١١
النبي	: هلاً قلت: وأنا الغلام الأتصاري	٨٦
النبي	: هي الساعة التي بين طلوع الفجر الى ...	٢٩٠
الباقر	: هي خواتيم الله في أرضه جعلها الله تعالى مصلحة لخلقه	٣١٩
الكاظم	: هي عندنا ورائة من عندهم نقرأها كما قرأوها	٣٧١

- الصادق : هي في الجنة على صور أبدانهم ٦٤
أمير المؤمنين : هيهات يا بن عباس تلك شقشة هدرت ٣٠٣

- و -

- النبي : والذي بعثني بالحق لو قالا دلاء لأمطر عليهم الوادي ناراً ٣٧٨
النبي : والذي نفسي بيده لو باهلو المسخووا قرده وخنازير ٣٧٥
الحسين : والله إن محمداً لمن آل إبراهيم وإن العترة الهادية لمن آل محمد ٣٧٠
أمير المؤمنين : والله لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها ... ١٨٢
أمير المؤمنين : والله ما يبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ٤٦٣
النبي : ويحك غيب شخصك عني ٥٣٩
الصادق : ويلك وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك ٥٢٤
النبي : ويل لامرأة أغضبت زوجها ٥٠٨

- ي -

- الرضا : يا أبا جعفر بلغني أن الموالي إذا ركبت ... ٣٢٧
النبي : يا أباذر إني أحب لك ما أحب لنفسي ٥١٨
النبي : يا أنس اسكب لي وضوء ٥٤١
النبي : يا أهلي وأهل الله إن الله عز وجل يقرى عليكم السلام ٣٠١
الكاظم : يا بريه كيف علمك بكتابك؟ ٣٧٠
زين العابدين : يا بني ما من شيء أقر لعين أبيك من جرعة غيظ... ٤٤٧
الكاظم : يا بني إني موصيكم بوصية فمن حفظها لم يضع معها ٤٤٨
موسى بن عمران : يا رب كيف أشكرك ٩٠
موسى بن عمران : يا رب أخبرني عن آية رضاك عن عبدك ٢٩٦
أمير المؤمنين : يا رسول الله بأبي أنت وأمي كيف يقولها مخلصاً ١١٠
أمير المؤمنين : يا رسول الله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما صنعت بي من قبل ٥٤٢

- أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غَرِي غَرِي ٣٢٢
- الصَّادِق : يَا غَلَامُ آيَشُ مَعَكَ ٣٢٥
- الحَسَنِ : يَا قَنْبَرُ هَلْ بَقِيَ مِنْ مَالِ الْحِجَازِ ٣٢٣
- النَّبِيِّ : يَا مَعَاذَ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؟ ٣٥٥
- زَيْنَ الْعَابِدِينَ : يَا مَنْ حَازَ كُلَّ شَيْءٍ مَلَكَوْتًا وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ جَبَرَوْتًا ١٣٣
- النَّبِيِّ : يَجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ... إِنَّ "لِعَبْدِي..." ٣٤٣
- النَّبِيِّ : يَجْزِيهِ الْمَسْحُ بِالْمَاءِ عَلَيْهَا فِي الْجَنَابَةِ وَالْوُضوءِ ٤٨٩
- أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : وَيَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ الْفِتَنِ ٤٦
- النَّبِيِّ : "يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا" مِنْ شَبَهَاتِ الدُّنْيَا ٤٦
- النَّبِيِّ : يَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ : يَا مَهْدِي أَعْطِنِي ٣٢٨
- النَّبِيِّ : يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةً يَعْطِي الْمَالَ بِغَيْرِ عَدَدٍ ٣٢٩
- النَّبِيِّ : يَرُدُّ عَلَيَّ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى خَمْسِ رَايَاتٍ ٤٢٦
- النَّبِيِّ : يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ بَتَأْوِيلِهِ وَبِمَوَالَاتِنَا ٣٠
- الصَّادِق : يُطَاعُ وَلَا يُعْصَى، وَيُذَكَّرُ وَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرُ وَلَا يُكْفَرُ ٤١٦
- النَّبِيِّ : يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ أَمِيرًا ٢٠٣
- أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : يَقَامُ الرِّسَالُ فَيَسْأَلُونَ عَنْ تَأْدِيَةِ الرِّسَالَاتِ... ٥٢٧
- الصَّادِق : يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَلَا يَأْخُذُ أَمْوَالَ النَّاسِ إِلَّا وَعِنْدَهُ وَفَاءٌ ٤٨٧
- النَّبِيِّ : يَقْتُلُ عَلِيٌّ بِضَرْبَةِ عَلِيٍّ قُرْنَهُ ٢٠٢
- النَّبِيِّ : يَقُولُ اللَّهُ: إِنِّي وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ ١٠٦
- النَّبِيِّ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِي ٩٠
- النَّبِيِّ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي ٧٠
- الصَّادِق : يَمْحَقُ اللَّهُ دِينَهُ وَإِنْ كَانَ مَالُهُ يَكْثُرُ ٤٤٥

فهرس المحتويات

	مقدمة المؤسسة
٥	نبذة من حياة الشهيد المؤلف
٥	أسرته
٦	سيرته اليومية في مدينته
٧	نشاطات أخرى
٧	مؤلفاته
٨	منهجه في التفسير
٩	مواقفه من الحكم الظلمة وأعدائهم
١٤	علاقته بالشباب المؤمن
١٥	علاقته بالشهيد الصدر
١٦	علاقته بالثورة الإسلامية
١٨	إيمانه بولاية الفقيه
١٨	موقفه من القضية الفلسطينية
١٩	قصة اعتقاله
٢٥	مرئية شعرية لأحد المعتقلين

- ٢٧ تقديم السيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي
٢٨ مقدمة المؤلف
٣٠ معنى الاستعانة

سورة الفاتحة

- ٣٢ فضيلة البسملة
٣٣ ما ذكره المراغي حول البسملة
٣٤ أسماء السورة وفضلها
٣٥ معنى «رب العالمين»
٣٦ معنى «اهدنا الصراط المستقيم»
٣٧ ماقاله البهائي حول الهداية
٣٨ معنى «صراط الذين أنعمت عليهم»
٣٩ معنى «غير المغضوب عليهم ولا الضالين»
٤١ البدعة وضررها
٤١ تنبيه لا بد منه
٤٢ حديث في فضيلة الفاتحة

سورة البقرة

- ٤٤ المراد من الحروف المقطعة
٤٤ الكلام حول آية ٢
٤٥ معنى الهدى والتقوى
٤٥ ذكر خصال التقوى وآثارها الواردة في القرآن
٤٨ ذكر مراتب التقوى
٤٩ الكلام حول آية ٣ و ٤

٦١٥	فهرس المحتويات
٤٩	ذكر صفات المتقين
٥٠	الكلام حول آية ٢١٥
٥١	الكلام حول آية ١١٩ و ١٢٠
٥٣	الكلام حول آية ١٥١
٥٤	ذكر النعم التي شرف الله العرب بها
٥٥	الكلام حول آية ١٥٢
٥٧	في معنى «اذكروني اذكركم»
٥٨	إرشاد
٥٩	مفهوم الشكر
٦١	إيقاظ
٦٢	محصل البحث
٦٢	الكلام حول آية ١٥٣
٦٣	مفهوم الصبر والصلاة
٦٣	إيقاظ
٦٤	الكلام حول آية ١٥٤
٦٥	ذكر أرواح المؤمنين
٦٦	الكلام حول آية ١٥٥
٦٧	الصابرين الذين أمر الله النبي بشارتهم
٦٧	الكلام حول آية ١٥٦ و ١٥٧
٦٨	ما ذكره المراغي حول الآيات ١٥١ و ١٥٧
٧٥	ما ذكره سيد قطب حول الآيات ١٥١ و ١٥٧
٨٩	ما ذكره ابن كثير حول الآيات ١٥١ و ١٥٤
٩٣	ما ذكره العلامة الطباطبائي حول ١٥٣ و ١٥٧

٩٩	نشأة البرزخ
١٠٣	الكلام حول آية ١٦٨
١٠٤	الكلام حول آية ١٦٩
١٠٥	الكلام حول آية ١٧٢
١٠٦	الكلام حول آية ١٧٣
١٠٧	معنى الباغي والعادي
١٠٨	الكلام حول آية ١٧٧
١٠٩	ذكر الشروط المعتبرة في البر والايمان
١١٣	ذكر الأصناف الذين يدفع لهم المال
١١٧	محصل البحث
١١٩	الكلام حول آية ١٧٨ و ١٧٩
١٢٢	الكلام حول آية ١٨٠ و ١٨١
١٢٣	الكلام حول آية ١٨٢
١٢٤	الكلام حول آية ١٨٣ - ١٨٥
١٢٥	ذكر الألفاظ الالهية في الصوم
١٢٩	ذكر الأحاديث الدالة على وجوب الافطار في السفر
١٣٢	الكلام حول آية ١٨٦
١٣٦	الكلام حول آية ٢٠٢
١٣٦	ذكر الامور الموقوفة على الطاعة
١٤٠	ما ذكره سيد قطب والمرأى حول الآية
١٤٤	ما ذكره ابن كثير حول الآية
١٤٦	ما ذكره العلامة الطباطبائي حول الآية
١٤٨	ما ذكره الزمخشري حول الآية

- ١٩١ خلاصة لما جاء في تفسير الحكمة
- ١٩٣ تنبيه لذي اللب
- ١٩٥ تكملة لا بد منها
- ١٩٧ ذكر بعض الروايات الواردة في الحكمة
- ٢٠١ ذكر أسئلة نعت اليهودي للنبي ﷺ
- ذكر الأخبار الدالة على أن الخلفاء بعد النبي ﷺ اثناعشر
- ٢٠٣ كلهم من قريش
- ٢٠٤ ذكر أسئلة جندل اليهودي للنبي ﷺ
- ٢٠٦ توضيح لقوله ﷺ : لا قول إلا بعمل ولا قول ...
- ٢٠٨ الكلام حول آية ٢٧١
- ٢٠٨ فضيلة صدقة السر
- ٢٠٩ الكلام حول آية ٢٧٢
- ٢١٠ الكلام حول آية ٢٧٣ و ٢٧٤
- ٢١٣ ذكر الأخبار الحاثّة على الصدقة و منافعها
- ٢١٦ الكلام حول آية ٢٧٥
- ٢١٩ الكلام حول آية ٢٧٦
- ٢٢١ الكلام حول آية ٢٧٧
- ٢٢٤ تنبيه للمغافل والمتغافل
- ٢٢٥ الكلام حول آية ٢٧٨ و ٢٧٩
- ٢٢٦ الكلام حول آية ٢٨٠
- ٢٢٧ الكلام حول آية ٢٨١
- ٢٢٨ الكلام حول آية ٢٨٤
- ٢٢٩ ما جاء في قصة اليهودي الشامي مع أمير المؤمنين عليه السلام

- ٢٣٠ الكلام حول آية ٢٨٥
- ٢٣١ الكلام حول آية ٢٨٦
- ٢٣١ ذكر امور خمسة نبه المؤلف عليها
- ٢٣٦ خاتمة في تعيين الطريق الذي يتحقق به السمع والطاعة
- سورة آل عمران
- ٢٣٩ الكلام حول آية ٧
- ٢٤٠ في معرفة المحكم والمتشابه
- ٢٤٠ في معنى الام التي وصف الله بها المحكمات
- ٢٤١ هل الواو في «الراسخون» واو عطف أم استئناف ؟
- ٢٤٤ ذكر الأخبار الدالة على أعلمية علي عليه السلام بعد الرسول صلوات الله عليه وآله
- ٢٤٥ نداء لذوي الألباب
- ٢٤٧ رد المؤلف لمن يجعل الواو للاستئناف
- ٢٥٥ وجوه الكفر المذكورة في كتاب الله
- ٢٥٧ معنى الرسوخ
- ٢٦٠ معنى العلم
- ٢٦٢ في أن الناس ثلاثة أقسام
- ٢٦٧ إيقاظ
- ٢٧٥ ذكر خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام
- ٢٨١ الكلام حول آية ١٤
- ٢٨٣ الكلام حول آية ١٥
- ٢٨٤ ثلاثة أشياء أعدها الله للمتقين
- ٢٨٥ ذكر قصة رواها ابن طاووس

٢٩٧	الكلام حول آية ١٦
٢٩٩	الكلام حول آية ١٧
٢٩٩	أقسام الصبر
٣٠٠	ذكر الآيات المادحة للصبر والصابرين
٣٠٦	الصدق والصادقين
٣١٥	القنوت والقانتين
٣١٨	الانفاق والمنفقين
٣٢٩	الاستغفار والمستغفرين
٣٣٠	ذكر ما جاء من الآيات في فوائد الاستغفار
٣٣٢	ذكر ما جاء من الأخبار في فوائد الاستغفار
٣٣٧	معنى باب حطة
٣٤٠	الكلام حول آية ١٨
٣٤٠	معنى الشهادة
٣٤١	من هم اولوا العلم؟
٣٤٢	ذكر شيء من فضل آية الشهادة
٣٤٣	الكلام حول آية ١٩
٣٤٥	معنى الاسلام من لسان بطل الاسلام علي عليه السلام
٣٤٦	الكلام حول آية ٢٠
٣٤٨	الكلام حول آية ٢٦
٣٥٠	المقصود من الملك في الآية الشريفة
٣٥١	ما قيل في سبب نزول آية الملك
٣٥٤	الكلام حول آية ٢٧
٣٥٥	ذكر فضل هذه الآية

٣٥٦	الكلام حول آية ٢٨
٣٥٩	الكلام حول آية ٢٩
٣٦٠	المقصود من إخفاء ما في النفس
٣٦١	الكلام حول آية ٣٠
٣٦٣	الكلام حول آية ٣١
٣٦٤	مقاله ابن كثير وسيد قطب في تفسيرهما
٣٦٥	الكلام حول آية ٣٢
٣٦٦	مقاله العلامة البلاغي في تفسيره
٣٦٧	الكلام حول آية ٣٣
٣٦٩	مقاله سيد قطب ومناقشته
٣٧٠	الكلام حول آية ٣٤
٣٧١	مقاله الفخر الرازي حول مفهوم الاصطفاء
٣٧٥	الكلام حول آية ٦١
٣٧٥	ذكر قصة المباحلة
٣٧٦	الاستدلال على أفضلية الزهراء <small>عليها السلام</small> على سائر النساء
٣٧٧	الاستدلال على أفضلية الحسنين <small>عليهما السلام</small>
٣٧٨	الاستدلال على أن علياً <small>عليه السلام</small> أفضل من سائر الأنبياء
٣٨١	الكلام حول آية ٦٢
٣٨١	الكلام حول آية ٦٣ و ٦٤
٣٨٢	الكلام حول آية ٦٩
٣٨٦	الكلام حول آية ٧٠ و ٧١
٣٨٧	الكلام حول آية ٧٢
٣٨٨	الكلام حول آية ٧٣

٣٩١	الكلام حول آية ٧٤
٣٩٣	ما قاله اليهود في التلمود
٣٩٤	الكلام حول آية ٧٥
٣٩٦	الكلام حول آية ٧٧
٣٩٩	الكلام حول آية ٨١
٤٠١	الكلام حول آية ٨٢ و ٨٣
٤٠٢	الكلام حول آية ٨٤
٤٠٣	الكلام حول آية ٨٥ و ٩٢
٤٠٥	الكلام حول آية ٩٦
٤٠٧	الكلام حول آية ٩٧
٤٠٩	ما قاله السيد عبدالله شبر في تفسيره
٤١٠	ذكر الأخبار الواردة في فضيلة الحج وذم تاركه
٤١١	الكلام حول آية ١٠٠
٤١٤	الكلام حول آية ١٠١
٤١٦	الكلام حول آية ١٠٢
٤١٧	الكلام حول آية ١٠٣
٤٢٠	الكلام حول آية ١٠٤
٤٢٢	الكلام حول آية ١٠٥
٤٢٣	الكلام حول آية ١٠٦
٤٢٤	الكلام حول آية ١٠٧
٤٢٥	الكلام حول آية ١٠٨
٤٢٦	الكلام حول آية ١٠٩
٤٢٨	الكلام حول آية ١١٠

٥٨٩	فهرس المحتويات
٤٣٣	الكلام حول آية ١١٨
٤٣٧	الكلام حول آية ١١٩
٤٤١	الكلام حول آية ١٢٠
٤٤٤	الكلام حول آية ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٢
٤٤٦	الكلام حول آية ١٣٣ و ١٣٤
٤٤٧	ذكر الأخبار العائة على العفو
٤٤٩	ذكر الأخبار العائة على الاحسان
٤٥٠	الكلام حول آية ١٣٥
٤٥٢	ذكر الأخبار العائة على الاستغفار
٤٥٣	الكلام حول آية ١٤٩
٤٥٤	الكلام حول آية ١٧٩
٤٥٨	الكلام حول آية ١٨٠
٤٦٠	ذكر الأخبار الواردة في عقاب تارك الزكاة
٤٦١	الكلام حول آية ١٨٥
٤٦٢	أمير المؤمنين يصف الموت والاستعداد له
٤٦٤	الكلام حول آية ١٨٦
٤٦٥	في من نزلت الآية ٢
٤٦٧	الكلام حول آية ٢٠٠
٤٦٧	ما قاله الفيض الكاشاني في تفسيره

سورة النساء

٤٦٩	الكلام حول آية ١
٤٧١	الكلام حول آية ٢
٤٧١	في معنى الحوب

٤٧٢. الكلام حول آية ٩
٤٧٢. في أن لتفسير الآية أربعة أقوال
٤٧٣. الكلام حول آية ١٠
٤٧٤. الكلام حول آية ١١ و ١٢
٤٧٥. الكلام حول آية ١٣
٤٧٥. ذكر عاقبة من خالف سنن الله وأحكامه
٤٧٦. الكلام حول آية ١٧
٤٧٧. في تعريف التوبة
٤٧٨. في مفهوم «القريب» المذكور في الآية
٤٨٠. الكلام حول آية ١٨
٤٨٠. في الفرق بين التوبة والندم
٤٨٠. ذكر الأخبار الواردة في منزلة التائب
٤٨١. تكملة نافعة
٤٨٣. الكلام حول آية ١٩
٤٨٣. ما ذكر في معنى «الكره»
٤٨٤. ما ذكر في معنى «ولا تعضلوهن» لتذهبن...»
٤٨٦. الكلام حول آية ٢٩
٤٨٧. أربعة يؤذون أهل النار
٤٨٨. ما قيل في قوله تعالى «ولا تقتلوا أنفسكم»
٤٩٠. الكلام حول آية ٣٠
٤٩١. الكلام حول آية ٣١
٤٩٢. الذنوب الكبيرة كما بينها الامام الصادق عليه السلام
٤٩٥. الكلام حول آية ٣٢

٥٩١	فهرس المحتويات
٤٩٥	ما قيل في سبب نزول الآية
٤٩٦	مايستفاد من كلام المفسرين في نزول الآية
٤٩٧	في مفهوم التمني
٤٩٨	الكلام حول آية ٣٣
٤٩٩	الكلام حول آية ٣٤
٥٠٠	في من نزلت الآية؟
٥٠١	أنه يلزم على الزوجة أن تحفظ زوجها في أمرين
٥٠٤	في طرق إعادة المرأة الى الطاعة الزوجية
٥٠٤	ذكر الأخبار الدالة على ذم المرأة العاصية لزوجها
٥٠٩	ذكر الامور التي ليس على المرأة تأديتها
٥١١	في فضيلة حسن التبعل
٥١٢	الكلام حول آية ٣٥
٥١٤	الكلام حول آية ٣٦
٥١٦	ما المقصود من «والوالدين» في الآية؟ وذكر الأخبار الواردة في ذلك
٥١٧	ذكر الأخبار الحاثثة على الاحسان الى اليتيم
٥١٨	في أقسام الجيران وذكر حد الجوار و معنى «الصاحب بالجنب»
٥١٩	من هو ابن السبيل ومن هم المماليك؟
٥٢٠	الكلام حول آية ٣٧
٥٢٠	من المقصود بـ «البخيل» المذكور في الآية
٥٢٢	الكلام حول آية ٣٨ و ٣٩
٥٢٥	بين الامام الصادق عليه السلام وابن أبي العوجاء في ذم كاتم الحديث
٥٢٥	الكلام حول آية ٤٠
٥٢٦	في فضيلة من يجود بنشر الحديث ويحدث به
٥٢٧	الكلام حول آية ٤١

- ٥٢٧ في أن كل نبي يشهد على قومه في يوم القيامة
- ٥٢٩ الكلام حول آية ٤٢
- ٥٢٩ من الذين يتمنون أن تسوى بهم الأرض؟
- ٥٣١ الكلام حول آية ٤٣
- ٥٣٣ ما المقصود من «الصلاة» في الآية؟
- ٥٣٤ الكلام حول آية ٤٤
- ٥٣٦ الكلام حول آية ٤٥
- ٥٣٧ الكلام حول آية ٤٦ و ٤٧
- ٥٣٨ الكلام حول آية ٤٨
- ٥٣٨ في من نزلت الآية؟
- ٥٤٠ الكلام حول آية ٤٩
- ٥٤٠ بين طاووس اليماني وهشام بن عبد الملك
- ٥٤١ ما دل في اختصاص علي بلقب أمير المؤمنين
- ٥٤٣ الكلام حول آية ٥٠
- ٥٤٤ الكلام حول آية ٥١
- ٥٤٤ في من نزلت الآية؟
- ٥٤٥ في معنى «الجبت والطاغوت»
- ٥٤٦ الكلام حول آية ٥٢
- ٥٤٨ الكلام حول آية ٥٣
- ٥٤٨ الكلام حول آية ٥٤
- ٥٤٩ المقصود من «الفضل» المذكور في الآية
- ٥٥٣ فهرس الأحاديث
- ٥٧٩ فهرس المحتويات

تصحيح واعتذار

رغم الجهود التي بذلناها في التصحيح لكي يصدر الكتاب خال من الاخطاء المطبعية فانا لم نوفق لذلك لذا نرجو من القارئ الكريم أن يتفضل بتصحيح الاخطاء المذكورة أدناه قبل البدء بالمطالعة راجين منه السماح ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ص	س	الخطأ	الصواب
٣٠	١	بأجر كم	بأجر كم
٣٦	حاشية (١)	ص ٧٤	ص ٧٦
٧٢	حاشية (١)	ص ٧٤	ص ٧٦
٨٧	٩	ناس	الناس
١٣٠	حاشية (٢)	ب ٥٩١	ب ٥١٠
١٤٩	٢٠	٢٥٧	٢٥٦
١٥٦	٨	ضلال	ظلال
٢٠٤	١٧	وائلة بن الاسفع	وائلة بن الاسفع
٢٧٣	٧	سمت	سمعت
٢٨٣	١٣	ولله	واقه
٢٨٩	١٣	ليست	لست
٣٣٢	١٩	خمساً	خمساً
٣٧٦	٢١	أن	زائدة
٣٩٥	١٤	فصاروا	فصاروا
٤٤١	عنوان الصفحة	تفسير	تفسير

تنبيهات أربع

- ١- راجع عناوين الصفحات التالية : ١٥١ و ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٧ و ١٥٩ و ١٦١ و ١٦٣ و ١٦٥ و تجد أن رقم الآية ٢٥٧ والصحيح هو ٢٥٦ .
- ٢- راجع هامش رقم (٥) من الصفحة ٣٢٨ قد وقع اشتباه فيه والصحيح هو: بحار الانوار ج ٥٢ ص ٣٥٠ ب ٢٧ ح ١٠٣
- ٣- راجع عنوان الصفحة ٣٨٧ تجد أن رقم الآية ٧ والصحيح هو ٧٢ .
- ٤- أرقام الصفحات ٥٨٠ و ٥٨١ و ٥٨٢ طبعت اشتباهاً بالأرقام ٦١٤ و ٦١٥ و ٦١٦ يرجى تصحيحها .